

0015040

العرب

انصاراتهم وأمجاد الإسلام

تأليف
أنثوني ستنج

ترجمة
دكتور راشد البراوي

١٩٧٤

الناشر
مكتبة الأندلس العربية

مقدمة المترجم

حظي تاريخ العرب والإسلام باهتمام كثير من جانب الكتاب الغربيين وخاصة منذ القرن التاسع عشر ، وأخرجت المطابع الغربية أعداداً كبيرة من الأبحاث والدراسات والمؤلفات التي تتناول هذا التاريخ في صورته العامة ، أو تركز على ناحية منه أو أخرى . وإذا كان فريق منهم قد أعماه التعصب أو الحقد لأسباب دينية أو عنصرية ، فخرج على قواعد الحق في العرض والتحليل والاستنباط ، فإن هناك كثيرين غيرهم إتصفوا بالنزاهة إلى حد غير قليل ، ومن هؤلاء الآخرين أنتوني نتنج الذي تقدم كتابه الحالي إلى القارئ من أبناء الوطن العربي . ولقد زاد من قوة دافعنا على ترجمة هذا الكتاب أن مؤلفه كان له موقف خليق بالتسجيل ، حيث استقال من وزارة أنتوني إيدن . احتجاجاً على العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦ .

اتبع المؤلف في كتابه هذا منهجاً طويلاً وله مغزاه ، ذلك أنه اتخذ من بعض الشخصيات العربية والإسلامية محاور دارت حولها أحداث ضخمة مر بها العالم العربي ، كانت تشكل علامات بارزة على طريق التطور . ليس معنى هذا أنه يجعل الفرد هو صانع التاريخ فحسب ، ولكنه يبرز العوامل السياسية والاقتصادية والفكرية التي تفاعلت مع هذه الشخصيات وأسهمت في صنع الأحداث .

وهنا ملاحظة ينبغي تسجيلها . كان كتاب التاريخ العربي طيلة القرون الأربعة عشر الماضية ، يزرخ بصفحات مضيئة ومشرقة ، مليئة بالإنجازات والبطولات والأعجاد في مختلف الميادين وشتى المجالات . فما من شك أولاً وقبل كل شيء أن بعثة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، كانت نقطة تحول

(ب)

بالغة الأهمية في تاريخ البشرية ، وبداية مرحلة حضارية لها عقيدتها السامية ، ومبادئها ، وقيمها ، وأخلاقياتها التقدمية المنبثقة عن الدين الجديد . فعلى أيدي الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من بني أمية وبني العباس ، أصبحت المثل العليا التي جاء بها الإسلام في أمور السياسة ، والحكم ، والاقتصاد ، والاجتماع ، قاعدة أعيد عليها بناء مجتمعات عريضة وعريقة في آسيا وأفريقية كانت قد هوت إلى درك التدهور والانحلال السياسي والاجتماعي . وبفضل جهود أولى الأمر المسلمين وتشجيعهم نقلت علوم الأقدمين إلى العربية ثم زاد عليها العلماء العرب وطوروها ، وهكذا أسهم العالم الإسلامي إسهاماً ضخماً وفعالاً في إرساء أسس حضارة الغرب .

ولكن ، إذا كنا نجد - مثلاً - عمر بن الخطاب بسبب سياسته المستنيرة العادلة في معاملة أهل الكتاب وفي حكم الأقاليم التي دخلت في نطاق الدولة العربية الإسلامية ، ونقدر الدور الذي لعبه معاوية بن أبي سفيان ثم الوليد ابن عبد الملك في مدرواق الحضارة الإسلامية حتى بلغت الهند شرقاً وأسبانيا غرباً ، ونعتز بأمثال صلاح الدين الذي وحد العرب وأوقف الاستعمار الصليبي الغربي وأجبره على أن يبدأ في أن يحمل عصاه ويرحل ، ويبيوس الذي صد الاعصار المغولي المدمر فأنقذ الحضارة في الشرق والغرب على حد سواء ، إلا أننا لا ننكر ولا يمكن أن ننكر ، أن بعض الحكام أو عمالهم في الأمصار لم يلتزموا تماماً بما أمر الله به أن يتبع ، وأن فرقاً عدة ظهرت من حين لآخر تخفي تحت شعار الدين أحقاداً شعوبية وأطماعاً سياسية ، فكانت من معاول المدمر أو أدوات التخريب . إن التاريخ لا يمكن أن يكون أبيض تماماً أو أسود تماماً . والتاريخ العربي لا يشذ عن هذه القاعدة .

وثمة ملاحظة ثانية لها أهميتها تتعلق بموقف الأجانب الذين كتبوا

(ح)

عن العرب والإسلام . ف هؤلاء مهما حرصوا على الموضوعية أو اتسموا بالنزاهة والإنصاف في كتاباتهم . أو أبدوا الإعجاب بالمنجزات ، فعلياً أن ندرك فوق كل شيء أنهم ليسوا عرباً وليسوا مسلمين .

هذه الحقيقة تنطبق بطبيعة الحال على أتوني نتج . مامن شك أن الرجل أقر للعرب وللإسلام بالفضل في أكثر من ناحية ، وتناول حياة الكثير من الشخصيات بالعرض والتحليل اللذين يمتازان بالدقة . ولكنه في الوقت نفسه ينتع إلى شعب أجنبي . وإلى بلد لعب دوراً كبيراً في فرض سيطرته على الكثير من بلاد العرب والإسلام . وأهم من هذا كما قلنا إنه ليس مسلماً . ولهذا الجانب الديني أهميته من نواح عدة ، في مقدمتها أنه عندما يتحدث عن نبي الإسلام فهو يتحدث عنه باعتباره شخصية تاريخية بارزة أو بطلاً تاريخياً إن شئنا التعبير وليس رسولاً يوحى إليه ، بعثه الله هادياً ومبشراً ونذيراً .

١٦٤

هذه النظرة يمكن أن تفسر الكثير من الأفكار والملاحظات والتعبيرات التي تضمنها مثلاً الفصل المعقود عن الرسول . لهذا فمن الطبيعي أن يذكر المؤلف اسم « محمد » غير مقرون بصيغة « صلى الله عليه وسلم » مثلاً ، على نحو ما يفعل الكتاب المسلمون . كذلك يقول (ص ٣٠) إنه « إكراماً لليهود جعل النبي من بيت المقدس قبلة » ، بينما الواقع أن اختيار بيت المقدس ثم التحول عنها لم يكن « إكراماً » لفريق من أهل الكتاب دون فريق آخر ، وإنما كان ذلك أمراً إلهياً . عن ابن عمر رضى الله عنه أنه « بينما الناس بقاء في صلاة الصبح إذ أتاهم آت فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه قرآن الليلة وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة » (مسند أحمد بن حنبل ، ج ٢ ، ص ١١٣) .

وعندما يؤكد المؤلف أن الرسول صلوات الله عليه التقى بجماعة من

(د)

حجاج يثرب « يقول انهم » بعد أن عادوا إلى ديارهم أقنعوا يهود مدينتهم أن محمداً هو المسيح المنتظر » (ص ١٩/٢٨) . ويبدو أن المؤلف استنتج هذا من الرواية التي ذكرها ابن هشام عن ربهط من الخزرج لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمهم وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن « وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم .. فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : أن نبياً مبعوث الآن ، قد أظل زمانه » (السيرة النبوية، طبعة الحلبي ، المجلد الأول ص ٤٢٨/٤٢٩) . أما الإشارة إلى محمد بأنه المسيح المنتظر ، فراجعة إلى ما كان اليهود يتوقعونه .

ومن الأخطاء التي وقع فيها المؤلف قوله مثلاً (ص ٣٨) : « ان إصرار محمد على فضائل الإحسان والكرم ليبين كم استعار نبي الإسلام من المسيحية » . المعروف أن الأديان السماوية تتضمن أصولاً أو مبادئ أساسية بعضها خاص بالعبادات والبعض الآخر يتعلق بالمعاملات ، ومن ثم لا معنى للزعم بأن الإسلام استعار هذا الشيء أو ذاك من المسيحية ، أو أن المسيحية نفسها استعارته من اليهودية . ذلك أن من الطبيعي أن تحض الأديان جميعاً على فضائل الإحسان والكرم ، وبعبارة أخرى تقول إن أمثال هذه الفضائل مشتركة لأن مصدرها واحد هو الله عز وجل .

ونظرة المؤلف التي أشرنا إليها ، تلون بعض تعليقاته . ومع كل ، يحدثنا عبد الله بن عباس (مسند ابن حنبل ، ج ١ ، ص ٢٨٧) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء . ومنه أيضاً (شرحه ص ٢٩١) أنه لما قدم الرسول المدينة رأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال ما هذا اليوم الذي تصومون فقالوا هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله بنى إسرائيل من عدوهم قالوا فصامه موسى قال رسول الله أنا

(٨)

أحق بموسى منكم ، قال فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصومه .
وهذه النظرة أيضاً تلون بعض ملاحظاته ، فيقول مثلاً إن الرسول صلى الله عليه
وسلم «عقد زيجتين سياسيتين» : أولاهما بخالة خالد ، والأخرى بابنة عدوه
الأكبر أبي سفيان (ص ٣٦ / ٣٧) . وهذا رأى غريب فالرسول لم يقصد من
وراء هذا أن يحصل على أية ميزة كانت ، سياسية أو اجتماعية مثلاً ، فظروف
اعتناق خالد الإسلام معروفة ولا علاقة لها إطلاقاً بهذه الزيجة ، كما أن أبا
سفيان ظل خصماً لدوداً للرسول إلى أن تم فتح مكة . إن النبي تزوج بأمة حبيبة
بنت أبي سفيان حيث تنصر زوجها بالحبيشة وأصبحت وحيدة ، وأبوها
وأخوها مشركان . وبرغم المصاهرة التي قد يحاول الكتاب الغربيون أن
يخرجوها من إطارها العادى وأن يكسبوها حجماً أكبر من حجمها الحقيقى ،
فما كان محمد - المبعوث من قبل الله - ليعتمد فى نجاح رسالته السماوية على
شخص معين أو على مصاهرة مع بيت معين من بيوت قريش . وعلينا أن
نتذكر أنه « لم يكن بطن من قريش إلا لرسول الله فيه قرابة »^(١) .

وفى محاولة لنفى العصمة عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وفى وضع التأكيد
على أنه بشر ، يستخدم المؤلف تعبيرات قد يتجاوز عنها القارىء الغربى
ويراها مؤدية الغرض المتوخى ، ومن قبيل هذا قوله عن النبي أنه « لم يجعل
من الاعتراف بنقاط ضعفه بل ومن كشفها علانية » (ص ٤٤) . ربما كان
التعبير الأصح أو الأدق هو أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يجد غضاضة أو
حرجاً بدلاً من « لم يجعل » .

إن النبي لم يقل أبداً أنه معصوم ، ومصدق هذا مثلاً قول الله عز وجل
« عبس وتولى أن جاءه الأعمى » . والسكن الذى تشير إليه هذه الآية أو

(١) مسند أحمد بن حنبل ، ج ١ ، ص ٢٢٩ .

(و)

غيرها شيء ، والكلام عن « نقاط ضعفه » شيء آخر إذ يمكن أن يسىء
ذوو النية السيئة فهم هذا التعبير .

وعندما يقول الكاتب: « كان نفوذه على قلوب العرب وعقولهم شخصيا »
(ص ٤٣) ، فهذا أمر طبيعي ومفهوم ، وإن كان هذا النفوذ الشخصى مستمد
من الرسالة السماوية التى كان يبشر بها باعتباره رسول الله .

هناك نظريات عدة فى تفسير التاريخ . فالنظرية القديمة كانت ترى أن
الفرد هو صانع التاريخ . وثمت مؤلفون وضعوا التأكيد كله أو معظمه على
العوامل الروحية ، بينما يجعل آخرون الأولوية للعامل المادى أو العامل الإقتصادى
بعبارة أخرى . أما الإسلام فنظورته أوسع وأشمل ، إذ يجعل لكل من العوامل
الروحية والاقتصادية والسياسية والشخصية دورها . وهنا نسأل : ماموقف
المؤلف من هذه الاتجاهات ؟ يقول (ص ٦٩) : « كان الجانب الأكبر من
الجيوش العربية يتكون من قبائل لم تكن العقيدة الإسلامية قد تغلغلت فى
أعماقها ، ولم تكن بالتأكيد لتخرج من أراضيها التقليدية بمجرد الخروج وإيقاد
أرواح أبناء عمومهم العرب من أسارى الشرك والكفر . . . الذى أخرج
القبائل ودفع الجيوش العربية إلى غزو أراض تتجاوز حدود بلادهم ، كان
الحاجة إلى مجال حيوى ، أو بعبارة أدق ، الحاجة إلى مجال للعيش » . من
هذا يتضح أن المؤلف يأخذ بالتفسير المادى للتاريخ وهو يحاول بيان العوامل
السكامنة وراء الفتوح الإسلامية . لقد كانت الرغبة فى نشر الدين العامل
الرئيسى ولكنه يرى أن هذا العامل لم تسكن له الغلبة أو الأولوية ، إذ يعتقد
أنه لم يكن قد انقضى وقت كاف على اعتناق القبائل العربية للإسلام ، ومن
ثم فمن رأيه أن البحث عن مجال للعيش كان أقوى الدوافع على عمليات الفتح .
قد يخالف مع الكاتب ولكن التفسير الإقتصادى للتاريخ يمثل مدرسة فكرية

(٥)

واسعة الانتشار وتلقى التقدير الكبير ؛ كما أن تركيز الكاتب عليه في تفسير الفتوح ، لا يمس الإسلام أو العرب على الإطلاق أو ينتقص منهم .

ومن أسباب الأخطاء التي وقع فيها الكاتب وغالباً ما يكون هذا بحسن نية أو على الأقل بغير نية سيئة ، افتقاره إلى المعرفة الكافية بالشريعة الإسلامية ، ومن هنا نراه يقول (ص ١٣٧) : « ربما لأن الشريعة الإسلامية أباحت تعدد الزوجات ولم تجعل الطلاق ممكناً فحسب ولكن سهلت الحصول عليه » . لو كان المؤلف على علم دقيق لما سائر مؤلفين غيره في هذه الفكرة ، فالإسلام إنما نظم الزواج ، وإذا كان قد أباح تعدد الزوجات لاعتبارات تتصل بمصالح المجتمع بل ولصالح نظام الأسرة نفسه ، فهو في الوقت ذاته أحاط هذا الأمر بقييد شديد هو العدل بأوسع معانيه ، كما أحاط الطلاق بالقيود التي تجعل الحصول عليه عسيراً أو تجعله أبغض الأشياء إلى الله — فإذا أساء البعض استخدام هذه الرخصة فالعيب فيهم وليس الإسلام بمسئول عن هذا .

ويقول المؤلف (ص ١٨٤) : « فبسبب ما قضى النبي من أن النساء اللائي يؤسرن من الكفار يصبحن ملك يمين فإن الألوف من النساء والفتيات جرى استيرادهن ليملأن حريم الأجيال المتعاقبة من الفاتحين العرب » . هذا الرأي أو الحكم لا سند له من الكتاب أو السنة . إن السبى لم يكن من خلق الإسلام ولكن كان موجوداً من أقدم العصور وكانت تمارسه مختلف المجتمعات بوصفه من غنائم الحرب . ومع كل فإننا نرى الكاتب يقول عن الشريعة الإسلامية . « وأباح للرجل أن يقتنى أى عدد من الأماء والجواري بشرط أن يحسن معاملتهن ويرعاهن كأنهن من أهل بيته » ولعل الكاتب استخلص رأيه هذا من الحكم الذي أصدره سعد بن عباد ، بشأن يهود بنى قريظة وكان مما قضى به « أن تسبى الذراري والنساء » جزاء لهم على خيانتهم

(ح)

وغدروهم ابن هشام (، السيرة ، المجلد الثاني ، ص ٢٤٠) ونزلوا على الحكم مما يدل على أنه كان أسلوباً مألوفاً في العالم قبل مجيء الإسلام .

وثمة ألفاظ أو تعبيرات قد لا تألفها أذن القارئ العربي . فالكاتب مثلاً يتحدث عن « حوارى » الرسول بدلاً من « الصحابة » ولكن المعنى واحد تقريباً ، ويؤثر عنه صلى الله عليه وسلم قوله أن لكل نبي حوارى وأن حواريه هو الزبير بن العوام .

ومن هذه التعبيرات أيضاً ما جاء في صفحة ٤٩ عن عمر بن الخطاب « حماسه المتعصب » ، والواضح أنه لا يقصد التعصب بالمعنى الرذول وإنما يصف هذا الحماس بأنه شديد لا هوادة فيه ، ولعل الوصف الذى استخدمه المؤلف أدق . كذلك يدخل في هذا النطاق قوله (ص ٥٥) : « ما اتصف به خالد من البرود » والبرود هنا معناه الثبات وهـدوء الأعصاب . وكثيراً ما يردد الكاتب كلمة « الفزاة » المسلمين (ص ٥٨ مثلاً) والمراد بها الفاتحون . وبما هو غير مألوف كذلك تعبير « المدارس الكنسية » (ص ٦٦) ويعنى بها المدارس الدينية أو الكتاتيب كما عرفت في عصور متأخرة ، ولا شك أن الكتاب متأثر بما كان موجوداً في العالم المسيحي في العصور الوسطى من هذا النوع من المؤسسات .

نعلم أن عمال عمر بن عبدالعزيز في الأمصار شكوا إليه من أن الإيرادات لا تكفى لتسيير أمور الدولة نظراً لكثرة حالات الدخول في الإسلام ، وهنا يقول الكاتب (ص ٧٠) : « أما في الأقاليم الشمالية فكانت عملية التحويل إلى الإسلام يسيرة نسبياً في أوائل مراحل الفتوح العربية ويبدو كما لو كان الخلفاء تعمدوا تشجيع الكفار على البقاء على كفرهم حتى يتسنى جباية الضرائب منهم لبيت المال » . وهنا يجب أن نلاحظ أن الإسلام لم يدع أبداً

(ط)

إلى استخدام القوة أو القسر لحل الناس على اعتناقه ، إذن لم يعتمد الخلفاء إبقاء الكبار على كفرهم وإنما استرشدوا في سياستهم بتعاليم دينهم السخاء .
وفضلاً عن هذا ، فإن أهل الأقاليم الشمالية كانوا من أهل الكتاب ولم يكونوا من الكفار . أما أن عمر بن الخطاب أمر بإخراج جميع اليهود والنصارى من شبه الجزيرة العربية فإن النبي نفسه أوصى ألا يكون فيها دينان . عن سعد بن أبي وقاص : آخر ما تكلم به النبي أخرجوا يهود الحجاز ، وأهل نجران من جزيرة العرب (ابن حنبل ، ج ١ ص ١٩٥) . وفضلاً عن هذا ، ما كان غدر اليهود إبان حياة الرسول لينسأه المسلمون ، وفي استمرار وجودهم قدر من الخطر في بلد حديث العهد بالدين الجديد .

من هذا يتضح أن إجلاء اليهود والنصارى من شبه الجزيرة العربية كان لضرورة عليا يقدرها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومات قبل أن ينفذه ، فكان لزاماً على خلفائه أن يعملوا بما أوصى به . وإذن لا معنى للحديث عن « التفرقة العنصرية » التي هي أبغض الأشياء إلى الإسلام ، وها هو ذا النبي يعلن أنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى .

ويعود الكاتب إلى هذه الفكرة فيحدثنا (ص ٧٣) أن سيلا من المهاجرين العرب راح يتدفق على البلاد المفتوحة ويشارك مع الجيوش العربية في الاستيلاء على أراضي الفلاحين من أهلها . ثم يقول « .. تحول مبدأ العنصرية الذي يقوم عليه دستور عمر إلى عبودية .. إن فكرة عمر الأساسية عن تفوق المسلمين والعرب .. »

نلاحظ أولاً : أنه إذا كان بعض العرب قد تملكوا أرضاً في البلاد المفتوحة ، فهذه كانت الأرض التي مات عنها أهلها أو هجروها فآلت إلى بيت المال ، ومن ثم لم تنتزع من أيدي أصحابها .

(ى)

وثانياً ، فإذا استثنينا الجزية فإن أهل البلاد المفتوحة كانوا يعتبرون مواطنين من الدرجة الأولى ولم يكن تمت فرق بينهم وبين العرب المسلمين . وإذن فدستور عمر لا يفرض أية تفرقة عنصرية ، ولم يقم على فكرة وجود تفوق حتمى ، ذلك أن الإسلام يضع معايير للتفاوت ليس من بينها الجنس أو اللون أو ما أشبه هذا من الإعتبارات .

ربما كان المؤلف شديداً نوعاً في أحكامه على عثمان بن عفان ، فوصفه مرة بأنه كان « محدث نعمة ومسنا » (٨١٩) ثم قال فى موضع آخر « كانت الخمر والنساء والشعر طابع عهد عثمان » وإن كانت العبارة الأخيرة لا تلمس الخليفة شخصياً . ومع كل ، فالكاتب يعتبر أخف بكثير فى أحكامه مما كان خصوم عثمان يوجهونه إليه وما كانوا يأخذونه عليه فى سياسته وتصرفاته .

ويبدو أيضاً أن الكاتب ليس ممن يؤمنون بالحل الوسط وإنما يفضل الحسم فى اتخاذ القرارات ، ومن هنا نراه بعزو ما أصاب على بن أبى طالب ، إلى التراخي والتهاون (ص ٨٩) . قد يكون فى هذا رأى قدر من المبالغة فى التصوير والتفسير ، ولكنه وجهة نظر بناها الكاتب على الظروف والأحداث والتصرفات التى أدت إلى النهاية المفجعة التى ختمت بها حياة رابع الخلفاء الراشدين . ولعل المؤلف اعتمد على موقف الجماعة الذين اشتبك معهم على رضى الله عنه فى وقعة الجمل ، وعلى عدم تمسكه برأيه عندما طلب منه بعض رجاله الاستجابة إلى ما طلبه رجال معاوية أثناء وقعة صفين من تحكيم القرآن .

قد يتراءى للبعض أن الكاتب متحامل على الحسن بن على ، إذ يقول : « من تنازل (أى الحسن) على الفور لمعاوية الذى بعث إليه بصحيفة ببيعة وكتب إليه أن اشترط فى هذه الصحيفة التى ختمت أسفلها ما شئت فهولك .

(ك)

لم ينجل الحسن من أن يطلب ويشرط في رده أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف درهم، وعندئذ وقد وضع في جيبه مكاسب لا يستحقها». ان قصة الصحيفة صحيحة أوردها المؤرخون العرب، ولكنها في الواقع نوع من الترضية، كما أن المبلغ جنب العالم الإسلامي المزيد من الحرب والفتنة.

ويلاحظ أن معاوية هو الذي تقدم بالعرض، ومن ثم لا معنى للقول بأن الحسن، «لم ينجل» أو أنه «وضع في جيبه مكاسب لا يستحقها».

ومن العبارات التي تكررت عبارة «الزندقة الشيعية» (ص ٢٢١، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥٣، مثلاً). التعبير ليس غريباً أو متعسفاً لأننا نلتقاء في مؤلفات كتب أهل السنة في تلك العصور، فالشهرستاني في «الملل والنحل» والبغدادى في «الفرق بين الفرق» والأشعري في «مقالات الإسلاميين» وابن النديم في «الفهرست» يتحدثون عن فرق من قبيل الشيعة والخوارج الخ باعتبارهم من أصحاب الضلالات أو من الزنادقة.

ويقول المؤلف «وهكذا انسحب العرب إلى الصحراء وهم على استعداد لأن يسيروا وراء أى خارج على القانون» يناشد حبه الفطرى للسب والتمرد والغزو. (ص ٢٠٦). من المؤكد أنه لا يقصد «العرب» بالمعنى العلمى، وإنما يقصد «الأعراب» الذين وصفهم القرآن بأنهم أشد كفراً ونفاقاً. ولعل الكتاب متأثر في هذا ببعض ما كتبه ابن خلدون في هذا الشأن.

وينبغى ان نلاحظ أنه عندما يكتب المؤلف «لجاز أن يفقد الإسلام روحه الحربية» (ص ٢٣٥) فهو يعنى «العالم الإسلامى». وعند ما يشبه «السيدة سكينة بنت الحسين الذى مات شهيداً» بالسيدات اللاتى اشتهرن في بلاط لويس الخامس عشر ملك فرنسا (ص ١٣٣)، فيخيل إلينا أن هذه الملاحظة العابرة من جانب كاتب غربي لا يقصد بها الانتقاص من السيدة

(ل)

سكينة وإنما هو يريد أن يصفها بالذكاء والفراصة والمواهب والنفوذ وهي الصفات التي كانت تتميز بها نساء ممتازات في بلاط الملك الفرنسي .
كما أنه يريد أن يصفها أيضاً بالبيرالية وعدم التزمّت برغم أنها كانت بنت « الحسين الذي مات شهيداً » .

وعندما يذكر الكاتب ان صلاح الدين كان مصمماً على قتل شاور (ص ٢٤٦) وأنه قتل حاكم الكرك الصليبي (٢٥٨) فلسنا نجد في هذا إلا عرضاً موجزاً لعقاب هو أقل مما كان يستحقه هذان الغادران اللذان أسهب الكاتب في بيان تصرفاتهما وخاصة جرائم الثاني منهما ، وهذه حوادث فردية تافهة إذا قيست بما ذكره المؤلف عن تصرفات صلاح الدين الأخرى الإنسانية .
وإذا كان زنكى استولى على بعلبك حيث أعدم الحامية بعد أن أمنهم على حياتهم (ص ٢٤٠) ، أو أن بيبرس قتل حامية صفد بعد استسلامها (٢٧٤) فلنكنى نكون منصفين ينبغي ألا ننسى أنه كانت هناك الاعتبارات الاستراتيجية في وقت كان الصليبيون يحتلون فيه أرضاً إسلامية . وعلينا أن نذكر في الوقت نفسه ما كتبه المؤلف أو ما نقله عن مصادر أخرى ، عن الفظائع الرهيبة التي ارتكبتها الصليبيون والمغول ، ووصفها ودمغها بما تستحقه من تنديد واستنكار .

أما ان بيبرس كان يدعو إلى كراهية المسيحيين بسبب تحالفهم غير المقدس مع هولاء (ص ٢٥٧) فيجب أن يؤخذ هذا في إطار الحديث كله ، وعلى أنه يشير إلى تعاون حكام أرمينية المسيحيين مع هولاء الوثنى .
وأشار المؤلف إلى رسالة بيبرس (٢٧٥) وهو في هذا يستند إلى مراجع تاريخية ومع كل فطابع المبالغة واضح لأن بيبرس لم يفعل شيئاً مما ورد في

(م)

رسائله المزعومة ، ولكن كلامه هذا كان نوعا من حرب الأعصاب وهذا أسلوب مقبول في ظروف الحرب في كافة العصور .

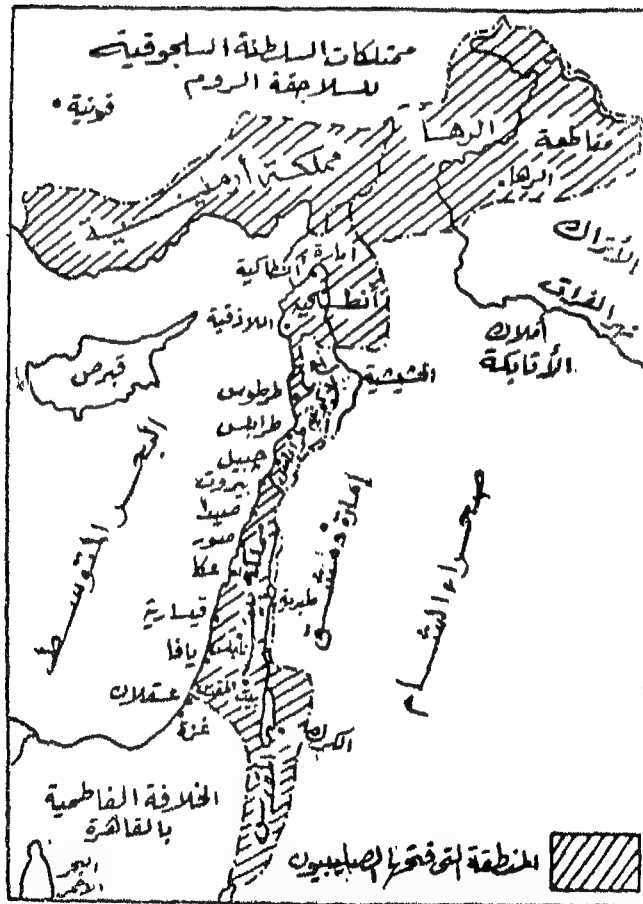
وفي دهشة من السرعة التي تمت بها الثورة العباسية وهي سرعة ربما تفوق مثيلاتها في القرن العشرين حيث البرق والراديو يساعدان سرعة المواصلات . يقول الكاتب « إننا الآن » أصبحنا متعودين على انقلابات خاطفة في العالم العربي يستولى فيها الثوار على محطة الإذاعة ويعلنون أن الثورة تمت حتى قبل أن تبدأ » . وليس هذا بالأمر الغريب وأما ما حدث على أيدي حسنى الزعيم والحناوى وعبد الكريم قاسم ، وهو غير مقصور على العالم العربي بل نجد له أمثلة عديدة في أمريكا اللاتينية وأفريقية . وهذه الانقلابات تختلف عن الثورات التي تنشب بسبب تراكم عوامل سياسية واقتصادية ويكون لها أهداف ومضامين اجتماعية .

هذه ملاحظات على بعض مآخذ قد نأخذها على كتاب اتتوني نتيج تضاف إلى غيرها مما أوردناه في الحواشي كلها وجدنا هذا ضروريا . إذا كانت الأمانة في الترجمة تفرض نقل النص الأصلي دون تحريف ، فالأمانة بالنسبة إلى التاريخ والحقيقة تفرض أيضا التعقيب ومناقشة أفكار الكاتب وآرائه . ومع كل ، فهذه المآخذ كما ندعوها لا تقلل على الإطلاق من نزاهة الكاتب ومن عرضه الرائع للأحداث التي شهدتها العالم العربي منذ مقدم الإسلام ، كما أنها لا تنتقص أبداً من قيمة الكتاب الذي يسرنا أن نقدمه إلى إخواننا وأبنائنا في العالم العربي والإسلامي ؛ فالواقع أنه من المؤلفات القلائل التي تظهر تاريخنا في ضوءه الحقيقي ، ويثبت في وضوح وجلاء أن هناك كتابا ليسوا عربا ولا من المسلمين ولكنهم يعترفون في صراحة بإنجازات وأمجاد العرب والمسلمين .

(ن)

ونحن إذ نقدم هذه القصة أو الملحمة العربية الإسلامية في ثوبها العربي ،
نسأل الله التوفيق في خدمة وطننا العربي والإسلامي الذي نعتز به ونثق أنه
سوف يستعيد حتما ما كان له من دور مؤثر على امتداد أربعة عشر قرنا .
القاهرة في أكتوبر ١٩٧٤

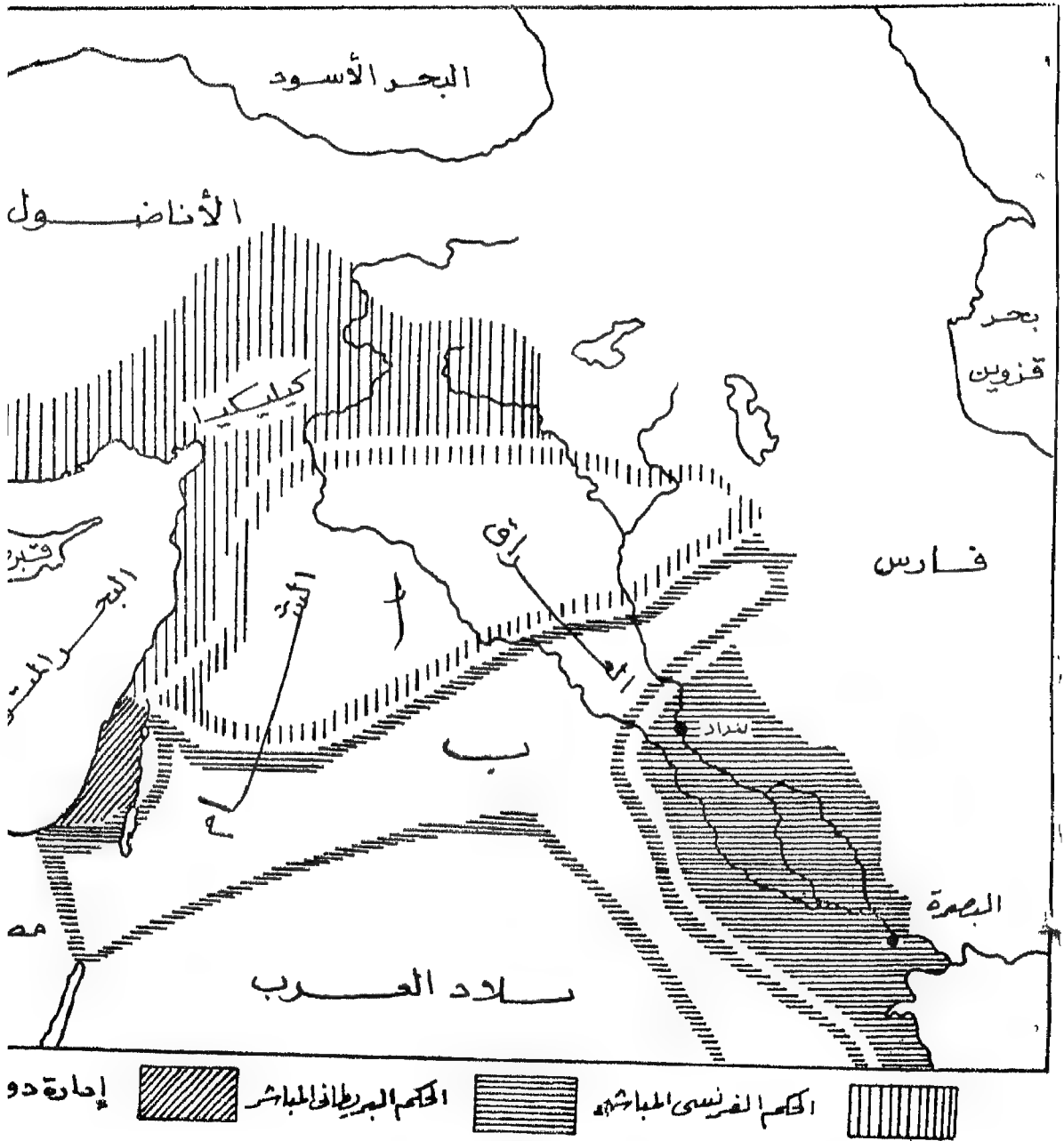
راشد البراوي

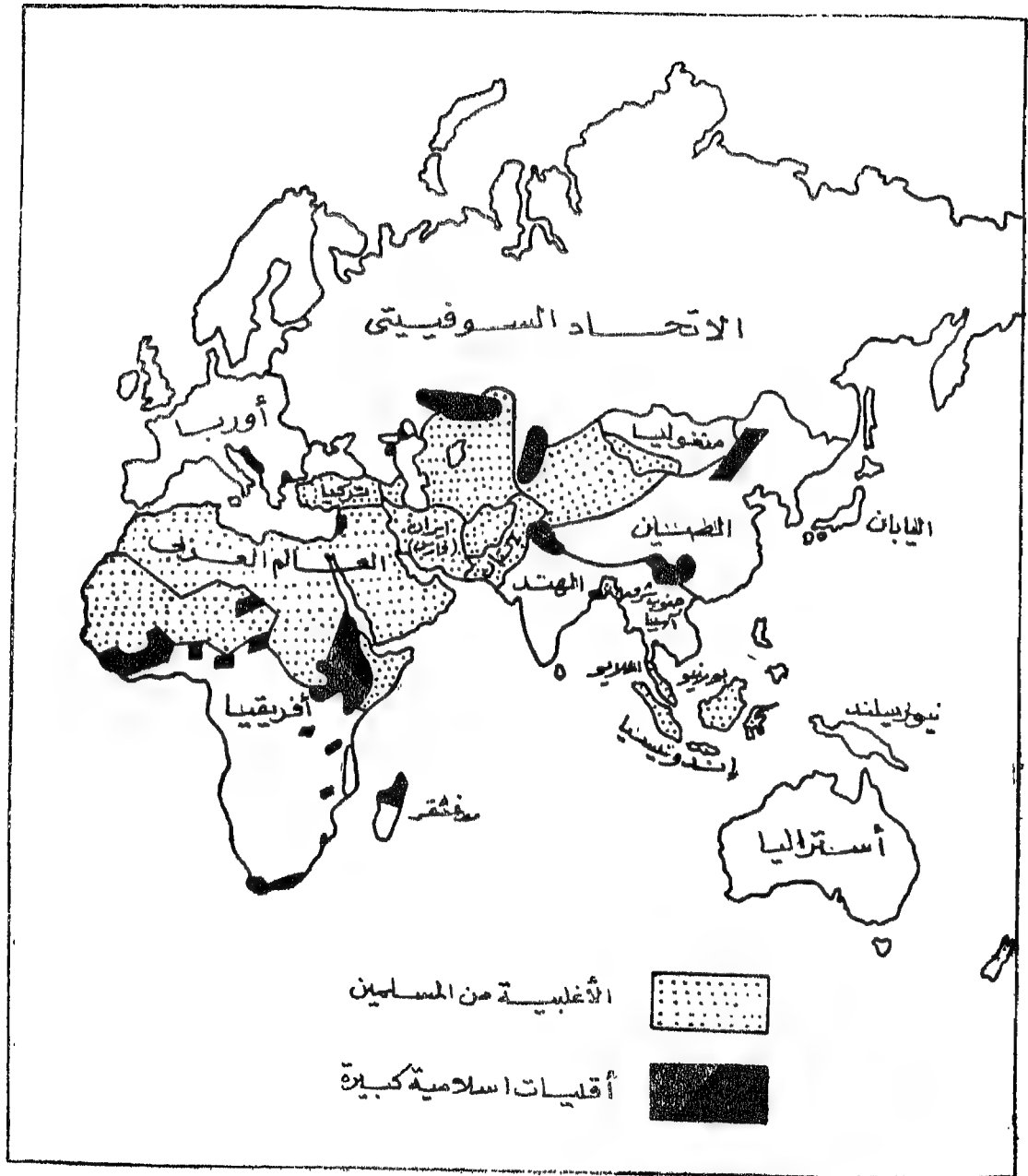


الإمبراطورية العثمانية. قيامها وسقوطها ، وتبين عدوان
القوى الأوروبية فيما بين عامي ١٨٠٠ و ١٩٢٠



تقسيم العراق وسوريا طبقاً
لإتفاق سايكس - بيكو





الجزء الأول عصر الفتوح

الفصل الأول

العالم العربي قبل الاسلام

يصنع الناس التاريخ بأكثر مما يصنع التاريخ الناس . ولكن لا يمكن أن يكون هناك جنس أو شعب تاريخه أكثر ارتباطاً بالأشخاص من تاريخ العرب . فعلى امتداد أربعة عشر قرناً تقريباً منذ مقدم النبي محمد تتكشف قصة العالم العربي كسلسلة جبلية طويلة ، تحلق فيها قمم من الغزو والقوة تمثل الشخصيات التاريخية العظيمة — من أمثال خالد بن الوليد وصلاح الدين وعبد الرحمن وبيبرس ومحمد علي وناصر — ونلقى بين القمم أخاديد وأودية شديدة الانحدار تبين التدهور الشديد المفاجيء بعد أن تكون كل شخصية عظيمة قد غادرت المسرح . لقد تعاقبت على حكم العالم العربي ، على مر القرون وبصورة جزئية أو كلية، أسر مختلفة — الأمويون والعباسيون والفاطميون والأيوبيون والمماليك والعثمانيون وأسرة محمد علي، ثم كان الهاشميون أحدثهم عهداً . وفي انتظام كامل كان مؤسس كل أسرة يقطع لنفسه امبراطورية يفقدها ورثته وخلفاؤه عاجلاً أو آجلاً ، ثم يأتي بعد ذلك زعيم جديد أو يبتدئ جديد ليكرر العملية .

هذا النمط من الانجاز العظيم والانحلال الشديد استمر في العالم العربي منذ أتاح قيام الإسلام لأتباع محمد عقيدة فضالية يخرجون بها من بلاد العرب في القرن السابع الميلادي ويفتحون فلسطين ومصر والشام والعراق . في أول الأمر ، وبعد أن أخفق بنو أمية المحاربون في خنق الإسلام ولما يزل في المهد ، دخلوا في الدين الجديد وانتزعوا السلطة من خلفاء محمد . وبعد أن تقلوا الخلافة

من مكة إلى دمشق اجتاحوا آسيا وأفريقية وأوربا لينبؤوا أكبر امبراطورية في تاريخ العالم ، تمتد من منغوليا إلى مراکش ، ومن عدن إلى جبال البرانس . وفجأة انتقل مركز القوة إلى العراق لما أنزل بنو العباس من آل محمد انتقامهم الرهيب بالأمويين وكادوا أن يمحوهم من الوجود . ولكن ، بعد أن اصرف العباسيون عن بناء الامبراطوريات ليغلقوا في بغداد مركزاً للثقافة والفخامة لم يكن له منافس في ذلك العصر ، لانت طباع العرب بفعل الترف والغنى ولم يعودوا أنداداً للفاطميين الذين خلفوهم في مصر ، وكانوا أقل من ند للصليبيين الذين فتحوا فلسطين ، أو لجحافل المغول بقيادة هولاكو وتيمورلنك الذين سحقوهم في فارس والعراق والشام .

وحطم صلاح الدين وأسرته الأيوبية بدورهم الفاطميين وحرروا فلسطين والشام من الصليبيين الغزاة . ولكن حتى امبراطورية صلاح الدين الكبيرة تمزقت بفعل المنازعات بين خلفائه وسقطت في أيدي المماليك .

كانت مصر قد أصبحت الآن المركز الجديد للنفوذ والعلم العربيين ولكن هذا لم يكن كافياً لصد التيار التالي من الغزو عندما انقض الأتراك العثمانيون من الأناضول وبسطوا سلطانهم على العرب من دجلة إلى النيل وما وراءه . وترك لحمد على الضابط في فرقة ألبانية بالجيش العثماني ، أن يرفع راية الثورة ضد السيطرة التركية ، كما ترك لمجموعة من العرب المسيحيين بالشام أن يوقظوا من جديد العالم العربي من رقاده الطويل في ظل الحكم العثماني . وخلال الحرب العالمية الأولى انتزع البيت الهاشمي الذي أسسه الحسين شريف مكة ، الاستقلال من الامبراطورية التركية المتداعية . ولكن بعد أن كانت بداية هذه الأسرة تبشر بالآمال وقعت ضحية للمؤامرات الانجليزية - الفرنسية . ولأطاع قوة حديثة النشأة هي الملك ابن سعود صاحب نجد الواقعة في وسط

شبه الجزيرة العربية . من الأسرة الهاشمية المتكبرة يتبقى ملك شاب وحيد في الأردن يستمد إلى حد كبير قوته من الانقسامات في صفوف منافسيه وجيرانه ، بينما قومية عربية ثورية جديدة نادى بها نبي سياسي جديد هو جمال عبدالناصر ، تغلغل بقوة كالنار في مشاعر الجيش العربي . إن الفصول التالية لا تحاول تفسير هذا التاريخ الطويل والحاسي بالتفصيل ، بقدر ما تحاول أن ترسم الشخصيات الطيبة والريثة ، والشهيرة والمشيئة ، التي ساعدت على صنعه . هذه الفصول ليست سجلاً للأحداث بقدر ما هي متحف يضم صور الشخصيات التي جعلت الأحداث شيئاً محتملاً .

نظراً لعدم وجود كتابات مدعومة بالمستندات قبل أن أنتج الرومان نبات البردي في مصر ، اقتصر التاريخ العربي في أوائل عهده على الروايات والأمثال والقصائد التي تناقلتها الألسنة شفاهاً ولم تسجل على الورق ، وذلك طيلة مئات السنين بعد الأحداث التي كانت هذه الأشياء تشير إليها . ولكن المحاولات الناجحة في القرن التاسع عشر في فك رموز الكتابات التي تعود إلى العصر السابق على ظهور المسيحية ، كشفت عن تشابه بين لغات البابليين والآشوريين والآراميين والسكندانيين والفينيقيين والمعموريين والعبرانيين والعرب والأحباش ، وهو تشابه ملفت للنظر بحيث يوحى بأن هؤلاء الناس جميعاً لا بد وأنهم ينبثقون من نفس الأصول . ومن هذا ثبت أن أسلافهم المشتركين كانوا العرب الأصليين — أو الساميين من قبيلة سام — إذ أن اسم « عربي » هو التعبير السامي عن ساكن الصحراء — وأن أول استيطان للعرب على نطاق شامل إنما كان في اليمن على عهد مملكة يارب وهي الجيل الخامس من نسل سام . ثم ، وعند ما ضاق هذا الركن من شبه الجزيرة العربية عن أن يضم شعباً يسير في طريق الازدياد ، بدأت حوالى عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد أول هجرة عربية على طول الساحل الغربي لبلاد العرب ، وعن طريق الحجاز

وسيناء ، إلى مصر حيث اختلط الساميون بالحاميين ليخرج منها المصريون الذين عرفهم التاريخ واستوعبوا تلك العناصر من العلم والثقافة وهى العناصر التى تقوم عليها حضارتنا .

وحدثت هجرة أخرى على الشواطىء الشرقية لبلاد العرب انتهى بها المطاف فى وادى نهري دجلة والفرات حيث اختلط الساميون بالسومريين غير الساميين ليخرج منهم البابليون ؛ وعلى غرار أشباههم فى مصر واءموا بين ما وجدوه هناك من ثقافة وتقاليد وأساليب علمية وبين حاجاتهم . وبعد ذلك بألف عام حدثت عمليات امتزاج جديدة بين أهل الشام وفلسطين أنتجت العموريين والفينيقيين . وبعد ألف سنة وفيما بين عامى ١٥٠٠ و ١٣٠٠ قبل الميلاد وصل العبرانيون الرحل إلى فلسطين وأسسوا أول ديانة فى العالم تدعو إلى التوحيد ، أصبحت بدورها أساس العقيدة المسيحية والإسلامية^(١) .

وفى الوقت ذاته انتقل الآراميون إلى الشام وأقاموا عاصمتهم فى دمشق التى يتحدث عنها العرف بأنها أقدم مدينة لاتزال قائمة فى العصر الحديث . ولكن فى القرن التاسع قبل الميلاد سقط الآراميون أمام سلالة بابلية هم الآشوريون الذين قدموا من نينوى وأسسوا إمبراطورية امتدت من بابل (جنوب العراق) إلى أرمينية فى الشمال وفينيقيا (أو لبنان كما تعرف اليوم) فى الغرب ، ونافت إمبراطورية بابل نفسها وإن لم تبرزها . وإلى الشرق بسط الميديون سلطانهم على جميع فارس الحديثة وجزء كبير من باكستان الحالية ، وإلى الجنوب ظلت الصحارى الشاسعة فى بلاد العرب قلعة لعرب الصحراء لا يمكن اختراقها والنفوذ إليها .

وخلال فترة قصيرة حكم السكلاونيون الشام وبلاد الجزيرة وجنوب تركيا ،

(١) جميع الديانات المنزلة تدعو الى التوحيد ، وما اليهودية الا ديانة سبقت من حيث الزمن ، المسيحية والاسلام — المترجم .

خلفا للأشوريين . ولكن هجوم البارثيين أسلاف أهل فارس اليوم ، في القرن السادس قبل الميلاد ، وضع نهاية لاستقلال هذه الامبراطوريات عندما انطلقوا من معاقلم جنوبى بحر قزوين واستولوا على إمبراطورية الميديين فى الشرق ووسعوا رقعة ممتلكاتهم بحيث شملت آسيا الصغرى بل وجزءاً من اليونان ، بالإضافة إلى مصر وليبيا وفلسطين والشام والعراق . هذا الموقف قابله الاغريق بقيادة الاسكندر الأكبر وحلوا محل الفرس ولكن لم يمتزج مكانهم الرومان . وبحلول القرن الثانى الميلادى كانت روما قد استولت على الامبراطورية اليونانية كلها من ليبيا حتى العراق ، ولكنها أوقفت عند حدود بارثيا وصحارى الأرض العربية الممتدة نحو الجنوب . ثم ، وكما حدث فى التاريخ الحديث ، ركزت الامبراطوريات الكبرى فى أوروبا إهتماماتها على الأراضى العربية الخصيبة الكائنة فى الشمال والغرب ، وتركت المساحات الصحراوية القاحلة فى شبه جزيرة العرب وشأنها .

كانت علاقات جميع سلالات المهاجرين العرب الأصليين بحكامهم من الأعاجم واليونان والرومان علاقات سامية يسودها التجانس ، فقد وفر الحكام الثلاثة فرصاً طيبة للتجارة . ولما اعتنقت روما الديانة المسيحية تحول الكثيرون من رعاياها فى الشام وفلسطين ومصر إلى الدين الجديد . ولكن خلال الاحتلال الرومانى فإن أروع التطورات فى مجال التجارة وقعت أولاً فى جنوب بلاد العرب .

عندما حل ذلك الوقت كانت المملكة الأصلية بالين قد أخذت مكانها لمجموعة من الدول والممالك الصغيرة ، كانت مملكة سبأ من بينها القوة المسيطرة فيما بين عامى ٧٥٠ ، ١١٥ قبل الميلاد . كان « فينيقيو » الجنوب وهم أهل سبأ ، يمارسون نشاطاً مربحاً إلى حد كبير ، تمثل فى إعادة تصدير ونقل اللبان

والقماش والحرير من الصين ، واللآلئ من الخليج الفارسي^(١) ، ومنسوجات الهند ، فضلاً عن إنتاجهم من التوابل والعطور التي كان عليها طلب من جانب الرومان المترفين . هذا الاحتكار من جانبهم لهذه التجارة التي كانت تنقل بالإبل على امتداد ساحل البحر الأحمر عن طريق مكة إلى مصر والبحر المتوسط ، دام قروناً عدة إلى أن وجد الرومان الأسعار باهظة . كان بطليموس الثاني حاكم مصر ، شديد الرغبة في أن يضع بلاده هو على الخريطة وأن يقتسم تجارة النقل مع روما ، ولذلك قام حوالي عام ٢٤٠ ق . م بإعادة فتح قناة بطل إستعمالها وكانت قبل ذلك بستة عشر قرناً تصل النيل بالبحر الأحمر . بعد ذلك راحت السفن التجارية ، من رومانية ومصرية ، تشق طريقها مباشرة إلى الشرق لتعود محملة بمواد الترف التي ظل التجار العرب مئات السنين يقنعون العالم الغربي بأنه لا يمكن الحصول عليها إلا في بلاد العرب . وانهار رخاء سبأ وتداعت قوتها .

كانت البتراء وهي مملكة النبطيين ، الدولة العربية التالية في الوصول إلى مركز التفوق التجاري ، وامتدت من العقبة في الجنوب إلى دمشق في الشمال ، في القرن الأول الميلادي . كان النبطيون ، نسبة إلى نبيوت بن إسماعيل ، قبائل رحالة وفدوا من الأردن حوالي سنة ٦٠٠ ق . م حيث اجتذبهم البتراء بمياهها الصافية الرائقة ، وحلوا محل أهلها الأيدوميين . وفي عام ٣١٢ ق . م صدوا غزواً يونانياً قام به خليفة الاسكندر في الشام ، ولكنهم صاروا بعد ذلك بقرنين مستعمرة تتبع الامبراطور الروماني تراجان . وبعد ذلك بثلاثمائة عام تعاون النبطيون والرومان في محاولة لغزو جنوب بلاد العرب والاستيلاء على اليمن . ولكن الحملة فقدت معظم أفرادها وعادت إلى مصر

(١) الخليج العربي (المترجم) .

ملطخة بالعار . وعلى غرار سبأ كانت البتراء تحصل على دخلها من القوافل التي تحتاز أخوارها ذات اللون الوردى الأحمر ، وتجد اللجأ وإبلاً جديدة وحماية كى تواصل رحلتها . ولكن ، إذ طور الرومان الطرق البحرية الخاصة بهم إلى الشرق متجاوزين شبه الجزيرة العربية، أخذت البتراء مكانها لبصرى كمرکز لطرق القوافل الآتية من بلاد العرب .

حتى نهاية القرن الأول الميلادى حافظت بصرى على حياد مضطرب بين إمبراطوريتى روما وفارس المتنافستين . ولكن بسبب موقع المدينة الاستراتيجية على الطريق البرى بين الخليج الفارسى (العربى) والبحر المتوسط عبر الشام ، نمت ثروتها بحيث أصبحت من أغنى مدن الشرق الأوسط ؛ وفى عام ٢٦٠ م أخرج حاكمها أذينة الفرس من الشام وطاردهم حتى أسوار عاصمتهم طيسفون القائمة على نهر دجلة . وهكذا فى شهور قلائل راحت بصرى تحكم آسيا الصغرى والشام ومصر باسم روما . ولكن مجدها كان قصير الأمد . فاعتيل أذينة فى عام ٢٦٦ بسبب خيانة الرومان على حد قول البعض . وتلت ذلك لحظة قصيرة من النصر عندما انقلبت أرملته الجميلة والطموحة الزباء على روما ، فألقت بالرومان خارج الشام واحتلت الأسكندرية ونادت بآبئهم ملكاً على مصر وبنفسها ملكة على الشرق . ولكن روما لم تكن لتهمز بمثل هذه السهولة ، وبعد هجوم مضاد مصمم أسرت الزباء وسقيت إلى روما مقيدة بسلاسل من ذهب وراء عربة الذى أسرها .

فى هذه الأثناء كان السبثيون فى جنوب بلاد العرب قد خلفهم الحيريون عام ١١٥ ق م وهم قبيلة نزلت من المرتفعات الكائنة فى الجنوب الغربى ، وأسسوا مملكة عاشت ستة قرون حتى الغزو الحبشى فى عام ٥٢٥ الميلادية .

وإذ انحط شأن التجارة كثيراً عاد الحيريون وغيرهم من القبائل في جنوب بلاد العرب إلى أسلوب حياتهم البدائي . هؤلاء البسطاء الذين لم يكونوا قد تأثروا بعد باليهودية أو المسيحية، مارسوا العبادة التي تتفق مع حياتهم البسيطة . فعلى خلاف الفرس الذين علمهم زرادشت أن يعبدوا الشمس بوصفها مقر الكائن الأعلى وأن يقرنوا الخير بالنور والنار وأن يقرنوا الشر بالظلام ، كان عرب تلك الأيام بوجه عام يعبدون القمر . بالنسبة إلى الفارسي الذي عاش في أرض جبلية مرتفعة كان يمكن أن تكون حرارة الشمس موضع ترحيب ، ولكن بالنسبة إلى العربي المقيم في سهول البادية كانت الشمس نوعاً من قاتل وكيان القمر يأتي بالندى والظلام بعد الحرارة المحرقة ونور النهار الذي يغشى الأبصار . كان الحجر الأسود في الكعبة بمكة موضع التقديس قبل الإسلام وقت طويل ، واعتقدت الأساطير الوثنية أن هبل إله القمر قد ألقى به من السماء . هذا الحجر عبده الحجاج والسفار ممن اتخذوا من القمر إلهاً . وبسبب الحنين إلى الخصب والظل راحت قبائل عربية أخرى تعبد الآبار والكهوف والأشجار . وحفرت بوجه خاص بئر زمزم الشهيرة الواقعة على مقربة من مكة ، إذ قيل إنها أنقذت هاجر وإسماعيل من الموت عطشا في البرية .

كانت حياة العرب الاجتماعية ، شأنها شأن ديانتهم ، مرتبطة بمطالب وجود خشن وغالباً ما كان خطراً وخاصة بالنسبة إلى البدو (وهو لفظ مشتق من البادية يطلق على من يحميون حياة الترحال) . وكانت القواعد والعادات السائدة لدى القبائل والتي لا تزال إلى حد كبير لم يطرأ عليها التغيير حتى اليوم وحتى في مناطق البترول حيث حلت السيارة الكاديلاك محل الجمل كوسيلة الانتقال عند الشيوخ ، هذه القواعد والعادات كانت مصممة بحيث تغلب على أخطار حياة الصحراء ومشاقها وكما يوضح فيليب حتي في كتابه تاريخ العرب

« ليس البدوى نوعا من الفجر يتجول دون هدف ومن أجل التجوال . إنه يمثل أفضل تكييف للحياة البشرية كى تتلاءم مع ظروف الصحراء . فحيثما توجد الأرض المحضرة فهو يتوجه إليها سعياً وراء الكلاً . إن نظام البداوة أسلوب علمى للعيش فى النفود (المنطقة الصحراوية الوسطى فى شبه الجزيرة العربية) يمثل ما يكون النظام الصناعى بالنسبة إلى دترويت أو منشستر » ، طبقاً للدورة من الحياة لم تتغير ولم تكن لتقبل التغيير منذ العصور السابقة على الإسلام ، كان البدوى الرحالة الذى عاش منذ خمسة عشر قرناً خلت ، يعيش وينام ويسافر ويتاجر تماماً كما يفعل سلالاته اليوم . فى تلك الأزمان ، وكما هو الحال الآن ، كان غذاؤه الرئيسى يتكون من التمر والدقيق ولبن الناقة أو العنزة — وكان فى العادة يحتفظ بالماء لشرب الإبل والماعز والأغنام . وكانت ملابسه ولا تزال ، قميصاً يصل إلى ركبتيه ، فوقه جلباب يمتد حتى رصغيه ، وشال مربوط بحبل ويلتف حول عنقه ووجهه ليقويه الشمس ويبعد الغبار عن أنفه وفه .

وكان مسكنه بالمثل يوفر له حداً أدنى متقشفاً من الراحة ، ويتكون من خباء طويل منخفض من وبر أسود أو بنى قاتم مصنوع من جلود الإبل والماعز وكانت وسائل عيشه تتكون من تربية (أو سرقة) الأغنام والماعز والإبل وأحياناً الخيل ، وكان يقايع منتجاتها بالغذاء والموارد الأخرى مما هو أساسى . بالنسبة إلى بقائه على قيد الحياة •

كان الجمل أهم ما يملك ؛ فلم يكن يزوده فقط بوسيلة للنقل وتتطلب حداً أدنى من وسائل الميش ، إذ فى استطاعته أن يسير أربعة وعشرين يوماً فى الشتاء وخمسة أيام فى الصيف بدون ماء ، بل كان لبنه يمد العربى بغيرائه السائل الرئيسى ، وكان روئنه يزوده بوقود يستخدم فى الطهى ، وعندما

تنتهى أيامه كدابة حمل كان يأكل لحمه ويستخدم جلده لصنع خيامه أو إصلاحها .

كانت الزراعة أو أية صورة من العمل تقيد حرية البدوى في الحركة ، نشاطاً لا يتفق مع كرامته . فمثل هذا العمل كان محتفظاً به لأهل الحياة المستقرة في القرى والمدن؛ أى للفلاحين والتجار وأرباب الحرف ، ممن يكدحون في الحقول أو أمام مناطق العمل أو يعيشون عن طريق قوافل الإبل التي تشق طريقها عبر الحجاز وبصرى أو فلسطين . هؤلاء الناس من أهل القرى والمدن والذين يعرفون باسم « الحضر » كانوا يقيمون في بيوت من الحجارة أو الطين ، وتفصلهم فجوة اجتماعية واسعة عن أهل البادية الرحل الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر رجولة ونبلاً وأسمى مرتبة من الناحية الاجتماعية . وبهذا ، فعندما كانت المحافظة على النفس تفرض مطالبتها ، وعندما كان البدوى الرحالة يفتقر إلى المواد التي يتجربها في سبيل الحصول على الغذاء ولم يكن في إمكانه أن يكسبها عن طريق شن الغارات على جيرانه في البادية ، كان يرى أنه حر تماماً في أن ينهب الفلاح أو ساكن المدينة حتى يحصل على متطلباته . مثل هذه القرصنة كان حتماً أن تثير أعظم مشاعر السخط في صفوف العرب المستقرين ، ولم تعمل سوى أن وسعت وعمقت الفجوة التي تفصل بينهم وبين أخوانهم الرحل .

وإلى يومنا هذا ، وبرغم أن العرب المستقرين يتمتعون بحماية قوة بوليسية حديثة ، واضطر بدوى الصحراء إلى أن يصبح شخصاً يلتزم بالقانون إلى حد معقول ، فلا يزال موجوداً بعض النفور القديم بين الحضري البدوى الرحالة ، وينظر الأخير في قرارة نفسه نظرة ازدراء إلى الأول باعتباره شخصاً يحيا حياة ناعمة ودون أهل البادية الذين يمتازون بالصلافة والذين هو من نسلهم .

ذلك أن بدوى اليوم لا يزال يعد نفسه أرسقراطياً بالطبيعة وأنه أنبل الخلق جميعاً .

ولكن إذا كان شن الغارات على جاراؤ ونهب فلاح يعتبر مباراة عادلة في تلك الأيام ، كان أهل القبيلة الواحدة تحكمهم طائفة من قواعد مختلفة تماما . فما كان يعتبر قرصنة مشروعة خارج حدود القبيلة كان يعد جريمة إذا ارتكب في داخلها . ذلك أن القبيلة كانت الأساس الذى يقوم عليه المجتمع البدوى . كانت بالنسبة إلى العربى من أبناء الصحراء هى أسرته ونقابته العالية وناديه — أجل كانت هى دائرته الاجتماعية بأسرها . فهى التى توفر له الحماية والعمل ، والمركز الاجتماعى وسبيل العيش . وبدونها يكون خارجا على القانون وإليه تشير يد كل إنسان . فى داخلها يستطيع أن يحيا حياة كاملة وآمنة بقدر ما تسمح البيئه الصحراوية التى تحيط به ؛ ومنها يتخذ لنفسه أزواجا ورفاق قتال ، ويحصل على تدريب بدائى ولكنه عملى ، فى فنون الحرب والصيد والقنص وشن الغارات والفروسية مما كان يلزم لبقائه .

وعلى ذلك فإن عبارة « الكل من أجل الواحد ، والواحد من أجل الكل » كانت شعاره والقاعدة المطلقة التى تحكم حياته . كانت العصبية أو التضامن القبلى ، تعلو من حيث القيمة كل شئ سواها ، لأن عربى الصحراء الذى يفتقر إلى أى إحساس قومى بالمعنى الذى نعرفه اليوم ، كان يمنح حياته وولاءه لقبيلته .

ومن ثم كانت العصبية عنده تعادل ما ندعوه الوطنية اليوم ، ومن يخرج على تعاليمها أو يعجز عن الالتزام بها فى كل فعل من أفعاله ، يلقى عقابا صارما . فلو اتخذ لنفسه زوجة من قبيلة هى دون قبيلته مكانة اجتماعية ، جاز لأقربائه أن يقتلوه على أساس أنه لوث دم قبيلته . وبالمثل كانت أسرة الزوجة تقتله إذا

تزوج فتاة تملوه في المستوى الاجتماعي . (حدث في عام ١٩٣٢ أن أمر بغداد وقد اتخذ لنفسه زوجة من أسرة نبيلة ، أطلق عليه أقاربها الرصاص ففر صريعاً) . أما إذا ارتكب المرء جريمة سرقة أو قتل في داخل القبيلة فإنه كان يعاقب على الفور فقة طع يده أو رأسه طبقاً لنوع الجريمة . وإذا هرب أصبح طريد القانون ولا قبيلة له تحميه ، ويمتنع الجميع عن منحه الملجأ والحماية ويموت موتاً بطيئاً من العطش والجوع ، هو أشد قسوة وإيلاماً من ضربة حادة ومفاجئة من سيف الجلاد .

وفي حالة وقوع الجريمة خارج نطاق القبيلة فعندئذ يتقرر الأخذ بالتأثر ، ولأقارب الضحية بعد جلسة أمام شيوخ القبيلة ، أن يقرروا ما إذا كان القصاص ينبغي أن يتم بإعدام القاتل وبفس الطريقة التي استخدمها في قتل ضحيته (مثلاً بإطلاق سهم أو الطعن بخنجر أو بالسهم) أو بأداء دية يُتفق على مبلغها .

وكان التمثيل والتشويه أو إحداث جرح ، يخضع بالمثل لنفس القاعدة الأساسية : « العين بالعين ، والسن بالسن ، والجروح قصاص » . فإذا اختار أهل الضحية الموت بدل المال فإن أى فرد من أفراد القبيلة يمكن أن يدفع ثمن الجريمة بدمه هو . وإذا حاول أقارب القاتل من أبناء القبيلة أن بمنعوا تنفيذ القصاص فإن التأثر يدوم إلى ما لا نهاية .

وفي الأزمنة الحديثة وفي الأجزاء الأكثر تقدماً بالعالم العربي يجرى في العادة قبول الدية ، ولكن عند القبائل الأشد فقرًا فإن إعدام المجرم أو أحد أقاربه لا يزال هو القاعدة العامة على نحو ما كان سائداً منذ ألف وخمسمائة سنة خلت . في تلك الأيام الخوالي لم يكن من غير المؤلف أن يستمر السعى إلى الأخذ بالتأثر أربعين سنة أو أكثر يعيش خلالها أقارب القاتل الأصلي في خوف دائم على حياتهم من أقرب الناس صلة إلى الضحية .

والتغيير الذى طرأ على تنظيم القبائل على امتداد القرون ، تغيير يسير ،
 على غرار مثيله فى قواعدها وعاداتها . كانت كل قبيلة ولا تزال ، تنقسم إلى
 بطون يتفاوت عدد أفرادها حسب الحجم والمكانة الاجتماعية ، وكقاعدة عامة
 كانت القبائل الأعلى منزلة أو الشريفة التى تدعى أنها من سلالة النبی إسماعيل
 والتى تضمنت جماعات مشهورة مثل بنى تميم فى إقليم الحسا على إمتداد الخليج
 العربى ، نقول إن هذه القبائل غالباً ما كان حجمها يزيد عشر مرات على حجم
 أخوانهم الأدنى مرتبة مثل بنى عجيل فى العراق والذين يشتغلون بتجارة
 الإبل . وكان لكل قبيلة إقليمها أو مجاها القبلى المعروف باسم الدرّة . وكانت
 تتجول فصلاً بعد آخر بانتظام عقارب الساعة بحثاً عن السكّات ، وتدعى ملكية
 جميع الآبار فى داخله وحقوق الملكية فى كل الرعى . ولكنها لم تسكن تنقل
 بوصفها كتلة صلبة واحدة ، وكانت بطونها تسير فى طرقها الخاصة بها
 فى داخل الحدود العامة للدرّة . وكان عدد الخيام أو الأسر فى كل عشيرة
 يتفاوت من خمسين إلى ألف .

وفى حالة العشائر الأكبر حجماً كانت الأسرات تنقسم إلى أقسام لتسهيل
 التنقل حتى يقضى تفادى الازدحام فى كل مرحلة من مراحل البحث عن
 مراعى جديدة . وحتى فى فصل الشتاء حين تحضر الأرض نسبياً كانت قلة من
 المراعى هى التى تسمح بالرعى لفترة تزيد على عشرة أيام ثم تستنفد ويصبح من
 الواجب الانتقال إلى أرض جديدة .

ولسكن أياً كان عدد الأقسام والأقسام الفرعية فى كل عشيرة ، فقد كان
 أفرادها جميعاً يعتبرون أنفسهم من دم واحد ، يدينون بالولاء للقبيلة الأم التى
 يستخدم كل فرد من القبيلة صيحتها فى الحرب عندما يشتبك فى قتال . إن
 أهمية صلة الرحم هذه ربما يوضحها بأعظم قدر من التأكيد أن أعضاء كل

قبيلة كانوا منذ العصور الموعلة في القدم يعتبرون أنفسهم أبناء لقبيلتهم (« بنو » في اللغة العربية) ومن هنا بنو غسان في فلسطين القديمة وبنو صقر في الأردن في الأزمنة الحديثة . وبالمثل كان كل فرد من القبيلة يشير إلى رفاقه بأنهم « بنو عم » ومعناها الحرفي أبناء شقيق أبيهم ، وعلى ذلك فهم أبناء عمومته .

و ممتلكات عربى الصحراء قليلة مثل غذائه اليومى كان يملك خيمته وقليلًا من قطع الأثاث كالسجاجيد وجلود الغنم وإناء لعمل القهوة . ولكن بوجه عام كانت الحيوانات ، أى الأغنام والماعز والإبل ، التى عليها تعيش قبيلته وتتنقل ، ملكا للجماعة ، وكانت كافة حقوق الرعى والآبار ملكا للقبيلة ولا يجوز التنازل عنها . كان من الحتمى فى أرض ينذر فيها السكلاء والماء للغاية دائما ، أن تنشب المنازعات بين القبائل حول حقوق رعى حيواناتها واستخدام آبارها . وكما كانت القبائل تنظر إلى العلاقات بينها على أنها مباراة عادلة فى سبب الإبل والأغنام والماعز ، كذلك كانت تتقاتل حول الحق فى رعى حيواناتها وسقيها .

ولكن برغم أن البدو الرحل غالبا ما كانت تدفعهم الضرورة القاسية ويدفعهم الجشع أحيانا بل وإحساس باللهو والشقاوة ، إلى حياة من القرصنة والى أن ينتزعوا لأنفسهم كل ما يقدرون عليه ، إلا أنهم لم يخلوا من شرائع دقيقة للسلوك فى خارج قبائلهم وفى داخلها أيضا . فمثلا كانت القاعدة تقضى بأنه لا ينبغى فى حالة الإغارة على جار إراقة الدم إلا فى حالة الضرورة المطلقة . وثمة قاعدة أخرى وهى أن القبيلة غالبا ما كانت توفر الحماية لقبيلة أضعف منها . ضد الغارات من جانب أطراف ثالثة وإن لم تفعل ذلك دون أداء مدفوعات

عينية لقاء حمايتها . وأهم من هذا كله أن قانون قرى الغريب كان قاعدة مطلقة . كانت الضيافة مبدأ جوهرياً من مبادئ السلوك البدوى ، وأن الأهمية التي كانوا يعلقونها عليها يوضحها بيت من الشعر العربى القديم غالباً ما كان يستخدم في تحية الضيف .

كان إغلاق الباب دون ضيف جاء يسعى وراء المأكل والمأوى، أو إيذاؤه بعد استضافته ، جريمة ضد الشرف العربى . بل كان تناول القهوة مع رب الدار يخول الضيف الحق فى الأمان من الهجوم . وبالمثل كان من عادة رؤساء القبائل أن يوفرؤا فرق حراسة أو يؤمنون المرور للسفار الأصدقاء من أهل الصحراء إذا مروا بديارهم ، وأى عدوان على مثل هذا المسافر موضع الحماية ، كان يمس شرف القبيلة كلها . ما من أحد كان يعرف خيراً من البدو الرحل مخاطر الحياة والأسفار فى الصحراء ، وآلام العطش وعذاب الشمس المحرقة وخطر هجوم اللصوص — وفى الحقيقة كون الموت قريباً على الدوام من جميع من كانوا يقامرون باقتحام خلاء الصحراء المعادى . وما من أحد يمكن أن يكون متأكداً عندما يأتى عليه الدور فى طلب المأوى والظل والعيش خلال رحلة يقوم بها بمفرده وتسكتنفها الأخطار ، عبر بحار الرمل اللامتناهية فى بلاد العرب .

ربما كان أغرب مظهر من مظاهر حياة العرب القبلية ، العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، إذ كانت مزيجاً متناقضاً من الاقطاع والديموقراطية . كان الراعى يقابل الشيخ على قدم المساواة ويخاطبه باسمه الأول دون أية ألقاب شرفية . ولم يكن لقب اللوكية أى لم يكن اصطلاح « ملك » يستخدم أبداً إلا عند الإشارة إلى الأجانب من قبيل حكام الرومان أو اليونان والفرس . وبرغم أن الشياخة كانت ولا تزال محصورة دائماً فى الأسرة الحاكمة إلا

(٢٠ — العرب)

أنه ما من زعيم قبلى كان يتوقع أن يصبح حاكماً لمجرد أن أباه كان يشغل المنصب قبله، وكان عليه أن يبرهن على أنه يملك الشجاعة الواجبة وقوى الزعامة والحظ الحسن. إن شعباً يمثل هذا التعرض لأخطار الطبيعة، مثل البدو البدائيين، كان حتماً أن يكون على درجة عالية من التعلق بالخرافات، وكان الاعتقاد فى الحظ الطيب والسوء يلعب دوراً كبيراً فى حياتهم وخاصة عند اختيارهم شيخ القبيلة. ذلك أنه سواء فى السعى السامى وراء المرامى الخضراء، أو فى شن الحروب على الجيران، كان الزعيم الذى يلزمه الحظ ذا أهمية بالغة.

وبمجرد اختيار الشيخ تقع على عاتقه مسؤولية مخيفة، إذ كان العرف يجعل منه أباً لشعبه. كان عليه أن يفتح بابه وأن يقرى الضيف بما فى ذلك إقامة الولائم من وقت لآخر للجائعين من أفراد القبيلة وهم الذين لم يكونوا يذوقون اللحم إلا فى أمثال هذه الولائم التى يقيمها. وكان عليه أن يعرف المشكلات العائلية التى يعانىها كل واحد من أفراد القبيلة، وأن يكون مستعداً بصورة دائمة لفرض المنازعات وأن يصدر الأحكام فى الحالات الجنائية. كانت كلمته قانوناً، وكان يمارس سلطة الحياة والموت على رجال قبيلته. واسكنه لم يكن بالتأكيد دكتاتوراً مطلق السلطة. فبحكم التقاليد التى ترجع إلى ماض بعيد، كانت القبيلة وخاصة كبار السن من أبنائها، تتوقع أن تستشار بصدد القرارات التى تمسها ككل. فكانت سلطة إعلان الحرب على جار والاستراتيجية التى تتبع فى شنها من الأعمال التى تتطلب مثل هذه المشاورة المسبقة. ولكن بعد أن يعطى مجلس القبيلة الموافقة، فإن الشيخ يضطلع بالسلطات الكاملة لتولى القيادة ويجب حتماً أن تطاع أوامر.

ليس ثمة حاجة إلى القول أنه فى ظل تلك الظروف الموحشة بالصحرى حيث تتركز جهود كل إنسان على مشكلة البقاء، كان التعليم بدائياً ومكرساً

للمسائل العملية البهجة من قبيل تعليم الصبيان الصيد والقتال وركوب الخيل وتدريب البهائم على الطهي ورعاية الأطفال . ففي المدن وكذلك في القرى كان عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة قليلا ، وبمجرد أن يصبح الأولاد قادرين على المشي فإنهم يتعلمون مهنة أو حرفة القبيلة . ولكن هذا لم يكن يعنى أن كل عربى قبل الإسلام كان أمياً تماماً . إذ كان فى كل منطقة بها حياة مستقرة كتبة وشعراء كانوا موضع الاحترام والتوقير لا بسبب جمال أسلوبهم فحسب ولكن بسبب الظن أنهم يملكون قدرات خاصة على إلحاق الأذى بعدو وعلى تشجيع محاربيهم على تحقيق النصر . فى تلك الأيام ، وكما هو الحال اليوم ، كانت اللغة العربية بنعمها وإبقاعها تستطيع أن تفتن الجماهير بل وكان فى إمكان البدوى الأمى أن يمضى ساعات فراغه يردد على مسامع إخوانه من أبناء القبيلة أو يستمع إليهم وهم يرددون أبياتا من الشعر أو يروون ويعيدون رواية القصص والخرافات عن حياة الصحراء والتي وصلت إليهم من الأجيال الماضية .

فى عالم خشن وعمل حرم من أية ثقافة خلاف ثراء اللغة العربية ، كان الرجل الكامل هو من يجمع بين قدرات ثلاث : البلاغة ورمى السهام والفروسية ، وأعظم الثلاث البلاغة .

هكذا كان أسلوب الحياة عند قبائل الصحراء فى وسط بلاد العرب وجنوبها ، والتي لم تكن حتى ذلك الحين قد مستها المؤثرات الروحية والثقافية من جانب امبراطوريتى بيزنطة وفارس اللتين بسطتا سلطانهما على الشام وفلسطين والعراق . إلا أن الأقاليم الشمالية تروى لنا قصة مختلفة . فالثقافات الرومانية واليونانية لم تقف عند حد أنها ضربت بجذورها فى تربة مدن مثل دمشق وبيت المقدس ، ولكن ما أن حل القرن الخامس الميلادى حتى كانت الديانة المسيحية قد

قامت بفزوات بعيدة وعميقة في صفوف العرب من الحضر والبدو ، من أهل الشام وفلسطين ، وكذلك بين سكان العراق عند مراح مد القتال ينتقل ذهابا وجيئة بين الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية . لم تكن بعض قبائل الشمال قد تأثرت بعد ידיانة وثقافة اليونان وفارس ، ولكن قبائل أخرى مثل بنى غسان في الشام وفلسطين تنصرت بل وساعدت الإمبراطور الروماني جستنيان في غزو العراق الفارسي وإنزال الهزيمة باللعيمين حكام الحيرة في دلتا الدجلة والفرات الذين تنصروا فيما بعد .

وعلى سبيل المكافأة عما بذلوا من جهود كان رؤساء بنى غسان يعينون ولاية على الشام بالنيابة عن الأباطرة ، وكانوا يستقبلون ويحتفى بهم في بلاط كل من جستنيان وتيريريوس في القسطنطينية . كذلك ابتدع بنو غسان حضارة على درجة عالية من النمو مبنية على الثقافة اليونانية والرومانية . ورغم أنه لم تبق اليوم آثار تدل على إنجازاتهم ، إلا أنهم شيدوا لأنفسهم قصوراً وبيوتاً وحمامات عامة وكنائس ومجارى ماء فوق القناطر ومسارح .

كثير بالطبع أن تتوقع من البيزنطيين بعد نجاحاتهم في تحويل أعداد كبيرة من العرب الوثنيين في الشمال إلى المسيحية ، أف يتركوا الأعراب البسطاء من سكان جنوب بلاد العرب ووسطها يواصلون حياتهم القبلية وعبادة الأوثان إلى غير ما نهاية . ومن المحقق أن نجاشي الحبشة المسيحي وهى الخمر الأمانى الأفريقى لبيزنطه ، غزا اليمن فى عام ٣٤٠ واحتلها قرابة أربعين عاما . وأعقب ذلك بعثة مسيحية من قبل الإمبراطور البيزنطى ، وبنيت الكنائس فى عدن . وعند ما خرج الأحباش من اليمن استمر التوغل المسيحي وتحويل الناس إلى النصرانية . ولكن نجاح اليهود كان أكبر ، فباستثناء القرن السادس كانوا قد كسبوا ذا نواس حاكم حير إلى عقيدتهم . وسرعان ما تحول

التنافس بين اليهود والنصارى إلى عدااء سافر ، وإلى ما هو أسوأ من هذا عندما عمد ذو نواس الذى ربط بين النصارى وذكريات الإحتلال الحبشى ، فأمر بمذبحة فى عام ٥٢٣ . والتمس من بقى على قيد الحياة من النصارى حماية القسطنطينية ، وإذ رأى الامبراطور البيزنطى فى هذا فرصته للاستيلاء على جنوب بلاد العرب واستخدامها لمنع انتشار النفوذ الفارسى ، دعا النجاشى مرة أخرى إلى التدخل ، واستجاب الأحباش وغزوا اليمن بسبعين ألف رجل وعزلوا الحميريين وحولوا بلادهم إلى مستعمرة .

وظلت الحال على هذا النحو طيلة السنوات الخمسين التالية إلى أن استعان الحميريون بالفرس على طرد المستعمرين الأحباش . واستجاب الامبراطور الفارسى وفى عام ٥٧٥ انتقل السلطان فى اليمن إلى أيديه . ولكن على نحو ما كان من شأن الأحباش ، ظل الفرس فى اليمن خمسين عاما بعد « التحرير » إلى أن كان عام ٦٢٨ عندما اعتنق الوالى الفارسى على اليمن الإسلام فلم يعد هذا المهد للجنس العربى تحكمه قوة أجنبية .

وهكذا إذ يدنو القرن السادس من نهايته وجد العالم العربى نفسه قطعة شطرنج فى أيدي الامبراطوريات المتنافسة بيزنطة وفارس فى الشمال ، وفارس والحبشة فى الجنوب . كان التدهور الإقتصادى قد جلب الخراب السياسى والخضوع على الدول العربية التى سبق أن كانت تعتز بنفسها . وحيث لم يسد الإحتلال الأجنبى فإن الحياة القومية المنظمة أخلت مكانها للفوضى . كانت بلاد العرب وهى الآن فراع روى فضلا عن سياسى ، على استعداد لأن يقوم فيها زعيم عظيم يمنحها عقيدة جديدة وقوة جديدة ووحدة جديدة .

الفصل الثاني

مقدم النبي

عندما ولد محمد في عام ٥٧١ كان جنوب بلاد العرب وخاصة الحجاز، بؤرة فساد ووثنية. كانت مكة وهي المدينة الرئيسية بالحجاز والتي اشتق اسمها من كلمة « محراب » بلغة أهل سبأ ، قد نمت من ناحية الثراء بوصفها محطة للقوافل على الطريق البري من جنوب بلاد العرب ، ومركزاً للحجج يؤمه كل نوع من عبدة الأصنام . وكانت الكعبة تضم ما لا يقل عن ثلاثمائة وثن ترضى كل ذوق . وكثيراً ما كانت القرارات التي تتعلق بالحياة أو الموت ، تتخذ عن طريق ضرب أفداح ذات سهام طقسية فأمة بجانب تمثال إله العمر . وشاعت الخرافات ، وكانت الشياطين والجن موضع الخوف إلى حد كبير . وحتى حب العرب للشعر تعرض للفساد ، ذلك أن سوق عكاظ بالحجاز حيث يجتمع الشعراء كل عام ، هوت إلى ماداعه أحد رواة الأخبار العرب ملتقى للرديلة لا يمكن وصفه . كانت مظاهر الاسفاف في تعاطي الخمر والفجور هي الحالة السائدة، إذ كان الحجيج وسائفو القوافل يتجمعون بصورة تنافى مع الحفل المقدس ، ولكنها تجتذب السياح والسفار المحلّمين بحيث كانت تهدد تجارة أهل اليمن بخسارة جسيمة . ولقد حدث في إحدى المناسبات أن حاول حكام اليمن الأحباش غزو الحجاز كي يضعوا حداً لأعمال اللهو الوثنية هذه ، ولكن أوقفت جيوشهم نتيجة انتشار وباء الجدري .

كل هذا الفساد كانت تسيطر عليه قريش التي دان لها الأمر منذ عام ٤٤٠ تحت زعامة من يقال له قصي وهو من نسل إبراهيم واسماعيل ، بوصفها البطن

الحاكم ومن ثم كانت صاحبة القوامة القانونية على المدينة . لسنا نعلم سوى القليل عما قام به قصي من أعمال تستحق الذكر ، ولكن ترجع أهميته إلى أن من سلالته كان النبي محمد وكل خليفة مسلم طيلة ستمائة عام بعد وفاة محمد . ومن أحفاده المتأخرين معاوية الذي ينسب إليه الأمويون ، وهاشم وهو جد للعباس الذي كان الخلفاء العباسيون من سلالته . وعن طريق محمد كان هاشم أيضاً سلفاً للعلمانيين وللهاشميين الموجودين اليوم ؛ فحسين ملك الأردن وأهل بيته ينتسبون مباشرة إلى هذا الحفيد من أحفاد قصي .

عند ختام القرن السادس كانت مختلف وظائف الدولة موزعة على أساس وراثي دقيق بين شيعتين رئيسيتين من قبيلة قريش : الهاشميون والأمويون . كان حارس بئر زمزم هو العباس عم محمد من بني هاشم ، وكان يتولى القضاء أبو بكر الذي سيصبح فيما بعد والد زوج محمد وهاشمياً عن طريق هذا الزواج ؛ وكان وزير الخارجية عمر بن الخطاب وهو أموي ؛ وكانت إمارة اللواء معقودة لأبي سفيان رئيس بني أمية وحفيد مؤسسها ؛ وكان حارس الأقداح صفوان وهو أخ لأبي سفيان ؛ وكانت رئاسة الندوة لخالد بن الوليد وهو أموي أصبح فيما بعد أول فاتح عربي عظيم ؛ وأخيراً كان يتولى جباية ضريبة الفقراء أبو طالب وهو عم هاشمي آخر لمحمد .

قبل مولد محمد بشهور قليلة مات أبوه عبد الله ، وبسبب ما أصاب أمه نتيجة لذلك من فقر ومرض ، وبدافع من التقاليد القبلي من جهة أخرى ، عهدت بتربية ابنها عند ولادته إلى زوجة راع من البدو ، وهكذا قضى محمد الشهور الستة الأولى من حياته في الصحراء . ثم أعيد إلى أمه التي توفيت بعد قليل فكفله جده ومن بعده عمه أبو طالب . كان أبو طالب يجمع في شخصه بين دور التاجر من ناحية وواجباته في جباية ضريبة الفقراء من جهة أخرى .

ولما بلغ محمد الثانية عشرة من العمر اصططحبه معه في إحدى رحلات قوافله السنوية إلى الشام . وتوقفت القافلة عند دير بالشام ، حيث تحدثنا الروايات الإسلامية أنه التقى براهب نصراني يدعى بحيرا قدر له أن يغير حياته بأقوالها . ورغم أن محمداً كان أمياً فقد كان على درجة رفيعة من الذكاء وحب البحث والاستطلاع والميل إلى التأمل . وكان قد بدأ ينفر من الحياة السائدة في مكة تلك الحياة القائمة على عبادة الأصنام وعلى الرذيلة . والمرجح أن العم كان يعطف على أفكار ابن أخيه ، ولكنه التزم الصمت وكنم أمره باعتباره من أعضاء المؤسسة القرشية من جهة وتاجراً من جهة أخرى يدرك أن طرائق الحياة في مكة تلائم أهلها وتجذب نشاطاً تجارياً كبيراً . وظل الحال كذلك إلى أن التقى محمد ببجيرا فوجد فيه روحاً قريبة إلى نفسه يمكن أن يطمئن إليها تحدثنا الأسطورة الإسلامية بالطبع أن محمداً هو الذي أثر في بحيرا وأن الراهب تعرف فيه على سمة نبي هي حسنة في كتف محمد . والحقيقة أن الأكثر احتمالاً بكثير هو أن بحيرا ترك انطباعاً في محمد كرجل قريب إلى نفسه وكان أول من أطلعه على فكرة الاعتقاد في إله واحد^(١) . واضح أنه في هذا اللقاء الأول كان محمد هو الذي يواجه الأسئلة وبحيرا يرد عليها . وثمة أدلة على أن محمداً عاد أكثر من مرة مع قافلة عمه ليستطلع آراء ناصحه النصراني وليلح عليه بالأسئلة التي سعى بها إلى معرفة المزيد عن ديانتته^(٢) . وقد نعجب كيف كاد محمد أن

(١) هذا غريب جداً فقد كان هناك ، نصارى في بلاد العرب ومن المؤكد أن محمد كان يعلم ذلك ويعرف أيضاً الكثير عن ديانتهم ومن ثم لم يكن بحاجة إلى بحيرا لكي يطلعه على فكرة الاعتقاد في إله واحد وأكثر من هذا فإن محمد وسوف يبعثه الله برسالة لم يكن بحاجة إلى من يطلعه على فكرة التوحيد . ونحن نعلم عن الأثر أنه كان قبل بعثته ينفر من عبادة الأوثان (المترجم)

(٢) سافر الرسول بالتجارة إلى الشام أكثر من مرة ، فذهب به عمه أبوطالب إلى بصرى وهناك لمح فيه راهب اسمه بحيرا علامات النبوة بعد أن سأل عن أمور في يومه وبقضته ، ورأى في يديه علامات النبوة على ما جاء في كتب النصارى (حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ، الجزء الأول ، ص ٧٥ ، حاشية رقم ٢) — المترجم .

يصبح نصرانياً في سن التكوين هذه^(١)، وما إذا كان عمه وهو رجل ذو نزعة عملية أكبر قد أشار عليه بأن يستقر في مكة لمزاولة التجارة .

ولما أدرك محمد الخامسة والعشرين من العمر كانت رجولته قد اكتملت . لكنه كان ذا طاقة فائقة الحد ومظهر ملفت للنظر ، ورأسه أكبر من أن تتناسب مع جسمه، وله جبهة عريضة وعينان سوداوان ولحية كثة سوداء تخفى فماً كبيراً وبشرة أقرب نوعاً إلى الصفرة . وكانت تشيع في ابتسامته روح العطف والبر ، واسكن نادراً ما كان يضحك بصوت عال ، وكانت عيناه تبرقان إذا استثير . هذه الملامح بالإضافة إلى السمعة التي اكتسبها كتاجر أمين ، راقت في عيني أرملة ثرية إسمها خديجة كانت تشغل أيضاً بالتجارة . وهذا أدى إلى أن تعرض الزواج من التاجر الشاب الذي كان كثير الأسفار من أجل التجارة .

ولكن بينما كان السلام يسود حياة محمد الزوجية والتجارية كانت روحه على خلاف ذلك . فإذا راح يباشر عمله وعمل زوجته ظل يستعيد أحاديثه مع بحيرا . أصبحت تتسلط عليه الحاجة إلى إله واحد وإلى قيام شخص يعلن أنه نبي الله . وكانت أمثال هذه الأفكار تضايقه بحيث بدأت تراوده أحلام غريبة ، كثيراً ما كانت مصحوبة باضطراب نفسي . وعكف على التأمل وحيداً في غار قريب من مكة . وفي إحدى زيارته في عام ٦١٠ سمع صوت جبريل يناديه بأنه رسول الله ويأمره أن يقرأ وأن يقرأ باسم ربه^(٢) .

وبعد زيارات عديدة أخرى إلى الغار حيث كان يسمع في كل مرة نفس

(١) تخريج غريب وخیال مسرف ، . — المترجم

(٢) ورد هذا في الآيات ١ — ٥ من سورة العلق : « اقرأ باسم ربك الذي خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » ، وهذه الآيات هي أول ما نزل من القرآن — المترجم .

النداء الذى يدعوه إلى الاضطلاع بمهمة النبوة^(١) ، استشار خديجة . وإيماناً منها بصدقه انطلقت به إلى حكيم نصرانى كان صديقاً قديماً ومعلماً لمحمد ، لم يجد سبباً يدعوه إلى تكذيب القصة^(٢) . امتلاً محمد زهواً برأى الحكيم ، لكن الخوف من ردود فعل قريش الوثنية جعله يقصر دعوته خلال العامين التاليين على أسرته وعدد قليل من الأصدقاء . آمنت خديجة كما آمن على ابن أبى طالب الذى كان قد تزوج من ابنته فاطمة . ومن أوائل القلة من أنصاره أبو بكر أقرب الأصدقاء إليه ؛ وعثمان بن عفان وهو ابن عم لأبى سفيان وتزوج فيما بعد إحدى بنات محمد . ولكن موقف أعمامه تراوح من الحياد المشوب بالعطف فى حالة أبى طالب إلى العداء العنيف من جانب أبى لهب .

وفى عام ٦١٢ تلقى محمد النداء من جبريل بأن يدعو الناس جميعاً وخاصة قريش . وعلى ذلك إذ سعى دينه الإسلام من الكلمة العربية التسليم لله ، ودعا أتباعه باسم المسلمين ، أعلن لأهل مكة أن الله واحد وأنه الخالق القادر للكون وأن يوم الحساب لاريب فيه ، يوم يهلك الكفار فى نار جهنم وينعم المؤمنون بالجنة خالدين فيها . وضحك الناس منه ساخرين ، وكان رد فعل الدهماء قولهم أن طالبوه بمعجزات كما فعل موسى وعيسى ، وقوبل رده بأن كلمة الله كافية فى ذاتها ، بالاستهزاء البالغ .

وبرغم ذلك فإن ظهور محمد لأول مرة أكسبه نواة صغيرة من الأتباع ،

(١) « نأيتها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر لربك فاصبر » (سورة المدثر ، والآيات ١ — ٧) ، وهذه بداية دعوة الرسول — المترجم —

(٢) هو ابن عمها ورقة بن نوفل وكان شيعياً متقدماً فى السن يحفظ الانجيل ، فلما أخبره محمد بما رأى قال له : هذا الناموس الذى نزل على موسى . ومعنى الناموس ملك الوحي . — المترجم

وأدرك بنو أمية أن هاهنا خطراً محتملاً يهددهم هم وأسلوب حياتهم . كذلك أحس زعيمهم أبو سفيان بغيرة مرة من الهاشميين ورأى في « زندقة » محمد تحدياً لمصالح الأمويين . لكن الخوف من إشعال روح الثأر جعل بنى أمية لا يجروا ن على قتله ، وبدلاً من ذلك حاولوا أسلوب الرشوة فلما أخفق حاولوا تهديد أبى طالب وغيره من أهل بيته ، وأخيراً عمدوا إلى مضايقة وإهانته في كل مكان ، بفرض ندواته وتعذيب أتباعه . انطلق محمد إلى الطائف ولكن الأمويين تعقبوه ورجعوه وأخرجوه من البلدة . وفي عام ٦١٥ اضطر أن يبعث يأتباعه وعدتهم المائة أو نحو ذلك لالتماس الملجأ عند نجاشى الحبشة المسيحية^(١) ، ثم يخرج ليختبئ هو نفسه في قلعة بالصحراء في الحجازاز يملكها أبو طالب .

ولما أخفق الأمويون في حمل الحبشة على إخراج أتباع محمد انقلبوا على بنى هاشم في الحجاز وفرضوا عليهم مقاطعة اجتماعية واقتصادية حتى يجبرهم على تسليم النبي . مرت ثلاث سنوات لم يستطع خلالها هاشمى أن يبتاع أو يبتاع منه ، ولكن الشيعة ظلت صامدة برغم أنها كادت أن تهلك جوعاً ، وأخيراً أقر أبو سفيان ببعظه . كان أبو لهب الوحيد من آل محمد الذى اتخذ جانب بنى أمية ، وراح يلعن ابن أخيه وأمر ابنه بتطليق رقية بنت محمد التى سرعان ما تزوجت واحداً من الأمويين القلائل الذين اعتنقوا الإسلام ، وهو عثمان ابن عفان الذى قدر له فيما بعد أن يصبح أحد الخلفاء الأول بعد النبي .

(١) يلاحظ من ناحية الترتيب الزمني أن الهجرة إلى الحبشة كانت سابقة على خروج النبي إلى الطائف . — المترجم

في هذه الأثناء تعرض محمد لمأساة وهو في مخبئه بالصحراء ، كما حقق نصراً .
 ففي عام ٦١٧ توفيت خديجة وسرعان ما لحق بها أبو طالب . وفي الوقت نفسه
 دخل في الإسلام أحد زعماء بني أمية وهو عمر بن الخطاب . ربما بسبب الفرحه
 الشديدة لهذا الفتح الهام ، تراءت لمحمد أروع رؤيا وأوفرها جزاء حتى ذلك
 التاريخ ، عندما جاء جبريل يدعوه إلى بيت المقدس حيث يحمله حصان أبيض
 له جناحان ويطير به عبر السموات السبع إلى عرش الرب : في البيت المقدس
 الذي قال انه يشبه الكعبة في مكة . ولما صعد السموات التقى بجميع من تقدمه
 من الأنبياء — آدم ونوح وهارون وموسى وإبراهيم وعيسى — وعلمه الله
 شعائر الدين التي يتعين على المسلمين الالتزام بها . كانت هذه تشتمل في أول
 الأمر على خمسين صلاة ، ولكن أحس محمد وهو نبى عملى وبشرى ، أن مطالبة
 أتباعه بهذا شيء كثير ونجح في خفض العدد إلى خمس وذلك بمساعدة
 موسى الذى راح يؤازره وهو يذكر عدم انصياع بنى اسرائيل لأى من هذه
 الفرائض الصارمة .

لم تعد قصة هذه الرحلة الليلية بالكثير من النفع على قضية محمد إذ لم يصدقها
 آنذاك حتى أقرب صحابته ، ولما راحت عائشة بنت أبى بكر وهى التى تزوجها
 حديثاً ، تؤكد أن محمداً كان ينام إلى جانبها نوماً عميقاً الليل بطوله ، اعتبر
 هذا التأكيد دليلاً على كذبه . وخلال السنوات الثلاث التالية لم يقابل أيما
 ذهب بغير السخرية والاستهزاء ولكن عند هذه النقطة التقى به في سوق
 عكاظ جماعة من حجاج يثرب الواقعة على مسافة نحو ٢٧٠ ميلاً شمالى مكة
 وتأثروا كثيراً بما حدثهم به . وبعد أن عادوا إلى ديارهم أقنعوا يهود مدينتهم

أن محمداً هو المسيح المنتظر ، وبعد وقت توجه وفد يدعو النبي كي يتخذ من يثرب وطناً وقاعدة له ، فكان هذا انطلاقة كبرى . قبل محمد العرض بأهفة وبعث بأمين سره مصعب^(١) مع ١٥٠ من الأتباع لتمهيد الأرض . وعندما لحق بهم محمد بعد ذلك بقليل علم بنو أمية برحيله ، عن طريق عيونهم وبعثوا بالعسس يقفون أثره ، ولكن المطاردين أضاعهم على ما تقول الرواية آثار كاذبة وضعتها العناية الإلهية في طريقهم^(٢) .

هذه هي قصة الهجرة أو الهروب كما أطلق على رحلة النبي . ولقد لقيت أهميتها الاعتراف بها كنقطة تحول في مولد الإسلام وذلك عندما قرر عمر ابن الخطاب بعد ذلك بسبع عشرة سنة اعتبار عام ٦٢٢ عام الهجرة والبداية الرسمية للعصر الإسلامي .

أقام محمد في أول الأمر مع أتباعه الذين دعاهم الآن « الأنصار » أي المعاوين ، في إحدى ضواحي يثرب حيث بنى أول مسجد . ثم انتقل إلى المدينة ذاتها في أحد أيام الجمعة وهو اليوم الذي قرر فيما بعد أن يكون يوماً مقدساً عند المسلمين ، وفي البقعة التي بركت فيها ناقته وراء أبواب المدينة بنى الجامع النبوي وأقام مسكناً بمجواره . ما من شيء كان أوضح في بيان بساطة ذوقه ونفوره من الترف ، من هذا المبني البدائي الذي استخدم طيلة ما تبقى له من سنوات على ظهر الدنيا ، مكاناً يتعبد فيه الناس ويعلم الناس فيه ثم صار مثواه الأخير .

(١) هو مصعب بن عمير . — المترجم .

(٢) إلى هذا يشير القرآن في سورة التوبة (الآية ٤) : « لا تنصروه فقد نصره الله » .
لذا أخرجه الذين كفروا ثانی اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا .
فأنزل الله سكينة عليه وأبداه بجنود لم يروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم » — المترجم .

وكان أثاث المساكن الملحقة به قطعة حصير خشنة من الجريد ، تصلح فراشاً للنوم ، وإفناء من الفخار . ونظراً لعدم وجود منبر كان النبي يخطب مستنداً إلى جذع نخلة . كان يتكلم ببطء ولكن بمعنى مقصود ، وعيناه تتطلمان إلى أعلى كما لو كان يقرأ النص من السماء نفسها . وعندما لم يكن يعظ الناس أو لم يكن يحارب كما حدث بعدئذ ، كان يقضى وقته فى داره يصلح نعله ويشترى حاجاته من السوق . كذلك عاش الأنصار فى بساطة شديدة وتأخوا مع المهاجرين الأولين من مسكة وعدتهم خمسون ، فأخذوهم إلى دورهم وقدموا لهم نصف ما لهم — وهى عادة إجتماعية لا تزال موجودة اليوم فى المدينة المقدسة .

طراً الآن نغير أساسى على حياة محمد . لم يعد مجرد مرشد روحى يتجول فى البادية ، ولكن أصبح الآن حاكماً زمنياً تطلع إليه اليهود والقبائل المتحاربة فى يثرب — وهم الأوس والخزرج — كى يوفر لهم العدل والحكم الصالح . واستجابة لهذه المهام الجديدة عقد حلفاً مع اليهود تعهدوا والمسلمون بمقتضاه ألا يضايق أى من الفريقين الآخر ، وأن يدافعوا عن المدينة ضد أى معتدٍ . واكراماً لليهود جعل النبي من بيت المقدس قبلة يتجه نحوها المسلمون فى صلواتهم . وقرر اعتبار إراقة الدم جريمة ضد الله وجعل من نفسه محكمة الاستئناف الأخيرة بالنسبة إلى كافة المنازعات . كذلك غير اسم يثرب إلى مدينة نبي الله . وأمر جميع المسلمين الصادقين بالصيام من غروب الشمس حتى مطلع الفجر شهراً واحداً فى السنة — وهو شهر رمضان — ، وأن يحتنبوا اليسر والخير ، وأن يحطموا كافة الصور المنحوتة ، وأن يصلوا خمس مرات فى اليوم ، وأن يرجعوا إلى كتاب الله إذا تملكهم شك وألا يلجأوا إلى أساليب العرافين من قبيل القداح وغيرها من الأشياء التى صنعها الإنسان .

ولسكن السلام الذى حققه مع اليهود وبين القبائل العربية بالمدينة لم يستمر طويلا . ذلك أن بعض اليهود سرعان ما انتابهم الهواجس من ناحية هذا الدخيل الذى تنطوى مبادئه الداعية إلى المساواة ، على تهديد لثرواتهم وان ظل كثيرون منهم يرون من الحكمة أن يتظاهروا بالولاء . وتمسكت الغيرة قلب رئيس الخزرج عبد الله بن أبى بسبب ازدياد نفوذ محمد على المدينة . وبدأ الفريقان يتآمران مع الأمويين الكفار فى مكة — وعندئذ نزل الوحي على محمد مرتين فى تعاقب سريع . فى المرة الأولى أمره الله بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة فى مكة ؛ وكان واضحا أن هذا الإجراء يستهدف فصل المؤمنين الصادقين فى صفوف اليهود عن كانوا يتظاهرون وحسب بالإسلام بينما هم فى صلاتهم يولون وجههم نحو بيت المقدس ، العاصمة القديمة لليهودية . وأمره الله فى المرة الثانية « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم »^(١) .

بقاعدة يستند إليها أصبح محمد الآن رجل دين محاربا ، صمم على أن ينقل الحرب إلى عقر دار عدوه وأن يحطم الذين تأمروا ضده . وكما سبق له أن برر شعائره الدينية الصارمة بأن أبان أن الأديان التى بشر بها الأنبياء الأقدمون فسدت بسبب الرغبات الوثنية التى أثارها الحياة المادية ؛ كذلك أخذ يؤكد أن رافة موسى أو تقوى المسيح لم يكونا كافيين لفرض الإيمان . وعلى ذلك أعلن أنه بوصفه خاتم النبيين قد بعث ليقود المؤمنين من أجل القضاء على جميع من يرفضون الدخول فى شريعة الإسلام فقال : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » .

هكذا عمل محمد على أن يطلب أن تكون للإيمان الأولوية على متاع الدنيا، بأن وعد المؤمنين بأن لهم النعيم الأبدى في الحياة الأخرى . وبعد ذلك ، ولكي يحارب روح الهزيمة في صفوف رجاله ، أعلن مذهب القضاء والقدر . سوف يأتي الموت إليه وإلى أتباعه في الأجل المقدر ، سواء كانوا في الفراش أو في المعركة . وعلى ذلك فلهم أن يقاتلوا في سبيل دينهم وأن يستعدوا للجنة إذا ما خروا قتلوا في المعركة .

يمثل هذه النداءات المؤثرة يخاطب بها العقل والقلب ، تهيأ محمد لقتال قريش . فبدأ بمهاجمة قوافلها ، ولكن عندما لحقت سرية تابعة له بقافلة ثمينه بنوع خاص يملكها أبو سفيان وتحتوى على خمسين ألف قطعة ذهبية ، دق جرس الإنذار في مكة وخرج ألف من قريش للقتال . لم يتجاوز جيش محمد ثلاثمائة محارب عندما التقت القوى المتحاربة في بدر القريبة من المدينة . طبقاً للتقاليد بدأت المعركة بمبارزة فردية اختار لها كل طرف ثلاثة من المحاربين . كانت هذه المناوشات الأولية في صالح المسلمين ، وعندما سقط المحاربون الأمويون الثلاثة أصبحت المعركة عامة . وبصیحات التشجيع من جانب النساء ألقى العدو بنفسه على جيش محمد الصغير المكون من الأنصار ، بينما كان النبي يصلى في كوخ قريب . ولكن الأنصار كانت لهم ميزة الأرض المرتفعة ، وإذا ضعفت هجمات العدو المتوالية ، انتظروا الأمر بالهجوم . وجاء الأمر عندما التقط محمد بعد أن فرغ من صلاته ، حفنة من التراب وألقاها في اتجاه العدو وهو ينادى في الأنصار بصوت عال « . . لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » .

دحرت قريش ولكن هزيمتها إنما زادت من جنون أبي سفيان وغضبه

وفي العام التالي ٦٢٥ كانت المعركة سجلا بين الطرفين في أحد . كانت قريش تقابل بثلاثة آلاف رجل وخذعوا المسلمين غير المدربين ، وبعد أن انسحب عبدالله بن أبي (بن سلول) ومعه ثلاثمائة مقاتل ، استدرجهم من مواقعهم الدفاعية عن طريق التظاهر بالتقهقر ، ثم مرقتهم حيث التف خالد ابن الوليد ليضربهم من الخلف ، وخالد هذا هو الذي سوف يدخل في الإسلام فيما بعد ويصبح أول فاتح عظيم في تاريخه .

كان لهذه النسكة أثر عميق على القبائل المحلية وخاصة على اليهود في داخل مكة وفي خارجها . وسارت المؤامرات قدما ضد محمد وأبي بكر وعلى وعمر . كانوا يتصيدون أنباع محمد إذ يسرون في جماعات تضم الواحدة إثنين أو ثلاثة ، ثم يسلمونهم إلى قريش لتعدمهم أو يقتلونهم على الفور . وواصل عبدالله بن عقبة إمارة المتاعب ، بل أنه انحدر إلى درجة الاقتراء على عائشة ورميها بالفاحشة ^(١) . استشاط محمد غضبا إزاء هذه الاساءات والإهانات ، ولكن نسكة أحد كانت قد علمته الحذر وجعلته يتجنب المخاطرة بمعركة أخرى مكشوفة مع قريش ، وقصر انتقامه على شن غارات تأديبية قليلة ، قصيرة وشديدة ، ضد القبائل .

(١) هذه هي حادثة الإذك المشهورة التي أذاعها دعاة السوء حين رأوا صفوان بن المعطل يقود يعير السيدة عائشة في المدينة عند عودتها من غزوة بني المصطلق . فقد باتوا في مكان ثم أذن الرسول بالرحيل فارتحل الناس . وخرجت هي ليعرض حاجتها وفي عنقها عقد لها ، فلما فرغت انسل من عنقها دون أن تدري ، فلما رجعت إلى الرحل وذهبت تلتصقه في عنقها فلم تجد . وقد أخذ الناس في الرحيل فرجعت إلى مكانها الذي ذهبت إليه ، فالتصته حتى وجدته . وجاء القوم فساقوا البعير الذي فوقه هودجها وهم يعتقدون أنها فيه . فرجعت إلى العسكر وما فيه من داء ولا يجيب ، قد انطلق الناس ، فتلفعت بجلبابها ثم اضطجعت في مسكاتها . دمر بها صفوان بن المعطل عرسا فعرسها ، ثم قرب البعير واستأخر عنها حتى ركب وسار بالبعير سريعا يلتصق الناس . وقد يراها الله إذ قال في سورة النور « ان الذين جاءوا بالإذك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم . لكل امرئ منهم ما اكتسب من الأثم » — المترجم .

إن التكتيك الذى اتبعه وهو الاحتفاظ بقوته فى داخل المدينة ، ثبتت حكمته عندما زحف أبو سفيان على المدينة بعد ذلك بعامين على رأس عشرة آلاف محارب ، فى محاولة للقضاء على نهائياً . ولكن بناء على مشورة من عبد فارسى سابق كان النبى قد دعم وسائل الدفاع عن المدينة بأن حفر حولها خندقاً عميقاً ، واضطر أبو سفيان إلى أن يفرض حصاراً طويلاً .

وسرعان ما خبا حماس القائمين بالحصار ، بسبب جو قارس إلى درجة بالغة ، ونتيجة ريح صرصر عاتية وبفضل بعض دعاية ذكية من جانب عملاء المسلمين أحدثت الانقسام فى صفوف العدو ، انهارت معنوية قريش وعادت إلى ديارها . ولم يكن فى وسع أبى سفيان أن يفعل شيئاً سوى أن يبعث بكتاب إلى محمد يتهمه بأنه تصرف بطريقة تنقسم بالجن إذ احتفى وراء خندق . ورد محمد منجدياً بأنه سوف يحطم أصنام قريش .

فى هذه الأثناء لم يكن الحصار بغير أثر على المدافعين الذين كادوا يهلكون جوعاً عندما رفع . وزادت الأمور سوءاً عندما رفض يهود بنى قريظة فى المدينة مد يد العون إلى المسلمين ، ناكثين بذلك حلفهم مع النبى ؛ كما قدمت بعض القبائل اليهودية خارج المدينة مساعدة نشيطة إلى قريش . صمم محمد على الثأر ، وعندما رفع الحصار انتفض على معقل بنى قريظة . وبعد مقاومة استمرت خمسة وعشرين يوماً استسلم اليهود على أن يبت فى مصيرهم الزعيم العربى سعد ابن معاذ الذى كان معروفًا بأنه يعطف عليهم . ولكن سعداً الذى جرح فى حصار المدينة ، وجد غدرهم مما لا يمكن التجاوز عنه ، وقضى بقتل الرجال وسبي النساء والأطفال . وهكذا نفذ حكم الإعدام فى ستمائة يهودى .

كان تأثير هذا الإنتقام على قبائل الحجاز ، والذى جاء فى أعقاب فشل

قريش في الاستيلاء على المدينة ، سريعاً وشديداً كتيار السكهرباء .

أصبح محمد أسطورة حية . صار لمس ثوبه وعداً بالجنة — بل وكانت أظافره تجمع بعد قصها — ، وذاعت الروايات عن بسالته وقوته اللتين تفوقان مايملك البشر . من الآن فصاعداً انتقلت المبادرة إلى أيدي محمد وأتباعه . أما وقد دخلت القبائل في الإسلام ، فقد انتهى عهد التكتيكات الدفاعية . كان الهدف التالي مكة .

في أول الأمر كانت خطة محمد أن يستولى على المدينة بخدعة بأن يتخفى جيشه في ملابس الإحرام . ولكن عندما أرسلت قريش خالد بن الوليد على رأس قوة كبيرة لصدده عن غايته ، عمد إلى الدبلوماسية وبعث بعثمان زوج ابنته لمفاوضة أبي سفيان . وكانت النتيجة هدنة تسمح للمسلمين بأن يدخلوا مكة ولكن ليس قبل العام التالي ، ولمدة ثلاثة أيام وعلى أن لا يحملوا معهم سلاحاً . وفضلاً عن ذلك كان يتعين رد كل قرشي ينجاز إلى المسلمين ، بينما تحتفظ قريش بمن يأتي إليها من عند المسلمين . ولما كانت الهدنة تسرى لمدة عشر سنوات ، لم يكن من غير الطبيعي أن ينظر أتباع محمد إلى ما حدث على أنه ترتيب من طرف واحد . ولكن النبي الذي يعلم أن الهدنة أتاحت موطئ قدم بالغ الأهمية في الباب ، بدأ من احتجاجاتهم مؤكداً أن الله يراها نصراً .

وحتى يحافظ محمد على روح جيشه المعنوية بينما ينتظر التطورات على جبهة مكة ، قضى فترة الهدنة في مهاجمة القبائل التي لا تؤدى الجزية . فمن بين مواضع أخرى ، أغير على مستوطنة يهودية على حدود نجد وتم الاستيلاء على كنوزها وتقسيمها وفق القاعدة التي جاء بها محمد وهي أن تكون أربعة أخماس الغنيمة

للمحاربين والخمس لبیت المال . ولكن هذه المغامرة كادت تؤدي إلى موته ،
إذ في أثناء الولاية التي اقيمت احتفالاً بالنصر ، نجحت يهودية في أن تدس له
السم في طعامه . ورغم أنه عوفي بعد مرض دام أياماً قلائل ، فقد أساء السم إلى
صحته طيلة ما بقي له من العمر .

وفي الوقت نفسه ، وبايمائة تنم عن جرأة رائعة إذ لم يكن قد استولى على
مكة بعد ، بل ولم يتوغل إلى ما وراء الحجاز ، طلب محمد خضوع أمراء الشام
واليمن العرب ، والإمبراطور البيزنطي هرقل وعامله في مصر ، وكسرى
امبراطور فارس . في فورة هياج مزق كسرى كتاب محمد وبعث إليه باجزائه
عن طريق رسول ، ورد النهي غاضباً أن سيأتي اليوم الذي تمزق فيه بلاد
فارس بالمثل . ولكن إذا لم يكن أحد من هؤلاء الرجال العظام قد استجاب
إلى دعوة محمد لهم بالدخول في دينه ، إلا أنه حقق نجاحاً عندما دخل أحد قادة
قریش في الإسلام . ذلك أن خالد بن الوليد انحاز إليه فبعث به على الفور
على رأس جيش من المسلمين إلى فلسطين ليشاركه في قتال أحد رسله على أيدي
داورية بيزنطية . مرة أخرى برهنت هذه المغامرة على أن عبقرية محمد لم تكن
في الشئون العسكرية . فقد قتل ابن عمه الأول وعبد سابق عزيز على نفسه
كانا قد توليه قيادة القوة ولكنهما التقيا بجيش رومي كبير بصورة لم تكن
متوقعة ، ولولا مهارة خالد وجرأته لما أمكن خلاص جنود النبي بغير
أندحار .

في هذه الأثناء وأمام مكة كان محمد يستعدهم مهاراته السياسية على نحو
أفضل ويمهد الطريق إلى خضوعها النهائي . فاستغل الفرصة للظهور فيها أمام
جماهير انتابها الحيرة وإن لم تكن قد فتنت به بعد ؛ وفي الوقت نفسه عتد
زيجتين سياسيتين : أولاهما بخالة خالد ، والأخرى بابنة عدوه الأكبر أبي

سفيان ، وبذا وصل عدد أزواجه منذ خديجة إلى إحدى عشرة زوجة . وهكذا عندما تقضت بعض القبائل المتحالفة مع الأمويين الهدنة بمهاجمة قبيلة متعاطفة مع المسلمين وخرج النبي إلى مكة في يناير من عام ٦٣٠ طلباً للقصاص من المعتدى ، أحس الزعيم الأموي أن الأرض تمتد تحت قدميه . كان محمد أوفر منه ذكاء بكثير ، ولم يكن في وسعه أن يعتمد على ولاء المكيين الذين بدأوا ينظرون بغيرة متزايدة إلى قيام « المدينة » كمركز يحج إليه الألوف من قبائل الحجاز ممن دخلوا حديثاً في الإسلام ، وكان انحياز خالد ضربة أليمة ، ولم يعد هناك سوى معلومات سرية إضافية تذكر أن جيش محمد صار الآن يضم عشرة آلاف رجل ، ليجعل أبا سفيان يلتمس الصلح .

وبروح من الولاء الشديد لمولاه طالب عمر برأس الزعيم الأموي باعتباره عدوا لدودا للإسلام والمضطهد الرئيسى لمحمد . ولكن النبي لم يكن ليبدد أفضل فرصة أتاحت له للظفر بمسكة دون إراقة دماء ، فعفا عن أبي سفيان ، وعرض شروطاً رحيمة على أهل مكة شريطة أن يعترفوا أن « لا إله إلا الله » . ولقي العرض قبولا عن رضى ، ودخل محمد مكة دون مقاومة .

والتزاماً بوعده عفا عن كانوا يضطهدونه ، وسارع سادة قريش إلى إعلان الخضوع الدليل لنبي الاله الواحد . كان محمد يعلم وهو السياسى البارع ، أن الانتقام يولد مزيداً من الإثقام ، بينما تأتى الرحمة بالألوف ينضوون تحت لوائه . هذه البراعة لم يكن من دليل عليها هو أشد وضوحاً من الأوامر التى أصدرها بشأن الكعبة والحج . فبينما نفذ بالحرف الواحد النبوءة القديمة بأن واحداً من نسل إبراهيم سوف يقوم يوماً فيطهر بيت الله فى مكة بأن يحطم أو يزيل جميع أصنام قريش ويحرم أية صور أو تماثيل على هيئة البشر باعتبارها عادات وثنية ، نقول إنه برغم هذا أدخل أقل ما يمكن من التغيير

على أساليب التعبد القديمة ، فبقيت السكبة نفسها المركز الذى يعد إليه الحجاج ،
وبقى الطواف سبع مرات حول الحجر الأسود الكبير ، على نحو ما كان عليه
الحال فى عهد الوثنية . كذلك بقيت عادة الاستسقاء من بئر زمزم المقدسة ،
وبقى السعى سبع مرات عبر المنطقة التى كانت تهيم فيها هاجر بجنا عن الماء
لإسماعيل .

وبالمثل بقى زيارة الجبل المقدس فى عرفات ، ورمى لإحدى وعشرين
حصاة على الاعمدة التى تمثل الارواح الشريرة ، وتقديم الأضاحى من
الابل .

ولكن كان هناك فارق كبير الى درجة عالية فى فلسفة الدين الجديد
الاساسية بالمقارنة مع ما كان سائدا من قبل . فقد أعلن أن الإحسان هو
أعظم الفضائل جميعاً . « الصلاة نصف الطريق الى الله ، والصوم يؤدي الى
عقبته ، والإحسان يؤدي الى حضرته » . وكما كان الحال مع المسيح قال محمد :
مبارك هم الفقراء . كان التأثير المبكر لارهاب النصراني بحيرى لا يزال قويا ،
وان لإصرار محمد على فضائل الاحسان والكرم ليبين كم استعار نبي الإسلام
من المسيحية . فقد اعترف محمد بأن المسيح كلمة الله وكان يبشر بدين ابراهيم
وإن أحس أن المسيحيين المتأخرين شأنهم شأن اليهود من قبلهم ، قد أفسدوا
الدين الصحيح الذى دعا الله محمدا الى استعادته . ولعل فكرته عن صيام
رمضان كان المراد منها أن يبين للناس كيف كان الفقراء يعيشون وأن من
واجب المؤمنين أن يساعدوا الضعفاء ، أكثر مما كان — أى الصيام —
مجرد فرض شعيرة من أجل الشعيرة وحدها . وبنفس المعنى دافع عن حقوق
المرأة باعتبار أنها الجنس الأضعف . فلم يسمح بغير أربع زوجات وذلك فقط

إذا عدل الرجل بينهما^(١)؛ وخول للمرأة حق الطلاق مثلها مثل الرجل، وأصبح وأد البنات جريمة وهو ما كان العرف الجارى فى عالم جعل الرجال أعلى منزلة من جميع المخلوقات . كذلك سمح بافناء المبيد والجوارى ولكن بشرط أن يعاملوا كأفراد الاسرة وأن يأكلوا من نفس الطعام^(٢) .

واذ تحققت السيطرة الكاملة على مكة والمدينة أخذت صفوف الاسلام تزداد بالآلاف وأصبح فى مقدور محمد أن يستوعب كل من وفد اليه . وأزلت الهزيمة بهجوم مضاد شنه ثلاثون ألفا من الاعراب وفر الباقون منهم على الحياة الى الطائف التى سلموها الى الاسلام مقابل الوعد باعادة لمبلهم والغنائم الاخرى التى أخذت منهم . وبنهاية عام ٦٣٠ كان الراغبون فى اعتناق الاسلام يتوافدون من أقصى البلاد كاليمن وعمان والبحرين ، وكانت معظم قبائل الحجاز تؤدي الجزية . وفى أول حج رسمى فى العام التالى كان الاسلام من القوة اقتصادياً وروحياً بحيث أعلن على " باسم النبى بأنه من الآن فصاعداً يحرم دخول مكة على غير المسلمين ، وأن جميع المعاهدات أو العقود مع « الكفار » باطلة ولاغية .

ولكن فى الوقت الذى كان فيه الاسلام يستعرض عضلاته التى قويت حديثاً ، بدأ النبى يحس بالمرض — من آثار الطعام المسموم الذى تناوله قبل ذلك بعامين على مايقول البعض برغم أن الأعراض توحى بأنه كان يعانى من التهاب رئوى . وفى عام ٦٣٢ توجه الى مكة ، وبإحساس واضح بدنومنتيته قال لأتباعه « اللهم هل بلغت ؟ اللهم فاشهد » .

(١) « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فراجع » (سورة النساء ، الآية ٣ — المترجم .
 (٢) كان هذا النظام موجوداً فى العالم كله قبل الاسلام ، فجاء الدين الجديد يحث على العنق ويجعله من وسائل التفكير ، بحيث نقول أن ما وضع بهذا الشأن من قواعد وتعاليم ، هو دعادة بطريق غير مباشر أى إلغاء الرق . — المترجم .

وعند عودته الى المدينة مرض وقبض بعد أيام قلائل بين ذراعى زوجته
المفضلة عائشة . لم يصدق الناس الخبر ، وهدد عمر بأن يضرب بسيفه كل من
يؤكد أن النبي قد مات . ولكن أبا بكر حدث الناس الذين لم يصدقوا الخبر
فقال : « أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد
الله فإن الله حي لا يموت » ، ثم تلا الآية « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله
الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم »^(١) .

وأقنعهم كلام أبي بكر ، وبعد فترة الحداد المعتادة وهى ثلاثة أيام ، دفن
النبي في قبر تحت الفراش الذى مات فوقه .

ان كتاب سيرة محمد من المسلمين قد غلفوا حياته بالكثير من الأساطير
التي طمست التفسير الصحيح لتأثيره . ونحن اذ نجردوها من الغيبيات ومن
المعجزات التي سمعت الأساطير أن تفسر بها نجاحاته ، فان قصة محمد تثير
السؤال الآتى : كيف استطاع رجل واحد أن يقود مثل هذا العدد الكبير من
أتباعه إلى أن يتذكروا الحياة الوثنية واللّهو التي ألفوها وأن يمشوا في الطريق
الصعب والصخري الذي رسمه لهم الدين الصحيح ؟ من المؤكد أن هذا لا يرجع
إلى نبيل مولده فقد كان الكثيرون من معسكر قريش المضاد مثله من ناحية
نبالة المحتد وفي أيديهم سلطة زمنية أكبر في حكومة مكة والحجاز . كذلك
لم تسكن هالة النجاح بالتي سارت به في طريق النصر ، ذلك أنه حتى ابتداء
الأعوام الثمانية الأخيرة من حياته لم يلق سوى الهزيمة والاستهزاء . وحتى
بعد أن ضمن قاعدته الأولى في المدينة فإن طريقه كان أبعد من أن يكون طريق
النصر المتصل . الجواب على السؤال مزدوج . أولاً ، أن الإسلام باعلانه

(١) أوردنا نص الآية رقم ١٤٤ وهي من سورة آل عمران . المترجم .

الصريح ارادة الله، قد اجتذب العرب البسطاء العمليين ، بينما المذهب العقلي اليونانى الدقيق الذى تطور فى التعاليم المسيحية فى القرن السابع بعد موت المسيح ، لم يكن يلقي منهم القبول . وثانياً، وكما هو الحال مع كل ثورى ناجح ، مس محمد الأعصاب الخام للجاهير فى الحجاز التى لم يكن لها امتياز المشاركة فى ملذات الحياة . وإذ كانت رسالته الروحية تنطوى على دعوة إلى الثورة الاجتماعية ، وهى دعوة واضحة ، كذلك استطاع محمد أن يرفع العرب وأن يكسب المواطنين المهضوم حقوقهم والذين تلقوا نداءه ، كرامة جديدة فى أن يكونوا عرباً .

وهكذا ، على خلاف الرسالة التى نشرها أتباع المسيح فى حوض البحر المتوسط قبل ذلك بستة قرون ، استخدم دين محمد أداة سياسية أكثر منها دعوة روحية بحتة ، وفى الفتوح العربية التى أعقبت وفاة النبی أصبح الإسلام أداة لتوحيد الفاتحين أكثر منه دعوة إلى أهل البلاد المفتوحة ليعتنقوا الإسلام . ولكن محمداً ، على خلاف المسيح ، لم يكن إذن نبياً فحسب وإنما كان أيضاً حاكماً زمنياً جمع فى يديه بين وظائف رئيس الدولة وقائد عام الجيوش إلى جانب منصبه الروحى . لقد رأى وهو المتفوق فى الاستراتيجية السياسية أنه إذا لم يخضع العرب لمذهب روحى خاص بهم فسوف ينتهى الأمر بهم إلى الخضوع لدين وساطان أجنبيين على نحو ما أصاب أبناء عموماتهم فى الأقاليم البيزنطية والفارسية فى الشمال . فإذا كان هذا قد حدث فى اليمن عندما خضعت للاحتلال الحبشى والفارسى فى القرون الرابع والخامس والسادس ، فإنه يمكن أن يتكرر فى القرن السابع

في الحجاز أو نجد أو في مناطق الخليج الفارسي^(١) الواقعة ناحية الشرق . ولن تكون مجموعة من رجال القبائل العربية يعوزها النظام والتنسيق ندأً للجيوش ذات الإعداد الحسن التي كانت لدى الإمبراطورية البيزنطية أو الفارسية أو كليهما .

ما من أحد كان أكثر من محمد فهما لنواحى ضعف أبناء الصحراء العربية وتقلبهم . وما من أحد أكثر منه معرفة بمدى صلابة العرب في القتال إذا تراءى لهم النصر ، وكم يسارعون إلى السكف عن النضال عندما تواجههم الهزيمة . وما من أحد كان أوفر إدراكاً لقدرة القبائل العربية على نبذ قوتها البشرية ونشاطها في المنازعات الداخلية المريعة .

ولما لم تكن هناك قوة على الأرض تستطيع أن تبدل هذا النمط من السلوك ، فقد عرف أن عليه أن يستعين بقوة عليا كي يفرض الوحدة والنظام وكلاهما جوهرى ، من أجل استمرار بقاء العرب كجنس مستقل . فبدعوة الناس إلى الخضوع السكلى لإرادة إله واحد ، وبالتبشير بالجنة بعد الموت لمن انتصروا لتضيئته ، استطاع أن يقضى على الانقسامات الناشئة من المعتقدات والمعادن السكثيرة التي اتسمت بها الوثنية ، ومن المنافسات والخرافات التي تميزت بها الحياة القبايلة منذ عهد طويلة .

وعلى ذلك كان الهدف الأول هو بناء الإسلام على أساس راسخ ، وكان الهدف الثانى إدخال شبه جزيرة العرب كلها فى حظيرة الدين الجديد الواقية .

وبرغم أن محمداً انغمس فى عدد قليل من حالات التظاهر بالعظمة ومن

(١) العربى . — المترجم .

قبيل هذا دعوته أباطرة بيزنطة وأكاسرة فارس إلى الدخول في الإسلام^(١)، إلا أنه ركر طاقاته وكرمر حياته لهذين الهدفين . إن عظمتهم تكمن في أنه أمام كافة الظروف المضادة وفي فترة لا تتجاوز عقداً زمنياً لحسب ، حقق الهدف الأول ، وكان في سبيله إلى تحقيق الهدف الثاني عند ما وافاه الأجل . وبرغم أنه من ناحية المساحة الجغرافية لا يمكن أن تقاس بالفتوح التي تمت بعد وفاته، فإن ثورة محمد الروحية والاجتماعية غيرت بلاد العرب وحوالت العرب في جزء كبير من شبه الجزيرة إلى شعب موحد نسبياً ، يلتزم بالنظام ، وقادر على الدفاع عن وطنه وعلى مد حدوده إلى أقصى أركان المعمورة . على ما دلت عليه الأحداث فيما بعد . وعن طريق الشعائر الدينية التي تضمنتها عقيدته أعطى للطبقات الحاكمة في الحجاز احساساً جديداً بالمسؤولية لإزاء رعاياهم ، وأعطى الجماهير المهضومة ميثاقاً جديداً للعدل الاجتماعي .

ناحية واحدة فقط قصر إنجاز محمد فيها عن الكمال . فكما نرى في الفصل التالي ، كان نفوذه على قلوب العرب وعقولهم شخصياً ، وكان الوقت المتاح لتغلغل هذا النفوذ قصيراً بحيث أن الحوار بين الذي طغى عليهم ظله خلال سنوات انتصاره العشر تعرضوا للمعاناة عندما حاولوا منع القبائل العربية من الارتداد إلى أساليبهم الوثنية فور وفاته .

فلو أنه أحس بعد فتح مكة بدنو أجله فلربما عهد ببعض السلطات إلى من كانوا محل ثقته من صحابته أمثال أبي بكر وعلى وعمر . كان محمد زعيماً سياسياً هو من البراعة بحيث يدرك أن عشر سنوات وحسب من الدعوة ومن فتح جزء من بلاد العرب لن تكون كافية لأحداث تغيير دائم في أسلوب حياة عربي ظل قائماً آلاف السنين، أي كانت روعة تلك السنوات العشر في الأجل القصير .

(١) لم يكن هذا تظاهراً على الإطلاق ولكنه تنفيذ لجوهر رسالته إذ بحث للخلق كافة وكان دعوته لهؤلاء الحكام تمهيداً لما سوف يحدث فيما بعد ، وقد تحقق بالفعل . — المترجم

لأن عدم توقعه أنه لن يظل على قيد البقاء أكثر من عامين بعد انتصار قضيته لا يكاد يؤخذ حجة ضده . ولكن من الإنصاف فحسب أن نسجل أن السبب الرئيسى الذى من أجله لم يمت الإسلام فى المهد عندما مات نبيه والمبشر به ، هو إخلاص وشجاعة أولئك الحواريين المؤمنين — أبو بكر وعمر وخالد بن الوليد — الذين أبقوا الشعلة الروحية متقدة وأعادوا القبائل المرتدة فى جميع أرجاء شبه الجزيرة إلى الخطيرة . إن عبقرية محمد السياسية هى التى بدأت فتصورت فى بلاد العرب قاعدة دينه الوطنية، ولكن تلاميذه هم الذين أخرجوا هذه الفكرة إلى وجود دائم وضمّنوا شبه الجزيرة بإعتبارها قلعة الإسلام المنيعه طيلة بقيمة حياته .

إذا كانت مهارة محمد كاستراتيجى سياسى تعتبر أبرز مظاهر حياته فى نظر الذين يدرسون التاريخ العربى من غير المسلمين ، فالأمر الذى لا يرقى إليه الريب أن أروع وأحب ناحية فى طبيعته كانت إنسانيته . فمن بين أنبياء الأديان كلفة كان هو أكثرهم إنسانية . وكان أكثرهم فهما لعناصر الضعف فى الآخرين إذ لم يخجل من الاعتراف بنقاط ضعفه بل ومن كشفها علانية . كان يتوق إلى أن يكون له ابن ، ولكن برغم أنه ولد له اثنان فإن أيا منهما لم يمتد به العمر إلا سنوات قليلة . وكان حزنه لموتهما من الشدة بحيث بكى بصوت عال وطويلا متحديا القاعدة التى وضعها هو نفسه بتحريم بكاء المسلمين ونحيبهم على موتاهم الذين انتقلوا إلى النعيم الأبدى على ما بشر به الدين ، ومن ثم ينبغى أن يكون موتهم موضع الفرحه وليس الدموع .

وكانت متعته الوحيدة هى الشعر والعطر . فكان فى إمكان شاعر هجاء وسخر منه فى الأيام التى كان فيها موضع الاضطهاد ، أن يعتمد دائما على رافة

النبي بعد الأسر ، لمجرد كونه شاعراً . بل لقد كوفىء البعض من هؤلاء الشعراء . أما عن نفسه هو فلم يحتفظ بشيء له قيمة مادية ، وعندما مات ترك من بعده درعا وقيصا وعمامة وثوبا مرقعا وإناء من الجلد وحشية من جريد النخل . وكان كل نصيبه من الغنائم المستولى عليها في القتال وقدره الخس ، ينفق في خدمة قضية الإسلام .

إن بعض المؤرخين من غير العرب أتهموا محمداً بأنه أصبح بعد انتقاله إلى المدينة شخصاً تملكه جنون العظمة وأفاكا غير القواعد لتناسب أطعاه . هذا رأى أبعد ما يكون عن الإنصاف . فإلى أن ظفر بقاعدة آمنة يدير منها عملياته كان من العبث أن يحلم بالغزو . أما أنه كان منذ البداية يخطط كى يكسب بلاد العرب إلى دين الإسلام فأمر محقق . قد يكون من الإسراف في الظن أن نعتقد أن جميع الرؤى التى بدت له كانت صادقة ، أما أنه كان يؤمن أنه ينفذ مشيئة الله فأمر لا يرقى إليه الشك . وإذا كان قد تخلى بعد انتقاله إلى المدينة عن وداعته وسلبيته السابقتين واتخذ موقفاً عدوانياً وقاسياً إزاء الذين قاوموه أو خانوه ، فهو إما كان يستغل لحسب قوة كسبها لنفسه ضد مزايا طاعية توافرت لخصومه . وحتى لو كان في قرارة نفسه من طراز مهاتما غاندى ، فإن مجرد المقاومة السلبية ما كانت تفيده بشيء إزاء عدو لا يرحم مثل أبى سفيان ، أما أن يكون رحيماً بعدو مهزوم فقد تجلى هذا جيئاً في مكة والطائف عندما أقرت قريش بهزيمتها وأصبحت أخوة له في الدين .

هكذا كان محمد — الرجل البسيط الذى أصبح خارقاً للمألوف ، والتاجر المكي الذى أحس أنه مدعو لتغيير العالم الشرير الذى كان يعيش فيه ، والغلام الذى وقع تحت تأثير راهب نصرانى^(١) ثم بلغ مرحلة الرجولة وكنه تصميم على

(١) هذا اسراف في الخيال لا كان لقاء عابر في رحلة للتجارة ليسكون له أى تأثير على شاب حق وهو لم يكن هو نبى المستقبل . — المرحوم

توحيد العرب في ظل إيمان بإله واحد لا يقبل التجزئة . قد تساق حجج على أن دينه لم يكن خلقاً أصيلاً ، واستعار من المسيحية واليهودية بل ومن التقاليد الوثنية وذلك في رسم قواعد الإسلام وطقوسه ، ولكن ما من أحد كان أكثر منه فهماً لأخوانه من البشر ، وهذا المهم هو الذي مكّنه من التغلب على الأنانية والخرافة ومن خلق عميدة جديدة قدر لها في النهاية أن تستحوذ على قلوب ثمن أفراد الجنس البشري .

الفصل الثالث

بدايات الإمبراطورية

بوفاته محمد عادت القوى القديمة المؤدية إلى التفكك والمثلة في الحياة العربية والإستقلال القبلي واستياء غيور من أية سيطرة ذات صبغة مركزية . خلال السنوات القلائل التي عاشها النبي بعد فتح مكة كان العرب بما جبلوا عليه من احترام النجاح ، على استعداد كاف لتقبل أحكامه وأداء الجزية التي فرضت عليهم . ولكن القبائل لم تسكن بالتأكيد متحمسة للنظم التي سعى بها إلى تغيير النظام الإجتماعي واعتبرتها تدخلا ليس له ما يبرره في تحريم الإسلام القاطع للحرب بين المسلمين ، وهو التحريم الذي هدد لعبتهم التي درجوا على ممارستها طويلا وهي لعبة القتال بين القبائل . ومن ثم عندما لم يعد هناك محمد ليفرض رسالته بقوة شخصيته هو ، بدأت القبائل في وسط بلاد العرب وشرقها تطرح عنها نير الإسلام وتطرد العمال الذين كان قد بعث بهم للتأكد من دفع الجزية المقررة .

وفي الوقت نفسه قام في البحرين والشمال الشرقي من يزعمون أنهم خلفاء النبي الشرعيون . وأراد أهل المدينة أن يجعلوا أحد مواطنيهم — وهو خزرجي من نسل عبدالله بن أبي — خلفا لمحمد أى خليفة بدلا من أن يحكمهم قرشى من مكة وبنوا مطلبهم على حقيقة أنهم هم الذين آووا محمدا عندما أعطوه قاعدة آمنة لولاها هلكت قضيتهم . ومقابل هذا أقام المكيون الذين كانوا أول من اعتنق الإسلام ، الحجة على أن لهم وقد أيدوا محمدا منذ البداية ، الحق المسبق في تعيين الخليفة .

وأخيراً كان هناك فريق من المتمسكين بالشرعية وهؤلاء راحوا يحاجون بأن
النبى سبق أن اختار فى الحقيقة علياً زوجاً ابنته ، وأن علياً على أى حال هو
الورث الشرعى الوحيد بحكم قرابته الوثيقة .

ربما كان يمكن تفادى الكثير من هذه المتاعب لو أن محمداً ترك وريثاً
ذكراً أو أشار بوضوح قبل موته إلى من يختاره خلفاً له . وبرغم أن نظام
الميراث العربى كان بحكم التقاليد انتخابياً أكثر منه وراثياً ، إلا أن من
المحتمل أن الخليفة الذى يختاره النبى كان سيقبّل القبول فى مكة والمدينة .
ولكن بسبب عدم وجود دلالة من محمد عن سيكون موضع إثاره وتفضيله ،
اضطر المسكون إلى اللجوء إلى نظام الانتخاب . وهنا واجههم النبى بورة
حيث لم يمين مجعاً لانتخاباً لاختيار الخليفة . كان خلال حياته قد هدم النظام
القرشى القديم للحكم ، وهو إذ ركز فى يديه جميع السلطة الزمنية فضلاً عن
الروحانية ، جمع فى شخصه وظائف المشرع وقاضى القضاة وقائد الجيش
ورئيس الدولة والرأس الدينية . وهكذا فعند ما مات لم يكن هناك جهاز
دستورى معد يمكن أن يمهّد إليه بمهمة اختيار خليفته .

وعلى ذلك ترك لمجموعة مؤقتة من الصحابة على رأسهم أبو بكر وعمر ،
إختيار شخص يملأ الفراغ ويتولى مقاليد الحكم فى الدولة الإسلامية الوليدة .
كان أول تحرك لهم تنفيذ دعوى المتمسكين بالشرعية أن محمداً كان قد عين
علياً . ثم عملوا على أن يضمنوا أنصار المدينة إلى صفهم ، محتجين بأن الأوس
لن يقبلوا أبداً خليفة من الخزرج ، وعلى ذلك فإن مثل هذا التعيين سوف
يقسم المدينة على نفسها ، وخلّ عنك إبعادها عن مكة . أما اختيارها كمين :

قرشى لسكة وخزرجى للمدينة ، فلن يعمل إلا على إضعاف الإسلام والعرب في لحظة حرجة من نموهم .

هكذا كانت سمعة أبى بكر في التعامل المنصف والخالى من المصلحة الذاتية بحيث أنه عندما اقتنع الناس بهذه الحجج بايعوه هو نفسه أول خليفة للنبي . لم يشترك على فى أى من هذه الإجراءات ، ذلك أن استيائه بسبب عدم تعيينه خليفة من قبل محمد ، زاد من حدته غضب زوجته فاطمة عندما أنكر عليها أبوبكر حقها فى أراض معينة كانت ملكاً لأبيها . الواقع ، أن الألم الذى أحس به على جعله ينسحب تماماً من النضال طيلة السنوات العشرين التالية وترك غيره يحسن استخدام السيف الذى سبق أن شحذه فى مقدمة جيش النبي .

قبل أبوبكر وهو شخص رقيق وكريم أحنّت السنون ظهره الى حد ما ، المنصب على غير رضاء ذاتى وتحدث فى تواضع بالغ عن عدم أهليته لحل المهمة . كان يفضل أن تكون الخلافة لعمر بحسبه الضخم وشخصيته المسيطرة وحماسه المتعصب ، ولذا ليس مما يشير الدهشة أنه عندما مات بعد ذلك بعامين عين خليفة له هذا الذى كان أول من دخل فى الإسلام من الأمويين .

ومع ذلك ، وبرغم كل رقة أبى بكر ، كان من البراعة بحيث يدرك أو بحيث يقنعه عمر ، أن أساليب قفاز الحرير لن تكون كافية لإعادة القبائل المرتدة الى حظيرة الإسلام أو للاحاق الهزيمة بأدعياء النبوة فى الشرق . هذه القوى الداعية إلى التفكك كانت تتطلب اجراءات أكثر شدة للسيطرة عليها . وعلى ذلك تحول أبوبكر إلى الجندى الذى كان قد ترك أعظم الانطباعات فى نفوس المسلمين ، وهو خالد بن الوليد ، وبعث به ليعالج أمر هؤلاء الأدعياء .

كان خالد وكما سبق أن أظهر ، قائداً عظيماً للرجال ورجل تكتيك بارعاً ، يتصف بشجاعة غير هيابة وبرأى هادىء وواضح فى أشد المارك ضراوة . وبعدم اهتمام بالحياة البشرية غير معتاد عند العربى . كان خالد يقتل خصومه بلا هوادة ولم يتردد فى أن يتزوج أرملة عدوه فى ساحة قتال خضبت بدماء قومها^(١) . وأى أسير عرف عنه أنه قتل مسلماً ، كان يقتل بالطريقة ذاتها التى استخدمها فى إزهاق روح خصمه ، ومن ثم كان يدفن حياً أو يرجم حتى الموت أو يلقي به من فوق جرف عالٍ أو يرمى بالسهم .

ولكن خالداً كان يفرق بفرقة واضحة بين معاملته للكفار الذين يعتنقون الإسلام عند وقوعهم فى الأسر وبين المرتدين الذين كانوا قد خرجوا على العقيدة . كان يعفو عن الأولين ويأمر بقتل الآخرين .

شكل أبو بكر جيش خالد من زهرة رجال مكة والمدينة ، ولم تمض ستة أشهر حتى كان قائده قد هزم اثنين من المتنبئين فى شرقى بلاد العرب وأرغم حلفاءهما المتوردين على الركوع . وقاومت قبيلتان بوحشية . فقد انقض بنو حنيفة على المسامين وأعملوا فيهم القتل . ولكن خالداً بهدوئه المعروف عنه ، جمع رجاله وقسمهم إلى جماعتين : أهل البدو وأهل الحضر ، كى يشير روح التنافس فى هجومهم المضاد . ثم راح هو ورجاله يمزقون العدو إرباً ، وسالت الدماء بغزارة بحيث أطلق على المعركة فيما بعد اسم « حديقة الموت » . وقتل مسيلمة زعيم بنى حنيفة وأحد مدعى النبوة ، وبلغت خسائر بنى حنيفة الآلاف وقتل من رجال خالد ألف ومائتان ، ولكن المنتصر الذى لم يخجل لفقده ربع قوته ، تزوج ابنة مسيلمة فوق أرض المعركة .

(١) أنظر تأييب أبى بكر له فى ص ٥١ — المترجم .

هذه القسوة كانت موضع تأنيب قاسٍ من جانب أبي بكر الذى كتب إليه يقول: « لعمري يا بن أم خالد أنك لفارغ! تنسكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين »^(١). ولكن خالدًا اقتصر على هز كتفيه وعزا التأنيب إلى تأخير عمر الذى سبق أن طالب بعزل خالد بسبب ذنب مماثل ورماءه في وجهه بأنه قاتل وفاجر ومنافق . كان أبو بكر قد رفض أن يطرد أفضل قادته قائلاً أنه لا يستطيع الآن أن يغمد « سيف الله » وهو اللقب الذى أطلق على خالد رمزاً لانتصاراته . وإذ ثبت خالد في مركز القيادة واصل الانتقال من نصر إلى نصر . وصلت أخبار انتصاراته بالبحرين ونجد إلى كل جزء من جنوب بلاد العرب ، ولم تكن إعادة عمان وعدن وحضر موت إلى الحظيرة لتحتاج إلى أكثر من اقتراب حملة تأديبية أخرى من المسلمين .

كمل الآن الفتح الإسلامى لشبه الجزيرة العربية ، واذ أصبح للعرب قاعدة آمنة خلفهم كانوا في موقف ينطلقون منه إلى ميادين جديدة ، وبدأت الشام وفلسطين والعراق أسهل الآمال وأقربها . كانت جميع البلاد الثلاثة على أقصى درجة من الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية ، ومن يملكها يتحكم في الأبواب المؤدية إلى آسيا الصغرى ومصر وفارس ، ووجد بدو الصحراء في المدن الجميلة والمراعى الغزيرة بهذه البلاد قوة لإغراء لا يمكن مقاومتها .

وفضلاً عن هذا فإن الامبراطوريتين المتسلطتين على هذه الأراضي — وهما بيزنطة وفارس — لم يكفا عن الاقتتال فيما بينهما إلا منذ وقت قريب في حرب دامت ستاً وعشرين سنة وكانت تمثل الجولة النهائية في النضال الطويل بين هذين العرقيتين . كانت نتيجة الجولة الأولى في صالح فارس عند ما انتزعت بيت المقدس في عام ٦١٤ من إمبراطور القسطنطينية البيزنطى . ولكن ما أن

(١) النص كما أورده الطبري — المترجم .

حل عام ٦٢٨ حتى كان البيزنطيون قد أخرجوا الفرس من فلسطين والشام، وحصروهم وراء نهر الفرات في العراق (أو كالديا كما كان يطلق عليه آنذاك).

كان الجهد قد استنفد قوى كل من المنتصر والمهزوم. فقد أفلست بيزنطة، وفي سبيل تدبير الاتفاق اضطرت إلى انتهاج تلك السياسة الكريهة، سياسة تقديم الإعانات من الولايات الواقعة عند الحدود. وسادت في فارس حالة من الفوضى إذ كان من مخلفات الهزيمة أن قتل كسرى وذكور الأسرة المالكة بيد أحد أبنائه. وبعد اغتيال القاتل نفسه استولى على العرش مطالبون مختلفون لبيعة أو يُعزلوا بدورهم، وكان آخر من نصب أميراً في الخامسة عشرة من العمر يدعى يزديجرد، كان قد نجا على نحو ما من تلك المذبحة البشرية. يضاف إلى هذا أن حكام بيزنطة وفارس كانوا قد اشتبكوا في نزاع مع الفساسنة واللاحميين لأسباب دينية وأثاروا عاصفة من العداء في الشام والعراق بالغائهم هذه الأسر المالكة العربية المحلية وفرض حكمهم المباشر. (كان بنو غسان قد اعتنقوا زندقة الكنيسة القبطية التي كانت تصر على أن للمسيح طبيعة واحدة — هي الإلهية — وذلك على نقيض اعتقاد الكنيسة الأرثوذكسية في طبيعة المسيح الإلهية والبشرية). وهكذا، وقد كان للعرب الكثير الذي يكسبونه من تملك هذه الأراضي، كان من المحتوم وقد خرجوا منتصرين في بلاد العرب، أن يتابعوا الميزة التي حققتها وذلك بأن يهاجوا هاتين الامبراطوريتين اللتين أصابهما الضعف والواقعيتين إلى الشمال.

منذ بدء النضال ضد الفرس والروم تمتع العرب بنوع الميزة الذي تملكه في المصور الحديثة الشعوب التي لها سيادة البحار. في هذه الحالة كان البحر

هو الصحراء ، وبينما تمتع العرب بحرية التحرك والتنقل الكاملة في هذا ، أى بمنصرهم الممثل في وطنهم ، لم يكن في إمكان الفرس والروم التحرك في الصحراء على الإطلاق . فمن ناحية ، كان العرب يستخدمون الابل بينما كان خصومهم يركبون الخيل التي يقل كثيراً احتمالها لظروف الصحراء . ومن جهة أخرى فإن إلغاء الأسر الحاكمة العربية في الشام والعراق كاف الروم والفرس معظم فرقهم الصحراوية عندما سحبت القبائل تعاونها احتجاجاً على القضاء على هذه المظاهر الدالة على استقلال العرب الذاتي .

من المؤكد أنه ما من شيء آخر يمكن أن يفسر الانتصارات الخارقة للمألوف التي قدر للجيش العربي أن تحرزها على أعظم امبراطوريتين في تلك الأيام . صحيح أن الروم والفرس كانوا يعانون من الإعياء المتولد من الحروب ومن الفوضى ، وأن الفرق التي شكلوها من الأرمن ومن العرب النصاري وحاولوا بها سد الثغرات التي خلفتها في صفوفهم حروب الثار التي سبق أن دارت بينهم ، نقول إن هذه الفرق كانت تخدمهم بفعل الخوف من الانتقام العربي أكثر منه نتيجة الحماس لحكامهم . ولكن العرب كانوا دون خصومهم إلى حد كبير من ناحية التدريب والمعدات . كان تدريبهم يكاد أن يكون معدوماً ؛ فبمجرد أن يتطوع المجندون الجدد للخدمة كان يبعث بهم إلى الحملات التأديبية . وكان تعيين القواد يتم بطريقة عشوائية ؛ ففي إحدى الحالات نجد شخصاً كان أول من استجاب لدعوة الخليفة قد عين قائداً لمجرد أنه كان أول من تطوع . وأسلوبهم في القتال وكان مبنياً على فن الحرب القبلي وبعكس نزعة البدوي الفردية البدائية ، هذا الأسلوب كان عبارة عن هجمات مفاجئة يشنها فدائيون من الفرسان ، فإذا فشل العرب في إحراز النصر فإنهم يختفون في الصحراء فجأة بمثل ماظهروا .

كان التحام المشاة غير معروف لهم ، كما كان يتعارض مع فلسفتهم في المعارك حيث يبارز الرجل الرجل . أما عن المعدات فهم لم يكونوا أقل من خصومهم من ناحية الدروع فحسب بل كانوا يفتقرون إلى الأسلحة الثقيلة المساعدة التي تماثل ما عند الخصوم ، وعلى ذلك كانوا مضطرين إلى الاعتماد على إطلاق السهام بكثرة لتكون ناراً تغطي هجومهم . إلا أنه برغم نواحي النقص هذه استطاعت جيوش المسلمين أن تحطم روح الروم والفرس المعنوية وتلقى في قلوبهم الرعب فيسلمون مدنيهم المحصنة ، من صغيرة وكبيرة . وهكذا أظهروا للعالم ما يمكن أن تفعله الشجاعة والمفاجأة ضد قوات تفوقهم .

وبرغم ان الهجوم العربي الرئيسي كان سيوجه ضد الشام وفلسطين ، إلا أنه وقع الاختيار على العراق ليكون أول هدف لجيوش الخليفة ؛ من جهة بسبب قربه الشديد من أرض المسلمين ، ومن جهة أخرى لأن الحالة السائدة من الفوضى في ممتلكات الامبراطور الفارسي جعلته يبدو في نظر العرب خصماً أضعف من نظيره البيزنطي . عين خالد على رأس الحملة التي خرجت في مارس ٦٣٣ متجهة إلى العراق . وعند اقترابه من الأراضي الفارسية تلقى أول بشير بالنجاح الذي سوف يلزمه ، وذلك لما لحقت به قبيلة بني بكر بقيادة زعيمها المحارب المغوار المثنى ابن حارثة ، وذلك على مقربة مما يشكل الآن الحد الفاصل بين العراق والكويت . فبرغم أن فريقاً من بني بكر كان قد تنصر ، إلا أنهم كانوا في حالة من التردد السافر على الفرس منذ الغاء الأمرة الحاكمة للنجمية في العراق ، فسارعوا الآن إلى الدخول في دين الغزاة المسلمين .

بهذا الحدث الذى ساقه القدر زادت القوة التى تحت أمره خالد إلى ثلاثة أمثالها . وإذ زحف المسلمون نحو وادى الفرات طلب إلى هرمز وإلى دلتا دجلة والفرات أن يعتنق الإسلام أو يواجه الهزيمة والموت . وإذ ارتكب هرمز خطأ خطيراً بأن قلل من شأن جيش المسلمين باعتبارهم شراذم من رجال القبائل غير المدربين ، تقدم لملاقاتهم . وجريا على العرف دعا خالداً إلى منازلته قبل بدء المعركة العامة . ولكن خالداً فرغ منه بسرعة ، ودحر جيشه الفرس الذين اعترفهم الدهشة وطاردهم حتى نفس أسوار عاصمتهم .

قرر الفرس الآن أن يقاوموا العرب بالعرب . فتقدم جيش من الفرس ومن فرق من العرب المسيحيين لطرد الغزاة ، ولكن القائد المسلم غلبهم بتفوقه فى القيادة والمناورة . جمعوا شملهم لشن هجوم جديد وكادوا يحرزون النصر ، وفى هذه المرة تخلى عن خالد ما اتصف به من البرود فى الأزمات فأقسم أنه إذا منحه الله النصر النهائى فسوف يحول دماء عدوه إلى نهر قرمذى اللون . ولما تحطم الفرس فى النهاية وبرأ بقسمه ، جمع أسراه وأمر بقطع رؤوس جماعات منهم والقائهم فى قعر قناة جافة .

بعد ذلك استأنف خالد زحفه على العراق . وأخذ بمشورة معاونيه ومساعدته الرئيسى المثنى بن حارثة وهو أن يقاتل العدو فى الصحراء حيث يظفر بالنصر ، فإذا ما هزم كانت الصحراء التى يألفها ويعرفها وراء ظهره . وتطبيقاً للمشورة أعد قواته على هيئة أسطول من أساطيل القراصنة يطوف على مقربة من البر على امتداد ساحل العدو ، ثم ينقض على الداخل عندما يشاء وبسرعة وحرارة البرق.

كانت الخيرة هدفه التالى ، وبعد حصار قصير اتفق مع أهلها ومعظمهم من العرب ، على تسليمها . ومقابل أداء الجزية سمح لهم بحرية العبادة ، وتعهد المسلمون بحماية المدينة . هذه الرأفة غير المعتادة من جانب خالد يمكن تفسيرها بأن الخيرة كانت محصنة تحصيناً جيداً وقادرة على المقاومة العنيدة ، وأنه كان يحتاج إليها ليتخذ منها قاعدة لجيشه الذى لم يكن فى داخل أرض العدو لحسب بل وكان أيضاً يبعد ألف ميل عن وطنه ولا يفصلها عن الحجاز سوى الصحراء . وفور الإستيلاء على الخيرة تجلت مخاطر خط المواصلات الطويل ، عندما توجه جيش عربى ثان لمساعدة خالد فتعرض لضرب شديد من بعض القبائل العربية عند دخول العراق ولم يخلصه سوى الذين جاء لتدعيمهم .

ولما رجع خالد إلى الخيرة بعد هذا الحادث غير المتوقع وجد أن الفرس قد تجمعوا وتهيأوا للقتال من جديد بأعداد أكبر من ذى قبل بالتعاون مع حلفائهم العرب النصارى . فقرر أن يستخدم إستراتيجية جديدة ويهاجم عدوه ليلاً ، ففر الفرس وقد تملكهم الرعب بعد أن أخذوا على غرة . والآن أصبح فى إمكان خالد أن يستأنف الزحف سعيّاً وراء فتوح جديدة تاركاً قاعدته فى رعاية الجيش العربى الثانى . وزحف على طول وادى الفرات فوصل إلى فيراد التى تبعد ثلاثمائة ميل عن الخيرة ، قبل أن يلتمى مقاومة جديدة فى ذلك الوقت كان النهر عند هذه النقطة يشكل الحد الفاصل بين الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية ، وفى هذه المرة تعاون هذان الغريمان عندما راحت حاميات الحدود من الروم والفرس سوياً تتحدى خالداً أن يعبر النهر ويهاجمهم . تحداهم خالد أن يعبروا مهاجمته ، ولما عبرت القوات المتحدة الفرات ظفر بنصر جديد واستعمله على العراق بسبب إنجازاته ، خليفة دخل السرور على قلبه ويعترف بالجميل .

في هذه الأثناء كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق في العراق لغزو فلسطين التي كانت من ناحية التقسيم الإداري جزءاً من سوريا الكبرى وتشكل أقصى مقاطعاتها في الجنوب . ثم تجنيد أربعة وعشرين ألف رجل وضعوا تحت إمرة أبي عبيدة الذي كان في مقدمة الذين أيدوا خلافة أبي بكر بعد وفاة محمد . وقسمت القوة إلى أربعة ألوية ، وأولها بقيادة عمرو بن العاص وعليه أن يغزو فلسطين عن طريق العقبة . كان عمرو محارباً شاباً يتفقد حمية ، وعلى غرار خالد كان قد خدم أبا سفيان في النضال ضد محمد ، وكان من بين وفد قريش الذي طلب في عام ٦١٥ من نجاشي الحبشة إخراج أتباع النبي . وكان على اللواء الثاني بقيادة يزيد بن أبي سفيان حاكم نجد والحجاز أن يزحف على دمشق ، بينما يبقى اللواءان الآخران كاحتياطى . وكان كل لواء يتكون من محاربين أشداء على جانب كبير من الدربة ، وهم من أهل المدينة ومكة ، ومنهم مائة ممن بقوا على قيد الحياة من الثلاثمائة « صحابي » المشهورين الذين سبق أن هزموا أبا سفيان في غزوة بدر ، وبهذا لم يكن ثمة شك في كفاءتهم أو شجاعتهم . ولكن خشية أن يغلب حماسهم على حكمهم نقضهم أبو بكر درسا شديداً قبل خروجهم . فذكرهم بمسئوليتهم كحاملة راية الإسلام في أراضي الأجانب والكفار ، وأوصاهم باحترام النساء والأطفال والشيوخ ، وألا يسلبوا المحاصيل أو الماشية أو الإبل إلا إذا كانت بهم حاجة حقيقية ، وألا يغشوا أو يخونوا أو يسرقوا أحداً ، وأن يعدوا بالحكم الصالح وبقيموه للشعوب التي يفتحونها .

وكما كان الحال في العراق فالغزو الإسلامي لفلسطين ساعده السخط السائد في صفوف القبائل ضد حكامها . سار كل شيء سيراً طيباً في أول الأمر ، وباستخدام تكتيك « اضرب واهرب » الذي طبقه خالد بنجاح ضد الفرس

انتصر عمرو في اشتباكين سريعين ضد الروم على مقربة من العقبة وغزة ،
ولكن عندما راح هو ويزيد يواصلان الزحف شمالا اشتدت مقاومة الروم
ووجدأ أنفسهما عاجزين عن التقدم وأنهما في خطر من قطع خط الرجعة وذلك
عندما أعلن حاكم دومة العربى الخروج على الإسلام ، وكانت دومة هذه
موضعا يقع في مؤخرة الجيوش العربية وفي منتصف الطريق بين فلسطين
والعراق . فلما سمع الخليفة بما هما فيه من محنة أمر « سيف الله » أن يسرع إلى
نجدتهما . وعلى رأس قوة من تسعة آلاف رجل شق خالد طريقه عنوة مسافة
ألف ميل عبر الفيافي الجافة وغير المطروقة في صحراء الشام الكبرى ، وسحق
شيخ دومة المرتد ، ثم انضم إلى قوات عمرو عند أجنادين القريبة من بيت
المقدس في يوليه ٦٣٤ وأوقع الهزيمة بقوة مشتركة من الروم ورجال القبائل
المسيحية ، قيل إنها كانت من ١٠٠.٠٠٠ رجل .

كانت فلسطين كلها مفتوحة الآن أمام الغزاة المسلمين ، ولكن إلى
الشرق منها كانت جيوش الإسلام تحت ضغط شديد . فنظراً لأن أبا بكر
نهى عن تجنيد القبائل التي ثارت على الإسلام بعد موت النبي . أصبح
نقص القوات مشكلة وخاصة في العراق حيث كان خالد قد سحب منه زهرة
الجيش ليعزز عمرو في فلسطين . استغل الأعاجم هذا الموقف ودبروا
هجوماً مضاداً ، وفي أكتوبر من عام ٦٣٤ ، وباستخدام الفيلة لبث الذعر في
قلوب العرب ، تغلب القائد الفارسي رستم على القائد المسلم المنفى بن حارثة
وأخرج جيشه من وادى الفرات بعد مذبحته رهينة مات فيها أربعة آلاف من
المسلمين . وعلى الفور رفع الخليفة الحظر على تجنيد القبائل المرتدة ، وبفضل
التعزيزات القوية التي بدأت تتحرك الآن من الحجاز ، ثار المنفى نفسه في

العام الثانى عند البويب على مقربة من الخيرة ، ومرة أخرى دفع بالفرس أمامه حتى أبواب طيسون .

في هذه الأثناء كان خالد يوالى الضغط من أجل الوصول إلى « ملكة المدائن » — دمشق — التي كانت تقع في سهل خصيب دعاه عرب نجد والحجاز « جنة الدنيا » . كانت دمشق التي ظلت أكثر من ألف عام عاصمة للشام ، من بين أغنى وأجمل مدن الإمبراطورية البيزنطية ، وفيها مذاق حقيقى بما تشتمل عليه الجنة ، وكان الاستيلاء عليها يمثل في نظر جيوش المسلمين جائزة تلهب الخيال . وبضم الألوية التي قدم بها أبو عبيدة من فلسطين وصل خالد إلى هدفه في مارس ٦٣٥ . وبعد حصار استمر ستة أشهر ، وبفضل ألوان الاستيلاء في صفوف الحامية المسيحية ، فتحت دمشق أبوابها واستسلم الحاكم البيزنطى .

وتشياً مع تعليمات أبى بكر للقوات عند خروجها ، كانت شروط التسليم التي سوف تصبح نموذجاً يطبق على ماسيستولى عليه المسلمون فيما بعد ، شروطاً لينة للغاية بالنسبة إلى الأهلين . فأعلنت في عبارة موجزة ولكنها حاسمة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها ، أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم ، لا يهدم ولا يسكن شئ من دورهم . لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين ، لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية ^(١) . »

(١) هذا النص من كتاب « فتوح البلدان » تأليف أحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاد ذرى ، القسم الأول ، طبعة مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٤ — المترجم .

كان مجهوداً ماهراً لإقرار السلام ، يشدد على جميع المزايا والإعفاءات التي كان على الاحتلال الإسلامي أن يقدمها مقابل أداء الضرائب ، وحرص على استبعاد أية إشارة إلى أن غير العرب وغير المسلمين سوف يعاملون باعتبارهم مواطنين من « الدرجة الثانية » . هذا الإعلان لم ياجأ إلى الحيلة ويسلم دمشق للغزاة المسلمين ، ولكن ما أظهره من اللين والتسامح كان له أثره في نفوس القبائل المسيحية بالشام بحيث وجدت الجيوش العربية أصدقاء جدداً في كل مكان بالإقليم . هذه الصداقة قدرها أن تؤتي ثماراً هامة بأسرع مما كان خالد يتوقع . فبعد أن واصل السير واستولى على حمص وبعليك تدفق من الأناضول جيش جديد من الروم يضم ما بين ١٠٠.٠٠٠ ، ٢٠٠.٠٠٠ ودفع جيوش الخليفة أمامه حتى بلغت نهر اليرموك في فلسطين . ورغبة في بيان حسن النية أعاد خالد وأبو عبيدة الضرائب إلى أهل المدن التي جلا الرجال عنها لأن قواتهما لم تعد قادرة على الوفاء بعهدها وحماية السكان . وهكذا عندما تقهقر المسلمون وجدوا القبائل في كل مكان على استعداد لتزويدهم بالثؤن ومصممة بالمثل على حبس المعونة عن الروم .

وفي أغسطس ٦٣٦ توقف خالد في الموضع الذي يدخل فيه اليرموك الأردن . وقبل أن تبدأ المعركة عرض تيودور قائد الروم أن يتحدث إلى المسلمين . قبل خالد ، ويرجع هذا إلى حد كبير إلى أنه أراد أن يطلب إطلاق سراح أبي سفيان وأربعة من ضباط أسره الروم أثناء زيارة تفقيشية للجيوش العربية . وبما اتصف به من التفاخر سحب سيفه أمام القائد البيزنطي وهدد بقتله على الفور إذا لم يطلق سراح رفاقه في التو . هذا المظهر أخذ تيودور على غرة تماماً فأمر بإطلاق سراحهم فوراً وحصل مقابل هذا على خيمة رائعة ذات لون قرمزي :

أظهرت المعركة التي تلت ذلك أفضل صفات خالد كرجل تكتيك :
 فقد استغل بالكامل عاصفة ترابية عنيفة وألقى بقواته القليلة عدداً على
 العدو الذي أعمته العاصفة وأشاع في صفوفه الفزع ثم الاضطراب وأخيراً
 الذعر ، وكان ينادى قواته في ذروة المعركة بقوله إن الجنة أمامهم والشيطان
 والجحيم وراءهم ؛ إذا قاتلوا ظفروا بالأولى وإذا فروا وقعوا في الثانية. وراحت
 النساء يشجعن بالغناء ، والصياح على عادة القبائل ، وحارب المسلمون بمثل
 ما لم يحاربوا من قبل أبداً . داعت المعركة المستميتة ثلاثة أيام إلى أن أبيدت
 الجيوش المسيحية تماماً وقتل قائدها. أما هرقل الذي كان قد جاء إلى انطاكية
 من أجل المعركة التي يعلم أنها ستقرر مصير الشام على نحو أو آخر ، فلم يعد
 أمامه من خيار إلا ان ينسحب إلى القسطنطينية .

وكان الاسلام قد خرج الآن من حصنه الصحراوي . وأتم العرب فتح
 العراق وفلسطين والشام ، وأصبحت دمشق وبيروت وحمص وأنطاكية
 وحلب رصيدا تحكم الآن باسم الخليفة في مكة . ولكن أيام مجدها البطل
 الذي جعل كل هذا في حيز الامكان ، كانت معدودة . كان راعيه وحامييه
 الرئيسى أبوبكر قدمات في عام ٦٣٤ ، وخلفه عمر ، العدو الذي لا يلين لخالد .
 وبحكم الضرورة العسكرية في العامين الأخيرين اضطر هذا العدو إلى أن يترك
 قيادة الجيوش العربية بالشام في أيدي أنجح قواده ، ولكن إذ لم يبق من
 مكان يفتح في فلسطين سوى بيت المقدس ، فقد أصبح في إمكان عمر أن
 يستغنى عن خدماته .

استدعى خالد إلى المدينة بعد أن استرجع دمشق ، وعين أبوعبيدة واليا
 على الشام ، وعهد إلى عمرو بن العاص من جديد بمهمة الاستيلاء على بيت
 المقدس وكانت قد أصبحت الآن ثمرة ناضجة سقطت دون قتال بعد أسابيع

قابلة في يناير ٦٣٧ ، وكانت شروط التسليم شبيهة بشروط تسليم دمشق . مرة أخرى لم يسكن المسيحيون ليتعرضوا للمضايقة ، ونص على حماية كنائسهم وصلبانهم . واستجابة لرجاء من بطرق الروم سفرونيوس حضر عمر بشخصه للتوقيع على المعاهدة ، وعلم ذلك الحشد من القواد والأساقفة النصارى الذين كانوا في انتظاره عند أبوابهم المزركشة ، درسوا في التواضع بأن قبل استلامهم وهو يرتدى ثوبا مرقعا ومهلهلا ويجلس فوق حمار .

بعد ذلك بعامين انتقم عمر من خالد . استدعى القائد لاستجوابه بشأن إتهامات تتعلق بعدم الصلاح وبسوء التصرف في أموال الدولة . فاتهم بأنه كان يمزج الخمر بالماء الذى يستحم به^(١) ، وبأنه أعطى ألف دينار من مال الجيش إلى شاعر يدعى الأشعث كان ينظم الشعر فى مدحه . إعترف خالد بالتهمة الأولى وعبر عن الندم على الخطيئة التى ارتكبها ضد تعاليم القرآن ، ولكن لم يفه بكلمة بشأن التهمة الثانية . وعندئذ عقله المؤذن بعمامته علامة على أنه مذنب . كان هذا كثيراً جداً على خالد الذى انفجر يعلن أن الألف دينار كانت من ماله ، ففك المؤذن وثاقه^(٢) .

(١) بلغ عمر أن خالدا دخل الحمام ، فتدلك بعد النورة يشغين عصفر معجون بخمر ، فكتب إليه : بلغنى أنك تدلككت بخمر ؛ وأن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه ... وقد حرم مس الخمر الآن تغسل كما حرم شربها ، فلا تمسوها أجسادكم فإنها تمس . فكتب إليه خالد : لما قتلتها فمادت غسولا غير محر . (الطبرى ، ج ٤ ، ص ٦٦) — المترجم .

(٢) يلاحظ نوع من الاضطراب على ما ذكره المؤلف ، ولذا نورد هنا حقيقة الأمر كما أوردتها الطبرى فى تاريخه (ج ٤ ، ص ٦٧) . قالوا : ولما قتل خالد ، وبلغ الناس ما أصابت تلك الصائفة انتجهم رجال ، فانتجهم خالدا رجال من أهل الآفاق ، فكان الأشعث بن قيس ممن أنتجهم خالدا بقدسين ، فأجازته بمسرة آلاف . وكان عمر لا يخفى عليه شئ فى عمله ، قد دعا البريد ، وكتب معه إلى أبى عبيدة أن يقيم خالدا ويعقله بعمامته ، وبززع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين لأجازة الأسعت ، أمن ماله أم من إصابة أسابها ؟ فان زعم أنها إصابة أسابها فقد أقر بخيانه ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف ، واعزله على كل حال .

ولكن أبا عبيدة الذى كان يرأس المحاكمة لم يسكن يعتد في براءته ، ذلك أن الإسراف في استخدام اموال الدولة كان معروفا عن خالد ، وأحال — أى أبو عبيدة — القضية إلى عمر . وعجزت كافة احتجاجات خالد عن أن تؤثر في الخليفة الشديد التمسك بتعاليم الدين . وطرد خالد من القيادات التي كان يتولاها ، وصودر ربع ثروته^(١) .

وبرغم أن هذا ترك له مالا وفيراً يعيش عليه بعد عزله ، إلا أنه كان باسط اليد وينفق على العديد من التابعين — من زوجات وجوار وعبيد وأطفال — بحيث مات معدما بعد ذلك بعامين .

هكذا كانت نهاية البطل الذى يعتبر أول العرب من طراز الأسكندر . إذا أخذنا في الاعتبار الفتوح المثيرة للدهشة التي قام بها خالد ، فان اضطهاد عمر له ومعاقبته يبدو أن أمراً غير كريم . فلولا عبقرية العسكرية وقيادته لربما

== كتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه ، ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر ، فقام البريد فقال : يا خالد ، أمن مالك أجرت بعشرة آلاف أم من إصابة ؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً ، فقام بلال إليه ، فقال : إن أمير المؤمنين أمرنيك بكذا وكذا ، ثم تناول قلنسوته فمقله بعمامة وقال أمن مالك أم من إصابة ؟ قال : لا بل من مالى ، فاطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ، ثم قال : تسمع وتسطيع لولائنا ونفخ ونخدم مواليها . المترجم .

(١) خرج خالد إلى المدينة حتى قدم على عمر ، فشكاه وقال : لقد شكوتك إلى المسلمين ؟ وبأه أنك لى أمرى غير مجمل يا عمر ، فقال عمر : من أين هذا البراء ؟ قال : من الأتقال والسبهان ، مازاد على الستين ألفاً فلك فقوم عمر عروضة فخرجت إليه عشرين ألفاً ، فأدخلها بيت المال . ثم قال يا خالد ، والله أنك على لكريم ، والله إلى الحبيب وإن تعاضى بعد اليوم على شيء . (تاريخ الطبرى ، ج ٤ ، ص ٦٨) . ومن هذه الرواية يتضح أن خالد هو الذى عرض ردأية زيادة إذا أسفر عنها التقويم ، بينما رواية المؤلف مقتضبة ويمكن أن نوحى . غير ما حدث فعلاً وذلك في قوله « وصودر ربع ثروته » - المترجم .

لم تكن هناك إمبراطورية عربية ولربما اقتصر الاسلام اليوم على الصحراء التي خرج منها . إلا أنه ينبغي أن نذكر أنه برغم ما اتصف به خالد من بسالة كجندى ، إلا أنه يسكاد أن لا يعتبر مثالا للورع^(١) . فضلا عن هذا ، لم تكن جذور الاسلام قد تعمقت بعد ، وخشى الخليفة أن أهل مكة والأقاليم المفتوحة قد يعززون نجاح جيش الاسلام إلى خالد أكثر من أن يعزوه إلى الله^(٢) . فلو حدث هذا لكان من السهل أن يصبح هذا البطل الشعبي تهديداً للحركة الروحية التي أنشأها محمد وكان عمر متفانيا في خدمتها . فحيث كان أبو بكر متساهلا ويميل إلى أن يغفر نقاط الضعف البشري وأن يغفر حتى ما يرتكب من تجاوز للحدود في قضية عادلة ، كان عمر هو المؤدب الذي لا يلين ولا يتسامح ، والذي يجعل أحكامه متفتحة بالمعنى الدقيق مع القواعد التي أرساها النبي . فقد أعلن : إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده فليمنظر قائده حيث يقوده . وأما أنا فو رب السكينة لأحملهم على الطريق^(٣) ، ولقد فعل ما توعده به .

(١) يظهر أن المؤلف يبي رأيه هذا على ما فعله خالد اثر مقتل مسيلمة ، وعلى انه قد تمزج الحجر ، اء الاستحمام ؛ ولقد سبق أن عرضنا الامرين ورأينا كيف أن أبابكر أنه في الحالة الأولى ، كما ثبت بطلان الأمر الثاني — المترجم .

(٢) يقول الطبري (. ج ٤ ، ص ٦٨) : كتب عمر إلى الأمصار : اني لم أعزل خالدا عن سخطه ولا خيانه ، ولكن الناس فتنوا به ، فحفت أن ياكلوا اليه ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكون بهرض قننة . — المترجم .

(٣) لا ولي عمر الخلافة صعد المنبر وكانت تلك العبارات مما قاله — المترجم .

ذلك أن عمرا هو الذى دون الفوائد التى سمى النبى عن طريقها إلى أن يحكم أتباعه . فهو إذ لاحظ فور وفاة محمد أن القراء قد استحو بهم القتل ويتناقص عددهم بسرعة ، أمر زيدا بن ثابت كاتب النبى ، أن يجمع كل ما أنزل على مولاة على لسان جبريل . وجمع هذا كله ونسخ فى الأديم فى المصحف وهو القرآن ، بالترتيب الذى كان يتلو به النبى باعتباره كلام الله . وهكذا ، فنص القرآن يعكس قصة مولد الاسلام وانتصاره على كفار قريش ، كما يعكس إلى جانبها ما جاء به نبى الله من رسالة لم تجعل النصر فى حيز الامكان فحسب ولكن جعلته أيضا شيئا محتوما . وإذ يتكون القرآن من قسمين ، فإنه يبدأ بالسور المسكية التى نزلت فى فترة النضال ، بأسلوب موجز ونارى ، تعلن وحدانية الله وتشدد على واجبات المؤمنين وعلى العذاب الذى ينتظر الكافرين . بعد ذلك تأتى السور المدنية التى ترجع إلى فترة الانتصار . هنا تصبح اللغة أغنى والكلمات أوفر ، وتعكس تحول محمد من نبى ينادى ويدعو فى البرية ، إلى حاكم روحى وزمنى يضطلع بمسئوليات تشريعية وإدارية . هذا القسم يضع القواعد والنظم المتعلقة بالصلاة والصيام والحج ، ويتضمن تحريم الخمر ولحم الخنزير والميسر . وعلى أساس هذه السور ، إلى جانب أقوال النبى وأفعاله مما يعرف باسم « الحديث » أو السنة ، تقوم الشريعة او القانون الاجتماعى الإسلامى الذى ينظم جميع الحياة الإسلامية ويتناول من بين أشياء أخرى ، مسائل الجريمة والطلاق والزنا والميراث .

ويشتمل القرآن على الكثير مما جاء فى العهد القديم من الكتاب المقدس ، فكثيرا ما يرد ذكر شخصيات مثل آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل وموسى وسليمان ويعقوب . ويشار إلى إبراهيم وهو الجد الأعلى للنبى ، على أنه السلف الروحى للإسلام . وتمشيا مع الإعتراف الفطن من جانب محمد بالقدسين (م هـ - العرب)

والأنبياء في الديانات اليهودية والمسيحية ، تلقى الإعتراف ببسوع (أو عيسى باللغة العربية) ومريم ويوحنا المعمدان . وتشغل قصة خلق آدم وخروجه من الجنة مكانا بارزا ، وكذلك تشغله قصة الطوفان الذي قال عنه محمد إنه مثال عن غضب الله وانتقامه من العالم بسبب عدم الانصياع لأوامره . وعلى النقيض من هذا يكال الثناء لعجائب الطبيعة — النجوم ، الشمس ، القمر ، المطر الذي يهب الحياة ، وثمار الأرض — باعتبارها آيات على وجود الله وعلى آلائه على البشر أجمعين .

وبرغم أن عمرا عهد بالتدوين الأصلي للقرآن إلى كاتب النبي إلا أن زيد لم تكن الوحيدة التي اضطلمت بالمهمة . فبعد وفاة عمر تداولت عدة نسخ أخرى ، وكان على خلفه عثمان أن يدون نسخة رسمية واحدة . وفي سنة ٦٥١ عين زيد لمباشرة عملية المراجعة ، وعن طريق النص المحفوظ عند إحدى أزواج النبي^(١) ، جمع النص الرسمي الذي عاش عبر القرون وليس فقط باعتباره إنجيل الإسلام وتجسيد كل ما بنطوى عليه من علم وحكمة ، ولكن أيضا باعتباره نموذجا لبلاغة وإبداع النثر الذي هو لغة العرب .

كل هذا العمل كانت له نتيجة مباشرة وعملية هي إرساء الأساس الذي يقوم عليه نظام للتعليم . فقد كان أول المعلمين في العصر الإسلامي القراء الذين بعث بهم عمر إلى جميع أرجاء بلاد العرب ، وكانت أول مدارس ما أنشأها هؤلاء في المسجد حيث يجتمع الشباب والشيوخ على السواء يوم الجمعة من كل أسبوع بأمر من الخليفة ليستمعوا إلى تلاوة القرآن . سوف يقتصر نظام التعليم هذا على هذه « المدارس » السكسية خلال المائة سنة

(١) هي حفصة بنت عمر : المترجم

أو أكثر التالية . ذلك أنه باستثناءات قليلة لم تكن الطبقات الحاكمة في هذه الفترة تتميز برعاية العلوم وكانت تنظر إلى الصغراء التي يبعثون إليها بأبنائهم للتعليم على أنها أفضل أكاديميات . هناك يتعلم الشاب كل ما يفيد — اللغة العربية الخالصة التي تتحدث بها القبائل ، إلى جانب صفات الرجولة من أمثال الفروسية والسياسة والصيد . وفي زمن الخليفة عبد الملك جىء بمعلمين أجانب ، غالبا ما كانوا من النصارى ، لتعليم قواعد اللغة العربية . وقام عدد قليل من الأطباء بإجراء البحوث في علوم الكيمياء والطب بالإعتماد على المصادر اليونانية والفارسية . ولكنهم لم يلقوا غير القليل من التشجيع من قبل السلطات التي كانت ترى أن واجب المسلم ينحصر في تطبيق قواعد الإسلام وليس في ممارسة مهنة الطب .

هكذا ظل القرآن والمسجد أساس التعليم العربى الى أن استهل الخلفاء العباسيون عصر العلوم العظيم في القرن التاسع بما أقاموه من أكاديميات للتعليم العالى والعلم . كان التعليم بالنسبة الى الصغار والكبار من المؤمنين ، مقصورا على المبادئ الأولية في القراءة والكتابة والنحو والشعر والحساب البسيط . لم يكن في إمكان أحد أن يتعلم ما يزيد على هذا ، وكانت رغبة الخليفة — وكان أمره — أن لا يتعلم أحد ما دون ذلك .

(٤)

فتح فارس ومصر

ماذا كانت بالضبط القوى الكامنة وراء التوسع العربى ؟ هل الذى حرك هذه القفزة إلى الأمام حافظ دينى أم شيء أكثر دينوية وأقل اتصالاً بالروحانية؟ فى رأى السير توماس أرنولد وهو من كبار المتخصصين فى عصرنا فى تاريخ العرب ، أن توسع الإسلام فى النصف الثانى من القرن السابع لم يكن نتيجة حركة دينية كبرى ولكنه بالأحرى كان نتيجة نزوح شعب دفعه الجوع والعوز إلى اجتياح أراضى جيرانه الأوفر خصبا وثراء . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يعتقد الجنرال جلوب فى كتابه « الفتوح العربية الكبرى » أن « ضغط السكان والضرورة الاقتصادية لا يمكن أن يولدا وحدهما مثل هذا الانفجار البركانى . كانت هناك حاجة إلى نار عاطفية ومثالية ما كى تحدث انفجاراً بمثل هذا العنف » . أما المؤرخون العرب فيفسرون هذه الأحداث على أنها تسلسل أوحى به الحساس والغرض الدينى .

ولسكن حتى نفهم هذه المشكلة فهما صحيحا ، يتعين علينا التفرقة بين غزو بلاد العرب على أيدي محمد وأبى بكر من جهة ، والفتح الذى أعقب هذا من جهة أخرى ودفع العرب بعيداً إلى ما وراء شبه الجزيرة العربية . واضح أن غزو بلاد العرب كان الغرض منه إقامة قاعدة محلية للإسلام وحمايتها . وليس من شك كثير فى أن الضرورة الاقتصادية كانت الحافز الحاسم الذى ساق الحىوش العربية إلى غزو أراضى جيرانهم الروم والفرس واحتلالها .

صحيح أن النار المتقدة فى قلوب جند الخليفة أشعلتها العقيدة الإسلامية .

وصحيح أيضاً أن الإسلام وفر النظام والوحدة اللذين لولاهما لكانت الجيوش العربية طغمة قبلية صعبة المراس تفتقر إلى أى نظام من القيادة المركزية ولا تطيع سوى ما تمليه المصلحة الذاتية ولا تحارب إلا لتحقيق مكاسب شخصية أو قبلية .

ومن المرجح أن الكثير مما أظهر رجال خالد وعمر ومن شجاعة وجلد في مواجهة جيوش الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية الجيدة الإعداد والعدة وإنزال الهزائم بها ، كان منبثقا من إيمانهم ومن الاعتقاد في القضاء والقدر مما غرسه فيهم محمد وأتباعه . ولكن كان لابد من شيء أكثر من الغرض الدينى كى يحمل العرب عبر آلاف الأميال من الصحراء غير المطروقة ليوажوها أخطاراً مجهولة ولا يمكن حسابها . فبفضل ما زود به الإسلام العرب من الوحدة والقوة ، لم تعد فارس وبيزنطة تشكلان أى تهديد حقيقى لحدودهم . ومن جهة أخرى كان الجانب الأكبر من الجيوش العربية يتكون من قبائل لم تكن العقيدة الإسلامية قد تغلغلت في أعماقها ، ولم تكن بالتأكيد لتخرج من أراضيتها التقليدية لمجرد الخروج وانقاذ أرواح أبناء عموماتهم العرب من أسارى الشرك والكفر .

الذى أخرج القبائل ودفن الجيوش العربية إلى غزو أراض تتجاوز حدود بلادهم ، كان الحاجة إلى مجال حيوى أو بعبارة أدق الحاجة إلى مجال للعيش . فنحن اذ ننظر إلى فتوح خالد وعمر وفي الهلال الخصيب بالعراق ، وفي الشام وفلسطين ، نجد أنها كانت الهجرات العربية الكبرى . فكما كان الحال في الألفين الثانية والثالثة قبل العصر المسيحى ، كذلك بعد مولد الإسلام كانت الضرورة الاقتصادية هى التى أخرجت العرب ليقيموا في الشمال الخصيب حيث الغذاء لأسراتهم والماء لقطعانهم ، ذلك أنه في الوقت الذى مات فيه

محمد كان بيت مال المسلمين خاويًا والسكان في ازدياد . لم يكن سوى جواب واحد على هذه المشكلة : توسيع نطاق ممتلكات الخليفة إلى خارج المنطقة التي تؤدي الجزية نقدًا وعينا إلى خزائن مكة .

ومن هنا الأمر القرآني « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »^(١) . ومن هنا شروط تسليم دمشق وبيت المقدس حيث سمح للنصارى واليهود بممارسة شعائر أديانهم بشرط أداء الجزية إلى الفاتحين . فمنذ البداية الأولى كان الخلفاء الأوائل يفرقون بشدة بين شبه الجزيرة العربية وبين ما يفتحونه من الأراضي الواقعة وراءها . كان لابد أن تظل شبه الجزيرة خالصة للإسلام ، ليس فقط من أجل تحقيق ما أمر به النبي عند وفاته وهو إلا يكون فيها سوى الإسلام ، ولكن أيضًا لحماية قاعدة الإسلام المحلية في مكة والمدينة من نوع التهديدات التي تشكلها القبائل المرتدة ومن ادعوا النبوة في الجزء الشرقي من بلاد العرب ، بعد وفاة النبي مباشرة . أما في الأقاليم الشالية فكانت عملية التحويل إلى الإسلام يسيرة نسبيًا في أوائل مراحل الفتوح العربية ويبدو كما لو كان الخلفاء تعمدوا تشجيع الكفار على البقاء على كفرهم حتى يتسنى جباية الضرائب منهم لبيت المال .

من المحقق أن عمراً كان يسترشد بهذا المبدأ الاقتصادي وهو يرسم أول دستور للإمبراطورية الجديدة ، تضمن الهدف المزدوج : إبقاء المؤمنين على إيمانهم ، وحمل الكفار على الدفع .

(١) الآية ٢٩ من سورة التوبة . . المترجم .

فمن جهة ، وبالأصرار على شكل من « التفرقة العنصرية » المعروفة في العصور الوسطى ويكون العرب فيها هم الجنس السيد ، أعلن أن شبه الجزيرة العربية هي للمسلمين فقط وأمر بإخراج جميع اليهود والنصارى الذين لجأوا على الفور إلى فلسطين والشام . وكان الجيش وقد اقتصر رجاله بالمثل على العرب ، منظمًا ليكون أرسقراطية عسكرية تخضع لها كافة الطبقات والجماعات الأخرى . فقد عوملت البلاد المفتوحة على أنها مستعمرات ، واقتصر الفاتحون العرب على المعسكرات الحربية ومنعوا من التآخي مع أهل البلاد أو أن يسلكوا بأى حال مسلك المستوطنين . بل وقرر عمر أن لا يملك المسلمون العرب أراضى خارج شبه الجزيرة العربية .

ومن جهة أخرى أعفى جميع المسلمين من الضرائب . وكانت الإيرادات التى تؤول من الضرائب التى يدفعها رعاياهم غير المسلمين توزع كإعانة بين المؤمنين بعد تغطية تكاليف الإدارة والجيش . وقام التوزيع على أساس متدرج بحيث تكون لأهل بيت النبى وللمؤيدين الأصليين من مكة والأنصار من المدينة الأسبقية على من عداهم . وكانت مخصصات القبائل ويشترك فيها النساء وحتى الأطفال ، تحسب طبقاً لإسهامها الحربى ومعرفتها بالقرآن .

وفى الوقت نفسه وفرت الحماية لجميع الشعوب التى فتحت بلادهم من أعفوا من أداء أية واجبات عسكرية ، وسمح لهم بممارسة أعمالهم وظلوا خاضعين لقضاء قوانينهم يطبقها قادتهم الدينيون بشرط أن يدفعوا الجزية وأن يدفعوا الخراج حيث كان مطبقا . لقد حرم القرآن إرغام الناس على اعتناق الإسلام ، وعلى ذلك يجب أن يكون اليهود والنصارى أحراراً فى الاحتفاظ بديانتهن . ولكن الحرمان من حماية القانون أو الموت كان ينتظر كل من يسب القرآن أو محمداً ، أو يؤذى مسلماً أو يسرقه . وبالمثل كان من المحرمات زواج كافر من مسلمة ،

أو محاولة إخراج مسلم عن دينه . كان مسموحاً للعرب الذين اعتنقوا الإسلام أن يلتحقوا بالجيش وأن يتمتعوا بما هو مقرر للمسلمين الآخرين من معاشات ومزايا ، أما غير العرب ، حتى وإن قبلوا في حظيرة الإيمان ، فكانوا ممنوعين من الالتحاق بالجيش واستمروا يؤدون الجزية ولا يشغلون سوى المراكز الثانوية في المجتمع^(١) .

وبخلاف هذه النواميس الجديدة لم يفعل سوى القليل لتغيير النظم البيزنطية والفارسية السابقة للإدارة في البلاد التي فتحت . فأبقى الفاتحون المسلمون على ما سبق أن عمله الرومان والروم من تقسيم الشام إلى أربع مناطق عسكرية وهي : دمشق وحمص والأردن وفلسطين . وفي الممتلكات الفارسية السابقة لم تحدث تغييرات عنيفة في جهاز الحكم . كان بعض السبب في هذا أن أبناء الصحراء الذين فتحوا هذه الأقاليم كانوا يفتقرون حتماً إلى الخبرة في الإدارة ويسعدهم أن يحدوا في كل مستعمرة جديدة أداة جاهزة للحكم . ومن جهة أخرى كان عمر يسير على سياسة النبي نفسه من حيث الإقلال بقدر الإمكان من إحداث أى اضطراب في حياة الذين تفتح بلادهم .

لو كان خلفاء عمر استمسكوا بدستوره بدقة لربما اختلف تاريخ الامبراطورية العربية . فبرغم أنه أعلن تفوق العرب العنصرى إلا أنه منح العدل والحماية للشعوب التي أخضعت . وبوجه خاص حمى غير العرب وغير المسلمين من أهل المستعمرات من الاستغلال ومن اقتزاع ممتلكاتهم على أيدي المستوطنين الوافدين من بلاد العرب وبهم جوع إلى الأرض . ولكن إذ

(١) هذا يتعارض مع ما يذكره المؤلف في مواضع أخرى حيث كان الذميون يتولون الوظائف الإدارية والمالية إلى أن بدأ عبد الملك بن مروان يخطط سياسة جديدة - المترجم .

واصلت الامبراطورية التوسع كان كثيراً أن نتوقع من مسلمى بلاد العرب أن يقتنعوا إلى الأبد بالعيش في فيافي شبه الجزيرة وأن يتخذوا عن المكاسب الوفيرة والفرص للافادة مما كانت تتيحه لهم الفتوح المتزايدة على أيدي جيوشهم. وعلى ذلك كان حتماً أن ينفجر السد بعد موت عمر ، وبالمباركة من جانب خلفه بدأ سيل من المهاجرين العرب يتدفق على البلاد المفتوحة ويشارك مع الجيوش العربية في الاستيلاء على أراضي الفلاحين من أهلها . أما وقد زالت الحماية الممنوحة لغير العرب وغير المسلمين تحول مبدأ العنصرية الذي يقوم عليه دستور عمر إلى عبودية دون أن يحصل الذين فرض عليهم الدستور على تعويض عن هذا التحول ، وإذا كانوا حصلوا فقد كان تعويضاً يسيراً . وفي الوقت نفسه وبرغم أن بعض الخلفاء المتأخرين كما هوية أشركوا الفصاري واليهود في الإدارة فإن فكرة عمر الأساسية عن تفوق المسلمين والعرب ظلت طابع الحكم في الامبراطورية طيلة السنوات المائة التالية . وهكذا اشتعلت لهب الاستياء في صفوف الشعوب الخاضعة ، وتحولت في النهاية إلى حريق كبير وأدت بعد مائتي عام إلى القضاء على النفوذ العربي واستبداله بمؤثرات فارسية وتركية .

لكن ما من أحد أسهم بشكل مباشر أكثر مما أسهم عمر في تحقيق نفس الفتوح التي سوف تلغى جوانب دستوره القائمة على إنكار الذات وتفري القبائل على العدوان على حقوق أبناء البلاد في الأراضي الشمالية الغنية والخصبة . فلم يكذب يتم اجتياح الشام وفلسطين حتى كان يصدر الأوامر بشن هجوم جديد على الفرس في العراق . وفي عام ٦٣٧ ، وبعد أن مات المثنى من أثر الجراح التي أصيب بها في موقعة البويب ، بعث عمر بأحد « الصحابة » ممن شهدوا بدرًا وهو سعد بن أبي وقاص على رأس جيش يزيد على الثلاثين

ألفاً ويضم فرقا من أهل القبائل ، لمهاجمة العاصمة الفارسية والاستيلاء عليها .

كان الامبراطور الفارسي يزدجرد شابا حاد الطبع اثار غضبه وفد من العرب في ملابس خشنة بعث بهم سعد يدعونه إلى الإسلام ، فتجاهل نصيحة رستم الحذرة وأمر جيشه بمهاجمة المسلمين وهم يقتربون ، وكما كان يعلم قواده الأوفر منه حكمة ، فإن ما فعله أوقعه في براثن العرب . فبدلا من المخاطرة بقواته في الصحراء المكشوفة كان ينبغي له أن يحشد وراء التحصينات الصلبة في عاصمته ويستدرج العرب من الصحراء التي يعرفونها . ولكن تغلبت حدة طبع الامبراطور الشاب ، وفي مارس ٦٣٧ راح الجيش الفارسي يعتري المسلمين عند القادسية الواقعة على مسافة أميال قليلة إلى الغرب من البحيرة في وادي الفرات . ومن فوق عرش موشى بالذهب على ظهر فيل ، أخذ رستم يدير العمليات عندما انتقض جيشه الذي تجاوز ١٠٠.٠٠٠ مقاتل على ما يقال ، على الفزاة . ويحدثونا ان سعدا كان يتولى الدفاع وهو مطروح فوق محفة بسبب اصابته بخراج منعه من ركوب جواده ، بينما كانت زوجته وهي أرملة المثنى تقاوه وتقول : وا آسفاه ، ليس هناك مثنى الآن ، إلى أن اضطر إلى اسكانها بأن لطمها على وجهها .

استمرت المعركة أربعة أيام ؛ وفي أول الأمر كان ضغط الجموع الفارسية على العرب شديدا . ولكن عندما بدأ الرماة في جيش سعد يطلقون سهامهم على فيلة العدو فتصيبها في عيونها ، راحت الحيوانات التي اعتمها السهام تطأ صفوف العدو بأقدامها : وقتل رستم عندما شدد العرب من ضغطهم مستغلين ميزتهم المفاجئة ، وتحطم الفرس ولاذوا بالفرار تاركين في ارض المعركة غنائم

كانت كافية لزيود كل واحد من المنتصرين بسبعة آلاف قطعة ذهبية. وكانت المجوهرات التي انتزعت من جثة رسم تساوى وحدها سبعين ألف قطعة .

إن الجيش الفارسي المتكبر الذى استطاع قبل ذلك بسنوات قلائل أن يطارد القوات البيزنطية ويجهرها على التقهقر صوب القسطنطينية ، هذا الجيش هزمه الآن رجال القبائل من بلاد العرب . أصبح العراق كله الآن تحت أقدام جيوش الإسلام ، ونتيجة لاحتلال الشام حتى جبال طوروس ، دق اسفين بين الامبراطوريتين الكبيرتين . فريزدجرد من طيسفون ، ولما انحازت القبائل المسيحية في الشمال زرافات إلى جانب المسلمين ، استولى سعد على العاصمة الفارسية . هنا كان السلب والترف الذى حيا الفاتحين يفوق أى شىء سبق أن رأوه . لم يسبق لهم أبداً أن حدقوا في أمثال هذه القصور الفسيحة الفخمة ، وأمثال هذه الأقبية الجميلة وهذا الأثاث الفاخر . حصل كل جندي عربي على اثنتي عشرة ألف قطعة ذهبية أو ما يعادل ١٧٠٠ دولار بأسعار اليوم ، وقدرت القيمة كلها بنحو ٢١٠ مليون دولار .

كانت امبراطورية فارس تتداعى الآن ؛ ولكن برغم أن سعدا أراد مواصلة الزحف على خراسان عبر جبال زاغروس ، طلب منه عمر أن يتوقف مؤقتاً . فمن جهة ، خشى الخليفة أن يتجاوز العرب حدود قوتهم ويخسروا كل ما كسبوه حتى الآن . ومن جهة ثانية ، كان يحس بالقلق ، وهو ما قد حدث فيما بعد ، من أن أمثال هذه الغنائم الكثيرة قد تفسد جيوشه بأن تغرس فيهم روح الجشع والحسد . وعلى ذلك عمد سعد إلى تدعيم موقفه بتنظيم العمليات ؛ وأهم من ذلك — وكأيما سياسة — أمر بمصادرة أراضي القبائل التي كانت قد قاومت الزحف الإسلامي بينما أعاد ممتلكات المستوطنين الفلاحين الذين

أظهروا موقفاً ودياً أو حتى محايداً . وأنشئت قواعد عسكرية جديدة عام ٦٣٨ في البصرة والكوفة في وادي الفرات . وبناء على أمر من الخليفة أصبحت الكوفة عاصمة للعراق .

غير أنه بعد ذلك بثلاث سنوات أصبح عمر على اقتناع بأنه إذا لم يبدأ بتوجيه الضربة فسوف يعود يزدجرد بجيش أكبر لطرد العرب . ومرة أخرى أطلقت الفرق العربية من عقابها . قاستولت على الموصل في عام ٦٤١ ، وعندئذ انحرفت الجيوش العربية نحو الغرب بعد أن عبرت جبال زاخروس ، ثم هزمت في نهاوند على حدود اذربيجان جيشاً فارسياً أكبر بكثير وخسر ثلاثين ألفاً في المعركة ثم ثلاثين ألفاً آخرين عند ما طارد العرب فلوله نحو الشرق . ولم يأت عام ٦٤٤ حتى كان جيش الإسلام وهو الجيش المنتصر على طول الخط ، قد اجتاح ثلاثة أرباع أراضي فارس الحديثة وأقام حكمة في مقاطعات « فارس » Fars في الجنوب الغربي ، وخراسان في الشمال الشرقي واذربيجان في الشمال الغربي . هذه الفتوح الجديدة أعقبها دخول الناس أفواجا في الإسلام . فالأعاجم من عبدة النار إذ لم يسمح لهم بنفس التسامح الذي منح اليهود والنصارى في فلسطين والشام ، نبذوا معتقدات زرادشت وهرعوا إلى حظيرة الإسلام .

في هذه الأثناء كانت جيوش الإسلام تحول اهتمامها نحو الغرب .

فالأسباب الاقتصادية والاستراتيجية اجتذبت العرب إلى مصر بمثل ما اجتذبتهم إلى الشام والعراق . كانت مصر من الممتلكات الثمينة التي تضمها الامبراطورية البيزنطية؛ والواقع أنها كانت مخزن غلال الروم في ذلك الوقت . من الناحية الاستراتيجية كان من الحيوى اقتزاع مصر من الروم

بسبب قربها غير المريح من الحجاز ، كما أن أسطول الروم يستطيع من ميناء الإسكندرية وهو أحد قواعده الرئيسية ، أن يهدد فتوح الإسلام الجديدة في فلسطين والشام . وبالعكس يوفر تملك دلتا النيل قاعدة ينتشر منها العرب إلى الأراضي التي يحتلها الروم على امتداد شاطئ أفريقيا الشمالى .

وعلى ذلك كان من المحتوم ، على الأقل لحماية ما كسبه العرب ، وبمجرد ما يصبح فى الإمكان الاستغناء عن قوات من الشام وفلسطين ، أن يسكون التحرك التالى للعرب هو إلى مصر : وبرغم هذا كان عمر عزوفا فى أول الأمر عن الموافقة على إرسال حملة خشية قطع مواصلات جيوشه .

وذلك يمثل الخوف الذى ساوره فى حالة سعد . وكانت النتيجة أن فاتح بيت المقدس بُعث به فى ديسمبر من بعام ٦٣٩ على رأس جيش صغير من أربعة آلاف فارس — زيد فيما بعد إلى عشرة آلاف — ليدخل مصر فى حظيرة الإسلام .

وكما حدث لخالد فى العراق لقي عمرو ترحيباً حاراً من القبائل المحلية بمجرد وصوله إلى أرض مصر . بل أن الأقباط أظهرُوا عطفهم على الغزاة المسلمين . هؤلاء المسيحيون المصريون كانوا قد تعرضوا لأقصى أنواع القمع على يد بطرق الروم المقوقس لأنهم رفضوا التخلي عن مذهب طبيعة المسيح الواحدة واعتناق مذهب الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية .

كان الرهبان الأقباط يجلدون ويمذبون بسبب معارضتهم ، وألقى بالبطرق القبطى فى البحر داخل زكينة مثقلة بالأحجار . بعد هذه المعاملة الشيطانية من جانب اخوانهم فى الدين أحس الأقباط أن المسلمين بما اشتهروا به من تسامح

مع الأديان الأخرى ، يمكن أن يشكلوا تحسينا بالنسبة إلى الوضع الذى كانوا فيه .

كان الهدف الأول لعمرى هو الحصن البيزنطى الكبير بابليون الذى كان قائما فى موقع القاهرة الحديثة . وإذ كان يقترب على طول الشاطئ من غزه ثم يتوغل فى الداخل على طول حافة دلتا النيل ، انضمت إليه التعزيزات الآتية من المدينة ، وخلال الفترة الممتدة بين أبريل ويوليه من عام ٦٤٠ قاتل الروم فى عدد من الاشتباكات الناجحة عن طريق استدراجهم إلى الصحراء . ولكن فى كل مرة كانت قوات الروم تغلت لتعتمد فى قاعدتها ، وفى نهاية العام بدا عمرو أنه لن يتمكن من اقتلاعهم من حصن بابليون المنيع . ولكن فى مارس ٦٤١ عندما بلغ الحامية البيزنطية خبر موت الامبراطور هرقل فى القسطنطينية تخلى المدافعون فجأة عن النضال ، ومقابل تسليم بابليون بجميع مخازنه سمح للحامية بالانسحاب تحت راية هدنة . بعد ذلك بأربعة أشهر كان عمرو قد تقدم فى داخل الدلتا وراح يدق أبواب الإسكندرية ، وبعد أربعة أشهر أى فى نوفمبر ٦٤١ التمس المقوقس الصلح . الآن وقد أدرك نائب الملك فى مصر البيزنطية المعروف بعجزه ، أن أعمال القمع التى ارتكبها ، بالإضافة إلى المد الإسلامى الذى لا يمكن مقاومته ، قد حولت البلد بكامله ضده ، وإذ كان يتفاوض مع عمرو لم يكن يسعه إلا أن يقول : أراد الرب أن يعطى أرض مصر للعرب .

ثم سلمت الاسكندرية وفقا للشروط المعتادة — وهى توفير الحماية للمسيحيين واليهود مقابل أداء الجزية والضرائب — وسمح للجيش البيزنطى بالانسحاب بحراً إلى القسطنطينية فى ذلك الوقت كانت عاصمة مصر وهى الاسكندرية ، شأنها شأن دمشق ، تلى القسطنطينية جمالا وثراء . فقد استمدت روعتها ونفامتها

من امبراطوريتى روما وبيزنطه ، وقبل ذلك من الفاتح اليونانى الكبير الذى أنشأها ؛ فكان خط سماءها المتلألأ الذى يحلق فوقها يتضمن الفئار الشهير الذى يلعب بأشعة الشمس نهارا وبناره هو ليلا ، كما يتضمن المسلتين المصنوعتين من الجرانيت (وتعزوان خطأ إلى كليو باترا) اللتين تقومان الآن فى سنترال بارك بنيويورك سيثى وعلى رصيف نهر التيمس فى لندن ، وكذلك المعبد (الذى ينسب بحق إلى نفس السيدة الأسطورية) الذى بنته تكريما ليوليوس قيصر .

لاعجب أن كتب عمرو إلى الخليفة أنه استولى على مدينة سوف يتمتع عن وصفها ، ويكفى أن يقول أنه استولى فيها على أربع آلاف فيلا فيها أربعة آلاف حمام ، وأربعين ألفا من اليهود تفرض عليهم الجزية ، وأربعمائة مكان للهو . وعلى سبيل المقارقة أمر عمر حامل خطاب عمرو وكاد ينتشى من الفرح ، أن يجلس على الأرض ويقاسمه طعامه من الخبز والتمر .

احتل المسلمون الآن مصر كلها حتى حدود النوبة ، ودخلت ليبيا بما فيها عاصمتها البيزنطية طرابلس ، فى المنطقة التى تؤدى الجزية . وأثبت عمرو أنه إدارى محبوب عند ما أخذ يدعم مكاسبه ؛ فبنى عاصمة جديدة دعاها القسطنطين (تعرف الآن باسم مصر القديمة) وتقع إلى جوار بابليون ، حيث كانت القناة الفرعونية القديمة تربط النيل بالبحر الأحمر . ولكن باعتباره جابيا للضرائب فإنه قصر عن إرضاء متطلبات عمر الذى عين على إيرادات مصر عبد الله بن أبى سرح وهو أخ لثمان بالرضاعة . بقى عمرو كحاكم عسكري ، ولكن بعد ثلاث سنوات فقد منصبه عندما انتهى عهد عمر الذى استمر عشر سنوات ، على أيدي عبد فارسى طعنه طعنة الموت وهو يدخل مسجد المدينة ، اعتقاداً منه

أن الخليفة أصدر حكماً غير منصف بصدد نزاع حول مسألة مالية^(١) .

وخلفه عثمان زوج بنت محمد ، انتخبه مجلس من شيوخ القوم عليهم عمر وهو على فراش الموت . ولكن عثمان صار شخصاً متحيزاً لأقاربه وصحابته . وكان في مقدمة أعماله أن استدعى عمراً من مصر واستعمل مكانه عبد الله أخاه بالرضاعة . وفي الوقت نفسه عزل سعد من العراق وخلفه أخ غير شقيق للخليفة الجديد وكان مدمناً على الخمر سرعان ما جلب العار على نفسه عندما صلى بالناس وهو سكران . ثم في عام ٦٤٥ استرجع الروم الأسكندرية وذبحوا الحامية العربية . فسارع عثمان إلى إرسال عمرو ليستولى على المدينة من جديد ، ولما استردها دعاه إلى البقاء في قيادة الجيش وأن يظل عبد الله على بيت المال . فأبى عمرو الذي استشاط غضباً أن يكون الشخص الذي يمسك البقرة بقرنيها بينما يحملها شخص آخر ، وعندئذ ثبت عثمان عبد الله بن أبي سرح والياً على مصر .

في مقارنة عمر بعثمان ليس من غير العدل تماماً أن نقول إنه بعد الزحف المبدئي الذي قام به خالد بن الوليد ، واصلت الامبراطورية العربية توسعها طيلة السنوات العشرين التالية بسبب تفاني عمر وبرغم ضعف عثمان . وكان عثمان يحدث نعمة ، مسناً وضعيفاً ، يفسكر في أثراء ورعاية اقربائه من بني أمية

(١) شكاً أبو لؤلؤة غلام المغيرة من شعبة ارتفاع الخراج الذي ضربه عليه مولاه ، وطلب إليه تخفيفه . ويقال أن عمراً سأل : كم خراجك ؟ فقال : درهمان و كل يوم . قال : وأيش سناعتك ؟ قال : نحاس نقاش حداد . قال : فما أرى خراجك بكبير ، فتوعده الغلام وأصر على قتله .

أكثر مما يفكر في الاهتمام برعاياه . وتحت تأثير أبي سفيان الذي كانت تقدم به السن وتشجيع المראה في نفسه ، عين عثمان أقاربه من بني أمية في جميع المناصب الرئيسية بالحكومة والجيش .

مثل هذه المحاباة للأقارب إلى جانب سوء الحكم كان حتماً أن يولدا المتاعب والاستياء . فانفجرت من جديد الغيرة القديمة بين الخضر والبدو . وزاد سطح البدو على تسلط قريش عندما سرى الفساد إلى جميع فروع الحكم . وكما سبق أن تنبأ عمر ، فإن وفرة الغنائم من الفتوح التي قامت بها الجيوش الإسلامية ، بدأت تقوض الأسس التي قامت عليها حياة التقشف والنظام . راحت الأيام التي كان فيها عمر يتجول في الشوارع وفي يده سوطه ويعاقب بنفسه السكارى أو غيرهم ممن يتهككون حرمة القرآن . كانت الخمر والنساء والشعر طابع عهد عثمان . أصبح البذخ فضيلة ، وكان الذين يعيشون على آلاء الخليفة يمتدحون كرمه وسخاءه .

ولكن بالنسبة إلى عدد متزايد من الناس ، كان اطراد الفساد في الحكم يندب بالتدهور والخطر . وسرعان ما انتشر السخط في الأقاليم التي فتحت حديثاً . ففي البصرة والكوفة والعراق كان الولاة يعينون ويسرحون باستمرار لا يبقى أحد منهم أكثر من بضعة شهور . وكل منهم أسوأ ممن تقدمه . وعلاوة على هذا ، نزح الكثيرون من أشراف قريش إلى الشمال الخصيب ليمتلكوا الاقطاعات التي منحها لهم ابن عمهم الخليفة وبذا أثاروا غضب المستوطنين الشديدين الذين سبق أن ظفروا بالأرض عن طريق القتال من أجله . وحتى يظهروا قلة احترامهم للشعور الحلى أطلق أعيان قريش عبارة « جنة قريش » على الكوفة .

لم تمض عشر سنوات على تولى عثمان الخلافة حتى كان نقد اسرافه في الانفاق وحياة البذخ التي يعيشها ، على كل لسان باستثناء أقاربه بطبيعة الحال . وحتى قراراته المعقولة القابلة كانت تعتبر زندقة . وعندما أراد أن تكون النسخة المعتمدة من القرآن هي النسخة المحفوظة عند حفصة بنت عمر وإحدى أزواج محمد ، وأن تحرق جميع النسخ الأخرى ، اتهم بأنه يحاول تدمير القواعد والنصوص التي لا تزيق له . وإذا واجه عثمان هذا السخط المتزايد قام بعمل أبعد ما يكون عن الحكمة بأن وقف على المنبر في المسجد يقول شاكياً^(١) : « ألا فقد والله عبث على بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتهم أو كرهتم ، ولنت لكم وأوطأت لكم كتفي ، وكففت يدي ولساني عنكم ، فاجترأتم على » ولكن هذا الكلام لم يكن له من أثر سوى أن حول الكراهية الشعبية إلى ازدراء شعبي .

وإذا تملك عثمان اليأس الآن طلب المشورة من على الذي كان يعيش بعيداً عن الأضواء منذ اختير أبو بكر ليشغل المنصب الذي كان يرى — أي على — أنه عرشه الشرعي . ولكن لم يكن لدى على سوى تأنيب عثمان ولم يكن في وسعه إلا أن يقترح أن يعمل عثمان على ترتيب بيته وبذلك يستل سلاح ناقديه . عندئذ دعا الخليفة المسكين إلى مؤتمر من عماله في الأقاليم ، ولكن اقترحهم الوحيد كان أن يلجأ إلى الشام ليحتمى بها . وأجاب عثمان بشجاعة أنه لن يهرب مهما حدث ، وكان قد تجاوز الثمانين من العمر ولم يدع لنفسه من بديل سوى أن يتقبل مصيره في الثورة التي جعلها امرأ محتوماً .

(١) أوردنا النص كاملاً كما جاء في الطبري (٤٠ ، ص ٣٣٨) . — المترجم .

بعد ذلك بأشهر قلائل بدأت تسمع في الكوفة الهمسات الأولى
عن التمرد .

وبتشجيع من على دبر الكوفيون ثورة لكنها أخذت . ولكن روح
الثورة إنقلبت بسرعة إلى مصر حيث كان المتمردون بزعامه محمد بن أبي بكر
أوفر نجاحا وعزلوا عبدالله بن أبي سرح . ثم في عام ٦٥٦ وبعد أن اعترض
محمد خطابا من عثمان إلى واليه السابق عبدالله يطلب إليه فيه ان يقضى على
الفتنصبيين ، زحف على المدينة مع أخيه الزبير وخمسمائة من الأتباع .

هنا لقيه على ، ولما طلب محمد من الخليفة أن يعتزل ، وبخه على خيائنه
ولكن وافق فوراً على ترتيب لقاء مع عثمان . عندئذ أعاد محمد وفي وجه الخليفة
مطلبه بأن يعتزل ليحل محله على ، ولكن المطلب رفض بشدة . انصرف على
من الاجتماع ، وبرغم أنه بعث بولديه الحسن والحسين لحراسة دار الخليفة ،
لم يبذل أية محاولة أخرى لمنع أيدي الثوار من أن تمتد إليه .

يبدو أنه في ذلك الوقت لم تكن هناك حامية في المدينة ، وكان معظم
الأمويين قد فروا من الحجاز عند اقتراب القوة الصغيرة بقيادة محمد ، وهكذا ،
وبوقوف أغلبية الدماء إلى جانبهم ، تمسكن الثوار من أن يحاصروا الخليفة
في داره بل وأن يمنعوا الماء عن في داخله ، ويوجهوا الإهانات علناً للخليفة
التعس عندما يخرج لأداء الصلاة .

كان أملهم هو إذلاله بحيث يتنازل عن الخلافة وبذلك يتجنبون إراقة الدماء ،
ولكن عندما سمعوا أن قوات من الشام قد استدعيت لمساعدة عثمان ،
قرروا أن يسدوا ضربتهم على الفور . فقتل محمد واثنان من شركائه حائط
الدار وطعنوا الخليفة حتى مات ، وذلك أمام زوجه التي حاولت في شجاعة
أن تدفع ضربات القتلة عن زوجها وأصيبت بضربة سيف قطعت ثلاثة

من أصابعها . وبعد ذلك بثلاثة أيام دفنت جثة عثمان دون غسلها وهي في الملابس المخضبة بالدم التي قتل وهو يرتديها ، وتم الدفن دون تشييع^(١) .
هكذا مات أول خليفة يقتل على أيدي مسلم آخر . وارتعشت بلاد العرب كلها توقعا للثأر الذي سوف يطلقه موته من عقاله .

(١) خرج ساعة ومعهما عائشة بنت عثمان ، معها مصباح في حق ، حتى إذا أتوا به حش كوكب وهي موضع بالمدينة ، حفروا له حفرة ، ثم قاموا يصلون عليه ، ثم دلوه في حفرة ، فدفنوه ولم يلحدوه بأبن ، وحنوا عليه التراب حنوا . (من كتاب « الامامة والسياسة » ، طبعة مؤسسة الحاي بالاهرة ، ج ١ ، ص ٢٦) . — المترجم .

(٥) الحرب الأهلية

بينما الثورة ضد عثمان تفور في العراق ومصر ، كانت دعائم الإمبراطوريتين اليونانية والفارسية تهتز تحت وطأة زحف الجيوش العربية الذي لا يلين . في كل جبهة كانت المبادرة في يد الإسلام ، وبدا العدو المنهار معنوياً عاجزاً عن الصمود أمام القوات الأموية التي زاد من حماسها إيمانها بأن النصر سوف يأتي بالغنائم لمن يبقى على قيد الحياة ، وبالجنة لمن استشهد في سبيل العقيدة . ففي الغرب وصل العرب إلى تونس وهزموا جيشاً كبيراً من الروم أمام قرطاجة عاصمة الشمال الأفريقي البيزنطي . وفي الشمال استولوا على قبرص ، وغزوا آسيا الصغرى ، وحطموا الأسطول البيزنطي هلى مقربة من ساحل الأناضول . وزحفاً على أرمينية توغلوا حتى بلغوا البحر الأسود ، ثم انصرفوا غرباً بحيث أصبحوا على بعد أميال قليلة من القسطنطينية . وفي الشرق وبعد أن أزاحوا الجيوش الفارسية من الطريق ، اندفعوا عبر خراسان ليطسوا سلطانهم على أفغانستان وتركستان . ولما قتل العاهل يزدجرد على أيدي قومهم في عام ٦٥١ انتهت الإمبراطورية الفارسية التي ظلت مزدهرة طيلة ألف ومائتي عام .

ولسكن بمقتل عثمان في المدينة توقفت قوة التوسع الإسلامي ، فالضعفنة التقليدية بين الأمويين والهاشميين أصبحت ثاراً دموياً ، وتحول العرب من مقاتلة أعدائهم إلى محاربة بعضهم بعضاً . عن طريق عائشة كان محمد والزبير إبننا أبي بكر صهرين للنبي . وعلى ذلك كان قريب هاشمي هو الذي أهدر دمماً أموياً ، وأصبح على زوج بنت النبي المستفيد الرئيسي بلا منازع من موت عثمان عند ما بايعه شيوخ المدينة بالخلافة بعد ذلك بستة أيام سواء كان متواطئاً

أو غير متواطئ مع الثوار . كان الدم يطلب الدم ، وطالب بنو أمية بالنار من على ووجدوا نصيرهم في معاوية بن أبي سفيان الذى استطاع عن طريق ولايته على الشام وقيادته للقوات فيها خلال السنوات الخمس عشر الأخيرة ، أن يكسب قلوب أهل الشام بفعل إدارته الحكيمة والمستنيرة . كان أول عمل من أعمال التحدى للخليفة الجديد أن علق معاوية قميص عثمان الخضب بالدماء وأصابع أرماته الثلاث المقطوعة ، فى المسجد بدمشق ليثير روحاً من الانتقام . وعندما كتب إليه على بطالبه بالدخول فى الطاعة ، رد بصحيفة بيضاء^(١) ؛ ولاحظ الرسول الذى سلم الرد إلى الخليفة : « وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم ، قد ألبسوه منبر دمشق^(٢) » .

كان على الذى فتر نشاطه وزاد بدانة فاقت المعتاد ، نتيجة طول غيابه عن ساحة القتال ، متردداً بشأن كيفية معالجة هذا التحدى . فعندما سأله الزبير عن خطوته التالية أشار بالصبر انتظاراً لما يقضى به الله . ولكن فى موقف متوتر كهذا كان مثل هذا التردد قاتلاً : فقد زاد جموح قبائل البادية إذ تراءت لهم من جديد فرصة للخلاص من نير حكم قريش ، وكذلك سرت روح التمرد فى نفوس العدد الكبير من عبدان المدينة من أسارى الحرب . ولم يبق موالياً فى هدوء لنظام الحكم الجديد سوى العراق الذى نشأت فيه الثورة ضد عثمان . ولكن رد الفعل الوحيد من جانب على كان تغيير العمال فى البصرة واليمن ومصر . بل وأصبحت أسرة الخليفة نفسه بروح متزايدة من

(١) رد عليه بكتاب عنوانه : من معاوية إلى على ؟ ودخله : بسم الله الرحمن الرحيم ، ولاغير . (الترجم) .

(٢) فيما يلى النص الوارد فى « تاريخ العاصمى » (ج ٤ : ص ٤٤٤) : قال : ورائى أنى تركت قوما لا يرضون إلا بالقدود ، قال : ممن ؟ قال : من خيط نفسك ، وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم ، قد ألبسوه منبر دمشق . فقال : متى يطلبون دم عثمان ! أأست مولورا كثرة عثمان ! اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان . (الترجم) .

التم، د. فقد كانت عائشة زوج محمد المحبوبة، تكن منذ وقت طويل نقمة على علي لأنه صدق شائعات عن طهارتها أطلتها أعداء النبي عندما توجه إلى المدينة لأول مرة. والآن تظاهرت بغضب شديد مفاجيء بسبب مقتل عثمان، وأقنعت الزبير الذي أصيب بخيبة أمل إذ لم يخلف عثمان، بأن ينضم إليها في ثورة سافرة ضد علي. وحتى يضربوا المصدر الرئيسي لقوة علي، زحفت عائشة والزبير على العراق بجيش من أهل مكة واستولوا على البصرة في أكتوبر من عام ٦٥٦ وأسروا عاملها الجديد المعين من قبل علي.

وأخيراً تحرك علي وأسرع إلى الكوفة يجمع أعوانه. وانحاز إليه بنو بكر، وكسب ود الكوفيين بأن وعدهم باتخاذ مدينتهم عاصمة للخلافة بدلا من المدينة، فأمدوه بعشرة آلاف لاسحق الثورة. ولكن بسبب التقدم في السن والبدانة من جهة، وخشية إثارة دورة أخرى من حروب الثأر، عزف علي عن مواجهة عائشة قبل أن يحاول أولاً أن يكسبها إلى جانبه عن طريق المفاوضة. وبرغم أن الزبير كان مستعداً للتفاهم تغلبت عائشة على شريكها في الثورة وخرجت إلى القتال راكبة في هودج جل. انتصر علي وسميت المعركة بعد ذلك وقعة الجمل. وقتل الزبير وهو يحاول الهرب، وأعيدت عائشة إلى المدينة حيث توفيت بعد أربعة عشر عاماً وقد أدركت السادسة والستين.

بويع علي بالخلافة في العراق بلا منازع، أما في الشام فكان لا يزال عليه أن يعمل حساباً لمعاوية الذي راح تحت راية قبيص عثمان الخضب بالدماء يجمع جيشاً متزايداً من أنصاره الأمويين. وأمام جميع المحاولات التي بذلها على ليكسب طاعته كان رد زعيم بني أمية الجديد على لسان رسل يتقدمهم حبيب بن مسلمة القهري: «.. فان عثمان بن عفان رضى الله عنه كان خليفة

مهدياً ، يعمل بكتاب الله عز وجل ، وينيب إلى أمر الله تعالى ، فاستثقلتهم حياته ، واستبطأتم وفاته ، فعذوتم عليه فقتلتموه ؛ فادفع إلينا قتلة عثمان — إن زعمت أنك لم تقتله — تقتلهم به ، ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم ، يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم^(١) . وأخيراً قرر على الزحف على الشام ؛ وفي أبريل ٦٥٧ تقابل على رأس جيش من خمسين ألفاً مع أهل الشام من رجال معاوية ، في صفين على نهر الفرات . كان أهل العراق على وشك الانتصار عندما لجأ عمرو فاتح مصر والذي يلي الآن معاوية في القيادة ، إلى خدعة رفع المصاحف على أسنة رماح قواته . أوقف رجال على القتال على الفور وفسروا الحركة كما كان يراد منهم أن يفسروها ، على أنها دعوة إلى تحكيم القرآن . واضطر على إلى الموافقة على أن تحل المشكلة وفقاً لما يقضى به كتاب الله .

أما كيف سمح على لنفسه بأن يخدعه معاوية عندما بدأ الحسبان اللذان وقع عليهما الاختيار ، يؤديان مهمتهما بعد ذلك بستة أشهر ، نقول إن هذا ما لم يفسره أحداً تماماً أبداً . ولكن يبدو أن الحسكّم الممثل لعلّ وكان شخصاً سليم الطوية متقدماً في السن وغير متمرس بالديبلوماسية ، وافق مع عمرو الداهية ، على أن يخلع كل منهما صاحبه من الخلافة ، وهي حيلة من الواضح أن الخاسر فيها على ، ذلك أن معاوية لم يكن يشغل خلافة حتى يتنازل عنها . سادت الآن حالة من الهدنة المسالمة بين الغريمين ، وفيها كان معاوية مسيطرأ على الشام وكان لعلّ الطاعة في العراق وفارس . ولكن قضية على كان قد أصابها ضرر جسيم ، فبرغم أنه ظل حتى يوم وفاته يلعب معاوية في صلاة

(١) آ النس الوارد في تاريخ الطبري (ح ٥ ، ص ٧) — المترجم .

الجماعة في الكوفة ، فإن خلافته ضعفت بصورة قاتلة بسبب تراخيه وتهاونه وهو ما سارع معاوية إلى استغلاله كي يرفع من مكانته .

وإذ بوبع معاوية في الشام بسبب تحديه المصمّم للقتلة من بنى هاشم ، راح يعمل الآن على إخراج ولايات أخرى من الطاعة . وبدءاً بمصر التي خشى هو وعمرؤ أن يستخدمها على مهاجمة دمشق ، دق إسفيناً بين الخليفة وعامله قيس . كان رد الفعل من جانب على أن عزل قيساً وولى مكانه محمد بن أبي بكر زعيم الثورة المصرية التي وضعته على العرش . ولكن اضطهاد محمد لذلك النفر من المصريين الذين كانوا يشكون في أحقية على بالخلافة ، سبب الكثير من المشاعر السيئة . وإذ زاد الشعور المعادي للهاشميين بعث بعمرؤ مرة أخرى إلى مصر على رأس قوة أموية ونصب نفسه والياً لحساب معاوية ، مما سبب راحة شديدة لأغلبية كبيرة من الأهلين . أما وقد ضمن معاوية مصر ، إنقض على بلاد العرب وتقاضى جزية من القبائل ، بينما مرة أخرى وقفت جيوش الخليفة موقفاً سلبياً . بعد ذلك زحف على عرين الأسد نفسه وغزا العراق . ولكن الأسد كان نائماً واستطاع معاوية في مناعة ، أن يدفع بأهل البصرة إلى الثورة عند عتبة باب على نفسها ، كذلك بعث بسرية من ثلاثة آلاف رجل إلى مكة والمدينة حيث صعد زعيمهم فوق المنبر وتوعد بالموت كل من لا يدخل في طاعة معاوية . وواصلت السرية نفسها الزحف إلى اليمن حيث ذبحوا الكثيرين من قرابة على وأصدقائه وعادوا إلى الشام لم يتعرض لهم أحد .

وبحلول عام ٦٦٠ كانت الغزوات الأموية قد قصرت ممتلكات على على فارس وركن صغير من العراق مركزه الكوفة ، وكان معاوية قد نادى بنفسه خليفة في بيت المقدس . أخذ أنصار على ينفذون من حوله بسرعة ،

وانحاز بعضهم إلى معاوية بينما هرب آخرون وعمدوا إلى الإختفاء . عند هذه النقطة تسكونت في العراق فرقة جديدة من المنشقين تعرف باسم الخوارج . أبي الخوارج أن يعترفوا بخلافة علي أو معاوية ، وأعلنوا أن الله وحده هو الذي يمكن أن يختار الحاكم الروحي للاسلام ، وأقسموا أن يقتلوا في وقت واحد : الخليفة في الكوفة ومعاوية في دمشق وعمراً في مصر . تحرك علي ليقضي على هذا التهديد في مهبه بأن هاجم معسكر الخوارج في النهروان . ولكن رغم أن الخوارج منوا بهزيمة ساحقة إلا أنهم رفضوا الاستسلام . وفي يناير من عام ٦٦١ وبأحدهم على الخليفة وقتله بسيف مسموم على مقربة من المسجد بالكوفة . وحاول آخر قتل معاوية في دمشق ؛ وفي مصر أخطأ القاتل الثالث صاحبه فقتل شخصاً آخر^(١) . عاش معاوية بعد الاعتداء الذي وقع عليه ، أما على فمات في اليوم التالي . وتقول الأسطورة إن قاتله كان قد أقسم أن يعطي خطيبته الخارجية التي قتل أبوها يوم النهر ، رأس الخليفة كجزء من مهرها^(٢) .

مسكين على ؛ لا يسع المرء إلا أن يشعر بالأسف لانحلال أمره وسقوطه غير العاديين . كان في شبابه في مقدمة المعارك دائماً ، يشق طريقه في وجه أعداء ساحقة ليسجل نصراً بعد آخر تحت لواء النبي . وكان أحب الصحابة

(١) كان عمرو يشتكي بطنه فلم يخرج ذلك الليلة وأمر خارجة بن حذافة وكان صاحب شرطته ، فخرج ليصلي فشد عليه القاتل المقربس به وهو يرى أنه عمرو فضر به فقتله (الترجم) .
 (٢) رأى ابن ملجم المرادي أصحاباً من تيم الرباب فذكروا قتلاهم يوم النهر ، ولقي من يومه ذلك امرأة من تيم الرباب يقال لها : قطام لابنة الشحنة — وقد قتل (علي) أباه وأخاه يوم النهر ، وكانت فائقة الجمال — فخطبها فقالت : لا أتزوجك حتى تشفي لي قال : وما يشفيك ؟ قالت : ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي بن أبي طالب ، قال هو مهر لك . . . فوالله ما جاء بي إلى هذا العصر إلا قتل علي ، فلك ما سألت . (الترجم ، ، ملخصة من رواية الطبري ، ج ٥ ، ص ١٤٤) .

إلى نفس النبي بسبب بسالته ضد الكفار من بنى أمية ، ولزواجه من فاطمة أبنته الحبيبة ، ولأنه كان أحد أول ثلاثة اعتنقوا الإسلام . ولكنهم تخطوه عندما توفي النبي . وكان من أثر سنوات التحول المشوب بالمرارة خلال خلافة كل من أبى بكر وعمر وعثمان أن ضعف نشاطه وتآكلت همته وهو يمضى الوقت مع آل بيته أوفى عد نصيبه من الغنائم التي تتدفق على المدينة من الشام والعراق وفارس ومصر . وعلى ذلك عندما دقت الفرصة بابه للمرة الثانية لم يكن في الحقيقة مستعداً لها ، ومن المحقق أنه لم يكن ندأً من الناحيتين الجسمية والذهنية ، لما جاءت به من تحدى الحرب الأهلية المباشر والساحق . وبرغم أنه ظل حتى النهاية قادراً على التآمر بالأفضل والأسوأ ، وعلى أن يكون قادراً أيضاً على الانتقام عندما يتطلب القليل من الجهد ، إلا أنه كان في أساسه معتدلاً ومتساعحاً وكسولاً ورفيق القلب وخاصة بالنسبة إلى أطفاله ، ولم يكن عنده ما يفضل اللهو ساعات مع ابنته الصغيرة . كانت حالات فشله راجعة إلى تفضيله الحلول الوسط وإلى التراخي والتهاون ، مما أتاح لمعاوية فرصة لم يغفل إبدأً استغلالها خلال السنوات الخمس المفجعة التي دامت فيها خلافة على .

ولكن التاريخ والتقاليد الإسلامى كانا رفيقين بعلى حيث لم تكن الظروف كذلك . إذ يعتبر اليوم هو وابنه الحسين من القديسين في نظر تلك الفرق المعروفة في العراق وفارس باسم « الشيعة » أى أنصار على أو المتشيعين له ، بينما يشغل معاوية مركزه بحسب بين أشهر الخلفاء وأمرأء المؤمنين عند أهل السنة أو الخلافة الصحيحة . لكن الذى لاشك فيه في نظر الدارس غير المتحيز ، للتاريخ العربى ، أنه لو كانت الأقدار قد عكست قرارها وجعلت علياً يعيش بعد طعنة سيف القاتل الخارجى بينما قضت بموت معاوية ، لما حققت الامبراطورية

العربية أبدأ ما وصلت إليه من توسع في ظل التأييد الحاسمة لمعاوية وغيره من خلفاء بنى أمية في دمشق .

في الوقت الذى شاء فيه القدر زوال على على يد قاتله الخارجى كان معاوية الحاكم بغير منازع على الشام ومصر وبلاد العرب ويطبق الخناق على العراق . لم يتخلف عن طاعته سوى الكوفة والامبراطورية الشرقية ، ولكن هذا الموقف لم يستمر طويلا . فمن باب الاحترام لذكرى على بايع أهل الكوفة الحسن بالخلافة عند وفاة أبيه . وإذا كان الحسن يؤثر العافية ويحب السلم ، ويفضل أمن العاصمة الفارسية القديمة وترفعها على أخطار ساحة الحرب وشدايدها وقد ظفر بكيفية المطلاق الكبير من زيجاته الكثيرة التى يقول البعض إنها بلغت المائة ، لم يقيم إلا بحركة واحدة لإيقاد عرشه فوجه جيشا من الكوفة ضد معاوية ، ولكن لما بلغت المدائن الشائعات عن انهزام جيوشه تنازل على الفور لمعاوية الذى بعث إليه بصحيفة بيضاء وكتب إليه أن اشترط في هذه الصحيفة التى ختمت أسفلها ما شئت فهو لك . لم ينجل الحسن من أن يطلب ويشترط رده أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف درهم (٧٠٠٠٠٠ دولار) وعندئذ ، وقد وضع في جيبه مكاسب لا يستحقها ، انصرف إلى المدينة حيث توفي بعد سنوات ثمان مسموما على يد إحدى زوجاته^(١) .

نقلت عاصمة الخلافة الآن رسميا إلى دمشق حيث بقيت فيها طيلة السنوات التسع والثمانين التالية . وأدخل معاوية أيضا إصلاحات إدارية معينة أرادها إدارة شؤون الحكومة الامبراطورية . حتى ذلك الحين كانت الامبراطورية

(١) اختالف المؤرخون في سبب موت الحسن ، فزعم قوم أن زج ظهر أدمه في الطواف بزج مسموم؛ وقال آخرون: إن معاوية دس إلى جمعة بنت الأشعث بن قيس بأن تسمم الحسن وبزوجها يزيد ، فسمته وقتلته . (حسن إبراهيم حسن : زعماء الاسلام ، القاهرة ١٩٦٦ م ، ص ١٩٦) — المترجم .

تنقسم إلى وحدات إدارية أو محافظات تطابق بوجه عام تقسيمات الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية. كانت هناك ولايات مستقلة للشام ، وفلسطين ، والعراق ، وغرب ووسط فارس ، والبحرين ، وعمان ، وشرق فارس ، والحجاز ، وأرمينيا ، ومصر ، وشمال أفريقيا ، وأخيراً اليمن وجنوب بلاد العرب . فأدمج بعض هذه التقسيمات المربكة لتكوين ولايات خمس . فوضعت إدارة العراق والشام كلها وشرق بلاد العرب في يد والٍ واحد عاصمته الكوفة ؛ وبالمثل تم إدماج الحجاز واليمن وجنوب بلاد العرب ؛ ووسع نطاق ولاية أرمينية لتشمل منطقة الجزيرة بين دجلة والفرات؛ وأدمجت مصر وشمال أفريقيا ، وكذلك غرب وشرق فارس .

كذلك كان معاوية أول خليفة يفوض السلطة . لم تعد وظائف الحكم الثلاث — الإدارة السياسية وجباية الضرائب والإمامة — مركزة في أيدي الخليفة ولكنه عهد بكل منها إلى وزير مختلف . وكان الولاة أحراراً في أن يعينوا نواباً عنهم في داخل ولاياتهم دون الرجوع إلى دمشق . وبدلاً من أن يتولى القضاء بشخصه كما فعل الخلفاء الأوائل ، عين معاوية قضاة مستقلين في جميع أرجاء الامبراطورية . وأنشأ أيضاً جهازاً إدارياً ، وبريداً ، وديواناً للمكاثبات ليمتشي مع ازدياد حجم المراسلات ولضمان حفظ الوثائق الرسمية . بهذه الإصلاحات وغيرها التي أريد بها مواعاة توسع الخلافة السريع ، أصبح معاوية أول حاكم للامبراطورية العربية يخرج على النظام القبلي القديم الحكم ويرسي أسس إدارة سياسية حديثة .

وفي الوقت ذاته راح يعمل على إخضاع آخر معقل لقوة العلويين في الشرق . فاستدعى إلى دمشق زياداً بن أبيه عامل على في فارس ، وهناك أغدقت عليه ضروب المداينة الشديدة مقابل خروجه على مولاه ، بما في ذلك

عرض ولاية الإمبراطورية الشرقية بأسرها عليه . ووقع زياد وهو ابن غير شرعى لأبى سفيان من بغى فى الطائف ، تحت إغراء هذه المعاملة وخاصة عندما استأحق معاوية نسب زياد بأبيه . واذ عاد زياد إلى ممتلكاته التى اتسعت رقعتها أنشأ أول قوة للشرطة فى الإمبراطورية العربية واستخدمها فى مطاردة الشيعة أنصار الحسين وهو الابن الأصغر لعلى وكان لا يزال على قيد البقاء . وبرغم أن العراق وفارس سوف يعرفان فى المستقبل غير البعيد صنوفاً من القمع أشد سوءاً ، إلا أن حكم زياد الذى لا يرحم كان فيه ما يربو على ثمن ما قدم إليه معاوية من إحسان وأفضال ، إذ ألزم الأقاليم الشرقية بالدخول فى الخطيرة الأموية .

أما وقد ضمن معاوية قاعدته الداخلية على هذا النجوسير الجيوش العربية مرة أخرى في جميع الاتجاهات . فعلى الجبهة الرومية استغل العرب سيطرتهم على البحار منذ الاستيلاء على القواعد البحرية البيزنطية في الأسكندرية وقبرص وتدمير الأسطول البيزنطي ، وأغاروا على صقلية ورودرس وضربوا شمالا في البحر عبر الدردنيل ليهاجموا القسطنطينية ذاتها رغم ماوضح به دئذ من أن هذا لم يؤثر على الإطلاق في هذا الحصن اللينيع . وفي الشرق عبروا نهر جيحون إلى أذربكستان وأغاروا على بخارى وأدخلوا مدن بلخ وهراة القديمة بأفغانستان في حظيرة الاسلام وثبتوا الحكم الاسلامي على شاطئ نهر السند . وفي أفريقية صدرت التعليمات إلى عقبة بن نافع وهو ابن أخ لعمرو بأن يدعم حدود الإمبراطورية حتى أبعد مكان في الغرب حتى ذلك الوقت وبسبب الافتقار إلى قاعدة أقرب من القسطنطينية - وهو مايعني خط مواصلات طوله ١٥٠٠ ميل وبتعرض باستمرار المضايقة من جانب العدو ، فإن الجيوش العربية التي زحفت أية مسافة على ساحل أفريقية الشمالي كانت تجبر على الانسحاب . وعلى

ذلك أنشأ عقبة في عام ٦٧٠ العاصمة العسكرية الحصينة وهى القيروان في تونس وتقع في منتصف الطريق بين مصر والطرف الغربى الأقصى للإمبراطورية البيزنطية بشمال أفريقيا في مراكش . ومن القيروان أنشئت سلسلة من الحصينات تمتد شرقاً وغرباً لتحول دون هجمات الجيوش البيزنطية من قرطاجة وغارات قبائل البربر الجبلية في الظهير الجبلى الذى لم يفتحه العرب . وإذ استبعد عقبة خطر تونس بهذه الطريقة واصل الزحف في عام ٦٨٣ إلى مراكش حيث استولى على طنجة واحتل ساحل الأطلسى حتى أغادير جنوباً . ولكن على غرار العرب السابقين الذين فتحوا طرابلس وتونس ، وجد نفسه الآن على بعد نحو ١٥٠٠ ميل من قاعدته . وبرغم أنه لى مقاومة قليلة في أثناء زحفه ، فإن خط مواصلاته الطويل الذى تعوزه الحماية جعل من الخير له أن ينسحب إلى القيروان . وإذ كان يتوقع أن يلقى في عودته مقاومة يسيرة كالتى لقيها خلال رحلته الخارجية ، قسم قوته إلى عدة ألوية صغيرة بقصد إخضاع وتهذئة أكبر ما يمكن من المناطق الواقعة إلى الغرب من تونس . ولكنه هنا ارتكب خطأ مميتاً ، فعند بسكرة في شرقى الجزائر وقع هو ولواءه في كمين نصبته قوة كبيرة من البربر ، وقتلوا عن آخرهم . وخلال السنوات الخمس والعشرين التالية لم يعرف شمال أفريقيا من طنجة حتى طرابلس سوى حكم قبائل البربر الوحش ، باستثناء جيوب منعزلة قليلة يغلب عليها النفوذ البيزنطى من قرطاجة .

وبينما المعركة من أجل التوسع نائرة على جميع هذه الجبهات كان معاوية في دمشق يرسم خططاً دقيقة يضمن بها استمرار الإمبراطورية بمد وفاته . وإذ كان مصمماً ألا تتكرر الحرب الأهلية التى أعقبت مقتل عثمان وبالسكاد حات دون تمزق الإمبراطورية الوليدة ، عزم على الخروج نهائياً على مبدأ

الانتخاب وأن يجعل الخلافة تتعاقب في أسرته ، بأن يستخلف ابنه يزيداً . قبل أهل الشام الاقتراح على نحو ما كانوا يفعلون بالنسبة إلى كل ما كان يعرضه عليهم معاوية ، ولم يعترض العراق الذى يسيطر عليه زياد . ولكن لما عرضت القضية على المدينة ومكة نجد أن الحسين الإبن الأصغر لعلى ، وليبين أن العداء بين الأمويين والهاشميين لم ينته بموت أبيه وتنازل أخيه ، اعترض بشدة على ما وصفه بأنه محاكاة غير ديموقراطية للأسلوب اليونانى والرومانى . بالطبع كان فى إمكان الحسين بوصفه حفيد النبى أن يعتمد على تأييد شعبى كبير فى الحجاز . وعلى ذلك قرر معاوية أن يتجاهل بدلاً من أن يقمع هذا المعارض الذى هو موضع التقدير ، ومن ثم أعلن البيعة ليزيد .

هنا ربما ارتكب معاوية واحداً من أخطائه التكتيكية النادرة . كان هدفه أن يتفادى حرباً أهلية أخرى بعد وفاته ، ولكن القوم فى مكة والمدينة فسروا فشله فى حمل الحسين على الموافقة بأنه ضعف . ولكن معاوية كان فى ذلك الوقت قد تجاوز السبعين من العمر وفضل عدم استخدام القوة إذ ظن أن الأساليب الأخرى سوف تحقق أغراضه . وفضلاً عن هذا كان بطبيعته ميالاً إلى الوفاق أكثر مما كان محارباً . وإذا كان بطيئاً فى الغضب وذا قدرة غير عادية على ضبط النفس ، كان — حسب قوله — لا يستخدم سيفه حيث يكفى سوطه ، ولا يستخدم سوطه حيث يكفى لسانه ، « ولو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت . إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها » .

هكذا كان خلق هذا السياسى العربى الرائع الذى أسس أسرة قدر لها أن تحكم الإمبراطورية فى أيام أعظم مجدها وأوسع حدودها الجغرافية . وكشخص ديموقراطى إقطاعى يتبع التقليد القبلى كان باب معاوية مفتوحاً

دائماً أمام أدنى رعاياه مرتبة . فالفقراء ، وذوو الحاجة ، والنساء ، والأطفال ، أو بعض أهل البادية القدامى ممن لديهم مظلمة يريدون التعبير عنها — هؤلاء جميعاً كان في إمكانهم أن يعرضوا عليه شخصياً متاعبهم وكل منهم يحظى باهتمامه غير المجزأ . فبينما دافع عن عثمان وانتقم لمقتله من قبيل الولاء لشخص تربطه به صلة الرحم ، كان معاوية على خلاف الشخص المنحل الذي يتحيز لأهله . كان يعين وزراءه وعماله حسب مزايهم ، ولما كان يدرك عدم توافر العدد الكافي من العرب الذين يؤهلهم تعليمهم أو خبرتهم لإدارة إمبراطوريته الآخذة في التوسع السريع ، استخدم النصارى واليهود والقبط والروم والأعاجم في أرفع المراكز بالدولة . فمن بين آخرين كان صاحب بيت المال وشاعر القصر وطبيب الخصاص بل وزوجته، من النصارى . كذلك لم يكن معاوية من الثموى بحيث يبتعد عن الترف والدعة . والواقع أن المؤرخين المسلمين انتقدوه بسبب أنه كان يلقي خطبة الجمعة وهو جالس ، وأنه أقام في القصر الخلفي عرشاً ملكياً مما جعل منه على حد إصرار نقاده ، أول ملك في الإسلام بدلاً من أن يكون خامس الخلفاء. ولعل معاوية ما كان لينكر الاتهام ذلك أنه كما يحدثنا فيليب حثي « لم يكن أول الملوك العرب وحسب ولكن كان من خيرهم أيضاً » . وكان في وسعه أن يدعى أنه ترك المملكة أغنى وأكبر وأكثر أمناً مما وجدها .

أدرك معاوية وهو على فراش الموت في عام ٦٨٠ أن تكتيك تجاهل خصومه من بنى هاشم لم يثمر . وحذر ورثته يزيد من أن الحسين سوف يحاول الاستيلاء على الملك ، ولكنه نصحه برغم ذلك بالترفق به فقال « فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رَحماً ماسة وحققاً عظيماً وقراة من (م ٧ — العرب)

محمد صلى الله عليه وسلم . وحذر يزيداً أيضاً من عبدالله بن الزبير وهو عدو لدود لبني أمية ، كان أبوه الزبير ومحمد بن أبي بكر على رأس الثورة ضد عثمان . قال معاوية : « وأما الذى يحشم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فإذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً^(١) » . ولم يكد معاوية ينطق بتحذيراته حتى نادى ابن الزبير بنفسه خليفة فى مكة ، وخرج الحسين من مكة متوجهاً إلى الكوفة فى صحبة سبعين من الشيعة يحرسونه ، كى يشعل الثورة فى العراق ويفترع الخلافة من يزيد . ولكن التصرف الذى أقدم عليه فى الوقت المناسب ، عامل الكوفة عبيد الله بن زياد ، حال دون وصوله إلى مقصده ، وهنا عدل الحسين إلى كربلاء على مسافة نحو خمسين ميلاً إلى الشمال ، ليفسكر فى خطوته التالية . وبعث إليه عبيد الله برسول يدعوهُ إلى الاستسلام . عهد الحسين إلى الأناة أملاً فى كسب وقت يجمع خلاله القبائل تحت لوائه . ولكن عبيد الله وكان على هيئة من نواياه ، أمر بتطويق معسكره . لقد بالغت الأسطورة الشيعية فى قصة المعركة التى نشبت بعد ذلك بحيث يستحيل فصل الحقيقة عن الخرافة . ولكن يبدو من الواضح بدرجة طيبة أن قوة الحسين الضئيلة ظلت ساعات عديدة تتحدى القوات الكافية التى كانت تفوقها عدداً بنسبة خمسين إلى واحد . وعندما استنفد الحسين الحيل وكل وسيلة أخرى للدفاع وخر جميع أتباعه صرعى ، واجه أعداءه بمفرده . وإذ اندفع يهاجم أهل الكوفة الذين

(١) النص كما أورده الطبرى فى تاريخه ، ج ٥ ، ص ٣٢٢ — ٣٢٣ . وفيما إلى النص كما ورد فى كتاب « العقد الفريد » (ج ٣ ، ص ١٣١ — ١٣٢) : « لست أخاف عليك إلا ثلاثة : الحسين بن علي ، وعبدالله بن الزبير ، وعبدالله بن عمر . فأما الحسين بن علي فأرجو أن يكفيكه الله فإنه يمل أناه وخذل أخاه . وأما ابن الزبير فإنه خب ضب فإن ظفرت به فقطعه إرباً إرباً — المترجم . »

اعترتهم الدهشة، شق طريقه عبر صفوفهم في شجاعة اليأس إلى أن سقط وقد أصيب بضربة سيف في العنق . وفصلت رأسه عن جسده ، وبناء على أمر من لعبيد الله وطأوا جثته بالأقدام ومثلوا بها لمنع التعرف عليها بأنها جثة حفيد النبي ، وتركت طعاماً للجوارح . ويقال إن الرأس تم الاحتفاظ بها وفي النهاية دفنت في قبر بكر بلاء أصبح فيما بعد ضريح الحسين . وتعتبر كربلاء حتى اليوم المدينة المقدسة بالعراق ، وهي مع النجف حيث دفن عليّ ، مكان يحج إليه الشيعة وهو عندهم أكثر قداسة من الكعبة في مكة أو قبر الرسول في المدينة. إن موت الحسين البطولي مضافاً إليه الشعور الواسع الانتشار الذي أحاط بذكرى عليّ ، كان هو كل ما يحتاج إليه البيت العلوي لتثبيت حقّه في ضروب المحبة والولاء في العراق وهو حق ظل قائماً طيلة ثلاثة عشر قرناً .

(٦)

الإرهاب والفتح في الشرق

قضي يزيد على الحسين ولكن جعل منه شهيداً وهو ما كان أبوه يخشاه. كان عليه الآن أن يتحمل العواقب المتفجرة لانتدائه بالعراق ؛ وكان عليه فضلاً عن هذا أن يعالج أمر عبدالله بن الزبير في مكة . ولم يفعل أى من الأمرين بطريقة فعالة جداً ، ذلك أن يريد أن يكون من طراز معاوية . فبرغم أنه كان كوالده يؤثر التفاوض على القتال إلا أن إثارة كان يوحى به ميل إلى إغفال شئون الدولة . فإذا كان ابناً لأم مسيحية كانت شاعرة موهوبة ، فقد كان يزيد شاباً رقيق الحاشية يملك طاقة هائلة على أن يمتنع نفسه ، ومدمناً في قوة على السخرية وقرض الشعر .

في هذه الأثناء كانت روح الانتقام انتق أثارها استشهاد الحسين تنفور بصورة خطيرة تقرب من نقطة الغليان . وفي الحجاز إرتفعت مكانة عبدالله بسببه اللعنات على الأمويين . والآن ، وخوفاً من استخدام المزيد من القوة ، تجاهل يزيد مشورة أبيه وحاول معالجة أمر عبدالله باللين . فبدلاً من أن يبعث بالقوات لتمزيق عدوه « إرباباً إرباباً » دعاه إلى بلاطه في دمشق . وحتى عندما رد عبدالله بزج رسول يزيد في السجن ، ظل الأخير متردداً في توجيه الضربة الأولى ، ولم يتحرك بحزم إلا بعد عامين عندما انحازت المدينة إلى ثورة مكة وعزل الخليفة المضاد عامل يزيد وقبض على ألف من الأمويين . فسير يزيد حملة تأديبية من الشام كان من الغريب أن تضم كثيراً من العرب المسيحيين (كيف لا بد أن يمرر كان يتلوى في قبره !) . سارت الأمور سيراً حسناً في أول الأمر ،

فاستولى أهل الشام على المدينة وزحفوا على مكة حيث أمطر رجال المدفعية المسيحيون المسجد الحرام الذي احتفى به ابن الزبير ، بالحجارة من مجانيقهم وخلال الحصار اشتعلت النار في الكعبة وتسكسر الحجر الأسود إلى ثلاثة أجزاء . ولكن بعد ذلك بشهرين علم المهاجرون بموت خليفتهم وقائدكم الأعلى فانسحبوا .

أصبح عبدالله بن الزبير الآن حاكم الحجاز بلا منازع ، وعندما وضع ابن يزيد وخليفته معاوية الثاني صبي مريض ، لم يبطئ الخليفة المضاد في أن يستغل ميرته في أماكن أخرى في الإمبراطورية . وإذا لم يلق مقاومة أموية توقفه حصل على البيعة في العراق حيث بعث بأخيه مصعب ممثل له ، وفي مصر وجنوب بلاد العرب وحتى في أجزاء من الشام . تخلى عبيد الله عن الكوفة لمصعب ، وارتعش الأمويون أمام تقدم الهاشميين المنتقمين . ولكن لم يضع كل شيء . فقد تنازل الآن معاوية الثاني عن العرش إذ كان من الأمانة بحيث يعترف بأنه لن يستطيع أن يشغل المنصب بجدارة ؛ وأظهر بنو أمية مرونتهم بالتحول إلى فرع آخر من هذا البيت الوفير بالكفاءات ، وبايعوا مروان بن الحكم بالخلافة . كان مروان وزيراً لعثمان ، وكان الآن رجلاً تقدمت به السن . ورغم أنه لم يعيش سوى تسعة أشهر فسرعان ما أظهر ابنه وخليفته عبد الملك أن الأمويين قد وجدوا مرة أخرى البطل الصحيح في لحظة أزمة خطيرة تعرض لها بيتهم .

على غرار معاوية بدأ عبد الملك في تمويض خنائر أسرته بفضل نشاطه هو وباستخدام عامل لا يعرف الرحمة ليثبت سلطانه على أهل العراق المتمردين المتقلبين . اختار عبد الملك رجلاً من طراز زياد هو الحجاج بن يوسف ، كان في الأصل معلماً في الطائف ومن بنى قيس من وادي الفرات . فعبد الملك

كان يشمر بالتمتع من الحرب ، وكذلك كان الحجاج . وعند ما بعث بالحجاج ليستأنف حصار مكة وكان لا يزال في أواخر العشريّات من العمر ، استخدم الأخير مجافيقه بطريقة أشد وحشية وأكثُر فعالية مما استخدمها رماة يزيد المسيحيون .

سقطت مكة بعد ستة أشهر وقتل عبدالله بن الزبير وهو يقاتل حتى النهاية بشجاعة الأسد التي كان ينسبها إليه معاوية . وتمشيًا مع التقليد أرسلت رأسه إلى الخليفة .

في هذه الأثناء كان العراق يفرق في حمام صغير من الدم . لقد قتل عبيدالله وهو يحاول استرجاع الكوفة . أما ذلك النفر من رجاله ممن عرفت مسئوليتهم عن قتل الحسين فقد أعدموا بالطريقة التي يقضى بها القانون القبلي . وهناك جندي زعموا أنه هو الذي نزع جلد الحسين ففعلوا به الشيء نفسه ثم قتلوه رميًا بالسهم حتى برزت من لحمه كأنها أشواك القنفذ .

ولكن أما وقد مات ابن الزبير بدأ الهاشميون يتعاركون فيما بينهم ؛ وسارع عبد الملك إلى أخذ المبادرة في يده . وفي محاولة بارعة لصرف الحجاج المسلمين عن المعقل الهاشمي بنى المسجد الرائع في القدس والمسمى قبة الصخرة . وإذ قارب هذا البناء العظيم التمام اتبعه بحملة وجهها إلى الكوفة المتمردة . وعن طريق الدعاية الذكية ، وتقديم العروض بالعفو عن كافة أنصار الخليفة المضاد إذا انحازوا إليه ، أغرى الكثيرين من قوات مصعب بالانفصاض عنه . وعندما بدأت المعركة في عام ٦٩١ أوقع الهزيمة بالعامل الهاشمي بسهولة .

انتهت الآن الحرب الأهلية الثانية ؛ لقد انتصر البيت الأموي وتوقفت شبه الجزيرة العربية إلى الأبد عن أن تكون مركز قوة العالم العربي . وعمل

عبد الملك الآن على دعم سيادة دمشق . فإذا كان من المتحمسين للسيادة العربية أحدث الكثير من التغييرات الجذرية في نظام الحكم الذي سبق أن ابتدعه معاوية ، وكان المقصود منها جميعاً وضع العرب في مراكز السيطرة والتقليل من نفوذ الروم والأعاجم في إدارة شئون الخلافة . كان أول إصلاحاته وأبرزها إحلال العربية محل اليونانية والفارسية كاللغة الرسمية في الشام والعراق ، وكانت النتيجة التي استهدفتها الخليفة أن تولى الموظفون العرب بالتدريج محالا واسعا من الوظائف الحكومية كان يشغلها الروم والفرس من قبل . عند بدء الفتوح العربية لم يكن أبناء البادية على دراية بدقائق شئون الضرائب والمالية والإدارة ووقعت المسؤولية عن هذه المسائل في أيدي الموظفين الروم والفرس ممن استولى الفاتحون العرب على بلادهم . ولكن أصر عبد الملك على أنه بانهضاء جهلين فقد حان الوقت الذي يتعين فيه على العرب أن يبدأوا في تحمل مسؤوليات حكومتهم . فضلا عن هذا أصبح الخليفة الجديد أول من ضرب عملة عربية تحمل عمل الرومانية والفارسية التي ظلت حتى ذلك الحين وسيلة التبادل . ففي عام ٦٩٥ أمر بنقش الدرهم الفضي والدينار الذهبي ويساويان حوالى عشرة بنسات ومائة بنس (١١٧ر ، ١٦٧ر دولار) على التوالي ، في دمشق أولا .

عزم عبد الملك على أن يسحق الإضطرابات الشيعية في الإمبراطورية الشرقية مرة واحدة وإلى الأبد . ولهذا الغرض اتجه نحو الحجاج الذي نجح في القضاء على العلويين في الحجاز خلال عامي ولايته على بلاد العرب ، وهذا النجاح زكاه باعتبار الرجل الذي يحكم الشرق باليد الحديدية اللازمة . ومنذ أن وصل الحجاج إلى الكوفة أظهر لرعاياه ما ينتظرونهم . فتوجه إلى المسجد مباشرة

وصعد المنبر ونزع عمامته عن رأسه وخطب الجمع مبتدأ بهذا البيت من الشعر القديم :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا منى أضع العمامة تعرفوني

ثم واصل الحديث بلغته فقال : (١)

« أما والله إنى لأحمل الشر محمله ، وأحذوه ينعله وأجزيه بمثله ، وإنى لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإنى لأنظر إلى الدماء بين العائم والحي ... وإنى والله يا أهل العراق ما أغمز كتغياز التين ولا يقعق لى بالشنان ولقد فررت عن ذكاء ، وجريت إلى الغاية القصوى . إن أمير المؤمنين ، عبد الملك نثر كنانته ثم عجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا ، وأصلبها مكسرا ، فوجهنى إليكم ؛ فإنكم طالما أوضعتم فى الفتن ، وسننتم سنن الغى . أما والله لألحونكم لحوا القود ، ولأعصبنكم عصب السلعة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل . إنى والله لأعد إلا وفيت ، ولأخلق إلا فريت . فأياى وهذه الجماعات وقيلوا قالا ، وما يقول ، فيم أنتم وذاك ؟ والله لتستقيمى على سبيل الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا فى جسده . من وجدت بعد ثلاثة من بعث المهلب سفكت دمه ، وأنهبته ماله . »

كان لهذا التحذير الوحشى أثره وخاصة عندما اتبعه بإخماد تمرد بالبصرة ، بأقصى درجات الوحشية . من الآن فصاعداً قدر للامبراطورية الشرقية أن تتحمل عهداً من الإرهاب لامثيل له . كان الناس يعدمون أو يزوجهم فى السجون لأقل اشتباه بأن لهم عواطف علوية أو يعارضون نظام الحكم الأموى .

(١) هذا هو النص كاملاً كما أورده الطبرى (ج ٦ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤) ، واستبعدنا ما تمثّل به بعد ذلك من الشعر (المترجم) .

ويقال إنه خلال ولاية الحجاج على العراق وفارس والتي امتدت إثنين وعشرين عاماً ، أعدم ما لا يقل عن ١٢٠.٠٠٠ شخص ، وأنه عندما مات كان هناك ٨٠.٠٠٠ في السجون .

وكان الحجاج أيضاً إدارياً مسرفاً وجابى ضرائب لا يرحم . فلكي يمول التنمية الزراعية ومشروعات الري زيد الخراج إلى الحد الذي ألبس الفلاحين إلى النزوح بالألوف إلى المدن ليلتحقوا بالجيش حيث كانوا لا يعفون من الضرائب فحسب ، بل وكانوا يتقاضون إعانة خاصة . فأعادهم الحجاج إلى مزارعهم ، وفي بعض الحالات العنيدة بوجه خاص أمر بأن تختم أسماء ملكياتهم على أيديهم وأذرعهم لتسهيل التعرف عليهم إذا ما حاولوا الفرار ثانية . ولضمان سرعة تحرك القوات في حال نشوء متاعب مع العلويين ، أنشأ الحجاج قاعدة عسكرية في وسط السكائنة في منتصف الطريق بين مراتع الشيعة في الكوفة والبصرة . وجيء بألوية من الفرق الشامية لتكون حاميات بالقاعدة وبغيرها من المواقع في كافة أرجاء العراق .

ولسكن وجود هؤلاء المحتلين « الأجانب » إنما زاد من كراهة العراقيين لسادتهم الشاميين ، ومن حنينهم إلى عودة العلويين . وفي عام ٧٠١ وجد العلويون زعيماً في شخص عبدالرحمن بن الأشعث وهو من قواد جيش علي السابقين ، وكان يحيا حياة متواضعة في خراسان منذ انتزع معاوية السلطة من مولاه . زحف ابن الأشعث على العراق وعبر نهر دجلة على رأس قوة كبيرة أطلق عليها اسم « جيش الطاووس » بسبب فخامة ملابس أفرادها . وفتحت له البصرة أبوابها مرحبة به كمحرر من طغيان الحجاج . ولكن انتصار العلويين كان قصير الأمد ، إذ سرعان ما تم استرداد البصرة بفضل

تميزات من الشام ، ويقال إن أحد عشر ألفاً من أهلها دفعوا بحياتهم ثمن مساعدتهم للثوار . يعد ذلك عاد جيش الطاووس إلى التجمع خارج البصرة ، ولكن الشاميين كانوا أقوى منهم . وتلت ذلك مجزرة رهيبة وفر ابن الأشعث بصعوبة إلى خراسان ناجياً بحياته . وعندئذ راح قتيبة بن مسلم الذي استعمله الحجاج ، يطارد أتباع ابن الأشعث ويقتلهم بلا رحمة .

كان قتيبة عاملاً نشيطاً في خدمة الحجاج بمثل ما كان الأخير بالنسبة إلى عبد الملك . فبرغم قسوة هذا المحارب القبلي وفساده كان قائداً لامعاً بشكل لا سبيل إلى إنكاره . وكان الحجاج الذي لم يقل طموحه عن وحشيته ، بحاجة إلى قائد لامع يوسع ولاية الشرقية بحيث تضم الوديان والبساتين الخضراء النظرة والمدن الجميلة التي ذكرت الأساطير أنها واقعة وراء نهر جيحون . وهكذا في عام ٧٠٥ وبعد أن تمت تهدئة العراق وفارس أطلق الحجاج العنان لقتيبة ليسير شرقاً على رأس جيش يزيد على خمسين ألف رجل . وخلال السنوات العشر التالية لم يكذب ينقضى عام دون أن تمتد حدود الإمبراطورية العربية إلى ما وراء قارس وأفغانستان إلى ما يشكل الآن جمهوريات جنوب آسيا التابعة للاتحاد السوفيتي . بل أن جهود خالد بن الوليد وعمرو بن العاص لتتضاءل أمام فتوح قتيبة الذي كان جنوده الذين يلبسون الدروع ، يطلقون العرادات والكباش والمجانيق - وهي الصورة المعروفة في العصور الوسطى للصواريخ الحديثة - على مدن تركستان وأزبكستان . أخذت بخارى ، ونهبت سمرقند . وإذ زحف العرب شرقاً مكثسين كل شيء أمامهم استولوا على فرغانة وخوارزم التي تدعى خيوة الآن ، وأخيراً بلغوا حدود الصين عند كاشغر .

وعلى الجناح الجنوبي لقتيبة لم يكن محمد بن القاسم زوج إحدى بنات.

الحجاج ، أقل نجاحاً عندما غزا في عام ٧١٠ ما يعرف الآن باسم باكستان واستولى على ديول عاصمة السند بعد أن خدسه الحظ إذ أصابت إحدى القذائف تمثال بوذا وحطامته ودفعت المدافعين ممن يعتقدون في الخرافات إلى الفرار ، وقد تملكهم الرعب . وتم الاستيلاء على الملتان وكانت مدينة يؤمها الحجاج من عبدة الأصنام ، وعلى غنائم نقد قيمتها بمبلغ ٨٠٠٠٠٠٠٠ دولار الآن سقطت باكستان الحديثة بما فيها البنجاب في أيدي العرب المنتصرين وراحت بمرور الوقت تدخل في دين الإسلام . من ناحية واحدة فقط لم يحقق طموح الحجاج . لقد وعد بأن يستعمل على الصين أياً من قائديه فتيدة وابن القاسم تطأ أقدامه أرضها قبل الآخر ، فلم ينجح أى منهما في ذلك ووقعت الحدود الشرقية للامبراطورية العربية عند كشمير وطشند .

ولكن إذا كانت للحجاج أطماع فخيمة فقد كان يستطيع أن يظهر غير شيطانية وتافهة إزاء الولايات الأخرى والولاة إذا كان نجاحهم ينتقص بأى حال من سمعته . ومن الأمثلة على هذا معاملته حلفه في الحجاز . هذا الولى وهو ابن أخ للخليفة ، قام بعمله على نحو ممتاز . فحفر الآبار وبنى الطرق وأقام النافورات في المدن المقدسة . والحق ، لقد أضفى على الحجاز برغم مناخه القاسى وتربته الصخرية الجافة ، جواً أكثر جاذبية وأوفر حرية من مراعى العراق حيث كانت دماء ضحايا الحجاج تنساب بغزارة شأنها شأن مياه النهرين الكبيرين . وكان حتماً أن يهرع الكثيرون ممن استوطنوا العراق إلى الحجاز وقد جذبهم الروايات عن حكم عمر السمع . كان هذا كثيراً على الحجاج الذى طالب بعزل عمر وتم له ذلك ، ثم حمل خلفه بالتهديدات عن طرد مماثل ، على إخراج المستوطنين وإعادتهم إلى العراق ، حيث زج بالكثيرين منهم في السجون ، بل وأعدم البعض بسبب هجرتهم .

ومع كل ، فبرغم ما اتصف به الحجاج من وحشية وغيره ، فإنه أسهم في توسيع الإمبراطورية العربية في اتجاه الشرق بأكثر مما أسهم به أى والٍ أموى آخر . صحيح بالطبع أن عصر إرهابه عمل كثيراً على زيادة أعداد جيوش الخليفة بأن دفع الألوف من أهل المدن والبدو على الانخراط في الجيش باعتبار أن هذا أفضل وسيلة للنجاة من القمع والاضطهاد في دولة بوليسية . ولكن هذا لا يغير من الحقيقة وهي أنه لولا أن الحجاج فرض سيطرة قوية على العراق ، وأكثر من هذا على فارس ، لما أمكن أن تكون هناك قفزة إلى الأمام في باكستان وتركستان وأزبكستان وقرغانة ، وبدلاً من أن تتوغل الجيوش العربية حتى حدود الصين كانت تجلس عند عتبة دارها تقوم بدور الحاميات وتدافع عن نفسها ضد التعدي المستمر من جانب العلويين .

لكن مثل هذا الحكم الذى فرضه الحجاج على العراق والإمبراطورية الشرقية يتقاضى حتماً ثمناً مما يولده من المرارة في النفوس . وكان من ترفق القدر به أنه لم يعيش ليدفع هذا الثمن حيث توفي عام ٧١٤ بسرطان المعدة بينما كان الأمويون لا يزالون مقلطين على الخلافة . ولكن برغم أن حكماً آخرين كانوا سيمانون ماسوف يأتى به المستقبل من غضب وانتقام رهيب ، كان الحجاج هو الذى خلق ذلك الرصيد الهائل من كراهية للحكم الشامى راحت تقل بعد موته . كان غير العرب في العراق وجيرانهم الأعاجم ، وبرغم تحوّلهم إلى الإسلام ، يشعرون منذ وقت طويل بالسخط إذ يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية أى كموالى . ولكن القضاء على العلويين في العراق وفارس على أيدي زياد عامل معاوية ، أوجد رابطة مشتركة بينهم وبين الموالى ؛ وهى الموالى بدورهم تربة خصيبة تنمو فيها الشيعة العلوية .

وفي الوقت الذى عين فيه الحجاج والياً على الإمبراطورية الشرقية أصبح

الشيعة هم الناطق بلسان جميع الطبقات المضطهدة في العراق وفارس سواء أ كانوا
 عربا يضطهدون لأنهم يريدون علوياً على العرش ، أم غير عرب ليست لهم
 امتيازات كاملة بسبب أصولهم العنصرية . لقد كم الحجاج أفواه الحركة
 الشيعية بأقسى مما فعل أى والٍ سبقه أو جاء بعده، ولكنه بهذا عمل على تعميق
 الكراهية لحكم أهل الشام وبنى أمية إلى الحد الذى جعل وقوع انفجار
 أمراً لا مناص منه فى النهاية .

(٧)

ذروة الصيف وأوائل الخريف

بالنسبة إلى الأمويين

بالقياس إلى العباسيين لقي الأمويون معاملة يسيرة وأقل من منصفة نوعاً من جانب المؤرخين العرب . ويرجع بعض السبب في هذا إلى ما كان للروائع الفارسية في بلاط هارون الرشيد من تأثير أشبه بالتنويم المغناطيسي ، كما يرجع أيضاً إلى تعمّد الثورة العباسية المنتهمة في عام ٧٥٠ القضاء على كل أثر للأمويين الشاميين بما في ذلك تواريخ فتوحهم . لكن رغم كل أخطاء الأمويين ، وأسوأها بغير شك وأشدّها تدميراً للذات ، الميّل إلى جعل غايات الفتوح تبرر أساليب الإرهاب ، فإن لهم الحق في فصل يسجل لهم مجداً لم تبرز فيه أية إمبراطورية أخرى في تاريخ الإنسان . ففي ذروة القوة الأموية في عام ٧١٥ كانت الإمبراطورية العربية تمتد من حدود الصين إلى المحيط الأطلسي ، ومن فرنسا إلى حدود الهند الحديثة ، ومن بحر الخزر حتى النوبة . وكانت تضم أسبانيا وجميع الساحل الأفريقي الشمالي ، وشبه الجزيرة العربية ، والشام وفلسطين ، ونصف الأناضول ، والعراق ، وفارس وأفغانستان ، وباكستان ، وما يشكل الآن أراضي التركان وأزبكستان والقرغيز بالاتحاد السوفيتي . ما من إمبراطورية تقرب من هذه الأبعاد ، ثم انظر بها في زمن قصير كهذا . فرجال القبائل العربية الذين كانوا محل ازدراء القوى الكبرى في ذلك العصر ، باعتبارهم سكان مستعمرات حفاة الأقدام ، هؤلاء الناس فتحوا فيما بين عامي ٦٣٢ ، ٧١٥ ما يربو على أربعة ملايين ونصف المليون

من الأميال المربعة ، بمعدل تقدم بلغ ١٥٠ ميلاً مربعاً في اليوم لمدة ثلاث وثمانين سنة . بل ومما له أهمية ومغزى أكبر أن هذه الفتوحات العربية غيرت وجه العالم إذ أخرجت المؤثرات اليونانية والمسيحية من الشمال الأفريقي والمشرق ، فضلاً عن أنها حولت الامبراطورية الفارسية السابقة إلى الإسلام . وبذلك حولوا ما كان طيلة قرون مستعمرات لروما واليونان حول شواطئ البحر المتوسط ، من أسلوب غربي للعيش إلى أسلوب شرقي ، وما من بيت عربي آخر يستطيع أن يبارى البيت الأموي في المساحة والسرعة . ويروى أن الأمويين في الشام بدأت الامبراطورية في التقلص والتمزق . وبعد ذلك لم تتمكن من التوسع والازدهار إلا في الغرب الأقصى حيث لم تتمكن سيوف الجلادين من بني العباس من الوصول للقضاء على القلة الأموية التي ظلت على قيد البقاء .

وأكثر من هذا أنشأ الأمويون آثاراً تبارى انتصاراتهم . فهم الذين أقاموا أعظم وأروع مبان ثلاثة في الامبراطورية : قبة الصخرة في بيت المقدس ، والمسجد الأموي الكبير في دمشق ، ومسجد عبد الرحمن الثالث في قرطبة . كان عبد الملك كلفاً بالبناء بمثل ما كان مولعاً بالقتال . ففي سنة ٦٩٤ أكمل العمل في قبة الصخرة التي بنيت على ما تقول الأسطورة ، حول الصخرة التي وقف عندها إبراهيم وهو يستعد لذبح ابنه اسحاق ، وحيث بدأ محمد صعوده إلى السموات السبع . فبالسقف المصنوع من النحاس الأصفر والذهب ، وبالأعمدة الشاحخة من الرخام المعرق والفسيفساء الذهب حول الجدران والتي حلت محلها منذ القرن السادس عشر فسيفساء زرقاء وخضراء وصفراء ، كان المراد بهذا الأثر الأول الذي خلفته امبراطورية بني أمية أن ينافس أماكن العبادة والحج التي أقامها الخليفة المنافس له في مكة والمدينة ،

وأن يكون مزاراً أشد إثارة للنفس مما أنشأته المسيحية أو اليهودية في المدينة المقدسة الثلاثة .

وتفوق الوليد الأول وهو ابن عهد الملك وخليفته منذ سنة ٧٠٥ ، حتى على أبيه في البناء . فوسع المسجد في مكة ، وعمر ووسع مسجد النبي في المدينة بحيث يضم قبر محمد وحجرات أزواج الرسول . وإلى جانب قبة الصخرة التي أقامها أبوه ، بنى المسجد الأقصى وهو أكبر منها ، وأدخل المأذنة التي ينادى منها المؤذن على المؤمنين للصلاة . وأنشأ مدارس عديدة ، فضلاً عن مؤسسات للمصابين بالصرع والعمى والبرص . وكان كذلك أول حاكم في العصور الوسطى يبنى البيمارستانات والمستشفيات للعصابين بأمراض مزمنة ، وكان الكثير من المستشفيات التي أقيمت فيما يحاكي ما أنشأه الوليد منها . وأعظم منشئاته المعمارية هو بالطبع المسجد الأموي بدمشق الذي بنى فوق موقع كنيسة يوحنا المعمدان البيزنطية التي تضم قبر القديس . وكان أقدس حرم في الإسلام بعد جامعى مكة والمدينة وقبة الصخرة ، هو المسجد الأموي الذي ما يزال من أرحب وأروع أماكن العبادة في العالم وربما يكون من بين الآثار التي خلفها الأمويون أشدها دلالة على خلقهم . وإذ تولى بناءه وتزيينه جيش من أصحاب الحرف البيزنطيين والعمال من الفرس والهنود والمصريين ، فقد أنفق على عمارته ما يعادل خراج الشام سبع سنوات . لم يدخلوا على إقامته بشيء أو ينفقوه . ولكن برغم أن عظمتهم لم يبرزها شيء - بصحنه الفسيح المصنوع من الحجارة ، وبالفسيفساء البراقة التي تصور حياة القرن الثامن في دمشق ، وبالأرضية الرخامية الشاسعة والسقف المنحوت على نحو بالغ الجمال ومنه تتدلى ستمائة قنديل بالسلاسل الذهبية - كان ولا يزال فيه صفاء غير عادى يصور بشكل قاطع وبأكثر مما تصور الكلمات أى كتاب أو عظة ،

المعنى الباطنى للإسلام وهو خضوع الروح السكلى لمشئنة الرحمن وأفعاله .
 كان هذا من كل ناحية ، ذكرى تليق بخليفة أموى عظيم هو اليوم
 وعلى خلاف أبيه العنيف والعدوانى ، محل الاحترام والتوقير باعتباره واحداً
 من أعظم المحسنين بالشام وحارساً أشد يقظة على مصالح شعبه . فإلى جانب
 إنشاء المساجد والمستشفيات للمرضى ولليتامى ، كان الوليد أيضاً يرفع المسنين
 والعجزة ، ويراجع بدقة تكاليف المعيشة حيث كان يقوم شخصياً بزيارة
 الأسواق فى الشام وينزل العقاب السريع والشديد بكل من يحاول تحقيق
 أرباح فاحشة . وعلى غرار معاوية كان بابه مفتوحاً أمام رعاياه ، وتحمل مشاق
 لانهاية لها من أجل توفير العدل ورفع المظالم وفض المنازعات بطريق التحكيم .
 ولكن يظهر أن سماحته لم تتجاوز الحدود الشرقية للشام ، إذ احتفظ طيلة
 عهده بالحجاج والياء على الإمبراطورية الشرقية وأطلق يده فى ارتكاب أعمال
 قمع فى العراق وفارس ما كان هو نفسه ليقومها بألد أعدائه فى الشام .

مما من شئء كان يسبب أى قلق للوليد طالما زاد من رفاهة شعب الشام
 أو أئمنى ووسع ممتلكات الخلافة فى الخارج . وليس من قبيل الصدفة وحسب
 أن وصلت هذه الممتلكات فى عهده إلى أبعد حدودها . فبينما كان قتيبة وابن
 القاسم يجتاحان آسيا الوسطى ، كان جيش عربى آخر يتجمع ليدفع حدود
 الإسلام فى اتجاه الغرب .

فبعد سنوات ثلاث من تولى الوليد الخلافة عام ٧٠٥ قام عمه وعامله
 على مصر بتعيين موسى بن نصير والياً على الأقاليم الغربية ؛ وكان والد موسى
 نصرانياً من أصل يمنى أسر بالعراق فى أحد أديرة النساطرة كان خالد بن
 الوليد قد استولى عليه . بعد موت عقبة فى الجزائر سنة ٦٨٣ عاد البربر
 فسيطروا على شمال أفريقيا من طرابلس إلى مراكش وأضطروا العرب إلى الجلاء
 عن القيروان ، عاصمتهم الغربية الجديدة . كان البربر يغيرون حسبما يشاءون
 (٨ م — العرب)

على السهول من مخابئهم الجبلية حيث لم يسكن في إمكان العرب تعقبهم ؛
وتحدث قبيلة محلية أخرى تدعو زناتة أحياناً جميع الجهود المبذولة لإفنائهم
إذ كانوا يستخفون في الكهوف والمغارات بل وفي الجحور في الأرض .
(لانزال حتى اليوم نجد سلالاتهم في كهوف في التلال الساحلية على امتداد
الشاطئ الأفريقي الشمالي) . وبانتهاء القرن السابع تحول المد قليلاً ونجح
العرب في تهديم الأقاليم الساحلية حتى تونس واستردوا القيروان . ولكنهم
لم يمسروا قبل وصول موسى ، على السير غرباً صوب المناطق التي شهدت
هزيمة عقبة وموته .

قر رأى موسى على أن يضع حداً للتهديد البربري مرة واحدة وإلى الأبد .
وبفضل سلسلة من عمليات زحف في اتجاه الغرب لم يسكن في الإمكان صدها ،
اكتسح كل متانومة ومد سلطانه غرباً حتى طنجة . كان موسى يخير أوفر أسراه
ذكاءً ونباهة بين الخدمة في جيشه بعد اعتناق الإسلام وبين بيعهم رقيقاً لمن
يدفع أعلى ثمن ، وهذا الأسلوب أثبت فعاليته ونفعه . والحقيقة أنه لما عاد إلى
عاصمته القيروان عين أحد هؤلاء الأسرى من البربر وهو طارق بن زياد ،
عاملاً له في طنجة .

لم يخطر ببال موسى وهو يشق طريق العودة على طول الساحل الأفريقي ،
أن نوايا نائبه تتجاوز المسكث هناك ودعم الحسك العربي في الأقاليم المفتوحة
حديثاً . ورغم أن العرب كانوا قد انتزعوا سيادة البحار من أعدائهم في شرق
البحر المتوسط إلا أنهم كانوا حذرن نوعاً في استخدامها ؛ فلم يحاولوا القيام
بفتوح فيما وراء البحار ، باستثناء المحاولة الفاشلة ضد القسطنطينية . والاستيلاء
على قبرص . كما عر قد رفض منح الإذن بالهجوم على قبرص معلناً في حزم
أن الله جعل البحر حاجزاً واقياً وأن محاولة ركوبه تعتبر دنساً ، ولم يمنحه
عثمان إلا عن كره منه . ولكن طارقاً لم يسكن من الخوف أو التقوى بحيث

يسمح لشقة من البحر أن تردده . وفي سنة ٧١١ أقدم على الخطوة البالغة الأهمية والخطورة بأن عبر المضائق بقوة من سبعة آلاف من البربر والعرب ، وأقام لنفسه رأس جسر عند سفح صخرة الأسد التي حملت اسمه فسميت « جبل طارق » .

تقدم طارق واستولى على الجزيرة الخضراء . ولكن عند هذه النقطة فإن موسى الذى استشعر القلق خشية أن يؤول الفضل فى هذه الفتوحات إلى نائيه ، خرج من معقله فى تونس وأمر طارقاً أن ينتظره قبل مواصلة الزحف فى شبه جزيرة إيبيريا . كانت أسبانيا فى الوقت يحكمها الملك رذريق أو لذريق (كما يسميه العرب) من القوط الغربيين ، الذى اشتبك فى نزاع مع أحد نبلائه وهو السكونت يوليان الذى نفى إلى سبته . وإذ رأى يوليان فرصة لاسترداد أراضيه انضم إلى العرب فلم يقف عند حد تزويدهم بالمعلومات عن المنطقة وإنما حمل الكثيرين من أفراد الجيش القوطى على الانحراف عنه قبل أول لقاء مع عرب طارق . تلا ذلك مصرع لذريق واستسلام بقية جنده . وعندئذ تجاهل طارق أوامره رئيسه وانقض على الأندلس حيث استولى على مالقه وقرطبة وغرناطة .

فى هذا الوقت (يونيو ٧١٢) وصل موسى أيضاً إلى أسبانيا بجيش من عشرة آلاف رجل . وبعد أن استولى على اشبيلية بمجهود قليل وكانت متقدمة الجيش العربى قد تجاوزتها ، لحق بنائيه عند طليطلة وهنا نشب نزاع عنيف بين طارق وبين وضربه بسوط وزجه مصفدا إلى ظلام السحن أطلق سراح طارق فيما بعد ولكن بعد أن أجبر على التنازل لرئيسه عن معظم الغنائم التى كان قد استولى عليها بما فى ذلك مائدة مرصعة بالجواهر غنمت من كاتدرائية طليطلة وقيل إنها كانت للملك سليمان فى بيت المقدس .

استمر الزحف العربى وسقطت سالامنكا ثم سرقسطه وفالنسيا وأرغونة

وبرشلونة وجيرونا . وبحلول خريف عام ٧١٣ كانت جميع أسبانيا في أيدي العرب باستثناء نافار والأستوريا . عندئذ استدعى موسى إلى دمشق ليشرح السبب الذي من أجله غادر موقعه في القيروان بدون إذن . استخلف موسى ابنه عبد العزيز على أسبانيا وتوجه إلى الشام ليواجه الخليفة الذي كان قد مرض الآن ولكنه لم يذهب نادما مستغفراً ؛ بل بالعكس لم يحدث أبداً أن كان مثل موكب النصر هذا وعلى رأسه هذا اليمنى المتكبر ، على طول ساحل شمال إفريقيا . كان يسير وراءه أربعائة أسير من أمراء وأشراف القوط ، يرتدون تيجانهم وأحزماتهم الذهبية وفي أثرهم ثلاثون ألفاً من العذارى الأسبانيات وفيض لا نهاية له من العبيد والأسرى وقد أنحنت ظهورهم تحت ثقل ما كانوا يحملون من غنائم تكفي لفداء عدد من الخلفاء .

كان حتماً أن يسير الموكب بطيئاً ، وعندما اقترب موسى من نهاية رحلته كان الوليد يحتضر ، وأصدر أخوه وولى عهده سليمان أمره إلى موسى بإرجاء الوصول في دمشق أملاً في أن يكون اعتقاله الخلافة مكرماً بوصول المنتصرين . ولكن موسى تجاهل الأمر ووصل إلى عاصمة الإمبراطورية في فبراير ٧١٥ قبل وفاة الوليد بأسابيع قلائل . أقيم الاستقبال الرسمي في صحن الجامع الأموي . وفي ملابسه الفخمة المتداية ، وجالساً القرفصاء على عرش الخلافة وسط وسائل موشاة ومطرزة ، تقبل الوليد لأول مرة في التاريخ العربي خضوع المشات من الأسرى الأوربيين من ذوى الدم النبيل . وإلى يمينه وقف أقاربه من ناحية الأب وقد اصطفوا حسب السن ، وإلى يساره أقاربه من ناحية الأم ، ووراءه رجال البلاط والشعراء وكبار موظفي الدولة . ورغبة من موسى بغير شك في تحسين العلاقات مع مولاة أهدى إلى الوليد نفائس الفتح الاسباني بما فيها مائدة سليمان المرصعة بالجواهر . ولا يسعنا إلا أن نتخيل الرعب الذي لاحظ به في هذه اللحظة الحرجة أن احدى قواتهم

المائدة مفقودة ، وأن نتخيل ما تملكه من مزيج الارتباك والغضب الشديد وهو يراقب طارقا الماكر يتقدم إلى الأمام ويسلم القائمة الناقصة إلى الخليفة شارحاً أنه كان قد احتفظ بها ليبرهن على دوره في الاستيلاء عليها .

ولكن بالنسبة إلى موسى بن نصير كانت هذه الدراما الصغيرة من درامات العصور الوسطى دلالة على بدء النهاية . كان الوليد قد غفر له عصيانه ، ولكن لما مات بعد ذلك بوقت قصير خلفه سليمان طبقاً لوصية عبد الملك الأخيرة فجرد موسى من قيادته وصادر أمواله . فالخليفة الجديد لم يغفر له رفضه لإرجاء دخوله في دمشق دخول المنتصرين إلى ما بعد وفاة الوليد ، وأذل أخا القائد علنا بأن جعله يقف تحت الشمس المحرقة حتى خر مغشياً عليه من الإعياء . واذ لم يكن لموسى ما يعوله من مال أو مكانة مات معدماً يستجدي الناس في قرية نائية في الحجاز . لم ينع سليمان باظهار غيرته على هذه الصورة الوحشية كأنما كان يحاول في استماتة أن يمحو ذكرى الحكم العظيم الذي تولاه أخوه الأكبر ، فأمر بأن يقتل بالسم عبد العزيز الذي لم يكن فقط يحكم أسبانيا وفق تعليمات موسى وإنما أضاف أيضاً ميورقة وغيرها من جزر البليار إلى الإمبراطورية . واستدعى محمد بن القاسم من الشرق وأمر بإعدامه . ولم يكن مصير قتيلة بن مسلم خيراً إذ قبض عليه وأعدم بعد محاولة فاشلة لرفع راية الثورة .

بخلاف هذه الأعمال الانتقامية الوحشية ضد أنجح قواد الوليد كان سليمان شهوانياً وشرها ، يحيا حياة خمول ، مفضلاً حريمه على ساحة القتال . كان نهما في الأكل وبدينا ، يحب الحراير النفيسة ، ويقال إنه كان يحتفظ في أكمامه بلحم أو دجاج سمين في أثناء الاجتماعات الرسمية . وترك أمور الدولة في أيدي مستشاريه ومنهم يزيد بن المهلب وكان من المقربين . عين يزيد مكان قتيلة على خراسان حيث أقسم أنه سوف يبرز سلفه في الفتوح . أما أنه

بزه في القسوة فأمر لا يرق إليه الريب . ولكنه أخفق في أن يضيف شيئاً واحداً إلى حدود الإمبراطورية . ولم تتقدم جيوش الخليفة بصورة لها شأنها إلا على الجبهة البيزنطية حيث عبرت الأناضول لتحاصر القسطنطينية من البر والبحر . ولكن هذه المغامرة الجريئة تحطمت بسبب وباء الطاعون . وربما كان هذا الوباء هو الذي قضى على سليمان لأنه مات سنة ٧١٧ خلال زيارة إلى قواته على الجبهة البيزنطية . ولما لم يكن له ولد خلفه ابن عمه الأول وهو عمر وكان ابن أخ لعبد الملك .

كان عمر يختلف اختلافاً تاماً عن سلفه . كان أكثر ورعاً وصلاحاً من سميّه عمر الأول . ولقد ضربته دابة في جبهته وهو غلام ، وكان أصلع ونحيل الجسم بصورة أليمة . وكره الملابس الفاخرة التي أحبها سليمان . وكان بطوف يشوارع دمشق في ملابس رثة ومرقعه بحيث غالباً ما كان يمشى وسط الزحام لا يعرفه أحداً . وبالمثل كان ينفر من متاع الدنيا ويعزف عن الاقتناء الخاص ولذا باع الأسطبل الكبير لخيول السباق والذي كان يملكه الخليفة السابق ، ودفع بثمنه إلى بيت المال ، وكان هذا أبعاضاً معصير حلي زوجته .

كان أنبل جهد بذله عمر أنه أعاد وحدة الإمبراطورية . فنهى عن نعن على من فوق المنابر^(١) في الصلاة الجامعة وهي العادة التي كان معاوية أدخلها ؛ وسلم إلى نسل على الضياع التي احتفظ بها محمد للإحسان ، ثم راح يطبق مبدأ رفع الجزية عن المسلم سواء كان من العرب أو الموالى ، وهي التي كانت تجني من رعايا الخليفة « الأجانب » . بل وسار خطوة أبعد فأدخل تغييراً جذرياً في مفهوم السياسة الإسلامية الذي كان سائداً منذ الأيام

(١) وجعل مكانه قوله تعالى « أن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم الله أن تكونوا من المفلحين » .

الأولى . حتى ذلك الحين وطبقا للدستور الذى استتته عمر الأول كانت هناك تفرقة واضحة بين شبه الجزيرة العربية والبلاد المفتوحة وبين العرب المسلمين والباقيين بما فيهم الموالي . فعلى اعتبار أن شبه الجزيرة هى قلعة الإسلام ، لهذا كان الحماص فى تحويل أهلها إلى الإسلام ، وكان الحرص الشديد على أن يُحفظ بها ، وانطوى العرب المسلمون على أنفسهم بوصفهم حماة ليبقوا على نقاء دينهم ودمهم . وبالعكس كانت الاقاليم المفتوحة معفاة من ضرورة اعتناق الإسلام ، وسمح لرعايا الخليفة من النصارى واليهود بأن يحتفظوا بدينهم وأرضهم شريطة أداء نصيبهم من الجزية . وحتى بعد نقل متمر السلطة الزمنية من مكة إلى دمشق ، ظل هذا الربط والتزواج بين الإسلام والعرب نافذاً . كانت التعديلات الجوهرية الوحيدة التى أدخلت على سياسة عمر الأول فى « التفرقة » - أى حظر استيطان العرب فى الأراضى المفتوحة ، وفرض الضرائب على الموالي الذين اعتنقوا الإسلام وبنفس سعرها الكامل بالنسبة إلى الكفار « الأجانب » - نقول إن هذه التعديلات عملت فحسب على إضافة عنصر جديد من التفرقة العنصرية لصالح العرب إلى النظام القائم على التفرقة الدينية ، لم يشجع غير العرب على اعتناق الإسلام^(١) ، ومن ثم لم يكن عدد الأجانب الذين تحولوا إلى الإسلام ذا علاقة بحجم الفتوح الهائل التى تمت على يد الجيوش العربية .

كان عمر الثانى من الطموح إلى إعلاء شأن الدين بحيث لا يسمح بإهدار الفرص . وعلى ذلك ، وعملا على إخراج الإسلام من تقوقعه ، بدل السياسة

(١) هذا الذى يقوله المؤلف هو أبعد ما يكون عن مفهوم التفرقة ، بل أنه منبثق من مبدأ الإسلام وهو أنه لا اكراه فى الدين ، ومن هنا كان التسامح إزاء أهل الكتاب وعدم إجبارهم على الإسلام . والإسلام أيضاً يقول أنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى . - المترجم (راجع ما كتبناه فى هذا الصدد بكتابنا « التفسير القرآنى للتاريخ ») .

الرسمية وبدأ حملة من أجل تحويل الأقاليم المفتوحة إلى الإسلام بالجملة . وبسبب أن الامتيازات الضريبية اللبيرالية تساند حججه الداعية إلى تحويل الناس إلى الإسلام ، فإن السياسة الجديدة تسفر عن نتائج فورية ودرامية . فأقبل على الدين الجديد عشرات الألوف من كافة أرجاء الامبراطورية وخاصة في الشرق إلى ما وراء نهري جيحون والسند حيث المبادئ الجوسية والبوذية بل وعبادة الأوثان ، لم تكن تموت إلا ببطء بسبب أساليب التفرقة العنصرية التي انطوت عليها السياسة الأموية . وآلآن نجد قصة مختلفة ذلك أن حالات الدخول في الإسلام صارت من الكثرة بحيث شكوا عمال عمر في الأمصار من أن الإيرادات لانكفي لتسيير أمور الامبراطورية . وبرد يعكس طبيعة عمر ، أجاب « ... فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه جابياً »^(١) .

على أن أعظم نتيجة أسفرت عنها سياسة عمر في تقرير المساواة بالنسبة إلى المسلمين كافة ، الهدنة التي أوجدتها في العراق وبلاد فارس . نسي العلويون والهاشميون مؤقتاً أحقادهم ضد الأمويين ، بل إن الخوارج العدميين أوقفوا إطلاق نيرانهم خلال السنوات الثلاث التي كرمت فيها هذه الشخصية المقدسة العرش . ولكن إذا كان بلاط عمر أكثر طهارة ونقاء إذ امتلاء بأهل الورع والزهد بدلا من الشعراء والخطباء ممن كان يحجبهم أسلافه ، فإن إدارته فقدت الكثير من فعاليتها عندما عجل بالعملية التي بدأها عبد الملك وهي إحلال المسلمين محل الموظفين النصاري واليهود في إدارة الدولة . ولما كان الذين حلوا محل الآخرين لم يعتادوا التصرف في الثروات الهائلة التي جاءت بها فتوحهم حيث الكثير منهم من سلالة أهل البادية البسطاء ، لهذا كانوا يجهلون المسائل المالية وينفقون في استمتار كل ما يصل إلى أيديهم . وكان حتماً أن يؤدي هذا إلى الفساد والرشوة إذ كان عمال الامصار والنواحي لا يحتفظون بحسابات ويستأثرون بمبالغ كبيرة لإستعمالهم الخاص .

(١) كان هذا رده المشهور على أيوب بن شرحبيل الأسدي والى مصر . — المترجم .

لكن ، ومهما جانب التوفيق النتيجة المترتبة على تعيينهم ، فإن إصلاحات
 هر الإدارية في الإمبراطورية كان يميلها على الأقل تصميم على وضع أفضل مسلم
 في الوظيفة وليس وضع من يدعى أن له حقاً فيها بحكم صلة عائلية أو قبلية بالخليفة.
 وكان لامفر من أن يكون يزيد بن المهلب أول من يعانى من هذه السياسة
 الجديدة. فعندما استدعى ليفسرمابعث به إلى سليمان من التقارير المبالغ فيها عن
 الفتن التي استولت عليها الجماعات المغيرة لم يكن في وسعه إلا أن يقدم
 الاعتذار الأعرج بأنه كان يببالغ في ضروب نجاحه من أجل أغراض دعائية .
 وعندئذ نفى وسجن في جزيرة بالبحر الأحمر . ولكن يزيداً لم يكن قد انتهى
 بعد . فلما توفي عمر سنة ٧٣٠ فر من السجن وجمع جيشاً من أنصاره واستولى
 على البصرة وقتل عاملها وسرق محتويات بيت المال . هذا العمل اليأس عجل
 به العلم بأن خليفة عمر وهو أخ آخر للوليد ، قد استدعى يزيداً أيضاً وسوف
 يقتله على وجه التأكيد إذا ظل في السجن . ذلك أنه عندما كان ابن المهلب
 والياً على خراسان صادر الثروة الفارسية التي كانت تملكها زوجة الخليفة
 الجديد على أساس أنها بنت أخت للحجاج عدو مولاه سليمان اللدود . في
 ذلك الوقت أقسم زوجها علناً أنه سوف يقطع مضطهد زوجته إرباً . وإذا صار
 خليفة كرر التهديد وأمر التوات التي بعث بها إلى البصرة ، ألا يدعوا أحداً
 من أصدقاء سليمان وخصوم الحجاج حياً . وحقق انتقامه بالفعل عندما أنزل
 جيش عدته ثمانون ألفاً من الشاميين الهزيمة بابن المهلب على مقربة من السكوفة
 وقتلوه وجميع أفراده .

لم تسكد هذه الثورة تسحق حتى نشبت ثورات أخرى في مناطق بحر
 الخزر الجبلية وامتدت شرقاً حتى فرغانه . لقد تاقى رعايا الخلافة « الأجانب »
 الرسالة من خليفة عمر الذي بدأ يعيد تطبيق التفرقة العنصرية . مرة أخرى اتحد
 العلويون والموالي في قضية واحدة . وعندما توفي يزيد الثاني في عام ٧٤٤ —

ويزعمون أنه مات كدأ بعد اختناق جاريته الأميرة بسبب حبة غيب ألقاها إليها حبيبها المملوك — نقول إن زيد ابن علي حفيد الحسين الذي مات شهيداً، شن أولى الثورات التي سوف تباع الذروة في الإطاحة ببني أمية . وأمر هشام وهو الخليفة الجديد وآخر من تولى العرش من أبناء عبد الملك ، بالقضاء على زيد بدون رحمة ، واختار المهمة قريباً للحجاج يدعى يوسف بن عمر وكن عاملاً على اليمن .

ولما كان يوسف متكبراً ولا يصفح ، استخدم قوة الخليفة بصورة حامية من الرحمة ، للقضاء على زيد وأتباعه . ولكن الشبكة كانت تطبق على الأمويين ، ووجد هشام نفسه وقد أحاط به الأعداء في كل جبهة . وعندما سحب عمر الثاني في عام ٧١٧ الجيش الذي كان يحاصر القسطنطينية نذبه الروم وجأة إلى إمكانية أن تكون الامبراطورية العربية في طريق الانحلال . وفي الوقت الذي ولي فيه هشام كانوا يتدققون عبر الأناضول ويهددون المعقل الشمالية للامبراطورية . وكان نشاط العلويين والخواارج يبقى العراق وفارس في حالة اختار . وفي آسيا الوسطى ثارت القبائل الحامية وانتزعت سمرقند من العرب وهددت بخارى التي لم تنفذ إلا بعد أن خسر العرب ثمانين ألفاً . وانتقلت العدوى إلى أرمينيا . وفي شمال أفريقية ثار ٣٠٠٠٠ من البربر احتجاجاً على إعادة فرض الخراج عليهم بعد موت عمر الثاني برغم تحولهم إلى الإسلام . ودارت معركة دامية على مقربة من القيروان في عام ٧٣٥ قبل أن أمكن إخضاع الثوار . وبعد ست سنوات أثارت دعاية الخوارج ثورة أخرى قام بها البربر في مرا كس .

بدا حكم هشام كأنه حصار طويل واحد . ولم تكن هناك أية انتصارات تخفف من القتامة والسكابة إلا في الجبهة الأسبانية . فمنذ موت عبد العزيز الصغير قاد عبد الرحمن بن عبدالله وإلى أسبانيا ، قواته عبر جبال البرانس

واستولى على نابون حيث أقام مركز قيادته ، بهدف الزحف شمالاً إلى باريس وشرفاً إلى إيطاليا . ولكن حظه لم يستمر طويلاً . ففي عام ٧٣٢ التقى بالفرنجة بقيادة شارل مارتل المعروف باسم «المطرقة» ، قريباً من بواتييه ، وإذ سبق للقائد العربي أن تعقب الفرنجة بسهولة من الدور دونى إلى اللوار ، أصبح مسرفاً في الثقة بالنفس وعجز عن أن يدرك أن شارل مارتل كان يقوم بانسحاب استراتيجى من الأرض المكشوفة حيث للعرب ميزة طبيعية ، إلى أراضى الغابات حيث يكونون فى موقف ليس فى صالحهم . وفى جو ساد بهد القارس لم تكن قوات عبدالرحمن مستعدة له تماماً ، أمرهم بالهجوم وكاد يكسر بهجمته الأولى المربع الصلب الذى يتكون من العدو . ولكن الفرنجة المدربين تدريباً جيداً صمدوا وشقوا طريقهم حول مؤخرة العرب ليجمعوا على العربات المحملة بالغنائم التى استولوا عليها فى زحفهم السابق . فلما رأى العرب هذا التهديد الموجه إلى ما غنموه اندفعوا للدود عن عربات السكّنوز تخففوا الضغط على جيش الفرنجة الرئيسى . حاول عبدالرحمن أن يجمع رجاله لشن هجوم آخر ولكن قتل بضربة رمح وهنا انفرط عقد العرب وفروا .

هذه المعركة التى دارت بعد موت محمد بمائة عام بالضبط كانت نقطة التحول فى توغل العرب فى أملاك الفرنجة . نشب الشقاق ودبت الغيرة بين العناصر العربية والبربرية من جيش الخليفة . وبرغم أن حملات أخرى شنت على وادى الرون وأدت إلى الاستيلاء على أفنيون وفالنس وهددت باريس من جديد ، فقد كانت أوروبا متنبهة الآن للخطر الذى مهددها . وبحلول عام ٧٥٩ وبفضل تعزيزات سن لمبارديا وغسقونيا وبلاد الباسك طرد شارل مارتل العرب من فرنسا وحصرهم بصفة دائمة وراء جبال البرانس .

بعد ذروة صيف الإنجاز الأموى فى عهد الوليد حل خريف مبكر ينذر بالخطر . فى ظل إخوته الأقل منه شأنًا وهمية ، بدأت أوراق الفتح الخضراء يتحول لونها ، وسرعان ما قدر للشجرة العارية تقريباً التى غرسها البيت الأموى ذو الكبرياء ، أن تسقط تحت فأس انتقام الثورة العباسية .

(٨)

انثورة العباسية

بموت هشام في سنة ٧٤٣ من التهاب في اللوزتين انتهى دور أبناء عبد الملك وانتهى البيت الأموي بالفعل . فبرغم أنه اتهم بالعمل كاسائر في نومه خلال الحصار الطويل الذي ميز عهده ، وبالنصراف إلى حفر القنوات وإنشاء المنزهات وترتيب حفلات السباق التي تجرى فيها خيوله البالغ عددها أربعة آلاف ، بدلا من الدفاع عن المملكة ، كان هشام من أصحاب البسالة والفضيلة إذا قيس بالخلفاء الذين جاءوا من بعده ، بل أن سليمان ويزيداً الثاني ممن عرفا بالانهماك في اللذات كانا كلاهما حاكمين أقل خلاعة ومجوناً وأشد فعالية من ابن أخ هشام وخلفه الوليد الثاني .

إن موت هشام وهو بصطاد أثار أباه وجعله يقول في مرارة ، إنه رباه للخلافة فطارد ثعلباً . ولكن الوليد الثاني لم يكن أفضل حالا . فبرغم وسامته وذكائه لم يكن يهتم إلا بالخيل والنساء والشعر والموسيقى ، وملاًً بلاطه بالشعراء والمغنين والراقصات . وكان يحسنى الخمر بكميات كبيرة ؛ ويقال إنه مرّق المصحف بالسهم عندما بلغ الآية التي تهديد بالدمار كل جبار عنيد : وبعد أربعة عشر شهراً من الدنس ، تجاوز الحد في النهاية عند ما عين أبناءه من محظية من إماءته ورثة له . فنار عليه ابن عمه يزيد الثالث ابن الوليد العظيم من أم فارسية من سلالة الامبراطور يزدجرد . وصرح علناً أنه سوف يحطم هذا الذي يعتبر أشد الأمويين فجوراً . وانحاز الدمشقيون كافة إلى يزيد

واقتمعوا حصن الخليفة في الصحراء ، وطافوا شوارع العاصمة وهم يحملون رأسه بعد أن حزوها وفصلوها عن جسده .

ثم نادى يزيد الثالث بنفسه خليفة ، وراح ينظم مالية الدولة ووسائل الدفاع . أما أنه كان في إمكانه أن يوقف المصير الذي سوف يلحق ببني أمية فأمر لم يوضع موضع الاختبار لأنه مات بطريقة غامضة بعد ستة أشهر قضائها في الحكم . وخلفه أخوه إبراهيم ، ولكن قبل أن يتمكن هذا الشاب التعس الأمر لنفسه استولى مروان وهو ابن أخ لعبد الملك ، على العرش . كان مروان الثاني في الستين من العمر وأحد أبطال الحملات ضد الدولة البيزنطية في أرمينية والأناضول . واعتقاداً بأنه لن ينقذ البيت الأموي سوى إجراءات قوية ، وتيقناً بأن هذا لن يصدر عن جيل الشباب المحب للهو ، أذهب مروان إلى دمشق وفر إبراهيم إلى المنفى .

لم يكد مروان يستولى على الخلافة حتى شبت الثورات في كل جزء من الإمبراطورية بما فيها الشام نفسها حيث ثار أنصار يزيد الثالث احتجاجاً على المغتصب . وكان حتماً أن يضيف الخوارج في العراق وفارس إسهامهم في تلك الموجة من الثورات ، وقام في العراق علوى يطالب بالخلافة وكان رد فعل مروان الذي كان جندياً أكثر منه رجل دولة ، أن أدخل كتائب عسكرية جديدة وأشد فعالية .

كان هذا ثالث تغيير أساسي في تنظيم الجيوش العربية منذ بدء العصر الإسلامي . ففي أيام عثمان تكون جيش من نوع الميليشيا وفيه كان كل رجل يؤدي الخدمة العسكرية مرة كل أربع سنوات . وبرغم عدم توافر الأرقام الكافية فالمعروف أن جيش الكوفة الذي فتح فارس وأخضعها ، كان يضم أربعين ألفاً بصفة دائمة . وبعد أن تولى معاوية الخلافة عدلوا عن النظم القبلية القديمة ونظام الميليشيا في سبيل إنشاء جيش دائم محترف على نسق جيش

بين نطه، من ناحية الملابس والسلاح — الدروع والسيوف والرماح والكباش .
ومن ناحية تكويناته الكبيرة هناك خمس مجموعات تشكل القلب في الوسط
والجناحين وهما الميمنة والميسرة ، ومقدمة ومؤخرة . وإذا وجد مروان أن هذا
التنظيم غير عملي في معالجة أمر الثورات التي واجهته ، قسم الجيش إلى
مجموعات من فيالق أصغر حجماً وأخف حركة وكل منها مستقل بذاته ، وهي
تعاذل بوجه عام الفرق أو الأورط الحديثة . بهذه السرعة في الحركة استطاع
أن يباغت فرق الثوار ويهزمهم بدون صعوبة كبيرة . ولكن بعد أن عالج
أمر الخوارج وأرغم المطالب العلوي بالخلافة على القرار إلى المنفى ، أخطأ بأن
أدار ظهره للإمبراطورية الشرقية وانسحب إلى دمشق تاركاً نصر بن سيار
واليا على خراسان بقوات غير كافية تماماً .

ولما لم تسكن مروان خبرة بالولايات الشرقية المثيرة للقلق لهذا كان على
جهل تام بالنار الكامنة في فارس والعراق . هنا شيء أخطر بصورة غير
متناهية من الثورات ذات المطابع المحلي التي سحقتها خلال العامين الأولين من
حكمه . فلم يقف العلويون الشيعة عند حد التعاون مع الموالى وجميع الطبقات
المتهورة بالإمبراطورية الشرقية ، بل كانت القبائل أيضاً تتحد وتربط مصيرها
بالثوار . أسيت الصراعات القديمة بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، بل وبرغم
العداوات المتوارثة اتحدت القبائل من أجل الاطاحة بحكامهم الشاميين كان
العباسيون الذين ينتسبون إلى العباس عم محمد والذي حقق النصر للنبي في غزوة
حنين ، تربطهم صلات رحم وقيمة بنسل على . لم يشارك العباسيون ضلالات
العلويين الشيعية لأنهم كانوا يفضلون حقهم هم في الخلافة على حق آل علي ؛
ولكن شاركوهم كراهيتهم لبنى أمية . وإذا أخفوا أمرهم بمهارة ، على خلاف
العلويين الذين كانوا يكشفون عن أهدافهم مما عرضهم لضحايا لا حصر لها

على أيدي الأمويين ، لهذا كان العباسيون أوفر عدداً من سلالة علي . وهكذا كانت إضافة وزن أعدادهم إلى قضية الثوار أداة في خلق القوة التي لا تقاوم والتي سوف تزيل الشيء الثابت — وهو بنو أمية .

بدأت الحركة العباسية بعد خلافة هاشم بوقت ، على أيدي أحد سلالة العباس وهو إبراهيم بن محمد زعيم جماعة العباسيين في ذلك الحين . وكان إبراهيم بدير عملياته من مخبأ ناءٍ قريب من البحر الميت مستخدماً كمبعوثه الرئيسي إلى العلويين والخواارج وغيرهم من الثوار المحتملين في الإمبراطورية الشرقية ، عبداً فارسياً سابقاً اسمه أبو مسلم . وأبو مسلم سروجي من أهل خراسان أسرته الجيوش الأموية وبيع في سوق مكة إلى والد إبراهيم . وكان متآمراً بطبعه ويسكن كراهية لاحتلالها للحكم الشامي . وكان قادراً على إشغال الحواس في قلوب الناس كما كان بالمثل مستعداً لأن يتبنى دعاوى أهل بيت علي حين يتحدث إلى أنصارهم الشيعة ، وإلى أن يذكر العلويين عندما يتحدث إلى أهل السنة ؛ ولهذا كان داعية مؤثراً وإن يسكن مخادعاً ، للشورة العباسية . ومن المسلم به أن مما سهل مهمته أن الكثيرين من المستوطنين العرب في الشرق كانوا قد تزوجوا من الأسر الفارسية واتخذوا الفارسية لغة لهم وأحسوا أنهم بعيدون عن دمشق بعد أي فارسي أصلي عنها . ولكن يرجع إلى سرعة يادبه أبي مسلم وحديثه أكثر منه إلى أي شيء آخر ، أن سوت القبائل ماينها من خلافات ، وذلك في سبيل القضية الأعظم ، قضية القضاء الكلي على الأمويين .

ما أن حل مايو من عام ٧٤٧ حتى كان في إمكان أبي مسلم أن يبلغ إبراهيم استعداداه لتوجيه الضربة الأولى حين يعطيه مولاه الإشارة . رد إبراهيم بالإيجاب ، وفي الشهر التالي رفع أبو مسلم العلم الأسود الذي كان

في الاصل لواء النبي ثم اتخذه العباسيون رمزاً لهم ، وزحف عل العاصمة
الخرسانية مرو . كان عملاء مروان قد اعترضوا هذه الرسائل المنطوية على
الخيانة ، ولكن بخلاف القبض على ابراهيم الذي مات قياً بعد في السجن ،
لم يقيم مروان بأى عمل يستبق به الثورة العباسية في فارس . سقطت مرو
وكتب نصر بن سيار إلى الخليفة من خراسان المحصورة يقول : « أأيقاظ
أمية أم نيام ؟ » (١)

ما أن وصل هذا النحيب إلى مروان حتى تدفق جيش أبي مسلم من رجال
القبائل العربية والفلاحين الاعاجم في خراسان ، وعبر حدود العراق . رقرقت
أعلام العباسيين السود من قلاع نهاوند ومن قصر عامل الكوفة الأموى حيث
تم في اكتوبر ٧٤٩ مبايعة أبي عباس شقيق ابراهيم ، أول خليفة عباسى . تحرك
مروان بعد فوات الأون ، ولكن كل شىء كان الآن ضده . رحب
العراق بالعباسيين بوصفهم محررين ، وعندما وصل جيش مروان في يناير ٧٥٠
إلى نهر الزاب الذى كان في فصل فيضانه هو وروافد دجله ، تحطم الشاميون
وعمدوا إلى الفرار . فمذ حكم يزيد الثالث القصير الأمد أنكر الناس الإيمان
بالقدر الذى أبقى على شجاعة الجيوش الاسلامية منذ أيام محمد بحيث أنه لما
واجهتهم جموع أبي مسلم الذين سبقتهم شهرتهم في القتل الذى لا يعرف الرحمة ،
لم يفكر جند بنى أمية إلا في النجاة بأنفسهم . قطع ضباط مروان الجسور
للمقاومة على النهر لمنعهم من الفرار ولكن بدون نجاح ، وكان مصير الذين لم

(١) كتب نصر :

أرى بن الرماد وميض نار	فأجج بأن يكون له ضرام
فإن النار بالعود تركزى	وإن الحرب أولها الكلام
وقدات من التنجب ليت شعرى	أأيقاظ أمية أم نيام ؟

يقتلوا فوق أرض المعركة الفرق في التيار الجارف ، في محاولاتهم المجنونة من أجل الفرار

كان الطريق إلى الشام مفتوحاً الآن . وتم الاستيلاء على دمشق بعد حصار قصير وراح العباسيون يطاردون مروان الذي كان قد هرب إلى مصر . وهناك غدر به بعض رجاله ثمناً لحياتهم ، وأرسلت رأس آخر حاكم أبوى في الشام إلى أبي العباس مع شارات الخلافة .

بدأ العهد الجديد مهمة إزالة كل أثر للعهد البائد ، فتعقب من كان حياً من بنى أمية وقتلهم . ودعى جماعة منهم إلى وليمة أقامها لهم عبدالله بن علي عم الخليفة وقتلوا وهم يتناولون الطعام . رجل واحد من أهل ذلك البيت الذي حكم الشام معظم السنوات المائة الأخيرة ، وهو عبدالرحمن حفيد الخليفة هشام ، تمكن من الفرار وشق طريقه إلى أسبانيا حيث يبنى مجدداً جديداً للأُمويين ويخلق منافساً في الفخامة والثقافة لبلاط هارون الرشيد الشهير . وحتى الموتى لم يتركوا في سلام . فنُبِشت قبور الخلفاء للتمثيل بجهنم وإحراقها ودنست ، فأحرقت جثة سليمان وعملت جثة هشام بالمثل بعد أن ضربت بالسياط ثمانين جلدة . أجل ، بدا أن الخليفة الجديد الذي كُتِبَ نفسه السفاح في أول خطبة له ، وعمه عبدالله يقنفسان في القسوة والانتقام . والآل ، ولأول مرة في تاريخ الإسلام ، كان أثمان قاعة العرش يشتمل على حصير من الجلد يستخدم بساطاً للجلاد الذي يفد دائماً على استعداد بجانب عرش مولاه . وبينما كان عبدالله يخدع أمراء بنى أمية بدعوتهم إلى العشاء عنده ، كان أبو العباس يقول عن أعدائه المدحورين : لو أنهم شربوا من دمي ماروا ظمأهم ، كذلك انتقامي لن يبزه انتقامهم .

مثل هذه القسوة الدموية التي أنزلها العباسيون بالأُمويين لم تكن بالطبع مخالفة للمعتاد في العصور الوسطى ، كما لم تكن أسوأ بأي حال من صنوف

الوحشية التي ترتكبها ما يُدعى الشعوب المتحضرة في القرن العشرين . ومع ذلك ، لابد من تفسير لقائمة المذابح والمذابح المضادة التي يزخر بها تاريخ الإمبراطورية العربية ابتداء من عصر الحجاج بن يوسف فصاعداً . قد يقال عادة عن العرب في تلك الأيام إنه قادر على التصرف بقسوة رهيبية إذا فار دمه ولكنه يميل إلى الرأفة إذا كان هادئ النفس . ولكن المسألة على ما رأينا ، ليست بمثل هذه البساطة . كانت الشريعة القرآنية تفرق بفرقة واضحة بين أن يقتل مؤمن كافراً أو أن يقتله كافراً ، فذلك يضمن الجنة في الآخرة ، وبين أن يقتل مسلماً أو أن يقتله مسلم ، وهذا كان موضع التحريم القاطع . ولكن الشريعة الجديدة لم تحل تماماً في الوقت نفسه محل التواعد القبلية القديمة ، وحيث كانت هناك ، فقد جرت العادة بتقاضى الثأر بالدم . وبالمثل ، وحتى في حالة القتال ضد الكفار فقد كان لا يزال من المعتاد الالتزام باحترام الحياة البشرية وهو الاحترام الذي كان من أقدم التواعد الراسخة في الحرب القبلية . وهكذا ، فبرغم تعاليم القرآن فعلاً ما نجد العرب المسلمين يذبح بعضهم بعضاً من قبيل الثأر على نحو ما فعل العباسيون بالأمويين ، ولعنهم كانوا يمتنون بالحياة على حامية بزنطية أو فارسية عرضت تسليم مدينتها وفقاً لشروط يتفق عليها . والحقيقة ، يبدو أن الضرورة العسكرية بدلاً من القانون الديني ، هي التي كانت تملئ على الخليفة وقواده سلوكهم إزاء مواليتهم سواء كانوا من الكفار أو الموالى أو العرب المسلمين .

كان للهدوء والتعاون بين الحكوميين جزاءهما . ولكن لما لم يكن لدى العرب قوات كثيرة لدعم جيوش الاحتلال لهذا واجهوا مشكلة مستمرة هي فرض الهدوء على أقاليمهم الشاسعة وإبقاء خطوط مواصلاتهم الطويلة مفتوحة ؛ وربما كان عمال الخليفة يحافظون على الأمن في أقاليمهم عن طريق التهديد

بالانتقام الرهيب من أية مقاومة أو بتنفيذ هذا الانتقام . ومن المؤكد أن السرعة التي تداعى بها الحكم الأموي في فارس والعراق عندما كان مروان نائماً على حد قول عامله على خراسان ، أظهرت كم كان من السهل على ثورة أحسن إعدادها ، أن تستغل نواحي الضعف والتصور هذه .

في القرن العشرين حيث البرق والراديو يساعدان سرعة المواصلات فيه ، أصبحنا متعودين على انقلابات خاطفة في العالم العربي يستولى فيها الثوار على محطة الإذاعة ويعلنون أن الثورة تمت حتى قبل أن تبدأ ، ويقفز الناس فوق عربتها يهتفون للزعيم الجديد قبل أن يعرفوا اسمه تقريباً . ولكن السرعة التي تخلص بها العباسيون من الأمويين منذ ألف ومائتي سنة خلت ، وبدون أى من هذه العوامل العلمية المساعدة ، سرعة مدهشة حقاً . فبرغم الحساس العسكرى القدى امتلاكه به جيش أبى مسلم والاستجابة الحماسية من جانب جماهير فارس والعراق للثورة العباسية ، فإن مثل هذا الإنجاز ما كان يمكن أن يكون في حيز الإمكان لو لم يكن الأمويون قد حطموا أنفسهم إلى حد كبير قبل أن تنشر الأعلام السوداء . كان العفن قد حل عند ما ولى الخلافة ذلك النهم البدين سليمان بعد الوليد العظيم . منذ ذلك الوقت فصاعداً ، وباستثناء الفترة التي تولى فيها ذلك الرجل الورع عمر ، فإن المادية والجشع فتتا روح الخلافة واستنزفا قوتها . فالغنائم والمال إذ اندفعت من كل مكان تخلص الأمويون عن أساليب آبائهم الصحراوية الخشنة ونسوا التعانيم الروحية التي وضعها محمد وانغمسوا انغماساً كاملاً في الشهوات . كان تعاظم الخمر والميسر اللذين يحرمهما القرآن ، وسباق الخيل والصيد بالكلاب السلوقية والفتود الهندية وكلاهما ينظر إليه المسلمون المتشددون بعين الاسقياء ، والزنا وإن كانت عقوبته الموت — كل هذه كانت أموراً عادية في الشام وفي الحجاز ، وأصبحت مكة والمدينة نوعاً من لاس فيجاس ومونت كارلو ولكن في العصور الوسطى ، وذلك عندما توجه

إليهما أولئك الذين جمعوا الثروات من الفتوح لينفقوا الثروة الجديدة بعيداً عن التآمر والاضطراب السياسى في الشام والعراق . كثرت بيوت القمار التي تقدم ألعاب الزهر والنرد والشطرنج لروادها من الأغنياء الجدد . وكانت المواخير تشكل تجارة رائجة وتقدم الجوارى من كل دين ولون — من الروم والمجسم والأنراك والأفريقيين والأسبان ، من أسرى حروب الفتوح . وازدهر شعر الغزل كما كان في ذروة العصر الجاهلي ؛ والمزهر الفارسي الذي استنكره النبي على أنه « مؤذن الشيطان » عاد ليصاحب المغنيات الروميات .

كان شرب الخمر في اعتدال أمراً مألوفاً عند العديد من الخلفاء قبل الوليد ؛ ولكن معظم الذين جاءوا من بعده أفرطوا في الشراب، ويقال إن الوليد الثاني كان يستحم بانتظام في حوض من الخمر . وحتى القواعد التي كانت تحكم سلوك النساء خفت وتراخت حوالى نهاية العصر الأموى . أصبح الحجاب وعزل النساء، عن الرجال أمراً غير مستحب في المجتمع الراقى ، ووجدنا النسوة المحظوظات ممن أوتين الذكاء والجمال وسمو المركز ، يتصرفن بما يشبه كثيراً السيدات اللاتي اشتهرن في بلاط لويس الخامس عشر ملك فرنسا . ومن أمثلتهن السيدة سكينه بنت الحسين الذي مات شهيداً . لقد عاشت في المدينة واستغلت جمالها وسحرها ونبل محتدها استغلالاً ليس بالقليل . ولقد تزوجت ثمانى مرات واشترطت في العقد مع أكثر من زوج أن تكون حرة في حياتها . وكان صالونها منتدًى أعظم الشعراء والأدباء الذين كثيراً ما كانت تمارس معهم ميلها الشديد إلى الملاح . وثمة مثال آخر هو سيدة من الطوائف تسمى عائشة^(١) وهى سمية زوجة محمد الأثيرية وبنت أخ لها . وكانت عائشة تنافس سكينه في تحديقها للعرف . وعندما طلب منها

(١) عائشة بنت طلحة . — المترجم .

زوجها^(١) أن تستر وجهها أجابت في غضب « إن الله تبارك وتعالى وسفى
بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلى عليهم فما كنت لأستره ،
والله ما فى وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد^(٢) . وهناك سيدة أخرى مشهورة
وقوية فى تلك الازمنة هى المغنية جميلة وكانت فى الاصل جارية توجت
حياتها الرائعة بالحج إلى مكة وصحبها موكب فنعيم من المغنين والمغنيات
والشعراء والعازفين والمعجبين ، وكلهم فى ملابس فاخرة ويمتطون الجياد
المطهمة .

ولكن لم تكن حياة الترف والمجون التى عاشها الأمويون هى التى ذهبت
بارادتهم فى المقاومة وسهلت الأمور بالنسبة إلى العباسيين . فقد بدا أن كل
شئ تقريباً عملوه بعد الوليد والحجاج قد ترك المسرح ليستغله أعداؤهم .
فباستثناء عمر الثانى حاول كل خليفة بعده أن يحكم عن طريق إثارة عرب
الشمال ضد عرب الجنوب . وحتى الوليد لم يكن بريثاً من سياسة فرق تسد
هذه ، وبالطبع لم يتقاعس بنو العباس فى أن يبينوا للقبائل كيف كانت تستخدمن
بغرض إدامة السلطان الشامى .

مرة أخرى كان بنو أمية قصار النظر للغاية فى الإبقاء على بنيان طبقى
جامد جعل من المسلمين العرب طبقة أرستقراطية حاكمة وهبط بالموالى
إلى مرتبة طبقة ثانية بصفة دائمة . إن المرارة التى تولدت على هذا النحو لم
تقف عند حد أنها جعلت من موالى العراق وفارس مجندين جاهزين لأية حركة
ثورية ، ولكن هذا السكبت الاجبارى لقوم كان سابق تعرضهم للحكم البيزنطى
والفارسى قد جعلهم أكثر تحضراً من العرب الذين لم يكونوا قد تهدبوا بعد ،

(١) مصعب ابن الزبير . — المترجم .

(٢) الأغاني ، ج ١ ، ص ٥٤ . — المترجم .

هذا السكت حفزهم على أن يبرزوا حكامهم في الإنجاز العقلى . ولم يكن هذا بالمهمة الصعبة جداً في وقت كان ما يزال فيه كل أمير أموى يرسل إلى الصحراء للتعلم بدلا من أن يبعث به إلى المدرسة ، وكانت الرجولة بالنسبة إلى معظم العرب تعلق على الإنجاز العقلى . (أمر عبد الملك مؤدب أبنائه أن يعلمهم السباحة ويعودهم على النوم القليل) . هذا التفوق الذى حققه الموالى نتيجة لذلك جعل في إمام كان قادتهم ومنهم أبو مسلم أن يشنوا أذى وأنجح دعاية سياسية منذ قيام الاسلام نفسه .

كذلك ساعد تفوق الموالى فى المصرين الجديدين بالعراق وهما الكوفة والبصرة على أن يصبحا المركزين الرئيسيين للنشاط العقلى فى الخلافة حيث كان من المتناقضات أن أول قاموس عربى وأول كتاب عن الأجرومية العربية كانا من تأليف علماء من البصريين والفرس . لقد أصر عبد الملك على أن تحل العربية محل الفارسية واليونانية كاللغة الرسمية فى العراق وفارس والشام ، ولكن بعد سنوات إقلاثل كان الأعاجم ممن يشكون الطبقة الثانية ، يعلمون سادتهم العرب اللغة العربية . وكان حتما أن يولد هذا التفوق العقلى الازدراء ، وأن يولد بذورا لثورة كلما أصبح الخلفاء أقل يقظة .

كان إتمام انهيار الخلافة الأموية لا يتطلب سوى غلطة واحدة أخرى . وهذه الغلطة ارتكبها يزيد الثالث عندما أعلن فى عام ٧٤٤ أنه من الآن فصاعداً ينبغي أن يخلى الاعتقاد فى القدر مكانه لمذهب عقلى جديد عن حرية الارادة . هذه المدرسة العقلية للفكر تدين بالكثير إلى تأثير مسيحي شامى يعرف اليوم باسم يوحنا الدمشقى ، كان جده يشغل منصب المدير المالى للروم فى دمشق فى وقت استيلاء العرب عليها . ونظراً لافتقار العرب إلى الموهبة الادارية فإن يوحنا ورث المنصب أخيراً عن طريق أبيه ؛ وقبل أن يدخل الدير أقنع يزيداً

باعتناق تفكيره العقلي وبأن يتخلى عن الاعتقاد القرائى بأن عمر الإنسان مقدر من عند الله . وبرغم أن مذهب حرية الارادة كان المراد منه مقاومة التحول السائد إلا أنه فى الحقيقة ساعد على ازالة آثار النظام الأموى الذى بدوره أصبحت الخلافة فريسة سهلة أمام الثورة التى لا تقاوم لجيوش أبى مسلم عندما تنقض من خراسان .

من الممكن فحسب أنه لو قدر لعمر الثانى المؤمن التقي بوحدة الاسلام والمتمسك بالتعاليم القرآنية، أن يشغل الخلافة فى هذه السنوات الثلاثين الأخيرة، لربما أبقي على نسيج العلاقات بين العرب والفرس ، ذلك النسيج الذى فرقه الحجاج وغيره . وبالمقابل ، لو كان الذين خلفوا الوليد فى نقطة الحجاج لربما أمكن حصر الثورة إلى أجل غير مسمى . ولكن بدون رجل كعمر يوحّد الامبراطورية فى الأخوة ، أو كالحجاج يقيمها مقيدة بالسلاسل ، كان لابد أن ينفجر شيء . وعند ما انفجر وبدأت عربة العباسيين تزداد سرعة سيرها لم يكن هناك من شيء يمنع الملايين من أهل فارس والعراق من أن يركبوا فوقها ، أولئك الملايين الذين كانوا يحسون بالهزيمة .

غالبًا ما تكون للثورات طريقتها فى التهام الذين دبروها وبدأوها ، وهذا ما سرعان أن اكتشفه أبو مسلم ومثيرو المتاعب التمساء ، والخوارج والعلويون . وأول من عانى من هذا هم الخوارج الذين أدى بهم اعتقادهم بأن الخلافة يجب أن تتكون من مجلس منتخب وليس طاغية بالتعيين ، إلى الثورة على نظام الحكم الجديد بمثل ما سبق أن ثاروا ضد القديم . وقاد أبو مسلم الذى عين حديثًا واليًا على خراسان جيشه ضدهم ، ويقال إنه قتل منهم خمسين ألفًا قبل أن تمكن من فرض الهدوء على الاقليم . ولكن أمثال هذه القصص

المرعبة عن مسالك أبي مسلم بدأت تتداول وتنتشر بحيث أنه حتى أبو العباس المتعطش للدماء ، وجد من سداد الرأي أن يبعث بأخيه أبي جعفر للتحقيق . وأيد التحقيق الكثير من ضروب القسوة التي آتهم بها أبو مسلم ، وكشف أيضاً أن السروجي الفارسي السابق بدأت تساوره بعض أطاع خطيرة . فهو إذ زعم انقسابه إلى آل النبي وجدوا أنه كثيراً ما كان يضع اسمه قبل اسم الخليفة في المراسيم التي يصدرها الوالي ، بل وتجاسر على أن يطلب يد عمة أبي العباس . وإذا انزعج أبو جعفر تماماً أوصى أخاه بعزل أبي مسلم بالقضاء عليه إذا أمكن . ولكن برغم أن الخليفة كان ميالاً إلى الموافقة على هذه النصيحة ، إلا أنه كان خائفاً جداً من ردود الفعل التي يمكن أن تقع في خراسان إذا عمل بالنصيحة .

عند هذه النقطة راح حظ أبي مسلم يخونه ، إذ لم تمض أشهر قلائل حتى مات أبو العباس وبويع أبو جعفر بالخلافة واتخذ لنفسه اللقب الفخم وهو « المنصور » . حاول أبو مسلم جاهداً أن يستعيد مكانته في أعين سيده الجديد وعندما ادعى عبد الله عم أبي جعفر أنه الأحق بالخلافة ، أخرجه أبو مسلم من خراسان دفاعاً عن الوراثة الشرعية . كان من المحتوم أن ينتصر أبو مسلم ولكنه أخفق في أن يؤجل انزال العقاب به . ففى طريق عودته إلى خراسان دعى إلى زيارة بلاط أبي جعفر فقبل الدعوة في لهفة ظناً بأنها تبشر بمكافأة له على ما عمل . ولكنه كان مخدوعاً إذ عند وصوله شرع أبو جعفر في تقريره^(١)

(١) ذكروا أن المنصور قال بمانيه : أخبرني عن كتابك إلى أبي العباس تنهيه عن الموات ، أردت أن تعلمنا الدين ... قال فأخبرني عن تقدمك إياي و الطريق ... فقوالك حين أتاك الخبر بموت أبي العباس ان أشار عليك أن تنصرف إلى : تقدم فتري من رأينا ؟ ومضيت فلا أنت أفت حتى أهلك ولا أنت رجوت إلى .. فجأريه عبدالله بن علي أردت أن تأخذها ؟ .. فمرا غمتك وخروجك إلى خراسان ؟ .. والمال الذي جمعه بمران ؟ (تاريخ الطبری ، ج ٧ ، ص ٤٩٠ ، — المرحوم .

على ما اقتترف من جرائم وما أبدى من دعاوى ، وكل منها عقوبتها الموت .
ثم عند إشارة معلومة^(١) انتفض حرس الخليفة على السجين وقطعوه إرباً وألقوا
بجثته المتناثرة في نهر دجلة .

ثم جاء دور العلويين الذين كان أبو مسلم قد نجح بدعايته البليغة في
اقناعهم بأن العباسيين إنما يقاتلون من أجلهم . فلما انتقضت عشر سنوات دون
أن يعترف نظام الحكم الجديد بأى من الدعاوى العلوية نشبت الثورة في العراق
والحجاز احتجاجاً على ما رأى العلويون الآن أنه اغتصاب سياسى .
وكان رد فعل أئى جعفر قاسياً لا يرحم ؛ فأخذت الثورة وأعدم قادة العلويين
جزاء خيانتهم .

كان المظنون أنه بالقضاء على الأمويين والخوارج ، وعلى أئى مسلم
والعلويين في وقت أحدث جداً بعد ذلك ، أن يقضى أبو جعفر سنوات حكمه
الاحدى والعشرين دون خوف من منافس . ولكن يبدو أنه كان لا يزال لا يثق
بأن العرب وهم ذوو قرباه ، يمكن أن يخدموه ونظامه . ومن ثم حرص هو
وخلفاؤه المباشرون على إحلال المؤثرات الفارسية في داخل الخلافة محل العربية .
فنقل مقر الخلافة من الشام إلى العراق ، وأدخلت الثقافة والتعليم
والعادات الاجتماعية الفارسية ، ولم يعد حرس الخليفة وجماعة الضباط
في الجيش يخدمون من مصادر عربية ولكن من خراسان ثم من قبائل
التركان الواقعين إلى الشرق ، وهو مركز ممتاز استغله الاخيريون في النهاية
على غرار ما فعل الحرس البيروقري في روما القديمة ليجعلوا من الخلفاء
العباسيين تبعاً لهم .

(١) قال لهم جعفر : إذا ضربت بيدي احدهما على الأخرى ، فاضربوا عدو الله .
(المصدر السابق) — المترجم .

هذه التغييرات الثورية كان لها تأثير مريع على قطاعات معينة من السكان العرب الذين أصبحوا الآن ومن حيث الواقع وإن لم يكونوا من الناحية القانونية ، مواطنين من الدرجة الثانية في إمبراطوريتهم . لكن لم تكن هناك مقاومة وقبل العرب الوضع الجديد لأنه أعطاهم مجتمعا اسلاميا برغم أنغامه الأجنبية ، وأنسحبوا إلى خيامهم منقسمين ومهزومين ، مفضلين تسجيل مظالمهم على التمسك بحق ، وهذا الذي فعلوه لم يكن الأول في تاريخهم وإن يكون الأخير .

غير أن هذا كان يمثل بالنسبة إلى الموالي في فارس والعراق فجر عصر جديد ومجيد . فقد كسب المدافعون عنهم ، أى العباسيون ، نصرأرائعا ومكانا تحت الشمس للقسم الشرقى من الإمبراطورية الذى كان موضع الكبت ؛ وبمجرد أن انتهى حمام الدم المبدئى راح النظام الجديد يعمل على إثراء تراثه بالبهاء الفارسي الحقيقى . وكان أبو جعفر الرجل الصحيح بمعنى الكلمة ليتولى القيادة فى هذه المهمة . فبحكم اختلافه كلية عن أخيه وسلفه أبى العباس كان امبراطورا ولم يكن طاغية . وكان من أول أفعاله أن بدأ العمل فى انشاء حاضرة جديدة . كان أهل الكوفة متقلبين بأكثر مما يجب ومثقلين بالشاعر العلوية والشيعة بحيث لا يوفرون مقراً مناسباً للحكم ؛ وكان أهل البصرة قد قدموا مساعدة فعالة للثورة العلوية الأخيرة^(١) . وفى عام ٧٦٢ اختار أبو جعفر موضعاً على دجلة يدعى بغداد ، بعيداً عن مواقع الشيعة وبلى العاصمة الفارسية القديمة طيسفون التى استخدمت خرائبها كمحجر يزود مواد البناء للعاصمة . وأخذت أبواب دمشق الكوفة واسط وهى معقل الحجاج

(١) فى تفسير بقاء بغداد بقول الطبرى (ج ٧ ، ص ٦١٤) : لما ثارت الراوندية بأبي جعفر فى مدبئلته التى تسمى الهاشمية كره سكانها لاضطراب من اضطرب أمره عليه من الراوندية ، ثم قرب جواره من الكوفة ، ولم يأت من أهلها على نفسه فأراد أن يبعد عن جوارهم — المترجم .

العسكري ، وتم تركيبها في المدينة الجديدة . ومن طيسفون نقل كل شيء
سثناء القوس العملاق بقصر الإمبراطور الفارسي وهو القوس الذي تحدى
جميع الجهود التي بذلت لهدمه .

وباستخدام ١٠٠.٠٠٠ من أرباب الحرف جىء بهم من جميع أنحاء
الإمبراطورية تم بناء عاصمة أبي جعفر الجديدة في أربع سنوات . ورغم أنه
دعاها في الاصل « مدينة السلام » ودعا قصره داخلها « قصر الخلد » ،
فإن مظاهر عدة من البناء تنم عن قلق مستقر على أمن نظام حكمه . فقد بنيت
على الشاطئ الغربي للجلة كحصن دائري بأسوار مزدوجة من الطوب وخندق
يحيط بسور ثالث ارتفاعه ثلاثون ذراعاً ، بينما وفرت معسكرات حربية كبيرة
على الشاطئ الشرقي حماية إضافية . لم يغفل أبو جعفر أبداً عن إمكانية
هجوم يشن من خراسان إنتقاماً لقتل أبي مسلم ، ولما كان يذكر مصير
الأمويين النيام ، كان كثيراً ما يحذر ابنه ألا ينال لأن أباه لم ينم أبداً منذ
ولى الخلافة .

وبفضل جميع هذه الإحتياطات أصبحت « مدينة السلام » في سنوات
قليلة مركزاً للتجارة وعاصمة سياسية لها مكانة دولية . ويقول فياب حتمى
« كما لو كانت ظهرت إلى الوجود بفعل عصا ساحر ، فإن مدينة المنصور هذه
ورثت قوة ومكانة طيسفون وبابل ونيوى وأور وغيرها من عواصم المشرق
القديم [و] بلغت درجة من الشهرة والروعة ربما لم يكن ينافسها في العصور
الوسطى سوى القسطنطينية ... وفتح الموقع الجديد الطريق أمام أفكار من
الشرق ... رضىخ الإسلام العربى للتأثير الفارسى ، وأصبحت الخلافة بعشاً
للاستبداد الإيرانى أكثر منها مشيخة عربية . وبالتدريج ، إنتهزت الأتقاب
الفارسية ، والأنبذة والزيجات الفارسية ، والمحظيات الفارسيات ، والأغاني
الفارسية ، فضلاً عن الآراء والأفكار الفارسية ... ومهدت الطريق إلى عصر
جديد يتميز بالاهتمام بالعلم والأعمال العلمية » .

هذا التعجيم لم يكن في أى موضع أشد وضوحاً منه في التغييرات الدستورية التي أدخلها بنو العباس . فبدأ تفويض السلطة الذي كان معاوية أول من أخذ به ، سار خطوة أبعد عندما أدخل لأول مرة في تاريخ الإسلام ، منصب الوزير الفارسي كنوع من رئيس للوزراء ذى مسئوليات واسعة المدى . وبهذا التفويض للسلطة الزمنية في الخلافة ، وبرغم أن الناحيتين الدينية والسياسية ظلت تتولاهما من الناحية النظرية ، سلطة عليا واحدة ، فإن الخليفة غالباً ما كان لا يزيد على كونه الرئيس الروحي الأعلى للإسلام بينما يتولى رئيس الحكومة شئون الدولة . لم يكن الوزير يتولى بيت المال فحسب ولكن كان له أيضاً سلطة تنصيب وعزل عمال الأقاليم والقضاة ، بل ومصادرة أموال موظفين حكوميين لم يعودوا موضع الرضاء^(١) . وكان مجلس الدولة الذي يتطابق تقريباً مع مجلس الوزراء الحديث ويتكون من جميع رؤساء الدواوين يرأسه الوزير وليس الخليفة . وكان ديوان الحراج يخضع لإشرافه المباشر . وعندما نذكر أن الإيرادات الضريبية السنوية التي تؤول إلى الدولة من الأقاليم كانت تصل إلى أكثر من ٤٠ مليون دولار ، أمكن أن ندرك كيف أن ذلك الرجل الذى فى يده خزائن المال ولأن يكن من الناحية النظرية ممثلاً للخليفة ، قد أصبح أشد قوة كلما أصبح الخلفاء أشد ضعفاً وقل اهتمامهم بأمور الحكم . خمسة فقط ممن خلفوا أبا جعفر كانوا سادة في بيتهم ، ثم ومع استثناءات قليلة ، أثبت كل خليفة جاء بعد ذلك أنه أضعف من سلفه . وهكذا إذ حاول أبو جعفر خلق نظام للحكم أكثر كفاءة عن طريق تفويض السلطة خلق دون أن يدري ، الجهاز الذى شوف تستخدمه المؤثرات الأجنبية — الفارسية أولاً ثم التركية بعدئذ — لاغتصاب سلطة الخليفة وإقامة دكتاتورية عسكرية فيها حاكم هو العوبة بحتة .

(١) استوزر الرشيد يحيى بن خالد وقال له . « قلته لك أمر الرعية وأخرجته من عنق اليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت . وامض الأمور على ما ترى » . — المترجم .

كان أول من ولى منصب الوزير ، خالد بن برمك وكان أبوه يشغل وظيفة سادن بيت النار في بلخ في شرق خراسان . ولقد ورثه أبو جعفر عن أخيه أبي العباس الذي كان معه على علاقات وثيقة بحيث كانت زوجاتهما ترضع كل منهما أطفال الأخرى . وكما كان الحال مع العباس كذلك مع أبي جعفر إذ أصبح البرمكي الذي تحول إلى الإسلام ، صديقاً وناصحاً لا يمكن الاستغناء عنه . والحقيقة ، أن تأثير خالد برمك هو الذي شجع على دراسة وتطوير الفنون والعلوم اليونانية والفارسية مما سيجعل من بغداد في النهاية واحداً من أعظم مراكز الثقافة في العصور الوسطى . وبالمثل أضاف إلى العاصمة الجديدة طابعاً من الأبهة والترف الفارسيين .

لم يكن أبو جعفر بطبيعته مثقفاً ولا ألوبة . كان زاهداً متشققاً حافظ على صلابة ونحافة جسمه بالعمل ساعات طويلة في إدارة حكومته التي كانت الشيء الذي يستأثر بكل حماسه . فبينما كان رعاياه يتمتعون بالمهرجانات اللائية والاستعراضات الشيقة ، وبالراقصات والشعر والموسيقى ، كان هذا الشخص الشبيه بالصقر ، يعمن النظر في حساباته ، لا يختلط بحريمه إلا نادراً ، ولم يتناول قطرة من الخمر . ولما كان مؤمناً متعصباً بتوازن الميزانية ، فإنه جعل الشعب يدفع ثمن هذه المتع ففرض الضرائب على الأغنياء والفقراء على السواء . ومن هنا كان يكنى « أبا الدوانيق »^(١) .

ولكن أبا جعفر لم يكن مجرد مراجع حسابات ، فقد كان أيضاً دبلوماسياً ورجل دولة ممتازاً ، أعظم ما وهبه للخلافة سلام دام أكثر ثلاثين عاماً . فبحماسة الذي لا يكل لفن تصريف شئون الدولة استطاع أن يجمع كل تهديد نشيط لسلامة المملكة بل وأن يوسع حدود الإمبراطورية في الشرق بضم

(١) الدافق أقل من سدس الدرهم . وكان يكنى أيضاً المنصور الدوانيق . المترجم .

طبرستان وهى إقليم جبلى جنوبى ببحر الخزر ، وضم قندهار على حدود الهند . وبفضل يقظته ونشاطه تمكنت الخلافة العباسية من النمو من الآن حتى ارتفاع حفيده هارون الرشيد إلى ذرى أسطورية من المجد والعظمة لم يصحبها سرطان الحرب الأهلية . قد يكون اسم هارون الرشيد عنوان ألمع فصل فى كتاب التاريخ العباسى ، ولكن أبا جعفر هو الذى كتب المقدمة .

والأكثر من هذا أنه كان من الحكمة بحيث يعرف حدود إمكانياته . ونظراً لأن أبا العباس لم يعمل شيئاً لفرض الحكم العباسى فى أسبانيا عندما ترك القضاء على الأمويين فراغاً مؤقتاً فى الإمبراطورية العربية ، فإن أبا جعفر واجه فور اعتلائه الخلافة استيلاء عبد الرحمن على إمارة أسبانيا ، وكان عبد الرحمن حفيداً لهشام والأموى الوحيد المعروف أنه نجح من المذبحة العباسية . وجه الخليفة ضربة واحدة إلى هذا الأمير القوى ، فلما أخفقت أوقفت المطاردة وتقبل انفصال الولاية الأسبانية .

هذا الحاكم البارع المخلص لم يسكن بالذى يبدد طاقات الإمبراطورية فى مغامرات عديمة الجدوى . بالعكس كان أبو جعفر يعرف أين تكمن مصادر قوته ، وكان ماهراً فى المحافظة عليها . كان أول حاكم عباسى ويكاد أن كان الأخير ، أدرك أن من يسيطر على خراسان يسيطر على الخلافة . فهذه الولاية الجبلية الوعرة لم تسكن فتمط مهد الثورة التى أجاست بيته على العرش ولكن اسم رجال القبائل الخراسانية كان له فعل السحر فى جميع أرجاء الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية حيث اكتسبوا شهرة بالشجاعة والنظام فى المعارك لا نظير لها . وقبل أن يموت أوصى ابنه أن يعمل على الاستفادة من أهل خراسان . ليت جميع خلفائه المباشرين من بنى العباس قد عملوا بنصيحتهم ! عندئذ كان يمكن أن يحكموا بدلاً من أن يملكوا فحسب طيلة السنوات الأربعمئة التى عاشها بيتهم بعد عصره الذهبى .

إن الساعات الطويلة التي كان أبو جعفر يقضيها في العمل لم تدع له إلا القليل من الوقت يتفرغ فيه لاسرته ، ولكنه كان أبعد ما يكون عن الافتقار إلى الاهتمام بمستقبلهم . كان كعاقبة شديدة الرغبة في تأسيس أسرة مالكة ، واستخدم أقصى الأساليب لمنح الخلافة إلى ابنه محمد . كان أبو العباس قد جعل الأمر بعد موت أبي جعفر ، لعيسى بن موسى وهو ابن أخ له . حاول أبو جعفر في أول الأمر أن يتخلص من عيسى بدس السم له ، فلما أخفق جاء بشهود يحلفون أنه لم يكن هناك عقد بين أبي العباس وابن خيه . ولكن عيسى لم يكن ليقبل الأمر وجاء بشهود أكثر ليشهدوا به بالعكس . فلما تملك الخليفة اليأس أمر بإحضار ابن عيسى حيث قيده بالأغلال في حضرة أبيه وحمله على الركوع فوق حصيرة الجلاد . وبينما كان السيف واقفاً عند رأس ضحيته أعطى أبو جعفر لهذا المطالب اللجوج بالخلافة آخر فرصة لسحب دعواه وإنقاذ ابنه . ونجحت خدعة التهديد الوحشي^(١) ، وانصرف عيسى وابنه إلى ضيعة بالقرب من الكوفة مع مال كثير من بيت المال^(٢) . ولما مات أبو جعفر في عام ٧٧٥ في أثناء الحج إلى مكة ، خلفه محمد . لقد أسس أسرة وفقاً لما كان يطمح فيه . وسواء للخير أو الشر ، قدر خمسة وثلاثين خليفة أن يحكموا بعده في الإمبراطورية العباسية لما يقرب من خمسمائة سنة إلى أن خربت بغداد على أيدي جحافل هولاكو خان الرقة ، وكان كل واحد منهم من سلالة أبي جعفر المنصور مباشرة .

(١) هذه الرواية لم ترد في الطبري أو الفخري . وتضاربت الروايات في السبب ، فقل إنه ساء بعض ما يباه به فمرض مرة ثم أفاق (أنظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٢ ، ص ٣٠) - المترجم .

(٢) ذكر أنه قال : بعث نصيبى من مقدمة ولاية العهد من عبد الله أمير المؤمنين لابنه المهدي بمائة آلاف درهم وثلاثمائة ألف بين ولدى فلان وفلان وفلان - سماهم — وسبعمائة ألف لعلامة امرأة من نسائه - سماها . وقيل ، وكسا الخليفة عيسى وابنه وغيره من ولده كسوة بقيمة ألف ألف درهم ونيف ومائة ألف درهم (تاريخ الطبري ، ج ٨ ، ص ٢٥٠) .

(٩)

البعث الأموى فى أسبانيا

بينما كان أبو جعفر يشرف بمثل هذه الدقة البارعة على دعم الخلافة العباسية فى الشرق ، كان يجرى تحول رائع فى أسبانيا فى ظل عبد الرحمن أول أمير على قرطبة فى السنوات الأخيرة من حكم الأمويين الشاميين تعرضت الجيوش الإسلامية فى الغرب لانتكاسات خطيرة . فبعد أن تخطوا حدود قوتهم فى فرنسا طوردوا خارجها نحو أسبانيا حيث لم تسكن سيطرتهم تتهدى النصف الجنوبى من شبه الجزيرة . وتمزقت حيوياتهم بفعل الشقاق الداخلى . كان الخلاف القديم بين عرب الشمال وعرب الجنوب قد أنتقل إلى أسبانيا . وفى محاولة لمعالجة الإنقسام اتفق على أن تتناوب الولاية بين أهل الشام وأهل اليمن على فترات سنوية . ولكن هذا الترتيب إنما أدى إلى اضطراب مزمن ، وعندما تعاقب ثلاثة وعشرون والياً فى عدد كثير من السنين نجد شامياً من نسل عقبة ابن نافع إسمه يوسف القهرى يرفض التنازل عن الولاية عند إنتهاء سنته وتجدد النضال بين الفريقين .

وبالإضافة إلى الصراع الداخلى كانت هناك متاعب مع البربر . فإذا كان البربر جهوحين وقلقين كما كان شأنهم دائماً فى تحالفهم مع العرب والذى كانوا يعاملون فيه كوطنيين من الدرجة الثانية ، لهذا ثاروا الآن إذ حُصروا فى المناطق القاحلة الجرداء داخل أسبانيا بينما اختص العرب بالمقاطعات الفضية والتربة الحمراء الغنية بالأندلس بأنهارها الدائمة الجريان لرى المحاصيل وبما يحيط بها من تلال مغطاة بالغابات لوقاية التربة من التفتت . وما زاد من عناصر قلق

الأقلية الجائفة من العرب والتي كانت ماتزال صغيرة ، منح بربر مروءة كاش تأييداً قوياً لإخوانهم في أسبانيا .

ولم ينفذ المستوطنين العرب من الفناء إلا التدخل الكبير من جانب جيش من سبعة وعشرين ألف رجل أرسلوا على عجل من الشام لي سحقوا ثورة البربر . وبقي هؤلاء الشوام كـ مستوطنين عسكريين وينتشرون بين أشبيلية وجابين والجزائر والفيرا . ولكن برغم وجودهم كانت تسمع الأصوات التذمر المثيرة للفتنة بعد أن ارتفعت رايات العباسيين السود فوق أنقاض الخلافة الأموية . عندئذ وبينما يوسف الفهرى منهمك في إخماد ثورة أخرى في شمال الأقاليم التابعة له جاءت الأخبار محدثة أن أميراً أموياً شاباً هو عبد الرحمن بن معاوية قد نزل بالقرب من غرناطة بغية الاستيلاء على الإمارة .

إن قصة عبد الرحمن من دمشق إلى أسبانيا تعد في حد ذاتها من أروع ما روى من قصص الهروب . فإذا كان في العشرين من عمره عندما قضى العباسيون على أسرته ، احتفى مع أخيه الأصغر منه سنياً في معسكر بدوى على نهر الفرات ولكن العباسيين اكتشفوا مخبأه وفاجأوا المعسكر . قفز الصبيان في النهر ولكن الأصغر ولم يكن يتقن السباحة ، عاد إلى البر لما أئمنه مطار دوه على حياته ولكنهم قتلوه غيلة وهو يجر نفسه من الماء . أما عبد الرحمن فواصل السباحة ونجح بشق الأنفس في الهرب ، ثم بدأ رحلته المحفوفة بالأخطار عبر فلسطين وعلى طول ساحل أفريقية الشمالى حيث نجح بصعوبة من القتل على أيدي عامل القيروان وكان من أقارب يوسف الفهرى .

راح عبد الرحمن يدلف من قبيلة إلى أخرى مع مولاه الخلفى بدر الذى كان قد انضم إليه في فلسطين . كان منظره يدعو إلى الشفقة حيث البكل يقفون

ضده ، ويستجدي الطعام والمأوى في كل مرحلة من مراحل رحلته المليئة بالآلام .
وأخيراً ، وبعد تجوال خمس سنوات ، بلغ سبته في سنة ٧٥٥ فآواه بعض البربر
من أقارب أمه^(١) .

وعلى الفور ، فهذا الشاب الطويل القامة والنحيل ، وذو الشعر الأحمر والعيون
الزرقاء الواسعة والابتسامة الجذابة ، يبدأ في تخطيط حملته لكسب أسبانيا
للمضية الأموية . فبعث ببدر ليتفاوض سرّاً مع المستوطنين — الجنود الشاميين
في الفيرا وجاين ، ورجع الأخير إلى سيده ليخبره أنه أياً كانت المشكلات التي
تقسم عرب أسبانيا فإنهم جميعاً متحدون في الرغبة في الخلاص من يوسف وأنهم
سوف يسرون في سرور تحت لواء عبدالرحمن . لم يكن بدر مبالغاً فيما نقل
من أنباء ، وما أن نزل عبد الرحمن إلى البر الأسباني حتى جعلوا يوسف يدرك
قوة هذا المدعى الشاب المحبوب . حاول يوسف في أول الأمر أن يشتريه بالرشا
ووالعود بما فيها وعد بزواجه من ابنته . ولكن عبد الرحمن رفض عروضه
وزحف ليقابل بالترحيب كحُر ، في أشبيلية وأرشييدونا وسيدونا . كان على
يوسف الآن إما أن يقاتل أو يهرب ، فقرر أن يقاتل وخرج من عاصمته في
قرطبة وتقابل مع جيش عبدالرحمن على شواطئ نهر الوادي الكبير في صباح
١٤ مايو ٧٥٦ . كان معظم أفراد الجيشين المتحاربين يمتطون الجياد ، ولكن
عبدالرحمن وقد أحس أن بعض أتباعه يخشون أنه قد يتخلى عنهم في هذه المعركة
الحاسمة الأولى التي يشترك فيها كقائد لهم ، تحول فامتطى بغلة هزيلة يكون
الهرب عليها مستحيلاً . هذه الحركة أعطت جيشه ما كان يحتاج إليه من إحساس
بالنصر . ففر يوسف من الميدان ودخل عبدالرحمن قرطبة منتصراً .

(١) كانت من البربر وندى راح من بني نفزة وهم من بربر طرابلس .

هنا أظهر الأمير الشاب أنه سياسى وذو روح إنسانية إلى جانب كونه جندياً ، بأن أصدر عفواً عاماً ، وحرم أعمال النهب والسلب ، ووضع في حمايته حريم يوسف اللأى سيطر عليهن الرعب . ولكن السيطرة على قرطبة لم تجعل منه حاكماً بلا منازع على أسبانيا الإسلامية كلها . فن جهة ظل يوسف بسبب له المتعاقب من طليطلة نحو ثمانى سنوات إلى أن قتل في النهاية وتم الاسقيلاء عليها سنة ٧٦٤ .

ومن جهة أخرى ، فبرغم التزام البربر بموقف السلبية في مبدأ الأمر ، سرعان ما عادوا إلى مظالمهم القديمة بشأن توزيع الأرض وقاموا بالحكم العربى لفترة عشر سنوات أخرى . ثم كانت المحاولة الوحيدة التى أقدم عليها أبو جعفر لاتنزاع أسبانيا للعباسيين ، تلك المحاولة التى انتهت بمقتل مبعوثه الثمس الذى أرسلت رأسه إلى بغداد مخنونة في الملح والكافور وملفوفة في راية سوداء . وأخيراً ، في سنة ٧٧٧ تحالف شرلمان إمبراطور الفرنجة مع زوج إحدى بنات يوسف ومع بعض الرؤساء العرب المنشقين في منطقة برشلونه ، وتقدم لمهاجمة عبدالرحمن في قرطبة . لم يتجاوز شرلمان رقصته حيث وجد نفسه موضع الهجوم من جميع الجهات عندما أغلقت المدينة أبوابها واستعدت لمقاومته . كان عبدالرحمن قد قدم من الجنوب ، وراح جناحاً جيش شرلمان يتعرضان المضايقة من جانب جيش من ثوار الباسك الذين قاست أمراتهم الأمرين في ظل حكم الفرنجة والقوط . انسحبت قوات الفرنجة شمالاً عبر جبال البرانس حيث خلفوا وراءهم في ممرات وأخاديد هذا البلد الجبلى المغاور ، ألوفاً من القتلى بما فيهم زعيمهم المشهور رولان الذى خلد الأدب الفرنسى موته البطولى وهو يحارب عند باب شزروا ، وذلك في الملحمة المعروفة باسم « أغنية رولان » .

بهذا النصر استطاع الأمير الأموي أخيراً أن يحول طاقاته من القتال إلى إصلاح حكومة أسبانيا الإسلامية وإلى توحيد الشيع المتحاربة من العرب والبربر دون أن يخشى هجوماً من داخل إمارته أو من خارجها . لقد تحدى أعظم قوتين على ظهر الأرض « وأثبت » على ما يلاحظ فيليب حتى « أنه نِدْ لأقوى ساطان في الغرب كما أثبت أنه نِدْ لأعظم حاكم في الشرق » . وهو إذ برهن على أنه كذلك ، فإنه جلب السلام والنظام والاستقلال إلى أسبانيا . فهو لم ينحج فقط في تهديده البربر من أهل شمال أفريقية وأسبانيا ، ولكنه وضع نظاماً للأرزاق السخية والامتيازات خلق من هؤلاء الذين كانوا من قبل متمردين ، جيشاً عاملاً لحسن التدزيب والنظام ، من أربعين ألف رجل .

إلا أنه برغ كل هذه الإنجازات التي حقها لم يعمل أبداً على أن يتخذ لقب « الخليفة » . وبدلاً من ذلك كان معروفاً على امتداد عهده باسم أمير أسبانيا ؛ وخلال ما يقرب من قرن ونصف قرن بعد وفاته أطلق خلفاؤه على أنفسهم اللقب الأدنى منزلة . لم يصل إلينا أي تفسير لهذا التصرف الغريب من إنكار الذات . ولكن أياً كان السبب فكان عبد الرحمن في التاريخ لا يرجع إلى لقبه ولكن يرجع إلى تلك التركة من الجمال والصنعة التي خلفها بعده في أسبانيا ، مما لم ينافس فقط المباحج الفارسية التي تميزت بها الخلافة العباسية ولكن قدر له أن يبقى مثالا عن الفن العربي والعمارة العربية طيلة مئات من السنين بعد القضاء على أحجاد بغداد ونسيانها ، وطيلة قرون عدة قبل أن بدأت أوربا تتدع تراثها ثقافياً خاصاً بها .

أما أسبانيا في سلام وأمان من الغزو، عمل عبد الرحمن على تطوير مواردها بما أثر عن الوليد من نشاط ونظرة إلى الجمال . فبنيت القنوات فوق القناطر

لتزويد مدن الإمارة بالماء النقي ، واتسع نطاق المناطق المروية ، وأدخلت نباتات وفواكه من الشام مثل الخوخ والمان . وفي عام ٧٨٦ وقبل وفاته بعامين أسس الجامع الكبير في قرطبة كمنافس لبيت المقدس ومكة . ومنذ القرن السادس عشر كان هذا الجامع يضم في داخله كاتدرائية كاثوليكية . إلا أنه برغم هذا ، وبرغم أن كل أثر للشعائر الدينية الإسلامية قد محى في أسبانيا لما يقرب من أربعائة سنة ، إلى أنه لا يزال يشار إليه على لوحات الإعلانات بالمدينة وفي كتب الدليل الرسمية بأنه « المسجد » .

بل أن أعظم الزوار المسيحيين حماساً لا يزال يحس هناك الجو الغالب الذي أوجده الإسلام . ذلك أنه بينما ممارسة العبادة الدينية مقصورة اليوم على الكاتدرائية الكاثوليكية ، فالمسجد يعيش ويتنفس كمعبد من معابد الإسلام ويسكاد المرء يتوقع أن يطل الخليفة بمظهر العظمة والروعة من الباب الكبير المؤدى من الحديقة ذات الرائحة الزكية والواقعة في الخارج ، إلى السياج المحيط بالحراب الذي هو القبلة التي تشير إلى مكة . ويقال إنه لما شاهد شارل الخامس ملك أسبانيا الكنيسة القائمة الصنع داخل المسجد صرخ في ألم في وجه الذين بنوها : « لقد حطمت شيئاً لا وجود له في أى مكان لتخلقوا شيئاً يمكن أن يوجد في كل مكان » . لكن في الحقيقة فإن الكنيسة ضائعة وسط غابة المسجد المتحجرة والمكونة من أعمدة ضخمة بسيطة نحتت من كل لون من ألوان الشب والجرايت والرخام الأخضر والبنفسجى والقرنفلى والذهبي — وتعلوها أقواس رشيقة وقباب على هيئة خلايا النحل من الحجر ذي اللون البرتقالى والأبيض . وحتى المباحج المذهبة التي يتميز بها مذهب الكاتدرائية ، تفسى عليها النقوش المشبكة الفخمة التي تحيط بالحراب ذي الشكل المثلث الجوانب والزوايا كأنه أرق نسيج مطرز من الدتلا .

بل وحاول عبدالرحمن ماهو أكثر من تجميل المدن وبناء المساجد . فإذ كان رجلاً عادلاً إلى درجة رفيعة ، وكان على غرار عطاء البيت الأموى عنيفاً في إيمانه بالتقليد العربى عن الديموقراطية العربية ، صمم على أن يعطى أهل إمارته قانوناً جديداً للعدالة . قبل الفتح العربى كان للأشراف ورجال الدين من القوط الغربيين كل السلطة وكافة الامتيازات ، وكان الفلاحون يعيشون حسب أهواء حكامهم . هذه المظالم ألغاهها عبد الرحمن وأعطى الفلاحين الأسباب قانوناً للحقوق وفر لهم حاية ، مما لم يعرفوه من قبل أبداً . لاغرو أن اضطر المؤرخون المسيحيون مثل راينهارت دوزى إلى الإعتراف بأن « الفتح العربى كان حتى ذا نفع لأسبانيا » .

وحاول أيضاً أن يخلق مجتمعاً سياسياً واحداً من تلك المجموعات المتنافرة من الأجناس والعقائد ممن كان يحكمهم — العرب والبربر والقوط ومزيج أوربى — أفريقى عرف باسم العرب الأسبان . ولكنه أخفق هنا . لو أنه فرض الإسلام على جميع رعاياه وحرّم جميع الأديان الأخرى على نحو ما فعل الفاتحون المسيحيون بعد ذلك بخمسة قرون ، لربما خلق قلباً قومياً . ولكنه فى قرارة نفسه كان رجلاً متسامحاً ، وتمشياً مع التقليد الذى رسمه معاوية ، ففضل أن يسمح للمسيحيين واليهود بممارسة ديانتهم دون مضايقة طالما لا يطمنون فى الإسلام ويدفعون ضرائبهم بانتظام حسب مواردهم المالية .

من سوء حظ أسبانيا والعرب أن العمر لم يمتد بعبد الرحمن بعد الثامنة والخمسين ليواصل المنافع الليبرالية التى تميز بها حكمه . فالذين أعقبوه خلال السنوات المائة التالية كانوا بالنسبة إليه جماعة ضعيفة لا هم سوى الصيد والحريم . وإذا أخذت جهود عبدالرحمن تؤتى ثمارها وبدأ الاقتصاد الأسباني

في الازدهار والتوسع ، زاد خلفاؤه ثراء وخمولا . فجاء بالأساليب والعادات الفارسية من بلاط هارون الرشيد ، وحل نفس النوع من الشغب القاتل بالترف ذلك الشغب الذي سبق أن ساعد على القضاء على البيت الأموي الأصلي في الشام . ومرة أخرى عاد البربر إلى جموحهم وحاولوا الاستيلاء على الإمارة ؛ واستغل مسيحيون معينون الضعف العام للحكومة فبدأوا يطعنون في الإسلام . ولم تعمل أساليب النار القاسية إلا على أن تجعل الثوار شهداء مما شجع غيرهم على أن يخذوا حذوهم . ولما انتشرت روح الثورة بدأت الأقاليم تنفصل عن قرطبة وتعلن استقلالها .

كان العرب في أسبانيا مخلصين لتقاليدهم . فتمتحت قيادة عبدالرحمن ارتفعوا إلى قمة الشهرة والقوة . وتحت قيادة أبنائه أخذوا يتحدرون بسرعة نحو الهاوية .

(١٠)

ألف ليلة وليلة

فيما يزيد قليلا عن عشر سنوات بعد موت أبي جعفر. قفزت الخلافة العباسية من الربيع المغطى بالخضرة إلى الصيف الذهبي . كان هارون الرشيد حفيد أبي جعفر قد أصبح الخليفة ، فبدأ عصر « ألف ليلة وليلة » . إذا كان الخطو أسرع مما ينبغي ، وكانت حرارة الشمس تنذر بما سوف يهب من العواصف الرعدية ، فإن أحداً في ذلك الحين لم يلاحظ هذا الأمر أو يهتم به . نسي الناس دروس الإمبراطورية الرومانية أو لم يتعلموها . ففرقت بغداد في البهاء والترف ، غير عابثة بالغد .

جُمعت الثروات ، وأنفق المال على نطاق ينافس إنفاق آل روتشيلد وروكفلر في العالم الحديث — فقد منح الخليفة أخاه إبراهيم وكان مغنياً محترفاً ، أكثر من مليوني دولار . ويقال إن أحد صاغة بغداد مات ثرياً جداً برغم مصادرة ما قيمته أكثر من ملايين كثيرة من الدولارات من ممتلكاته بسبب مخالفات شتى . وغالباً ما كان تجار البصرة يجنون ربحاً سنوياً يعادل ١٠٠٠٠٠ دولار . وجمع الهرامكة — الذين توارثوا الوزارة في عهد كل من أبي جعفر وهارون ثروة خيالية يقال إنها أربت على ٣٠ مليون دولار ، وهذا بخلاف ما كانوا يملكون من قصور ومزارع .

وكان أفراد الفريق الهاشمي من قريش يحصلون على أرزاق كبيرة بانتظام من بيت المال بسبب مولدهم وحسب . ويقال إن أم هارون حصلت على ما يزيد عن ١١٢٠٠٠٠٠ دولار صرفتها على زينتها وقصورها . وأصبحت زوجته

الحسنة زبيدة. أسطورة من ناحية الإنفاق ، شأنها شأن الخليفة نفسه . ففي القصور الخليفة التي كانت تشغل ثلث المدينة المدوّرة ، أصرت على أن لا يشرب ضيوفها إلا من أكواب من الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ؛ بل وكانت أحذيتها مرصعة بالجواهر . والمشهور أنها أنفقت خلال حجة قامت بها إلى مكة ، ما يربو على ٣٥٠٠٠٠٠ دولار . وكان لأخت زوجها التي تنافسها في الجمال ، نفس الشغف بالأحجار الكريمة ؛ ولكي تخفي أثر جرح صغير فوق جبينها صممت عصا به للرأس مرصعة بالجواهر ، وهذه فكرة اقتبستها النساء المترفات في جميع أنحاء العالم .

وعلى غرار ما كان في أواخر أيام بنى أمية ، تمتع النساء بقدر بالغ من الخروج على التقاليد ، وناظر نساء الطبقة الراقية الرجال في التدخل في شئون الدولة وفي إثراء المجتمع بحديثهن الشيق الفكاهي وبمواهبهن الموسيقية . ولكن في الطرف الآخر من السلم الاجتماعي أصبحت المغنيات والراقصات والإماء والمخاطبات من الكثرة خلال الفتوح المبكرة بحيث هبط مركزهن إلى أحط مستوى يمكن تصوّره . كان الخليفة يقتني الآن الألوف من الجوارى كان الكثير منهن يرسلن إليه كهدايا من قواده المنتصرين^(١) كي يغالوا الخطوة عند سيدهم ، وكان يملك عدداً مماثلاً من الخصيان والعبيد .

لا عجب إذا حكمنا بما ندعوه المستويات المسيحية للأخلاق أن تدهورت الأخلاق الجنسية وحلت صنوف الانحراف والشذوذ . أصبح الغلمان الأوربيون ومعظمهم من الروم أو الأرمن ، مصدراً مألوفاً للعلاقات اللوطية ؛

(١) لم يكن يقيم الجوارى مظهراً من مظاهر العبودية والاسترقاق بالمعنى المعروف ، بل أن كثيراً من الأماء كن يأتين سوق النخاسة مغتاررات ليعتقن بحياة الترف والنعيم في بيوت الخلفاء والأمراء (حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، طبعة القاهرة ، ج ٢ ، ص ٤٣٣) — المترجم .

وفي بيت أى موظف ثرى ، واخل عنك في قصر الخليفة ، كانوا يوجدون وقد تعطروا وتزينوا ببذلات ثمينة وجميلة وهم ينتظرون أن يشبعوا شهوة سيدهم . كان قانون الأخلاق الإسلامى يسمح دائماً بدرجة من الإباحة الجنسية أكبر مما تبيحه مستويات الغرب المسيحى^(١) ، وإن كان من الانصاف في الوقت نفسه أن نذكر أن التعاليم الإسلامية في العصرين الوسيط والحديث ، كانت موضع تمسك شديد وكامل بها يفوق مثيله في حالة الوصايا العشر . ربما لأن الشريعة الإسلامية أباحت تعدد الزوجات حتى أربع للرجل ، ولم تجعل الطلاق ممكناً فحسب ولكن سهّلت الحصول عليه ، وأباحت للرجل أن يقتنى أى عدد من الإماء والجوارى بشرط أن يحسن معاملتهن ويرعاهن كأنهن من أهل بيته ، لم يكن اللواط جريمة بالنسبة إلى المسلمين^(٢) ، كما لم يعتبر مخفئاً إذ كثيراً ما كان يمارسه أكثر الرجال رجولة . والحقيقة يمكن القول بأنه كان نوعاً من اللهو أكثر منه انحرافاً وشذوذاً ، في وقت توافر فيه مثل هذه الأعداد الكبيرة من كل جنس ولون .

وساد الترف بيوت الأغنياء إلى حد غير معروف في الأزمنة الحديثة ،

(١) هذا الذى يقوله المؤلف عن الغرب المسيحى ينقضه التاريخ ، ويشهد ضده الواقع المعاصر . ويمكن أن نذكر الإباحة الجنسية في المجتمعات الغربية ، وانتشار عادة اللواط كما في السويد يوجه خامس يحيث أفردت دراسات لبحث هذه الظاهرة . وأكثر من هذا فقد سنت بريطانيا قانوناً يسمح اللواط ، وإن اشترط الرضا وسنا معينة المدفوع به . أما في العصور الوسطى وفي أوائل العصر الحديث والتاريخ زاهر بمظاهر انحلال الأخلاقيات الجنسية في الغرب . — المترجم .

(٢) في هذا الرأى الذى يبيده المؤلف قدر بالغ وواضح من التجنى ، فقد أورد « جامع الأصول من أحاديث الرسول » للإمام أبى السعادات مبارك بن محمد بن الأنبارى الجزرى (ح ٤) أحاديث عدد تخالف ماذهب إليه المؤلف . عن ابن العباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول » (ص ٣٠٥) . وعنه أيضاً أن علياً أحرقهما ، وأباً بكر هدم عليهما حائطاً (ص ٣٠٦) . وعنه وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ملعون من عمل عمل قوم لوط » . — المترجم .

حتى في البلاد العربية الإقطاعية الغنية بالبترول^(١). كان يجري تبريد البيوت بالثلج ، وكانت أدوات المائدة لا تقل عن الفضة ، بينما كانت كل قطعة من الأثاث مطعمة بالأبنوس ومرصعة بالؤلؤ . وكان للأمين وهو ابن هارون الرشيد ثلاثة زوارق على صورة أسد ودلفين ونسر^(٢) ، تسكف كل منهما أكثر من ٢٨٠.٠٠٠ دولار ، وبنيت لأغراض حفلاته النهرية . وكانت أطباق الطعام الفارسي بما في ذلك الحلويات ، تقدم في الولايم ؛ وكانت الخمر تعاقر علانية كما كانت تنشد الأغاني والقصائد في امتداد تعاطيها في حجرات نفوح منها الرائحة القوية المنبعثة من العنبر المحترق .

بل ربما كانت فارس والعراق في ذلك الحين أوفر شهرة منهما اليوم بثروتهما من أنواع الأثاث والمتسوجات . ففي إقليم فارس Fars كانت تصنع الأقمشة الحريرية الموشاة بخيوط الذهب لنساء البلاط وكانت التفتا التي تنتج في بلاد فارس واسعة الانتشار وتصدر بمقادير كبيرة إلى أوروبا ، وكذلك كان شأن القماش المعروف باسم « العتاجي » نسبة إلى حي عتاج في بغداد ، حيث كان يصنع ، وهو مادة مخططة . ومن بخارى إلى دمشق كان يصنع كل شكل من أثاث البيوت وأدواتها ، من الأرائك إلى المقصات ، ومن القدس إلى الأقذاح من الزنك . وكانت صناعة الزجاج بالشام ومصانع الورق في سمرقند أول من صدر هذه السلع إلى العالم الخارجي ؛ وكان الزجاج الملون الذي نقله الصليبيون لأول مرة إلى أوروبا ، تقليداً للأنواع المطلية بالمينا المصنوعة في الشام . أما عن الثروة المعدنية فإن موارد دار الخلافة منها كانت

(١) هذا دون ما يفعله أصحاب الملايين في أوروبا والولايات المتحدة ، من إنفاق وإسراف يصل إلى حد الاستهتار . — المترجم .

(٢) أمر بعمل خمس جرافات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس ، وأنفق في عملها مالا عظيماً (الطبري ، تاريخ ، طبعة القاهرة ، ج ٨ ، ص ٥٠٩) — المترجم .

لا حصر لها . كانت كل جوهرة تزين النساء المترفات العباسيات يمكن وجودها في كل جزء داخل أراضي الخلافة — الذهب والفضة من خراسان ، واللؤلؤ من البحرين ، والياقوت وحجر اللازورد من وراء بلاد النهر ، والفيروز من نيسابور . وكانت إصنفهان تضم الأيتيمون ، وأنتجت الشام الرخام والكبريت ، وقدمت فرغانة الزفت والقار والزئبق

وكان الشطرنج المستورد من الهند هو والبرد من الألعاب الأثيرة في داخل بيوت الأغنياء ، كما كان البولو الوارد من فارس ، والرماية بالسهم ، وسباق الخيل ، والصيد من ألعابهم المحبوبة خارج البيوت . وكانت المراهقات في حفلات السباق شديدة ويجرى تداول المبالغ الكبيرة من المال . وبالنسبة إلى الصيد جرى بالتصغر من فارس ، وهو عادة لا تزال موجودة اليوم في الأردن والمملكة العربية السعودية والخليج الفارسي (العربي) .

وراء كل هذا الترف والثراء تجارة وصناعة مزدهرتان . فعلى طول أرصفة موافى بغداد والبصرة النهرية ترسو مئات السفن من كل ركن من أركان الإمبراطورية الشرقية ، من الصين إلى أفريقية ، محملة بالحرير والعطور والصيني والصبغات والتوابل والياقوت وحجر اللازورد والفراء والعاج والرقيق للبيع في أسواق العاصمة ، حيث تتجمع الدكاكين حسب نوع التجارة أو الحرفة — فبحال الصباغة في شارع والحائك في شارع آخر — على نحو ما تلقاه اليوم .

وبالمقابل كان التجار العرب ومنهم الأسطوري السندباد البحري يحملون إلى الشرق الأوسط وإلى أوروبا حيث يتجهون شمالاً حتى روسيا ، الأرز والحبوب ، والكتان والحرير ، والعطور والآلات ، والزجاج والمعادن ، والسكر والفواكه والخضر ، وهي منتجات مصر والشام والعراق والخليج الفارسي ، والأودية الفنية الخضراء بين بخارى وسمرقند . وغالباً ما كان هؤلاء

التجار يحملون أيضاً رسالة الإسلام التي أصبحت مغروسة في جنوب شرق آسيا وبوجه أخص في الجزر التي تتكون منها اليوم دولة إندونيسيا.

وكان في الإمبراطورية العباسية أيضاً مستوى رفيع بصورة تلفت النظر ، من الخدمة الاجتماعية والصحة العامة . فكانت العاصمة وحدها تفخر بأنها تضم نحواً من سبعة وعشرين ألفاً من الحمامات العامة وهي أسلاف ما يقال لها حمامات البخار « التركية » الموجودة اليوم . ونقدم الطب والصيدلة بسرعة ، وأدخل نظام من الإمتحانات لاختيار الأطباء والكيميائيين لمنع استغلال الدجالين للجاهل . ويقال إن ثمانية آلاف طبيب اجتازوا هذه الإمتحانات في العاصمة وحدها . وفي أوائل القرن التاسع أدخل تشريح الحيوانات لأغراض البحث الطبي ، وظهر طب العيون لأول مرة في كتاب مدرسي عن علاج أمراض العيون التي كانت ، شأنها الآن ، مبيث أوسع الشكاوى انتشاراً في الشرق الأوسط . وأنشئت خدمة طبية حكومية ، وحتى السجون كان الأطباء يزورونها يومياً : وأنشأ هارون أول مستشفى بالعراق ليعقها بعد وقت قصير أكثر من عشرين من نوعها في أجزاء مختلفة من دار الخلافة ، وكانت كل مستشفى مزودة بصيدلية ، وفي بعض الحالات بمكتبات طبية وتسهيلات للدرس لطلبة الطب .

وكان رجال الطب المسؤولون بصفة رئيسية عن هذا التقدم في الطب والسيما جابر بن حيان وأبو بكر الرازي . وأطلق على جابر الذي هبط من التكوفا في العراق ، اسم « أبو السيمياء » العربية . ولما كان مختصاً لإجراء التجارب فإنه طور النظريات الطبية اليونانية والمصرية وخاصة نظريات أرسطو ، عن العناصر وتحويل المعادن الخسيسة ، وبسبب أبحاثه تحقق تقدم كثير في عمليات

مثل التسكس والتبعر والدوبان والتبلور . أما مؤلفاته التى نملك منها اليوم ما يزيد على العشرين ، فترجمت إلى اللاتينية . وكان لها تأثير طاعٍ فى معامل أوروبا فضلاً عن آسيا ، طيلة قرون عدة بعد وفاته ؛ بل وكان الرازى وهو فارسى من أهل الرى القريبة من طهران الحديثة ، أعظم تأثيراً ووصف بأنه أكثر الأطباء المسلمين أصالة ومن أغزهم تأليفاً . ومن أعماله التى تجاوزت المائة ، كتب عدة عن السيميا ترجمت إلى اللاتينية وكان لها موضع الصدارة كمصدر للمعرفة السيمياوية فى أوروبا خلال السنوات الخمسة التالية . وبالمثل كانت تقاريره عن الجدرى ومرض الحصبة هى الأولى أيضاً فى ميدانها ، وعندما ترجمت إلى اللاتينية كانت مراجع يعتمد عليها الأطباء الأوروبيون . وأهم من هذه كلها موسوعته الشاملة فى علم الطب التى اعتمدت على المعرفة التى وصلت إلى العالم العربى من المصادر اليونانية والفارسية والهندية فضلاً عن أبحاثه هو ، فأصبحت من أروع الملخصات الطبية التى صُنفت وقدر لها أن توجه وتؤثر فى الفكر والبحث الطبى فى الغرب لقرون تالية .

وبمقدم التأثير الفارسى بدأت تزدهر الزراعة التى أصابها الركود إلى حد كبير فى ظل العرب الذين اعتبروا أن مثل هذا العمل مما يحط من كرامتهم . فحُففت دلتا دجلة والفرات ، ووفر لها الرى عن طريق شبكة من القنوات ، وأُنبتت محاصيل وفيرة من الشعير والقمح والأرز والتمر فاستحدثت شهرتها بأنها كانت الموقع الأصلى لجنّة عدن . وكانت الشام ومصر وخراسان والأودية الخضراء حول بخارى وسمرقند ، تنافس العراق فى الخصب والإنتاج . كان العديد من منتجاتها قد جلبه الفاتحون الأوائل من الهند وآسيا الغربية وإذا استثنينا الواردات الحديثة نسبياً مثل الطماطم والمانجو ، فقد كانت الإمبراطورية توفر كل فاكهة وخضر نأكلها اليوم من البرتقال إلى قصب السكر ومن الزيتون إلى البطيخ .

وعلى قمة الرخاء والثراء البالغين كان يجلس الخليفة هارون الرشيد الذى كان يحتل مكاناً يعلو فى النفوذ والمكانة فوق مكان الحكام الآخرين جميعاً فى الشرق والغرب ، باستثناء شرملة . بل كان شرملة على إدراك كاف بقوة خليفة بغداد بحيث تبادل معه البعثات والملح إلى تحالف يمكن أن يخدم مصالحهما بتهديد البيزنطيين والأمويين الأسبان وكلاهما منافس له ولبنى العباس على التوالى . كان نجم هارون قد لمع فى سن العشرين خلال حكم والده محمد ، عندما شن العباسيون أول هجوم لهم على جيرانهم الروم أملاً فى الاستفادة من السلام والانسجام فى داخل الإمبراطورية ليتخلصوا من التهديد البيزنطى فى آسيا الصغرى . وسار هارون مصحوباً بخالد بن برمك المخلص على رأس مقدمة جيش الخليفة الذى راح يتوغل حتى بلغ البسفور . وهناك أرغم الوصية على العرش وهى الملكة لميرين ، على توقيع معاهدة وأداء جزية إلى جيوش الخليفة . وكانت هذه رابع وآخر مرة يقف فيها جيش عربى أمام أسوار القسطنطينية .

عاد هارون بفنائم ضخمة لترحب به بغداد بوصفه بطلاً ، وكافأه أبوه الذى كان يحبه حتى العبادة بأن أطلق عليه لقب « الرشيد » . ويبدو أن مثل هذا القدر الكبير من النجاح والملق أدار رأسه بحيث طلب الآن من أخيه الأكبر موسى أن يتنازل عن حقه فى وراثة العرش . رفض موسى ، ولما توفى محمد بعد ذلك بوقت قصير ، وافق هارون على عدم التشدد فى التمسك بدعواه . ولكن أمهما وكانت أصلاً أمة فارسية اعتنقها محمد وتزوجها ليضفى الشرعية على ولديه ، تقول إنها كانت أشد طموحاً بالنسبة إلى ابنها الأمير لديها هارون منه بالنسبة إليها . ولما استجاب موسى إلى إنكار الذات من جانب أخيه بأن عين ابنه خلفاً له ، حسمت الأم المشكلة بأن قتلت موسى بالسهم . ولم يجد

هارون الذى كان ما يزال فى الرابعة والعشرين من العمر ، صعوبة كبيرة فى إقناع ابن موسى بالتنازل له ، وفى سنة ٧٨٦ بدأ ، حكم أشهر خليفة فى الإسلام .
 كلما درسنا حياة هارون الرشيد ومسلكه بدا أن له تأثيراً على المؤرخين المحدثين يكاد أن يشبه تأثير التنويم المغناطيسى . مامن شك أنه كان حاكماً نشيطاً وإن كان فاسياً وغيوراً . ولكنه لم يكن بارزاً بالتأكيد . فبفضل إخلاص أبى جعفر الذى لا يكل ، ورث إمبراطورية يسودها السلام ، وورث معها تقليداً ثقافياً وأدبياً كان يصدد أن يصبح موضع الحسد من الشرق والغرب ، ورأس هذا التراث بما يتفق معه من العظمة والأبهة . ولكن من الصعب أن نجد شيئاً عمله لإثراء إمبراطوريته أو دعم تقاليدها . إن كان قد عمل أى شئ فإن ممتلكات الإمبراطورية عند وفاته كانت دونها . لما تولى الخلافة ، ارتدت حملاته الأخيرة ضد البيزنطيين إلى صدره على نحو سيئ ، وكان ما ورثه من السلام والهدوء يتمزق فى أوائل عهده بفعل سلسلة من الثورات الدموية . ولما كان لا يحتل المؤثرات الغربية ويرتاب فيها أعاد فرض الكثير من القيود القديمة على الفصارى واليهود ، فأجبرهم على ارتداء لباس يميزهم ، ومنعهم من تولى المناصب العامة ، وقرر عدم قبول شهادتهم فى أية قضية قانونية ضد شهادة مسلم . أما عن علاقاته الشخصية فغالباً ما كانت تسيطر عليه الغيرة الصغيرة ويشك فى أقرب الأصدقاء إليه بل وفى أهل بيته وهى صفات يندر أن تبرز شهرته الأسطورية .

إن معاملته للبرامكة وهم أشد خدام أجيال ثلاثة من الخلفاء ، ولاء وإخلاصاً ، لا يمكن أن توصف إلا بأنها وليدة مرض العظمة السكاذبة . كان وزيره هو يحيى بن خالد بن برمك الوزير الخلفى لأبى جعفر ، ذلك أن هارون كان فى إدارة شئون حكومته ، يعتمد مثل جده على الأعاجم بوجه عام وعلى البيت البرمكى بوجه خاص . مامن خليفة كان لديه نصير أشد تفانياً فى خدمته

من هذا الإبن من أبناء خالد ، الذى قاوم بعناد خطة موسى فى تعيين ابنه مكان هارون وألقى به فى السجن بسبب تحديه . كما أن دين الخليفة للبرامكة لم يقف عند هذا الحد ، فقد كان الفضل وهو أحد أبناء يحيى ، أداة فى القضاء على محاولة علوية لانتزاع طبرستان من الإمبراطورية . وابن آخر هو جعفر كان شاباً ذا وسامة رائعة ، وله عينان سوداوان كبيرتان وعنق طويل ورشيق ، هذا الإبن كان من أكثر أصدقاء هارون قرباً إليه حتى أن أباه شك فى وجود علاقة جنسية بينهما . كان جعفر والخليفة لا يفترقان ، فيقضيان كل ساعة من وقت فراغهما سوياً ، يتجولان يداً فى يد فى حدائق القصر أو يستمعان إلى رواية الشعر . ولما تقدمت يحيى السن بحيث لم تعد تسمح له بقولى الوزارة ، لم يكن تعيين جعفر لشغل المنصب أمراً يبعث على الدهشة . هذا القرب الجديد المترتب على التعيين إنما زاد من عمق ولع الخليفة بهذا الشخص العزيز على نفسه .

أراد هارون الآن أن يكون جعفر معه كل الوقت . ولكن هذا أثار مشكلات . كان جعفر قد أغدق عليه مولاة ضروب التكريم والمال بحيث تفشى فى العاصمة القال والقييل الشائن عن هذه العلاقة . وعلى ذلك قرر هارون أن يخدم الشائعات فزوج أخته العباسية من جعفر ، ولكنه أصر فى السر على يكون الزواج بالإسم فقط وألا يخلو الزوجان ببعضهما أبداً . كان جعفر مستعداً للنزول على هذا الاتفاق ولكن زوجته لم تكن لتقبل هذا الحرمان من حقوقها الزوجية بمثل هذه السهولة . فذات ليلة تخفت بالنقاب المعتاد ، بوصفها من خادمت القصر وحملت زوجها على مضاجعتها . نجحت الحيلة ثم حلت بعد أن تكرر الأمر مرات عدة ومع ذلك نجحت فى تجنب لقاء أخيها إلى أن ولد الطفل ، وبعث به سرّاً إلى مرضعة فى مكة .

لم يعرف هارون أو جعفر شيئاً عن هذا الحادث إلا بعد سنوات عدة

عندما علم الثرثارون بما حدث . وسرعان ما وصلت القصة إلى آذان الخليفة ؛ وفي زيارته الثالثة إلى مسكة أمر بإحضار الطفل . كان الشبه بجعفر من الوضوح بحيث لا يمكن أن يكون وليد الصدفة ؛ وفي نوبة من الهياج أمر هارون بخنق الطفل ثم عاد إلى بغداد ليعاقب الوالدين . قتلت العباسة أولاً ، خنقها أغا أسود ضخمة الجثة من أغوات القصر وألقيت جثتها في حفرة في أرضية حجراتها ، ثم أعدم الذين حفروها لضمان سكوتهم . بعد ذلك جاء دور جعفر . إن التغيير المفاجيء والعميق الذي طرأ على أحوال الخليفة وأسلوبه في الحديث ، كان قد نبه جعفر للخطر . ولكن عند ما استدعاه هارون أطاع الأمر دون أن ينبس بشقة إلى أن وجد نفسه وحيداً مع الجلال في حجرة الانتظار الخاصة بالخليفة . ارتقى عند أقدام الأغا ووعده بذهب لا يعد ولا يحصى إذا لم يقتله ولكن دون جدوى . وسقط السيف على العنق الطويلة والرشيقة ، وبعد لحظة طرحت الرأس الوسيمة عند قدمي الخليفة .

في هذه اللحظة بدأ هارون بصرح كجميعه وانفق في شرك واذراح تارة يلعن الرأس الراقدة تحت قدميه بسبب خيانة الجسد الذي كانت جزءاً منه ، وتارة أخرى ينتحب ويبكي خسارة صديقه ، أقسم أن يهلككم جميعاً وبالفعل أهلكهم . فزج ببغيمى المسن وابنه الفضل في السجن وصودرت ضياعها . ولكن حتى هذا لم يقنع الخليفة الذي تملكته حالة هستيرية ، فأمر بتجديد الفضل إلى أن يكشف عن كنز معين لم يكن متقيداً في قوائمه جرد ضياع الأسرة . ومات كل من يحيى والفضل في السجن ، وبموتها انتهت تلك السلالة الرائعة من أولئك الذين تفانوا في خدمة بني العباس (١) .

(١) يستبعد الكثيرون من المؤرخين والكتاب هذه الفصحة عن العباسة التي هي كما يقول ابن خلدون « قرية عهد بيداة العربيه وسداجة الدين ، البعيدة عن عوائد الفرف وموقع الفواحش . فأين يطلب الصنن والعفاف إذا ذهب عنها ؟ أو أين توجد الظهارة والذكاء إذا خدوا من بيتها ؟ أو كيف تلجم نسبها بجعفر بن يحيى وتلصق شرفها العربى ببول من موالى =

يندر أن كتب فصل أقل بهاء وبدوافع أقل نبلاً في قصة هارون الرشيد الشهير . حقيقة يقال إن الندم تملكه بسبب هذا التصرف الفذل المتولد عن الغيرة اللوطية ، بحيث غادر بغداد فيما بعد بذكرياتها عن صديقه المحبوب ، وخلال السنوات الست التالية حكم الإمبراطورية من قصره الصيفي حيث عاش في نوبة ذهول من الشقاء الأسود . ولكن ندمه لم يفعل شيئاً في تلطيف طبيعته . فأصبح في وحدته التي خلقها بنفسه أشد قوة وأكثر ارتباطاً حتى أن المحيطين به ، بما فيهم ولداه ، راحوا يتآمرون ضده .

ربما يزعم هارون أنه إنما كان في هذه السنوات الأخيرة من خلافته ، يتبع مشورة جده أبي جعفر عن « عدم النوم أبداً » ولكن بدا من الشك في أن أقرب أصدقائه وأقاربه يتآمرون ضده ، أن كان خيراً له لو أخذ بمشورة أبي جعفر البارع بالمثل عن الاستفادة من أهل خراسان . ونظراً لأنه لم يفعل هذا ، واجهته في أواخر عهده ثورة خطيرة في الإقليم . وفي عام ٨٠٨ وكان يعاني من داء السرطان ، توجه على رأس جيش كبير لمحاربة الثوار بزعامة أحد أحفاد نصر بن سيار آخر عمال بني أمية في خراسان ، وهو رافع بن الليث .

المعجم ؟ (مقدمة ، ص ١٤) . ثم يتابع المؤرخ الكبير تفسير نكبة البرامكة فيقول « وانما نكسب البرامكة ما كان من استمدادهم على الدولة ، واحتجاجهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب البشير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور مملكته ؛ فعمدت آفاتهم وبعد صيتهم وحمروا مراتب الدولة بحفظها بالزواصم من ولدهم وصنائعهم . . . وانصرف عنهم الوجوه ونقصت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال ، ومدحوا بما لم يدح به خلية لهم وأسبوا لعاتم الجواهر والصلوات ، واستولوا على القرى والضياح ، من الضواحي والأضرار وسائر الممالك » (شرحه) :

ورمى البغدادي (الفرق بين الفرق ، ص ٢٧٠) البرامكة بالزندقة ، ويقول أنهم زينوا لرشيد أن يتخذ في جوف الكعبة بحجرة يتبخر عليها العود أبداً فلم الرشيد أنهم أرادوا أن تصير الكعبة بيت نار ، فكان ذلك أحد أسباب قبضه عليهم ، فعبادة النار من ديانة المحوس . ويقول ابن النديم أيضاً (الفهرست ، ص ٤٧٣) أن الأميرة بأسرها — الامحمد ابن خالد بن برمك — كانت زنا دقة . — المتزخم .

كان رافع قد اتهم في الأصل بارتكاب معصية بزوجة من امرأة كانت قد تخلصت من زوج سابق بأن ارتدت عن الإسلام^(١). فلما صدر الأمر بسجنه هرب ورفع راية الثورة واستولى على سمرقند وأعلن استقلاله بها عن بغداد. كان هذا أكثر مما يطيق هارون. وكانت الإمبراطورية قد أصيبت بخسائر خطيرة في أفريقية وآسيا الصغرى. فخلال عهد أبيه خرجت مراكش على الخلافة بزعماء إدريس وهو أحد الباقيين على قيد الحياة، من الرجال الذين اشتركوا في ثورة إبراهيم بالبصرة سنة ٧٦٢. ثم في عهده أعلن عمال القيروان المحليون استقلالهم؛ وأخيراً فإن إمبراطور الروم الذي كان هارون يعامله باحتقار بحيث يبدأ رسائله إليه بعبارة «إلى فقور كلب الروم»، هذا الإمبراطور قلب الموقف وطرد الجيوش العربية من الأناضول؛ وضياح جزء من الإمبراطورية الشرقية كان أكثر مما يستطيع احتماله.

أخذت ثورة رافع وأسر الأمير الخاطيء. وفي هذا الوقت كان هارون في طريقة إلى الموت^(٢)، ولكنه أصر برغم هذا على أن يؤتى بالمتهم أمامه ليلقى جزاءه وفيما هو راقد في خيمته، وحياته تقترب من النهاية، استسلم لنوبة أخيرة من نوبات الغضب الشيطانية، فقال لرافع إنه سوف يدفع الثمن إذ جاء به (أي

(١) يحدثننا الطبري (تاريخ، ج ٨، ص ٣١٩) أن يحيى بن الأشعث بن يحيى الطائي تزوج ابنة لعمه أبي النعمان، وكانت ذات يسار، فأطام بمدينة السلام وتركها بسمرقند، فلما طال مقامه بها، وبلغها أنه اتخذ أمهات أولاد، التمس سبباً للتخلص منه، فمى عليها، وبلغ رافعا خبرها، فطعم فيها وفي مالها، ففسد اليها من قال لها: إنه لاسبيل إلى التخلص من صاحبها، إلا أن تشرى بالقة، ونحضر لذلك قوما عدولا، وتكشف شعرها بين أيديهم، ثم تنوب فتفعل الأزواج، ففعلت ذلك وتزوجها رافع.

وفي هذا يقول حسن إبراهيم حسن عن رافع أنه قاد امرأة من أهل اليسار إلى الكفر تخاضعا من زوجها الذي طال غيبته ورغبة في الزواج منها (تاريخ الإسلام السياسي، ج ٢، ص ٥٣). — المترجم.

(٢) حين خرج الرشيد إلى خراسان صحبه الصباح. وتوقف الرشيد عند شجرة وأوما إلى خدامه الحامسة فتنهجوا؛ ثم كشف عن بطنه، فاذا عصابة من حرير حوالى

بالرشيد) هذه المسافة البعيدة . وهنا قطع رافع إرباً ،^(١) ، وألقيت أشلاؤه ،
الواحد بعد الآخر ، عند أقدام الخليفة . وبعد ساعات قلائل مات هارون
نفسه ، وكان هناك الكثيرون في الإمبراطورية بما فيهم أقرب الناس إلى
العرش ، تنفسوا الصعداء عن رحيله .

==بطنه، فقال للصباح : هذه علة أكنمها الناس كلهم ، ولكل واحد من ولدى على رقيب ؛
فسرور رقيب الأمون ، وجبريل بن يحنشوع رقيب الأمين ، وما منهم أحد إلا هو يحصى
أنفاسي ، ويمد أيامي ، ويستطيل عمري . (الطبري ، تاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩) -
المرجم .
(١) الذي قتل هو بشير بن الليث أخ رافع (الطبري ، تاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٤٢) -
المرجم .

(١١)

عصر العباسيين الذهبي

إن أية آمال بأن موت هذا الطاغية الغيور سوف يأتي بعصر جديد من السلام ، هذه الآمال سرعان ما تبددت بعنف . ففي ظرف ثلاث سنوات كانت الخلافة في شقاق بفعل صراع مرير ودام بين ولديَّ هارون : محمد الأمين وعبدالله المأمون . خلف الأمين أباه لا لسبب سوى أنه كان الوحيد من أبناء هارون الذي ولد لإحدى المهور^(١) ، أما الآخرون فكانوا من أمهات أولاد^(٢) فكانت أم المأمون^(٣) إحدى عشر جوار وهبتن إلى هارون زوجته زبيدة لتبعده عن مغنية كان الخليفة قد كلف بها . وكان الأمين طرازاً جسانياً نفحاً ، طويل القامة جداً وذا جسم ضخم^(٤) وكانت قوته الرائعة مصحوبة بشجاعة جسدية كبيرة ؛ وتذكر الأسطورة أنه قتل ذات مرة بمفرده وبخنجره ، أسداً أحضر إليه لمعاينته فأفلت من قيده وانقض عليه وهو يشرب خمرأ .

ولكن شجاعة الأمير الجسدية لم تعادلها حنكة سياسية ذكية ، ويبدو أنه ورث أيضاً عن أبيه نزعة الشك ؛ وكان يرتاب بصفة خاصة في أخيه المأمون الذي كان قد عين قبل موت هارون سنة ٨٠٩ والياً على خراسان .

وأقره الأمين في منصبه ، ويرجع هذا إلى حد كبير ، إلى الرغبة في إبعاده عن العاصمة . ولكن حتى على هذا البعد الكبير فإنه لم يشعر بالأمن تماماً ،

(١) الزوجة الحرة النهائية المهر . — المترجم .

(٢) أمى من الإمام — المترجم .

(٣) أمه أم وله تدعى مراحيل . — المترجم .

(٤) كان سبطاً أنزغ أبيض ، صغير العينين أقي ، جيلاً ، عظيم الكراديس بعيد ما بين

المسكين (الطبري ، تاريخ ، ج ٨ ، ص ٤٩٩) . — المترجم .

ذلك أنه لم تمض أسابيع قلائل حتى أمر المأمون بأن يعيد جيوشه إلى العراق .
رفض المأمون أن يُترك بغير دفاع ؛ ولما كان يشك بدوره في أن الأمين يهدف
إلى أن يسلبه نصيبه في وصية أبيهما ، لجأ إلى الخراسانيين يطلب
نصرتهم له .

وكان أصل أمه الفارسية في صالحه عندما عزله الأمين من منصبه وأشخص
جيشاً من أربعين ألف رجل^(١) للقضاء عليه وعلى أنصاره . ولكن حملة الأمين
أبديت عند الري القريبة من طهران على يد قوة خراسانية لاتزيد عن عشرين
عدداً ، بقيادة طاهر بن الحسين قائد المأمون ونصيره الرئيسي .

غلا الآن دم المأمون . لقد طلب أخوه الحرب وسوف يعطيه إياها . وفضلاً
عن هذا ، كان واضحاً الآن أنه إذا لم يقض على الأمين فإن الأخير سوف يقضى
عليه . وعلى ذلك أمر طاهر بالزحف على بغداد مع جيش آخر يقوده هرثمة الذي
كان قائداً سابقاً من قواد العباسيين في شمال أقرية .

في هذه الأثناء كاد الأمين أن يفقد عرشه عندما تمكن ضابط شامي حديث
النعمة ، وبمساعدة بعض المنشقين من حرس القصر ، من شق طريقه إلى حجرات
الخليفة . قبض على الخليفة وسيق في الشوارع عندما تعرف عليه مجموعة من
رعاياه المخلصين وأنقذوه . ولكن مثل هذا الولاء كان سلعة نادرة في بغداد في
تلك الأيام ؛ فلما وصل المحاربون من رجال طاهر أمام بغداد في عام ٨١٢ ، بايع
العراق كله ، من البصرة إلى الموصل ، المأمون بالخلافة .

أصبح الأمين محصوراً وراء وسائل الدفاع عن بغداد ، وبدأ جنده يخرجون
عليه وينضمون إلى الفزاة . أما الذين بقوا للذود عن خلفيتهم فكان حافزهم
الوحيد هو المال الذي أغدقه عليهم الأمين من خزانة الدولة . ما من شيء كان
يمكن أن يبقوهم لو صدقت الصورة التي رسمها المؤرخ أبو الحسن المسعودي

(١) بقيادة علي بن عيسى بن ماهان الذي قتل أيضاً — المترجم .

لحلمهم أثناء الحصار الذى تلا ذلك . كان الضباط والأجناد نصف عراة ويتضورون جوعاً . ولم تكن هناك خوذات أو دروع صحيحة . ولكن كانت هناك فقط معدات كاذبة مصنوعة من أوراق النخيل . ومع ذلك واصل هؤلاء الرجال القتال أربعة عشر شهراً ، بينما راح الطاهر وهرثمة يدقان الأسوار الكبيرة للمدينة المدورة بمجانيقهم ويهدمونها فى بطء وفى ألم . وعندما استولى عليها المحاصرون عنوة فى النهاية ، كانت بغداد قد أصبحت خراباً ، تقناثر فى شوارعها الجثث ، ومساجدها مغلقة ، ويكاد أفراد الحامية والأهلون أن يموتوا من الإعياء ونقص الطعام . صمد الأمين ثلاثة أيام فى داخل القلعة ، ثم عرض التسليم — ولكن لهرثمة فقط ، إذ كان يعرف أن الطاهر القاسى مصمم على أن يقتله بيديه . قبل العرض ؛ ولكن بينما كان هرثمة يعبر دجلة وفى صحبته الأمين ، هجم رجال طاهر على الزورق ، وقتلوا الخليفة ، وحزّوا رأسه وبعثوا بها إلى المأمون^(١) .

هكذا حدث أن أعظم عصر فى تاريخ بغداد وهو عصر المأمون ، بدأ والمدينة تسكاد أن تكون قد دمرت تماماً : نصف أهلها تقريباً ماتوا ، وخزائن الخلافة خاوية . هكذا كانت الفوضى والدمار فى العاصمة بحيث كان حكم الإمبراطورية من بغداد مسألة خارج الموضوع ، وعاد المأمون غير آسف ، إلى خراسان الصديقة حيث حكم كخليفة من مرو .

لو أنه قصد أن يكون هذا إجراء مؤقتاً بينما يعاد بناء بغداد لكان من الراجح أن يسير كل شيء سيراً حسناً ولكنه لم يفعل هذا . وهنا ارتكب خطأ جسيماً فى رأى . إن الاستفادة من أهل خراسان شيء ولكن الأمر

(١) تقول رواية أوردتها الطبرى أن الأمين قرر أن يسلم نفسه إلى هراثة ، ونزل معه فى زورق ، فهاجمه أصحاب طاهر وحاولوا اغرقه ، ولكنه عبر النهر سباحة حيث قتل وأرسلت رأسه إلى المأمون (تاريخ ، ج ٨ ، ص ٤٨٢ وما بعدها) . — المترجم .

بالنسبة إليه سار أبعد مما ينبغي عندما اتخذ من مرو مقراً دائماً له وعامل العراق والشام كأنهما ولايات بعيدة .

ومن ثم لاندعش أن بدأ أهل الشام يتذمرون . وبرغم أنهم أجبروا على التزام الصمت طيلة السنوات الستين السابقة ، فهم لم ينسوا المذابح الرهيبة التي ارتكبتها جحافل أبي مسلم الفارسية . واشتد جحوش القبائل عندما مارأت الخلافة تزداد الآن خضوعاً للسيطرة الفارسية .

واختيار المأمون خراسان قاعدة له ، عرّضه أيضاً للتأثير التبيح من جانب رجل من المجوس لعنق الإسلام ، هو أبو الفضل بن سهل . كان المأمون قد خلف الفضل وراءه ليحكم خراسان حيث قام بعمل محمود جداً إذ مزج بين العنصرين الفارسي والتركي من السكان ليخلق مجموعة متجانسة ، وكان جزاؤه أن استموزه الخليفة الجديد لدى عودته إلى مرو ، كما استعمل أخاه الحسن على بغداد . ولكن بينما كان الفضل يعرف كيف يتعامل مع الفرس والأتراك ، كان يكنّ كراهية فارسية حقيقية للعرب ؛ وعندما عين عمالاً من الفرس والأتراك على السكور التي تضم مستوطنين عرباً وحرماً الأخيرين من أي استقلال ذاتي ، فإنه بذلك أظهر للعرب بشكل واضح كيف سيجعل الخليفة يعامل الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية . وفضلاً عن هذا ، كان يشعر بغيرة متعصبة من قواد الخليفة ، طاهر وهرثمة ، وعند أول فرصة سنحت له أقنع المأمون بإبعادهما عن خراسان بقدر الإمكان ، فبعث الأخير بالطاهر إلى الشام ليعالج الشغب الذي أحدثته القبائل ، وعين هرثمة والياً على بلاد العرب . قبل الظاهر المهمة دون أن يتملأ وشخص إلى الشام وفي عينيه بريق المعركة . ولكن قبل أن يخرج هرثمة إلى منصبه الجديد ، حذر مولاه من أن الإمبراطورية كلها غربي جبال زاغروس ، سوف تغلق من يده إذا لم يعجل بالرجوع إلى العراق ، ولكن كانت للفضل الكلمة الأخيرة والمسمومة في أذن الخليفة . فقبض على

هرثمة وسبق إلى السجن حيث مات بعد قليل ، ولعله مات مقتولاً على أبدي الوزير الفطيم^(١) .

ولكن سرعان ما تحقق تحذيره . ففي عام ٨١٦ اضطرب الحسن إلى الإِسْحَاب من بغداد ، فقد ثارت العاصمة والكثير من المنطقة المجاورة لها ضد مستشاري المأمون من الفرس ، على ما سبق أن تنبأ هرثمة . أن تحكم العراق مؤثرات فارسية في داخله شيء ، أما أن يحكم من فارس فشيء آخر لا يمكن أن يطيقه كبرياء العراق . وظل العراقيون في حالة من الفوضى شهوراً عدة إلى أن أرسل الخليفة أحد أعمامه من خراسان ليعيد السلام بأن وعد بالعفو عن الثوار .

ربما يُظن أن المأمون تعلم من هذا الدرس أنه لا يمكنه أن يتجاهل مشاعر العراق ويفلت من العقاب . ولكن الخليفة كان قد أدار ظهره للجانب العربي من أسلافه وراح يصبح أكثر عداء لأهل السنة وأكثر فارسية في كل نفس يردده . وفي السنة التالية نفسها وكما لو كان يسعى عامداً إلى استثارة العراقيين إلى درجة تفوق الاحتمال ، جعل الإمام الشيعي علياً بن موسى وهو من نسل علي بن أبي طالب ، ولي عهد المسلمين وخليفةهم من بعده . وفي الوقت نفسه أمر بطرح السواد وهو اللون العباسي الرسمي ، وبلبس ثياب الخضرة الشيعية . وحتى يظهر ازدهاره للرأي العام السني سمى وريثه « علي الرضا » [من آل محمد صلى الله عليه وسلم] .

أما من ذا الذي أشار بهذا التعيين الغريب الذي لا بد أن كان موضع القبول من أهل العراق والشام السنيين بمثل ما كان مارتن لوثر موضع الرضا :

(١) عن مصيد هرثمة بن أعين كتب الطبري (تاريخ ، ج ٨ ، ص ٥٤٣) : « وأمر [أي الخليفة] به فوجيء على أنه ، وديس بطنه ، وسحب من بين يديه . وقد تقدم الفضل ابن سهل إلى الأعوان بالفضل عليه والتشديد حتى حبس ، فسكت في الحبس أياماً ، ثم رسوا عليه فقتلوه ، قالوا له : إنه مات » .

والقبول من بابا روما ، نقول إنه لم يثبت أبداً من الذى أشار بالتعيين وإن كانت أصابع الاتهام تشير حتماً إلى الفضل . كان على الرضا لفترة من الوقت ، رفيقاً لا يفترق عن المأمون الذى وجد فى ورع الإمام ولعان فكره وشخصيته المؤثرة ، صفات لا يمكن مقاومتها بحيث زوجه ابنته^(١) . ولكن من الأسرار الخفية السؤال عن كيف كان يمثل هذا الافتقار إلى الرأى والبصر السياسى بحيث يعتقد أنه بعد كل ما حدث ليشيع المرارة فى العلاقات بين الأغلبية السنية والأقلية الشيعية فى الإمبراطورية ، يمكن أن يرضى الأولون بأن يحكمهم واحد من الآخرين . وكانت النتيجة المباشرة لهذا التعيين نشوب شغب فى بغداد حيث رمى أهل العاصمة المأمون بالزندقة وأعلنوا خلعه لصالح عمه إبراهيم . وسرعان ما كان العراق كله فى حالة اختمار . وبرغم أن الأقلية الشيعية فرحت بالاعتراف بإمامها وبالأمل فى عودة العلويين إلى الحكم ، فإن الجزء الضخم من الرأى العام الذى سبق أن بايع المأمون ، تحول الآن ضده بشكل عنيف .

وأخيراً استيقظ المأمون ليدرك الخطر البالغ المهدق بمركزه ، والحاجة إلى عمل مستعجلة لإنقاذ عرشه . ومن الغريب بالدرجة الكافية أن علياً الرضا هو الذى أحدث معظم اليقظة ودفع صديقه ومولاه إلى السير فى الطريق الصحيح؛ وبناء على مشورته عزل المأمون الفضل ، وأمر بالرحيل إلى بغداد بنفسه . وإحضار الطاهر من الشام ليكون والياً على الإمبراطورية الشرقية . وإذا كان المأمون الآن على بينة تماماً من نقائص وزيره أصبح وقد تملكه الغضب الشديد بحيث أن عصبية من ذوى النوايا الطيبة ويكنون حقداً دفيناً للفضل ، قرروا - كما فعل فرسان الملك هنرى - بتقوماص بيكيت - أن يخلصوا خليفته من مستشار السوء ، إلى الأبد . وبعد لحظة وجد الوزير السابق مقتولاً فى الحمام .:

(١) أم حبيب : — المترجم .

ولكن بينما أنكر المأمون أنه تستر على القتل ، فيبدو أنه لم يستشعر أيًا من الندم الذي ساور الملك هنري .

كان رد فعل المأمون مختلفًا تمامًا عندما مرض صديقه عليّ وهو في طريقه إلى بغداد ومات . يقول البعض إنه مات مسمومًا ، بل وهناك من يتهم المأمون بإزاحته من الطريق . صحيح يكاد ألا يكون الإمام الشيعي رفيقًا مناسبًا للخليفة في هذه الحملة من أجل استرداد نفوذ العرش . ومع ذلك يجب بالتأكيد تبرئة المأمون من أي غدر بصديقه^(١) ، فقد كان حزنه على موته شديدًا تمامًا ، وأمر على الفور ببناء ضريح كبير لتخليد ذكرى الشاب الوليّ الذي كان بالنسبة إليه أخًا - وربما أكثر من أخ - منذ قدم لأول مرة من خراسان . وأطلق اسم « مشهد » على موقع الضريح الذي ضم رفات علي الرضا وهارون الرشيد ، وحتى اليوم يمثل في نظر الفرس الشيعيين ثاني أقدس مكان في العالم بعد كربلاء التي شهدت استشهاد الحسين .

قبل أن تتحدى ثورة بغداد المركز الشخصي للمأمون كان يعطى الانطباع بأنه شخص عابر تقريبًا لا يهتم بأمور الحكم فيما يتجاوز حدود خراسان ، ويقع بالجلوس فوق ما عنده من أكاليل الغار . ولكنه أصبح من الآن فصاعدًا رجلًا يحركه غرض جديد وتصميم جديد . فهذه أهل خراسان يسندون ظهره ؛ ونبأ موت عليّ ليهديء من ضروب القلق الذي انتاب العراقيين من أهل السنة ، فرغ بسرعة من المعارضة المفككة التي كانت تحول بينه وبين بغداد . فعفا عن عمه إبراهيم ، ومنح عفوًا للمدينة المتمردة . . وبحركة أخرى لإصلاح حماقاته الماضية أخذ بنصيحة الطاهر وأعاد اللباس الرسمي إلى

(١) ذكر أن المأمون شخص من سرخس حتى صار إلى طوس ، فلما صار بها أقام عند غير أبيه أبيه . ثم إن علي بن موسى أكل عنبا فأكثر منه فمات غلة (الطبري ، تاريخ ، ج ٨ ، ص ٥٦٨) . — المترجم .

السواد . أجل بدا الآن أنه يعتزم تعويض العراقيين عن تجاهله إياهم طيلة السنوات الست الأخيرة . وتوج عودته بذلك النوع من المهرجان الفخم الذى كان البغداديون يحبونه كثيراً ، وذلك عند ما بُنى بابنة الوالى المعزول الحسن^(١) وسط مشهد من الأبهة والترف . ونثرت على عروس الخليفة وهى جالسة مع عريسها ألف درة كانت فى صينية من ذهب ، وكوفى الذين حضروا ولية الزفاف بينادق مسك فى كل منها رقعة باسم ضيعة وحصان سباق أو جارية جميلة . وكان المال ينثر كالورق الرفيع الذى ينشر فى الحفلات حتى كاد الناس المبهوتين والسكارى أن يتعبوا من حشو جيوبهم . من المؤكد أن المأمون عرف بخلفيته الفارسية كيف يبدو فى مظهر جديد حافظ عليه حتى نهاية عهده بعد ذلك بأربعة عشر عاما . كان فحماً حقاً — وليس فحسب كصاحب السيرك الذى عاد الآن إلى بغداد . فبعد أن تحول من متفرج على الأحداث إلى صانع لها ، راح الآن يحول العاصمة العباسية إلى مركز للثقافة والعلم ، يفوق ما عداه فى عالم يومه . فنجب عميق للفنون والعلوم . أصبح المأمون أعظم الخلفاء رعاية للشعر وعلوم الدين والفلسفة والتنجيم والفلك . كان يشجع ويستورد رجال العلم بغض النظر عن أجناسهم أو دياناتهم . فالنصارى والروم واليهود والمجوس — بل والصائبة الكفار ممن كان يُظن أن عبادتهم النجوم تجعل منهم خبراء فى الفلك ، هؤلاء جميعاً كانوا موضع الرعاية ومقربين حتى يعملوا على إثراء الخلافة بمعارفهم وقدرتهم الخلاقة . إن مجرى الثقافة الذى سبق أن صب فى اليونان من منابعه القديمة فى مصر وبابل وفينيقية وأرض الميعاد ، عاد الآن ليصب فى مناطق منابعه الأصلية ليعيد إليها الخصب والماء .

(١) مى بوران بنت الحسن بن سهل الذى اتخذه المأمون وزيراً بعد استقرار الأمر له فى بغداد . ووصف « المعزول » بغير إلى ما حدث من قبل هند ما أرغمه الهعب فى بغداد على الخروج منها . — المترجم .

وجرى تنقيح نظام التعليم العام بأسره وتحديثه . وكان حتى ذلك الحين قائماً كلية على المدارس الدينية في المساجد وحولها ، ومقصوراً إلى حد كبير على منهج أولى بالمعنى الدقيق يتكون من حفظ القرآن والكتابة وتقليل من الحساب البسيط ؛ وكان الرواد الأوائل من العرب في علوم الطب والسياسة العربيين يتلقون معونة يسيرة من الدولة أو لا يحصلون على شئ منها . كل ذلك تغير الآن ، ولم يعد الدين يوفر النظام الوحيد لتعليم رعايا الخليفة . فأنشئت أكاديميات التعليم العالي ، وأُسست مدرسة للشريعة والفقه ، وبنيت قاعة للعلم مزودة بمكتبة ومعمل ، وقدمت الأموال العامة إلى الكليات . وبذل مجهود ضخم لرفع المكانة الأدبية للخلافة . وجرى التنقيب في كل مكان عن مؤلفات الفلاسفة والرياضيين اليونان ، وعن المؤلفات الفارسية في الشعر والتاريخ ، ثم ترجمت هذه وغيرها من الكتب بالفارسية والسندسكربتية والسريانية إلى اللغة العربية على أيدي مجموعة من المترجمين أسكنوا « بيت الحكمة » وكانت عبارة عن دار للكتب وأكاديمية ومكتب ترجمة ، ويشرف عليها « شيخ المترجمين » وكان عربياً نصرانياً يدعى حنين بن اسحاق الذي ترجم بنفسه « جمهورية أفلاطون » ، وكتابي « المقولات » و « الطبيعة » لأرسطو ، ومؤلفات إقليدس ؛ وكوفي بما يعادل وزن مترجماته ذهباً .

أما عن الأدب العربي فلم يقتصر الأمر على تشجيع الشعراء والمؤرخين . والفقهاء على كتابة مجلدات طويلة ومتضعة في العلم ، بل وصُنفت مؤلفات في موضوعات خفية وغريبة كالتنويم المغناطيسي وابتلاع السيوف ومضغ الزجاج . وبالنسبة إلى النثر العربي الذي كان في الأصل يمتاز بالحكام السبك ودقة العبارة مما يناسب رجال الصحراء ، فإنه اكتسب الآن طابعاً من الجزالة الفارسية والأسلوب الرفيع والتعبير المزوق ؛ لم يفقده أبداً منذ ذلك الحين . كان هذا هو العصر الذهبي للإسلام ، لا من ناحية الحياة المترفة فحسب ،

ولكن أيضاً من حيث الإنجاز والتفوق الثقافي ، ذلك العصر الذى سوف يبنى العالم الإسلامى ويحافظ على تأثير فائق على الفكر العلمى والأدبى الغربى . ذلك أن الفلاسفة والأطباء وعلماء السيمياء والفلك والرياضيين والجغرافيين من أبناء الشرق العباسى وأسبانيا العربية ، هم الذين طوروا تراث مصر وفارس والهند الفلسفى والعلمى ووقفوا بينه وبين العالمين الدينية لعالم يخضع لسلطان واحد ، وبذلك خلقوا الصلة بين تعاليم أرسطو وجالينوس وإقليدس وأفلاطون من جهة وتفكير الأوربيين المحدثين من جهة أخرى . وإياه لمن المحزن القول بأن أقلية صغيرة من رعايا الخليفة العرب كانوا مزودين بالتعليم والمزاج بما يجعلهم يتولون القيادة فى عمل البحث والتفسير والترجمة ، الذى أحدث هذا الانفجار الفكرى الهائل والذى اضطلع به إلى حد كبير مسلمون من فارس ومن الأطراف النائية الشرقية والغربية للإمبراطورية . ولكن هكذا كان تصميم المولى منذ سنى الحكم الأموى ، على أن يقشروا وينشروا المعرفة بحيث لما بزغ عصر التحرير العباسى كانت عيون خزانات الماء كما لو أنها فتحت فجأة لتطلق سراح طوفان من التفكير الجديد والعلم الجديد ، على الحقول التى كانت تغنى من الجفاف العقلى فى الإمبراطورية .

ويعلق فيليب حتى فيقول إن « من المجداً الخالد للسلام فى العصور الوسطى أنه نجح لأول مرة فى تاريخ الفكر الإنسانى ، فى التنسيق والتوفيق بين الوجدانية التى هى أعظم إنجاز حققه العالم السامى القديم وبين الفلسفة اليونانية التى هى أعظم ما أنتجها العالم الهندى / الأوروبى القديم ، وبذلك قاد أوروبا المسيحية نحو وجهة النظر الحديثة » . ويضيف حتى فى موضع لاحق « بالنسبة إلى المفكرين الإسلاميين كان أرسطو هو الحق ، وكان أفلاطون هو الحق ، وكان القرآن هو الحق ، ولكن الحق يجب أن يكون واحداً . ومن هنا نشأت الحاجة إلى التوفيق بين الثلاثة ، وأكبوا على أداء هذه المهمة » .

كان أبو علي الحسين بن سينا أعظم هؤلاء المنسقين جميعاً وواحداً من أعظم الفلاسفة ذوى المواهب المتنوعة فى عصر العباسيين الذهبى . كان ابن سينا فارسياً من أهل بخارى ، ظفر لنفسه بلقب « شيخ الحكماء » . وكان عالماً وافر التحصيل فى شبابه ، وبدأ حياته العملية فى نهاية القرن العاشر بأن شفى سلطان بخارى الذى منح طبيبه الشاب حرية استخدام مكتبته المليئة بالمؤلفات ، اعترافاً بالخدمة التى أداها . ولما بلغ ابن سينا الحادية والعشرين من عمره كان قد قرأ جميع كتب مولاه وبدأ يكتب لنفسه . وقبل وفاته فى أواخر الخمسينات من عمره كان قد أكمل ما يقرب من مائة مؤلف شملت موضوعات متنوعة مثل : الفلسفة ، والطب ، والفن ، والشعر ، والهندسة ، والفلك ، والموسيقى وعلوم الدين . فتحت تأثير أفلاطون وأرسطو كتب بصورة مستمرة تقريباً ، موسوعات فى الفلسفة والعلم . وجمع ونسق تفكير اليونان والعرب الطبي وأبحاثهم ، وابتدع نظريات جديدة لعلاج أمراض معدية عديدة . وعلى غرار كتب جابر والرازى ترجمت هذه المؤلفات إلى اللاتينية ، وظلت حتى القرن السابع عشر المرشد الرئيسى لعلماء الطب فى الغرب . وكما كتب السير وليم أوزلر فى كتابه « تطور الطب الحديث » ظلت أبحاث ابن سينا إنجيلاً طبياً لفترة أطول من أى مؤلف آخر . أما عن إسهامه فى عالم العباسيين العربى والفارسى فيمكن القول بحق أنه عمل أكثر من أى فيلسوف أو كاتب آخر فى التاريخ ، من أجل تفسير معارف وعلم اليونان لعالم الإسلام . والحقيقة أن العمل الذى قام به ابن سينا بشكل قوس قزح العبور التى بناها المسلمون لتربط ثقافات اليونان القديمة وأوروبا الحديثة .

ولكن إذا كان ابن سينا أعظم الفلاسفة الذين ساعدوا على التنسيق بين أرسطو وأفلاطون والقرآن ، فهو لم يكن الوحيد ، وبالتأكيد لم يكن الأول . قبله بقرن ولد يعقوب بن اسحاق الكندى من أصل عربى بحث فى الكوفة ،

وعلى غرار ابن سينا برهن على أنه أكثر من فيلسوف . فإذراح ينقب في علوم التنجيم والهندسة والسيماياء وطب العيون والموسيقى ، كتب أكثر من مائتين وخمسين كتاباً ترجم الكثير منها إلى اللاتينية . وكان لنظرياته الهندسية المبنية على المناهج الرياضية اليونانية ، تأثيرها على روجر بيكون ، ومؤلفانه في الموسيقى وهي تبين أيضاً مؤثرات يونانية ؛ ارتادت ميدانا جديداً . ومن معاصريه القريبى العهد منه محمد بن طرخان الفارابى من بلاد ما وراء النهر ، الذى طور نظريات أفلاطون وأرسطو السياسية والفلسفية وطبقها على الحياة العربية . كان الفارابى متنوع المواهب مثل الكندى ، وصنف كتباً فى الطب والموسيقى والرياضيات . وكان عازفاً ممتازاً على العود الذى قيل إنه كان يستطيع به أن يبعث الدمع فى عيون المستمعين أو أن يجعلهم ينفجرون من الضحك أو ينومهم .

وامتازت خلافة المأمون إلى حد كبير أيضاً بالتقدم فى الرياضة . والحق ، لعل أبقى وأهم ما أسهم به العرب فى العلم الغربى كان إدخال الأرقام والأعداد الإفرنجية الشائعة الآن ، وكان ذلك على أيدى محمد بن موسى الخوارزمى أعظم الرياضيين المعاصرين ، فضلاً عن كونه عالماً نابهاً فى الفلك . ولد الخوارزمى كما يدل اسمه فى خوارزم فى وادى نهر جيحون عام ٧٨٠ ، وإليه ينسب أقدم مؤلفات معروفة عن علمى الحساب والجبر . وكانت هذه المؤلفات تستخدم مراجع نمطية فى مجالها ، فى أوروبا حتى القرن السادس عشر ، وعن طريقها حصلت الأخيرة على نظام الأرقام والأعداد الإفرنجية الشائعة الآن ، وهو النظام المقتبس فى الأصل من النظم الحسابية الهندية كما حصلت على علم الجبر من المسلم به أن التحول إلى الأرقام الإفرنجية ، كان عملية بطيئة ؛ فحتى القرن الثالث عشر كان علماء الرياضيات الأوربيون ما يزالون يستخدمون الأرقام الرومانية القديمة المعقدة . ولكن بمجرد إدخال الأرقام الإفرنجية على يد (م ١٢ — العرب)

الإيطالي ايموناردو فيبوناثشي الذي درس في شمال أفريقيا على معلم مسلم ، تعلقوا بالنظام الافرنجى. وحدث التقدم فى الحساب الرياضى الذى لو ظلت الأرقام والأعداد الرومانية سائدة ، لكان مستحيلا . (يكفى أن تُفكر فى ضرب Mdcclxiii فى Gdcclxix) ومن تأثروا بالخوارزمى نذكر عمر الخيام الذى تمكن شهرته فى الشعر ، ولكنه كان أيضا رياضيا على درجة عالمية من المهوق .

وحقق علم الفلك البعض من أهم خطواته فى القرن التاسع ، تمت رعاية العبّاسيين ، كما حدث الشيء ذاته فى علم الجغرافيا . هنا أيضا كانت المؤثرات اليونانية بارزة ، وكانت المعدات المخطية بما فيها الأسطرلاب ، مبنية على النماذج اليونانية . وأجريت حسابات دقيقة بصورة رائعة ، لحجم وقطر الكرة الأرضية التى أصر الفلاسكيون المسلمون على أنها مستديرة . هذا وغيره من الأعمال العربية ترجم فى الوقت المناسب إلى اللاتينية على أيدى أديلارد البائى الذى ترجم أيضا مؤلف الخوارزمى عن الطريقة الهندية فى الحساب ونظام الأرقام والأعداد الهندية .

ويعزو علم الجغرافيا تقدمه إلى الإهتمام بالأراضى الأجنبية الذى أثاره التجار والملاحون العرب ، وإلى عظم مساحة الإمبراطورية العربية نفسها . كان هناك طلب كبير على مؤلفات بطليموس ، وترجمها السكندى وغيره إلى العربية فى القرن التاسع . واستخدم الخوارزمى هذه المادة لإجراء أبحاثه ، وأخرج بدوره مؤلفه الجغرافى « وجه الأرض » الذى أفاد كأساس قامت عليه الأبحاث فيما بعد . وبخلاف هذه الخرائط والكتب المسكرة كانت المعرفة الجغرافية مقصورة فى أول الأمر ، وإلى حد كبير ، على أوصاف وتوضيحات لمناطق وأشياء قريبة الشبه نوعا بكتب الدليل السياحية الحديثة . ولكن بمرور الوقت تقدمت الجغرافية الأدبية ، وبابتداء القرن الثالث عشر كان فى إمكان العبّاسيين

أن يدسوا أنهم أخرجوا واحداً من أعظم الجغرافيين في كافة العصور ، هو
ياقوت بن عبد الله الحموي ، وأصله رومي بدأ حينه عبداً بالشام ، وكان منحه
الجغرافى الذى أتمه فى عام ١٢٢٨ أعظم الموسوعات فى كافة العصور . شق ياقوت
ميداناً جديداً بهذا المؤلف الذى لم يتضمن جميع المعرفة الجغرافية الموجودة فى
ولكنه أضاع معلومات جديدة عن تاريخ البلاد التى غطاها وعن أصولها
السلامية .

وقدر للخلافة العباسية أيضاً أن تبدأ تقاماً ملتصقة للنظر فى فن كتابته التاريخ.
فبدأ بالقرن التاسع بأبى جعفر الطبرى ، تـكـوّن جبل عظيم من المؤرخين
الإسلاميين استمر سبعمائة عام حتى الفتح العثمانى فى القرن السادس عشر . إن
الطبرى الذى يحمل منه التقليد أعظم هؤلاء المؤرخين جميعاً ، ولد عام ٨٣٨ فى
طبرستان الواقعة جنوبى بحر الخرز . وإليه يرجع الفضل فى وضع أول تاريخ
شامل عام فى اللغة العربية ، وهو « تاريخ الرسل والملوك » الذى بدأ بخلق
العالم واستمر حتى عام ٩١٥ . ويقال إن الطبرى وهو عالم غزير الإنتاج ، متفانٍ
فى العمل ، كان يكتب أربعين فرخاً من الورق فى اليوم طيلة الأربعين عاماً التى
استغرقها إتمام هذا العمل الضخم ، وإنه باع أحكام قيصه ليشتري الطعام لرحلاته
التي قام بها بحثاً عن المصادر التى يستمد منها مادته ، وهى رحلات سارت به
إلى أبعد أركان العراق وفارس والشام ومصر^(١) .

وتلاه من حيث الترتيب الزمنى أبو الحسن المسعودى من مواطنى بغداد
وكانوا يطلقون عليه اسم « هيرودوت العرب » . كان مؤلف المسعودى الذى
أخرجه فى القرن العاشر بعنوان « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ينقب
فى التاريخ الإسلامى واليهودى والرومانى والهندي ، وأكد الزعم الهام عن

(١) راجع الفصل الذى عقدناه عن الطبرى فى كتابنا « قادة الفكر الإسلامى فى
نزه الفكر الحديث » ، طبعة القاهرة — المترجم .

أنه عند الخليفة كان البحر يابسة وكانت اليابسة بحراً . كذلك اتخذ المسعودي تكتيكاً جديداً لكتابة التاريخ ، خاصاً بسير الأشخاص . فبدلاً من تسجيل الأحداث حسب الترتيب الزمني على نحو ما فعل الطبرى ، جمع هذه الأحداث حول الأسرة الحاكمة والشخصيات . وبعد ذلك بقرنين جاء عز الدين بن الأثير الذى نلخص فى كتابه الشير « الكامل فى التاريخ » المؤلف التاريخى الكبير الذى وضعه الطبرى ثم سار بالأحداث لتغطى فترة الحروب الصليبية . وفى القرن الثالث عشر أصبح أحمد بن محمد بن خلكان ، وهو من سلالة بحيسى البرمكى وزير هارون الرشيد ، أول مسلم يؤلف معجماً يضم تراجم الشخصيات القومية^(١) وأعقبه بعد سقوط الخلافة العباسية أبو الفداء الذى ينتمى إلى أسرة صلاح الدين ، فتلخص بدوره تاريخ ابن الأثير ثم سار به حتى وقت وفاته فى عام ١٣٣٢ . وكألو أن الأمر كان من قبيل توافق الظروف ، شهد العام نفسه فى تونس مولد آخر المؤرخين العرب العظام وهو عبد الرحمن ابن خلدون .^(٢)

كان ابن خلدون إبناً لأسرة عربية أسبانية هاجرت فى الأصل فى القرن التاسع ، من الين إلى أسبانيا ؛ وبدأ حياته موظفاً حكومياً فى عهد سلطان غرناطة فى سنة ١٣٦١ بعد القضاء على الخلافة الأموية فى أسبانيا بأكثر من ثلاثمائة عام . ولكن عندما أثارت صداقته مع السلطان غيرة الوزير القوى الذى لا يرضى الضمير ، انسحب إلى الجزائر حيث بدأ فى إعداد تاريخ فلسفى للعرب والفرس والبربر ، وهو مؤلف من مجلدات ثلاثة أشهرها الأول وهو « المقدمة » . فى هذا العمل الكبير شق ابن خلدون أرضاً جديدة تماماً بأن

(١) « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلصان المولود فى سنة ٦٠٨ ، والمتوفى فى سنة ٦٨١ من الهجرة . — المترجم .
 (٢) راجع ما كتبناه عنه فى كتابنا « قادة الفكر الإسلامى » ، مصدر سابق . — المترجم .

قام بدراسة سوسيولوجية للتطورات التاريخية ، ربطت مؤثرات من قبيل المناخ والجغرافية وكذلك الدين والسياسة ، بسلوك وردود أفعال العرب وبنمو إمبراطوريتهم واضمحلالها .

كان ابن خلدون ، شأنه شأن الطبري ، رحالة نشيطاً . وفي عام ١٣٨٢ ، وفي سبيل البحث عن مادة لمؤلفه الضخم ، شخص إلى مصر حيث أصبح أولاً مدرساً في الأزهر ثم عينه السلطان المملوكي قاضي قضاة القاهرة . وبعد سنوات قلائل صحب الجيش المملوكي الذي خرج إلى الشام لقتال المغول ، ويقال إن الزعيم المغولي تيمور لنگ ، استقبله باعتباره رسولا من قبل المماليك . هذا اللقاء الغريب لم يكن بالنسبة إلى ابن خلدون سوى تجربة أخرى عن العلاقات البشرية يختم بها دراسته السوسيولوجية الكبرى التي لا تزال بلا منافس حتى اليوم ، كمرشد فلسفي ، وكرسالة عن طبيعة الجنس العربي وخالقه ومزاجه .

هكذا كانت معالم العصر الإسلامي البارزة وهو العصر الذي بدأ في أوائل العصر العباسي ، وكان مبعث الإلهام للثورة العلمية بأوروبا القرن السابع عشر . وما من حاكم عربي فعل أكثر من الخليفة المأمون لتشجيع وتنمية نواحي التقدم الثقافي هذه . وكإسهام شخصي من جانب هذا الإبن من أبناء هارون الرشيد ، فإنه استهل في بلاطه عصرًا من النقاش المستنير لم يشهد أو يسمح به أبداً من قبل . ذلك أن المأمون كان ليبرالياً في الفكر بمثل ما كان كريماً في الإنفاق ، ولم يكن ليحب شيئاً أكثر من أن يجادل العلماء علناً حول أقدس وأدق المسائل الخلافية في الدين في بلاطه في قصر جعفر السابق . هذه المناقشات التي أجريت عمداً مع الفقهاء وعلماء الدين من جميع المدارس الفكرية من أشدها تطرفاً في السنية إلى الزندقة تماماً ، قادت إلى الاعتقاد بخلق القرآن وذلك على خلاف التعليم التقليدي . أما أن الله « أوحى » به وأنزله فهذا

ما سلم به بسهولة ، ولكنه لم يستطع ولم يكن ليسهم في الفكرة الخفية التي تذهب إلى أن القرآن كان كلمة الله « غير المخلوقة » أنزلت من السماء عن طريق رئيس الملائكة جبريل . وانطلاقاً من هذا أعلن المأمون المذهب الضال بالمثل الذى عن طريقه خفف أو آخر خلفاء بنى أمية وبصورة قاتلة من قبضتهم التنظيمية على جيوشهم : هذا المذهب هو أن الحياة ليست مقدرة من قبل وأن الإنسان وهب إرادة حرة ويباح له أمام الله أن يفعل ما يشاء ، وأخيراً أكد أنه ليس هناك قوانين لا تتبدل تحكم العالم ، وأن كل شيء وحتى القرآن نفسه يخضع للتغيير .

في أول الأمر طبق المأمون ما بشر به بصدد الحرية الدينية ولكن سرعان ما أصبح الأكثر سلبية من رعاياه ، من العنف في معارضتهم ضلالاته بحيث اضطر إلى مقابلة العنف بالعنف ، وإلى أن يفرض مذهبه المتحرر على الخلافة ، بأن هدد الذين يقاومونه ، بالحرمان من المناصب أو الممتلكات أو حتى من الحياة . واذ كان السلفيون يطاردون ويؤتق بهم قسراً أمام محكمة تفتيش الخليفة ، وبنفس الحماس المتقدم الذى كان يستخدم من قبل ضد أهل الكفر ، فسرعان ما أدرك المأمون الحقيقة الساخرة التي اضطر إلى مواجهتها الكثير من « المحررين » في الأزمنة الحديثة ، وهي أن التحرير غالباً ما يحتوى بذور طغيانه هو . وإن الخطاب الذى ألقاه عند ما تحداه بعض مشايخ أهل السنة أن بقرر ما إذا كان قد جلس على العرش عن طريق الرضا من جانب المؤمنين الصادقين أو أنه تولى العرش بطريق العنف ، هذا الخطاب يحمل نفمة حديثة مألوفة ، وفيه تحداهم بأنه في اللحظة التي ينتخبون فيها سواء فسوف يتنازل على العرش . لم ينتخبوا رئيساً . ولم يتنازل المأمون عن الخلافة . وحين مات في سن الثامنة والأربعين ، بحمى التيفود ، كان قد سحق الثورات في مصر وكرديستان ، وأمن حدود الإمبراطورية مع بيزنطة ، وعموماً قضى على جميع أعدائه وأعاد

نعم السلام والرخاء . ولكن بينما أمّبت أنه ليس بالإدارى الضعيف ، وقام بنصيبه فى حفر الترع وتجفيف المستنقعات ورى الصحراء ، فالشئ الذى سوف يذكر به هو أنه راعى الفنون والعلوم المتفوق بين العرب . فهو الذى أشرف على أضخم يقظة فكرية فى تاريخ الاسلام ووجهها ، وعلى واحدة من أهم اليقظات الفكرية فى التاريخ كله . قد يذكر الناس هارون الرشيد بسبب روعة وأبهة « ألف ليلة وليلة » . ولكن يحدثنا الشعالي أن عصر التفوق العباسى استمّله أبو جعفر ، ونضج وأثمر تماماً فى عهد المأمون . إلى هذا المزيج الرائع من الدم العربى والفارسى يجب أن يذهب الفضل الرئيسى فى تحويل بغداد من كوم من الأنقاض إلى مركز للثقافة والعلم فضلاً عن الترف ، فى العالم فى وقت لم يسكن فى استطاعة زعماء أوروبا حتى أن يكتبوا أسماءهم . ومن المفجع أنه لم يمر على موت المأمون أقل من سبعين سنة ، حتى كان تفوق العباسيين السياسى قد انتهى ، وراحت الخلافة تسير مرة أخرى فى طريق الإنحلال .

القسم الثالث التفكير والإنحلال

(١٤)

مصر تنفصل عن الخلافة

من أخطر الأخطاء المميتة التي ارتكبها العباسيون ، تخفيف قبضتهم على أطراف الإمبراطورية . فعلى خلاف بنى أمية كانوا أكثر اهتماماً بإثراء مركز الخلافة وتجميله منهم بفرض حكمهم في كافة أرجائها ، وهو اتجاه من التفكير كان لابد أن يشجع الولايات البعيدة على طرح نيرهم ولعل أباجعفر كان مصيباً إذ لم يدخل في معارك كثيرة جسداً مع الأمويين في أسبانيا ؛ ولكن كما أظهر الأدارسة في مراکش فسرعان ما أعطى تحدى عبد الرحمن لبغداد ، ولالة الأقاليم الآخرين بعض الأفكار الخطرة . ففي عام ٨٠١ حذت تونس في ظل عاملها إبراهيم بن الأغلب حذو أسبانيا . كان ابن الأغلب قد عينه هارون الرشيد في العام السابق ، فأسس على الفور إمارة مستقلة هناك ، وبإحساس تام بأنه في مأمن من أى عقاب ، أغفل أوامر مولاه عند ما كان ذلك يناسب أغراضه . فضرب عملة خاصة به وحرص على عدم وضع اسم الخليفة عليها . وخلال السنوات المائة التالية فرض خلفاؤه حكمهم كاملاً من عاصمتهم القيروان حيث في موضع المسجد الأصلي الذي أقامه عقبة بن نافع أول من فتح شمال أفريقيا من العرب ومؤسس القيروان ، بنوا المسجد الكبير الذي لا يزال حتى اليوم شاهداً على من كانوا أول من جعل تونس أمة مستقلة ، وأعطوا القيروان حقها في أن تكون بالنسبة إلى المسلمين الغربيين رابع مدينة مقدسة في الإسلام ، بعد مكة والمدينة وبيت المقدس . ولقد بلغ من تفوق وتسلط نفوذ الأغلبية في القرن التاسع أن تمسكوا من أن يحتشوا من

أفريقية كل ما تبقى من آثار اللغة اللاتينية والديانة المسيحية ، وأحلوا مكانها العقيدة الإسلامية التي بقيت لا يتحداها سوى الزنادقة المارقون .

وإذ لم يقنع الأغلبة بتأكيد استقلالهم عن بغداد وبالقضاء على النفوذ اللاتيني في شمال أفريقية ، عبروا البحر المتوسط وغزوا صقلية عام ٨٢٧ وكانت من ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية . فكان هذا أول تأكيد كبير لقوة العرب البحرية التي كانت تعظم بإطراد منذ فتح مصر وما تلا من تدمير أسطول الروم . إن ضروب النجاح الأخرى الماثلة من قبيل الإستيلاء على قبرص ، وغزو أسبانيا ، واحتلال جزر البليار ، بالإضافة إلى الغارات التي كان يشنها القرصان العرب والبربر من وقت لآخر على صقلية وكورسيكا وسردينيا ، هذه النجاحات ساعدت العرب في التغلب على خوفهم من البحر ، وراح الأغلبة في جسارة ، يبنون أسطولا مسلحا تسليحا جيدا ليمدوا سلطانهم إلى أوروبا . وهكذا عندما وصلت دعوة في عام ٨٢٧ من بعض الثوار في صقلية يطلبون المساعدة ضد التسلط الرومي ، استجاب الأمير الأغابي وبعث بأسطول من سبعين سفينة وجيش من عشرة آلاف مقاتل نزلوا على البر الغربي من الجزيرة . وفي عام ٨٣١ كان قد تم الاستيلاء على بالرمو ، وسقطت مسينا بعد ذلك باثنتي عشرة سنة . وبينما كان الغزو العربي ينتشر ببطء عبر الجزيرة أغار الأغلبة على سواحل إيطاليا واستولوا على باري وهددوا نابلي وروما ، بحيث أنه لفترة عامين أحس البابا بالفعل أنه مضطر إلى أداء الجزية . وفي عام ٨٦٩ استولى الأغلبة على مالطة ، ثم أتموا في عام ٩٠٢ فتح صقلية التي أصبحت جزءاً من العالم العربي طيلة مائة وتسع وثمانين سنة بعد ذلك .

لم يكن للمرة الأولى أن تحاول أسرة من المنشقين توسيع حدود الإمبراطورية العربية في وقت كانت السيطرة في المركز آخذة في الضعف .

ولكن بينما انفصل الأمويون في أسبانيا عند ما كان العباسيون يبدأون عصرهم الذهبي ، كانت الخلافة قد أخذت في الواقع تتفكك من الداخل عندما ابتلع الأغلبة صقلية . ومن المفارقات أن السبب في هذا الإنهيار الداخلي كان هو نفس العامل الذي سبق أن قدم أكبر إسهام في قيام العصر الذهبي العباسي — غلبة المؤثرات الخارجية على الفكر والعمل العربي ، وبهذا التفوق العنصرى العربى الذى حاول عمر الإبقاء عليه . كانت عملية المزج العنصرى هذه تسير في طريقها منذ الفتوح الكبرى في العصر الأموى . فبسبب ما قضى النبي من أن النساء اللاتي يؤسرن من الكفار ، يصبحن ملك يمين ، فإن الألوف من النساء والفتيات من الشرق والغرب — من التوقاز حتى جبال أطلس ، ومن جبال هندوكوش إلى البرانس — جرى استيرادهن ليملأن حريم الأجيال المتعاقبة من الفاتحين العرب . وأى من هؤلاء النسوة يلدن ذكوراً لساتنهم يرتفعن إلى مرتبة النساء الأحرار ويُقبَلن أبناؤهن كعرب أصليين . ومن هنا كانت كلمات الحزن التي نذب فيها الشاعر العربى تلوث الدم العربى الصرف ، حيث أبدى الأسف لكثرة عدد الحظيات ودعا الله أن يهدى خطاه إلى أرض لا يرى فيها أولاد الجرام .

وهكذا ، حتى في أزمنة الأمويين ، كانت فكرة وجود أرسقراطية عسكرية عربية ، قد تضاعف بالتدريج كونها حقيقة . طُرحت جانباً الآن جميع المزاعم عن وجود تفوق عربى . وحتى في مسألة وراثة الخلافة لم يعبأ العباسيون بالدم العربى . فلم يقف الأمر عند حد أن هارون والمأمون كانا نصف فارسيين بل إن من السبعة والثلاثين الذين جاءوا بعد العباس ، كان أربعة وثلاثون أولاد جوارٍ من الأعاجم أو الأتراك ، ولم يولد من أصل عربى شرعى سوى أبو العباس نفسه والد هارون وكذلك الأمين بن هارون . وسيطرت المؤثرات اليونانية والفارسية على الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية في بغداد ،

وانتهجى التأثير العربى مكانا خلفيا . ولما كانت الحكومة يدير شئونها وزراء من الفرس ، والأقاليم يقولونها عمال من أصل فارسى ، أصبح حرس الخليفة وجيشه مليونين بأبناء خراسان . أما الجند من رجال الفباطل العربية ممن استبعدوا باعتبارهم جماعة نفقة إلى النظام وتعجز عن الدخول فى معركة فاصلة ضد قوات مدربة أو عن استعادته صف لم ذات مرة^(١) ، تقول إن هؤلاء الجند هبطوا إلى نوع من « الميليشيا الإقامية » لا يستعدون إلا لاء صفوف قوه بيه ش بها فى الحملات يغلب عليها العنصر الفارسى أو التركى .

اللغة العربية هى ومدها التى حافظت على مواقعها خلال السنوات الحماثة التى امتد إليها عمر الخلافة العباسية . فمن لغة للشعر فحسب فى عصر الجاهلية ، والمدين فى زمن محمد ، أصبحت أداة للتعبير عن أفكار العلم والفلسفة ، ولغة الدبلوماسية ، من آسيا الوسطى إلى أسبانيا . ولكن اللغة لم تسكن كافية لمساندة الخلافة ضد تلك المؤثرات الأجنبية التى راحت تعمل الآن للسيطرة على الخلافة .

وبتولى المعتصم وهو أخ المأمون وخلفه المباشر ، أخذ النفوذ الفارسى يخلى مكانه للنفوذ التركى . كانت أم الخليفة الجديد أمة من التركان ضمها حريم هارون وكان المعتصم خلال حياته يفضل أن يتحدث بلغتها واتخذ عادات جنسها . ولما كان لا يثق فى الفرس والعرب على السواء استبدل الحرس الخراسانى بضباط وجنود من التركان . هذه الواردات الجديدة وتدعى أحيانا « المالميك » ومفردها العربى « مملوك » ، جاءت فى الأغلب من القوقاز وتركستان وفوغانة وغيرها من أجزاء آسيا الوسطى حيث أسروا هم أو أهلهم فى أثناء

(١) لعل أكبر دليل ينفي هذه الصفات عن العرب من أبناء شبه الجزيرة أنهم هم الذين حطموا الدولتين البيزنطية والفارسية ، واشتبكوا فى العديد من المعارك الفاصلة ضد قوات نفوذهم فى العدد والعدة . — المترجم .

فتوح الأمويين . وكان يؤتى بالآلوف منهم كل عام إلى العراق ومصر وأجزاء أخرى من الإمبراطورية ؛ ولما كانوا لم يدربوا إلا على فن الحرب فإن هؤلاء المجاهدين الأشداء ذوى النزعة المدوانية ، ارتقوا بسرعة في صفوف جيش الخليفة .

وقبل نهاية عهد المعتصم في عام ٨٤٢ كان الأتراك قد تولوا قيادته الجيش ولهم سيطرة كاملة على الخليفة بالفعل . مثل هذه القوة أدارت رؤوسهم ، وبدأ الجند الأتراك يتصرفون في شوارع بغداد كالباطنية ، يضربون الناس ويشتمون المارة لمجرد التلذذ بالإساءة إليهم وإذلالهم . وعندما لم يعنفهم الخليفة اتعد المواطنون للدفاع عن أنفسهم . ولكن المعتصم لم يكن ليقبل الإساءة إلى رجاله من الأتراك ، فنقل على الفور مقر حكمه مع حرسه الوحش إلى سامرا الواقعة شرقي دجلة حيث بنى عاصمة جديدة . وعاقب البغداديين التمساء ففرض عليهم الضرائب لتغطية تكاليف البناء .

كانت هذه حركة سيئة الطالع على ما أثبتت الأحداث ، إذ كان تأثيرها الرئيسي وضع الخليفة تماماً تحت رحمة ضباطه الأتراك وزيادة إبعاده عن تأثير الرأي العام . ربما لم يكن المعتصم الذي يجري في عروقه الدم التركي ، ليعترض على هذا ، ولكن بالنسبة إلى الخلفاء الثمانية الذين سوف يقيمون في سامرا بعده خلال السنوات الثماني والخمسين التالية ، أصبحت العاصمة الجديدة لا تزيد على كونها سجنًا لا يُسمح لهم فيه بالبقاء على قيد الحياة إلا طاملاً أطاعوا سبائهم الأتراك . وبحلول النصف الأخير من القرن كانوا قد فقدوا كل سيطرة على الخلافة . أصبح الحرس التركي هو الحاكم الأعلى ، يصنع الخلفاء ويعزلهم حسب أهوائه ونزواته ، ويقتل ويسجن من يرفض منهم تنفيذ أوامره أو يحاول الفرار من قبضته .

ولكن إذا كان الأتراك تمكنوا من السيطرة على الخلفاء في سامرا ،

فقد كانوا أقل نجاحاً مع الأقاليم الممتدة إلى ما وراءها . فبعد موت المعتصم إهتزت دعائم الإمبراطورية بفعل سلسلة من ثورات متعاقبة في فلسطين وبلاد العرب ومصر وفارس وأرمينية ، وحتى تحت أنوفهم في العراق . فالأقاليم لم تشارك الخليفة حبه الشديد للماليك الأتراك الذين كانت تعتبرهم جنساً أجنبياً من العبيد ينبغي إبقاؤهم في المعسكرات تحت نظام صارم ودقيق . وعلاوة على هذا ، كان نظام حكم الأقاليم يسمح بقدر وافر من الاستقلال الذاتي المحلي في المناطق البعيدة عن مقر الخلافة . حقيقة كانت عواصم الأقاليم يربطها ببغداد بريد الحمام الزاجل وشبكات من الطرق الرئيسية أنشئت لأسباب استراتيجية ، وصحيح أيضاً أن جيوش الخليفة كانت تشتهر بخفة الحركة وسرعة الانتقال (ربما كانت كذلك لأن أرزاق الفرسان كانت ضعف أرزاق المشاة !) .

ولسكن برغم جميع هذه العوامل المساعدة للاتصال ، ظلت سيطرة بغداد بعيدة . ولما أصبحت الولاية على الأقاليم وراثية زاد تحدى ولايتها للعاصمة . وبدأت عدوى نجاح انفصال الأغلبية في تونس تنتقل إلى مصر ، وانفصل حاكم سجستان بشرق فارس عن الخلافة في عهد المعتز سنة ٨٦٩ .

في محاولة لوقف هذا الاتجاه الخطر بعث الأتراك بأحدهم إلى مصر ، ممثلاً لحاكمهم الإسمي الذي بقي في سامرا . كان أحمد بن طولون اسم هذا الإبن من أبناء عبد مملوكي سابق من أهل فرغانة ، كان عامل بخارى قد أهدها إلى المأمون . وتربى الإبن في بلاط الخليفة ليتعلم مهنة الحرب ، برز شأن ابن طولون لأول مرة في عام ٨٦٦ عند ما حاول الخليفة المستعين الفرار من سامرا إلى بغداد . ولكي يستدرجه الأتراك من مخبئه عرضوا عليه الأمان ليقوجه إلى المدينة ، فلما خرج اقتادوه إلى بيت قاتل أجير في واسط ، وهناك قتل . كان القاتل هو ابن طولون ، ومكافأة له على هذه الخدمة الدموية

التي أداها لرؤسائه ، ظفر بالترقية ، وُبعث به إلى مصر لتهدئتها ، على رأس قوة تركية كبيرة .

وبينما كان ابن طولون مشغولاً بهذه المهمة وقع انفجار كبير في العراق نفسه . كان هذا هو ما يعرف باسم ثورة الزنج (من الكلمة الفارسية « زنج » ومعناها « حبشى ») التي قام بها الزوج الأحباش ممن يشتغلون في مناجم نترات البوتاس في دلتا الفرات . كان زعيم الثورة فارسياً طريداً القانون ، زعم أنه من نسل علي بن أبي طالب . وكان من قوة السخط في العراق على الخلافة وسادتها من الأتراك ، أن استولى الزنج في ظوف عامين على البصرة وجميع الدلتا . وراحوا ينتشرون في كافة الجهات ، فاستولوا على واسط والبحرين ثم غزوا فارس . هذه العصبية من الزنج ، غير الهيابة ، وتحركها مذاهب مستمدة من مبدأ الخوارج الجمهوري ، بثت الخوف في الخلافة طيلة أربعة عشر عاماً ، وهزمت الجيوش التي سيرت ضدها ، الواحد بعد الآخر ، وأخذت الآلاف من الأسرى رهائن عندها . وأخيراً في عام ٨٨٣ ، بعد أن تقلصت قوتهم نتيجة انشقاق أفرادها ، قتل زعيمها وتحطمت الحركة .

إن الجحود الذي بذل في سحق هذه الثورة التي بلغ عدد ضحاياها نصف المليون من الأنفس فيما يقال ، أدى إلى نفاذ خزائن سامراء . وإذ كان المعتمد يذكر مصير أخيه المعتز الذي خلعه الأتراك بسبب عدم دفع رواب الجيش الذي أرسل إلى سجستان ، أمر الأقاليم بتقديم المعونة المالية . فدفعت كلها عدا مصر حيث استقر رأى ابن طولون الآن على أن يستفيد من ضعف الخلافة ليقطع مملكة لنفسه . هذا التحدى من جانبه يشير إلى نقطة تحول في علاقة مصر بالبلاد العربية الأخرى . فلو استثنينا عودة قصيرة إلى حظيرة بني العباس في مستهل القرن العاشر ، فإن مصر أصبحت من الآن فصاعداً دولة مستقلة بالفعل ، وظلت كذلك إلى أن وضعت الامبراطورية العثمانية بعد ذلك (١٣ م — العرب)

بستمائة عام ، نهاية للاستقلال الداخلى فى العالم العربى .

إن التماثل بين تحدى ابن طولون للخلافة وبين إعلان محمد على استقلال مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، أمر مثير للاهتمام جداً . فعلى غرار محمد على فيما بعد ، كان ابن طولون من رواد النزعة الانفصالية المصرية وإن لم يسكن هو نفسه مصرياً . فأنشأ جيشاً كبيراً حقق به استقلال مصر أولاً ، ثم عمل على أن يظفر بالسيادة على الإمبراطورية وعلى ساداته السابقين . ومرة أخرى وكما فعل محمد على فيما بعد ، عمل ابن طولون على تهدئة شكوك ساداته بأن عاونهم فى طرد قوى الغزو الخارجية ، ثم استولى على الأرض التى حررتها قواته . وفى النهاية ، تجاوز كل من هذين المغامرين حدود قوته ، فأجبرا على التخلي عن فتوحهما والانسحاب إلى القاعدة المصرية التى بدأ كل منها .

كان أول عمل قام به ابن طولون كحاكم مصر المستقل ، تنظيم جيش من ١٠٠.٠٠٠ من الأتراك والعبيد الزنوج ، فرض عليهم أن يقيموا يمين الولاء له شخصياً . ثم ، بينما كانت جيوش الخليفة تلعق جراحها التى سببتها ثورة الزنج ، استغل غزواً رومياً للشام فعرض أن يبعث قوات لتزود عن ممتلكات الخليفة . لقي العرض قبولا ، وعندئذ شخص ابن طولون من الفسطاط على رأس جيشه مخافاً ابنه ليمتولى أمر مصر . كانت مقاومة الروم يسيرة ، وتم تطهير الشام من الغزاة بغير صعوبة . ثم ، وبالتظاهر بأنه يتعقب العدو إلى أرض الروم ، تقدم كى يستولى على الموصل . ولكن قبل أن يصل إلى هدفه وردت الأنباء بأن ابنه خرج من الفسطاط وهاجم الأدارسة فى تونس ، فى محاولة كسب نصر لنفسه . ولما لم تسكن للصبي قوات كافية أصيب بهزيمة بالغة ، وارتد تماماً فى الوقت الذى رجع فيه أبوه إلى مصر ليعالج الموقف ومن أجل تلقين الصبي درساً أمر والده بجلده ، وجعله يأمر شخصياً بتقطيع الذى شجعوه فى هذه الحفاقة إرباً .

في هذه الأثناء كان جيش ابن طولون قد زحف يستولى على الموصل ،
وصمم الوالى الشاب الطموح ، وقد أصبح الآن سيد مصر والشام وشمال العراق
على القبض على الخليفة وإحضاره إلى مصر . لم يقنع بما ظفربه ، فأراد أن يحكم
الإمبراطورية كلها بتأييد من سلطان الخليفة . وعلى ذلك دعى المعتمد إلى
الانضمام إلى قوات ابن طولون التى تحتل الموصل لترافقه فى ظل حمايتها إلى
مصر حيث يستطيع أن يقيم حاضرتة بعيداً من الهزات والاضطرابات فى العراق .
هذه الخطة الجريئة بصورة تبعث على الدهشة ، قربت من النجاح . فالخليفة قبل
الدعوة وخرج يقصد المرسى ، مفضلاً أن يكون تابعاً لابن طولون فى الفسطاط
على سجنه الحالى فى سامرا . ولكن قبض عليه أخوه الموفق الموالى للأتراك ،
وأعاد إلى سجنه فى سامرا

أما وقد خاب أمل ابن طولون فى هذه المحاولة من أجل السلطة العليا ، راح
يدعم قبضته على الشام التى حكمت الآن من وادى النيل لأول مرة منذ عصر
الفراعنة . وفى سبيل هذه الغاية بنى قاعدة بحرية فى عكا ، ووضع الحاميات فى
المراكز الاستراتيجية . كذلك طوّر الزراعة ، وحسن الرى ، على نحو ما فعل فى
مصر . ولكن فى السنوات الأخيرة من حكمه بدأت الحاميات تنفض من حوله
وتنحاز إلى جانب الخليفة ، بفعل قوة الرشوة . وبرغم أنه ظل حاكماً الشام
الإسمى حتى وفاته فى سنة ٨٨٤ لأن الخليفة فضل عدم الدخول فى مواجهة معه ،
لم يعد فى إمكانه أبداً أن يعتمد مرة أخرى على ولاء الشاميين . وبعد أن أجبر على
الانسحاب ركز اهتمامه على مهمة التجسين الاجتماعى والمعمارى فى مصر . فبنى
أول بیمارستان للمرضى ، وقصراً منيفاً لنفسه . كانت جدران القصر محلاة
بالذهب ؛ وتحديداً لأنهى النبوى القاطع عن رسم صور الآدميين ، زينت الجدران
بأشكال منحوتة على صورته وصور أزواجه وقيناته اللائى يغنين له ، وعلى
رؤوسهن الأكاليل من الذهب . وفى حدائق القصر القريبة قفص كبير لتربية

الطيور ، وحديقة للحيوان ، وبركة من الزئبق فوقها فرش من آدم يحش بالريح حتى ينتفخ ؛ وعلى هذا الفرش ينام الحاكم وأصحابه ، فلا يزال يرتج ويتحرك حتى يناموا . إن أعظم آثاره بالطبع هو جامع ابن طولون الذى صممه مهندس معمارى نصرانى ، ومكانه اليوم بالحى المعروف باسم مصر القديمة . ^(١) وكانت مآذنه تحاكي مثيلتها التى بناها المعتصم فى سامرا . وكان الصحن الفسيح الذى يحيط به من جوانبه الأربعة رواق فخيم ذو أعمدة مع إفريز نقش عليه آيات قرآنية ، يضاف إلى الجامع اتساعا وصفاء لا ينافسها جامع آخر فى القاهرة

وكما هو شأن كل فاتح أو مغتصب آخر فى تلك الأيام ، أراد ابن طولون أن يؤسس أسرة حاكمة ، ولكن كمان نجاحه فى هذا قصير الأمد . فابنه خارويه ، المغامر الأحق الذى حاول القضاء على الأغلبة ، أثبت أنه خلف هزيل لوالده ، وكان مسرفاً فى بذخ ، ومهرطاً فى تعاطى الشراب حتى كان موضع لعنة جميع المسلمين المؤمنين بسبب إسرافه وتطرفه . وبعد أن أثبت ابن آخر وحفيدان أنهم ليسوا بأفضل منه ، انتهت الأسرة الطولونية وعادت مصر فى سنة ٩٠٥ ، لثلاثين سنة بعد ذلك ، ف وقعت تحت سيطرة العباسيين .

ولقد أحسن فيليب حى تلخيص عناصر النجاح أو الفشل فى التجربة الطولونية فقال إن ابن طولون « ضرب مثلاً لما يمكن عمله فى مسألة الوصول إلى القوة العسكرية والسياسية على حساب خلافة كبيرة الحجم تصعب إدارتها ، وذلك عن طريق الطموح القوى الواقع الذى يساور جندياً من الرعية وتوابعه من العبيد . ولكن الطولونيين ... لم تكن لهم قاعدة وطنية فى الأراضى التى بسطوا عليها حكمهم ولذلك كان عمرهم قصيراً . كان ضعفهم ينعصر فى عدم وجود مجموعة متماسكة قوية من الأنصار من بنى جلدتهم . وكان الحسكام أنفسهم دخلاء اضطروا إلى تجنيد جيوشهم من مصادر أجنبية شتى . ومثل هذا

(١) ومكانه حى السيدة ريف . المترجم

الحكم لا يمكن المحافظة عليه إلا على أيدي رجال ذوى نفوذ شخصى بارز ؛
وبمجرد أن يخف أو تزول الذراع القوي للمؤسس يحل التفكك » .

هذا الرثاء سوف ينطبق بانتظام عجيب على المجموعات التركيبية المتنوعة
التي تعاقبت على امتداد السنوات الثلاثمائة والخمسين التالية كسادة خلفاء بغداد
إلى أن جاء المغول ومحووا الخلافة وعاصمتها من على سطح الأرض . إذا كان
العرب لم يعد في إمكانهم أن يديروا شئون إمبراطوريتهم فمن المؤكد أنهم
جعلوا من الصعب بقدر الإمكان على الأجانب أن يديروا أمورها لهم . وكانت
النتيجة لامفر منها . شاعت الفوضى وحل العطب بقيام ساسلة من الأسرات
الحاكمة الصغيرة الشأن وطوائف الزنادقة فى جميع أنحاء الخلافة وإعلانها
الاستقلال ، ومن الآن فصاعداً لم تعد الإمبراطورية تعمل كوحدة متماسكة
للسلطة . وكما هو الحال بالنسبة إلى طائرة تحطمت فى أثناء هبوطها على الأرض ،
فإنها عاشت طويلاً بعد الصدمة الأولى وتخلصت من السيطرة كلما تمزقت .
وأخيراً انفجرت واندلعت النار فيها ، لا تتحرك إلا بفعل قوة طيرانها الأصلية .
سوف يظهر فيما بعد ، قواد فرديون لهم شهرة عالمية مثل عبد الرحمن الثالث فى
أسبانيا ، وصلاح الدين والسلطان المملوكى بيبرس ، ويستعيدون الكرامة
الضائعة للدولة العربية ، ولكن الخلافة كانت مؤسسة تحتضر ، ولم يعمل لمعان
انتصاراتهم إلا على الكشف عما تعاني من داء مميت .

(١٣)

الصيف الهدى للامويين

بانتصاف القرن التاسع عندما كانت امبراطورية بنى العباس قد بدأت في التفكك ، كانت الوحدة التي خلقها عبد الرحمن الأول في الإمارة الأموية بأسبانيا ، تتفكك أيضاً بسرعة . فبعد أجيال أربعة منذ وفاة مؤسسها بدأت الولايات والمدن الأسبانية تخرج عن سلطان قرطبة . بدأ العفن في كورة ريه Rejio في الجنوب وفي أرغن Aragon في الشمال حيث تحالفت الأسرة القوطية الحاكمة مع ملوك ليون المسيحيين ، برغم تحولها إلى الإسلام . ثم سارت في الاتجاه ذاته طليطلة الضجورة وقد أثارها رجال قبائل البربر ؛ ثم انفصلت أشبيلية وجليقية Galicia ومرسية Marcia وكورة الغرب Algarve في البرتغال . وثمة مسلم من نسل أحد نبلاء القوط الغربيين ، هو عمر بن حفصون ، أثار الجنوب ضد الأمير الحاكم ، وسيطر عليه طيلة ثلاثين عاما ضد خافي الأخير ، عازلا قرطبة عن بقية أسبانيا ، بل وسعى وإن لم يصب نجاحاً ، إلى أن يعترف به الخليفة العباسي آنذاك والياً على أسبانيا .

وهكذا بابتداء القرن العاشر كاد تراث عبد الرحمن الأول أن يضيع كله ؛ وبعد أن كانت الإمارة الأموية العظيمة تضم سبعة أثمان شبه جزيرة ايبيريا ، إنكمشت فلم تتجاوز بضعة أميال مربعة من الأراضي التي تحيط بقرطبة . ولكن في عام ٩١٢ جاء شاب في الثالثة والعشرين من العمر يحمل الاسم الحميد لمؤسسها ، ليستردها وليرفعها إلى ذروة قوتها وشهرتها . كان عبد الرحمن الثالث وهو ابن لجارية نصرانية ، طويل القامة ؛ رشيقاً وذو عيني زرقاوين . وخلف جده عبد الله الذي بسبب استراسته في خيانة والد عبد الرحمن ، أجبر

أبنته الآخر على قتله ثم عمل على قتل القاتل حتى يخفى آثار الجريمة .
 شرع عبدالرحمن على الفور في استرداد الولايات الضائعة . فخرج من حاضرتة
 المحصورة واستولى على استجة *Eciga* وإلبيرة *Elvic* وجاين *Gaen*
 وبنهاية سنة ٩١٣ كانت عاصمة ربه تؤدي الجزية وفتحت أشبيلية أبوابها للأمير
 الجديد . حارب ابن حفصون بصلابة في الجنوب لمدة أربع سنوات أخرى ،
 ولكن عندما توفي سنة ٩١٧ كان عبدالرحمن قد أوشك أن ييّد الولايات
 الضائعة إلى حظيرة قرطبة . لم تقاوم سوى طليطلة التي كان يسيطر عليها البربر ،
 وأخيراً في عام ٩٣٢ تم إخضاع مركز المقاومة هذا .

ولكن مقاعب عبدالرحمن لم تسكن قد انتهت بعد . ففي أفريقية قامت
 أسرة علوية جديدة طردت الأغلبة من القيروان . وإذ سموا أنفسهم الفاطميين
 لزعمهم بأنهم من سلالة النبي عن طريق ابنته فاطمة ، صمموا الآن على هدم بقية
 أعدائهم الأمويين والتقليديين وأعلنوا الحرب على إمارة قرطبة . ولكن موت
 ابن حفصون حرمهم من حركة يقوم بها طابور خامس يمكن الاعتماد عليه
 في أسبانيا ؛ كما كان بعد نظر عبدالرحمن في بناء بحرية ، عاملاً في إخفاق خططهم
 للغزو بطريق البحر . وبذلك أوقف الفاطميون في مساعيهم ؛ واستفادة من
 فشلهم أخذ الأمير الشاب المبادرة وانتقل إلى أفريقية حيث استولى على سبته
Geura وأجبر معظم ساحل البربر على أن يدين له بالولاء .

ولكن كان لا يزال من المتعين عمل حساب لأردنيو ملك ليون^(١) بينما كان
 عبدالرحمن يعالج أمر التهديد الفاطمي في الجنوب . أوغل أردنيو في الأراضي
 الإسلامية ، وأسر قائداً أمويًا وسمّر رأسه في جدار حصن على نهر دورو .
 وفي عام ٩٢٠ نزل عبدالرحمن إلى الميدان وأخرج أردنيو إلى ناقار ، واستولى
 على بنبلونة *Pamplane* ، وعاد ظافراً إلى قرطبة . ثم واصل ضغطاً مستمراً على

(١) أو جليقية ، — المترجم .

ليون ونافار حتى سنة ٩٣٩ حين بلغ التحرش بالملكين المسيحيين حداً يفوق الاحتمال ، فاتحداً وكاداً يحجوان جيشه . هذه النكبة عامت الأمير درسا لم ينسه أبداً ، ومن الآن فصاعداً ترك المسيحيين وشأنهم في ذلك الركن من أسبانيا ، مقابل معاهدة وقعت في احتفال مهيب في قرطبة ، اعترفت بسيادته على بقية شبه جزيرة ايبيريا .

قبل هذا الاحتكاك النهائي مع الجيران المسيحيين بعشر سنوات ، كان عبدالرحمن قد أعلن نفسه خليفة وبدأ وضع نهاية لسنة إنكار الذات التي تقيد بها كل حاكم لأسبانيا منذ فرض سمييه استقلاله عن بغداد . لم يقدم المؤرخون سبباً مقنعاً للتغيير . ولكن خشية الظن بأن مافعله يمثل واحدة من حالات جنون العظمة من جانب عبدالرحمن ، فإن من الإنصاف أن نلاحظ أن الخلافة في هذا الوقت كانت تتجه نحو التمزق ، وكان شمال أفريقية ومصر والولايات الشرقية يؤكدون استقلالهم . في ظل تلك الظروف كانت أسبانيا العربية تعنى بالنسبة إلى العالم شيئاً أكثر من تلك البقية الممزقة من الإمبراطورية العباسية .

وعلاوة على هذا كان بلاط قرطبة أكثر من غيره بهاء وجلالا في التاريخ ، ولا يباريه في أيامه سوى القسطنطينية . وكان فيه سفراء معتمدون من قبل الإمبراطور البيزنطي ومن بلاط كل من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وكان القصر الملكي المطل على الوادي الأخضر العريض الذي يغذيه نهر الوادي الكبير ، يضم أربعمئة غرفة بالإضافة إلى الغرف السكنية للألوف العديدة من العبيد وأفراد الحرس . وبلغ عدد سكان قرطبة ٨٠.٠٠٠ نسمة وهم اليوم ١٨٠.٠٠٠ فحسب . ووصل عدد المساجد إلى سبعمائة ، وكان هناك ثلاثمئة حمام في وقت كانت الأجناس الأوروبية لاتزال تعتبر الاستحمام عادة وثنية . وكانت الشوارع وطولها عشرة أميال ، مرصوفة ومضاءة ، وهو تطور لم يقدر للندن وباريس

أن تنعما به طيلة سبعمائة سنة أخرى ، كان أهلها يتحسسون طريقهم ليلا في الظلام الحالك ، وغالباً ما تغوص أرجلهم حتى الرسغ في الطين . وكان هناك سبعون داراً للكتب ، وفي عهد الحكم وهو ابن عبد الرحمن وله واع شديد باقتناء الكتب ، تم جمع ٤٠٠٠٠٠ مجلد من دور الكتب والمكتبات في الأسكندرية ودمشق وبغداد بينما لم يكن هناك أكثر من ١٠٠٠٠ مجلد بالإنجليزية في أى مكان آخر بالعالم . وكان حكام ليون ونافار وبرشلونة إذا احتاجوا إلى طبيب أو مهندس معماري بعثوا يطلبونهم من قرطبة وإيس من فرنسا أو ألمانيا . وجذبت جامعة قرطبة الطلاب من أفريقية وأوروبا وآسيا . وكان الإلمام بالقراءة والكتابة عاماً — فيؤكد رينهارت دوزي أن « كل شخص تقريباً يستطيع القراءة والكتابة بينما كانتا في أوروبا المسيحية ، مازالان احتكاراً لرجال الدين وعدد قليل من الكتبة المحترفين » .

وفي الصناعة أيضاً سارت أسبانيا قدماً بقيادة عبد الرحمن . فازدهر النسيج والصناعة الجلدية ، والحقيقة أن مراكش تعلمت الأخيرة من أسبانيا العربية . وتقدمت صناعة الزجاج والخزف بسرعة ، كما تقدم استخراج معادن الذهب والفضة والحديد والرصاص . واشتهرت طلميطلة بعمل السيوف ، وبتيليس الصلب بالذهب والفضة ، وكلا الفنيين استورد من دمشق .

وانتعشت الزواعة إذ استفادت من الري الذي أدخله العرب الذين جاءوا إلى أسبانيا أيضاً بالفواكه الحمضية التي سبق أن وردت إلى العالم العربي من الهند ، وكذلك العنب والخوخ والبرقوق والتطن وقصب السكر . وما يزال الطابع الري يشاهد في بساتين ومزارع الكروم في أسبانيا الحديثة . وقامت تجارة صادر رابحة ينقلها أسطول عبد الرحمن البحري إلى أبعد أركان المعمورة . وكانت إنجلترا وفرنسا تستوردان منتجات أسبانيا التي سئمت طريقها أيضاً ناحية الشرق حتى وصلت إلى الهند ووسط آسيا . إن

الأصل العربى لبعض مفرداتنا البحرية الحديثة مثل « أميرال » admiral « وتعريفة » tariff « تشهد بما كان لهؤلاء الملاحين التجار العرب من تأثير واسع الانتشار . كذلك فالعملة التى أدخلها العرب الأسبان كانت خلال السنوات الأربعمائة التالية أداة التبادل النقدى الوحيدة فى أجزاء من أوروبا .

مثل هذا الرخاء جاء بإيراد ضخم . أصبح مبلغ قدره ستة ملايين وربع المليون دينار يصب الآن فى بيت مال الخليفة كل سنة . ومن هذا المبلغ يجنب الثالث كاحتياطى ، وينفق ثلث على الجيش ، ويخصص الباقى للأشغال العامة والبناء . كان عهد الرحمن مسرفاً فى إقامة المباني . فبنى جامعة قرطبة والكثير من المساجد السبعائة ، فضلاً عن تكبير الجامع الكبير الذى شيده سمييه من قبل . وما من شك أن أجمل عمل قام به هو قصر المرمر الفخيم الواقع على مسافة بضعة أميال من قرطبة ، والذى بناه من أجل محظيته الأثيرة « الزهراء » وسماه باسمها ومعناه « ذات الوجه الصبوح » . جىء بأكثر من أربعة آلاف^(١) من سوارى الرخام من إيطاليا وقرطاجنة وبيزنطة واستخدمت فى إتمام هذا العمل الرائع الدال على الحب ، وكدح عشرة آلاف من أصحاب الحرف تحت إشراف أعظم مهندس معمارى بيزنطى آنذاك لمدة عشرين عاماً حتى أكملوه . واليوم فإن كل ما تبقى منه هو الأسس وعدد قليل من الجدران والأرضيات من القصر ومن الضاحية للمسكية التى قامت حوله وكانت نفسم أكثر من اثنى عشر ألف نسمة . أما الباقى فنقل بالعربات بعد الفتح المسيحى فى القرن الخامس عشر لبناء دير سان جيرونيمو القرنفلى اللون والشاسع ، فى التلال هناك . ولكن ، مع هذا ، لن يتطلب الأمر الكثير من جهد الخيال كي نرسم صورة ذهنية لعظمة القصر بأقواسه الرشيقة ، والقطع الخزفية الرائعة التى تظللها أشجار السرو ، وحدائقه وبساتينه الممتدة حتى شواطئ نهر الوادى الكبير

(١) قبل ٢٢٢٤ - ريه - المرحم .

وهو عمل جدير حقاً بالمرأة التي أعطت هذا الحاكم العظيم ، المتعة الحقيقية الوحيدة التي عرفها . وعندما رقد عبدالرحمن فوق فراش الموت في سن الثالثة والسبعين وبعد أن حكم أسبانيا خمسين عاماً ، صرح أنه خلال حكمه الطويل لم يمر به سوى أربعة عشر يوماً من السعادة . وما من شك أنه قضاه وسط روائع قصر الزهراء التي كانت مبعث الإلهام بها .

نجح ابنه وخليفته الحكم في المحافظة على تماسك الخلافة الأسبانية طيلة عهده الذي دام خمسة عشر عاماً . فلما مات سنة ٩٧٦ وخلفه ابنه هشام ذو الإثني عشر ربيعاً ، أصبح حاكم قرطبة الحقيقي محدث نعمة عديم الضمير ، هو محمد بن أبي أمير الذي اتخذ لنفسه لقب « المنصور » ، تفاخراً وتظاهراً . كان المنصور خلال حياة الحكم كاتب رسائل في البلاط ، ولما مات الخليفة نجح في كسب الخطوة عند أرملة ، وسرعان ما لم يصبح عشيقها فحسب وإنما صار أيضاً كبير حجاب القصر ووزيرها أيضاً . وإذا سيطر على حرس الخليفة الصبي ، وهم أخلاط من أربعة آلاف من المولدين^(١) ممن دعاهم عبد الرحمن « الصقالبة » وحوّلهم إلى الإسلام ، جدد المنصور الحرب ضد ليون ونافار . وفيما بين عام ٩٨٥ ونهاية القرن ، حرب الركن المسيحي من أسبانيا ، ونهب برشلونه ودمر ليون . ولكن في عام ١٠٠٣ أضاع كل ما ظفر به ، وقتل وهو يحارب في قشتاله .

كان انتصار المنصور القصير الأمد علامة على آخر فتح عربي في أسبانيا ، وبموته بدأت الخلافة الأسبانية تموت أيضاً . وتمشياً مع التقليد انقلب الحرس الإمبراطوري من الصقالبة على الخليفة الشاب وجعلوه سجين أمرهم . وثار البربر من جديد كي يغتصبوا كل ما يقدرون على اغتصابه من الدولة الأموية الآخذة في التفكك . تحلى هشام عن الخلافة عام ١٠٠٩ ، وخلال اثنتين وعشرين

(١) سلالة القوط والنصارى الذين أسلموا . المترجم .

سنة بعد ذلك تعاقب ستة خلفاء مختلفون بصورة تبعث على الحيرة لم تكن لأى منهم سلطة أيًا كانت ؛ وكان كل منهم ألعوبة إما فى أيدي الصقالية أو البربر أو أهل قرطبة ، وعندما يكون قد خدم أهداف الشيعة المؤيدة له ، أو عندما تكون شيعة أخرى قد أصبحت أشد قوة ، فكان يقتل على أيدي حرسه أو يدس له السم أو يختفى وحسب فى بعض الأحيان . وكان آخر أفراد هذا الفرع هشام الثالث الذى زج به فى سجن مظلم بينما عقد العسكريون المسيطرون على الوزارة ، اجتماعاً عاماً ليقرروا ما إذا كانوا يبقون على الخلافة الأسبانية أو يلقونها . وفى ظلام دامس جلس هذا الشخص التعس من سلالة عبدالرحمن العظيم ، نصف عارٍ ويكاد يخنق من رائحة السجن الكريهة وهو يضم ابنته الصغيرة إلى صدره . ولما جاء سجانوه يبلغونه أنه تقرر إلغاء الخلافة وإقامة مجلس دولة جمهورى ، كان رد الفعل الوحيد من جانبه أن يلتمس ضوءاً وبعض خبز لطفلة الجائعة .

بنهاية القرن الحادى عشر كان النفوذ العربى فى أسبانيا يتضاءل فى كل مكان ، ويخلى مكانه للبربر أولاً ثم للنصارى . فى أعقاب خلافة متحدة جاءت عشرون أسرة حاكمة صغيرة وجمهورية ، كل منها فريسة سهلة للملك الشمال النصارى الذين استولوا على الأراضى حتى طايطة وبلنسية . خسر العرب الأرض ببطء ولكن بصورة مؤكدة . ودارت الموقعة الحاسمة فى عام ١٢١٢ عند لاس نافاس دى تولوزا ، حيث سحقّت مجموعة كبيرة جبارة من الجيوش المسيحية من قشتالة وأرغن ونبرّه (نافارا) الجيش العربى . خرت أسبانيا العربية تحت أقدام الفاتحين . فسقطت قرطبة فى سنة ١٢٣٦ ، وأشبيلية فى ١٢٤٠ ، ولم يصد سوى رندة Ronda بجيائها التوأمين ، وغرناطة . ولكن حتى هاتين سقطتهما بعد ذلك بقرنين الجيوش المشتركة التى تمثل فرديناند ملك أرغن وإيزابلا ملكة قشتالة . حوصرت غرناطة ، وبأهلها الذين تجمدت أجسادهم من

البرد ويتضورون جوعاً ، سلم حاكمها أبو عبد الله الذى دعاه الأسبان Boabdil المدينة بشروط تسمح له بضيفة ولأهل غرناطة بحرية العبادة كما يشاءون . وهو امتياز سحج بعد ذلك بسبع سنوات عندما أمرت محاكم التفتيش بطرد جميع الذين أبوا التجول إلى المسيحية . لقد اتهم أبو عبد الله بالتواطؤ مع الأسبان ؛ وسواء كان هذا صدقاً أو باطلاً ، فإن قبريته فى التاريخ سوف تكون دائماً الكلمات المرة التى تحدثت بها أمه إليه وهو يمدق للمرة الأخيرة والدموع نساب من عينيه ، إلى الحصن العربى الأحمر الفخم : إبك كأمراة على ما عجزت عن الدفاع عنه كرجل .

هكذا اختفت البقايا الطافية من السفينة الأموية الغارقة ، وشم اجتياح ثالث وآخر لإمبراطورية سربية ، وكما كان الحال مع الأمويين فى الشام ومع العباسيين فى العراق ، كان مع الأمويين فى أسبانيا : لقد بلغ العرب ذروة من القوة والسمعة بفضل زعامة عدد قليل من الحكام العظام حقاً ، ثم لينحسروا كل ما كسبوه بتجرد رحيل الحكام العظام . وقبل انتهاء القرن العاشر ، وإذا لم يعد لدى الأمويين أو بنى العباس قادة عظام ، لم يعد البيتان الحاكمان قوى سياسية فعالة فى العالم .

وعلى ذلك ربما تكون هذه هى اللحظة المناسبة لترتد بالبصر إلى البلاد الأربعة التى ولى أمورها البيتان ، وأن نقارن إنجازاتهما . وإذا اضطلعنا بمهمة المتارنة بموضوعة فإن من المستحيل أن نخالف النتائج التى استخلصها السير وليم ميور فى تاريخه عن انحلال وسقوط الخلافة العربية . فيقول : « واضح أن أزهى أيام الإسلام هى أيام بنى أمية . فمعاوية والوليد لا يحجبها ظل هارون أو المأمون أو الروايات الاخبارية التى نعتمد عليها والتى كتبت تحت تأثير التفوق العباسى تميل إلى تمجيد ذلك البيت على حساب البيت الأموى . وحتى مع كل عماليات الاستعمار الزائدة التى قام بها العهد العباسى ، فهو يتضاءل أمام مجد البيت

الأموى الذى عمل بفتوحاته على توسيع أسس الاسلام فى الشرق والغرب .
 ويفسر ميور الأمر بقوله أن « السبب الرئيس فى نفوق الأمويين كان عادات
 الرجولة والاعتدال والجرأة التى اتصف بها الشعب العربى الذى
 اعتمدوا عليه . فمنه كانت تتكون المادة الرئيسية لبلاطهم ووزرائهم ،
 وقوادهم وشركائهم . . . كان حب حياة الصحراء السكّان فى نفس العربى ،
 عنصراً عمل إلى حدما على تصحيح التراخى ووهن العزيمة اللذين كانا يزعجان
 الآن على العالم الاسلامى . وفى ظل العباسيين تغير كل شىء . فوُقت القيادات
 العليا من مدنية وعسكرية ، سريعاً فى أيدي المغامرين من الأتراك والأعاجم .
 سرح العرب كتماعدة ، وجندت القوى الإمبراطورية من قبائل آسيا الوسطى
 أو من البربر فى الغرب . وهكذا انسحب العرب إلى الصحراء وهم على
 استعداد لأن يسيروا وراء أى خارج على القانون ، يناشدحهم الفطرى للسلب
 والتمرد والغزو . »

من المؤكد أن الوليد والحجاج كانا يصيران بأكثر مما يجب على وجود طبقة
 حاكمة عربية وبذلك دفعوا أهل الأقاليم الشرقية الذين أحسوا بالمرارة ، إلى
 الثورة السافرة بمجرد عدم وجودهما لإخادهم ، ولكن هارون والمأمون وخلفاءهم
 ذهبوا إلى الطرف الأقصى المضاد ، قاعتمدوا اعتماداً خالصاً على النفوذ
 الفارسى والتركى لتوجيههم وحمايتهم ، وبذلك حصروا مصيرهم بأنفسهم . كان
 بنو أمية بنائين أساساً هدم بيوتهم سكانه من أهل الشرق الذين تملكهم الغضب
 الشديد ؛ وكان العباسيون مقترضين أساساً فلما انتهى أجل الإجارة استولى
 عليه أصحاب الدين . كلاهما كان قصير النظر ، وعن طريق تجاهلهم الأعمى
 للمستقبل عجّلوا بنهايتهم . ولكن الجزء من النظام والاعتماد على النفس
 والإنجاز الإمبراطورى ، يجب أن يكون من نصيب الأمويين الذين بنوا فهمهما
 يزيد قليلاً على خمسين عاماً ، أعظم إمبراطورية فى العالم من الصين إلى المحيط

الأطلسي - بجيش محترف على درجة عالية من التدريب لم يكن قبل ذلك بوقت طويل سوى مجموعة صعبة المراس من قرصان البر ، كانت تسكرس نفسها للإغارة على معسكرات وقطعان بعضهم وسلها ، ولعبادة الأصنام كما كان يفعل أسلافهم منذ العصور الموعلة في القدم .

لم يقصر الأمويون عن بنى العباس إلا في مجالات الأدب والعلم . ففي الشرق والغرب على السواء ، جاءت ذروة الإنجاز الثقافي الإسلامي بعد سقوط الأمويين . في تاريخ معظم الشعوب نادراً ما هيأت فترات الانتصارات العسكرية الكبرى المناخ الصالح للنبات الثقافي الغزير . ولم يكن العرب استثناء من القاعدة ، وعموماً فهم حققوا أخصب إنجازاتهم الثقافية في تلك الفترات من الإسترخاء ، ومن الانحلال في الغالب ، التي أعقبت أعظم سنى الفتح والتوسع . كانت الإمبراطورية قد تجاوزت ذروتها عندما بزغ فجر عصر العلم في بغداد القرن التاسع ؛ وكما زاد تدهورها كقوة سياسية وعسكرية ، ارتفع إنجازها وتأثيرها الثقافي باطراد .

نفس القصة نلقاها في أسبانيا العربية . صحيح أن عهد كل من عبدالرحمن الثالث وابنه الحكم الشغوف باقتناء الكتب ، غرس بذور التطور الفكري وثبت قرطبة كمرکز أوروبا الثقافي . ولكن ما عملته طمسته القفزة الكبرى إلى الأمام ، التي تلت سقوط الأمويين الأسبان . ففي الأدب والشعر والموسيقى أثرت أسبانيا العربية في أوروبا وبصورة أدوم من تأثير العباسيين بفارس والعراق . كان على بن حزم وهو من أغزر المؤلفين إنتاجاً في جميع العصور ، حفيد أسباني تحول عن النصرانية واعتنق الإسلام . وخدم في شبابه وزيراً لهشام الثالث المتعس آخر خلفاء بني أمية في أسبانيا ، ثم تحول إلى الكتابة عند ما عزلت العصاة العسكرية مولاه . وأتم نحو أربعائة مجلد تشمل موضوعات متنوعة كالتاريخ والشعر ، وعلوم الدين والمنطق .

وكان معظم الملوك صغار الشأن الذين جاءوا بعد انهيار الخلافة الأموية في قرطبة ، يعينون أمراء للشعر في بلاطهم ، ونشأ تنافس غيور بين دول أشبيلية وطليلة وغرناطة ، حيث كان كل حاكم ينافس الآخرين من أجل التفوق الأدبي ، وكان الجميع مصممين على أن يفوقوا سجل قرطبة . إن الكثير من موسيقى أسبانيا اليوم مثل الفلامنجو الشهيرة ، ترجع بأصولها إلى الأغاني الشعبية وقصائد الغزل التي ألفها الشعراء والموسيقيون العرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وبغنيها المنشدون الطوافون الذين يعتبرون أسلاف التروبادور troubadours الذين عرفتهم أوروبا فيما بعد .

وكانت أسبانيا العربية تضع تأكيداً على التعليم العام أكبر مما وضعت البلدان الأخرى بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط ، وبوجه خاص لم يكن النساء يخضعن لصنوف التفرقة المعروفة في العالم العربي الشرقي ، وبرعت نسبة عالية من السكان في العلوم الأولية وهي الكتابة والقراءة (وبصفة رئيسية من القرآن) وأجرومية اللغة العربية والشعر . وبانتصاف القرن الرابع عشر لم تكن قرطبة فحسب ولكن كانت غرناطة ومالقة وأشبيلية تفاخر بممالك من معاهد للتعليم العالي تدرس فيها علوم الدين والفلسفة والشريعة والرياضة والطب والفلك والتاريخ والجغرافيا . وكان لكل بلاط ملكي مكتبته ، كما كان هناك الكثير من المكتبات الخاصة . والحقيقة ، أصبح امتلاك مكتبة من كتب مجلدة تجميلاً فاخراً ، رمزاً يدل على مكانة الطبقات الأوفر ثراء ، وأن تلك الثروة من المخطوطات العربية والموجودة اليوم في قصر الاسكوريال القريب من مدريد ، والتي هي أغنى ما يملك العالم من نوعها ، هذه الثروة جمعها فيلب الثاني وفيلب الثالث مما تبقى من مكتبات أسبانيا العربية بعد الغزو المسيحي .

في علوم الدين والتاريخ والفلك لم يقرب العرب الأسبان من تفوق الخلافة

العباسية ، فلم تتغلغل الثقافة اليونانية والفارسية في أسبانيا ، وكان هناك القليل من المعرفة الوطنية الذى يمكن أن يحاكيه . واحد فقط من كبار المؤرخين المسلمين كان من أصل أسباني ، ذلكم هو عبد الرحمن بن خلدون . ورغم أن أوروبا اكتسبت معرفتها بالأبحاث الفلكية العربية من أسبانيا فإن علماء الفلك الأسبان ركزوا بوجه خاص على تهذيب مؤلفات الخوارزمي ومعارضة تأكيدات بطليموس دون أن يضيفوا الكثير من التفكير الإيجابي من عندهم .

ولكن في ميادين الطب وعلم النبات والفلسفة ، كافي الأدب والشعر ، يمكن للعرب الأسبان أن يدعوا أنه كان لهم تأثير غالب على التطوير الثقافي الأوربي . فمن الزهراوى طيب بلاط الخليفة الأموي الأسباني الحكم الثاني والذي اكتسب الشهرة بأنه أعظم جراح في العالم العربي ، إلى الفيلسوف والطبيب العظيم بالقرن الثاني عشر وهو ابن رشد الذى يعرفه الأوروبيون في العادة باسم Averroes — فإن العلم الطبى الذى جمعه العرب الأسبان من مصر والعراق وفارس ، كان يصب في أوروبا المسيحية في مجرى مستمر . (لاتزال هناك آثار تدل على التأثير العربى ، وذلك في لغة الكيمياء التى تدين للاشتقاق العربى بمصطلحات من قبيل : صودا ، وكحول وشراب وقلوى) . من العبث الادعاء بأن قرب أسبانيا النسبي لم تسكن له علاقة بهذا التأثير ، بل وكان التقدم الذى حققه العرب في البحث أكثر أهمية بالنسبة إلى المترجمين الأوربيين من أمثال جيرار الكريمونى الذى نقل مؤلفات الرازى وابن سينا والزهراوى إلى اللاتينية ، وإلى أبييلارد البائى مترجم الخوارزمي . ذلك أنه في وقت كان فيه الأطباء الممارسون الأوربيون لا يزالون ضيقى الألق العقلى بفعل العقيدة المسيحية ، تمكن العرب من العمل بطريقة علمية في جو متحرر نسبياً من التعصب الدينى . مثال ذلك أنه في القرن السابع عشر كانت أوروبا (١٤ — العرب)

المسيحية ما تزال تعتقد اعتقاداً راسخاً أن الموت الأسود كان من فعل الله ،
بينما أصّر طبيب مسلم من غرناطة على أنه مرض معدٍ كما « أثبتت التجربة والبحث
وأدلة الحواس والتقارير الجديرة بالثقة » .

وكان علم النبات علماً آخر ازدهر في أسبانيا العربية . فلم يقتصر الأمر على
استيراد الكثير من الفواكه والأزهار من الشرق العربي ، ولكن أجريت
أبحاث واسعة النطاق عن حياة النبات والتربة والأسمدة . وكان عرب أسبانيا
موضع الاعتراف في العصور الوسطى ، بتفوقهم في وصف أنواع علاج
لأمراض النبات .

ولسكن على ما يحدثنا فيليب حَتَّى « كان الإنجاز الذي توج هامة الطبقة
المثقفة من العرب في أسبانيا ، هو في ميدان الفكر الفلسفي . هنا كونوا آخر
وأقوى حلقة في السلسلة التي نهلت الفلسفة اليونانية ، كما نقلوها هم وإخوانهم
في الدين في الشرق ، إلى الغرب اللاتيني وأضافوا ما أسهموا به من عندهم
وخاصة في التوفيق بين الإيمان والعقل ، وبين الدين والعلم » . ففي مجال
الفلسفة ، كما في البحث الطبي ، كان العرب في العصور الوسطى أقل تقيداً
بكثير بالعتيدة الدينية ، من الأوربيين . وبكفي أن نقول إن إثنين من أنجح
فلاسفة أسبانيا العربية وأشدهم تأثيراً كانا من اليهود ، وهما سليمان بن جايرون
وموسى بن ميمون . وكان ابن رشد وهو آخر وأعظم الفلاسفة العرب عقلانية ،
راسخ العلم ، أخضع كل شيء باستثناء أقدس تعاليم الإسلام ، لاختبارات
العقل الباحثة .

وفي مقدمة التعاليم التي أخضعها ابن رشد لهذا المنهج ، مؤلفات أرسطو .
فبرغم أن موسوعته في الدواء وأبحاثه في الجدرى وأمراض العيون ، أسهمت
في البحث الطبي بمثل ما أسهم أى طبيب عربي آخر ، فسوف يذكر ابن رشد
ويحترم برصقه شارح أرسطو ، إنهم لقلة من السكتاب سيطروا على عقول العلماء

والطلاب الأوربيين في العصور الوسطى ، بمثل ما سيطر ابن رشد ، وكانت مؤلفاته مراجع معتمدة في جامعات الغرب على مدى أربعمائة سنة على الأقل بعد وفاته في نهاية القرن الثاني عشر . والحقبة أن شهرته كانت أعظم في أوروبا منها في العالم العربي ، إذ أنه شرح وفسر اليونانيين للغرب بأكثر مما فعل أى فيلسوف آخر في يومه برغم أنه هو نفسه لم يستطع قراءة كلمة يونانية واحدة وكان مضطراً إلى الاعتماد على الترجمات العربية ، وبذلك وجه وشجع على فتح العصر المدرسى في أوروبا .

وابتدع ابن ميمون نظريات مشابهة لنظريات ابن رشد ، وكان على غرار معاصره الشهير ، باحثاً طبياً نابهاً ، ورجل دين زنديقا تحدى النظريات المتبولة عن الخليقة ، وأكد أن الرؤى النبوية كانت مجرد مكاشفات نفسية . لسكنه هنا تخطى كثيراً الحدود بالنسبة إلى الملك الصغير الشأن الذى كان يحكم قرطبة ، ولم يمض وقت طويل على انتصاف القرن الثاني عشر حتى انتقل إلى القاهرة حيث صار طبيباً للسلطان العظيم صلاح الدين ورئيساً دينياً للجمالية اليهودية . وثمة فيلسوف عربى أسباني ينتمى إلى هذا العصر ، وكان زعيم الصوفية في عصره ، هو محيى الدين بن عربى وقد انتقل أيضاً إلى الشرق بعد أن نبه ذكره في أشبيلية ، وتولى تدريس هذا النوع من الفلسفة ، في الشام - ونعنى به الاعتقاد بأن الله هو النور الباطنى لجميع الأشياء وأن الله لم يخلق العالم من لاشئ - ولكن سبق وجوده كالمظهر الخارجى .

وهناك رجال علم آخرون سيجملون في القرن الثالث عشر ، العمل الفيلسوف والطبيب الذى قام به ابن رشد وابن ميمون وابن عربى . ولكن بحلول عام ١٢٥٨ كان الغزو المسيحى قد توغل في أسبانيا ؛ وبزوال الحكم العربى جفت ينابيع الإلهام التى سبق أن ارتوى منها كبار المفكرين ؛ فسكاً أحبطت تزلزلت التعاليم المسيحية القصور الفلسفى في أوروبا في العصر الوسيط

فاستفادت أسبانيا العربية ، كذلك ترتب على الغزو المسيحي لشبه الجزيرة أن وجد الفلاسفة العرب أنفسهم أيضاً تحنقهم التنظيمات المذهبية الجامدة والضيقة. وإنه لمن الحزن القول بأن المؤثرات الليبرالية التي نقلها الفلاسفة العرب الأسبان إلى أوروبا ، لم تنعكس بأى حال فى سياسات الفاتحين المسيحيين . فبقائمة نظام محاكم التفتيش بدا كما لو كان الأوروبيون مصممين على أن يسحقوا إلى الأبد النظام الحر الذى جعل فى إمكان رجال من أمثال ابن رشد ، أن يساعدوا فى انتشال أوروبا من العصور المظلمة إلى عصر جديد من العلم . فبعد سقوط غرناطة فى عام ١٤٩٠ تقرر التحول الإجبارى إلى المسيحية ، وفى عام ١٥٥٦ طالب القانون جميع المسلمين لا بنذ دينهم لحسب بل وبنذ لغتهم وأنظمتهم ومؤسساتهم أيضاً . وأخيراً فى بداية القرن السابع عشر أعدم أى مسلمين لم يعتنقوا المسيحية بعد ، أو نفوا قهراً إلى أفريقيا .

على خلاف غزاة أسبانيا المسيحيين ضرب النورمانيون الذين استردوا صقلية ومالطة بعد سنة ١٠٦٠ ، مثلاً يكاد أن يكون فريداً ، عن التعاون بين الأوروبيين والعرب . لقد ظل العرب متمسكين بصقلية بعد أن أغرق المذابح الفاطمية الصاعد الأغلبية بقرن ونصف . ولكن قبضتهم كانت معرضة للتهديد بسبب الحروب الأهلية المستمرة بين القطاعات الأسبانية والأفريقية من السكان ، وعندما غزا الكونت روجر النورمانى الجزيرة فى عام ١٠٦٠ ، سرعان ما ظفر بموطأ قدم لما استولى على مسينا . وبعد ذلك بثلاثين عاماً استولى على مالطة ، وأكمل فتح صقلية من جديد .

بالنسبة إلى الذهن غير المثقف لهذا المسيحي النورمانى البسيط كان ما اكتشفه فى صقلية من تقدم التعليم ومن قوة تأثير الإسلام ، مبعث دهشة كبيرة . فقد كان فى بالرمو وحدها أكثر من ثلاثمائة معلم وعدد مماثل من المساجد. ذلك أن ثقافات الشرق والغرب وجدت فى صقلية أكثر مما وجدت

فى أى مكان آخر فى داخل الإمبراطورية ، مكان لقاء طبيعياً كانت اللغات السائدة وهى اليونانية والعربية واللاتينية تستخدم فيه طيلة عهود الاحتلال الأغلبى والفاطمى وسائل يعبر بها شعب مختلط من الروم والعرب والأسبان والطنجانيان ، بدلا من القضاء على اللغة العربية والديانة الإسلامية استفاد روجر من الثقافة التى وجدها فى هذه الجزيرة المتعددة اللغات ، ووضعها تحت رعايته . فعين مسلمين فى أعلى المراكز فى الحكومة ، وجند غالبية جيشه من الحاميات التى هزمها من قبل ، وملاً بلاطه بالفلاسفة والشعراء والأطباء العرب . وكان المسلمون أحراراً فى ممارسة شعائرهم الدينية ، وفى مزاولة التجارة والصناعة والزراعة التى أدخلوها وعملوا على ازدهارها . وسار ابن روجر وخلفه ، روجر الثانى ، خطى أبعد وارتدى ملابس شرقية محلاة بحروف عربية ، فكان ذلك تقليداً جديداً سرعان ما أخذت به النساء المسيحيات فى صقلية . واستخدم رجال الحرف العرب لتشبيد وتزيين الكنائس الجديدة ؛ وكان أبو عبد الله الإدريسى وهو أعظم الجغرافيين ورسامى الخرائط وأكثرهم أصالة فى يومه ، زينة بلاط الملك . أما حفيد روجر الثانى وهو فردريك الثانى الذى حكم صقلية وألمانيا وأصبح عاهل الإمبراطورية الرومانية المقدسة وملك بيت المقدس فى السنوات التى آذنت فيها شمس الحروب الصليبية بالمغيب ، تقول إن فردريك حافظ على التقليد إذ عاد من مغامراته فى الشرق أكثر تأثراً بالإسلام منه تشبعاً بالروح الصليبية . كان يحتفظ بحريم ؛ وكان بلاطه يزخر برجال العلم وفتيات الرقص من الشرق .

بفضل تأثير عقب روجر الأول الموالين للعرب ، ظلت الحصارا العربية متسلطة فى صقلية حتى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وعلاوة على هذا ، لما كان الملوك النورمانيون يسيطرون على جنوب إيطاليا بالإضافة إلى صقلية ، شقت الثقافة العربية طريقها من الجزيرة إلى البر الإيطالى . ومن

صقلية جئىء إلى إيطاليا بالحرف اليدوية مثل أشغال الجلد وتجليد الكتب ، والترصيع بالذهب والفضة ، ونسج الحرير . وأظهرت أشكال معينة من فن العمارة تأثيراً عربياً قوياً — مثل برج الأجراس ولعله مأخوذ عن المأذنة الإسلامية . أما عن أساليب اللباس ، فكانت الأقمشة الشرقية تحاكى فى معظم البلاد الأوربية ، واجتذبت التصميمات الصقلية للملابس الرجال والنساء المترفين فى كل مكان .

والحقيقة ، من الإنصاف القول بأن صقلية لعبت دوراً بكاد أن يعادل دور أسبانيا العربية فى نقل الفنون والحرف العربية إلى أوروبا . ونظراً لأن من حسن حظ صقلية أن أعيد فتحها على أيدي حكام مستعيرين وتعطيفيين نسبياً ، استمر العرب الأسبان يلعبون دورهم بينما كان أبناء عمومهم فى أسبانيا يجرى القبض عليهم على أيدي الغزاة الأوربيين . ولكن بسبب قلة عددهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ إلى أجل غير محدود ، بتفوقهم الثقافى بدون تسرب أفكار جديدة من مواكز العلم العربى الأصلية الكبرى — بغداد ودمشق وقرطبة . وفى ذلك الوقت كان أى أمل فى أمثال هذه التعزيزات الثقافية قد مات . فأولاً خربت بغداد ودمشق على أيدي جهافل المغول الوافدين من آسيا الوسطى ، ثم وقعتا تحت يد الأتراك العثمانيين الميته . أما قرطبة ، فمن أجل حل ما دعتة محاكم التفتيش الأسبانية « المشكلة العربية » ، فإننا نجد هذا النظام قد أخذ بصفة دائمة أبهى نور للعلم فى عالم العصور الوسطى . عندئذ دارت العجلة دورة كاملة . فالثقافة التى سبق أن جاءت إلى العرب من اليونان القديمة ، عادت إلى أوروبا . وخلال السنوات الثلاثمائة والخمسين التالية خُلق كل الجهد الأدبى العربى . وجاء الدور على العرب ليعودوا إلى العصور المظلمة .

(١٤)

الثورة الشيعية واضمحلال الدولة العباسية

لما انهار البيت الأموي الحاكم في سنة ٧٥٠ انتهر العلويون الفرصة لإثبات حقهم في الخلافة وربطوا مصيرهم بالثورة العباسية . والآن تقدم العلويون مرة أخرى ليستفيدوا من انحلال الحكم العباسي . لا يمكن أن يشمل التاريخ أمثلة قلائل ، إن كان يشمل شيئاً منها ، عن أناس أكثر تعطشاً للعقاب من هؤلاء الشيعة من أنصار علي . فبعد أن تصيدهم الحجاج وأعمل فيهم القتل في العصر الأموي ، نهضوا من جديد ولكن ليعانوا نفس المعاملة على أيدي بني العباس الذين ساعدتهم العلويون في الوصول إلى السلطة ؛ فقد قعهم أبو جعفر وهارون ، بل والمأمون في أواخر سني عهده ، بوحشية لا تعرف الرأفة . ومع ذلك ، لما سلم خلفاء المأمون أنفسهم إلى حراسهم الأتراك ، كان الشيعة ما يزالون هناك ينتظرون لإثبات حقهم في أن يحكموا الإمبراطورية ، وفي هذه المرة فقط اقتربوا إلى حد ما ، من تحقيق مطمعهم .

كانت الحركة الشيعية قد بدأت في بلاد العرب عند وفاة النبي ، بوصفها حزباً سياسياً كرس نفسه لوضع عليّ على عرش الخلافة . ومنذ ذلك الوقت إلى حين وفاة الحسين بن علي ، كانت حركة عربية بحثة . ولكن عندما أشاع البنيان الطبقي الجامد الذي أقامه الأمويون ، المرارة في نفوس الموالي الذين اعتنقوا الإسلام في الشرق الفارسي ، رأى الشيعة فرصتهم لتوسيع القاعدة التي تقوم عليها حركتهم ، ولزيادة أعدادهم . وهكذا تحول أنصار علي الأصليون إلى حركة دولية تصمم ليس فقط على إعادة العلويين إلى الخلافة ولكن أيضاً

على تدبير ثورة اجتماعية بالنيابة عن الطبقات المهضومة الحقوق في كل مكان داخل الإمبراطورية .

ولكن بارتفاع شأن الموالى وإحلال أوليغاركية فارسية محل الطبقة الحاكمة العربية في عصر العباسيين ، خسر الشيعة الكثير من التأييد الشعبي لهم وخاصة في العراق الذى حقق بوصفه مركز الإمبراطورية رخاء إقتصادياً وازدهاراً فكرياً لم يعرفهما من قبل أبداً . كذلك لم يكن في وسع الشيعة أن يكونوا احتكاراً لرد الفعل الذى حدث ضد الحركة العقلية في الإسلام ، خلال عهد المأمون وبعده . فقد قامت في العراق حركة خفية تدعى « الصوفية » نسبة إلى كلمة « صوف » العربية ، وهو الذى اتخذ تلاميذ الحركة لباساً لهم ، محاكاة للربان النصارى . بدأت الصوفية كحياة من الزهد قوامها التأمل في خلوة ، وتحولت إلى نظام من جمعيات من العزاب على نسق رهبان الأديرة المسيحية . بعد ذلك راحت تتخذ فكرة غامضة عن الحياة ؛ فإذا اعتقد الصوفية أن الغرض من الإيمان الروحي يجب أن يسكون تطهير الروح في الحياة الدنيا في سبيل الآخرة ، بدلا من التمتع بالأبدية في الجنة ، نقول إنهم باعقدهم هذا تحذوا مذهب أهل السنة ، ومن ثم اعتبرهم المسلمون المحافظون زنادقة . وعندما تعرض أحد قادتهم وهو الحلاج وكان فارسياً يشتغل بحلج الصوف ، للجلد والصلب ثم حزت رأسه بأمر من محاكم التفتيش العباسية بسبب قوله « أنا الحق » ، سار أتباعه خطى أبعد في السخرية من تحريم القرآن لمبدأ « عبادة الفرد » ، وجعلوه أول سلسلة من الأولياء . لكن الصوفية بعد ذلك ، وبزعامة شخصيات فكرية بارزة مثل الفيلسوف الفارابى ، وأبى حامد الغزالي وهو من خراسان وأصبح في القرن الحادى عشر واحداً من أكثر رجال الدين المسلمين حيوية وتقديراً ، نقول إن التصوف اكتسب لنفسه قدراً من الاحترام واتخذ مكانه كشكل من العلم الروحاني المباح في الإسلام .

وثمة فرق أخرى مثل المعتزلة والخوارج ، تحدوا بطريقتهم الخاصة ، المذهب السنّي الذي كان النظام القائم يأخذه به . كان المعتزلة يعتمدون على العقل ، ومن تعاليمهم استمد ابن ميمون اعتقاده في مذهب حرية الإرادة . أما الخوارج فظنوا يعلمون أن أحكام الإسلام يجب أن تختارهم الأمة بدلا من اختيارهم وفق مبدأ الوراثية .

وأصبح الشيعة منقسمين أيضاً إلى مجموعات مختلفة من المنشقين . فإذ رفضوا قبول أي خليفة لم يكن من نسل علي ، وضعوا لأنفسهم مبدأ « الزعيم الأوحّد » fuhrer-prinzip وأطلقوه على كل من كان عندهم موضع عبادة الأبطال ، أي « الإمام المهدي » وكان بالضرورة ممن ينسب إلى آل علي . ولكن اختلف الشيعة بشأن من يدعونه بالإمام المهدي ، من نسل علي . ففرقة منهم أطلقت الاسم على السابع في سلسلة النسب ، وهو إسماعيل . كان من أحفاد الحسين المتأخرين ، وعرف أفرادها فيما بعد باسم « الإسماعيلية » وزعيمهم الروحي اليوم هو أغاخان^(١) . ولكن اسم إسماعيل كان كريهاً إلى غيرهم من الشيعة بسبب مازعموا من إدمانه الخمر ، ومن ثم وقع اختيارهم على أخيه الأصغر « محمد المنتظر » ويشغل المركز الثاني عشر في سلسلة النسب العلوي ، ومن هنا عرفت الجماعة باسم « الإثنا عشرية » . وكان « المنتظر » وهو آخر الباقيين على قيد الحياة من سلالة علي ، قد كسب لنفسه في عام ٨٧٨ مركز الشهيد بسبب اختفائه بطريقة غامضة في أقبية مسجد سامرا ، وما من شك أنه كان ضحية الحرس التركي السنّي . ولما كان الشيعة

(١) المقصود به هنا أغاخان الثالث ، ابن أغاخان الثاني وحفيد حسن علي شاه ، الذي ولد عام ١٨٧٥ وخلف أباه في عام ١٨٨٥ . وله مؤلف بعنوان « الهند في مفترق الطرق » وهو بالإنجليزية .
توفي أغاخان هذا في عام ١٩٥٧ ، ودفن في مدينة أسوان بمصر . — المترجم .

يعتبرون أن الأئمة لا يجوز عليهم الموت^(١) ، لهذا أعلن الإسماعيلية والإثنا عشرية على التوالي أن إسماعيل الذي توفي سنة ٧٦٠ ، والمنظر؛ هما في «غيبة» أو «ستر» مؤقت. وكان يشار إلى كل منهما بأنه الإمام الغائب (أو المستور) الذي سيعود يوماً إلى الظهور ويعيد الدين الصحيح ويفزو العالم . وإلى يومنا هذا نجد في فارس الشيعية أنه حتى الشاه يعتبر مجرد نائب مؤقت عن «الإمام الغائب» المنتظر .

كان مؤسس الطائفة الإسماعيلية عبدالله بن ميمون وكان ابنًا لطبيب عيون فارسي . بدأ ابن ميمون بتنظيم ثورات شيعية خلال عهد المأمون . فمن البصرة أولاً ثم من السامية بشمال الشام ، أرسل مبعوثيه ليثيروا الشك في معتقدات أهل السنة وليعلنوا قدوم الإمام إسماعيل . ولما كان داهية في التنظيم السياسي استغل العداء المتزايد بين العرب والفرس استغلالاً كاملاً وأعلن أنه يهدف إلى تكوين حركة توحد بين جميع المفكرين الأحرار وبذلك تتمكن من انتزاع الخلافة من «المغتصبين» العباسيين ، ورفع هو وسلالته إلى العرش .

لم تتحقق أطماع ابن ميمون الشخصية ، ولكن في الوقت الذي مات فيه عام ٨٧٤ ، كان قد بدأ حركة ولدت فرقاً أخرى وجمعيات سرية سوف تعمل بدورها على بث الإرهاب والاضطراب في الإمبراطورية . ومما هو أكثر نفعا للنظر من أي شيء آخر ، أنه نجح في وضع أسرة شيعية على عرش مصر لمدة مائتي عام . أول هذه الجمعيات كوّنّها واحد من أشد تلاميذ ابن ميمون تمصباً وهو حمدان قرمط وأصله فلاح من العراق زعم أنه طالع في النجوم أن الفرس يوشكون أن يعيدوا غزو الإمبراطورية . كان قرمط قزماً ، ولكنه عوض عيوبه الجسمية بمهناطيسيته الشخصية .

(١) يقول الحسن التوبخني في كتاب « فرق الشيعة » إن طائفة الإسماعيلية أنكرت موت إسماعيل وقالت إنه تقيب « ولا يموت حق يملك الأرض ويقوم بأمر الناس » . - المترجم -

نفس اسمه ومعناه « المعلم السرى » يوحى بالتآمر . وكان بارعاً في استغلال
مظالم الفلاحين الحليين وبدو القبائل . ومن مقره في الكوفة أنشأ فرعاً خاصاً
به للطائفة الإسماعيلية ، اكتسب اسمه منه ، وكان ذلك أول تجربة في العالم
العربي لما ينبغي أن ندعوه « الشيوعية » . وكنوع من روين هود الذى عاش
في القرون الوسطى ، دعا قرمط إلى المشاركة في الممتلكات والمقتنيات بما في
ذلك الزوجات ، ولهذا الغرض أنشئ صندوق يمول عن طريق ضرائب
تفرض على أعضاء الجماعة ، ومن سرقة أى حجيج وسفار أغنياء يمرون في
أرضهم . وجرى تنظيم الصباغ والعمال القرامطة على هيئة نقابات طوائف حسب
حرفهم ، وهو نظام سوف يقتبسه الغرب فيما بعد ، ويمكن أن يقال إنه سلف
الماوسونية الحديثة . ورغم أن التسكريس كان قاسياً وإجبارياً ، فقد بلغ من
قوة التأثير الشخصي لقرمط أن تمكن من إثارة القبائل العربية بالعراق والشام
وبلاد العرب وإخراجهم من عزلتهم بالصحراء ، وأن ينظمهم في ثورات ضد
العباسيين وسادتهم الأتراك . ونجح حيث أخفق حتى تدريب ونظام الأمويين
العسكري ، بأن جمع حوله جيوشه من البدو لشن الهجمات من جديد ضد العدو
حينما صد جند الخليفة الأتراك أول هجوم قرمطى .

كانت أول سلسلة من المعارك التى اشتبك فيها القرامطة هي لتأييد ثورة
الزنج فيما بين عامي ٨٦٨ و ٨٨٣ . ثم لما تركهم انهيار الحركة الزنجية وحيدين .
في الميدان لحقوا بجيوش الخليفة وحققوا في عام ٩٠٠ نصراً ساحقاً في البصرة .
ومن هناك زحفوا على الشام واستنسفوا النصف الشمالى من البلاد سنوات عدة
قبل أن هزمهم قوة كبيرة من الأتراك . أصلح الذين فروا صفوفهم وفرضوا
سيطرتهم على جنوب العراق كله من البصرة حتى الكوفة . ولما مات قرمط
أقام مبعوثه سعيد الحسن الجنبى دولة قرمطية مستقلة في البحرين التى صارت
الآن مقر الحركة .

ومن هنا ، ومن مواقعهم المتقدمة في العراق ، كانوا يسطون على قوافل الحجاج في طريقها إلى مكة وفي عودتها منها ، واستخدموا الغنائم والأسلاب في تمويل عملياتهم . حاولت قوات الخليفة التركية مراراً وتكراراً زحزحتهم من مواقعهم ولكنها كانت تصد في كل مرة . وأخيراً ، عندما أصبحت الضغوط شديدة جداً انسحب القرامطة من العراق ولكن كي يستأنفوا القتال في أماكن أبعد نحو الجنوب . وفي عام ٩٢٩ هاجموا مكة ونهبوها ، وحطموا وقتلوا الحجر الأسود بالكعبة ولم يعد إلى مكانه إلا بعد عشرين عاماً .

وخلال السنوات المائة التالية واصل القرامطة هجماتهم على الخلافة ، وأغرقوا الشام والعراق في الدماء . فبمجرد أن يقضى على مجموعة منهم كانت تقوم أخرى لتحل محلها . لكن ، برغم جميع نجاحاتهم في الميدان ظلوا لا يزيدون عن كونهم نوعاً من أنواع الماكي Maquie المعروفين في العصور الوسطى ، أى حركة فوضوية فضلت أن تقاوم سلطة الآخرين بدلاً من أن يتولوا السلطة بأنفسهم . أما أبناء عمومهم من المنشقين ، وهم الفاطميون ، فلم قصة مختلفة كاية . فبرغم كونهم من طائفة الإسماعيلية ، لم يستمدوا الوحي من مذاهب قرمط الشيوعية . ومن جهة أخرى كسب الفاطميون إمبراطورية ، وأقاموا خلافة لهم تفوق خلافة معاصريهم العباسيين ، قوة وهيبة .

كان مؤسس الفاطميين الذين اكتسبوا اسمهم من دعواهم الانساب المباشر إلى فاطمة بنت النبي ، هو سعيد بن الحسين وكان من نسل عبدالله بن ميمون مؤسس الاسماعيلية الفارسي . ففي عام ٩٠٩ قدم إلى تونس من مقر الأخيرين في السامية . وبرغم أن الحاكم الأغلب زج به في السجن ، إلا أن اليمنى عبدالله الحسين أنقذه . كان عبدالله قد أحرز نجاحاً كبيراً في حمل بربر شمال إفريقيا على اعتناق المذهب الشيعي ؛ وبمجرد خروجه من السجن عمل هو وسعيد على قلب الأغلبية السفين واستوليا على إمبراطوريتهم بما فيها صقلية ومالطة .

ببيع سعيد بالإمامة والخلافة واتخذ لنفسه اللقب الفخم « عبيد الله المهدي » .
وأسس عاصمة جديدة دعاها المهدية، على الشاطئ التونسي بالقرب من القيروان .
ثم راح يمد حدود مملكته صوب الغرب . ولكن عندما واجهه عبد الرحمن
الثالث على امتداد ساحل البربر ، تحول وزحف على مصر . وفي عام ٩١٤
استولى على الإسكندرية ثم خرب دلتا النيل بعد عامين . وأغار أيضاً على
سواحل فرنسا وجنوا وكالابريا بمساعدة الأسطول الذي سبق أن استولى
عليه من الأغالية .

لم تؤد وفاة سعيد سنة ٩٣٤ إلى وقف توسع الإمبراطورية الفاطمية .
فواصل ابنه الضعيف على شواطئ أوروبا واستولى على جنوا ، ومد حفيده وهو
المعز ، حدودها الغربية حتى المحيط الأطلسي . بعد ذلك حقق الفاطميون في عام
٩٦٩ أعظم انتصاراتهم بأن أضافوا مصر إلى إمبراطوريتهم الآخذة في النمو
كان قائد الجيوش الفاطمية التي فتحت مصر ، عبداً سابقاً من صقلية يدعى
جوهر الصقلي . وبعد دخوله المظفر في العاصمة بأربع سنوات أقام أثراً أعظم
وأدوم للدلالة على شهرته ، وذلك عندما بنى قطعة جديدة في الفسطاط أصبحت
عاصمة مصر الفاطمية وسميت القاهرة . وفي الوقت نفسه بنى جوهر الجامع
الأزهر الكبير الذي أصبح المجمع العلمي الرئيسي للدراسات الإسلامية .

تحولت الآن مصر من المذهب السني الصحيح إلى الزندقة الشيعية ، وبقدر
ما يمكن اكتشافه ، ثم التحول دون معارضة ذات شأن من جانب الجمهور .
لاريب أن هذا راجع من جهة ، إلى طبيعة الشعب المصري المسالمة نسبياً^(١) .
ولكن لعل هذا القبول الوديع للتشيع كان أيضاً انعكاساً لحنين الكثير من
المصريين إلى تغيير يأتى لهم ببعض استقلال حقيقي عن السيطرة العباسية .
حقيقة سبق لابن طولون أن أعلن استقلاله واستقلال مصر عن الخلافة العباسية

(١) المسالمة وليست المستسلمة ، على ما ثبت التاريخ . — المترجم .

وعصبتها من العسكريين الأتراك . ولكن بالنسبة إلى المظاهر الخارجية لم يختلف نظام حكمه عن النظام القائم من قبل . فكان الأتراك هم العنصر الغالب على جيشه ، برغم أنه كان يقسم على الولاء له وليس للخليفة ؛ وكان شكل العبادة الدينية هو السنية المطبقة في كافة أرجاء الإمبراطورية العباسية . وبالمثل لم تكن أسرة محمد الإخشيد القصيرة العمر التي حكمت مصر منذ سقوط الطولونيين في عام ٩٣٥ حتى الفتح الفاطمي سنة ٩٦٩ ، إلا ولاية شبه مستقلة تتبع الخلافة العباسية ، وعلى رأسها خصى حبشى هو أبو المسك كافور . ولكن الفاطميين جاءوا بنسيم جديد ، له شذا المذهب والفتنة الفارسيين ليطرد رائحة الكافور المسك والجو السكريه للاحتلال التركي والعباسي . فهم لم يغيروا الإدارة والجيش فحسب ولكن غيروا المذهب الديني أيضاً . وعلى ذلك كان في إمكان المصريين الآن أن يروا وأن يحسوا شعوراً من ذلك الاستقلال الذي كانوا من الوداعة بحيث لا يقاتلون من أجله بأنفسهم ، ولكن يتلقونه في سرور من الذين يسكبونه لهم . سوف يهدم الفاطميون فيما بعد الكثير من الأثر الطيب لهذا التغيير عن ما يفرضون المذهب الشيعي قسراً على المصريين ، وبالرجوع إلى الأسلوب العباسي من ناحية استيراد الممالك الأتراك لتعزيز جيشهم . ولكن في هذه اللحظة إغتمت مصر كلها للتحرير الذي بدأ فجأة أنه أنعم به على مواطنيها .

بالاستيلاء على مصر ورث الفاطميون السيطرة على الشام واليمن والحجاز بما في ذلك المدن المقدسة التي كانت الخلافة الآخذة في التدهور في بغداد غير قادرة على منعهم من الاستيلاء عليها . فاقت الخلافة الفاطمية الشيعية العباسيين بكثير من ناحية القوة والنفوذ . فن المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي كان اسم المعز هو الذي يذكر في صلاة الجمعة وليس اسم الشخص الذي لا سند له الحاكم في بغداد والذي قل من يذكرون اسمه بأي حال .

ومع كل ، وبرغم نجاح الأسرة الفاطمية المبدئي ، لم يقدر لها أن تعيش بعد العباسيين . فلم يمض وقت طويل على النصر العظيم الذى أحرزه جوهر حتى بدأت تتدهور . كان الحاكم وهو حفيد المعز صبيغاً فى الحادية عشرة من عمره عندما بويغ بالخلافة . ولما بلغ طور الرجولة أصبح من الواضح بشكل متزايد أنه متعصب مخبول يطرب للقسوة والسكبت وطبقتهما بعنف شيطاني على النصارى واليهود الذين أجبرهم على لبس السواد ، وركوب الحمير ، ووضع طوق حول أعناقهم . وقتل الحاكم عدة من وزرائه ممن سعوا إلى تعديل فظائمه وفى محاولة للقضاء على المسيحية فى أملاكه دمر عدداً من الكنائس ومنها كنيسة القيامة فى بيت المقدس . هذا العمل الدال على القانداية ، سوف يشكل التسكأة التى استندوا إليها فى شن الحروب الصليبية . وعلى قمة هذا كله أدعى ذلك الجنون ذو الشعر الطويل ، الربوبية وهو إدعاء تقبلته طائفة شامية تدعى الدروز نسبة إلى مؤسسها الدرزي^(١) وهو حائك من فارس . ولا يزال الدروز يعتقدون أن الحاكم سوف يعود يوماً إلى الأرض ليحطم معابد أهل السنة المسمين فى مكة وبيت المقدس ، وليعبده جميع البشر باعتبار أنه الإله القائم من الموت . ولكن كان الشعور فى كافة أنحاء الممتلكات الفاطمية الأخرى هو أن الحاكم تجاوز الحدود ، ولم يحزن سوى الدروز عندما قتل أخيراً فى عام ١٠٢١ فوق جبل المقطم المطل على القاهرة ، بتحرىض من أخته وكان قد اتهمها فى عفتها .

حاول خلفاء الحاكم أن يصلحوا أسوأ مفسده فبدأوا ، من بين أشياء أخرى ، فى إعادة بناء كنيسة القيامة . ولكنهم كانوا فى الغالب شباباً ينقصهم النضوج وعاجزين عن وقف العفن الذى كان قد حل بجسم الدولة . ثارت الشام وفلسطين على السيطرة المصرية ؛ واستولى النورمانيون على صقلية

(١) محمد بن اسماعيل الدرزي . — المترجم .

ومالطه ؛ وراحت ممتلكات الفاطميين تنشق الواحدة بعد الأخرى بل وعاد بعضها إلى ولائها القديم لبنى العباس . وفي مصر كرر الحرس البريتورى praetorian المسكون من الممالك الأتراك والشراسة ما كان يفعله بنو جلدتهم في بغداد ، فاغتصبوا سلطة الخليفة ونصبوا من يؤثرونه من صنائعهم الأدلاء لشغل منصب الوزير . وفضلاً عن هذا كله وقعت مجاعات دامت سبع سنوات فخربت البلاد واستنزفت مواردها .^(١)

لكن برغم هذه الذكسات كان الفاطميون متأثرين تماماً بأصولهم الفارسية ، فاستمروا يعيشون في روعة مترفة كادت تعادل روعة بغداد في عصر « ألف ليلة وليلة » . فكان القصر في القاهرة يضم مالا يقل عن ثلاثين ألف شخص نصفهم من الخدم والباقيون عبارة عن جنود حرس الخليفة وعائلاتهم . وكان الخليفة شخصياً يملك عشرين ألف بيت في العاصمة ، معظمها من الطوب ويبلغ ارتفاع الواحد منها حوالى خمسة طوابق ؛ كما كان يملك عدداً مما تلامن الدكاكين . وكانت الشوارع الرئيسية مرصوفة ومضاءة ، وكانت الشوارع في الأسواق مسقوفة . وساد مستوى عال بشكل ملفت للنظر ، من الأمانة العامة والمعاملات العادلة . فكان أصحاب الدكاكين يخضعون لرقابة شديدة على الأسعار ؛ وأى شخص يبيع بأكثر من الحد الأعلى كان يطاف به راكباً فوق جمل ويرغم على الاعتراف بذنبه . وكادت السرقة أن تكون غير معروفة ، وكانت محلات الصاغة والسيارة تترك ليلاً دون إغلاقها بالأقفال . وحاز الخلفاء الفاطميون مجموعة ضخمة من المجوهرات وأدوات الزينة والمائدة المصنوعة من الذهب والبلور والعاج والأتباج ، وكانت سيوفهم وخناجرهم مرصعة بالجواهر

(١) تعرف باسم الشدة العظمى وقد حللناها ، أسبابها وآثاراً ، في كتابنا « قادة الفكر الاسلامى في ضوء الفكر الحديث » (القاهرة ١٩٦٩) في الفصل الموقود عن المؤرخ المقرئى « — انترجم .

البنية ؛ وعند قيامهم بالمهام العامة كانت المغاللات المرصعة بالجواهر تفرد فوق رؤوسهم . ولكن لما أصابت المجاعة مصر في عام ١٠٧٠ اضطر الخليفة أن يبعث بأطفاله إلى بغداد خشية أن يموتوا جوعاً في مصر .

من ناحية التطور الفكري قهر الفاطميون كثيراً عما كان يمكن توقعه من أسلافهم الأعاجم . لقد بنى جوهر الصقلي الجامع الأزهر ، وأسس العزيز والد الحاكم بأمر الله مكتبة يقال إنها ضمت في وقت من الأوقات ٢٠٠.٠٠٠ مجلد ومخطوط ، نهب العسكر الترك الكثير منها فيما بعد واستخدموا المخطوطات لإشعال نيرانهم واستخدموا الأغلفة الجلدية لتصليح نعالهم . وكان الحاكم أيضاً فلكياً بارعاً وأقام مرصداً فوق نفس جبل المقطم حيث لقي حقه . وبني أيضاً دار الحكمة لنشر المذهب الشيعي . ولكن بخلاف هذه الأمثلة القلائل ، كان أداء الفاطميين الفكري ضعيفاً . فقد كان العلماء والكتاب ، سواء من أبناء البلد أو جيء بهم من الخارج ، يلقون القليل من التشجيع ويعانون الكثير من الإحباط في جو يسيطر عليه التعصب الشيعي . لم تكن ضلالة التشيع وحدها بالتي وجدوها مقيتة إلى نفوسهم . فنظراً لكونهم من ذوى التفكير الحر ، كان الكثيرون من العلماء والكتاب بعيدين عن أن يكونوا من السلفيين السفليين ، ورحبوا كما رحب معظم المصريين في وقت من الفتح الفاطمي ، بما جاء به من التغيير وتحدي الخلافة السنية في بغداد . ولكن بتقدم الحكم الفاطمي فإن ما بدأ كتغيير منعش من السنية ، تحول إلى تزمّت بلغ من شدته أن حرم كل حرية للتعبير عن الرأي .

ولكن إذا كان التعصب الشيعي حال بين الأدباء والكتابة فإن غيرهم منعوا بالمثل من الثورة على الحكومة الدينية السائدة وعلى التحالف غير المقدس بين الماليك والخلفاء ، وهكذا تشبث الفاطميون بأملاتهم الآخذة في التناقص وذلك على مدى مائة وخمسين سنة أخرى بعد موت الحاكم . في السنوات المائة الأخيرة من حكمهم كانت إمبراطوريتهم تزيد قليلاً عن مصر نفسها .
(م ١٥ — العرب)

ولكن ، أما وبغداد ضعيفة جداً ومشغولة بمشكلاتها بحيث لا تستطيع استعادة مصر ، فإن هذا الفرع من الطائفة الاسماعيلية الذى أصابه الضعف ظل لا يتعرض للتحدى إلى أن أصبحت أرضه مساحة قتال بين صلاح الدين والصليبيين فى عام ١١٦٤ .

قبل أن يبدأ الفاطميون فى مصر فى الانحلال بوقت طويل كان العباسيون التوسع فى بغداد يستبدلون فئة من الحكم الأتراك بفئة أخرى وكل واحدة تغتصب السلطة بطريقة أشد عنفاً من سابقتها . وكان الخلفاء يجهضون ويروجون وكل منهم يقتل أو يعزل بعد سنوات قليلة ، وكانوا جميعاً باستثناء واحد ، أدوات ذليلة فى أيدي سادتهم الأتراك . كان الفساد والغدر هما العملة السائدة . فلم يكن أحد فى مأمن من يد السفاح ، ولعل الخليفة كان أقل الناس شعوراً بالأمان من هذه اليد . أما عن الإمبراطورية فإن المؤثرات الداعية إلى الفرقة وهى حتمية فى كومنولث متعدد القوميات ، استغلت تماماً الضعف السائد فى المركز . فبنهاية القرن العاشر كان شمال أفريقيا ومصر مستقلين ، وضاعت الشام مع مصر ، واجتاح القرامطة بلاد العرب وجنوب العراق : بل ، وقبل ذلك بوقت انفصلت أجزاء من فارس لتحكمها أسرات صغيرة مستقلة تعاقبت عليها . وأولى هذه الأسرات الأسرة الصفارية التى أسسها فى سجستان يعقوب الصفار ،^(١) وهو « النحاس » الذى حكم فارس من عام ٨٦٧ إلى عام ٩٠٨ ، ثم جاء السامانيون وهم من سلالة السامان^(٢) وكان شريكاً محوسياً من بلخ ، استولى على فارس وخراسان والولايات الشرقية . وبعد ذلك بثلاثين سنة خسر السامانيون بدورهم القسم الغربى من بلاد فارس ، استولت عليه قبيلة شرسة من أهل

(١) يعقوب بن الليث الصفار ؟ ومدة الدولة الصفارية من سنة ٢٥٤ إلى سنة ٢٩٠

هـ . — المترجم .

(٢) أسسها أحمد بن الساماني فى بلاد ماوراء النهر . — المترجم

الجلال في جنوب بحر الخزر ويدعون بنو بويه ؛ بينما ثار الجند الأتراك في الولايات الغربية أى أفغانستان والبنجاب وأقاموا الدولة الغزنوية (٣٦٦ — ٥٧٩ هـ) نسبة إلى مقرهم وهو مدينة غزنة الأفغانية .

بخلاف أن الغزنوية أضافوا خراسان إلى ممتلكاتهم فقد قنعوا بشن غارات داخل الهند لنهب معابد الهندوس . ولكن بنو بويه كانوا أشد طموحاً وفي مركز أفضل لغزو العراق . وفضلاً عن هذا كانوا شيعيين ، وفي وقت كان نجم الشيعة يشرق في كل مكان آخر بالإمبراطورية ، جربوا فتح بغداد وإقامة حكم شيعي في العراق . وفي عام ٩٤٥ هـ انطلق بنو بويه بقيادة زعيمهم معز الدولة ، من عاصمتهم شيراز ووصلوا أمام أبواب بغداد . بادر الحرس التركي بالفرار تاركين الخليفة العاجز ليعقد أية شروط يمكن أن يصل إليها مع الغزاة . وعندئذ عين معز الدولة « أمير الأمراء » وفي هذا المركز أصبح الحاكم بالفعل على ما تبقى من الخلافة العباسية . وبرغم أن الخليفة استكان إلى مظاهر الإذلال هذه ، فإنه عزل خلال السنة بعد أن أعموه بأن أدخلوا في عينيه أسياخاً من الحديد الحصى ، بناء على أمر من معز الدولة . بعد ذلك كان بنو بويه يعينون ويسرحون الخلفاء حسبما تشاء أهوائهم وأصبحت بغداد عاصمة إقليمية تخضع للمراسيم التي تصدر من شيراز . في أيام المأمون أبي أهل العراق أن يُحكوا من فارس وأن يخضعوا للأساليب الشيعية ، ولكنهم كانوا الآن في حالة من الانهيار المعنوي بحيث لا يستطيعون المقاومة . كذلك لم يترددوا عندما أدخل بنو بويه عادات شيعية مثل حجب النساء الشديد وعزلهن ، وأعلنوا وجوب الاحتفال بذكرى موت الحسين باعتبار أنه يوم للاعتدال القومي ، والاحتفال باليوم الذي زعموا أن النبي نبي فيهم علياً خلفاً له . باعتباره يوم عيد . يقال

إن البغداديين استاءوا من التحول إلى المذهب الشيعي ، لكنهم احتملوا
حكامهم الجدد أكثر من مائة عام .

في هذه الأثناء بدأت قوة تركية جديدة في الشرق تتوغل في أملاك
الدولة الغزنوية . اتخذ الأتراك السلاجقة اسمهم من زعيم تركاني يدعى
سلجوق خرج في عام ٩٦٥ على رأس قبيلته من مروج القرغيز بالتركستان
ليستقروا في المنطقة المحيطة ببخارى حيث أصبحوا مسلمين متحمسين على
مذهب أهل السنة . وفي مستهل القرن التالي زحف حفيد له هو طغرل
على خراسان واستولى على مرو ونيسابور من الغزنوية ، وسرعان
ما أضيفت بلخ والري وأصفهان كلما انتشرت جيوش طغرل عبر فارس إلى
أرض بني بويه ؛ وبعد ثمانية عشر عاماً منذ أن اندفع طغرل بجيوشه لأول
مرة من بخارى ، زحف على رأس رجال قبيلته ووصل أمام أبواب بغداد .
كان ذلك في ١٨ ديسمبر ١٠٥٥ أي بعد ١١٠ سنة من وقوف بني بويه أمام
نفس الأبواب هـ وكما سبق أن فرحس الخليفة الأتراك ، كذلك هرب
بنو بويه الآن من السلاجقة ولم يتركوا للقائم وهو الخليفة آنذاك ، من بديل سوى
أن يرحب بالقاتح الجديد .

انزع طغرل آخر قطرة من المجد لنفسه ومن الإذلال للخليفة وذلك
في الاحتفال الذي نودي فيه به وصياً على الإمبراطورية وملك الشرق والغرب
مع اللقب الرسمي وهو « السلطان » . جلس طغرل على عرش في مواجهة الخليفة
وتلقى خضوع الخليفة وإعلاناً بصداقة لا تموت . وبعد هذا المشهد الخارق
للمألوف مُنح سبعة أثواب تشريفاً له ، وتمثل الولايات السبع الباقية من
الإمبراطورية الفارسية ، كما تمنطق بسيفين يرمزان إلى النصفين الشرقي
والغربي من مملكته . ثم نزع طغرل ورقة من كتاب بني بويه ، وخرج من

بغداد وأقام حاضرتة في مرو بخراسان ، حيث تجاهل الألعبوة المذهبة التي سمح لها بالبقاء على العرش الخليلي .

تابع طغرل انتصاراته بزواجه من بنت الخليفة . ولكنه توفي عام ١٠٦٣ بعد إتمام الزفاف بوقت قليل ، تاركاً ابن أخيه المعروف باسم ألب أرسلان أياً « البطل الأسد » ، ليخلفه . كان ألب أرسلان شاباً لامعاً ورشيماً ، برز اسمه في فتوح السلاجقة لفارس والعراق . وكان فيه أيضاً مظهر يدعو إلى الغرابة ، فكانت شواربه من الطول بحيث كان يتعين ربطها إلى وجهه عند ما يخرج للصيد . وبالنسبة إلى شخص لم يزد أبوه عن كونه كافراً من البرابرة قبل أن يتحول إلى الإسلام وكان هو نفسه أمياً تماماً ، نقول إن تقدير هذا الشخص للفنون كان أمراً عجبياً حقاً . لقد قضى طغرل إلى حد كبير حكمه القصير الأمد بالعراق في تدعيم مركز السلاجقة وفي القضاء على مؤثرات وعادات بني بويه الشيعية . وهكذا عندما ورث ألب أرسلان السلطة كانت الإمبراطورية العباسية متحررة على نحو لم تعرفه طيلة أكثر من ١٥٠ عاماً . حقيقة كانت أسبانيا وشمال أفريقيا ومصر ما تزال مستقلة ؛ ولكن تهديد القرامطة في بلاد العرب كان قد تبدد نهائياً ، ومن دمشق إلى بخارى كان السلاجقة مسيطرين دون منازع . ولإذ أمنت الجبهة الداخلية على هذا النحو لم يتوان ألب أرسلان عن مد نطاق ممتلكاته على حساب بيزنطة . فبعد اعتلائه السلطنة بعام زحف على أرمينيا النصرانية واستولى على العاصمة . ثم في عام ١٠٧١ هزم الروم عند مانزيسكرت في أرمينيا وأسر الإمبراطور البيزنطي رومايوس ديوجين . وعندما اقتيد الإمبراطور أمام أسره سئل عما كان يفعله بألب أرسلان لو أن الموقف على عكس ما هو عليه ، فجاء الرد الصحيح « كنت أجلك » . وكان الرد من العسكرة في الحقيقة بحيث وافق السلطان السلجوقي على إطلاق سراحه مقابل فدية ضخمة وجزية سنوية ، بالإضافة إلى تسليم جميع المسلمين الأسرى عند الروم .

أما وقد تطهر الكثير من آسيا الصغرى من الحكم البيزنطى بدأت القبائل السلجوقية تنتقل من الشرف وتستوطن فى الأقاليم الجديدة التى فتحوها. وهكذا لأول مرة ، دخلت هذه المناطق فى الخطيرة الإسلامية ، وأرسى أساس الدولة التركية الإسلامية فى التاريخ الحديث . كان فاتحون وخلفاء ومسلمون آخرون ، من أمويين وعباسيين ، قد غزوا واحتلوا مرات عدة مساحات كبيرة من آسيا الصغرى خلال القرنين الثامن والتاسع ، ولكن تيار الحرب كان يردم دائماً . وفضلاً عن هذا لم تكن للجیوش العربية فرصة ولا رغبة فى الإقامة فى هذه الهضاب الوعرة المرتفعة البعيدة عن الخصب الدافئ فى الشام وفلسطين والعراق . لكن الأتراك السلاجقة انتقلوا من مناطق برية تحتاحها الرياح فى تركستان وأحسوا أنهم فى دارهم تماماً فى مناخ آسيا الصغرى وجبالها الوعرة .

ويبدو أيضاً أن ألب أرسلان كان يحب الأماكن المرتفعة إذ أنه خلال عهده الذى دام تسع سنوات ، لم يقيم أبداً بزيارة بغداد وجعل عاصمته فى إصفهان فى فارس . هنا كان وزير هو الفارس الشهير نظام الملك ومن أعظم دعاة العلم فى تاريخ الإسلام . كان نظام الملك هو الذى أسس المدرسة النظامية فى بغداد ، وهى المدرسة التى قدر لها أن تصبح نموذجاً لكل معهد آخر للتعليم العالى بالعالم الإسلامى . وكان هو أيضاً الذى أصلح التقويم الفارسى . ومن فكره خرج واحد من أروع الموضوعات التى كتبت عن فن الحكم . وبوصف نظام الملك راعياً لعمر الخيام فإنه ناصر الرياضى والفلكى الشاعر الحفيد ، وساعد على إخراج رباعياته وغيرها من أعماله . والحقيقة ، لم يكن هناك فعلاً مجال للثقافة والسياسة لم يحس بتأثيره المسيطر . ويحدثنا المؤرخ ابن خلدون أنه لما خلف ملك شاه ألب أرسلان ، كانت كل السلطة مركزة فى أيدي

نظام الملك ، بينما لم يكن أمام السلطان إلا أن يجلس على العرش ويتمتع بهواية الصيد . ولكن على خلاف الكثيرين من الوزراء ونواب الملوك ممن ظفروا من قبل بالسلطة في الخلافة ، يظهر نظام كمؤثر طيب ومتحضر تماماً ، ألقى شعاعاً لامعاً من الثقافة على المسرح المظلم الذى كان يشهد لإنحلال العباسيين وسقوطهم .

مات ملك شاه ونظام الملك في نفس عام ١٠٩٦ ، الأول من السم والثاني على يد متعصب شيعى . تنازع السلطنة أبناء ملك شاه الثلاثة ، وبسرعة تحول الصيف الهندى القصير الذى تمتعت به الإمبراطورية في ظل السلاطين السلاجقة الثلاثة الأول ، إلى شتاء من الانقسام والهزيمة . ورغم أن السلاطين واصلوا التسلط على الخلافة قرناً آخر ، فسرعان ما لم يعد وجود للإمبراطورية التى أعاد توحيدها طغرل وألب . انفصلت الولايات الشرقية ولم ترجع أبداً ، وفى نفس الوقت زحف الصليبيون من الغرب . وبعد ذلك بمائة وخمسين سنة نزلت جحافل المغول بقيادة جنجيز خان وهولاكو من الشرق ، ووضعت حداً لآلام الموت التى طال أمد معاناة البيت العباسى لها .

إلا أن العالم الإسلامى كان مقدراً له أن يعرف مرحلتين من المجد والخلص من الغزو المسيحى والوثنى . كان لا يزال على صلاح الدين والسلطان المملوكى بيبرس أن يكتبوا فصولهما الباهرة فى تاريخ الإسلام . ولكنهما استمدا من مصر وليس من بغداد ، القوة التى ألفت بالصليبيين خارجاً ، وأوقفت المغول الذين جاءوا فى أعقابهم . ذلك أن بغداد لم تعد حكاماً (بفتح الحاء) وإنما كانت الآن مجرد متفرج على الأحداث فيما تبقى من الإمبراطورية الفارسية .

القسم الرابع

المحنة والنصر

(١٥)

الحرب الصليبية

في نوفمبر من عام ١٠٩٥ ، وفي بلدة كليرمون بفرنسا ، ألقى البابا إربان الثاني مادعا فيليب حتى « ربما أشد خطاب في التاريخ تأميراً » . فاستجابة للنداءات المجنونة والمتكررة من الإمبراطور البيزنطي بطلب المساعدة في طرد السلاجقة من آسيا الصغرى ، سار البابا عدة خطوات أبعد ، فحث المسيحيين على النهوض والإسراع لا إلى الأناضول فحسب ولكن إلى بيت المقدس أيضاً لانزعاق القبر المقدس « من الجنس الشرير » . وعندما كان يتحدث برسائله الخطيرة كان الفرنجة قد بدأوا يردون العرب على أعقابهم في أسبانيا ، واسترد النورمانيون صقلية . ولكن كانت أوروبا المسيحية الآن على وشك أن تتحدى الإسلام عند عتبة داره ، وأبحر ١٥٠.٠٠٠ من الفرنجة والنورمانيين والبنادقة وأهل جنوا ، متجهين غرباً في أول حرب من الحروب الصليبية ، يرن في آذانهم خطاب كليرمون .

ان كلمات البابا إربان النارية كانت ستعمل في الواقع ما هو أكثر من بدء حلف مسيحي للاستيلاء على بيت المقدس من سيطرة التعصب الفاطمي . ورغم أنه ما كان في إمكان أحد آنذاك أن يتنبأ بما سوف تؤدي إليه هذه الكلمات ، إلا أنه قدر لها أن تشعل حرباً دامت مائتي سنة وأن تزود العالم الإسلامي بنقطة تلاقٍ ومن ثم بوحدة في الغرض لم يعرفها منذ الفتوح الأموية الكبرى . بدون هذا التحدي من جانب دين وجنس أجنبيين لجاز أن كان الإسلام يفقد روحه الحربية واحساسه بالمصير ، في المنافسات التافهة والحروب الأهلية مما كان يترك العالم الاسلامي لا يملك مصدراً للمقاومة يعتمد عليه عندما

انقضى عليه التهديد المغولى المريع بعد ذلك بمائة وخمسين عاماً . ولكن الحروب الصليبية أوجدت صلاح الدين ، وأظهرت انتصاراته على الفرنجة بالطريق فيما بعد أمام السلطان المملوكى بيبرس الذى قضى نهائياً على الصليبيين ورد المغول على أعقابهم فأخذ الدين الاسلامى من الفناء وظفر للعالم العربى بفترة أخرى من الاستقلال النسبى قوامها قرنان ونصف القرن .

فى أول الأمر انتصر الصليبيون على طول الخط حيث كانت لهم ميزة المباغته . فبعد أن انضموا إلى الجيوش البيزنطية التابعة للقسطنطينية ، فى عام ١٠٩٧ احتلوا نصف آسيا الصغرى قبل بدء الصيف ، ثم تدفقوا على جبال طوروس وأخذوا أنطاكية عنوة بعد أن حاصروها تسعة أشهر . وهنا ساعدتهم إلى حد كبير الجاليات النصرانية المارونية التى كان حاكم أنطاكية السلاجوقى طردهم منها . ومن أنطاكية واصلوا الزحف على فلسطين مما أسفر عن قتل مائة ألف من المسلمين ، على ما يحدثنا ابن الأثير . وفى ٧ يولية ١٠٩٩ فرضت جيوش الصليبيين المشتركة والبالغة ٤٠٠٠ رجل ، الحصار على بيت المقدس التى كانت آنذاك تحت سيطرة الفاطميين المعرضة للتهديد . صمدت الحامية المصرية الصغيرة التى لا يزيد أفرادها عن الألف ، أمام العدو لمدة خمسة أسابيع ، إلى أن أحدث الصليبيون فى ١٥ يولية ثغرة فى سور المدينة الشمالى وتدفعوا إلى داخل بيت المقدس .

ثم بدأت مذبحة من أشد المذابح دموية وقسوة فى التاريخ . ليس هناك أرقام يطمئن إليها ، عن مجموع من هلك من المسلمين ، ولكن ابن الأثير يحدثنا أن سبعين ألفاً ذبحوا فى المسجد الأقصى وحده ، كلهم من غير المحاربين وبعضهم من الأئمة وعلماء الدين ممن لجأوا إلى ما يعتبر حرماً آمناً طبقاً لقوانين الحرب الإسلامية . وذكر رواية الأخبار المسيحيون هذه الرواية ، وكتب قسيس صليبي يهمل طرباً للفظائع التى ارتكبت ، فقال « مناظر مدهشة نعمت

بها أعيننا . فالبعض من رجالنا وهم الأكثر رحمة وشفقة، حزوا رؤوس الأعداء؛
ورماهم غيرهم بالسهم فسقطوا من الأبراج ، وآخرون عذبوا لوقت أطول
بأن ألقي بهم في النيران . كالت أكوام من الرؤوس والأيدي والأقدام .
تشاهد في شوارع المدينة « . لا عجب أن كان الصليبيون في نظر العالم الإسلامي »
« حيوانات تملك فضائل الشجاعة والقتال ولا شيء خلاف هذا » .

هذه « المناظر المدهشة » استمرت أسبوعاً بأكمله ، كان فيه النساء والأطفال ،
والشيوخ والشباب ، والجند والمدنيون ، والعرب واليهود ، يقتلون في مذبح لم
تتفوق عليها في الوحشية مذبح أخرى بل ولم تبزها غزوات المغول . وفي النهاية
عندما انطفأ تعطش الصليبيين للدماء ، أخذوا يعملون على دعم مركزهم . عاد
إلى الأوطان أولئك الذين كانوا قد حضروا فقط من أجل إعادة الأماكن
المقدسة المسيحية إلى سيطرة المسيحيين . ولكن تخلف عدد أكبر وأقام في
فلسطين . فمن الجيش الضخم الذي استجاب لدعوة البابا كان عدة من الزعماء
قد جاءوا للحصول على إمارات يحكمونها ؛ وجاء البنادقة والجنويون لتنمية
مصالحهم التجارية ؛ بينما كان الكثيرون من العوام لا يسمعون إلا إلى
الهروب من الفقر وقذارة الحياة في فرنسا وإيطاليا . ووقع الاختيار على
جودفري أوف بويون القائد العام الصليبي ليكون ملكاً على الدولة اللاتينية
لبيت المقدس ، واحتفل بتنصيبه بأن استولى على مدينتي حيفا ويافا الساحليتين .
بمساعدة أسطول البندقية . وأعقب ذلك مذبح فظيعة أخرى عندما دعا
المنتصرون الحامية والأهلين إلى التجمع حول صليب باعتبار أنه حرم مقدس .
ثم قتلهم جميعاً . واحتاج العالم الإسلامي إلى أربعين سنة أو أكثر كي يعي
جيوش التحرير . ولكن هذه الفظائع - وخاصة مذابح بيت المقدس التي
ارتكبت في رمضان وهو الشهر المقدس - لم يتسها أو يغفرها أبداً
عالم الإسلام .

فى السنوات التالية قتل جودفرى خلال قتال ، وعندما خلفه أخوه بلدوين شدد الصليبيون من قبضتهم على سواحل الشام وفلسطين ، فاستولوا على قيسارية وبيروت وصور وصيدا وجبيل وطرابلس ، وكان الأهالى يقتلون أو يعذبون كى يسلاموا مقتنياهم . ولم يحل عام ١١١٠ حتى كان ملك الفرنجة صاحب السلطة العليا ، وكان موضع الكراهية فى كل مكان ، من أنطاكية إلى العقبة . وقسمت الأراضى الواقعة تحت سيطرته إلى ثلاثة أجزاء : مملكة بيت المقدس الممتدة من بيروت إلى العقبة ؛ إمارة أنطاكية من اللاذقية حتى حدود أرمينية ؛ مقاطعة طرابلس . ولكن الفرنجة إذ جزأوا فتوحهم ، إنما نقضوا ماتعهدوا به للإمبراطور البيزنطى بأن يمسحوا بعودة أنطاكية إلى الروم لقاء المساعدة التى قدمها الأخيرون . ولذلك انسحب الروم إلى آسيا الصغرى ليغذوا مظالمهم ، وتركوا حلفاءهم الفرنسيين الغادرين يعملون بدونهم . والآن استقر الفرنجة فى فتوحهم الجديدة على نحو ما فعل المستوطنون الفرنسيون فى الجزائر فى القرن التاسع عشر ؛ وكانوا فى بعض الحالات يبتزعون كل ياردة مربعة من الأرض لأنفسهم ويطردون الفلاحين من أهل البلاد ، ويجبرون النساء العرب على الزواج المختلط وعلى الخروج عن دينهم .

لكن ، رغم ما ارتكب الصليبيون من أفظائع وأعمال النهب ، لم يرتفع إصبع فى بغداد لمساعدة فلسطين أو الشام ؛ وفى مصر احتفظ الوزير الفاطمى الأفضل بجيشه فى داخل البلاد ، ولم يبعث بأسطوله إلا من وقت لآخر ليضايق البحريات الصليبية التى تحاصر المدن الساحلية . إلا أن الأراضى التى سيطر عليها الصليبيون كان لا يمكن الدفاع عنها إلا بصعوبة ، إذا تعرضت لهجوم مصمم (بتشديد الميم الأولى وكسرها) تقوم به قوات برية ، وذلك بسبب افتقارهم إلى أى دفاع فى العمق . وإذا استثنينا الرها وراء الفرات فى شرق أرمينية ، واستثنينا بيت المقدس ، فإن جميع البنادر والمدن الداخلية

كانت في أيدي العرب . فلم تتعرض دمشق وحلب وحمص وبلبك وحمّة أبداً للتهديد بشكل خطير ، وخل عنك أن الغزاة لم يفتحوها ، وأقامت سلسلة جاهزة من القواعد لبشن منها هجوم مضاد ضد عدولا يبعد إلا على مسيرة يوم واحد . ولكن لم يأت أحد من عاصمة بني العباس . وحتى لما سقطت بيت المقدس وذبح أهلها ، وجد الوفد الذي توجه لطلب المساعدة من الخليفة ، أن السكل في بغداد يسكون ولكنهم غير مستعدين لشن الحرب بسبب ما نزل بإخوانهم . فالأتراك السلاجقة الذين كانوا ينتصرون على طول الخط ، لم تعد لهم أية قابلية للقتال إلا فيما بينهم . وكما يلاحظ ابن الأثير ، فإن الفرنجة لعنهم الله حققوا فتوحهم بسبب الانقسامات في صفوف المؤمنين ، إذ في الحقيقة كانت جيوش المسلمين وقادتها في حرب باستمرار مع بعضهم بعضاً ، وكانت اتجاهاتهم متنافرة ، وأهدافهم منقسمة ، ومواردهم المالية مبددة .

وفضلاً عن هذا كانت خزائن الخلافة تفرغ بسرعة كلما تفككت الإمبراطورية وانقطعت الإيرادات الغنية وتوقفت عن التدفق من الولايات إلى بغداد . وعلى كل نداء بطلب المساعدة ضد الصليبيين كان السلاجقة يردون بأن السلطان ليس عنده مال ، ولن تكف قواته أبداً عن أن تطلب منه مالا يستطيع أن يعطيه لها . أما الحملة أو الحملتان اللتان دفع النجمل السلاجقة في النهاية إلى إرسالهما إلى الشام وفلسطين فكان مصيرهما الذوبان والتفرق لما رفض أمراء الشام التعاون ، أو مزقها الفرنجة إرباً . وبخلاف هذه الإجراءات النصفية الفاشلة اقتسرت مقاومة المسلمين لما يقرب من خمسين سنة على غارات تلقائية تشنها القبائل العربية التي كانت أعدادها وأسلحتها غير فعالة تماماً ضد المعادل الصليبية . ولكن في عام ١١٤٤ تلقى احتكار الصليبيين للقوة خبطة وحشية عندما فرض عماد الدين زنكي حاكم الموصل ، الحصار على الرها وهي الحفر الأمامي الشرقى للممتلكات الصليبية واستولى عليها . بهذه الضربة

العنفية الواحدة أزال المسلمون الإسفين الذي كان الصليبيون قد دقوه للفصل بين الشام والعراق . وأكثر من هذا ، كان انتصار زنكي يشير إلى « بداية نهاية » حكم الصليبيين في فلسطين وعرب الشام ، وبدأ الثأر الإسلامي الذي سوف ينتصر فيما بعد ، بقيادة صلاح الدين .

كان السلطان السلجوقي ملك شاه زنكي إبناً لعبد تركي ، وقفز إلى الشهرة لأول مرة في عام ١١٢٦ عند ما أحبط وهو والٍ على البصرة ، محاولة من جانب الخليفة لقلب السلطان . ومكافأة له على خدماته عينه السلطان والياً أو « أتاك » على الموصل . هذا اللقب ومعناه « حارس الأمير » مشتق من حقيقة أنه في ولايات معينة كان أمير سلجوقي يشغل منصب نائب الخليفة تحت حماية الوالي . بدأ زنكي الآن يحلم بتأسيس مملكة من السلطنة السلجوقية المتوهورة ، وفي عام ١١٢٨ نجح في إقناع السلطان بمنحه سلطة عامة في جميع أرجاء الشام . وبهذه المساندة دخل حلب حيث استقبله أهلها بالفرحة البالغة ، ثم واصل السير إلى حماه حيث خدع حاكمها السلجوقي لينضم إليه بحجة أنهما سوف يتوجهان سوياً لمهاجمة الفرنجة . وعند ما وصل الشاب الصديق إلى معسكر زنكي ومعه حامية حماة كلها ، قبض عليه على الفور ومعه ضباطه بينما زحف زنكي واستولى على المدينة العزلاء .

تنبه السلطان السلجوقي الآن للخطر الناجم من تزايد قوة الأتابك . وكذلك كان الحال بالنسبة إلى الفرنجة . ولكن زنكي هزم جميع الوافدين من السلاجقة والصليبيين ، وفي عام ١١٣٧ توغل في الأرض المسيحية . ثم ارتد إلى أرض السلاجقة واستولى على بعلبك حيث أعدم الحامية بعد أن أمنهم على حياتهم إذا سلموا المدينة . انتشر خبر غدره بسرعة ، وعند ما توجه لحصار دمشق لم يكن الأمير السلجوقي على استعداد لتصديق ما عرضه من مبادلة بعلبك

بالعاصمة الشامية ، بحيث أنه عندما أخفقت مدافع الحصار في تحقيق غرضه ، اضطر زنكى هذه المرة إلى الاعتراف بالهزيمة .

أما وقد أصيب زنكى بالإحباط في ميدان القتال ، لجأ الآن إلى الدبلوماسية للحصول على التأييد بينما وسع إمبراطوريته الخاصة . هنا حقق نجاحاً وبصفة خاصة لأن السلطان السلجوقي لم يكن في وسعه أن يرفض عروضه في هذا الموقف الحرج . أحد الأسباب في هذا أن السلاجقة كانوا يعانون هزائم جديدة في الشرق على أيدي مجموعة جديدة من القبائل التركمانية من بلاد ما وراء النهر — وكان هذا تهديداً هو من القوة بحيث أنه حتى أهل السنة والشيعة اتفقوا مؤقتاً على دفن صراعهم . وثمة سبب آخر هو أنه مهما قد تكون أطماع زنكى النهائية فقد كان في ذلك الوقت يدبر حاجزاً بالغ النفع والفعالية ضد التهديد من جانب الغزوات الصليبية شرقاً .

لهذه الأسباب وافق السلاجقة في عام ١١٤٣ على معاهدة عدم اعتداء . كان زنكى الآن حراً في التحرك ضد الصليبيين دون خوف من هجوم سلجوقي في مؤخرته . وبعد شهور قلائل جمع أمراءه وتحدث إليهم قائلاً إنه لن يتناول معه العشاء تلك الليلة إلا الذين سوف يدقون في الغد أبواب الرها برماحهم . لم يرفض أحد الدعوة ؛ وفي الغد سقطت الرها — لا أمام رماح الأمراء ، ولكن أمام المهندسين من العسكر الذين قوضوا الاستحكامات .

وسقطت حصون للصليبيين في تعاقب سريع . ولكن سقوط الرها أسفر عن الحرب الصليبية الثانية ، كما أن موجة التعزيزات الفرنجية التي هبطت الآن على فلسطين ، أوقفت مؤقتاً عمليات زحف جديدة من جانب المسلمين . ثم اغتيل زنكى في عام ١١٤٦ على يد أحد عبداًه أثناء حصاره لقلعة صليبية . عند ما توفي كان معه ابنه نور الدين الذي أخذ منه خاتمه رمزاً للسلطة ، وأسرع (م ١٦ — العرب)

إلى حلب حيث استقبل كخلف لزنكى. كان نور الدين إدارياً حازماً ومقتصدًا وورعاً، متعته الوحيدة لعب البولو من وقت لآخر؛ وكان كأبيه داهية تماماً، ففي عام ١١٥٤ ظفر بالسيطرة على دمشق دون طلقة واحدة بأن ادعى أنه يحذر أهلها من هجوم وشيك من قبل الفرنجة. وبعد أن استقبلوه بأذرع مفتوحة أقنع الولى بقسليم المدينة مقابل تعيينه والياً على حصص، فلما توجه الأخير للمطالبة بالمدينة اكتشف أن نور الدين أعطاه لشخص آخر. ومن دمشق عمل نور الدين على توسيع إمبراطورية أبيه على حساب الصليبيين، وفي ظرف عشر سنوات جعل من نفسه سيد الشام بالفعل فيما عدا أنطاكية.

ولكن بينما كان نور الدين يكتسح كل شيء أمامه في الشمال، كان الفرنجة يبدأون تهديداً جديداً في الجنوب. كانت عسقلان قاعدة الفاطميين البحرية شمال غزة قد وقعت في أيديهم وبذا فتح الطريق إلى مصر. وفوق كل شيء أراد عمورى (أمريك) ملك بيت المقدس الجديد الاستيلاء على مصر حتى ولو كلفه هذا أنطاكية. ولكن عمورى لم يكن الوحيد الذى يريد مصر. فقد كان نور الدين بالمثل يحن إلى أن يضيفها إلى أملاكه، وإلى أن يعمل بصفته سنياً متعصباً، على أن يقضى على الخلافة الفاطمية في القاهرة هي وزندقتها الشيعية. وحانت فرصة نور الدين في عام ١١٦٤ عند ما قدم دمشق وزير فاطمى اسمه شاور كان الحرس البريتورى قد عزلوه لصالح زعيم من البدو، وكان قدومه بغرض الحصول على تأييد يعيده إلى منصبه في مصر، وعرض ثلث ثروة^(١) مصر ثمناً للتأييد. وافق نور الدين على تقديم المساعدة شريطة أن يعترف له شاور بالسيادة إذا ما نجح. ثم الاتفاق على الصغقة، وبوئى نور يشاور ليسترد منصبه الوزارى في مصر، على رأس جيش بقيادة أقدر قواده وهو أسد الدين شيركوه أيوب.

(١) الموهود خرج مصر أو إدراتها — المترجم.

كان شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب من عائلة كردية في شمال العراق، وقضيا وقتاً طويلاً في خدمة أتابكة الموصل وحلب . وفي عام ١١٣٢ وكان نجم الدين عاملاً على تسكرت ، عرض إيواء ومساعدة والد نور . ومكافأة له على ما تحمل من متاعب في تلك الأيام المبكرة بينما كان زنكي لا يزال يتعرض لضغط شديد من جانب السلاجقة، عين حاكماً على بعلبك في سنة ١١٣٩، كذلك ترقى شيركوه إلى أعلى منصب في جيش زنكي ، ثم كان مبرزاً بعد ذلك في حملات نور ضد الصليبيين في الشام . ولكن حملته إلى مصر مع شاور كادت أن تقضى عليه . ذلك أنه لما هزم الوزير الحاكم ووضع شاور مكانه أنكر الأخير على الفور اتفاهه مع نور ورفض أن يعترف له بالسيادة ، ثم أمر شيركوه نهائياً بالعودة إلى الشام . رد شيركوه بالاستيلاء على بليس في دلتا النيل ليتخذ منها قاعدة له ، وعندئذ طلب شاور من الصليبيين أن يساعده على إخراجه . فعرض على عموري ألف دينار عن كل مرحلة من المراحل السبع والعشرين التي تمثلها المسيرة من بيت المقدس إلى النيل . بدأ عموري الزحف على الفور ، وهو الذي لم يكن بحاجة إلى مغريات مالية لتأق به إلى مصر . وبعد ثلاثة أشهر من الحصار الذي فرضته القوات الصليبية اضطر شيركوه تحت ضغط تهديد الموت جوعاً ، إلى عقد هدنة وخرج من مصر . ولكن نور الدين لم يكن بالذي يُحرم بمثل هذه السهولة ، فبعد عامين أرسل شيركوه مرة ثانية ليدخل مصر في مدار البلاد التي تؤدي له الجزية . ومرة أخرى اتحد شاور الغادر وعموري الطامع . ولكن في هذه المرة كان شيركوه أسرع منهما ، وقبل أن يتمكن الفرنجة من اعتراضه ضرب معسكره قبالة القاهرة في ظل هرم الجيزة الأكبر . جلس شيركوه شهراً في مواجهة قوات شاور وعموري المشتركة ، عبر النيل . ولكن عموري كان لا يرغب في مغادرة معقله في القاهرة؛ فلما تظاهر شيركوه بالانسحاب نحو الجنوب كان

فى ذلك ما أغرى عمروى بمطاردته . وبرغم أن قوات عمورى هى الأقوى من حيث العدد إلا أن المغامرة كادت أن تكلفه هو وشاور حياتهما . فقد اتبع شيركوه تكتيكاً أثبت نجاحه ضد الفرنس فى نهاوند سنة ٦٤٢ ونادراً ما أخفق عند استعماله ضد أعداد أكبر . فبعد تراجع فى المركز فى شكل اضطراب مدبر بعناية استدرج الفاطميين والصليبيين إلى هجوم قاتل شنه فرسانه على الجانبين وأسرت البقية الممزقة بالعودة إلى القاهرة .

جاء الآن دور شيركوه ليخطىء . فبدلاً من أن يهاجم القاهرة سلك السبيل الأسهل وهو احتلال الإسكندرية حيث فتح أبوابها أهلها الذين يسكروهن شاور وحلفاءه السكفار ورحبوا بمحاربتهم الشاميين . بهذا الذى عمله شيركوه أوقع نفسه فى فخ حيث سارع عمورى إلى محاصرة المدينة وساعده الأسطول الصليبي على إحكام الحصار . نجح شيركوه نفسه فى القسلى خفية من الإسكندرية مع معظم رجاله فى محاولة لإبعاد القائمين بالحصار وذلك بأن يهاجمهم فى المؤخرة . وترك حامية صغيرة من ألف رجل بعد أن أصدر لها الأوامر بالصمود أطول وقت ممكن ، ولكن قبل أن أمكن تنفيذ المناورة كان مركز الحامية قد أصبح مما لا يمكن الدفاع عنه ، وفى أغسطس ١١٦٧ اضطار شيركوه إلى عقد اتفاق مع الصليبيين .

كان قائد الألف شامى المحصورين إبناً لنجم الدين أيوب يدعى صلاح الدين يوسف بن أيوب الشهير باسم صلاح الدين والذى ولد قبل ذلك بتسعة وعشرين عاماً فى تكريت عند ما كان أبوه عاملاً عليها . هذا الشاب النحيل الليال إلى العزلة والذى كانت ابتسامته الجذابة تخفف من تعبى حزين نوعاً ، كان يهتم ، بعالم الدين بوجه خاص . وعند ما أصر عمه شيركوه على أن يصاحب صلاح الدين حملة شاور إلى مصر ، لم يكن الشاب شديد الرغبة

فى أن يستبدل هدوء بعلبك ومروج وادى البقاع المحيطة بها بمسيرة طويلة فى جو حار ، وغير مضمونة . لم يكن السبب افتقاره إلى الشجاعة ؛ بالعكس كان يكشف فحسب فى البداية عما قدر له أن يصبح حياة عسكرية مظفرة وهو أنه كان أكثر فاقح فى التاريخ كله عزوفاً عن الحرب .

وكما أظهرت المناقشات التى أعقبت سقوط الأسكندرية كان صلاح الدين بملك موهبة رائعة للدبلوماسية وتفضيلاً قوياً للمفاوضات كوسيلة لتسوية المنازعات . فبرغم ضعف مركز شيركوه العسكرى عند تلك النقطة ، نجح بمساعدة صلاح الدين فى الحصول على صفقة متكافئة فى هذه المفاوضات . فبرغم أنه اضطر إلى الموافقة على سحب قواته ودفع جزية لملك بيت المقدس الفرنجى حصل بالمقابل على جلاء معظم الجيش الصليبى عن مصر . وهذه المباحثات كانت أولى إتصالات صلاح الدين بالزعماء الصليبيين . وبلغ من دهشة عمورى وقواده لاكتشافهم بأنه كان إنساناً على درجة عالية من التعليم والحضارة ، أن أنعموا عليه برتبة فارس الشرفية .

ولكن برغم كل هذا الملق كان صلاح الدين وشيركوه يعرفان جيداً أن انسحاب عمورى من مصر ما هو إلا خدعة لتخدير أعصاب خصومه المسلمين بينما يعد لهجوم جديد . ومن ثم فعند عودتهما إلى الشام بدأت استعدادات محمومة لإرسال حملة أخرى إلى مصر . مثل هذه العجلة كان لها ما يبررها تماماً؛ إذ فى ظرف شهور قليلة من توقيع الهدنة عقد عمورى صفقة مع إمبراطور الروم تقضى بتقسيم مصر بينهما ، ثم زحف بنفسه على القاهرة بحجة أن شاور تأخر فى أداء الجزية المفروضة عليه . لعل هذا صحيح فابن الأثير يحدثننا أن شاور كان يحاول أيضاً رشوة نور الدين بمبالغ كبيرة من المال كي يدعه فى سلام . أبدت القوات الفاطمية مقاومة بأسلة فى بليس ولسكنها كانت أقل عدداً . بكثير وهزمت . وأعدم سكان بليس بما فيهم الأقباط ، وسار عمورى ليتقبل

استسلام القاهرة . والآن توسل شاور الفطيم إلى نور أن ينقذه وأجبر الخليفة الصبي التمس وهو العاضد ، على توقيع نداء الاستغاثة الذي كان في طيه خصل من شعور نساء الحريم اللأى التمسن الخلاص من أيدى الفرنجة . ولكن ، أما وقد تعرض نور مرة لإنكار فضله ، فإنه لم يكن في حالة نفسية تسمح له بالاستجابة إلى نداء شاور . وكان رده أن بعث بشير كوه وصلاح الدين مرة ثانية إلى مصر على رأس جيش من ثمانية آلاف فارس ، ومعهم أوامر بالقضاء على الحكم الفاطمي ، وعلى الاحتلال الصليبي أيضاً .

أما وشاور الآن في حالة يأس ويواجه الهزيمة على أيدي كل من الفرنجة والشاميين ، لعب ورقته الأخيرة . فجدد عرضه الخاص بثلاث إيراد مصر مقابل حماية نور له من الفرنجة ، وفي الوقت نفسه سعى إلى كسب ود عموري بأن أئذره باقتراب شير كوه . ولكن كان شير كوه هو الذي استفاد في النهاية من هذه الحادثة . إذ لما زحف الفرنجة لاعتراضه سبقتهم مرة أخرى قواته السريعة الحركة إلى درجة عالية . وفي ٦ ديسمبر ١١٦٨ دخل شير كوه أخيراً القاهرة دون أن يلقى مقاومة ، فخلع عليه الخليفة الفاطمي خلع الوزارة وأكرمه .

مما يدعو إلى الدهشة أن يتقبل عموري هذه النكسة وينسحب من مصر ولن يعود إليها أبداً . وفي هذه الأثناء عمل شير كوه على تثبيت مركزه كحاكم مصر من حيث الواقع ، ولكنه لم يعمل شيئاً لمزل الخليفة الفاطمي . ويحدثنا أبو الفداء أن شاور وجه جهده الآن نحو استماله شير كوه ، فكان يتردد عليه يومياً ووعده أن يحترم اتفاقاته الماضية بل وأقام الولائم تكريماً للذي غلبه على أمره . واقتصر شير كوه على تجاهل التماساته ووعوده . ولكن لم يكن هذا بموقف صلاح الدين الذي صمم على قتل شاور ، فأغراه بالتوجه إلى قبر مقدس بحجة أن شير كوه يرغب في مقابلته ، وهناك قبض عليه . أبلغ نبأ القبض إلى شير كوه ولكنه رفض الموافقة على إعدام شاور إلا إذا حصل على الموافقة الشخصية من الخليفة .

ووافق العاضد ، ولما قدمت إليه الرأس المفصولة عن جسدها ، عين شيركوه
وزيراً وأضاف إليه لقب القائد العام .

ولكن لم يطل العمر بقائد نور اللامع ليتمتع بثمار حملاته المتصلة حيث مات
بعد شهرين من توليه وزارة مصر ، وخلفه صلاح الدين . هكذا انتقل حكم مصر
إلى يد معلم الدين الشاب الذى قال عند ما أمر بأن يصحب حملة شيركوه
الثالثة والأخيرة ، إن عليه الطاعة ولكن لو عرضت عليه المملكة نفسها لما تطوع
للمعودة إلى مصر بعد المأسى التى لاتنسى والتى تحملها فى حصار الأسكندرية .

(١٦)

انتصار صلاح الدين

من الآن فصاعداً انتقل مركز القوة في العالم الإسلامي إلى مصر حيث بقي فيها إلى أن أنزل الأتراك العثمانيون الهزيمة بالسلطين المماليك ونقلوه إلى القسطنطينية بعد ذلك بثلاثمائة وخمسين عاماً . كانت بغداد خارج الحساب ، وبرغم أن نور الدين قد رد حدود الصليبيين في الشام إلى الورا ، كان ما يزال معزولاً بطريقة فعالة ، حيث الدولة اللاتينية للمعادية في فلسطين من جهة والدولة العباسية المحايدة في العراق من جهة أخرى . مصر فقط هي التي كانت توفر الموارد وحرية المناورة مما يلزم لزعزعة قبضة الفرنجة على فلسطين — ولتحقيق هذه الغاية كرس صلاح الدين نفسه . فأفلع عن شرب الخمر ، وترك وسائل اللهو ، وأقسم أن يفتزع بيت المقدس من الفرنجة وأن يؤسس أسرته السننية مذهباً في مصر .

لكنه اضطر خلال العامين الأولين إلى أن يخطو في حذر . فقد ثار حرس القصر من النوبيين في أغسطس عندما أمر صلاح الدين بإعدام قائدهم جزاء خيانتهم ؛ وبعد هذا امتنع عن أى تدخل آخر في بيت الخليفة الشخصي . ثم في أكتوبر وقد قرر الروم متأخرين تنفيذ الصفقة التي سبق لهم عقدها مع صموري نزلوا على دلتا النيل وحاصروا دمياط لمدة خمسين يوماً عدلوا بعدها عن المحاولة وأفلعوا عائدين إلى بلدهم . ولكن أخطر مشكلة واجهت صلاح الدين نشأت من الإزدواج الغريب الذي اتسم به مركزه . فمن جهة هو مدين بقوته إلى نور الدين الذي كان جنوده الشاميون يشكلون القلب الصلب لجيش صلاح الدين ؛

ومن جهة أخرى فبوصفه وزير مصر كان مديناً بولاء صوري للخليفة الفاطمي الذي كان نور الدين يود أن يراه وقد قضى عليه هو الزندقة الشيعية التي يمثلها. وبغضه عن هذا أحس صلاح الدين الحذر أن أفضل أمل له في القضاء على الفاطميين وإعادة الشعب المصري إلى مذهب أهل السنة السني ، هو أن يتذرع بالصبر وأن يعامل الخليفة برفق إلى حين . ذلك أنه من قبيل التناقض أن نفس ضعف العاضد الشاب أدى إلى قدر بالغ جداً من العطف الشعبي على نظام الحكم الفاطمي .

ولكن كان كثيراً جداً أن يُتوقع من نور الدين المقيم بعيداً في حلب ، أن يفهم هذه الأمور الدقيقة . فبعد أن انتظر النتائج قرابة عامين نفذ صبره ، وأرسلت أوامر قاطعة إلى القاهرة بالدعاء في خطبة الجمعة للخليفة العباسي الذي كان نور الدين ما يزال يعتبره مليكته الأسمى ، بدلاً من الدعاء للعاضد . وعندما تردد صلاح الدين قائلاً إن الشعور الشيعي والتأييد للعلويين مازالا قويين في مصر ، وأن الخليفة الشاب سوف يموت على أي حال بعد قليل من مرض لا يرجى مناشفاء ، هدد نور الدين بالقدوم بنفسه إلى مصر لتنفيذ أوامره . لكن منعه من تنفيذ هذا التهديد وقوع زلزال خطير دمر الكثير من تحصيناته على الحدود . وبرغم هذا بعث بسني من شيوخ الموصل فاعتلى المنبر في أحد مساجد القاهرة في ١٠ سبتمبر ١١٧١ ، بدون إنذار مسبق ودعا للخليفة بغداد .

مر هذا الحادث دون صراع أيّاً كان^(١) ، وفي يوم الجمعة التالي ، وقد اقتنع صلاح الدين الآن بأن التحول إلى المذهب السني يمكن أن يتم دون خطر من وقوع عنف ، أمر جميع المساجد الأخرى بأن تحذو نفس الحذو . ولكنه أبى السماح بإبلاغ الخبر إلى العاضد قائلاً : « دعوه يموت في سلام » .

(١) دون أن « يتطلع فيه عنزان » على حد تعبير ابن الأثير . — المترجم .

وبعد ذلك بثلاثة أيام مات الخليفة الفاطمي الرابع عشر والأخير ، ونودي بصلاح الدين سلطاناً على مصر . ولكن رغم أن واحداً من أعز أطاعه تحقق ، لم يكن في وسعه أن يفتبط بالعكس ، لأم نفسه بمرارة لأنه رفض بدافع الخوف من الخيانة ، أن يدخل على الصبي ليراه وهو راقد يحتضر ، وكان يتحدث عنه دائماً بعاطفة دافئة من المحبة .

بموت العاضد فقد الشيعة آخر أمل لهم في تثبيت مركزهم كالفئة الحاكمة في الإسلام . استمرت المؤامرات العلوية لحظة في مصر ولكن لم تزد على كونها رعشات عصبية للجمعة الشيعية . لم يبق التشيع على قيد البقاء كضلالة سائدة ، إلا في جنوب العراق مسرح استشهاد الحسين ، وفي فارس التي اتخذها العلويون قاعدة لهم منذ أيام عليّ الرضا ومؤسس الاسماعيلية عبدالله بن ميمون ، وفي اليمن التي أصبحت ملجأ القرامطة الأخير . وفيما عدا هذه الأجزاء ظل العالم العربي على ولائه للمذهب السني أو عاد إليه دون أن ينظر إلى الوراء لحظة ، خلال بقية حياته .

توقع نور الدين الآن من صلاح الدين أن يستغل سيطرته على مصر لينضم إليه في سحق الفرنجة . ولكن صلاح الدين لم يكن ليقبل أن يُدفع إلى تعجل الأمور . فبينما كان على درجة كافية من الاستعداد لإزعاج المراكز الصليبية على الحدود في غزة ، لم يكن مستعداً بعد لشن حملة كبرى . كما لم يكن ليكره إطلاقاً إبقاء مملكة الصليبيين في بيت المقدس كما جاز بينه وبين مولاه المتعجرف^(١) .

انتظر نور مرة ثانية أملاً في أن يستجيب صلاح الدين بغير ضغط ، ولكن عندما لم ترد استجابة مصر نفذ صبره وزحف على فلسطين وأمر فائبه أن ينضم إليه أمام الكرك وهو معقل صليبي عند الطرف الجنوبي من البحر الميت . قرر صلاح الدين أن يسلك مسلكاً وسطاً وسار لمهاجمة الكرك .

(١) ذكر ابن الأثير أن صلاح الدين حرص على عدم التوسع في حرب الصليبيين ليطالوا ستاراً يفصل بينه وبين نور الدين — المترجم .

ولكن عندما وصل جيش نور إلى المسكن تحجج صلاح الدين بموت أبيه في مصر ، ليبرر عدم إمكانه الاشتراك في حملة مشتركة وبادر بالعودة إلى مصر . ولم يتحسن مزاج نور الدين عندما انقض عليه جيش كبير من الفرنجة بعد رحيل صلاح الدين ، ولم يتخلص إلا بعد أن تحمل خسائر فادحة . وبعد ذلك هدد بغزو مصر وإخضاع مرؤوسه غير المتعاون . لم يكن السلطان بالتأكد غير خائف من هذه التهديدات ، وأرسل أخاه توران شاه للاستيلاء على النوبة ليتخذ منها مأوى إذا أخرجه نور الدين من مصر . ولكن قبل أن توضع المشكلة موضع الاختبار مات نور الدين ، من التهاب في اللوزتين ، في دمشق في مايو ١١٧٤ وهو يرسم بالفعل خطته لغزو مصر .

كانت هذه خبطة حظ مزدوجة بالنسبة إلى صلاح الدين . فهي قد خففت من الضغط عليه كي يهاجم الصليبيين قبل أن يكون مستعداً ، كما فتحت إمكانية إضافة الشام إلى سلطنته بعد أن انتقلت وراثة الأتابكة إلى ابن نور الدين وهو الصالح اسماعيل وكان في الحادية عشر من العمر . وبينما صلاح الدين يفكر في خطواته التالية قام عمورى بقفزة إلى الأمام بأن عقد تحالفاً ضده مع الوصى على الصالح . عندئذ دارت عجلة الحظ فجأة لصالحه . إذ بعد شهرين من توقيع الميثاق مع الوصى على الأتابك ، وقبل أن يتمكن الفرنجة من التمهئة لمهاجمة مصر ؛ مات عمورى بالدوسنطاريا . في ظرف ثمانية أسابيع فقط كانت الصورة بكاملها تغيرت ، إذ مات منافس الرئيسيان ، المسلم والمسيحي ، وبذا بقي هو القوة والشخصية المسيطرة في الشرق الأوسط . وخرت الشام على قدميها بلازعامة وتنتظر الاستيلاء عليها . وراحت الدولة المسيحية في فلسطين تتفكك من الآن فصاعداً إلى صراعات داخلية في ظل سلسلة من ملوك يعانون اعتلال الصحة أو ضعف .

هذا التغير المثير المفاجيء انعكس على سلوك صلاح الدين . فإذا طرح

جانبا حذره السابق أمسك الآن بالفرصة بكلتا يديه . فلما دعاه جماعة من
 أمراء الشام ليخلصهم من الوصى الغادر ، أسرع إلى دمشق حيث انحازت
 إليه الحامية الشامية كرجل واحد . فر الحاكم الصبي إلى حلب ، وخرج
 السلطان ليستولى على حماه وحمص وبلبك . وبما تحول صلاح الدين جانبا
 ليعالج أمر هجوم دبره الفرنجة ليصرفوا أنظاره ، دعا الصالح ابن عمه سيف
 الدين حاكم الموصل مع جيش كبير للمساعدة في الدفاع عنه في حلب . عرض
 صلاح الدين حلا وسطا يقضى بأن يبادل حمص وحماه بحلب ، فلما رُفضت
 شروطه على الفور ، انقض على قوى الأتابك الشاب المتحالفة . عرض الصالح
 الآن ؛ وبروح من الشهامة وافق صلاح الدين على أن يدعه في حلب ويكتفي
 ببيئية أملاك نور الشامية .

إن ملك مصر والشام الجديد ، طبقاً للتسمية التي أطلقها الآن خليفة بغداد
 على صلاح الدين ، هذا الملك كان ما يزال عليه أن ينزع شوكة في لحمه
 يزداد ما تسببه له من ألم . فخلال قدومه إلى الشام وخروجه منها نجا مرتين
 بصعوبة من الموت على أبدى جماعة من المتعصبين الشيعة ممن سيصبح اسمهم
 مرادفاً للاغتيال . هؤلاء المتعصبون الذين أطلق عليهم اسم الحشيشية (نسبة
 إلى الحشيش الذي كانوا يتعاطونه لتخدير أنفسهم حتى يصبحوا في حالة من
 الجراءة الكاملة) ورثوا دور القرامطة حوالى نهاية القرن الحادى عشر .
 كان مؤسسهم داعيا فارسيا من دعاة الخلافة الفاطمية ، ادعى أنه من نسل
 أحد البيوت الحميرية الحاكمة في جنوب العرب . وفي عام ١٠٩٠ استولى
 على معقل في جبال البرز في فارس ، وراح مع عصابته من الأتباع يغير على
 أية قبائل أو مدن تعطف على النظام العباسى وتعمل فيها النهب والسلب .
 لقد جعل الحشيشية من القتل فناً رفيعاً ، وكانوا يستخدمون في العادة خناجر
 مسمومة للقضاء على ضحاياهم الذين كان منهم نظام الملك الشهير . ورغم

محاولات متكررة لتحطيمهم ظلوا على قيد البقاء في معقلهم الفارسي حتى عام ١٢٥٦ عندما أخرجهم منه الخان المغولي هولاكو وقضى عليهم في النهاية. وفي القرن الذي عاش فيه صلاح الدين مدوا نشاطهم إلى الشام حيث استولوا على حصن جبلى تحت قيادة زعيم جديد هو رشيد الدين سنان الذي كناه الصليبيون «شيخ الجبال»، ومن هناك أقسموا أن يقضوا على نور الدين أولا ثم على صلاح الدين، انتقاما لسقوط الفاطميين وإخوانهم في الزنقة. وبعد هجمات عديدة على جند صلاح الدين في الشام وعمليات قتل فيهم صمم صلاح الدين أن يضع نهاية للتهديد من جانب الحشيشية. ولما لم يكن أبداً بالذى يجعل نفسه عرضة للغدر، غزا أرض سنان. ولكنه وجد هو وقوانه المنظمة مليئة بالسحر الشرير بحيث أنه بعد أن اكتشف في مخدعه خنجراً مسموماً ومذكرة تهدده، بعث برسالة إلى سنان يعرض فيها أنه لن يضايقه بعد ذلك إذا فعل الحشيشية المثل. تمت الصفقة، ومن الآن فصاعداً ترك سنان سلطان مصر وشأنه.

خلال السنوات الثلاث التي انقضت منذ أخذ صلاح الدين دمشق، كان رد الفعل من ناحية الصليبيين سلبياً بشكل غريب. وسرعان ما أطلعه عيونه على السبب، وكان أحدهم محظية ملاك الفرنجة ومنها علم بوجود انتقامات عميقة في صفوف الصليبيين. فالمرارة بين الفرنجة والروم التي كانت قد بدأت بشأن أنطاكية، زادت وانقلبت إلى عدااء سافر، ثم أخذ الصليبيون يتشاحنون فيما بينهم. يضاف إلى هذا أنهم كانوا في حاجة شديدة إلى التعزيزات لأن الكثيرين منهم ضجروا وعادوا إلى أوطانهم. هذا الخبر كان كافياً كي يحمل صلاح الدين على القيام بمحاولة من مصر للاستيلاء على بيت المقدس، ولكن عند عبوره الحدود بالقرب من عسقلان فوق جيشه للبحث عن العلف، تاركاً نفسه مع حفنة فقط من العسكر والمماليك. كادت غلظته أن تسكفه حياته عندما أخذته الحامية الإفريقية في عسقلان على غرة.

ولم ينقذه سوى بسالة ابنه الأصغر الذى قتل وهو يبعد الفرنجة إلى أن تمكن أبوه من الهرب .

هذه النكسة وما صاحبها من مأساة شخصية ، هزت ثقة صلاح الدين بشكل خطير ، فاستأنف للخطوة نكته كانه الحذرة . ولكن الصليبيين لم يتابعوا نصرهم ؛ وبعد أكثر من سنة من التوقف استأنف السلطان ضغطه . فشن هجومه من الشام وأحرز انتصارين حاسمين فى ربيع سنة ١١٧٩ . وبعد ذلك بسنة طلب الفرنجة هدنة . لعله كان فى إمكان صلاح الدين أن يفرغ من الصليبيين نهائيا فى هذه المرحلة ، ولكن جفافا طال أمده سبب مجاعة فى أجزاء كثيرة من الشام وفلسطين ، وخوفا من أن استمرار القتال قد يزيد من نضوب موارد الغذاء القليلة للسكان ، وافق على وقف إطلاق النار . ولكن فى صيف عام ١١٨١ نقض الأمير الصليبي رينولد دى شاتيون الهدنة بأن أثار على قافلة المسلمين . كان صلاح الدين يأمل فى تسوية المسألة سلميا فطلب إعادة الغنائم . راوغ الفرنجة ، وخلال إثني عشر شهرا كاملة جاهد صلاح الدين فى صبر من أجل الوصول إلى تسوية سلمية . ولكن بعد وقوع اعتداءات جديدة على قوافل الحجيج أصبح صلاح الدين على اقتناع بأن رينولد يرنو بأبصاره إلى مكة والمدينة . فقرر ألا ينتظر أكثر من ذلك ؛ وفى مايو ١١٨٢ خرج من مصر للمرة الأخيرة ليقا تل الفرنجة .

وقبل أن يهاجم السلطان الصليبيين أحكم إغلاق باب الخلفى فى وجه أى تهديد بخيانة ساجوقية وذلك بأن استولى على الموصل وأرض الجزيرة بين دجلة والفرات . ثم أخذ حلب حيث كان الصالح قد مات قبل ذلك بوقت قليل . ولكن رغم أن المسرح كان معدا الآن للهجوم الكبير على فلسطين التى يسيطر عليها المسيحيون فإن صلاح الدين لم يكن فى عجلة لتوجيه الضربة القاضية إذ كان خليفة بغداد يقف موقف الحياد المشوب بالعطف ، وكان الأتراك السلاجقة

في الأناضول قد أفاقوا بالدرجة الكافية بحيث يحتمون الجيوش البيزنطية في آسيا الصغرى . فأولاً كان يريد أن يوفر الأمن من جديد للجهاج المسلمين وللسفن والقوافل التي يسطو عليها رينولد الغادر . وتبعاً لذلك هاجم قاعدة رينولد في الكرك في نوفمبر ١١٨٣ . وبعد توجيه بضعة طلقات إلى أسوار القلعة علم أن في داخلها حفل زفاف حيث كانت الأميرة الرومية إيزابلا التي سوف تصبح ملكة بيت المقدس فيما بعد ، قد تزوجت أميراً صليبيًا هو همفري دى تورون . وبالشهامة التي اتصف بها صلاح الدين سأل عن الجزء من الحصن والذي يتم فيه حفل الزفاف ، حتى يصوب رجاله نيرانهم نحو مكان آخر وكوفئت شهامته بأن أرسلوا إليه عينة من ألوان الطعام الذي قدم في الوليمة .

ولكن الشهامة لم تسكن كافية للاستيلاء على معقل رينولد الحصن تحصيناً جيداً ، وبعد عام وعندما عرض الفرنجة هدنة أخرى فرح السلطان وقبل العرض . مرة أخرى كان التوقف عن القتال يناسب كلا الجانبين . كان المرض قد أصاب صلاح الدين ؛ ومن ناحية الصليبيين زادت انقساماتهم حدة بسبب الدعاوى المتنافسة بشأن مملكة بيت المقدس . ظل صلاح الدين شهوراً عدة يعاني من المرض بصورة خطيرة ، فلما شفى وجد أن رينولد عاد إلى نقض الهدنة بشن هجوم على قافلة للمسلمين . مرة أخرى طلب صلاح الدين الإفراج عن الأمرى وإعادة مقتنياتهم ، ومرة أخرى كان جزاء الطلب الرفض . لقد اختبر الفرنجة صبره ، وأكثروا من استغلال حسن نيته . دقت ساعة الثأر ، وأعلن صلاح الدين الجهاد ضد الصليبيين ، بعد أن أقسم أن يعقل رينولد بيده .

وبحلول يولييه ١١٨٧ كانت الدعوة إلى الجهاد قد جمعت أكبر جيش قاده صلاح الدين في حياته . وعلى رأس هذا الجيش الضخم عبر السلطان نهر الأردن وانهض على شمال فلسطين واستولى على طبرية . أصبحت بيت المقدس الآن

مقطوعة عن أى أمل فى تلقى تعزيزات من طرابلس وأنطاكية ، وواجه الصليبيون الاختيار الصعب : إما أن يخرجوا للقتال بشروط صلاح الدين ، وإما أن يبتعدوا فى بيت المقدس وينتظروا حصاراً . أشار معظم فرسان حى ملك بيت المقدس بالانتظار فى العاصمة حتى يبدأ جيش المسلمين الضربة الأولى . ولكن ، عندما وصمه رينولد بالجن ووافق على خلاف رأيه الصائب ، على الخروج ومحاولة استرداد طبرية . ما كان يمكن أن يقع بأحسن من هذا فى أيدي صلاح الدين . فبدلاً من أن يضطر السلطان إلى مواجهة الجزء الأكبر من القوات الصليبية فى مدينتهم الحصينة أمكنه الآن أن يختار ساحة المعركة .

كان الموقع الذى وقع عليه الاختيار قريباً من حطين وهى قرية تقع فى التلال المطلة على بحيرة طبرية . إن حطين بمروجها الخضراء وبوفرة الماء المتاح لها من البحيرة ، أعطت المسامين ميزة سيكولوجية قوية ، فضلاً عن عسكرية ، على الفرنجة . فكانت حرارة شهر يوليه خائفة ، وبعد مسيرة إجبارية طويلة للوصول إلى طبرية ، كان الفرنجة يقاسون آلام العطش . لكن ، لكي يصلوا إلى المياه الباردة نوعاً بالبحيرة التى بدت أمام أنظارهم ، كان عليهم أن يبرأوا بجيش صلاح الدين المتجمع . مرة أخرى انقسمت آراء الصليبيين عندما اتخذ جيشهم فى ٣ يوليه موقعه على الهضبة الجافة بين القرية وتل مكور وراءها يعرف باسم قرون حطين . أشار البعض باختراق خطوط المسلمين من أجل الوصول إلى البحيرة ، بينما جذب غيرهم أن يستريحوا ليلة ، وهؤلاء هم من كانوا يحسون بالإعياء أكثر من إحساسهم بالعطش . أمر الملك حى بالوقوف ، وأمضى الفرنجة الذين كانوا فى حالة من التماسك الكاملة ، الليل يستمعون إلى العرب وهم فى خيامهم يغنون ويصلون ويسترجعون بطولات أسلافهم العسكرية . وزاد الأمور سوءاً أن المسلمين أشعلوا النار فى الشجيرات الصغيرة الجافة التى

تحيط بالهضبة . وإذ تدفق الدخان في خيام الصليبيين يخنق من فيها ويعميهم ، أحاط جيش السلطان بمعسكر العدو في هدوء .

وعندما طلع النهار بدأ هجوم المسلمين . جن مشاة الصليبيين من العطش فلم يفكروا إلا في الوصول إلى البحيرة ، ولكن رجال صلاح الدين ردوهم إلى هب ودخان النيران المشتعلة في الأعشاب . قاتل الفرسان الفرنجة ببسالة رائعة ، ولكن برغم أن نظامهم كان أفضل من نظام المشاة كانوا مثلاً يعانون من العطش والحرارة ؛ وخارت قوتهم بسرعة كلما دفعهم جيش المسلمين نحو القرون . ولما تحطم آخر هجوم مستميت لهم على الجدار المطبق عليهم والمكون من رماة السهام وحملة السيوف من المسلمين ، أعلن الإبن الأكبر لصلاح الدين وهو الأفضل ، وقد تملكته النشوة أن العدو دحر . ولكن السلطان الذي كان يعلم جيداً ميل العرب إلى التحول للنهب قبل أن يتأكد النصر ، أسكت ابنه بسرعة قائلاً أنه لن يدعى أنه انتصر إلا بعد أن يدمر آخر خيمة للفرنجة ، وأمر قواته بالإطباق على الصليبيين الذين انهارت روحهم المعنوية . تقدم المسلمون فتحطم الفرنجة ولاذوا بالفرار . وبعد لحظات قلائل قلبت خيمة الملك — وكانت آخر خيمة ظلت قائمة في مكانها — وقفز صلاح من فوق جواده وبكى من الفرح والارتياح .

لما انتهى اليوم الدامي لم يكن على قيد الحياة من الفرنجة إلا حفنة ، وغطيت ساحة المعركة بأكوام تضم عشرات الألوف من قتلى الرجال والخيول الميتة . (يذكر ابن الأثير كيف أنه بعد عام من ذلك التاريخ عندما حصدت الوحوش وجوارح الطير محصولها الربيع ، كانت ساحة القتال بحطين كتلة من العظام) . استسلم الملك جى ورينولد شاتيون وجيء بهما إلى خيمة المنتصر . استقبل صلاح الدين الملك في رقة وأدب وقدم له قارورة ماء بردته ثلوج جبل حرمون . عندئذ مرر الملك القارورة إلى رينولد وهنا أمر الملك المترجم أن يقول للجى إن « م ١٧ — العرب »

مضيفه لم يقدم الكأس إلى أمير شاتيون وعلى ذلك ليس في وسع رينولد أن يطلب الحصانة التقليدية لما في بنعم بها الضيف . وعند ما فهمت الرسالة ومعناها المميت التفت صلاح الدين إلى رينولد وراح يلعنه بصوت كالرعد ، بسبب غدره وما ارتكب من أعمال النهب والسلب ، ثم هوى بسيفه ففصل رأسه بضربة واحدة وقيل لحي الذي كان يرتعش ، إن حياته في أمان ، ولكن أعطيت التعليمات بقتل مائتين من الفرسان العسكريين الذين كانوا يعينون على خيانات رينولد . وعُفي عن جميع الأسرى الآخرين ، وُسِّح للكثيرين منهم بالعودة إلى دورهم .

لقد حطم صلاح الدين الآن الجيش الوحيد القادر على تحطيمه ، وعندما أكمل عمليات التطهير من العدو في بقية فلسطين ، سلمت عكا بدون قتال ، ولم تقاوم نابلس سوى بضعة أيام ، واستولى على يافا أخوه العادل الذي كان قد تحرك من مصر . وسقطت صيدا وتلتها بيروت وجبيل . نجت طرابلس من الهجوم بسبب ميثاق سرى بين المسلمين وحاكمها الصليبي ، جعلها تلنزم الحياد . وقاومت صور طويلاً بحيث فضل صلاح الدين أن يتجاوزها وهو يزحف شمالاً . وأخيراً في الجنوب ، سلمت عسقلان للمصريين ، وتلتها غزة وبيت لحم . أصبح صلاح الدين الآن يملك أو يسيطر على الساحل الصليبي بأسره من الشام إلى مصر ، ثم اتجه نحو بيت المقدس التي انقطع كل أمل لها في الإقذاذ من الخارج .

ولما وقعت قوات المسلمين أمام أبواب بيت المقدس في ٢٠ سبتمبر من عام ١١٨٧ اهتزوا عند ما شاهدوا فوق أسوار المدينة عدداً من الرجال أكبر مما توقعوا ، بعد القضاء على الجيش الصليبي عند قرون حطين . ودل رنين هائل يصم الآذان في داخل التحصينات ، على أن المدينة كانت موضع دفاع قوى جداً . . أحاط السلطان ببيت المقدس لمدة خمسة أيام قبل أن يقرر مهاجمتها

من الجانب الشمالى . ثم بعد أن استخدم الجانبى لهدم الأسوار وقوض التحصينات من أسفل ، راح يعمل من أجل تحقيق هدفه النهائى . ويذكر ابن الأثير أنه تلت ذلك موقعة دامية كان كل رجل من كلا الجانبين يعتبر دوره عملاً يمليه الإيمان والتزاماً لا يمكن تجنبه .

وأخيراً ، حطم هجوم من المسلمين التحصينات وحدث شرخ فى أسوار المدينة . فلما تدفق القائمون بالحصار إلى الداخل ، عرض الفرنجة الاستسلام بشروط . تردد صلاح فى أول الأمر مدعياً أنه كان قد أقسم أن يستولى على القدس بحمد السيف ، ومذكراً الفرنجة بفظائع عام ١٠٩٩ ولكن باليان حاكم بيت المقدس رد مهديداً بأن المدينة سوف تحرق ولن يبق أحد من أهلها حياً ، سواء كان نصرانياً أو مسالماً ، حرّاً أو أسيراً ، إذا أصر صلاح الدين على أن يأخذ بيت المقدس عنوة . وإذ لم يجرؤ صلاح الدين على أن يعتبر مثل هذا القول نوعاً من البلب ، قبل شروط الحاكم الإفرنجى وتم الاتفاق على فدية قدرها عشر قطع ذهبية عن كل رجل ، وخمس عن كل امرأة ، وائنتين عن كل طفل ، يدفعها الصليبيون فى ظرف أربعين يوماً .

عادت القدس إلى الحظيرة الإسلامية بعد ثمانية وثمانين عاماً من الاحتلال المسيحى . وأنزل الصليب الذهبى الذى كان الفرنجة نصبوه فوق قبة الصخرة التى أقامها عبد الملك ، وتم ذلك وسط صيحة فرح عظيمة أطلقها النظارة المسلمون ؛ كما أعيدت الآثار الإسلامية التى كانت قد دنست حرمتها فى المسجد الأقصى . ولكن بخلاف إعادة الأماكن الإسلامية المقدسة ، لم يسمح صلاح الدين بالأساس بمبنى واحد . وطبقاً لشهادة المؤرخين المسيحيين صدرت أوامر مشددة إلى جميع القوات الإسلامية بحماية أرواح المسيحيين وممتلكاتهم ، ولم يتعرض مسيحى واحد للمضايقة بسبب ديانتة — وهذا اختلاف جدير بالإعتبار ، عن الفظائع التى ارتكبتها الفرنجة قبل ذلك بثمانية وثمانين عاماً .

يكاد الفرنجة ألا يستحقوا روح الشهامة التي عاملهم بها صلاح الدين وكما يقول السير ستيفن رنسيان في كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » ، وبسبب موقف البخل الذي اتخذته سلطات الكنيسة ، لم يتم جمع المال اللازم لدفع الفدية ، فتهدد آلاف المسيحيين بأن يباعوا في أسواق النخاسة . لكن عندما سُيِّرت أول مجموعة وكانت من ألف فرد ، تشفع لهم العادل أخو السلطان ، فتم إخلاء سبيلهم . ثم أمر صلاح الدين بإطلاق سراح كافة المسنين الذين لم تدفع فديتهم ، وبخفض مجموع الفدية إلى كسر صغير من المبلغ الأصلي . وعندما استمر الفرنجة لا يدفعون ، أطلق سراح المتزوجين والأرامل والأيتام ، وقدم صلاح الدين معونة من بيت ماله إلى من كانوا محتاجين حقاً . بل أن شهامته سمحت لأرملة واحد من خلفاء عموري بمغادرة المدينة مع كل حاشيتها من الخدم وجميع مجوهراتها . وسمح لأرملة رينولد أن تأخذ معها جميع مقتنياتها حتى وإن لم تنفذ صفقة من أجل إخلاء سبيل ابنها الأسير مقابل التنازل عن الكرك المسلمين . وكما يلاحظ رنسيان عند قرون حطين وأبواب بيت المقدس انتقم [أى صلاح الدين] للاذلال الذي سبته الحرب الصليبية الأولى وأظهر كيف يحتفل الشخص النبيل بانتصاره » .

أحدث الاستيلاء على بيت المقدس وفلسطين رد فعل مجنوناً في أوروبا . وعلى الفور أبحر فردريك بربروسا ملك ألمانيا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب ملك فرنسا لشن الحرب الصليبية الثالثة . ولكن نظراً لعدم وجود أى نظام مركزي للقيادة ، سار كل من الجيوش الوطنية الثلاثة في طريق مستقل . انحرف ريتشارد ليفتح قبرص . ونظراً لأن فردريك بربروسا جاء عبر البلقان فإنه تعرض للمضايقة والإيذاء من جانب السكان المحليين ، ولما وصل إلى آسيا الصغرى وجد الأتراك السلاجقة أكثر صلابة مما توقع . ولإكمال قصة البلايا التي أصابت الألمان غرق فردريك نفسه وهو يعبر نهراً في

كيميائية . لكل هذه الأسباب تعطل الهجوم المضاد الصليبي نوعاً ، ولم يكن الألمان وهم أول الذين وصلوا ، في مركز يسمح لهم بتهديد الأرض الإسلامية إلا عند انتصاف عام ١١٨٩ .

مرة أخرى نجد صلاح الدين الذي يفضل الكلمات على الحرب ، يعرض التفاوض ، وكرمز على حسن نيته أطلق سراح الأسرى من الصليبيين بما فيهم الملك جى ، بعد أن أقسموا أنهم لن يحملوا السلاح ضده أبداً . ولكن رد الفعل الوحيد من جانب الصليبيين كان الإصرار على إعادة فلسطين إليهم بما فيها بيت المقدس ، وأن ينسحب السلطان بجيشه كله إلى مصر . أعقب ذلك تحرك ضد عكا . ذلك أن الملك جى نكث بوعده بمجرد أن صار حراً ، وجمع جيشاً وفرض الحصار على عكا . سارع صلاح الدين فدفع بقواته إلى الميدان وكان على وشك أن يرفع الحصار عند ما وصلت تعزيزات صليبية جديدة عن طريق صور وكانت الميناء الوحيد على البحر المتوسط ، الذي لم يستول عليه المسلمون .

هذا الخطأ سوف يكاف السلطان غالباً في الأشهر التالية . فبالقشبت بهذه الثغرة الحيوية في دفاعات المسلمين عمل الصليبيون الآن على تدفق القوات والإمدادات عن طريق صور ، وباستخدام الميناء كقاعدة بحرية ضربوا حصاراً من البحر على عكا . تجمع الآن جيش ضخم من الصليبيين وراء أسوار المدينة المحصورة ، وبرغم أنه من حين لآخر كانت تنجح سفينة قادمة من مصر في تخطى الحصار لتأتى بالطعام للحامية ، فإن المجاعة أخذت نصيبها بالتدريج من الأرواح والقوة . ومع ذلك صمدت الحامية ثلاثة وعشرين شهراً ملائياً بالآلام ، إلى أن استسلمت وهى منهوكة القوى عضها الجوع بناه ، في يولييه ١١٩١ للقائمين بالحصار وكانوا الآن بقيادة ريتشارد ملك إنجلترا . كانت الشروط متماثلة فعلا مع الشروط التي أقرها صلاح الدين مقابل تسليم

بيت المقدس إليه — فدية مقابل الإبقاء على حياة وحرية المدافعين . لكن قبل أن يتمكن المسلمون من تنفيذ الصفقة ، أنكرها ريتشارد بحجة أن عدداً معيناً من الأسرى المسيحيين لم يطلق صلاح الدين سراحهم ، ثم راح يقتل حامية عكا بأسرها مع زوجاتهم وأطفالهم . ولم ينج إلا عدد قليل من الأمراء والضباط الأغنياء اشتروا أرواحهم .

أما وقد أمنت عكا وصور الآن فإن الصليبيين راحوا ينتشرون على امتداد الساحل حتى قيسارية وأرسوف . وسار ريتشارد ليأخذ يافا وعسقلان ولكنه خشى أن يتوغل في الداخل صوب بيت المقدس وبعيداً عن قواعده الساحلية . وهكذا بدأت فترة من تفاوض طال أمده حاول فيه الملك الإنجليزي أن يحصل بطريق الدبلوماسية على ما كان يخشى أن يأخذه بالقوة . ولكن في كل مرة تقابل فيه الرسل المفوضون كان الاتفاق يحول دونه مطالبان لاسبيل إلى التوفيق بينهما . كان ريتشارد يصر على أن يتخلى صلاح الدين عن فلسطين كلها ، وكان صلاح الدين يصر على خروج ريتشارد من عسقلان التي كانت تشكل في أيدي الصليبيين خنجرأً منصوباً إلى قلب مصر . وفي النهاية تحطمت المفاوضات واستؤنف القتال في مايو ١١٩٢ . تقدم ريتشارد الآن نحو بيت المقدس ، ولكنه لم يكن متحمساً بشأنها . وعند أول مظهر يدل على تصميم المسلمين على المقاومة انسحب على عجل خشية أن يفقد ماء الوجه والرجال في محاولة الاستيلاء عليها إذ يعلم أنه لن يستطيع الاحتفاظ بها إلى ما شاء الله . ومرة أخرى تجددت المفاوضات ولكن بغير نجاح .

ما من شيء كان يقنع صلاح الدين بتعديل مطلبه الخاص بنزع سلاح عسقلان ، أو بالجللاء عن فلسطين . ليس معنى هذا أنه كان يحاول استدراج ريتشارد إلى مواجهة ؛ بالعكس وكما هو شأنه دائماً ، كان يفضل تسوية خلافاته بطريق الدبلوماسية ، وكان على استعداد لأن يتخلى للصليبيين عن

مدن ساحلية معينة . ولكنه في جميع هذه المناقشات كان يقامر على رغبة ريتشارد في الخروج بأسرع ما يمكن والعودة إلى إنجلترا . ولا شك أنه لهذا السبب خرج على أسلوبه لمدارة الملك الإنجليزي . وعندما قتل حصان ريتشارد وهو يركبه في مناوشة في أعقاب زحفه الفاشل على بيت المقدس ، بعث إليه صلاح باثنين من أجل جياته رمزاً عن إعجابه بشجاعته في القتال ؛ وعندما رقد ريتشارد مريضاً بالحملج خلال إحدى نوبات التفاوض المتعددة أرسل إليه صلاح الدين كمية من الخوخ والجليد من جبل حرمون لتبريد مشروباته .

هذا المزج المتهقن من المجاملة المدروسة والصلابة التي لاتلين ، حقق ثماراً طيبة بعد ذلك بشهور قلائل . ففي سبتمبر لم يعد في وسع ريتشارد أن يؤجل رحيله أكثر من ذلك . وعقدت صفقة تنازل بها صلاح الدين للصليبيين عن الساحل من صور إلى يافا (حوالي ميلين إلى الجنوب من تل أبيب) بما في ذلك حيفا وقيسارية وعكا . واحتفظ السلطان من ناحيته ببقية فلسطين ، وظفر بعسقلان حيث دمرت المنشآت العسكرية على الفور خشية أن يرجع الصليبيون عن الصفقة ويستردوا الميناء القريب من حدود مصر . وتقرر أن يكون الحجاج من المسيحيين والمسلمين أحراراً في زيارة أماكن العبادة الخاصة بهم في بيت المقدس .

إن شروط الاتفاقية تركت موقف المسلمين أضعف مما كان عليه بعد استيلائهم على بيت المقدس قبل ذلك بخمس سنوات . ولكن قوة حركة الحرب الصليبية الثالثة وإن لم تهدد أبداً بيت المقدس أو أى مدينة داخلية تهديداً خطيراً ، كانت قد أخرجت المسلمين من كل معقل كانوا يحتفظون به على ساحل فلسطين من صور في الشمال إلى عسقلان على حدود مصر . وأحرز صلاح الدين ما يشبه نصراً دبلوماسياً إذ ضمن جلاء الصليبيين عن عسقلان ونحو خمسين ميلاً من الساحل نحو الشمال ، وبذلك أزال أسوأ التهديد

الصليبي لمصر . ومهما كانت رغبة ريتشارد في العودة إلى إنجلترا ، فيـكـاد لا يكون في حدود السياسة العملية أن يُتوقع منه التـفـازل عن مزيد من الأراضي إلا إذا أجبر عليه بفعل الضغط العسكري .

وفضلاً عن ذلك ، ففي هذه المرحلة كان المرض يشتد على صلاح الدين بما يمنعه من القيام بهجوم إسلامي آخر . فبعد التوقيع على الاتفاقية بخمسة أشهر وعودته إلى دمشق ، مرض بشكل خطير . كافح أطباؤه طيلة اثني عشر يوماً لإنقاذه بالأشربة والفصد ، ولكن إذ لم يقدر على تناول أكثر من رشفة من ماء الشمير ، أخذ يزداد ضعفاً باطراد . ومات في مارس ١١٩٣ ، ودفن في القلعة الواقعة إلى جانب الجامع الأموي الكبير الذي بناه الوليد ، وسط مظاهر من الحزن والنحيب شملت الدمشقيين جميعاً .

هناك نواحي شبه معينة تلفت النظر بين سلوك وخلق صلاح الدين والنبي . كان بسيطاً ومقتصداً في كل أذواقه فلم يترك سوى حفنة من القطع النقدية وقطعة ذهبية والقليل من الملابس البسيطة . لم يأخذ لنفسه دائماً واحداً ، سواء من بيت مال الفاطميين أو من تركة نور الدين . كذلك ، وعلى غرار محمد ، لم يكن يشتد في المعاملة إلا إذا تعلق الأمر بالخيانة والغدر . وبخلاف هذا كان أرق الأبطال وأشد المحاربين عزوفاً عن الحرب . فلم يكن راغباً في المسير إلى مصر في أول الأمر ، ولا في معاملة الخليفة الفاطمي الصبي بخشونة وغلظة ، وفي استخدام أية قوة لا لزوم لها ضد الصليبيين . والحقيقة ، كان عزوفاً دائماً عن اللجوء إلى الحرب إذا كان الجدل والتفاوض يخدمان غاياته بنفس الدرجة . وعلاوة على ذلك ، وعلى نقيض الخادعين من أمثال رينولد دي شانيون وريتشارد قلب الأسد ، كان إذا وقع على اتفاقية احترامها . وكما يقول رنسيان « على خلاف السادة الصليبيين لم ينكث أبداً بعهد قطعه لأى

أناس آخرين أيا كان دائماً .. وكان دائماً ملاطفاً و كريماً ، ورحيماً كفاتح وقاض ، وعاقلاً ومتسامحاً كسيد » .

لم تتح لصالح الدين الفرصة ليكسب إمبراطورية مثل إمبراطورية الوليد ، أو ليقيم تفوقاً ثقافياً على نحو ما فعل المأمون . ولكن عندما كانت شعوب الإسلام مهددة بالإخضاع وكان دينها مهدداً بأن يقضى عليه ، فإنه (أى لصالح الدين) جمع ووحد العالم العربى من النيل إلى دجلة ضد عدو أشد خطراً من أى من خصوم الإسلام المتقدمين ، ووجه ضربة إلى الغزاة الأوربيين لم يفيقوا منها تماماً أبداً . لقد وضع العرب من جديد على الخريطة وجعل منهم قوة يُعمل لها حساب فى الشرق والغرب على السواء ؛ وضرب مثلاً فى الروح الإنسانية والشهامة فى الحرب ندر أن كان له مثيل ولم يتفوق عليه مثال آخر أبداً فى تاريخ البشرية الطويل .

الفصل السابع عشر

المغول والمماليك

لم يكد يموت صلاح الدين حتى بدأت تتفكك الأسرة الأيوبية التي أسسها والتي استمدت اسمها من والده نجم الدين أيوب . نشب العراك بين أبنائه وأخيه العادل حول تقسيم ممتلكات السلطان . وحلت المشكلة مؤقتاً حلاً وسطاً ، فأخذ أبنائه الثلاثة الباقيون على قيد الحياة وهم الأفضل والعزیز والظاهر ، دمشق والقاهرة وحلب على التوالي ، بينما استقر عنهم العادل بالكرك . ولكن سرعان ما أثبت هذا التقسيم أنه عامل ضعف ، كما لم يكن عملياً . وبعد ذلك بست سنوات خسر أبناء صلاح الدين كل شيء لصالح العادل الذي سيطر على مصر والشام فضلاً عن فلسطين . وخلال حكمه الذي بلغ عشرين عاماً ، حافظ ألخ صلاح الدين على أفضل العلاقات مع الصليبيين الذين التزموا من جانبهم بالحدود التي قررتها الاتفاقية المعقودة بين ريتشارد وصلاح الدين . ولبكن بعد موت العادل في عام ١٢١٨ نشبت المشاحنات في داخل البيت الأيوبي .

كان السلطان الجديد الكامل وهو أكبر أبناء العادل ، مصمماً على أن يمنع أبناء عمه من فرع صلاح الدين من استعادة السلطنة مهما كلفه الأمر ؛ ولما كان شديد الإعجاب بالديانة المسيحية وكان صديقاً لريتشارد ورحب بسان فرنسيس الأسيسى في بلاطه ، وجد من الطبيعي أن يعقد صفقة خاصة به مع الصليبيين . وفي عام ١٢٢٩ وبعد حملة صليبية أخرى شنّها فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة الذي كان مغرمًا بالترف الشرقي ،

واكتسحت المسلمين من بيروت وطبرية وعسقلان وتوغلت في دلتا النيل ، تنازل السكامل عن بيت المقدس ، مع ممر يربطها بعكا ، وذلك مقابل تعهد الصليبيين بتأييده ضد أي من بنى أيوب يحاول الاستيلاء على السلطنة . كان ميثاقاً فظيماً وخيانة مذهلة لكل ما حارب صلاح الدين من أجل استرجاعه للإسلام . إن فشل الصليبيين في استغلال هذه الفرصة ليتوغلوا في الأراضي الإسلامية وإنما اضطروا إلى التخلي عن بيت المقدس في عام ١٢٤٤ ، للمرة الثانية والأخيرة ، نقول إن هذا كله لم يكن الفضل فيه للسكامل . والأحرى أنه كان راجعاً إلى المنافسات القديمة بين أهل جنوا والبنادقة والفرنجة ، التي أضعفت قوات فردريك ، كما كان راجعاً إلى عدم ورود تعزيزات من أوروبا التي أصبحت الآن وقد زال عنها وهم فكرة مواصلة حرب دينية ضد الإسلام .

في هذه الأثناء انتهى عصر الأتراك السلاجقة بالعراق في عام ١١٩٤ عند ما عمده الخليفة العباسي الناصر إلى تحريض تكش العامل الشيعي على خوارزم الواقعة على شواطئ بحر آرال ، على خلع السلطان الساجوقي الحاكم . انتهز تكش في جشع ، دعوة الخليفة فعمل على توسيع مملكته الجبلية الصغيرة ؛ وعندما هزم السلاجقة بقي في بغداد مما كان مبعث دهشة الناصر الحسن النية ، وأعلن نفسه سلطاناً جديداً على العراق وكردستان . وتفوق ابنه علاء الدين على ما أنجزه أبوه ، فعزاه معظم فارس وبخارى وسمرقند وغزنة فيما بين عامي ١٢١٠ ، ١٢١٤ ثم أعلن عزمه على خلع الخليفة العباسي وتنصيب أحد العلويين مكانه .

الآن وقد تملك الناصر اليأس صحح حساباته الخاطئة السابقة بأن عقد تحالفاً ضد من كانوا حلفاء له من قبل ، مع عدو للإسلام هو في مثل خطورة الصليبيين تماماً بل وأكثر منهم وحشية . كان هذا هو جنكيزخان الزعيم

السيء السمعة لجحافل المغول الوثنيين الذين كانوا يتدفقون الآن وهم يمتطون
أفراسهم الصغيرة القوية ، على الإمبراطورية العربية السابقة ، مكتسحين كل
شيء أمامهم ، ومخلفين وراءهم الموت والدمار بصورة لم يشهدها أحد من قبل
أبداً . وبحلول عام ١٢١٩ كان جنكيز خان قد استولى على بخارى وسمرقند
وبلخ وخرابها تماماً . هدمت القصور والمكتبات والمدارس والمساجد بعد أن
استخدمت كاصطبلات لأفراس المغول أو كعصى صغيرة لراكبيها . وذبح
المسلمون بعشرات الألوف ، وحجى تراث الإسلام الثماني فيما وراء النهر .

فر علاء الدين سلطان خوارزم أمام الهجوم الوثني ، وعاش الخليفة
وحلفاؤه سنوات قلائل بعد ذلك في فراغ ينتظرون أن يجرفهم النهر الملوث
بالدم والذي يطلقه حلفاء الناصر المغول . أتاح لهم موت جنكيز خان في عام
١٢٤١ فترة راحة ولكن لم يحل دون إنزال العقاب بهم . ذلك أنه بعد أقل من
عشر سنوات نزل على فارس حفيده هولاكو وهو أول زعيم من المغول يتخذ
لقب إيلخان^(١) وبعث استقلاله عن الإيلخانات الأعلى بالشرق . وما أن
حل عام ١٢٥٦ حتى أشعل هولاكو النار في معقل الحشيشية بالجبال
واضطرم إلى الخروج منها ، وحطم تلك الطائفة المشثومة . بعد ذلك زحف
عن طريق خراسان نحو العراق ، وبعث إلى الخليفة الحاكم وهو المستعصم ،
إنذاراً نهائياً يطلب فيه تسليم المدينة وهدم دفاعاتها إذا كان يريد الحياة .

كان ناقوس الموت يذق بالنسبة إلى العباسيين . كان الخليفة القمى قد
اضطر إلى تخفيض حاميته من ١٠٠.٠٠٠ إلى ٢٠.٠٠٠ حتى يتمكن من دفع
الجزية التي طلبها المغول حسب معاهدة التحالف مع الناصر ، ولم يكن في
حالة تسمح له بالمقاومة . إلا أنه تردد في قبول الإنذار ؛ وعلى ذلك راح يراوغ
وبعث برد غير صريح . ولكن هولاكو لم يكن من طراز صلاح الدين

(١) أي إمبراطور — المترجم .

الذى كان يصبر عاما بأكمله محاولاً إقناع خصمه بالرضوخ . لقد أعطيت للخليفة فرصة ، ولن تقبل منه نداءاته التى توجه فى آخر لحظة . سوف تؤخذ بغداد عنوة وتُسوّى بالأرض . وفى يناير ١٢٥٨ نصبت آلات الحصار خارج أسوار المدينة . وإدراكاً من المستعصم بأن اللعب انتهى ، بعث بوزيره يطلب الشروط . ولكن الوزير الذى كان يكنّ فى السر مشاعر العطف على العلويين ويسكره الخليفة بسبب تعصبه ضد الشيعة ، تحول إلى رجل يخون مولاه وساعد المغول خلسة على احتلال ضاحية الكرخ . عندئذ حاول المستعصم بث الخوف فى نفس هولاء كوّ بتحذيره من أن الله سوف يعاقب العالم إذا قُتل الخليفة . سوف تكشف الشمس ويتوقف المطر وتزول الحياة . ولكن الزعيم الوثني كان يعرف خيراً من هذا ، إذ أخبره المنجمون أن النجوم فى صفه . وفى ١٠ فبراير هاجمت جمافله بغداد بعنف .

وإذ كان المستعصم لا يزال غير مرتاب فى وزيره ، فإنه بعث به الآن ليعرض على هولاء كوّ التسليم بلا قيد ولا شرط . رأى المغولى فرصته وأعاد الخائن برسالة يتعهد فيها بإبقاء الخليفة على عرشه إذا سلم على الفور ، بشخصه ومع حاشيته . وقع المستعصم فى الخدعة وأسرع إلى خيام هولاء كوّ مع أهله وموظفيه وحرسه وكانوا يعدون بالمئات . وعندما اجتمعوا كلهم انتقض المغول على رجال الخليفة وذبحوهم جميعاً ، ذكوراً وإناثاً على السواء . وعندئذ أسلمت بغداد إلى عملية من القتل والنهب والتدمير ، أفضح حتى مما سبق أن وقع فى بخارى . ندر أنبقى مبنى قائماً ، إذ أشعلت جموع الوثنيين النار فى المكتبات العظيمة والمدارس التى جعلت لبغداد زعامة العالم الثقافية . إن أكثر من مليون نسمة بما فى ذلك النساء والأطفال والرضع فى أحضان أمهاتهم — وهو ما يعادل ثلاثة أرباع السكان — قد ذبحهم المغول المتعطشون للدماء . وكان من شدة الرائحة الكريهة المنبعثة من الجثث المتحللة ، أن اضطّر هولاء كوّ إلى سحب قوائمه من المدينة مؤقتاً .

كان النهب على نطاق لم يسبق له مثيل في تاريخ الحروب. وذكر شهود عيان أن عسكر المغول كانوا من الغنى بعد ذلك بحيث أن سروج خيولهم وبغالهم وحتى أبسط أدواتهم العادية ، كانت مرصعة بالأحجار الكريمة واللآلى والذهب . ونزع بعضهم مقابض السيوف كى يملأوا الغمد بالذهب ؛ وأخرج آخرون أحشاء جثة لإنسان بغدادى وأعادوا ملأها بالذهب والأحجار الكريمة واللآلى ، ونقلوها من المدينة . وأحرقت مقابر الخلفاء ، وتحول قصر المستعصم والمساجد الرئيسية إلى أكوام من الأنقاض . لم ينبج من هذا سوى النصارى وكنائسهم . ويرجع هذا إلى أن زوجة هولوكو كانت نصرانية ، أما السبب الآخر فهو أنه كان قد اتفق مع ملك أرمينية المسيحي على الإبقاء على النصارى ومعايهم وعلى أن يساعدهم فى استرجاع بيت المقدس مقابل أن يساعده على تحطيم الإسلام . ولهذا السبب خاطب البابا بعبارة « صاحب الصفو » ، وبل دعى إلى إعنتاق المسيحية هو وجموعه .

لأول مرة فى السنوات السمائة التى افقضت منذ وفاة النبى ، كان الإسلام بدون خليفة . ولكن إذا كان المغول ظنوا أن فى وسعهم بمعونة المسيحيين أن يحطموا بقية العالم العربى بنفس السهولة التى قضوا بها على بغداد ، فانهم لم يأخذوا فى الحساب روح المقاومة التى أثارها صلاح الدين فى مصر والشام . فبرغم أن آخر البيت الأيوبي إنهار فى النهاية ولم يسجل لنفسه فضلا سوى استرداد بيت المقدس ، إلا أنه حلت محله مجموعة جديدة جبارة . لقد تكررت فى مصر النمط الذى حدث فى العراق . فى عام ١٢٥٢ أطاح بالأيوبيين أجنادهم وعبيدائهم الذين عندما ظفروا بالسلطة ، كانوا فخورين إذ اتخذوا لأنفسهم لقبهم الأصلى الدال على عبوديتهم ، وأعلنوا أنهم مماليك مصر . على غرار السلاجقة والعصابات التركمية السابقة فى العراق ، كان الممالك على مدى المئات من السنين ، يستخدمون أو سيئون استخدام مركزهم كقلب الجيش المصرى ، اكى

يصبحوا حكام مصر الحقيقيين . إلا أن السلطة الإسمية ظلت في أيدي الأسرة الحاكمة القائمة . لكن لعب المماليك الآن على المكشوف . واستولوا على السلطة المصرية أو انتزعوها من أيدي آخر الأيوبيين وكان طفلاً في السابعة من العمر من نسل صلاح الدين ويدعى الأشرف موسى . وخلال السنوات الثماني والخمسين التالية قدر لهذه الأوليغاركية من عبید سابقين انقلبوا جنوداً ، أن تحكم في مصر في الواقع وبالإسم .

إن المرحلة الأخيرة في قيام هؤلاء المماليك الشراكسة والأتراك ، تكاد لا نكون درامية . فبعد أن استولى السلطان الأيوبي الصالح وهو ابن أخ السلطان القادر وهو الكامل ، على بيت المقدس من جديد بمساعدة فرقة من الأتراك الخوارزمية ، عزم على أن يطرد الصليبيين كلية من فلسطين . لقد أخفق في تحقيق هذا ، ولكن برغم ذلك وجهت جيوشه ضربة ساحقة إلى الفرنجة عند يافا الواقعة شمالي بيت المقدس . وبفضل هذا النصر أعيد استخلاص الشام من الائتلاف الذي كان يضم الصليبيين والأيوبيين المواليين لهم في حلب ، وهو الائتلاف الذي ظل قائماً منذ أيام الكامل . ولكن مات الصالح في عام ١٢٤٩ ، ونادت أرملة بنفسها « ملكة المسلمين » وكانت امرأة جريئة ذات كيد عظيم ، تدعى شجرة الدر ، دبرت مقتل ابن زوجها . كانت شجرة الدر نفسها جارية تركية ومن أفراد حريم خليفة بغداد من قبل ، أعقبتها الصالح بعد أن ولدت له ولداً . انفردت شجرة الدر بالحكم مدة ثمانين يوماً ؛ ثم في عام ١٢٥٠ عين المماليك قائدهم التركي عز الدين أيبك سلطاناً بعد أن غيرهم خليفة بغداد بقوله « إن كانت الرجال قد عدت عندكم فاخبرونا حتى نسير إليكم رجالاً »^(١) . وعلى الفور تزوجت شجرة الدر من أيبك ، وبعد سبع سنوات إرتابت في أنه يفكر في أن يستبدل بملكته المتغطرة ، زوجة أخرى ، فدبرت

(١) المقريزي ، الخطاط ، ج ٣ ، ص ٩١ — المترجم .

قتله وهو في الحمام . ولكن حل العقاب سريعاً ، إذ أن شجرة الدر نفسها قتلت بأيدى خدام أيبك .

انتقلت الكرة الآن إلى أقدام المماليك . فاتخذ أحدهم لقب سلطان وهو سيف الدين قطز وكان ضابطاً ممتازاً من خوارزم كان أيبك قد اشتراه في الأصل رقيقاً ثم عينه وصياً على ابنه الصغير السن . في الوقت الذي عين فيه قطز كان مشتبكاً في القتال ضد الصليبيين في جنوب فلسطين ، يساعده شاب من التركان ، طويل القامة ، قائم اللون وأزرق العينين اسمه بيبرس البندقدارى . كان بيبرس من أهل بلدة كيمشاد في وادي نهر الفولجا^(١) ، واشتراه كعبد في دمشق الصالح الأيوبي وعينه للخدمة في حرس السلطان . ورغم أنه كان يعاني من عاهة في إحدى عينيه إلا أنه سرعان ما برز في خدمة الصالح ؛ وبقامته المهيبة وصوته الأمر ونشاطه الذي لا يفتقر أظهر منذ البداية أنه ولد ليتزعم الرجال . ولما ترقى بسرعة في الجيش عين وهو في الخامسة والثلاثين من عمره ليقول قيادة القوة التي قامت بالحملة في فلسطين بعد إعادة الاستيلاء على بيت المقدس وتوج هامته بالجد عندما أخرج الصليبيين من الشام .

زادت أطماع بيبرس السياسية مع إنجازاته العسكرية ، وعندما وضع المماليك نهاية لحكم بنى أيوب في عام ١٢٥٢ ، رأى بوضوح الإمكانيات المتاحة أمام جندي ناجح مثله . عند هذه النقطة كان قد ركز أنظاره على أن يكون نائب السلطان في الشام ؛ ومن الممكن أنه لو أن قطز كان أكثر أمانة في معاملة بيبرس لربما قنع الأخير بأن يتولى حلب مدى الحياة . ولكن قطز كان أشد طموحاً حتى من بيبرس . فبعد سنتين من الوصاية على ابن أيبك عزله ونادى بنفسه سلطاناً في عام ١٢٥٩ . وما أن استولى على العرش وإذا بالمغول تحت قيادة هولاكو الذين حققوا انتصاراتهم الوحشية في العراق قبل ذلك بوقت

(١) فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ١٦٠/١٥٩ المترجم .

قليل ، ينقضون على الشام ويستولون على دمشق وحلب وصيدا . وكانوا يقتلون كل مسلم يؤسر في القتال — هلك خمسون ألفاً في حلب — ولم يبق على قيد الحياة سوى النصارى تمشيًا مع انفاق هولاكو مع الأرمن .

مرة أخرى واجه الإسلام إمكانية الدمار الكلى عندما خرج قطز وبيبرس من مصر وهما يحتذايان خطى صلاح الدين . كان بيبرس يتولى قيادة مقدمة الجيش المملوكى الذى اشتبك مع المغول فى موقعة حاسمة عند عين جالوت القريبة من بيت المقدس فى ٣ سبتمبر ١٢٦٠ . دحر المغول بعد أن طلق بيبرس التكتيك العربى الجرب ، حيث تظاهر بالفرار واستدرجهم إلى كمين من النيران القاتلة . ترك المغول قادتهم صرعى فى الميدان وولوا الأدبار وبذا سمحوا بتعقبهم وطردهم من الشام . لم يكن هولاكو حاضراً فى عين جالوت إذ اضطر إلى الرجوع إلى بلده عند وفاة أخيه ليسوى مسألة وراثة الإيخانة . ولكن غيابَه عن الميدان لا يقلل من حجم وأهمية انتصار بيبرس . إن جيشاً من العبدان أنقذ الإسلام ومن ثم العالم المتعدين كله من أن يبتلعَه مدَّ البربرية المغولية .

كان بيبرس بطل الساعة ولكن عندما طالب بالمكافأة التى عرضها عليه قطز عند خروجهما من مصر — وهى ولاية حلب — تنكر السلطان لوعده . إشتد غضب بيبرس بسبب خديعة سيده فأقسم أن يتخلص منه . وعندما كان الرجلان مشغولين بالصيد عند عودتهما إلى مصر اقترب من قطز وانقض عليه وطمعنه بالخنجر حتى مات^(١) . كان بيبرس يعلم جيداً أن دوره فى هزيمة المغول

(١) عندما وصل ركب السلطان إلى الصالحية و طريقه إلى القاهرة أظهر قطز رغبته فى الصيد ، فلما فرغ من رياضته تقدم منه الأمير بيبرس وطلب امرأة من سى التتار ، فأجابَه السلطان إلى طلبه . تظاهر بيبرس برعبته فى تقبيل يد السلطان ، وكانت إشارة بينه وبين شركائه المتآمرين ، فقبض بيبرس على يد قطز ليهنئه من الحركة فى حين انهال عليه بقية أمراء البحرية بسيفوفهم ورماحهم وألوه عن راسه حتى أجهزوا عليه (سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٣٩) ويقول المصدر نفسه إن البحرية — ومنهم بيبرس — لم ينسوا لقطز أنه شارك فى قتل كبيرهم أقطاي زمن أليك . المترجم .
(م ١٨ — العرب)

سوف يضمن له الغفران عن جريمته ، وكان ذلك مؤكداً إذ عندما دخل القاهرة بعد ذلك بأيام قليلة استقبله جمهور تملكه جنون الفرحة والسرور وهو يهتف لسلطان مصر والشام الجديد .

إن رجلاً أقل عزماً ونشاطاً ربما كان يكتفى بأن يعيش على أكاليل غار انتصاره . فقد حصر مغول هولاءكو في العراق ، ولم تعد البقية الصليبية في فلسطين تهديداً خطيراً لمصر والشام . ولكن السكب كان قد رأى الأرنب ، وعمد بيبرس وقد صمم على أن يتفوق على صلاح الدين ، إلى طرد الفرنجة من فلسطين كلية ، وإضافة بغداد إلى إمبراطوريته . وعلاوة على هذا ، وعلى خلاف صلاح ، فإن بيبرس لم يكن ليتردد أبداً إذا ما عزم ، وكان يغمس في أية حملة أو مخادعة قد تعمد غرضه . وعلى الخصوص كان مصمماً على تجنب الحرب في جبهتين . وعلى ذلك تحالف مع المغول في أول الأمر لكي يهزم الصليبيين ، ثم مع الإمبراطور البيزنطي ليهزم المغول . وعقد معاهدات تجارية مع ملوك فرنسا وصقلية وأسبانيا ليمدوه بالأسلحة ومواد الحرب مما هو لازم لسكلا الفتحين .

وإذ عقد بيبرس أولى المحالفتين خرج على رأس ممالكه ليحطم الفرنجة ، وبوجه خاص ليصّب الانتقام على نصارى أرمينية وأنطاكية الذين كادت اتفاقياتهم مع هولاءكو أن تؤدي إلى القضاء على الإسلام . وفي عام ١٢٦٣ أخذ السكرك من الصليبيين ، وبعد ذلك بما ميين أخذ قيسارية وحيفا . وفي عام ١٢٦٦ حاصر صند القريبة من طبرية . وبعد أن وعد بالعفو مقابل استسلام حاميتها أمر الألفين الذين كانوا يدافعون عنها بالتجمع فوق تل وقتلهم جميعاً . وانقض عبر الجليل وعلى امتداد الساحل وهو يذبح كل مسيحي ، عربياً كان أو أوروبياً ، وقع في قبضته . وإذ فشل في الاستيلاء على عكا فإنه تخطاها ليغزو ويستولى على قسطنطينية . ثم تحول نحو أنطاكية ووجه إلى حاكمها بوهمند قائمة من التهديدات

التي يتجمد لها الدم في العروق بحيث تعسر على التصديق لولا أنها وردت بالحرف الواحد في مذكرات بيبرس. فبعد أن هبط في أول جملة بمسكنة بوهمند بأن خاطبه على أنه كونت وليس بأمير ، راح يخدمه — نظراً لأنه كما أوضح — لم يبق على قيد الحياة أى شهود عيان من الفرنجة ليخبروه هم أنفسهم ، عن ألوف الصليبيين والنصارى العرب الذين ذبحهم المماليك في عملياتهم السابقة ، وعن النساء اللاتي باعهن رقيقاً في مجموعات كل منها من أربع نساء الواحدة منهن بدينار ، وعن الأطفال الذين حكم عليهم بالاسترقاق . وبأمر بيبرس بالقصور التي أحرقها والكنائس والأديرة التي نهبها ، والدور والمدن التي هدمها من أساسها . وانتهى بأن حذر بوهمند من أن هذه الفظائع سوف تتكرر إذا لم يستسلم . ولسكن كلماته مرت لاتلقى الاهتمام واضطر إلى أن يستولى على المدينة عنوة . ثم أحرقها تماماً وذبح حاميتها ، وباع الزوجات والأطفال رقيقاً . ويسجل بيبرس نفسه أنه كان من المستحيل حصر عدد من مات من المدافعين . وبعد هذا سقطت يافا في أيدي المماليك . وأخيراً ، سقط الحصن الصليبي المشهور الذي سبق أن تحدى كافة هجمات صلاح الدين .

وفي عام ١٢٧١ توقف تقدم المماليك بفعل وصول إمدادات للفرنجة ، فعددت هدنة وترك الصليبيون يتشبثون لسنوات قلائل أخرى ، بأخر معاقلهم الأمامية وهي صور وعكا وطرابلس . طالب بيبرس الآن بتنفيذ ميثاق عدم الاعتداء مع بيزنطة كي يتحول ليمزق المغول . لم تسكن هذه أول مرة حاول فيها بيبرس أن يستولى على بغداد . ففور استيلائه على السلطة في عام ١٢٦٠ كان قد دعا عملاً لآخر خليفة عباسي وكان قد نجح من المذبحة المغولية ، للقدوم إلى القاهرة حيث بويع بالخلافة ولقب بالمستنصر . كان غرض بيبرس الحقيقي من إحياء هذا المنصب الذي لامعنى له إلى حد كبير ، هو أن يقلده الخليفة « سلطاناً ووالياً على مصر والشام والحجاز واليمن ووادي الفرات » ، وفي

الوقت نفسه ليعطى نفسه عذراً كي يعيد مدينة بغداد رسمياً إلى خليفة عباسي .
ولكن بينما هو في طريقه إلى بغداد غير رأيه بشأن المشروع وتخلي بصورة
غادرة عن ألويته سيئة الطالع ، وترك الخليفة ليزقه حرس الحاكم المغولي في
العراق إرباً .

ومع ذلك ثابر بيبرس على تنفيذ خطته ، وبعد موت المستنصر دعا وبدون
أن يتأثر لما حدث ، قريباً عباسياً آخر ليعتلى « العرش » الشاغر . فهو لم يجد
متطوعاً فحسب على استعداد لمسايرته ، ولكن هذا الشخص الذي ينتسب إلى
بنى العباس والذي كان تصرفه مهزلة ، استمر يحكم وإن بدا ذلك داعياً
إلى الدهشة ، وهو يتلقى الأوامر من المالك إلى أن غزا الأتراك العثمانيون مصر
في سنة ١٥١٧ وأخذوا آخر خليفة سنجينا إلى القسطنطينية . لقد استخدم
ثانية الدمى التي صنعها لتكون تسكأة يهر بها غزواً مملوكياً للعراق في عام
١٢٧١ . وبرغم إخفاق بيبرس في الاستيلاء على بغداد ، نجح في مد حدوده
شرقاً . كان هولاكو قد مات في عام ١٢٦٥ مخلفاً قبضة المغول على العراق
أضعف بكثير مما كانت عليه قبلاً ؛ ولمدة خمس سنوات استطاع الجيش المملوكي
أن يدمر وينهب وادي الفرات دون أن يخشى عقاباً يحل به ، وأن يظهر
المنطقة كلها من الحاميات المغولية . حاول خلفه أبغا في استماتة ، أن يطرد
المالك ، بل أنه بعث برسول إلى البابا يتوسل إليه ، وتؤيده في هذا أرمينية ،
أن يبعث بحملة صليبية أخرى . ولكن الغرب الآن كان أضعف مادياً ومعنوياً ،
من أن يقوم بمجهود جديد ، ولم تلق هذه المؤامرة المغولية استجابة .

مات بيبرس في يولية ١٢٧٧ قبل أن يتمكن من إنجاز مهمتيه الرئيسيتين . فطرد
الصليبيين نهائياً من فلسطين جاء بعد ذلك بأربعة عشر عاماً على يدملك آخر
من كيبشاك هو سيف الدين قلاوون ، ألمع خلفاء بيبرس . وبالمثل لم تنحسر
الوجهة المغولية نهائياً ، إلا في عام ١٣٠٣ عندما حاول حفيد هولاكو هو خازان

خان، أن يغزو الشام فهزمه المماليك بانقرب من دمشق وساقوا جيشه إلى القاهرة مكبلاً في الأغلال ويحمل أفرادهم حول أعناقهم رؤوس رفاقهم الذين سقطوا في المعركة . ولكن كما أرسى صلاح الدين أسس النصر النهائي على الصليبيين ، كذلك حطم بيبرس زحف المغول وهم في ذروة قوتهم . وإذ فعل هدامنح العالم الاسلامي قرنا من السلام والأمن إلى أن جاء تيمورلنك فكرر قصة الموت والدمار التي بدأها جنكيز خان . وأكثر من هذا أنه إذ أوقف الزحف المغولي وراء حدود مصر ، أنقذ مصر من الخراب الذي أصاب الشام والعراق وبذلك ضمن لها في العالم العربي تفوقا وسياسيا بغير منازع لمدة ستة قرون . ولكن برغم أن إنجازات بيبرس وصلاح الدين متشابهة إلا أنهما يختلفان اختلافا كبيرا في أخلاقهما كان صلاح الدين أسداً وكان بيبرس نمرأ . فبرغم أن بيبرس كان تكتيكيا شجاعا إلى درجة هائلة ولامعا في الحرب والسياسة إلا أنه كان غادراً ومنتمقا ، وكان يجد متعة في القسوة على ما أظهر مسلكه في أنطاكية وصفد . ربما كان لديه سبب أكثر مما لدى سلفه ، يدعو إلى كراهية المسيحيين بسبب تحالفهم غير المقدس مع هولاكو ولكن صلاح الدين لم يكن ليغفر لرجل يقتل أسراه على نحو ما فعل بيبرس .

كان بيبرس أكثر من شخصية عسكرية ، وكانت طاقاته العديدة مكرسة لتحسين إدارة مصر والشام قدر ما كانت مكرسة لقتل المسيحيين والمغول . فخفض الضرائب ، وشجع الأعمال العامة ، وحفر الترع ، وأنشأ الثغور ، وزود بلديه بخدمة بريدية ينذر أن نجد خيراً منها في عصر الطائرات النفائت الحالى . كان إرسال خطاب من القاهرة إلى دمشق يستغرق أربعة أيام فقط . وكانت السرعة التي يقوم بها برحلة بنفس سرعة البريد ، ولم يكن يتردد في أن يمارس لعبته المفضلة وهي البولو ، يوماً في دمشق ثم يمتطي جواده إلى القاهرة ليفعل الشيء ذاته خلال الأسبوع .

إن المملوك الذى أصبح سلطاناً وأنقذ الإسلام من المغول يحتل اليوم مكانه مع أعظم الأسماء فى التاريخ العربى الإسلامى أجل ، إنه يشغل فى التاريخ القائم على الأساطير ، مرتبة تعلو حتى على مرتبة صلاح الدين ، وقصته أوسع انتشاراً فى الشرق العربى من « ألف ليلة وليلة » . لو حكمنا عليه بالنتائج فإنه يستحق بالتأكيد مكاناً فى التاريخ . هذا لأول مرة زعيم لم يرتفع فحسب من أدنى المستوى الاجتماعى إلى قمة السلطة ، ولكنه رفع أيضاً إخوانه المماليك إلى مراكز من أعلى درجة - زعيم أعاد العالم العربى والإسلامى إلى العظمة وسعى إلى أن يتركه آمناً ضد نوع الإنحلال الذى كثيراً ما حل بعد أن أخلى أبطال سابقون مكانهم لسلالة دونهم شأنًا . حقيقة أنه بمجرد طرد الصليبيين والمغول من فلسطين والشام لم يكن سوى القليل الذى يمكن أن يقلق سلام الحياة وهدوئها بالنسبة إلى خلفاء بيبرس . ولكن لعل السبب فى هذا أن المماليك ، على خلاف الأسر الحاكمة التى سبقتهم ، كانوا يتصرفون باليقظة ، وغالوا مائة سنة أخرى من بعده لا يخفون من حذرهم وهمتهم .

ومما هو أكثر لفتاً للنظر بالنسبة إلى نجاح المماليك ، أن السلاطين بعد بيبرس كانوا يقيمون فى الحكم فترات أقصر منها فى حالة الخلفاء العباسيين ، فى ذلك الليل الطويل الذى سيطر فيه عليهم عسكرهم الأتراك . إن القرنين ونصف القرن من السلطنة المملوكية ، ينقسمان إلى أسرتين حاكمتين وشهدا تعاقب ما لا يقل عن سبعة وأربعين سلطاناً . فالمماليك البحرية - وترجع القسمية إلى أنهم كانوا يقيمون فى معسكرات جزيرة (بحر بالعربية) فى النيل ، حكموا من عام ١٢٥٠ إلى عام ١٣٩٠ ؛ وبالمثل استمد المماليك البرجية اسمهم من مساكنهم فى أبراج (مفردتها « برج » بالعربية) حول قلعة القاهرة ، وهؤلاء حكموا إلى أن اجتاحتهم الأتراك العثمانيون فى عام ١٥١٧ . فالمماليك البحرية ومعظمهم من العبيد الأتراك مع مزيج من الدم المغولى ، قدموا أربعة وعشرين

سلطاناً خلال حكمهم الذى استمر ١٤٠ سنة ؛ أما البرجية وكانوا شراكسة من القوقاز ولايات البحر الأسود فى روسيا الحديثة ، فكانت عدة سلاطينهم ثلاثة وعشرين فى ظرف ١٢٧ سنة . ولكن على خلاف العباسيين ، رفض المالك نظام الوراثة . فلم يزد السلطان المملوكى على أن يكون الأول بين أفرانه ، وكانت السلطة الحقيقية تسكن فى أيدي أقلية حاكمة من العسكريين . وبهذا فإن تلك العصبة من الرقيق التى حكمت مصر والشام ، ظلت تقف على أقدامها ، على الأقل طيلة عصر بيبرس ، بفعل تنافس صحى فى داخل الجسم السياسى ، وحيل بينها وبين الوقوع ضحية للمؤثرات الداعية إلى الفساد والإنحلال المترتبة على حياة الترف والأحقاد العائلية التى اكتنفت سقوط الأسرات الوراثية التى تقدمتهم .

القسم الخامس

التفوق التركي

(١٨)

سببات العصور

ما أن استهل القرن الرابع عشر حتى عاد الإسلام فكان سيد مصيره هو . فقد طُرد الصليبيون ضحايا ما كانوا عليه من الهوى والغدر والشره ، أو كما جاء في الحكم الرهيب الذى أصدره ستيفن رنسيما « كان هناك الكثير من الشجاعة والقليل من الشرف ، والكثير من الغيرة والقليل من الفهم . مثل علما لطختها القوة والجشع ، والنشاط والجلد لطخهما ورع ضيق الأفق ، ولم تكن الحرب المقدسة نفسها أكثر من فصل طويل من التعصب باسم الرب ، وهو الخطيئة ضد روح القدس » . أما المغول فظلوا مسيطرين على فارس والعراق ، ولكن ابتداء من غازان خان فصاعداً اعتنق الإنحانات الإسلام . وفى الشام فإن الجيش المملوكى الذى سبق أن رد الغزو الذى قام به غازان خان فى عام ١٣٠٧ ، قمع الدروز والنصارى الموارنة والإسماعيلية . بدأ الآن أن العالم العربى قد تخلص من جميع مؤثرات الفرق المنشقة التى كانت تتحدى عقيدة أهل السنة والجماعة .

الحقيقة أنه وإن كانت الإمبراطورية متسمية من الناحية السياسية بين المماليك فى الغرب والمغول فى الشرق ، فقد كان الإسلام السنى متحداً على نحو لم يكن عليه منذ أقدم أيامه ، ووقف الآن متأهباً للقيام بزحف كبير آخر سوف يسحق الإمبراطورية البيزنطية إلى الأبد ويدفع بحيش من المسلمين حتى أبواب فيينا . ولكن عندما جاء ذلك الزحف والذى يلى لإمبراطورية بني أمية فقط ، من حيث نطاقه وإنجازته ، كان نصراً تركيا وليس عربياً . فعن طريق واحدة من أقسى سجنريات التاريخ فإن العرب الذين ابتكروا

ورعوا العقيدة التي قدر للأتراك العثمانيين أن يفتحوا بها كل جنوب شرق أوروبا ، تقول إن العرب كان مصيرهم هم أنفسهم أن يتعلمهم ويستعبدهم هؤلاء الفاتحون أنفسهم .

كان أول ظهور الأتراك العثمانيين حوالى نهاية القرن الثالث عشر عندما وجد سلاجقة الروم الذين عاشوا مائة عام بعد الدمار الذى حل بأبناء عمومتهم فى العراق ، وقد أغارت عليهم جموع النهب والسلب من المغول . إلتبس الأمير الساجوقى علاء الدين (ليس من قرواية سميخ الخوارزمى) العون من جماعة من رجال القبائل التركية ممن يمتون بصلة القربى إلى السلاجقة الروم . وكانوا يعسكرون على مقربة . استجاب أرطغرل زعيم رجال القبائل لنداء علاء الدين شريطة أن تمنح أرض لأتباعه ثمناً لما يقدمون من عون ودعم . تمت الصفقة وطرد المغول ودخل رجال القبائل وبهم جوع إلى الأرض إلى أراضيهم الجديدة مع أسراتهم الأربعمائة . مضت لحظة كان كل شيء خلالها هادئاً الى أن توفى أرطغرل فى عام ١٢٩٩ وخلفه أمير شاب يتصف بالصلابة والطموح . يسمى عثمان ، بدا عليه ما يوحى بلامح الإمبراطور القادم وأصبح مؤسس أسرة آل عثمان الذى لقبته هذه الأسرة الحاكمة باسمه . لم يقنع عثمان بعدد قليل من الأفدنة فى الأناضول فراح يوسع مملكته فى جميع الاتجاهات . كان يعامل كل معارضة له بدون رحمة ، حتى قيل إنه أمر بقتل عم له اعترض على خطة أعدها لمهاجمة قبيلة مجاورة . وعندما مات عثمان فى عام ١٣٢٦ كانت أملاكه قد وصلت إلى البحر الأسود والبوسفور ، واتخذ من مدينة بروصة عاصمة له . أما حلفاؤه السابقون أى السلاجقة الروم ، فذابوا فى دولته الى الأبد .

اقسم ابنا عثمان لإدارة ممتلكات أبيهما ، فكان الأكبر سلطاناً والأصغر وزيراً . ومنذ ذلك الحين وخلال الفترة التالية البالغة ٥٩٨ سنة والممتدة حتى

انهيار الإمبراطورية العثمانية في سنة ١٩٢٢ ، تولى الحكم ستة وثلاثون سلطاناً كلهم من سلالة عثمان بطريق مباشر . وبرغم أن هذين الشابين كانا أطف طبعا من والدهما العنيف الشرس ، إلا أنه لم ينقصهما الطموح ولا التنظيم العسكري . وكان إنشاء فرقة الانكشارية المشهورة من وحى تفكيرهما .

وإذ الاسم تحريف لتعبير « يني شيرى » *lyeni cheri* ومعناه بالتركية « القوة الجديدة » ، فإن الانكشارية يمثلون تحولاً غريباً بالنسبة إلى قوم اعتنقوا الإسلام وتحمسوا له في تعصب ، مثل الأتراك العثمانيين لأن هؤلاء الجند كانوا نصارى ، أغلبيتهم من المحندين الأروام الشبان الذين أصبحوا من رعايا السلطان بحكم فتوحات عثمان في أراضى الدولة البيزنطية وشككت منهم فرقة تمثل صفوة الجيوش العثمانية .

في النصف الأخير من القرن الرابع عشر كان ما تبقى من الإمبراطورية البيزنطية تميزه الحرب الأهلية ، وانتهز الأتراك العثمانيون الفرصة فعبروا مضيق البسفور وأقاموا رأس جسر في أوروبا . كانوا قد توغلوا حتى بحر الأدرياتيك وحدود هنغاريا ، عندما استدعاهم السلطان بايزيد ليعالج أمر آخر الغزوات المغولية وأفظعها . في عام ١٣٨٠ قام أحد أبناء بلاد ما وراء النهر ، اسمه تيمورلنك ويزعم أنه من نسل جنكيز خان ، باحتلال أفغانستان ونزل على فارس وكردستان وهو يعتزم الاستيلاء على أراضى أبناء عمومته الإنليانيين . هذا التهديد المغولي الجديد راح ينتشر جنوباً وغرباً ببطء ولكن بقوة لا يمكن مقاومتها ؛ وفي عام ١٣٩٣ استولى تيمورلنك على بغداد واحتل أرض الجزيرة ، ويشيع الموت أينما سار على نطاق أكبر مما فعل جنكيز وهولاكو . ففي تسكريت مسقط رأس صلاح الدين ، بنى هرمًا من جواهر ضحاياها ، ولما انحرف شرفا بعد ذلك بخمس سنوات متجهًا إلى الهند واستولى على دلهي ، قتل ثمانين ألفاً من أهلها . وبعد انحراف قصير الأمد نحو روسيا احتل خلاله

موسكو لمدة تربو على العام ، عاد تيمورلنك فوجه اهتمامه إلى الشرق الأوسط وفي عام ١٤٠٠ اكتسح الجيوش المملوكية في الشام وضرب حلب ، ومرة أخرى بنى هرمًا من هاجم السكان . كوَّمت عشرون ألفًا من الرؤوس على هيئة نلال بلغ ارتفاع كل منها عشرة أذرع^(١) ، ووجوها التي تنطق بالألم والدم ينزف منها ، متجهة صوب الخارج كتحذير بشع لمن بقوا على قيد الحياة بأن لا يقاوموا الغزاة . ودمرت جميع المساجد والمدارس التي أنشئت في عهد صلاح الدين ، ولم يعاد بناؤها أبدًا .

بعد ذلك وفي العام نفسه سقطت حصص وحماة وبعلبك في أيدي المغول ، وفي عام ١٤٠١ دحر المماليك الذين يدافعون عن دمشق وتم الاستيلاء على العاصمة الشامية . بعد ذلك فإن تيمورلنك الذي أدى به دخوله في الإسلام إلى تبني الزندقة الشيعية ، نهب ودمر المدينة وأحرق كل شيء عدا جدران الجامع الأموي الكبير الذي بناه الوليد . وإذ لم يقنع بتدمير آثار أهل السنة والجماعة ، حمل معه إلى عاصمته في سمرقند أفضل ما كان في المدينة من الصنائع وأرباب الحرف . وفي طريق عودته توقف في بغداد التي قُتل بعض ضباطه على أيدي أهلها الذين اشتد بهم الغضب ، فأمر على سبيل النار بإعدام جموع الرهائن وبعد ذلك أقيمت أهرامات الجماجم كالاعتاد في جميع أرجاء المدينة . وعلى غرار ما فعل في دمشق ، نقل كل صانع حاذق إلى ممتلكاته الشرقية .

حتى الآن لم يكن الأتراك العثمانيون سوى متفرجين على هذه المذابح وقد ملأ العرب قلوبهم . ولكن في عام ١٤٠٢ إنقض تيمورلنك الذي لا يهدأ ولا يرحم ، على الأناضول . لم يتمكن حتى الانكشارية من وقف الفيضان ، وسُحق الجيش العثماني أمام أنقره وسبق السلطان أسيراً . وظل بايزيد التعس أياماً وهو يطاف به محمولاً في قفص معلق بين حصانين ، ليعرض أمام قومه كحيوان أسير ، بينما يواصل تيمورلنك الضغط عبر آسيا الصغرى . وأخيراً

(١) الذراع = ٥٧٢ ر ٠ من المذ - المترجم

أنقذه الموت من آلامه بعد أن استولى أسره على بروصه وأزمير على ساحل بحر إيجه . بدا الآن أن المغامرة العثمانية خلقت في طفولتها ؛ ولكن موت تيمورلذك نفسه بعد ذلك بعامين أوقف الغزو المغولي بمعجزة ، كما أحدث موت جنكيز خان قبل ذلك بمائة وستين عاما . فاستطاع الأتراك والفرس والعرب أن يستردوا أراضيهم ، وكان الاتراك أحراراً الآن كي يخططوا للهجوم الشامل الذي سوف يسفر عن سقوط القسطنطينية ويدفع بالجيوش العثمانية إلى التوغل في شبه جزيرة البلقان الأوروبية حتى بلغت شواطئ الدانوب .

واضح أن كتابة تاريخ للعالم العربي لاتعنى أن نصف بأى تفصيل النجاحات التى حققتها الأسلحة التركية فى جنوب شرق أوروبا وفى القضاء نهائياً على الإمبراطورية العثمانية . يكفي أن نقول إنه بفضل فرق الانكشارية المنتقاة ونتيجة نظام موحد للقيادة ، تمتع العثمانيون بميزة هائلة على الجيوش الغربية التى تكونت على عجل لمقاومتهم . وثمة سبب آخر يفسر نجاح العثمانيين هو انتفاء العطف فى روما وباريس على الكنيسة اليونانية المنشقة . راحت توسلات الإمبراطور البيزنطى فى هذه الانحاء طلباً للمعونة العسكرية ، لاتلقى اهتماماً من جانب أحد : كانت روح الجهاد المقدس قد ماتت تماماً الآن فى أوروبا ، وخذلت الإمبراطورية البيزنطية بقسوة لتلقى مصيرها . وسقطت القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ ، وأصبح الاتراك يحكمون من الدانوب حتى جبال طوروس .

وإذ تحمس الاتراك بفعل هذه النجاحات ، ولّوا وجوههم شطر الشرق والجنوب . فى بداية القرن السادس عشر كان الشاه إسماعيل وهو من سلالة شيخ ورع ذى ميول شيعية قوية ويسمى صفى الدين ، ومنه اشتق اسم « الصفوى » ، نقول إن إسماعيل هذا كان قد أسس بيتاً حاكماً فارسياً جديداً هم الصفوية . هذا البيت الذى قدر له أن يحكم بلاد فارس لأكثر من مائتى عام مجيدة وأن يضم فى قائمه ملوكه اللامعين ، الشاه عباس الذى اشتهر بتمجيد إصفهان ، هذا البيت كان يزعم الانتساب إلى موسى السكاظم ، أحد

الأئمة الإثني عشر . كانت ضلالة الصفويين الشيعية بغيضة إلى نفوس العثمانيين الشديدي التمسك بمذهب أهل السنة ؛ وبعد أن أصبح سليم الرهيب سلطاناً في عام ١٥١٢ عزم على أن يضع نهاية لهذه الاسرة المنشقة التي تمتد أملاكها إلى ما وراء حدوده الشرقية .

ولما اتخذ جيش سليم مواقعه شمالى بحيرة أورميا في أذربيجان الفارسية في أغسطس من عام ١٥١٤ ، التمس الشاه إسماعيل المساعدة من السلطان المملوكي قنصوه الغورى . ولكنه تأخر أكثر مما ينبغي . وعندما انقض الجيش العثماني عليه كان الظفر لمدفعية الانكشارية التي مزقت المشاة الفرس . فر الفرس من الميدان ، واحتل سليم تبريز عاصمة إسماعيل . ثم تقدم جنوباً في العام التالي واستولى على أرض الجزيرة .

في هذه الأثناء كان قنصوه المملوكي في طريقه إلى حلب ، وفي صحبته آخر سلسلة طويلة من الخلفاء العباسيين الذين كانوا كالدمى في أيدي المماليك . أذاع قنصوه أنه أت للوساطة بين العثمانيين والفرس . ولكن عيون سليم حدثته بخلاف هذا ، وعندما وصل مبعوث مملوكي إلى معسكره ، حلقوا له لحيته وأعادوه راكباً بغلة ومعه إعلان بالحرب من سليم . كان السلطان العثماني قد رأى فرصة لتحقيق نصر سريع يضع الشام في قبضته ويفتح الطريق إلى مصر . وإذ بلغته الأخبار بأن الولاة الشاميين ممن كان قنصوه يعتمد عليهم ليقدموا إليه أغلبية قواته ، يحتمل أن يخرجوا على الأخير لدى أول فرصة تسنح ، راح سليم يشن الهجمات هنا وهناك . كانت حساباته صحيحة ، إذ عندما نشبت المعركة فإن الشاميين المسلحين بالرمح والسيوف فقط ضد بنادق الأتراك ومدافعهم ، فروا جملة مع قادتهم . خرب قنصوه صريعاً من فوق جواده مصاباً بالفالج ودخل سليم حلب منتصراً . وبعد ذلك بشهرين كان الفاتحون العثمانيون قد احتلوا الشام كلها .

زحف سليم عبر فلسطين ليجعل من نفسه سيداً على وادى النيل ، تاركاً الصفويين فى المرتفعات الصحراوية من ممتلكاتهم الفارسية التى تقطعت أوصالها الآن . وعلى غرار أبناء عمومهم الشاميين ، كانت معدات المصريين لا تكفى للوقوف أمام بارود ومدافع العثمانيين . وأسوأ من هذا أن أعدادهم نقصت بصورة خطيرة بفعل الطاعون والجحمة ؛ فالموت الأسود الذى نشب فى أوروبا كان قد انتقل إلى مصر حيث قتل الألوف من الأهلىن . وفوق هذا كله فإن ما انصف به الممالىك البحرية من دقة النظام والتنظيم ، لم يحافظ عليه خلفاؤهم الممالىك البرجية ، وكان الفساد قد حل . كان عدة من سلاطين الممالىك البرجية قد عملوا على الإثراء عن طريق احتكار الغلال والسكر فى أوقات نقص هذه المحاصيل ، وكانوا يحرمون على رعاياهم زراعتها وإلا كان جزاؤهم الموت . وكانت النتيجة المحتومة هى المجاعة التى قضت مع الطاعون على ثلثى أهل الدولة المملوكية فى مصر والشام وهكذا عندما تدفقت على مصر القوات التركية الحسنة الغذاء والمسلحة تسليحاً قوياً ، لقيت صعوبة قليلة فى التغلب على المدافعين الممالىك والاستيلاء على القاهرة فى يناير ١٥١٧ . سحقت الآن الأسرة الحاكمة المملوكية ، ودخلت المدن التابعة وهى مكة والمدينة ، بطريقة آلية فى الفلك العثمانى . وحمل الخليفة الألعبوة أسيراً إلى الآستانة التى كانت قد أصبحت الآن العاصمة العثمانية الجديدة ، وانتهت آخر الدعاوى فى خلافة عربية .

انتشر الأتراك العثمانيون الآن بسرعة على طول الساحل الأفريقى الشمالى . فبعد سقوط القاهرة بعام احتل قرصان تركى هو خير الدين ، الجزائر . منح الباب العالى كما كانت تدعى الحكومة العثمانية ، لقب « باى » لخير الدين ، وبعد أن جاء سليمان العظيم خلفاً لسليم ، زود هذا السفاح من بناء الإمبراطورية ، بجيش من الانكشارية زحف بهم للاستيلاء على مدينة تونس فى عام ١٥٣٤ . وفى عام ١٥٥١ انتزعت جيوش السلطان بقيادة قائد ألبانى ، طرابلس من (م ١٩ — العرب)

فرسان القديس يوحنا أصحاب مالطة ، وخلال السنوات العشرين التالية كملت قائمة الفتوح العثمانية عندما سقطت الحسا وكانت تشمل الكويت والبحرين، وسقطت اليمن وعدن ومسقط . وحق إسلامان أن يبعث بخطاب إلى ملك فرنسا استمله بالعبارات التالية « أنا سلطان السلاطين وملك الملوك ... ظل الله على الأرض ، سلطان وسيد البحر الأبيض والبحر الأسود ، وبلاد الروم وأذربيجان وفارس ودمشق وحلب والقاهرة ومكة والمدينة وبيت المقدس وبلاد العرب واليمن وأراض كثيرة أخرى ... أخضعها لجلالتي لسيفي الملتهب وسلاحي المنتصر . أنا السلطان سليمان خان ... إليك فرنسوا ملك أرض فرنسا » .

من الإمبراطورية العربية القديمة كانت المناطق المستقلة الوحيدة هي مراکش وفارس وقلب الجزيرة العربية الصحراوى . بهذه الاستثناءات ، بالإضافة إلى اليمن التي أصبحت مأوى للاجئين الشيعة من العراق والبحرين والتي احتفظت بإمامة مستقلة لها فيما بين عامى ١٦٣٣ و ١٨٧٠ ، كانت جميع المناطق الناطقة بالعربية من الإمبراطورية قد أخضعها الآن الأتراك العثمانيون وظلت كذلك حتى القرن التاسع عشر . أما الذى عجز العثمانيون عن الاستيلاء عليه فكان يخضع لاحتلال أجنبي . فبغداد كان يستولى عليها الفرس والشاه إسماعيل والشاه عباس من حين لآخر ويحتلونها على فترات فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ؛ وظلت الولايات الشرقية الواقعة وراء النهر ، تحت أقدام المغول إلى أن جاء الغزو الروسى ، وأفادت كقواعد للاستيلاء على الهند وإنشاء الإمبراطورية المغولية فى دلهى ؛ وكان ملوك أرغون وقشتالة المسيحيون قد انتزعوا أسبانيا .

وتحلت القاهرة للاستانة عن كونها مركز الثقل بالإسلام وأصبحت مجرد بلدة إقليمية . ولما اكتشف فاسكو داجاما طريق الرأس إلى الهند فى عام ١٤٩٨

فقدت مصر والشام والعراق مركزها الاقتصادي وأهميتها كطرق تجارية إلى الشرق . ولإكمال قصة الإذلال العربي كانوا يدعون للسلطان وال خليفة التركي في خطبة الجمعة في جميع أرجاء الإمبراطورية . إن العفن الذي حل قبل ذلك بسبعة قرون عندما استخدم الخليفة العباسي المعتصم القوات التركية ، قد شق طريقة إلى قلوب وروح الشعوب العربية . وخلال معظم السنوات الثلاثمائة التالية وقع العالم العربي فيما سوف يدعوه محمد علي « سبات العصور » .

كان الأتراك العثمانيون نوعاً غريباً من الإمبرياليين . كانوا في سبيل التمسك بإمبراطوريتهم على استعداد لأن يعملوا أى شيء خلا أن يعيشوا فيها . فإذا فضّلوا أن يبقوا كأقلية متسلطة في وطنهم بآسيا الصغرى ، حكموا ممتلكاتهم عن طريق نواب سلطان من الأتراك يدعون الباشوات ، تمكن في ظلمهم الموظفين والجند من أبناء هذه البلاد من التطلع إلى أعلى مراكز السلطة والمسئولية بما فيها منصب الوزير الأعظم ، بل ووصلوا إلى هذه المراكز بالفعل . وكانوا يضعون في عاصمة كل إقليم وحدة رمزية من الانكشارية لتكون نواة لقوات الأمن والدفاع فيه . ولكن أغلبية كل جيش إقليمي كانوا يجهذون من أبناء الإقليم — البربر ، الأكراد ، اليونانيين ، الشركسة ، العرب ، الصقالبة ، الألبان ، الطليان ، الأرمن — ممن كانوا يلقون برامج عنيفة من التدريب والتوعية في المدارس العسكرية التركية المحلية ، ويعتقنون الإسلام حينما دعت الضرورة .

كلما بعد الإقليم وصعب الوصول إليه ، عظم الاستقلال المحلي الذي كان ينعم به الوالى وأتباعه . ومن أمثلة ذلك الجزائر وتونس وليبيا . من الناحية الإسمية كانت هذه ولايات تابعة للباب العالي ، ولكنها كانت من الناحية العملية ممتلكات مستقلة إلى حد كبير ، وكانت تترك تماماً تقريباً لتطبيق أساليبها الخاصة بها شريطة أن تدفع الجزية النظامية . ونظراً لأن الأتراك

لم يستثمروا غير القليل في هذه الممتلكات أو لم يستثمروا شيئاً ، عمدت هذه الولايات بالشمال الأفريقي إلى القرصنة للحصول على إيرادات لبيوت المال فيها ولدفع الجزية السنوية للباب العالي . وبتوسع نطاق النشاط التجارى على طول شواطئ أوروبا على البحر المتوسط ، تفتتح أمام قرصان ساحل البربر ميدان مجزٍ للنهب والسلب استمر حتى منتصف القرن التاسع عشر . ولقد أصبحت الخسائر التى كانوا يلحقونها بالملاحة الأجنبية من الفداحة بحيث وجدت الدول التجارية أن شراء الأمان لسفنها بدفع المال إلى ولايات القرصنة هذه مقابل الحماية ، هو أرخص من محاولة الاشتباكات مع القرصنة .

في أول الأمر عملت السلطات العثمانية الكثير لمساعدة وتشجيع المجتمعات النلاحية العربية في الإمبراطورية ، وإن كان ذلك بوسائل إقطاعية نوعاً . ولكن إذ هذا آل عثمان حذو تلك الأسرات الحاكمة التى كانت تحكم العالم العربى في الأيام الخوالى وأصابها الانحلال ، كذلك أصبح رعاياهم موضع الإهمال نتيجة سوء الإدارة . حل التدهور بعد نحو مائة عام من فتح الشام ومصر . ويرجع بعض السبب في هذا إلى أن السلاطين الإثني عشر الأولين من نسل عثمان ، وكانوا جميعاً حكماً قادرين وأذكياء ، خلفهم ما يدعوه برنارد لويس في كتابه « ظهور تركيا الحديثة » سلسلة من العاجزين والمنحليين الذين لا يصاحون للحكم ، في ظلمهم تدهورت كفاءة ونزاهة الحكم في جميع أرجاء الإمبراطورية ، تدهوراً ينطوى على الكوارث . وهذا بدوره كان راجعاً إلى النظام الغريب الذى اتبعه العثمانيون لى يضمنوا توارث العرش . فن أيام محمد الثانى وهو السلطان الذى انتزع القسطنطينية من البيزنطيين ، وحتى نهاية القرن السادس عشر ، كانوا يضمنون انتقال العرش من الأب إلى الابن بالأسلوب البسيط ولكن حشى وهو قتل إخوة كل سلطان يتولى الأمر . وبعد ١٥٠ سنة أوقف قتل الأمراء ، ولكن خلال القرنين السابع

عشر والثامن عشر كان جميع الأقارب من الذكور ؛ باستثناء أبناء السلطان الحاكم ، يسجنون في القصر ، وعلى سبيل الاحتياط من المؤامرات كان يحرم عليهم كل اتصال بالعالم الخارجى . وفى الوقت نفسه وضعت قاعدة جديدة تنص على أنه عندما يموت السلطان ينتقل العرش إلى أكبر أقاربه الأحياء من الذكور سنأ وهو ما يعنى أن كل حاكم سوف يخلفه ، ينشأ فى الأسر ومن ثم فى جهل مفروض عليه بالعالم الخارجى ومشكلات الإمبراطورية .

سبب آخر يكمن وراء انحلال الإمبراطورية هو فقدان الحافز بعد أن توقف توسعها فى نهاية القرن السادس عشر عند ما وجد العثمانيون أنفسهم تواجههم فى كل ناحية حواجز لا يمكن اجتيازها . فمن ناحية الشمال كانت روسيا التى خرجت حديثاً من فتح بلاد خانات الجيوش الذهبى ، تسد الطريق إلى مزيد من الزحف وراء القرم والقوقاز . وفى الشرق طرد البرتغاليون البحرية العثمانية من المحيط الهندى . وفى الجنوب كانت الصحراء الأفريقية تتحدى الغزو ؛ وفى الغرب كانت جيوش آل هابسبرج قد هزمت كل محاولة للاستيلاء على فيينا . وإذ فقدت الإمبراطورية القوة الدافعة على التوسع ، بدا أنها فتمدت الإحساس بالفرض . ونعود فذقتبس ما يقول برنارد لويس « .. كانت تقاليد الحد ما تزال جذورها متعمقة فى حياة العثمانيين الحربية والاجتماعية والدينية ، وكان لإغلاق الحدود فعلاً أمام المزيد من التوسع والاستعمار ، تأثير عميق عليهم . كانت النظم العثمانية فى التنظيم العسكرى والإدارة المدنية والضرائب وملكية الأرض ، كلها مشدودة إلى حاجات مجتمع يتوسع عن طريق الفتح والاستعمار فى أراضى الكفار . لم تعد تتمشى مع الضغوط المختلفة التى يفرضها حد لا يتحرك أو آخذ فى التراجع » .

أصبحت النزعة المحافظة هى النعمة السائدة كلما سمعت الإدارة العثمانية إلى وقف ساعة التقدم الإنسانى وإلى تحدى القوى الدينامية التى تتجمع داخل

حدود الإمبراطورية وخارجها . ولكن العالم لم يكن ليقف ساكناً مع الإمبراطورية العثمانية ، وبحلول القرن الثامن عشر كانت الضغوط من جانب العظماوات الأوروبية قد أحبطت بنجاح جهود الإمبراطورية في المحافظة على كيان منفلق على نفسه ومعزول عن بقية العالم . لم تسكن سلامة أراضي ممتلكات السلطان هي وحدها المعرضة للتهديد حينذاك : كان كل أسلوب الحياة في إمبراطورية كانت ما تزال تعتبر شرائع سليم العنف وسليمان العظيم تجسيداً لكل حكمة ، هذا الأسلوب بدأ يتخلف إلى الوراء في عالم تنافسي استمد إلهامه حديثاً من الأساليب العلمية الثورية . وكما عبر عن الأمر السير هـ . ا . ر . جب وهارولد بوون في مؤلفهما المجتمع الإسلامي والغرب « بعد مثل هذا العدد الكبير من القرون من الجمود ، أصبحت عمليات الزراعة والصناعة والتبادل والعلم لا تزيد على كونها عمليات آلية إلا قليلاً ، وأسفرت عن نوع من الضمور جعل المشتغلين بها غير قادرين على تغيير أساليبهم أو نظرتهم ، إلى أدنى حد » .

يضاف إلى متاعب السلطات العثمانية أنه كان يواجهها تخفيض خطير للعملة ، مرده إلى كشف مناجم الذهب والفضة بالعالم الجديد ، وفي الوقت نفسه اضطرها تقدم علوم الحرب إلى التوسع في الإنفاق على إعادة تجهيز جيوشها وتحديثها . فللدفاع عن الحدود ضد الدول الأوروبية الناهضة ، كانت هناك حاجة إلى المزيد من المدافع والبنادق وكلها زاد ما تكلفه من العملة العثمانية التي انخفضت قيمتها . وهذا بدوره جاء معه بتضخم جامح .

كان حتماً أن تعالى المجالات الأخرى من الإدارة ، وبالأخص الزراعة . فلم يقتصر الأمر على عدم توافر المال لرفع التكنولوجيا الزراعية من مستواها البدائي ، بل الأسوأ من هذا أن خلق جيش محترف كبير كان يعنى الاختفاء الفعلي لتلك الفرقة من الفرسان الإقطاعيين ، وهم السباهية ، الذين كوفئوا

على خدماتهم للسلطان بمنحهم الإقطاعات ، وهم الذين كان يتكون منهم أساس النظام الزراعى العثمانى . فى مكان هؤلاء الفلاحين الأعيان نشأ نظام من الملاك الذين لا يقيمون فى أراضيهم ومن المضاربين مما أعقبه على الفور إهمراف عن الأرض ، وما إن انتصف القرن السابع عشر حتى كانت المناطق الريفية التى كانت تنعم بالرخاء من قبل ، قد أصبحت مهجورة وخالية من أهلها . هجرت القرى ، وتعرت السهول الحصيبة وتحولت إلى صحارى ؛ وبعد أن بدأ الاحتلال العثمانى بمائتى عام كان سكان الشام كلها قد انكمشوا فأصبحوا لا يزيدون عن المليون إلا قليلا ، وانخفض عدد سكان فلسطين إلى ٢٠٠.٠٠٠ نسمة وحسب .

ولكن مهما كانت التضحيات التى فرضها العثمانيون على رعاياهم ، فلم يتمكنوا من الإبقاء على تماسك إمبراطوريتهم . فبنهاية القرن السابع عشر كانوا يتراجعون فى أوروبا . فقد تشجعت القوى الغربية من إخفاق هجومهم الضخم الثانى على فيينا فى عام ١٦٨٣ . وفى أمل التقاط بعض ما قد يكون الأتراك قد خلفوه وراءهم فى البلقان ، بدأت بريطانيا وفرنسا والنمسا والروسيا تتحرك فى زحف موحضد جيوش السلطان ، وما أن حل عام ١٧٥٠ حتى كانت هنغاريا وترنسلفانيا وأجزاء من ولايات روسيا على البحر الأسود قد تطهرت من المحتلين العثمانيين . عند هذه النقطة حل العطب فى ممتلكاتهم العربية . ليس مما يبعث على الدهشة أن جاء التحدى الكبير من مصر . هنا ، وكما كان الشأن فى الأجزاء الأخرى من إمبراطوريتهم ، ترك الباب العالى حكم الولاية يودى عمله فى ظل باشا عثمانى . هكذا استمر المماليك فى مصر والشام باعتبارهم نبعا للاستانة . ولكن الباشوات الذين كان الباب العالى يبعث بهم ليرأسوا هذه الإدارات المملوكية أثبتوا جهاشهم أكثر فأكثر باللغة والعادات المحلية ومن ثم أثبتوا أنهم أقل فعالية وأضعف أثرا . فخلال

٢٨٠ سنة من الحكم العثماني المباشر جاء إلى مصر وخرج منها مائة من الولاة الأتراك المختلفين . بل وشهدت الشام تغييرات أكثر من هذه ، إذ كان الباشوات يتغيرون بمعدل واحد كل ستة عشر شهراً .

وفضلاً عن هذا ففي ظلّ الحكم العثماني زاد تدهور حالة الأهليين وخاصة في مصر ، فقد قضى الطاعون والجماعة مرتين في القرن السابع عشر على أكثر من ربع مايون نسمة ، وبعد ذلك بمائة عام كان قد حدث القضاء على أكثر من المليونين . هذا المزيج من إهمال الحكام وتعاسة الحكوميين ، كان يحتوى حتماً على المادة التي تصنع منها الثورات . وجاء الإنفجار في عام ١٧٦٩ عندما طرد على بك قائد الجيش المملوكي ، الباشا العثماني وأعلن استقلال مصر .

كان على بك مملوكاً شركسياً وابناً لقس نصراني . وعندما كان صديماً اختطفه قطاع الطرق وباعوه رقيقاً في مصر حيث ترقى إلى أرفع المراكز في جيش السلطان . في ذلك الوقت كانت الإمبراطورية العثمانية في قتال مع الروسيا بشأن تملك القرم والمستعمرات التركية الأخرى على طول ساحل البحر الأسود . وحتى يتمكن الباب العالي من مواصلة الحرب أمر علياً بإعداد جيش والتوجه على عجل إلى مسرح العمليات . رأى المملوك الداهية فرصته ، وعندما جند جيشه وجهه ضد ساداته العثمانيين ، فتغلب على الحامية الأنكشارية وأمر الباشا القائم بالحكم ، بالعودة إلى الآستانة . وخرج زوج ابنته محمد أبو الذهب للاستيلاء على مكة باسم على الذي نادى بنفسه عندئذ «سلطان مصر البحرين و خاقان البحرين» (المتوسط والأحمر) المستقل . وفي عام ١٧٧١ زحف أبو الذهب على الشام وأخذ دمشق بقوة قوامها ثلاثون ألف رجل . ولما كان انتصاره على كل جيشه المملوكي الأمد ، لأن زوج ابنته الغدار إبحار الآن إلى الأتراك مع كل جيشه المملوكي بالفعل . وإذ وجه على بك بأغلبية قواته وكذلك بالعداء المقيم من جانب

الباب العالي ، لم يجد أمامه من يدل سوى الفرار إلى فلسطين حيث انضم إلى قوات زعيم ثائر آخر هو الزعيم البدوى الشيخ زاهر العمر .
كان زاهر قد استغل نفس ضعف الحكم العثماني في الشام الذى حفز علياً على الثورة في مصر ، فأنشأ حوالى منتصف القرن الثامن عشر مشيخة مستقلة صغيرة تضم عكا وطبرية . وبعد أن عقد حلفه مع على أضاف صيدا إلى أملاكه بمساعدة السفن الحربية الروسية المشتبكة في إزعاج الشاطئ التركى . ولكن جراته لم تقدر إلا فى أن تثير ضده الأمراء الشهابيين فى لبنان . وسرعان ما وجد زاهر وعلى أنفسهما وقد هاجمهما تحالف يفوق قواتهما بشكل ساحق ، يتكون من القوات العثمانية والمملوكية واللبنانية . قتل على فى عام ١٧٧٣ ، وبعد ذلك بعامين لقي زاهر حتفه أيضاً .

وخلال فترة قصيرة بعد ذلك وقع وشاح زاهر على شخص من أبناء البوسنة اعتنق الإسلام ، هو أحمد الجزار الذى سبق أن ساعد زاهر فى الاستيلاء على صيدا وبعد ذلك صمد فى عكا ضد الأتراك ثم ضد الفرنسيين عند مظهر نابليون على المسرح فى عام ١٧٩٨ . كان الجزار أوفر حظاً من زاهر ، نظراً لأن الأتراك الذين أنهكهم كل هذا الصراع الإستعماري بلعوا كبريائهم فى النهاية واعترفوا به والياً على الشام ولبنان كى يشتروا بهذا الثمن هدنة قلقة . وفى مصر أيضاً بدا الباب العالي الآن حريصاً على تجنب أية إثارة جديدة . لم يعين أحد مؤقتاً مكان الباشا الذى سبق أن أخرجه على بك ، وعين الثائر السابق محمد أبو الذهب شيخاً للبلد وله سلطات الوالى — وكان هذا هو المنصب التقليدى الذى شغله جميع البسكوات المماليك الرئيسيين فى ظل العثمانيين . ورغم أن أمر السلطان أعيد فى الوقت المناسب فى مصر ، إلا أن الحكم التركى كان قد اهتز بصورة خطيرة ؛ وعندما انتهى القرن الثامن عشر كان المسرح قد أعد لشخص كبير آخر يتحدى مشيئة السلطان .

(١٩)

مصر تستيقظ من جديد

في يولييه من عام ١٧٩٨ نزل نابليون بوناپرت في الاسكندرية وبهذا غير كل وجه الشرق الأوسط . الحقيقة أن كل شيء حدث في العالم العربى فى هذين القرنين الأخيرين ، يمكن تتبعه وإرجاعه إلى هذا الحدث الشبيه بالطوفان .

قيام محمد على ، وتدفع التعليم والثقافة والمثل العربية وهو ما غرس بدوره بذور الفكر والعمل القومى العربى الحديث - فضلا عن اهتمام بريطانيا وفرنسا بالشرق الأوسط والتنافس بينهما - كل هذه الأحداث يمكن عزوها مباشرة إلى هذا الغزو الأوروبى الكبير الثانى ، بمثل ما كان فى الغزوات التى شنها الصليبيون واستيلاء الفرنجة على بيت المقدس الحافز المباشر على قيام صلاح الدين وببرس ونهوض الإسلام المناضل من جديد فى نهاية العصر الوسيط . وأهم من هذه جميعاً أن الغزو الذى قام به نابليون أخرج مصر من دائرة النسيان التى عاشت فيها باعتبارها مجرد ولاية تابعة وأعادها إلى الجبهة الأمامية للسياسة الدولية . ورغم أنه كان لابد من انقضاء ١٥٠ سنة أخرى قبل أن تسترد مصر فى النهاية استقلالها ، فإنها عادت من الآن فصاعداً إلى أهميتها السابقة كفصل العالم العربى والمعبربرى الرئيسى بين الغرب والشرق .

بالطبع لم يكن جنود نابليون أول غربيين أو حتى فرنسيين وطأت أقدامهم أرض الشرق الأوسط . منذ أن خرج منه آخر الصليبيين . فى القرن السادس عشر أنشأ التجار الأوربيون مستعمرات تجارية فى سوريا ولبنان ومنحهم السلطات العثمانية امتيازات تقضى بإعفاء رعايا هذه المستعمرات من الضرائب التركية والقضاء التركى ومنحوا الحق فى أن يحاكموا أمام محاكمهم التنصليية

عن أية مخالفات يرتكبونها . كان البنادقة أول القادمين ثم أعقبهم الفرنسيون والبريطانيون . وسارع الفرنسيون إلى اقتناص فرص إشباع الطلب الغربى على مواد الترف الشرقية وهو الطلب الذى كان عصر الحروب الصليبية قد نشطه ، وسرعان ما قامت المصانع الفرنسية تعمل فى جميع أرجاء الشام . وعمرور الوقت أيضاً ، أخذ الفرنسيون على عاتقهم دور القوة التى تحمى السكان الكاثوليك من أوريبيين وعرب . ومن هذه البدايات فإن المبشرين والمعلمين من فرنسا ومن البلاد الأوربية الأخرى ، ولم يقدروا على مقاومة الحافز على نشر إنجيلهم ، جاءوا فى أعقاب التجار وأقاموا الكنائس والمدارس لتنمية عملهم .

كانت السلطات العثمانية تسامح مع هذه الغزوات التى قام بها الكفار باعتبارها أمراً محتوماً يصاحب الجالية الأوربية المشتغلة بالتجارة ، بل ولقيت القسجيع من جانب حكام محليين معينين ، بفضل ما يتصف به أفرادها من المزايا . ومن هؤلاء الحكام كان أمير لبنانى صغير الشأن اسمه فخر الدين يحكم فيما بين عامى ١٥٩٠ و ١٦٣٥ باعتباره عاملاً من عمال السلطان وينعم بما يشبه الاستقلال الذاتى ، على مملكة تمتد من طرابلس إلى طبرية ، هذا الأمير خرج عن طريقه ليشجع هذه المؤثرات الأوربية والمسيحية . ولقد استقدم هو شخصياً معماريين ومهندسين وزراعيين من الإيطاليين ، كان قد أعجب بعملهم ومهارتهم فى الصناعة عند ما كان فى فلورنسا التى نفى إليها بصفة مؤقتة فى أثر خلاف مع الباب العالى فى بداية عهده . وهكذا ، بنما السهول الحصينة فى الشام ودلتا النيل تتآكل وتتحول إلى صحراء ، كان فخر الدين يعمل على أن يتعلم رعاياه اللبنانيون الأساليب الحديثة فى الزراعة وعلى تحويل وادى البقاع وغيره من الأقاليم بمملكته ، إلى بساتين ومخازن للغلال .

وفى المجال الدينى أيضاً تمتع أهل مملكة هذا الأمير المستنير بحرية جديدة

وإنجاز جديد . فعاش الدروز والنصارى فى سلام وانسجام جنياً إلى جنب .
وبرغم أن مناشط فخر الدين أثارت شكوك ساداته العثمانيين ، استطاع تهدئتها
مؤقتاً بأن أعلن ولاءه الشخصى الذى لا يموت لمذهب أهل السنة والجماعة .
ولكن محاولة لبس هذا القناع أمام الباب العالى بينما يمارس العقيدة الدرزية أمام
رعاياه ويشجع رجال الإرساليات المسيحية فى داخل ممتلكاته ، حطمت فى
النهاية ؛ فبعث الأتراك بجيش ضده ، وبرغم أنه حاول الفرار إلى الجبال فإبهم
طاردوه وأسروه ، وساقوه مكبل بالأغلال إلى الآستانة وقطعت رأسه
فى النهاية .

ليس مما يبعث على الدهشة أن يثير وصول الجيوش الفرنسية إلى
الأسس كندرية فى عام ١٧٩٨ بعد قرنين من عمليات التوغل الأجنبى فى الأراضى
العثمانية ، أشد رد فعل من جانب الباب العالى . كان نابليون يتوقع مثل هذا الرد ،
وفى محاولة لذر الرماد فى أعين الأتراك أعلن عند نزوله أنه جاء لتأديب المماليك
الذين لم يكونوا مسلمين صالحين ، واستعادة سلطة السلطان التى أضرت بها
ثورة على بك . ولكن الأتراك كان يعلمون جيداً أن الغرض الحقيقى الذى
يتوخاه نابليون هو إقامة قاعدة فرنسية ممكنة من أن يقطع اتصالات بريطانيا
مع الهند والشرق . وكانوا يعلمون أيضاً أنه لونهج فإن مصر وربما الأراضى
العثمانية الأخرى سوف تحتلها القوات الفرنسية إلى ما شاء الله . كان التجار
الفرنسيون موضع الترحيب ، وكان المعلمون والمبشرون الفرنسيون يعملون
بروح من التسامح ؛ ولكن لن تعامل القوات الفرنسية بهذه الروح أبداً !

ومن ثم فبعد أن أظهر نابليون نواياه الحقيقية بأن سحق جيش السلطان
فى موقعة الأهرامات ثم طارد فلوله على امتداد النيل حتى النوبة ، راح الباب
العالى يجند الجيوش من جميع أجزاء الإمبراطورية كي يطرد الغزاة الفرنسيين .

دعا السلطان جميع المؤمنين الصادقين إلى حمل السلاح ضد الفرنسيين ، أولئك الكفار الأجلاف كي يخلصوا هذه الديار المباركة من الأيدي اللعينة . وأمر باشواته أن يواصلوا النهار بالليل في جهورهم من أجل الانتقام . ولما وصل الأسطول البريطاني في الوقت المناسب ، أغدق الهدايا على الأميرال نلسون ومن بينها عباءة من الفرو وفرعاً مصنوعاً من الماس من عمامته وعلبة مرصعة بالماس . وفي الحال رد نلسون على كرم السلطان بأن هزم البحرية الفرنسية عند خليج أبى قير . وبعد ذلك بثلاث سنوات أى في سنة ١٨٠١ ، تابعت وحدات من الجيش البريطانى النصر الذى حققه نلسون فدحرت الجيش الفرنسى في موقعة الأسكندرية . أحبطت أطماع نابليون في الشرق ولما انسحبت قواته من مصر عاد السلطان العثمانى يتنفس الصعداء من جديد .

ولكن بمجرد إزاحة الغزاة الفرنسيين بدأ يشكل تهديد جديد للسيادة العثمانية في مصر . من بين قوات الاحتياطى الكثيرة التى جندت من أجل الحرب ضد نابليون من الممتلكات التركية في جنوب شرق أوروبا ، كان ضابط شاب في قوات السلطان الألبانية يدعى محمد على وكان قد ولد في قرية القريبة من سالونيك في عام ١٧٦٩ . كان إبناً لتاجر دخان في بلد كان أهله من الفقر بحيث يعجزون عن شراء الغليون والطباق ، ولذا كان يتجول فيبيهم النفحات مقابل مبلغ زهيد . بدأ محمد على حياته جانياً للضرائب في خدمة الوالى الحلى . ورغم أنه كان أمياً ، فسرعان ما أبدى في الأساليب التى اتبعها لإجبار المتهربين من الضرائب على أدائها ، دهاء وقسوة لن يفقدها أبداً . ولما كانت أساليبه تتضمن استئجار البلطجية لضرب المعاندين من دافعى الضرائب إلى أن يدفعوها ، فإنه حقق نجاحاً بالغاً في عمله وسرعان ما استرعى نظر الوالى التركى الحلى الذى زوجه ابنته وعينه في الميليشيا الحلية . وهكذا ، عندما وصل نداء السلطان ، وجد — محمد على — نفسه في الطريق إلى مصر يشغل المركز الثانى في كتيبة من الجنود غير النظاميين العثمانيين .

كانت الرحلة بالبحر عنيفة للغاية ، وعندما اقتربوا من الشاطئ المهرى غرقت السفينة التي فيها محمد على ورفاقه فالتقطهم من البحر بحارة سفينة حربية بريطانية . كان ما لاقاه الضابط الذي يتولى قيادة الكتيبة كافياً فعاد إلى بلده على الفور . لم يبطئ محمد على في استغلال هذه الترقية التي جادت بها الصدفة ؛ ورغم أنه لم يلعب ، على ما يظهر ، دوراً نشيطاً جداً في العمليات ضد الفرنسيين ، إلا أنه يشق طريقه إلى القمة بسرعة فائقة . ففي ظرف عامين من وصوله في عام ١٧٩٩ رقى إلى رتبة كولونيل في أركان حرب الباشا التركي ، وإلى المركز الثاني في قيادة القوات الألبانية التي تتكون منها المليية الحامية التركية في مصر .

هذه النظرة البعيدة إلى الحكم والحامية في مصر سرعان ما فتحت أعين محمد على على امكانيات ازاحة النير العثماني ، مستخدماً من الألبان رأس حرية في الثورة ، ومن المماليك سنداً . ورغم أنه على خلاف المماليك ، لم يكن يشعر بأى ضغط قومي على الأتراك ، إلا أنه كان على درجة عالية من الطموح وتحمل أنه الشخص الذي سوف يبني امبراطورية جديدة . وهكذا سرعان ما انغمس في التآمر ضد سادته الأتراك ولعب دوراً قيادياً في المؤامرة التي أدت في عام ١٨٠٣ إلى تمرد الحامية الألبانية بحجة عدم دفع المتأخرات من الرواتب شهوراً عدة .

كان النجاح الكامل لحليف التمرد الذي تزعمه طاهر بك وهو قاطع طريق سابق وتولى قيادة القوات الألبانية . وترتب على انضمام المماليك أن استولى الألبان على القلعة ، مقر الحكومة ، وأجأوا الباشا إلى الهرب . من حسن حظ محمد على أن قتل طاهر بعد قليل فأصبحت له قيادة الألبان ومن ثم قيادة القاهرة . من الآن فصاعداً راح يلعب دوره بدواء بالغ ونفاق لا يعرف الرأفة ، فيضرب الأتراك والمماليك بعضهم ببعض ، ويتهنز كل فرصة لتتوية

مركزه . وبعد أن قتل المتمردون الألبان أول شخص بعث به الباب العالي مكان الوالى المطرود ، وبعد وصوله بقليل قرر محمد على الآن أن من السياسة مجارة الأتراك مؤقتاً . فانقلب على الممالك وأعلن تأييده للبasha الجديد خورشيد الذى وصل فى مارس ١٧٠٤ . ولكن تحت هذا القناع من التعاون كان يعمل بلا انقطاع على اجتذاب أهل القاهرة ورجال الدين فيها مستغلا كل مظنة ضد الحكم العثمانى .

وإذ زاد التوتر فى القاهرة بدأ خورشيد يرتاب فيما يدعيه محمد على من الولاء ، ولسكى يتخلص منه دون أن يثير صداماً سافراً عينه والياً على حدة فى الحجاز . قابل محمد على هذه الحركة بأن أمر جنوده الألبان بالقبض على خورشيد ، بينما خرج أهل القاهرة من جانبهم إلى الشوارع يصيحون مطالبين بعينه والياً . ولسكنها ، بما اشتهر به من دهاء ، قاوم مطالبهم وانتظر أن يتخذ الباب العالي الخطوة التالية . ولما كان السلطان غير متأكد من صلابه الأرض التى يتف عليها وخوفاً من أن يتحدى الألبان الذين لهم الآن اليد العليا ، أرسل مبعوثاً خاصاً للتحقيق وتقديم التوصيات بشأن حل المشكلة . وبالفعل رفع المبعوث تقريراً قال فيه إن أقوى قوة فى البلد هى محمد على بغير شك ، فوراء الحامية الألبانية وأهل مصر . وفى يونية ١٨٠٥ إنحنى الباب العالي أمام المحتوم وخلع عليه رسمياً « باشوية » مصر .

حقق محمد على أول أطماعه فراحت شهيته للسلطة تنمو بقوة ، وسرعان ما ساورته أحلام أكبر . من النقاط التى تحتمل الجدل أن نسأل هل كان فى وسعه أن ينتصر فى النهاية على الباب العالي وينصب نفسه سلطاناً لو لم يقف أحد فى طريقه : من الحقيق أنه كان على وشك النجاح فى مشروعه عندما تدخل وزير بريطانيا بالمرستون لمنعه ، ذلك أن الحكومة البريطانية التى تحملت المشاق كى تعيد سلطة السلطان عندما كاد نابليون أن يتضى عليها ،

لم تسكن اتسمح بأن يفسد محمد على ما صنعتها يداها . لم يكن الأتراك من أهل السكال في نظرها ، ولم تذرف الدمع على الخسائر التي لحقت بالإمبراطورية العثمانية في أوربا ؛ ولكن فيما يتعلق بالشرق الأوسط كان السلطان ضمناً لأمن الطريق البرى إلى الهند أفضل من محدث النعمة الطموح هذا . وهكذا ، فمنذ أن بدأت ولاية محمد على كان موضع الريبة في لندن بمثل ما كان في الآستانة ، ولم تسكن بريطانيا أقل ميلاً فقط من السلطان نفسه إلى احتمال تحديه للأخير ، ولكن كان أيضاً في موقف أقوى بكثير للحد من أطماعه الإمبريالية .

جاء أول تحرك بريطاني ضد باشا مصر الجديد في مارس ١٨٠٧ ، أى بعد أقل من سنتين من توليه السلطة . فبزلت قوة بريطانية في مصر بنية الانضمام إلى المماليك وإخراج محمد على . ولكن حبطت الخطة . لم تأخذ لندن في حسابها أنه بينما كان المماليك راغبين في أن يروا نهاية للبasha الذى انقلب عليهم ، فإنهم كانوا أضعف من أن يشككوا « طابوراً خامساً » له فعالية . ان تلك الأسرة الحاكمة من الرقيق ، كانت الآن مغلوبة على أمرها . فبعد أن انهزم المماليك وانهارت روحهم المعنوية في موقعة الأهرام ، وتفرقوا لما طاردهم الفرنسيين إلى مجموعات صغيرهم متناثرة بين القاهرة والنوبة ، لم يعودوا وحيدة مقاتلة لها فعاليتها . وعلى ذلك لم يلق جنود الباشا الألبان صعوبة في عزل وهزيمة القوة البريطانية الصغيرة لما نزلت على شواطئ الأسكندرية . ثم ، وعلى نحو ما فعل الجيش المغولى المهزوم والتابع لغازان خان قبل ذلك بمئتي سنة ، أجبر الأسرى من البريطانيين على السير نحو القاهرة حاملين عدة رؤوس لرفاقهم الذين قتلوا ، وبيعوا في سوق النخاسة بالمرزاد العانى إلا إذا اقتداهم قادتهم .

وأخيراً صمم محمد على الآن على تحطيم ما تبقى من المماليك . فبرغم

تفرقهم وفقدانهم روحهم المعنوية ظهر أن وجودهم نفسه يشكل دعوة إلى التدخل والغزو الأجنبي وبذلك فهم خطر محتمل . غير أن المالك حاولوا أن يوجهوا الضربة الأولى فدبروا مؤامرة لاغتيال الباشا في الاحتفال السنوي بوفاء النيل . ولكن المؤامرة اكتشفت ، ودُبر كمين وقع فيه أولئك السفاكين باعتبار ما سيكون ، ومزقوا إرباً وهم في طريقهم إلى الاحتفال ، وتحرك الباشا الآن لتدبير المذبحة . وتشبهاً بملك من ملوك عالم الجريمة دبر بأعصاب هادئة إبادة فرقة الضباط المالك . فتظاهر أولاً بأنه أسبغ عليهم شرف أن يكونوا طليعة جيش سوف يبعث به لصد هجوم على الحجاز من جانب شيعة متعصبة من نجد ، ثم دعا ضباطهم إلى استعراض يقام في القلعة تسكريماً لهم قبل رحيلهم . في هذا الجو من المؤامرات والمؤامرات المضادة ، يبدو أنه يصعب أن نصدق أن المالك ساروا نحو هذا الفخ الشيطاني دون أن تساورهم الريبة . ربما كانوا يعرفون ما هو مخبأ لهم فقرروا أن يتخذوا منه مبرراً لمعركة وعلى أى حال توجهوا إلى القلعة ، وعندما تخطى عتبتها البكوات والضباط المالك أغلقت الأبواب ونصب الفخ .

راح محمد على يلاعب دوره الفادر حتى النهاية فاستقبل القادة المالك في حجراته ذات الطقس البارد والفسيحة والتي سادها الظلام نوعاً . كان مظهره مظهر حاكم مستبد يحسب كل خطوة ويتمعن كل ما سيحدث ، وقد جلس القرفصاء على الديوان وعيناه الباردتان لا تبتسمان وكانت عمامته فوق جبينه الجمعد موضوعة بزاوية فاجرة نوعاً ، فرحب بضحاياه وقدم لهم الشرابات . طبقاً للعرف العربي كان ينبغي أن تحمل هذه الإيماة معها حماية المضيف لضيوفه . ولكن لم يكن محمد على عربياً وكان ينظر إلى معظم التقاليد العربية بازدراء . ولدى إشارة معلومة لإنقض حرسه الألبان على الضيوف وذبحهم . بينما انطلقت المدافع في شراسة من أبراج الحصن الكبير لتقتل المالك

(م ٢٠ — العرب)

المحصورين في الخارج . من ٤٧٠ شخصاً لم ينبج من المذبحة غير ضابط واحد همز حصانه حتى اعتلى سور القلعة وجعله يقفز إلى الأرض من الناحية الأخرى . قتل الحصان ولكن الراكب هرب وإن كان قد أصيب من أثر السقوط ، واختبأ عند أصدقاء له .

لم يقنع محمد علي بهذه المذبحة فأرسل قواته تطارد من تبقى من الأجناد المماليك وتقضى عليهم . وأسلمت القاهرة لأعمال النهب والسلب طيلة ستة أيام ، بينما تمتع الجنود الآن بالحرية الكاملة لقتل أى مملوك يجدونه وسلب ما يملك . وأرسل إبراهيم أكبر أبناء الباشا ، للقضاء على المماليك الذين كانوا قد فروا إلى الوجه القبلى أمام الغزاة الفرنسيين . نجحت مجموعات صغيرة في الهروب إلى السودان ولكن ما انتهى عام ١٨١١ حتى كانت تلك القلة الحاكمة المتكبرة التى أخرجت الصليبيين في النهاية ، وردت الموجات المغولية وحكمت مصر والشام طيلة ما يزيد على مائتين وخمسين عاماً من الاستقلال ، قد محيت بصورة فعالة فى أدق مذبحة تخطيطاً وتنفيذاً منذ قضى العباسيون على بنى أمية .

تحول محمد علي الآن إلى الحرب فى الحجاز حيث كان الوهابيون وهم فرقة جديدة متشددة وبالغة العنف من المسلمين السنيين ، قد استولوا على مكة والمدينة وحققوا استقلالهم عن الباب العالى . كان الوهابيون وهم سلف العرب السعوديين اليوم ، من أهل نجد واكتسبوا اسمهم من الشيخ محمد بن عبد الوهاب وكان داعية متشدداً إلى احياء الإسلام فى القرن الثامن عشر ، ويعتبر الأتراك زنادقة بسبب خرقهم المستعمر لتعاليم القرآن ، مثل شرب الخمر والميسر والزنا والوثنية . وكخطوة أولى نحو تخليص العالم الإسلامى من هذه المؤثرات الدنسة ، كان عبد الوهاب يصر على أن مدن الإسلام المقدسة ، حيث ولد النبي ودفن ، يجب أن تتطهر من الزنادقة . وبينما كان الناس

يقنعون بأقواله النارية اجتذب إلى قضيته واحداً من زعماء نجد هو محمد بن سعود الجد الأعلى للملك سعود مؤسس العربية السعودية . وهذا الزعيم أصبح في مقدمة أنصاره وزوجاً لابنته في نفس الوقت . هذان المؤسسان للفرقة الوهابية توفيا قبل أن تتمكن حركتهما من الوصول إلى السلطة . ولكن في عام ١٨٠١ هب خلفاؤهما كربلاء التي تعتبر المركز الرئيسي للضلالة الشيعية ، ثم راحوا يستولون على مكة والمدينة ، وبحلول ١٨٠٥ كانوا قد غزوا الشام والعراق ، وبذلك مدوا ممتلكاتهم من الميرا إلى عمان .

انزعج الباب العالي تماماً بسبب غارات الغزو هذه على الأرض العثمانية فطلب إلى محمد علي أن يبعث بجيش إلى الحجاز لطرد الوهابيين . تلقف الباشا الدعوة التي رأى فيها فرصة ذهبية لمد ممتلكاته . ولكنه اقترب كثيراً جداً من إفساد الفرص التي أتت له ، إذ بعث بابنه الأصغر طوسون علي رأس الحملة ، إذ كان إبراهيم مشغولاً بمطاردة الماليك في الوجه القبلي . لم يكن طوسون وهو الأثير عند أبيه على ما يزعمون ، قد بلغ السابعة عشرة من العمر بعد ، وكان هو وأركان حربه غير مستعدين تماماً للمقاومة العنيفة التي قوبلوا بها من الوهابيين . وبرغم نجاح جنود طوسون في الاستيلاء على قاعدة في ينبع على البحر الأحمر ، لم يلاقوا سوى الهزيمة كلما حاولوا التوغل في الداخل ، وراح المصريون التعساء وقد حصدهم عدو متعصب في قاعدتهم ، يتساقطون كالذباب بفضل الوباء ونيران الوهابيين . ظلوا عامين يتحملون هذا الشتاء إلى أن حضر محمد علي بشخصه في عام ١٨١٣ ومعه التعزيزات . وطبقا لها رواء شهود العيان فإن زيارة الباشا رفعت فوراً الروح المعنوية لجنوده المصريين للقتال . وإذ أباد إبراهيم الماليك ، تولى الآن القيادة مكان طوسون ، وبالتدريج أصبح للمصريين اليد العليا ، وساعدهم على ذلك ما نشأ بين الزعماء الوهابيين من المشاحنات وضروب الغيرة . استردت مكة والمدينة في الوقت المناسب ، وفي

عام ١٨١٨ تقدم ابراهيم ليفزو نجداً ويحطم الدرعية عاصمة الوهابيين . لقد انتصر الباشا ، ولكنه لم يحقق هذا إلا بعد سبع سنوات من القتال وبتمكيفة بلغت أربعة أخماس القوات التي استخدمها ، بما فيها ابنه طوسون الذي توفي بالطاعون قبل النصر النهائي .

لم يكسد محمد على يتوقف لحظة حتى شن مغامرته التالية وهي غزو النوبة وكردفان في السودان حيث كانت حكايات بعض الرحالة قد أقنعتة — وخطأ على ما اتضح فيما بعد — بأنه سوف يعثر على الذهب .

وفي عام ١٨١٩ أبحر بطريق النيل ابن ثانه له وهو إسماعيل على رأس حملة ولكن قدر للباشا أن يعاني خسارة شخصية مرة ثانية ، حيث أشعلت النار في معسكر إسماعيل فمات حرقاً . وعندئذ ، في عملية رهيبة من الثأر ، انطلق جنود الباشا بغير ضابط وقتلوا عدداً يقرب من عشرين ألف نوبى ، كدية مقابل مقتل قائدهم . خضع شمال السودان الآن وأصبح جزءاً من إمبراطورية محمد على الآخذة في النمو ؛ ولكن المذبحة التي ارتكبت باسمه^(١) خلفت في قلب كل سودانى جذوة نار من الكراهية لحكام القاهرة ، سوف يحولها إلى جحيم بعد ذلك بخمسين عاماً ، رجل دين مسلم ومتعصب آخر هو المهدي .

وإذا عاد الجيش المصرى من فتوحاته الدموية في النوبة ، كانت تفتتح أمام محمد على فرصة أخرى لتوسيع نطاق ممتلكاته . كانت المتاعب قد نشبت في كريت حيث حاول رعايا السلطان اليونانيون أن يتخلصوا من الحكم التركى . في أول الأمر لم يكن محمد على لا يشعر بالعطف على قضية الثوار وسمح لهم بتجنيد الأنصار من صفوف الجالية اليونانية في الاسكندرية . . ولكن سرعان ما تغير هذا الموقف عندما عرض عليه السلطان الجزيرة في عام ١٨٢٢

(١) يلاحظ أن هذه القوات التي بث بها محمد على لم تكن من المصريين بالمعنى الصحيح . — المترجم .

إذا أخذت الثورة اليونانية . قبل محمد على العرض راضياً . وبعد عامين أضاف الجزيرة إلى إمبراطوريته الآخذة في النمو .

ولكن روح القومية اليونانية انتقلت إلى اليونان وبدأت ثورة خطيرة في شبه جزيرة المورة . مرة أخرى اتجه إلى عامله المصرى يطلب المساعدة ويعرض عليه المورة — وكذلك الشام على ما أكد محمد على فيما بعد ثمناً لها ، ومرة أخرى قبل محمد على العرض ، وفي يولييه من عام ١٨٢٤ بعث بإبراهيم إلى اليونان ومعه قوات عدتها ستة عشر ألفاً ، ومائة من ناقلات الجنود والمعدات ، وثلاث وستين سفينة حربية . في أول الأمر سار كل شيء على ما يرام بالنسبة إلى القوات العثمانية . نزل إبراهيم إلى البر ، وبعد أن دفع الثوار اليونانيين أمامه استولى على أثينا . ولكن عندهذه النقطة دخلت بريطانيا والروسيا وفرنسا في الصورة ، في محاولة لوقف القتال . ضغط البريطانيون على محمد على وحملوه على الدخول في مناقشات كي يحمله على الانسحاب من المورة . ولكن عندما أخفقوا في أن يعرضوا عليه شيئاً يفره يمكن أن يقارن بالرشوة الجميلة التي قدمها السلطان ، قطع الباشا المفاوضات .

أما وقد أخفقت الدبلوماسية في وقف أعمال القتال ، حاولت بريطانيا وفرنسا الآن أساليب أكثر مفعولاً . ففي أكتوبر من عام ١٨٢٧ ظهر أسطول إنجليزي — فرنسي قوى أمام القاعدة التركية في نغارين ومعه أوامر بالعمل على تحقيق وقف إطلاق النار . ولكن الأتراك فتحوا النار على الضيوف الذين قدموا دون دعوة وجهت إليهم . وأجابت السفن الحربية البريطانية والفرنسية ، وكانت نيرانها مدمرة إلى حد أنه بعد أن انجلى غبار المعركة كانت قوات السلطان التركي والباشا المصرى البحرية المشتركة قد محيت

بالفعل . أغرقت سفينهما البالغ عددها ٧٨٢ ولم ينج منها سوى ٢٩ سفينة . اشتد الغضب بمحمد على إزاء عجز الأتراك الذى كلفه أفضل أجزاء أسطولهم وعلى الفور أمر إبراهيم بالانسحاب وترك المورة للشوار . ظل مبهتساً فترة من الوقت ، ولكن عندما حدث بعد أربع سنوات أن أضاف السلطان الإهانة إلى الإساءة بعدم منحه الشام ، بعث الباشا بإبراهيم على رأس ستة عشر ألفاً من الجنود للاستيلاء عليها باسمه .

سهل من مهمة إبراهيم أن كان إلى جانبه الأمير اللبناني بشير الشهابى الذى كانت السلطات العثمانية قد نفتته قبلاً لضمه وادى البقاع إلى امارته . كان بشير لا يحتاج سوى التأييد من جانب جيش مصرى قوى ، كى يدعو رعاياه اللبنانيين إلى الثورة على سادتهم الأتراك ، وفيما بين سنة ١٨٣١ والسنة التالية استولت القوات المصرية اللبنانية المشتركة على بيت المقدس وبافا وعكا ودمشق . وكان رد الفعل من جانب الباب العالى عزل محمد على من الولاية على مصر ، وأمر بوصفه السلطان والخليفة بلعنه هو وابنه إبراهيم فى كل أرجاء الإمبراطورية . رد محمد على غاضباً على هذه الحركات الجوفاء بأن حل شريف مكة الذى كان تحت سيطرته منذ إخراج الوهابيين من الحجاز ، على أن يعلن أن السلطان عدو للاسلام ونبيه .

أما وقد عجز الباب العالى عن إزاحة الباشا من الطريق بالضغوط السياسية أو الروحية ، حاول التدابير العسكرية . فتقدم جيش من عشرين ألفاً من الأتراك لصد إبراهيم ولكنه دحر ، وزحف المصريون للاستيلاء على حصص وحلب ، وعادوا مرة فأصبحوا سادة « سوريا الكبرى » بما فيها فلسطين ولبنان ، وما أن حل شهر نوفمبر حتى عبر إبراهيم جبال طوروس

واستولى على أطلنه وقونية . أصبح الطريق إلى الآستانة مفتوحاً الآن أمامه ،
وانتظر السلطان المرتجف الضربة النهائية .

لم تأت الضربة أبداً . ذلك أنه حتى عندما وقف إبراهيم مستعداً للقضاء
على الإمبراطورية العثمانية ، أمر محمد على بالتوقف بينما كان ينتظر ردود الفعل
من أوروبا . لو أنه واصل الزحف والضغط هناك وفي ذلك الحين لغير مجرى
التاريخ بأكمله . ما من شك أنه كان يستطيع أن يستولى على الآستانة
وينصب نفسه سلطاناً بمساعدة روسيا ، ولو أنه فعل هذا فن المؤكد بالمثل
أن روسيا كانت ستثبت أقدامها على مضيق البسفور . ولكن مغازلات
الروسيا مع العناصر المنشقة في الإمبراطورية العثمانية كانت تلاحظ بالفعل
بالارتياح الجسيم في لندن وباريس . وبرغم أن البريطانيين والفرنسيين
كان يمكن أن ينضموا مع الروس ضد السلطان عندما كان يضرب رعاياه
الأوروبيين في اليونان أو بلغاريا إلا أن آخر شيء كانوا يريدونه هو رؤية
الروس على ضفاف البسفور ولهم حرية إرسال سفنهم الحربية إلى البحر
المتوسط . ومن ثم ، فعند أول إشارة بأن حكام سان بطرسبرج يشحذون
خناجرهم استعداداً لزحف إبراهيم على الآستانة ، أصدر اللورد بالمستون
في لندن إنذاراً شديداً إلى الباشا ألا يتابع مكاسبه في آسيا الصغرى .
كان للإنذار أثره . فقرر محمد على ألا يغامر بقوته مع القوى الأوروبية
وأمر إبراهيم بالعودة إلى الشام ودعم فتوحاته . وكتعبير عن الشكر على
خلاصه « أعاد » السلطان « تعيين » محمد على والياً على مصر واعترف بغزوه
سوريا . في ظل الحكم المستنير والليبرالي الذي فرضه إبراهيم ، راحت سوريا
تنعم بمصر من السلام والتجانس كان فيه المسلمون واليهود والنصارى يحترمون
أساليب العبادة عند بعضهم بعضاً ، وذلك بدرجة من التسامح لم تكن معروفة
في جميع سنوات الحكم العثماني . ولكن تمتع سوريا ومجد محمد على لم يقدر

—٣١٢—

لهما أن يبقيا لأكثر من سنوات قلائل . ذلك أن بريطانيا كانت قد قررت الآن أنه يجب سحق الباشا مرة واحدة وإلى الأبد . ربما كان السلطان يستسلم ؛ ولكن بالمرستون لم يكن مستعداً لقبول الأمر الواقع في الشام . ومن الآن فصاعداً بدأ يمارس الضغط على الباب العالي لإخراج محمد علي من فتوحاته .

(٢٠)

اعتداءات أوربية

من قبيل توافق الصدف الغريب أن قادة أهم ثورتين عربيتين ضد الإمبراطورية العثمانية وهم محمد علي والحسين ، اتسموا في معاملاتهم مع البريطانيين والفرنسيين بلين العريكة وقلة الدربة بمثل ما اتسموا بالدقة البالغة في خداع حكام الأتراك . بالنسبة إلى الحسين يمكن القول أنه بوصفه أميراً عربياً كانت تعوزه الخبرة بالسياسة والدبلوماسية الأوربية وعلى ذلك كان من السهل على كليمنصو ولويد جورج أن يخدعاه. ولكن محمداً علياً كان أوربياً بالتبني والتربية ، وخلال ولايته كلها كان مثابراً على الإفادة من الأوربيين ، فانتقى الممنازين منهم واستورد سلعهم وأنشأ الدولة الحديثة بمصر بتكنيكاتهم ومساعدتهم . بل انه استخدم ضابطاً فرنسياً هو الكولونيل سيف كان قد تخلف بعد انسحاب نابليون واعتنق الإسلام ، وذلك كي يعمل على تمصير جيشه وتنظيمه من جديد ؛ وكانت القوة البحرية التي ساندت إبراهيم في الحملة الشامية ، تحت قيادة ضابط بحري بريطاني هو السكابن بريسليك . لكن يبدو أنه كان كالحسين ساذجاً إلى درجة تثير الدهشة في علاقاته مع القوى الغربية وكان له إيمان خارج عن المألوف في نوايا الأوربيين وفي نوايا الفرنسيين بوجه خاص .

ربما كان تأثير سيف هو الذي أدى بمحمد علي إلى أن يسيء تماماً تقدير ردود الفعل الأوربية وأن يعتمد على أن في إمكانه أن يضرب بريطانيا بالفرنسيين . لأن سيف كان يؤكد له باستمرار أن فرنسا سوف تساعده على الأقل للتغلب على البريطانيين الذين كانوا يؤيدون الباب العالي . وخلال

تملكه الشام كان يعتقد بصورة ضمنية أن الفرنسيين سوف يقاومون في النهاية أية ضغوط إنجليزية — تركية لإخراجه ، وإن كانت فرنسا في الحقيقة تساند جهود بريطانيا في جعل الباب العالي يتخذ موقفاً صلباً ضده .

وأخطأ محمد علي أيضاً الحكم على أخلاق بريطانيا وصلابة بالمرستون وذلك عندما قرر تمسكاً مع البديهة التي آمن بها وهي « على أن أجعل قديمي في ركابي السرج » ، أن يراهن على التأييد الفرنسي وأن يسعى إلى كسب تأييد بريطانيا لخطئه ضد الباب العالي . ففي لحظة كان الفرنسيون يأملون في أن يساعدهم في فتح الجزائر ، اقترح على قنصل عام بريطانيا في القاهرة أن تتفق بريطانيا ومصر على إبعاد روسيا عن الشرق الأوسط . كان يؤكد أن الإمبراطورية العثمانية قوة منهارة لا تستطيع تحقيق هذا الهدف : « ألا ترى أن من المستحيل الإبقاء على الباب العالي ؟ لقد فقدت الحكومة ثقة الناس في داخل العاصمة وفي المقاطعات . . . الطريق الوحيد لدعم السلطان هو مساندة بالإنجليز كأصدقاء لي أستطيع أن أفعل أي شيء ، وبدونهم لا أستطيع أن أفعل شيئاً ولكن بالمرستون كان قد أصبح على اقتناع ، بمثل كان لا يدين على اقتناع بالنسبة إلى ناصر في عام ١٩٥٦ ، بأن محمداً علياً كان متفقاً في السر مع روسيا ، مهما بدا شديد الرغبة في أن يتحدث عن المصالح المتبادلة مع بريطانيا . وإذ كانت بالمرستون يشك في أن فخماً كان يجري نصبه ، كان رد الفعل من جانبه صدمة عنيفة فاستولت القوات البريطانية على عدن لتحرم مصر من التسلط على الأقل على أحد طرفي البحر الأحمر ، وحذّر الباشا ألا يحاول مد نطاق نفوذه على حساب بريطانيا أو الباب العالي .

وفي هذه الأثناء كانت الضغوط الإنجليزية — الفرنسية في الآستانة تسفر عن نتائج . ففي سبيل إخراج إبراهيم كان الباب العالي يجمع جيشاً

ضخماً على أن يتولى قيادته القائد البروسى فون مولتكه وبضم نسبة كبيرة من الضباط الألمان . وبدأ العملاء الأتراك أيضاً حملة واسعة النطاق بقصد إثارة مسلمى الشام ضد سياسة إبراهيم القائمة على التوفيق بين المسلمين والنصارى واليهود فى داخل مملكته . وعند ما رد الباشا بالاستعدادات الحربية على هذه التهديدات ، عاد القنصل العام البريطانى بتحذيرات جديدة بالألا يتخذ مثل هذا الموقف العدوانى ضد الأتراك . هذا الموقف ضد الرجل الذى كان فى الحقيقة الحاكم المستقل على أرض عربية تزيد عما يحكم سيده الإسمى ، والذى شملت ممتلكاته المراكزين الباقيين من مراكز الثقافة والعلم العربيين - القاهرة ودمشق - فضلاً عن المدن المقدسة فى الإسلام ، هذا الموقف كان لابد أن يشبب انفجاراً فى النهاية . ولكن قبل التفجر استطلع محمد على رأى الفرنسيين وعلى نحو ما فعل سيف ، فإن ممثل فرنسا فى القاهرة قاده الى الظن بأنه يستطيع أن يعتمد على تأييد باريس فى أية مواجهة مع الآستانة أو لندن أو كليهما . كان هذا هو الجواب الذى كان يأمله ؛ وفى مايو ١٨٣٨ استدعى محمد على القنصل العام لبريطانيا وفرنسا والنمسا والروسيا وأمام الرباعى الذى تملكته الدهشة أعلن استقلاله التام والنهائى عن السلطان .

أحدث الإعلان رد فعل بالغ الغضب من جانب لندن واحتجاجات أقل عنفاً من باريس والعواصم الأوروبية الأخرى . وجرى التعجيل بالضغط على الباب العالى حتى ينتهى من هذا المعتصب الحديث النعمة لسلطة السلطان . ولكن كان ما يزال أمام الأتراك اثنى عشر شهراً كي يجهزوا ويسيروا جيش فون مولتكه على الشام ، وعند ما جاء الصدام النهائى فى عام ١٨٣٩ أجبرهم ابراهيم على الارتداد بسرعة نحو الأناضول كأنهم مجموعة من الرعاع حلت بهم الهزيمة . وبعد أسابيع قلائل وجه محمد على ضربة أخرى جديدة بالنظر . ففى طريق مزيج ماهر من الرشاوى ودق الأسافين أغرى أحمد باشا القائد

البحرى للسلطان على الخروج مع الأسطول العثماني بأكمله والتوجه الى الاسكندرية . وبرغم أن رد فعل الباب العالي كان مرة أخرى هو تقبل الفسكة ، إلا أن هذا كان القشة التي تقصم ظهر البعير ، وذلك في نظر بالمستون الذى رأى بوضوح الآن أنه اذا لم يقيم بعمل حاسم فسوف تسقط الإمبراطورية العثمانية كفتاحة فاسدة في حجر محمد على . وفى أوائل عام ١٨٤٠ أعلنت الدول الغربية بزعامة بريطانيا ، تأييدهم العسكرى التام للسلطان . وبعثوا الى محمد على بما يجب أن يرقى حقاً الى مرتبة واحد من أغرب الإنذارات النهائية في التاريخ . فأبلغوا الباشا أنه اذا استسلم في الشام وسلم أسطول السلطان في ظرف عشرة أيام فإن في امكانه أن يحتفظ بمصر وفلسطين ؛ واذا فعل هذا في ظرف عشرين يوماً أمكنه الاحتفاظ بمصر فقط ؛ واذا ظل بعد عشرين يوماً لا يستجيب للأنذار فسوف يضرب عليه حصار بحرى لإجباره على التسليم وعندئذ يحرم من جميع أراضيه وألقابه .

ولبيان جدية نواياهم استولت قوة بحرية بريطانية على سرية من المجندين الألبان في عرض البحر بينما كانت تتجه الى مصر . احتج الباشا لدى القنصل العام البريطانى وهدد بإحداث ثورة في ألبانيا ضد السلطان اذا لم يفرج عن جنوده ، ولكنهم نحوه جانباً في ازدراء وذكروه أن في امكان بريطانيا أن تسحق مصر وأنها سوف تفعل هذا اذا نفذ مناورته . أدرك محمد على أن هذا ليس تهديداً أجوف . كان منذ بداية أمره يفهم أهمية القوة البحرية . كان افتقاره اليها خلال حرب الحجاز عندما كانت سفنه التى تنقل الإمدادات تحت رحمة قراصنة البحر الأحمر قد أقنعه بهذه الأهمية ، كما أقنعه قبل ذلك عجز مركز نابليون في مصر بعد أن هزم الاسطول الفرنسى في معركة النيل ، وعلى ذلك أسرع مرة أخرى إلى التماس مشورة قنصل عام فرنسا الذى نصحه بالثبات في الشام وبالاحتفاظ بأسطول السلطان وبعدم إثارة أية استفزازات

جديدة . وأكد له أن العاصفة سوف تهدأ ويقعد البريطانيون حماسهم .
للقضية التركية .

يندر أن كان يحصل على نصيحة أسوأ من هذه . كان بالمرستون قد كثر
الآن عن أنيابه ، وعندما انقضت مدة العشرين يوماً نزلت إلى بر الشام قوة
مشتركة من الإنجليز والأتراك تساندها البحرية البريطانية ، بينما ضربت وحدات
بحرية بريطانية أخرى الحصار على الساحل المصرى . ولقى الغزاة المساعدة من
ثورة قام بها الدروز الذين ساءهم تسامح إبراهيم مع المسيحيين واليهود في
البلاد ، فاستولوا على بيروت وعكا ، وفيما أبحرت قوة صغيرة بقيادة الكومودور
نايير لتتفاوض بشأن استسلام الباشا ، راحت القوة الإنجليزية - التركية
تنزل الهزيمة بإبراهيم في اشتباك بعد آخر . سقطت صيدا ومن بعدها طرابلس .
وطرسوس . خارت عزيمته الأمير بشير وفر مع قواته اللبنانية المكونة من خمسة
عشر ألفاً ، ورغم أن المصريين قاتلوا بشجاعة بالغة إلا أن خسائرهم كانت
تزيد باطراد . وإذا وجد إبراهيم نفسه تضربه البحرية البريطانية من البحر
ويطارد من معقل إلى آخر في البر ، أجبر في النهاية على الانسحاب مع
بقية جيشه .

وفي مصر وعندما اقترب نايير من الأسكندرية فإن الباشا الذى كانت
تتقدم به السن ، استشاط غضباً إذ لم يرفع الفرنسيون إصبعاً للدفاع عنه . نصحه
القنصل العام الفرنسى بانتظار تحرك ما من جانب باريس ، وهنا فقد محمد على
أعصابه ، وبالغضب الشديد فى عينييه ، صرخ فى وجه الفرنسى بأنه انتظر زمناً
أطول مما ينبغي ، وأنه سوف يعلق الآن كل شىء على حركة يائسة أخيرة يقوم
بها الأسطول . ولكن تهديده لم ينفذ أبداً ، لأنه فى تلك اللحظة فقد إبراهيم
الذى كان يتراجع من الشام كل اتصال مع القاهرة ولم يعرف والده أين يوجه
الضربة فى سبيل تأييده . لقد أطلق الباشا سهمه . وكل ما يستطيع عمله الآن .

أن يضع مصر في حالة حصار وبحصن الإسكندرية وينتظر عودة إبراهيم . وفي الوقت نفسه حاول إصلاح جسور قلائل مع الدول الغربية بـن دفع جميع ديونه: للتجار والمقاولين الأوربيين وسمح للبريد البريطاني أن يمر في بلاده إلى الهند دون عائق . وكانت استجابة بريطانيا الوحيدة تشديد الحصار . . .

كان انسحاب إبراهيم صورة مصغرة لارتداد نابليون من موسكو . فعندما كان يشق طريقه إلى مصر كان قد خسر أكثر من نصف جيشه ، إذ كانت القوات البريطانية والتركية تطارده . وكان معظم الباقين على قيد الحياة في حالة يرئى لها . وخشية وقوع متاعب من جانب أهل القاهرة وهم يرون البقايا الحزينة تشق طريقها متعثرة إلى القاهرة ، أعلن محمد على أن الجرحى هم من الأسرى البريطانيين أو الأتراك . ولكن الحقيقة سرعان ما تسربت ، وأصبح مزاج الناس قبيحاً وينذر بالخطر حتى برغم أن إبراهيم راح في إخماء لإرضاء قوامه فسلم قصره بالقاهرة ليكون مستشفى للجرحى . ثم ، وكخاتمة للأمر صرح الميوتيمير رئيس الوزراء الفرنسي أنه « إذا خضع باشا مصر في وقت مبكر بالدرجة الكافية ، فربما قد تترك له مصر على أن تكون وراثية في أسرته » . أخيراً أظهرت فرنسا موقفها ، وكان واضحاً أن خير ما يمكن أن يأمل فيه الآن هو الاحتفاظ بباشوية مصر . لقد ضاعت الشام إلى الأبد وضاع معها حلم محمد على في تكوين إمبراطورية .

بعد أيام قليلة وصل الكومودور نايبير إلى الإسكندرية . ووسط قاعة الاستقبال بجدرانها المنقوشة بالزخارف وبشمعداناتها المصنوعة من الذهب والفضة ، وفي عباة الخضراء المبطنة بالفرو وفي فمه مبسم نارجيلته (المصنوع من العنبر) استقبل الباشا السىء الحظ رسول الفاتحين البريطانيين . سلم نايبير شروط المرستون وكانت مزيجاً وافراً من التهديدات والإغراءات . بدأت رسالة رئيس وزراء بريطانيا بالتذكير بخسائر إبراهيم ، ثم جعلت من

الواضح أن محمداً علياً سوف يغلب ويخسر كل شيء إذا رفض الوصول إلى اتفاق . ولكن بشرط أن يعيد أسطول السلطان إلى صاحبه الشرعى ويتخلى عن دعاويه في الشام ومكة والمدينة فإن بريطانيا وفرنسا والروسيا والنمسا سوف يستخدمون نفوذهم لدى الباب العالى لى يضمنوا له استمرار بقائه والياً على مصر .

لم يكن أمام محمد على من بديل سوى أن يقبل هذه الشروط . ولكن عند هذه النقطة استرجع الباب العالى فجأة شجاعته التى كان قد أخفق بمثل هذا الشكل الغريب فى اظهارها لما كان الباشا فى ذروة قوته . رفع الآن الثمن الذى عرضه بالمستون وطالب بأن يخضع محمد على لأن يكون خلفه من اختيار الباب العالى ، وأن يقصر عدد الجيش المصرى على عشرين ألفاً منهم ألفان يستبقون فى الاستانة كرهائن على حسن سلوكه . وطالبه أيضاً بأن يقبل مبعوثين أنراكا يقولون الإدارات الرئيسية فى حكومته ، وأن تعين الاستانة جميع الضباط فى جيشه ، وأن يدفع ربع إيرادات مصر جزية الى السلطان .

ولكن الباشا لم يكن ليرضخ ، وبعد أن أعاد مبعوثى الباب العالى شكاً للبريطانيين فى حرارة من أن السلطان يحاول أن يخذله . فى هذه المرة ساند بالمستون محمداً علياً ضد الأتراك وأخير السلطان الا يتوقع أى تأييد بريطاني بعد ذلك اذا أصر على هذه الشروط الإضافية . واذ كانت المتاعب تختمر فى جميع أرجاء ممتلكات الباب العالى الأوربية والعربية لم يكن فى وسعه أن يبعد بريطانيا عنه ، ومن ثم تراجع . وافق محمد على أن يدفع لى من إيراداته جزية وأن يقبل مندوباً تجارياً تركياً ..

وفى نوفمبر ١٨٤٠ سلم الأسطول العثمانى ، وفى يناير من العام التالى ثبته السلطان العثمانى مرة أخرى باشا لمصر . رجع محمد على الى حيث بدأ ؛ ولكنه ظفر بما كان يعتبره أهم هدف تبقى فى حياته ، هو الحق فى تأسيس ملك له

ولأسرته . أما عن مضاميرته الشامية فكانت نتيجةها النهائية تقيض ما كان يأمل في تحقيقه . فهو لم يفشل فقط في اقتلاع السلطان العثماني ، باعتباره الحاكم الأعلى للعالم العربي ، ولكن بريطانيا صارت الآن في مركز أقوى وأثبت في الشرق الأوسط من مركز فرنسا وأتمت رابطة مع الإمبراطورية العثمانية سوف تستمر أكثر من سبعين عاماً إلى أن سمع رجال جماعة تركيا الفتاة بأن تأسرهم مشروعات قميص ألمانيا للسيطرة على العالم ووجدت بريطانيا نفسها وعلى غير رضاء ذاتي نوعاً ، تؤيد الثورة العربية التي قام بها حسين شريف مكة .

إلا أنه برغم الفكسات التي أصيب بها ، بدا أن الباشا العجوز الذي بلغ الآن الثانية والسبعين من عمره ، عاد إلى أسلوب التآمر وإن لم يكن يبتسم . كان السلطان القائم بالحكم شاباً مصاباً بالصرع في الثامنة عشرة من عمره ، اسمه عبد المجيد اعتقد محمد على خطأ أنه لن يمتد به الأجل . خرج الباشا عن أسلوبه المعتاد وراح يتودد إلى الصبي أُملاً في أن يعين خلفاً له ، واقترح عليه مرات عدة أن يتعاونوا في إخماد الثورات في الإمبراطورية ومنع مكائد وأحاييل الدول الغربية . وبعث بابنه سعيد إلى الآستانة لتمطر الحاكم الشاب بالهدايا الثمينة والنادرة بما فيها فرس نهر جرى به من الحبشة ، وليطلب يد أخته . ولكن كل مكائده انتهت إلى لا شيء . فأعيد سعيد إلى بلده بأسلوب مهذب ؛ وعاش السلطان وبرغم ما كان يتعرض له من فوبات ، أحد عشر عاماً بعد وفاة نائبه المصري . والحقيقة أنه حوالى النهاية كان محمد على هو الذي لم يعد ماسكاً لقواه ؛ وكانت أحواله تتراوح بين فورات من الغضب والجروح والسوداوية اليائسة . ولما مات في النهاية في سن الثمانين ، في أغسطس ١٨٤٩ كان قد خرف تماماً .

لقد دعى محمد على بحق ، مؤسس مصر الحديثة . فبرغم أن أحلامه في

إمبراطورية حطمتها بريطانيا بالمرسوقون بعنف ، فإن نجاحه في إنقاذ واستعادة اقتصاد قاعدته المحلية بعد تدهوره الحزن في ظل الحكم العثماني ، كان إنجازاً هائلاً . حقيقة استخدم أساليب قاسية لا يترأس الضرائب من رعاياه حتى يدفع رواتب جنوده وتكاليف تطوير مصر . وبعد أن انتقلت أعداد من البدو إلى فلسطين كي يتفادوا دفع الضرائب الباهظة التي فرضها عليهم الباشا ، جعل مغادرة البلاد بدون ترخيص خاص جريمة عقوبتها الموت . وكان التعذيب بالقلعة أى الضرب على الأقدام بالكرباج المصنوع من جلد الجاموس ، يستخدم بدون تمييز في معاقبة المتهربين من الضرائب والتجار الذين يحققون أرباحاً فاحشة . ولكن في ذلك الحين كان نظام الضرائب والحسابات الذي تولاه الأقباط منذ القرن العاشر ، معقداً جداً وأتاح للكثيرين من الأقباط وملوك الأرض أن يدفعوا القليل من الضرائب أو لا يدفعونها ، الأمر الذي تعين معه اتخاذ إجراءات حاسمة للتغلب على المشكلة ، من بينها شكل من تأمين الأرض حول في الواقع معظم الأرض الصالحة للزراعة في مصر بما في ذلك دلتا النيل كلها ، إلى ضيعة شخصية للباشا (ظل الكثير من هذه الأملاك الضخمة في أيدي حفيد هو الملك فاروق في الوقت الذي قام فيه جمال عبدالناصر بالثورة في عام ١٩٥٢) . لكن ، مهما بدت أساليبه ظالمة ووحشية حسب معايير اليوم ، فلا سبيل إلى إنكار أن محمداً علياً عمل فعلاً بهذه الإصلاحات التي لا ترحم وباستيراده العلماء والفنيين الأوربيين ، على تنمية موارد مصر إلى أقصى طاقتها . وبوجه خاص أدخل زراعة القطن من السودان ، وأنشأ أول مدارس للهندسة والطب الحديث بمصر ، وابتدع أساليب علمية جديدة في الزراعة . وكما يلاحظ هنري دُڤول في دراسته عن الباشا « فالشيء الملفت للنظر ليس في أن محمداً علياً أقام حكمه كرجل تركي ، ولكنه في أنه كان قادراً ، بما لم يقدر عليه أي تركي آخر في عصره ، على استيعاب أفكار جديدة وتطبيقها على ظروف

جديدة ومختلفة... باحساس بالقوى التى تبني بها الدول وتتحطم... قاد الطريق فى تطبيق الأفكار والسياسية الغربية على الأحوال القائمة فى الشرق » .

هذا لايعنى القول بأنه ألغى الفقر فى مصر أو حتى قلل منه بصورة جدية . فساكن الفلاحون لايزالون يعيشون فى فاقة وضنك فى عام ١٨٥٠، وكثيرا ما كانوا لا يحصلون على ثمن المحاصيل التى أخذها مفتشو الحكومة لبيعها لصالح الدولة . وفى محاولة لتحويل المقت من عاتق الباشا إلى الباب العالى ، كان الموظفون يقولون إن السلطان حلب الخزانة حتى جف ضرعها . وكان محمد على يفرض رقابة شديدة على مفتشيه ويشدد به الغضب جداً إذا قيل له إنهم كانوا يسمحون للفلاحين بأن يحتفظوا أو أن يبيعوا فى السر ، مايزيد على النسبة الضئيلة من محاصيلهم وهى النسبة التى يسمح لهم القانون بها . وكانت كل التجارة أى الواردات والصادرات ، وأرباح المقاهى ، والمبيعات من الغلال أو حتى من الأشجار تخضع لضريبة قدرها ١٠ فى المائة . ولكن البيوت والأرض كانت معفاة بحيث أن أكبر مالك أرض فى مصر أو المالك الوحيد بالفعل ، وهو الباشا ، لم يدفع ضريبة على الجزء الأكبر من ممتلكاته . وهكذا كانت هناك فوارق ضخمة بين الأغنياء والفقراء . ففى الوظائف الحكومية مثلا كان محافظ الوجه القبلى يحصل على هيئة ضرائب ومرتب ، على ما لا يقل عن ٦٠٠٠٠ دولار فى السنة ، بينما كان مدير المديرية يحصل على ٢٥٠٠ دولار فقط ، ومأمور المركز ١٧٠ دولاراً ومحصل الضرائب ٦٠ دولاراً .

ولقد أعطى محمد على مصر — والشام أيضاً خلال السنوات السبع من حكمه لها — نظاماً عنيفاً من العدل ، كان بغير شك قاسياً أكثر منه عادلاً ، إلا أنه كان أكثر ليبرالية بصورة لانهائية ، من النظام الذى كان يطبقه الباشوات العثمانيون السابقون وليس أكثر شدة من نظام العدالة السائد

حينذاك في إنجلترا . كان للحاكم وقضاته ومحافظيه ومديرية سلطنة الحياة والموت على جميع من يظهرون أمامهم . ولكن الذين كانوا يستشعرون الخوف من هذه المحاكم السريعة الفصل في القضايا ، كانوا أولئك الذين يجنون الأرباح الفاحشة ومن يضطهدون الأقليات الدينية . مهما كان الربح الذي يحققه الباشا بسبب مركزه ، فقد كان لا يسمح لأحد آخر بأن يضحي بالفقراء ويستغلهم . وكذلك لم يكن لية سامح مع أي اضطهاد ديني . ففي كل من مصر والشام في ظل حكم إبراهيم ، كان في إمكان اليهود والنصارى أن يسبوا في الشوارع دون خوف من المضايقة والإزعاج ، وهذا موقف لم يكن معروفا في ظل حكم العثمانيين الذين كان أكثر أسلوب يستخدمونه من أجل الاحتفاظ بسيطرتهم في ولاياتهم العربية ، هو أن يثيروا الدروز ضد الموارنة أو المسلمين ضد اليهود .

وسار إبراهيم في الشام على نهج أفضل مما سار عليه محمد علي في مصر ، وعمل على أن يحكم البلد ويصلحه عن طريق التعاون بدلا من الكبراج . كان ضد سياسة أبيه في الابتزاز واختطاف الأراضي ، فألغى استخدام الفلقة والكبراج ، ومع ذلك جمع من الضرائب ما يكفي لإنشاء مدارس للطلبة والمهندسة والزراعة والموسيقى حيث لم يكن التعليم قبل ذلك يتعدى اللغة التركية وحفظ القرآن . وفي المسائل الدينية كانت تصرفاته أفضل أيضاً من تصرفات أبيه . ففي ظل الحكم العثماني كان غير المسلمين يخضعون لقيود لا عد لها . فلم يكن في الإمكان أن يتولى مسيحي مثلاً مركزاً من مراكز السلطة في الحكومة ، بل ولا أن يظهر علناً ممتطياً حصاناً أو مرتدياً عمامة بيضاء أو حراء أو خضراء^(١) . ألغى مظاهر التفرقة هذه ، وكون مجلساً للحكم من مسلمين ويهود ونصارى . وشجع أيضاً رجال الإرساليات من أوروبا

(١) يستطیع القارىء أن يلمس سماحة الاسلام في عهد الغلفاء العرب وكيف كان لا يفرق

بين الناس على أساس دياناتهم — المترجم .

والولايات المتحدة على إنشاء مدارسهم — وهو تطور في الثقافة الغربية سوف يؤدي مباشرة إلى تكوين ما يعرف الآن بالجامعة الأمريكية في بيروت . والحقيقة أن إبراهيم كان يتجه نحو استرضاء رعاياه المسيحيين . بل ويقال إنه عندما استولى خلال الحملة الشامية ، على مدينة تضم مسجداً وكنيسة للكاثوليك استخدم المسجد لخزن مؤونته وأعفى الكنيسة من هذا الأمر . « يستطيع رجالى أن يصلوا في الخلاء » ، كان هذا هو رده على القائد البحرى السكاكبن بريسيك الذى تملكته الدهشة .

لقد كانت مأساة بالنسبة إلى الشام أنه بفضل تدخل بالمرستون ومخاوفه إلى حد كبير ، أن أهلها لم يتمكنوا من أن ينعموا لأكثر من تسع سنوات بالمنافع التى نجمت من حكمة إبراهيم السمحة ومن فهمه للناس . ولكن ربما كانت المأساة أعظم بالنسبة إلى مصر أن إبراهيم لم يعش بعد أبيه ليصبح والياً عند ما توفى محمد على وليشرف على بناء قناة السويس . لو أن هذا حدث لكان من المرجح أن مصر لم تكن لتخسر أبداً نصيبها فى هذا الإستثمار الجزى الكبير . فالذى آلت إليه الأمور فى المستقبل هو أن اسماعيل بن إبراهيم الذى أصبح باشا فى عام ١٨٦٣ ، سرعان ما رهن خلال إثني عشر عاماً ، مستقبل مصر بسبب أسلوبه فى الإنفاق على التنمية بطريق العجز ، بحيث اضطر إلى أن يبيع حصص مصر بأسرها فى شركة قناة السويس إلى الحكومة البريطانية كي يسدد ديونه المستحقة للدائنين الأوربيين . وهكذا أهدت لبريطانيا هي وفرنسا ، الرقابة المالية على مصر . بعد ذلك لم تكن الحكومة البريطانية بحاجة إلى غير ثورة مسلحة ضد « المراقبين » لتتخذ منها ذريعة لفرض احتلال عسكري . هذه الذريعة وفرها فى عام ١٨٨٢ فى يسر وسهولة أحمد عرابى الذى كان الأول فى تلك السلسلة الطويلة من الضباط الوطنيين العرب ، والذى تزعم ثورة قام بها الجيش ضد الرقابة الإنجليزية — الفرنسية^(١) .

(١) الأصح أن التعبير أن ثورة عرابى ضد التوغل الأجنبى وضد الحكم المطلق للخديو ، استغلها الانجليز لضرب هذه الحركة القومية وكان الخديو توفيق أذاتهم الطيبة . - المترجم

وسرعان ما قضت قوة بريطانية بقيادة السير جارت ولسلي على ثورة عرابي في موقعة القل الكبير ؛ ومن ذلك الحين فصاعداً أصبح السير إفلين بارنج (اللورد كرومر فيما بعد) حاكم مصر من حيث الواقع ، ومعه جيش احتلال بريطاني يساند كل قرار يتخذه .

وهكذا انتهت سلسلة الأحداث التي بدأت بنزاع محمد علي مع المرستون حول الشام ، بأن استبدلت مصر بسادتها الأتراك سادة بريطانيين وظلت ولاية في حالة تبعية حتى عام ١٩٣٦ ومخفراً عسكرياً أمامياً لبريطانيا حتى عام ١٩٥٤ . وبرغم ذلك كان لدى مصر شيء حاسم يعزينا ويستحق أن تشكر محمد علياً عليه . فمذ أن ارتفع إلى موضع السلطة كانت مصر المركز السيامي للعالم العربي ، سواء أ كانت مكبلة بالأغلال أم حرة . كان هناك بالطبع من قالوا إن الباشا « استهدف الفتح قبل أن أضفيت عليه السلطة على نحو سليم » وإن « قمة طموحه كانت هي أن يثبت نفسه وورثته على عرش مصر » ، وإنه « جعل خزائنه خاوية وسلب أرضاً خصبة زهرة شبابها في سبيل مد نفاق ممتلكاته » . ولكن إذ نحكم في الضوء التحليل الذي يلقيه التاريخ ، فإن محمداً علياً أيقظ بالفعل المصريين من « سبات العصور » ، وضربهم واستبد بهم كي يصبحوا من جديد ، الأمة الكبرى في المركب العربي .

(١) واضيف أن المزيمة التي يتحدث عنها الكاتب كانت وليدة الضيافة من جانب عناصر عميلة . — المترجم .

القسم السادس ريج التغيير

(٢١)

أورة المهدي

لم يلعب السودان دوراً يذكر في التاريخ العربي ، حتى النصف الأخير من القرن التاسع عشر . هذا البلد الذي يعادل من حيث المساحة أوروبا الغربية بما فيها اسكنديناوه ، لم تتعرض له الإمبراطورية الرومانية . أما النوبة التي تبلغ ربع مساحته ، فلم تفتحها الجيوش العربية سوى ثلاث مرات . وانتزعها صلاح الدين يتخذ منها مكاناً يمكن أن يلجأ إليه ، وذلك عندما خشى أن يعزله من حكومة مصر مولاه الشامي نور الدين ، وفتحها بيبرس كعمل من أعمال التملك الامبريالى المباشرة ؛ وأخذ محمد على إذا اعتقد خطأ أنه سوف يجد الذهب هناك . كان المهاجرون العرب قد تسربوا إلى النوبة في العصر الجاهلى قادمين من اليمن ، ولكنها أصبحت في القرن السادس الميلادى وقبل مولد محمد ، مملكة مسيحية بفضل النشاط الذى بذله من أجل تفصيلها ، الأسقف البيزنطى الكبير تسطوريوس المقيم في الحبشة المجاورة لها . وعندما فتحت الجيوش العربية مصر في عام ٦٤٠ باسم خليفة مكة ، وتداعت الممتلكات المجاورة الواقعة في الغرب ، صمد النوبيون وأجبر قائد قوات الخليفة على عقد اتفاق ينظم العلاقة مع هؤلاء الأشداء ممن كانوا قد اعتنقوا المسيحية . وبالتدريج توغلت الفرق الإسلامية - من الخوارج والحشيشية والإسماعيلية - في شرق أفريقية بما في ذلك جزيرة زنجبار . ولكن النوبة تمكنت خلال سبعمائة عام من الثبات أمام الهجوم من جانب الإسلام ؛ وحتى في القرن الرابع عشر وبعد اعتداءات صلاح الدين بوقت طويل ، ظلت للديانة المسيحية الغلبة والسيادة . ولم يبدأ التأثير الإسلامى ينتعش إلا بعد استيلاء سلاطين المماليك على السودان ؛

وبحلول العشرينات من القرن التاسع عشر، عندما ضم محمد علي النوبة، كان المسيح قد حل محله محمد كرسول الله. وأخلى الحكام الوطنيون الطريق أمام حكام من الأتراك ليحكموا أهل القبائل المميج والعرافة في هذه المقاطعة الصحراوية الشاسعة. كانت النوبة متورطة بعمق في تجارة الرقيق منذ العصور القديمة. فلم يقف الأمر عند حد كونها مصدراً جاهزاً للرقيق من أبنائها، لتزويد البلاط في مكة ودمشق وبغداد والقاهرة^(١)؛ ولكنها كانت توفر تسهيلات المرور على طول نهر النيل لتجار الرقيق الذين يتوغلون في شرق أفريقية لاتمام مشترياتهم من هذه السلعة. الواقع أن كل ما يتكون منه السودان الآن - أى النوبة وكردفان ودارفور وبحر الغزال والإستوائية - كان يشغل بتجارة الرقيق حتى عام ١٨٧٧ عندما عين إسماعيل خديو مصر، الجندي المكتشف البريطاني الجنرال جوردون حاكماً عاماً على هذا الإقليم المصري المترامي الأطراف. كان إسماعيل يعلم جيداً وتاماً أن جوردون سوف يصر على القضاء على تجارة الرقيق. ولكن من كانوا تحته من المحافظين الأتراك والمصريين كانوا قد أشاعوا الاضطراب في السودان، بالاشتباك في منازعات مع الحبشة وبتبديد إيرادات مصر الآخذة في التناقص والسماح للمحافظين الإقليميين بأن يتصرفوا كأنهم حكام مستقلون، بحيث لم يكن أمام جوردون من بديل سوى تقبل هذه الخسارة كضمن لإقامة إدارة تتسم بالكفاءة. ذلك أن جوردون النزيه بما له من تجربة في فتح أبواب مناطق المستنقعات في أعلى النيل، كان هو الرجل الوحيد الذي يمكن أن يطمئن إليه إسماعيل ليفرض السيطرة على هذه الأرض الموحشة التي لم تحدد وترسم معالمها. عمل جوردون تماماً الشيء الذي كان متوقفاً منه، فوحد السودان تحت راية الخديو، وعين مديريين أوربيين في المديرية، وقضى على تجارة الرقيق.

(١) كان خليفاً بالكاتب وهو يذكر هذا مع عمله بموقف الاسلام الحقيقي من استنكار الرق، ان يضيف ان استرقاق ابناء افريقية فعلا بدأ بعد كشف العالم الجديد حيث سيقوا بالملايين للعمل في المزارع والمناجم والموت أيضاً — المترجم .

كان حتماً أن يشير عداء تجار الرقيق والباشوات المحليين ؛ إلا أنه كسب احترام بل وامتمان قطاع كبير من السكان عندما حرم نظام الرشوة والابتزاز ، الذى كان أسلافه يعيشون عليه . ولكن عندما تأمرت بريطانيا مع الباب العالى فى عام ١٨٧٩ على طرد اسماعيل وإحلال ابنه توفيق محله ، قدم جوردون استقالته كحاكم عام . هذا الجندى الفاضل الذى أنهكه ما بذل من جهد ليخلق النظام من الفوضى ، والذى شعر بالاشمئزاز من الطريقة العنيفة التى عومل بها صديقه الخديو على يدى بارنج ، نقول إن هذا الجندى وجد فى خلع إسماعيل القشة الأخيرة التى تقصم ظهر البعير .

أغرق رحيل جوردون السودان مرة أخرى فى الفوضى . وكان خلفه رؤوف باشا أسوأ شخص يمكن أن يقع عليه الاختيار . كان جوردون قد طرده من الخدمة فى السودان بسبب قسوته مع الأفريقيين ، فراح الآن يمتطو الرعاية على أصدقائه وكان من بينهم لصوص ومحتالون . وأعيد التعذيب والجلد فى السجون ، ومرة أخرى عادت الرشوة والابتزاز يحكمان السودان . ولم يزد المديرين الأوروبيون الذين أبقوا فى دارفور وبحر الغزال والإستوائية عن كونهم قطع شطريج لاحول لها ولا قوة على تلك الرقعة التى يتسلط عليها هذا التركى الفاسد الشرير . وعادت الإيرادات تنزع من الناس بالسكراباج لتصب فى جيوب موظفى الحكومة ، كل حسب رتبته ؛ أما الذى كان موجوداً من الخدمات الاجتماعية الهزيلة فلم يوفر لها حاجتها من المال فتوقفت ؛ وكانت القوات غير النظامية ومعظمهم من السودانيين والزنج لا يتقاضون رواتبهم أو يطردون من الخدمة . وبالإضافة إلى هذا كان الجنود والموظفون الأتراك يعاملون رعاياهم السودانيين بعجرفة لا يمكن إحتمالها .

أصبح السودان الآن وقد نضج فى كل مكان للثورة التى لم تكن تتطلب سوى زعيم يشعل نارها . وفى ظرف سنة من رحيل جوردون وجد هذا الزعيم

في شخص محمد أحمد بن سيد عبد الله وكان إبناً لأحد صانعي الزوارق النيلية ، فاتخذ لنفسه في عام ١٨٨٠ لقب « المهدي » وأقسم أن يخلص الشعب السوداني ممن يضطهدونه ويظلمونه . ولد محمد أحمد عام ١٨٤٨ في دنقلة عاصمة المملكة المسيحية السابقة وهي النوبة ، الواقعة على النيل بين حدود مصر والخرطوم . وبرغم نشأته الفقيرة والمتواضعة أصبح شاباً ذكياً وقادراً على تحريك العواطف . كان طويل القامة ، عريض المنكبين . وقوى البنية ؛ وكان يبدو ممثلاً لاطراز المحارب السوداني ، وذلك بقامته المنتصبة الوقورة ، وبآثار جراح ثلاثة على كل واحد من خديه ، وبعينيه الكبيرتين الدافقتين ووجهه الدائم الالتهام . ومن سن مبكرة أصبح طالباً نهماً في دراسة الفقه الإسلامي ، وبعث به بطريق النيل إلى بربر ليدرس ما يؤهله لوظيفة دينية . ولما بلغ الثانية والعشرين من العمر كان قد أصبح موضع الاعتراف الواسع بكونه واعظاً ومعلماً . وإذ كان زاهداً متشدداً ولا يتساهل في تلك الأيام المبكرة ، عاش في غار بجزيرة أبا القريبة من بربر ، حيث « أثار » وعظه « القلوب وأحنى الرؤوس كما ينحنى القمع تحت العاصفة » على ما يحدثنا السير ريجنالد ونجيت في كتابه « اللهدية والسودان المصري » .

منذ البداية الأولى لحياته كعلم لتعاليم الإسلام ، كان يسكره الأجانب الذين يحكمون وطنه ، سواء كانوا من أصول تركية أو ألبانية أو شركسية أو غيرها ، وكان يجمعهم جميعاً تحت كلمة واحدة تنم عن الخزي هي « الأتراك » . كان يسكرهم لاسبب اضطهادهم وإذلالهم لإخوته السودانيين فحسب ، ولكن كان يسكرهم أيضاً بسبب فسادهم وخروجهم على تعاليم القرآن المقدسة . كان حتماً ألا يطول أول اشتباك له مع السلطة . انقطعت صلة محمد أحمد بالطرق الدينية^(١) عندما طرد بسبب اتهامه رئيسه الديني في بربر بأنه يفتصب وظائف الله بأن راح يغفر ذنوب الناس على الأرض . ولكن هذا التجدي

(١) المقصود الطرق الصوفية . . المترجم .

الذى قام به أكسبه إعجاباً وإهتماماً واسعين وإن كان ذلك في صمت، وراح يطوف في عملية استكشاف واسعة النطاق للنوبة وكردفان، لتقييم استعداد الناس للثورة. استشعر الرضاء عما توصل إليه، فعاد إلى أبا وبدأ يدعو إلى الانتقال السافر ضد الأتراك. وكان يؤكد وهو يشير إلى الفظائع التي يرتكبها جباة الضرائب ضد الشعب، أن كل هذا الشقاء والظلم كان نتيجة غضب الله بسبب شرور الناس. فمد أن قبض النبي وخرج من الدنيا وقع كل شيء في الخطيئة والإهمال. ولكن أضاف محمد أحمد أن هناك علاجاً في متناول اليد. ذلك أن الله سوف يرسل هادياً آخر أو مهدياً ليجت الخطيئة ويخلص الناس حتى يتمكنوا من تملك الأرض التي كانت لهم، باسم الله، ويسكتسح جباة الضرائب الملاحين وسادتهم الأتراك الأشرار.

كان محمد أحمد يمس أعصاباً خاماً - وكان يعرف ذلك جيداً. فبنفخة ثورية واحدة أثار إحساس السودانيين بالظلم وكراهية الحكم الأجنبي والاعتقاد الإسلامي في أن رسول الله سوف يعود مرة ثانية^(١). وجاءت الفرصة التي يعلن فيها أنه ذلك الرسول، عندما كان يعظ الناس ذات يوم من عام ١٨٨٠، اندفعت مجموعة من الرجال فشقوا طريقهم إلى مقدمة الحشد وقالوا بلمحة تجمع بين التساؤل والتأكيـد « أنت المهدي الذي وعد به الله ونبيه؟ فأجاب محمد أحمد في ثقة: « نعم، أنا المهدي. »

من الآن فصاعداً راح يتصرف كما لو كان نبياً ثانياً للإسلام، ولم يغفل أبداً في جميع دعوته أن يربط مطلبه الحماسي بالإصلاح الاجتماعي ببناء حماسي إلى بعث روحى، وهو ربط سوف يحرك شعباً كان من أشد شعوب الأرض تأخراً بحيث ينتصر على قوات أعظم دولة بالعالم وحلفائها. اكتسب محمد أحمد الآن مجموعة من التلاميذ في مقدمتهم عبد الله التعايشى الذى ينتمى إلى قبيلة البجارة

(١) لم يذكر المؤلف مصدراً إسلامياً صحيحاً يمكن الاستناد إليه، ذلك ان ليس في القرآن ولا في الحديث « ما عت بصلة إلى هذه الفكرة عن عودة الرسول. — المترجم.

— ٣٣٤ —

وهم فرسان من تلال النوبة ، وأكدهم أن بعثته الإلهية قضى بها الله ومحمد .
في أول الأمر عاملت السلطات المصرية عظامه ودعواته على أنها شطحات
عديمة المعنى يطلقها واحد من رجال الدين إمتلات نفسه بالسخط . ولكنها
لم تحبسه لفترة قصيرة إلا بعد أن سبب وقوع اضطراب ، ثم أطلقت سراحه
باعتبار أنه شخص غريب الأطوار لا خطر منه . ولكن عندما انحازت إلى
جانب المهدي بعد ذلك بعام ، قبيلة البجارة بأسرها وكانت تتألم من الهزائم
التي أنزلها بها جوردون ، بدأ رؤوف باشا يأخذه مأخذ الجد وتحرك بسرعة
ليقضى على الثورة في مهدها . فبعث بضابط على رأس مائتي رجل لإحضار
محمد أحمد من أبا إلى الخرطوم ليواجه محاكمته بتهمة الخوض على الفتنة . ولكن
خبر محبيهم نما إلى علم أتباع المهدي فنصبوا لهم كميناً وردوهم مدحورين إلى
العاصمة . دار أول صدام مع السلطات لصالحه ، ومن الآن فصاعداً ارتفعت
مكانته بسرعة .

وبرغم هذا وجد نفسه في أبا قريباً بصورة غير مريحة ، من الحاميات المصرية
الرئيسية . وعلى ذلك فبدلاً من أن يغامر بنفسه في هذه المرحلة المبكرة انسحب
إلى كردفان ليثير القبائل كى تؤيده ، ومعلنًا في احتراس أن الله تجلى له في
رؤيا وأمره بالتوجه إلى الغرب . أرسل رؤوف باشا القوات لمطاردته والقبض
عليه ، ولكنها إما هربت أو لم تتمكن من العثور عليه . حتى هذه النقطة كان
رجال المهدي مسلحين بالعصى والرماح فقط - وهو نقص أخبرهم زعيمهم
أنه علامة الفضيلة نظراً لأن جيش النبي نفسه كان يحارب بنفس هذه
الأسلحة^(١) . ولكن في ديسمبر ١٨٦١ عندما وقعت قوة مصرية من ألف وأربعمائة
رجل في كين وأبيدت ، انقض المهديون على هذا الخير المفاجيء من الأسلحة
والذخيرة الحديثة ، وسرعان ما طوى النسيان الفضيلة القديمة .

أعلن محمد أحمد الآن « الجهاد » ضد الكفار وجميع الكفار في السودان .

(١) كان جيش النبي يستخدم الأسلحة المعروفة في عصره . . المترجم .

وندر أن اتقضى أسبوع دون أن ينقض أتباعه من رجال القبائل على بلدة صغيرة أو قرية في كردفان يعملون السيف في المدافعين عنها . وسرعان ما أصبحت شهرته أسطورية وانتشرت أغرب الحكايات عن مآثره بما فيها القصة المفرحة التي تقول إنه كان في إمكانه أن يحول رصاصات الحكومة إلى ماء ! من حين لآخر كانت تشبك معه قوة مصرية وتوقع به الهزيمة ، ولكن رجاله يحتفون كلمح البصر في الصحراء ثم يعودون إلى التجمع كي يشنوا الهجوم من جديد . كان الجنود المصريون الذين تمتلئ نفوسهم بالسيخط المرير لبعدهم عن أسراتهم واضطرارهم إلى الخدمة في حر السودان وغباره ، غير متعودين تماماً على هذا النوع من حرب العصابات وسرعان ما ذابت مقاومتهم . وفي يونيو من عام ١٨٨٢ حلت الهزيمة بقوة حكومية من ستة آلاف رجل بالقرب من فاشوده ، وما أن حل خريف السنة ذاتها حتى كان المهديون يسيطرون على جميع كردفان ودارفور باستثناء مدينتي الأبيض ودره حوث الحاميات الرئيسية .

حاول المهدي أن يأخذ الأبيض عنوة ، وكانت مدينة كبيرة مزدهرة تضم ١٠٠.٠٠٠ نسمة ، ولكنه صد عنها وقد بلغت خسائره ما يقرب من العشرة آلاف . وعلى أثر ذلك أصدر أوامره بعدم مهاجمة أية مدينة محمية أو حصن إلى أن يكون معروفاً أن المجاعة والمرض اضعفا الحامية فلم تعد قادرة على المقاومة . وبرغم أن ثورته كانت في هذا الوقت قد انتشرت نحو الجنوب ، إلا أنه قرر أن يركز قواته على تطهير كردفان ودارفور من كل احتمال أجنبي قبل أن يستولى على مديريات أخرى . هذه التكتيكات كان لها جزاؤها عندما سقطت الأبيض بعد ذلك بشهور قلائل في أيدي المهديين الذين يحاصرونها . كانت الحامية تواجه الموت جوعاً بحيث اضطرت إلى أن تأكل جريد النخل والأغذية الجلدية للأرائك والكراسي ذات المساند ،

فسلمت بعد أن أمنهم المهدي على حياتهم . واحترمت الشروط برغم اعدام قائد الحامية وثلاثة من أركان حربه بسبب محاولتهم تهريب رسالة إلى الخرطوم بعد أن سلموا . ولكن الأبيض أسلمت للنهب والسلب ، وزاد بيت مال المهدي ثراء إذ حصل على ٣٠٠.٠٠٠ دولار تقريباً ، وظفرت ترسانته بستة آلاف بندقية .

خلال الحملة التي شنها فإن النجاح بدا دائماً عاملاً يقوى أو هام محمد أحمد بشأن رسالته . ومن الآن فصاعداً زعم أن النبي محمداً والمسيح عيسى بن مريم ظهرا له في رؤيا وأكدا أنه المهدي . كذلك راح يصر على أنه من نسل النبي مباشرة ، من ناحية أبيه ، ومن سلالة الحسين الشهيد من ناحية أمه . وكان أتباعه يعرفون حتى الآن بال دراويش فسيهم من جديد ، الأنصار على غرار الأنصار الذين آزروا النبي ، وأطلق اسم « الخلفاء » على معاونيه الرئيسيين وسمى كلا منهم باسم أحد الخلفاء الأربعة الذين خلفوا محمداً . فعين عبد الله التعايشي رئيس قبيلة البجارة ليكون أول من يخلفه وأسماه أبا بكر ، وأطلق اسم عمر على زعيم قبلي آخر ، ومما يلفت النظر إطلاق اسم عليّ على زوج ابنته . أما لقب عثمان فاحتفظ به كاحتياطي لرئيس برقة السنوسي الذي عزف برغم هذا ، عن قبوله . وحرص محمد أحمد أيضاً على أن يؤكد أن البعث الروحي المهدي مبنى على المبدأين اللذين استرشد بهما النبي . فأولا أعلن أن جميع الناس متساوون أمام الله وكل من يتحدث عن « مجرد عبد » في حضرته إنما ينطق بحكم الموت على نفسه . وثانياً كان يرى وجوب احتقار جميع متاع الحياة الدنيا ، فقال في عظة ألقاها « أنظروا إلى أمور هذه الحياة الدنيا بعين نفاذة . تأكدوا أن هذه الحياة عبث ووجهوا قلوبكم إلى ما في الحياة الآخرة ، وكرسوا أنفسكم لله وامتنعوا عن المذات والمتع الدنيوية » . وعندما وجد أنصاره يقومون بأعمال النهب والسلب في الأبيض لأنفسهم متحدين الأمر الذي

فرضه بأن يسلموا كل غنائم إلى بيت مال المهدي ، تحدث إليهم قائلاً : إنكم إذ تحذون حذو الأتراك فإن الله سوف يعاقبكم ويحرقكم بالنار . لقد أخبرني النبي أن أعاقب الذين يأبون طاعتي ؛ وسوف يكون مثل هذا العقاب هو الموت . . . » .

وبرغم أن أحداً من العصاة لم يعدم في الحقيقة ، ربما لأن الذين استولوا على نصيب كامل من الأسلاب غادروا المعسكرات واختفوا في الصحراء حسب الأسلوب البدوي الصحيح ، أمر محمد أحمد بأن كل من يقبض عليه في المستقبل وهو ينهب أو يسرق ، فسوف تقطع يده وقدمه . وأمر بايقاع أشد العقوبات على الذين يخالفون شريعة القرآن ، في شرب الخمر ثمانون جلدة بالكرباج ، تزيد إلى مائة في حالة تدخين الطباقي . وكانت عقوبة الفرار من الجهاد قطع اليد والقدم ، أما التجديف والكفر فجزاؤه الموت . ونهى عن البكاء على الموتى لأن النبي كان يغضب منه ، ولأن الموت في خدمة المهدي شرف . وحرم الرقص أيضاً ، وفرض الحجاب على النساء إذا ظهرن في الطرقات ، وأمر أن تكون ولائم الزفاف والمهور متفقة مع النمط العام للتقشف . ولم يكن من المسموح ارتداء الملابس الغالية ؛ فكان محمد أحمد وجميع الأنصار يرتدون « جبة » بسيطة هي عبارة عن عباءة خشنة ومربعة علامة على الفقر ومن ثم على الفضيلة . وفيما عدا حالة القتال ، فقد أمر أتباعه بالمشي بدلا من ركوب الخيل أو الجمال ، كرمز للتواضع .

ولكن خطط المهدي للفتح كانت خلواً من التواضع . فأعلن في بداية عام ١٨٨٧ أنه بعد أن يستولى على السودان بأكمله ، سوف يخرج لفتح مصر وبعدها مكة حيث سوف تدور أعنف معركة ، ثم يزحف على بيت المقدس حيث سينزل المسيح من السماء للقائه ، وأخيراً يغزو العام كله . وبرغم أن لندن استبعدت هذه المزاعم باعتبارها تدعو إلى السخرية ، فإن القاهرة قررت (٢٢٠ — العرب)

الآن أن الثورة يجب أن تؤخذ مأخذ الجد . فأرسل الخديو توفيق قوة من عشرة آلاف من الجنود المصريين النظاميين بقيادة ضابط بريطاني من الجيش الهندي هو الكولونيل هكس ، ومعه أوامر بالقضاء على محمد أحمد واسترجاع الأبيض . في أول الأمر أحرز هكس بعض نجاح بأن هزم قوة مهيبة كبيرة في المنطقة الواقعة بين النيل الأزرق والنيل الأبيض . ولكن عندما تحول غرباً نحو كردفان وهي معقل المهدي ، فسرعان ما وجد نفسه في مأزق لارضاء فيه . فبدون معدات مناسبة ، ومثقلة بالمدافع الجبلية الثقيلة ، لم تكن قواته ندأ الاُتصار الذين يمتازون بدرجة عالية من سرعة التحرك . وكان الكثيرون من المصريين قد جندوا من نزلاء السجون في القاهرة ممن كانوا قد زج بهم فيها بسبب اشتراكهم في ثورة عرابي قبل ذلك بعام . ولم يكن أحد منهم يعرف السودان ، وكانوا جميعاً تحت رحمة الأدلاء . وضعهم محمد أحمد لتضليلهم أو كانوا يتعاطفون سرّاً مع القضية المهدية . وكانت الحرارة شديدة وسرعان ما نفذت مواردهم من الماء ، وقادهم الأدلاء عمداً إلى آبار لم يكن لها وجود .

ظلت حملة هكس تدور حول نفسها طيلة شهرين ، بينما كان محمد أحمد ينتظر انهيار روحها العنوية . ثم كتب إلى هكس يعرض عليه الحياة إذا استسلم . ولما لم يتلق ردّاً قاد قوة من خمسين ألفاً من الأنصار إلى غابة تبعد ثلاثين ميلاً عن الأبيض ، حيث كان المصريون قد نصبوا معسكراتهم . ولم تمض خمس عشرة دقيقة حتى كان العشرة آلاف قد قتلوا فيما عدا نحو مائتين . قاتل هكس كما سبق أن فأنل الشهيد الحسين^(١) ، وظل يطلق مسدسه حتى نفذ ما فيه من الرصاص ، وفي النهاية مات من ضربة رمح وهو يهجم بسيفه على السودانيين الذين كانت تتصاعد صيحاتهم .

كان تأثير هذه الهزيمة المصرية مدمراً وساحقاً وعلى حد تعقيب آلان

(١) فباسم الفارق على ما يمكن أن نلاحظ . — المترجم .

مورهد في كتابه « النيل الأبيض » : « في السودان كان الأمر كما لو أن سداً قد انفجر ؛ وفي موجة هائلة تدفقت عقيدة المهديّة . كان المهدي الآن نبياً معصوماً من الخطأ في نظر الشعب السوداني ، وكان المؤمنون يشربون الماء الذي يغتسل به كأنه ترياق ضد الشر والمرض . كان ينتظرون في الأبيض استقبال حماسي يصل إلى درجة الجنون ، ولكن محمداً أحمد إنما انتظر وقتاً كافياً يجمع خلاله قواته استعداداً لضربة كبيرة أخرى . في هذه المرة كان هدفه « درة » عاصمة دارفور ، حيث كان محافظها النمسي رودلف كارل فون سلاتين قد انقطع اتصاله بالخرطوم شهوراً عدة ومعه حامية سودانية إلى حد كبير أصابها عدوى المهديّة . في محاولة أراد بها فون سلاتين أن يزيد من سيطرته على قواته ، كان قد أصبح مسالماً ؛ ولكن بعد أن وصلت إلى دره أخبار اندحار هكس لم يعد هناك أمل في السيطرة على المدافعين المهديين بالموت جوعاً الذين ساموا المدينة بعد ذلك بشهر . أسر سلاتين ، ولكن كعلامة عن الصداقة نحو شخص اعتنق الإسلام أعطاه قائد قوات المهدي جواده هدية منهم ، وأرسل النمسي إلى المهدي الذي استقبله بحرارة وقال له : « اعتدت أن أصلي داعياً الله أن تعتنق الإسلام ، واستجاب الله ونبيه لدعائي ، والآن يجب أن تخدمني : لأن من يخدمني إنما يخدم الله وسوف يظفر بالسعادة في هذه الدنيا وبالنعيم في الآخرة » .

وبينما كان المهدي يدعم قبضته على السودان الغربي ، ثار لصالحه تاجر اسمه عثمان دنجا يجمع في عروقه الدم التركي والسوداني ، وفي فبراير من عام ١٨٨٤ هدد سواكن على البحر الأحمر . ورغم هذا أرسلت القاهرة ضابطاً بريطانياً آخر من يجرى وراء المغامرات ، هو الجنرال بيكر ، ليخمد الثورة الجديدة ، ولكن مصير رجال بيكر لم يكن خيراً من مصير

حملة هكس . فعندما هاجمهم الأنصار تملكهم الذعر وفروا تاركين ما يزيد على ثلثي عددهم فوق أرض المعركة .

كان المهدي الآن يسيطر على أرض تزيد مساحتها على ٥٠٠.٠٠٠ ميل مربع ، تمتد عبر وسط السودان ، وكانت قبائل الجنوب قد انحازت إلى جانب قضية الثوار . بدأت القاهرة الآن تسبر غور موضوع التراجع . ولكن في هذه اللحظة نفسها أخذت لندن تنظر نظرة جادة إلى ما يجري في السودان والذي رأت فيه الآن تهديداً لمركز بريطانيا في مصر . وبنهاية عام ١٨٨٣ أقنع الجنرال جوردون بالعودة إلى الخرطوم وإعداد تقرير عن الموقف .

عندما وصل جوردون إلى الخرطوم في فبراير ١٨٨٤ كانت العاصمة السودانية في حالة حصار بالفعل كانت قوات المهدي تحيط بها من جميع الجوانب ؛ ولم يبق مفتوحاً سوى الطريق النهرى تحرسه بواخر نيلية مسلحة أدرك جوردون بسرعة أن السياسة العملية الوحيدة هي إجلاء الحاميات قبل أن ينقطع سبيل الهروب ، وأبلغ ذلك إلى لندن والقاهرة . ولكن ماذا يحدث لو سحب الجيش المصرى ؟ كان جواب جوردون أن اقترح أن يعين خلفاً له أمير مصرى^(١) كان يعيش في السودان على أرباح تجارة الرقيق ؛ ولكن عند ما تسرب اقتراحه للصحافة أثارته « جمعية مناهضة الرق » في بريطانيا ضجة في الرأي العام اضطرت معها الحكومة إلى رفض الاقتراح . عندئذ قرر جوردون الصمود مؤقتاً بل وكتب إلى محمد أحمد يعرض الاعتراف به حاكماً على السودان والسماح باستمرار تجارة الرقيق إذا اتفق معه .

أدرك المهدي الآن ، وعلى خلاف مخاوفه ، أنه يجب أن لا تصل إلى جوردون قوات بريطانية لمساندته . كان الرد الذي بعث به ينطوى على الإزدراء : إنه لا يهتم بالحل الوسط الذي يعرضه الجنرال ، لأن رسالته سماوية

(١) ليس مصرياً لالا من ناحية أنه كان في خدمة حكومة مصر . — المترجم .

ولا يستطيع أن يوقفها إلا بعد أن يكون قد أحيا الدين الصحيح من جديد ،
بالغزو أو بإدخال الناس فيه أو بكلا السبيلين . وإذ راح يلفت النظر إلى
الذين كسبهم إلى جانبه ومنهم فون سلاتين ، دعا جوردون إلى اعتناق الإسلام
وأرسل مع الخطاب « جبة » ليلبسها الجنرال علامة على دخوله في الإسلام .

كان رد فعل جوردون مثالا من العناد المشاكس الذي ميز الكثير من
حياته . فهو إذ صدم من جانب بريطانيا والمهدى ، راح يعمل على تحصين
موقفه لا يمكن الدفاع عنه ، لكي يقاوم قوة لا يمكن مقاومتها . في هذه
الأثناء أطبق عليه محمد أحمد استعداداً للرحلة النهائية : كان هدفه الأول
مدينة بربر الواقعة على النيل على مسافة ثلاثمائة ميل إلى الشمال من الخرطوم ،
حيث كان جوردون وهو في طريقه إلى منصبه ، قد ارتكب غلطة مميتة بأن
أخبر الشيوخ المحليين أنه لا يرى بديلاً عن جلاء الحاميات المصرية . واحتاز
الشيوخ على الفور إلى المهدى ، وأصبحت حامية بربر حاضرة صغيرة أخرى
للمقاومة في بحر المهديّة الزاحف . وفي مايو كانوا بالفعل على وشك الموت من
الجوع فاستسلموا ، وانقطعت آخر صلة لجوردون مع مصر والشمال . وبعد
أسابيع قليلة زال آخر أمل في الحصول على مساعدة من الجنوب عند ما تخلت
حامية بحر الغزال وسلمت المديرية دون إطلاق رصاصة واحدة . وسبق
مديرها الإنجليزى أسيراً ، وأخذ حياته باعتناق الإسلام .

لم يصب الأنصار بأية نكسة خطيرة إلا في الشرق عندما نزلت حملة
عسكرية وبحرية مشتركة بريطانية في سواكن وهزمت عثمان دنجا وقتلت عدة
آلاف من رجال القبائل الذين معه . أما عن جوردون الذي حوصر في الخرطوم
فان كل ما كان يستطيع أن يفعله هو القيام بعملية تسلل من حين لآخر ، يحاول
بها أن يفك الحبل الذي يلف حول عنقه . ولكن جنوده كانوا إعادة
يصابون بأفدح الخسائر إذا اشتبكوا مع الأنصار ، وبعد أن خسر جوردون

ثمانمائة من رجاله في كمين ليلى قرر الاحتفاظ بذخيرته انتظاراً للهجوم الرئيسى على الخرطوم . حاول أن يبعث بكلمة إلى القاهرة بأن تبعث إليه بقوة تخفف الضغط الواقع عليه ، ولكن الضرر الذى نجم عن المحاولة كان أكبر . فقد وقع الرسل في أيدي المهدي ، وعرف محمد أحمد الآن ومما كتب الجنرال بخط يده كيف كان في محنة ميثوس منها . فارسل إلى جوردون دعوة نهائية إلى التسليم وأرفق معها الوثائق التى استولى عليها من رسل الجنرال وكانت تتضمن تعداداً لحامية الخرطوم وقائمة مفصلة بمعداتنا وخطاب جوردون الذى يناشد فيه إرسال المساعدة .

وفي الوقت نفسه خرج المهدي من مقر قيادته القريب من الأبيض على رأس ٢٠٠٠ من أتباعه ، في طريقه إلى الخرطوم . لكن عند وصوله إلى الخرطوم لم يبادر بالهجوم على الفور . فهو إذ فضل أن يمارس لعبة القط والفأر إلى أن تنهار . الروح المعنوية للحامية تماماً أرسل إلى جوردون « جبة » أخرى ودخل عن طريق التراسل ، في مناقشات فقهية مطولة كان قد بدأ بهارجال الدين في الخرطوم يأمل مستميت في أن يقنعوه برفع الحصار . فبوصفهم من علماء الكلام ذوى الخبرة ، استطاعوا أن يبرهنوا على أن زعمه بأنه المهدي زعم باطل . لقد اتخذوا من مذهب الإثنا عشرية المقدمة المنطقية التى تقوم عليها حججهم ، أوضحوا أن المهدي الحقيقى الذى أصبح « الإمام المستور » كان قد مات وأاختفى في مسجد سامرا في عام ٨٧٨ . فاذا كان محمد أحمد هو الرجل فعئذئذ لابد أن يكون عمره ألف سنة . ولكن هذا المنطق الذى لا يمكن دحضه ، كان كاهشيم تذروه الرياح . وكما لاحظ ونجيت : « متى كان منطق المحصورين يسلم به القائمون بالحصار ؟ متى تفادت حجة فقهية نشوب معركة ؟ » .

وأخيراً جاءت المعركة في ١٢ نوفمبر بعد أن غادر المهدي قاعدته في كردفان بثلاثة أشهر . ولكن الهدف لم يكن الخرطوم وإنما كان أم درمان على

الشاطئ الغربى للنيل وفي مواجهة العاصمة مباشرة . ظلت المعركة مستعرة طيلة ثمانية أسابيع مليئة بالألم ، بينما اضطر جوردون الذى يفتقر إلى القوات الفعالة والذخيرة أن يقف ساكناً يراقب من سطح قصر الحاكم العام آلام الموت فى جيرانه . وعندما استسلمت أم درمان فى النهاية فى الخامس من يناير أصبح مركز الخرطوم ميثوساً منه إذ يحيط بها عشرات الألوف من الأنصار من كل جانب وعلى مسافة بضع مئات من الياردات واضطرت حاميتها إلى أن تأكل الكلاب وجلود الحيوانات والصمغ وألياف النخيل . ولكن تردد المهدي فى إعطاء الأمر بالاستيلاء عنوة على هذا الحصن الأخير للمقاومة المصرية . وعندما تلقى الخبر بأن قوة بريطانية جاءت للنجدة تحت قيادة السير جانت ولسلى الذى سبق أن انتصر فى القل الكبير، قد وقعت هزيمة فادحة بالأنصار جنوبى بربر ، تملكه الذعر وأمر بالانسحاب فوراً إلى كردفان ، زاعماً أن الله تجلى له فى رؤيا وأمره بالهجرة على نحو ما هاجر النبی من مكة . كان الشيء الوحيد الذى يرهبه هو أن يضطر إلى مواجهة القوات البريطانية، وكان خوفاً كبيراً ومعدياً إلى حد أن جميع قواده عدا واحداً فقط ، وافقوا على أنه ينبغي رفع الحصار عن الخرطوم قبل أن يبلق بهم ولسلى .

ولكن الخارج الوحيد على الاجماع وهو محمد عبد الكريم ، أكد بحاراة أن لديهم الوقت للاستيلاء على الخرطوم قبل أن يصل البريطانيون إليها . ودعم حجة عبد الكريم وصول أخبار جديدة بأن هجمات الأنصار عطلت تقدم ولسلى ، وعندما وجدوا أن طمى النيل ملأ الخندق الموجود على الجانب الجنوبى من الخرطوم للدفاع عنها ، فإن شجاعة محمد أحمد عادت إليه الآن . وعلى الفور أعلن أن الله تجلى له مرة أخرى ليخبره أن يلغى الانسحاب ، وأمر بشن هجوم شامل فى فجر اليوم التالى الموافق ٢٦ يناير . ثم عبر النيل إلى جانب الخرطوم وخطب فى رجاله . فقال لهم إن كل من

يقتل وهو يحارب هؤلاء الملحدين والسكفار سوف يدخل الجنة مباشرة .
ولسكنه أضاف أدق التعليمات بأن يؤخذ جوردون حيا حتى يمكن إدخاله في
الإسلام . فعلى خلاف « الأتراك » الحترء الذين كانوا بذتهكون حرمة السودان .
وينهبونه ، كان جوردون رجلا طيباً غلظته الوحيدة هى أنه لم يكن من أهل
« الدين الخفيف » . وبمجرد اعتناقه الإسلام سوف يصبح شخصاً كاملاً .

بدأ المحجوم على الخرطوم قبيل الفجر عند ما عبر الأنصار الخندق المملوء
واستولوا على أبراجها عنوة . وفى دقائق قليلة كانت الشوارع قد امتلأت
بالمهدين وهم يزعمون . هربت الحامية التى استولى عليها الرعب ، ولكن
جوردون استقبل حتى النهاية ورفض التسليم . وإذ تدفق رجال القبائل إلى
قصره وقد جنوا بمنظر الدماء ، نسوا أمر المهدي وسقط الجنرال وقد نفذت
رماحهم فى كل مكان من جسمه . وتلت ذلك مذبحة تسكاد أن تسكون على
نطاق المذابح التى عرفتها العصور الوسطى ، ويقال إن عشر سكان الخرطوم
البالغ عددهم أربعون ألف نسمة قد لقوا حتفهم . وبعد ست ساعات من القتل
العنيف أمر محمد أحمد بوقف إطلاق النار ، وبيع السكان الباقون على قيد الحياة
رقيقاً . وأخذ هو نفسه كل فتاة صغيرة اعتباراً من سن الخامسة فما فوقها ، وقسم
الباقون بين « خلفاء » المهدي وقواده^(١) . وبالمثل قسمت خير دور المدينة
وحداثتها بين المهدي ومعاونيه ، ووضعت الفنائم فى بيت المال الرسمى .

بعد يومين وصل طابور الإنقاذ بقيادة ولسلى على مرأى من الخرطوم .
ولكن إذ رأوا أنهم تأخروا جداً فلا يستطيعون إنقاذها ، داروا على أعقابهم
يلتمسون الأمان فى الأرض المصرية . إن منظر القوات البريطانية وهى فى حالة
تقهقر كامل ، عمل على رفع مكانة المهدي حتى بأكثر مما رفعها سقوط
الخرطوم . حتى المؤمنون من أتباعه الذين لم يكن يساورهم أى شك فى عصمته

(١) يخيل اليما أن فى هذه الروايات قدرا كبيرا من الباطلة — المترجم .

الخارقة للطبيعة ، كادوا لا يستطيعون أن يصدقوا أن دولة عظمى مثل بريطانيا تعجز عن الإنتقام لهزيمة جوردون وموته . نفس الأرض التي يطأها محمد أحمد بقدميه اعتبرت الآن أرضاً مقدسة وراح الناس يجمعون ترابها رمزاً للإبعاد المرض وضمان سلامة ولادة الأطفال .

واسكن المهدي لم يطل به العمر كثيراً جداً بحيث يتمتع بهذه المكانة المقدسة . فبعد خمسة أشهر ، أى فى يونيه ١٨٨٥ ، توفى فى أم درمان . لم يثبت أبداً السبب فى موته ، ولكن النظرية التي تعزو الوفاة إلى تدهور القلب بسبب السمّة ، نظرية تبدو صحيحة . فى الشهور الأخيرة من حياته زاد محمد أحمد سمّة بصورة هائلة وانغمس فى أسلوب من الإباحة لو أن إنساناً آخر أقل منه شأناً حذا حذوه لعوقب عقاباً شديداً . كان حريمه ضخماً ، وتمثل فيه كل قبيلة فى السودان ، كما تمثل كل لون من الدنكا فى بحر الغزال ولونهم فى سواد الأبنوس إلى الأسرى الأحباش من ذوى البشرة النحاسية . وفى الخلوّة عند حريمه كان يلبس قميصاً وسراويل من أفخر أنواع التيل والحريز ، ويتكئ على وسائل موشاة بخيوط الذهب ، بينما جواربه يهوين عليه بمراوح من ريش النعام أو يمسح يديه وقدميه بالبخور أو العطر من خشب الصندل . أما خارج بيته فظل يتظاهر بزهادته القديمة ويلبس جبته ويؤم أتباعه الشغوفين به ، فى الصلوات الخمس كل يوم .

خلف عبد الله التعايشى سيده ، وخلال السنوات الثلاث عشر التالية ، وبرغم الحجة والجدوى اللذين قتلا ما يزيد على نصف السكان ، احتفظ بالسودان ضد مهر والبريطانيين . وعلى نقيض الدعاية البريطانية السائدة حافظ على القانون والنظام فى كافة أرجاء الأرض الخاضعة للمهدين . وزاد أيضاً أملاكه بالاستيلاء على كسلا وسنار فى الشرق وبالضرب جنوباً فى اتجاه أوغندا . بل إنه ذهب إلى أبعد بعيدة بأن دعا المملكة فكتوريا وبروح جادة

تماماً ، إلى القدوم إلى أم درمان واعتناق الإسلام والاستسلام له بوصفه المهدي ورسول الله . ولم يسقط قبل عام ١٨٩٩ عند ما غزا الجنرال (اللورد كيتشنر فيما بعد) السودان بقوة بريطانية حديثة جبارة من عشرة آلاف من المشاة ورجال المدفعية والفرسان — وكان منهم رجال اشتهروا فيما بعد ، مثل ونستون تشرشل وريجنالد ونجيت ودافيد بيتي . غاب الجيش المهدي على أمره ومزق إرباً عند أم درمان ، وبرغم أن عبد الله فر إلى الغرب إلا أنه أسر في النهاية وقتل على أيدي قوة بقيادة ونجيت . وبعد ذلك حكمت بريطانيا ومصر سويًا السودان في ظل الإدارة الانجليزية — المصرية مع حاميات بريطانية ومصرية وحاكم عام بريطاني يعينه سويًا العاهل البريطاني والخليو المصري :

كانت شجاعة الأنصار حتى النهاية داعية إلى العجب حقًا فبرغم أنهم كانوا يواجهون ظروفًا مستحيلة ، قاتلوا في أم درمان بنفس الشجاعة البالغة التي كان المهدي قد بشها في نفوسهم . قال مراسل حربي بريطاني عن شجاعتهم ونيران كيتشنر تنصب عليهم : « ما من قوات بيضاء كان يمكن أن تواجه ذلك السيل من الموت لمدة خمس دقائق لم تكن معركة ولكنها كانت مجزرة » . وكان تعليق كيتشنر ذا طابع عملي أكثر ، عندما قال : « أخيراً أنقذت البلاد من الطغيان العسكري الذي بدأ في حركة من التعصب الديني منذ تسع عشرة سنة خلت . المهدي الآن شيء ينتمي إلى الماضي » . لو أنه كان يفكر في المهدي باعتبارها حركة عسكرية ، فقد كان على حق . ولكن باعتبارها رد فعل ضد التسلط التركي المصري ، فإن قعقتها ظل صداها يتردد طالما بقيت الصلة مع مصر . وفي عام ١٩٥٢ عندما زار اللواء نجيب رئيس مصر انخراطوم وأثار من جديد مخاوف السودانيين من ضم بلادهم إلى

مصر ، فإن شيعة الأنصار الذين كانوا ما يزالون على قيد الحياة ، استطاعوا بأعمال الشعب الدامية أن يبينوا أن المهديّة لم تمت بالتأكيد .

أما عن المهدي نفسه فإن الذين أنصفوه من المؤرخين قلة . فاذ أعمالهم العطف على جورودون والإعجاب به ، ، فانهم صوروه في الغالب رجلاً هاجماً تماماً كان يقتل والابتسامة ترسم على وجهه لأنه كان يتلذذ بالقتل ولكن اثنين من أسراه هما فون سلاتين والأب أوهرواندر وهو قس كاثوليكي أسروه من بعثة مسيحية في كردفان ، أكدا بعد نجاحهما في النهاية ، أنه كان يفضل التحول إلى الإسلام على القتل وكان مستعداً دائماً للعفو عن ضحاياه إذا اعتنقوا الإسلام . وحتى عند مافرض أوهرواندر وإخوانه من رجال الدين التخلي عن عقيدتهم المسيحية لم يقتلهم المهدي على أساس أن القيسيين يجب أن يعاملوا معاملة غير المحاربين . وعلى خلاف « خليفة » عبد الله الذي كان يراقب بنفسه الأسرى وهم يعذبون ، فإن محمد المهدي لم يسأأبداً معاملة الأسرى الأوربيين ، بل كان يسمح لهم بالتجوال في معسكره كما يشاءون بشرط ألا يحاولوا الهرب . وكان السير ونستون تشرشل وهو من أفراد حمله ككتشنر المتحمسين ، كريماً إذ يقرر في كتابه « حرب النهر » أن المهدي بث الحياة والروح في قلوب مواطنيه ، وحرر السودان من الأجانب ، وأضاف « جلالاً رهيباً » إلى حياة المواطنين الفقراء الذين كانوا يعانون من الجوع وشبه عراة . فكتب بعد أن أطلق موت جورودون العنان لطوفان من الغضب في بريطانيا ، بسنوات قليلة فقط : « . . . لست أشرك في الرأي الشعبي ، وأعتقد أنه لو قدر في السنوات المستقبلية ، أن يأتي الرخاء لشعوب أعالي النيل وفي أعقابه العلم والسعادة ، فإن المؤرخ العربي الذي سوف يمعن النظر في أوائل أخبار ذلك الشعب الجديد ، لن ينس أن يكتب اسم محمد أحمد على رأس أبطال جنسه » .

أن التشابه بين حياة محمد أحمد وأفعاله وحياة النبي وأفعاله تشابه مخالف
 للألوف بحيث يوحى بأن المهدي عمل عن عمد على أن يحاكي مؤسس الإسلام.
 ففي نواحي تشبهه ، بدا أن هناك مناظرة واعية لعناصر قوة محمد . وبالمثل ، ففي
 القواعد والتنظيمات التي وضعها وفي تعيين « خلفاء » من أقرب معاونيه إليه ،
 كان واضحاً أنه يحتذى تعاليم النبي وأفعاله^(١) . ولكن أروع تشابه هو أن
 المهدي أظهر كما سبق أن أظهر محمد قبل أكثر من ألف ومائتي سنة ، أن شعباً
 من البدو مسلحاً بالعصبية ، قادر على أن يهزم شعباً من الحضرة يعتمد على قوانين
 القوة البهيمية والتخويف . وكما قال ابن خلدون في رسالته السوسيولوجية
 الرائعة عن العرب : « فإذا كان فهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام
 بأمر الله ، ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق ، ويأخذهم بجمودها ، ويؤف
 كلمهم لإظهار الحق ، ثم اجتماعهم ، حصل لهم التغلب والملاك . »
 ففي وقت كان لا يزال على العالم العربي أن ينتظر يقظته النهائية من
 جديد ، فإن ابناً لأحد صناعات القوارب من أرض النيل ، أظهر للعالم كيف
 أن مجموعة من رجال القبائل العراة ، مسلحين أولاً بالعصى والهاروات ،
 ومسلحين في داخلهم بالإيمان والوحدة ، يمكن « أن يتوحد ويحقق التفوق »
 إلى حد هز أعظم قوة على ظهر الأرض .

(١) لم يبين النبي عليه الصلاة والسلام « خلفاء » له ، بل أن الاسكاتب نفسه لم يذكر
 شيئاً كهذا من قبل . — المترجم .

(٢٢)

الثورة في الجزائر

اخترع الفرنسيون المثل القائل « لاشيء يدوم كالشيء المؤقت » . وقد كان في إمكانهم أن يحسنوا هذا القول لوصف احتلالهم الجزائر طيلة مائة عام ، وهو الاحتلال الذي بدأ كحملة تآديبية وتطور إلى ضم بلد مساحته تعادل مساحة فرنسا أربع مرات - وهي قصة مسرحية هزلية أصبحت مأساة أولا بالنسبة إلى الجزائريين ، وأخيراً وبعد مائة عام للفرنسيين أنفسهم . بدأت الرواية الهزلية في عام ١٨٢٧ عندما استثير داي مدينة الجزائر التركي ففقد أعصابه أمام القنصل الفرنسي وهو شخصية تافهة ومشبوهة يدعى ديفال ، ولطمه على وجهه بمنشته التي يذب بها الذباب . أبلغ ديفال خبر الحادثة إلى باريس وطلبت الحكومة الفرنسية الترضية . ولكن حسين رفض بصفة قاطعة تقديم اعتذار ، وكذلك فعل الباب العالي . عندئذ اتجه الفرنسيون إلى محمد علي الذي حسبوا أنه على استعداد للانتقام من السلطان العثماني الذي خدعه فجرمه من الولاية على الشام . ودعى الباشا إلى إرسال حملة تآديبية إلى مدينة الجزائر ليلقن الداي التركي درساً حتى لا « يلوث » الفرنسيون « أيديهم بمقاتلة الحميج » على حد التعبير الذي أطلقه مبعوثهم إلى القاهرة ، ولكن محمد عليا كان يعتزم الانتقام من السلطان في الشام ولم تكن به رغبة في الاشتباك في أية مغامرة جانبية بالجزائر . وبعد ما يقرب من ثلاث سنوات من التهديدات والدسائس وجد الفرنسيون أنفسهم في مركز يفرض عليهم إما أن يفقدوا كرامتهم أو أن يقوموا بعملهم القذر بأنفسهم .

في عام ١٨٣٠ أقلعت الحملة الفرنسية الأولى من مارسيليا في طريقها

إلى مدينة الجزائر . كانت تتكون من مائة سفينة حربية وخمسةائة ناقلة تحمل ثلاثين ألفاً من المشاة يساندتهم الفرسان والمدفعية . ورغم هذا الإستعراض الجبار للقوة كان ثمة جو من البانتوميم يحيط بالعملية كلها لم يبطئ أصحاب النكت الفرنسيون في استغلاله . فعندما أهدى مارجا الطيار الملوكي ، بالونا أسيرا إلى الحملة زعم مخترع أن في إمكانه تقديم حصن تقالي يمكن تركيبه في سبع دقائق ! بعد هذا عرض صاحب مقهى في مرسيليا تقديم فندق عائم ليصاحب الحملة ويضم متقاعد يشاهد منها الركاب المعركة ! واقترحت صحيفة فرنسية طريقة لربط شماسي على سونكيات الجنود لتحميهم من الشمس ! .

ولكن سرعان ما تبخر الجوّ البانتوميمي عند ما نزلت الحملة في مدينة الجزائر في الرابع عشر من يونيو . جند الداي ستين ألفاً من رجال القبائل لقتال الغزاة وطردهم وناشد جيرانه في تونس وفي مراکش المستقلة أن يساعده . ولكن رجال القبائل لم يكونوا متحمسين لإفقاذ الأتراك الذين يضطهدونهم ، وقصر الجيران التونسيون والمراكشيون تأييدهم على الدعاء بنصر المسلمين على الكفار . وانتهى كل شيء في الرابع من يوليو ؛ فاستولى الفرنسيون على مدينة الجزائر ثم على وهران في أثرها ، وشحنوا الداي إلى الآستانة ، وملأ الجيش الفرنسي جيوبه مما نهبه من ثروة مدينة الجزائر وكنوزها

وحتى لو كانت نية الحكومة الفرنسية في الأصل تنظيم غارة تأديبية فقط وتلقين الأتراك درساً في الأخلاق الدبلوماسية ، فقد كان الأثر المترتب على غزوهم أن تركت الجزائر دون أية سلطة عدا سلطتهم هم ، وبذا لم يكن أمامهم من بديل سوى إقامة حكومة فرنسية مؤقتة . في أول الأمر تقبل أهل الجزائر من العرب والبربر والقبائل ، الحكم الفرنسي بزيج من اللامبالاة والارنياح إذ تخلصوا من الاضطهاد العثماني . ولكن إذا كانوا لم يكتفوا بالفتح الفرنسي الجديد ، فكذلك كانت باريس بالمثل حيث لم تهتم بأن ترسل إلى الجزائر

حكاما ذوى خبرة بالعادات العربية والإسلامية . كانت الحكومة المؤقتة مسألة تشير الأسى . فخلال العامين الأولين كانت أبواب قصر الحاكم تشهد مجىء وخروج جماعات من الأوباش والصابدين إلى أن أشعل أشدهم قسوة وهو الدوق دى روفيجو وكان رئيس شرطة سابقاً فى فرنسا ، نار الثورة فى مدينة الجزائر عندما يحا من الوجود قبيلة جزائرية بكاملها انتقاما لحالة قتل أثبتت الأدلة فيما بعد أن أحداً من أفرادها لم يرتكبها .

وبين يوم وليلة نشأت حركة مقاومة جزائرية أعلنت الجهاد ضد الفرنسيين وعينت شيخاً عربياً وقوراً وولياً من مسكرة فى غرب الجزائر يدعى محي الدين ليقود الجهاد . إن محيى الدين الذى أعلن أنه من نسل النبي ، اختاره العرب بسبب سجله السابق فى المقاومة التى لاتلين للاحتلال التركى ، فقد سبق أن اعتقله هو وأبنة عبد القادر ، داي وهران التركى فى سنة ١٨٢٥ بسبب استنكاره خروج الأتراك على تعاليم القرآن . ويقال إنه عندما أطلق سراح محيى تراءى له فى المنام ملك من ملائكة الله ، أخبره أن الحسكم التركى سوف ينتهى سريعاً وعندما ينتهى فسوف يصبح ابنه عبد القادر سلطان شمال أفريقيا ، فلما طرد الفرنسيون الأتراك من الجزائر انتشر الخبر بسرعة عن رؤيا الشيخ . وقد تحقق الجزء الأول من النبوة بالنسبة إلى مدينة الجزائر ، فمرعان مالميت القصة التصديق ، وعندما أعلن « الجهاد » ضد الاحتلال الفرنسى بدا من الطبيعى تعيين والد « السلطان » المختار ليجمع القبائل تحت لوائه ويمهد الطريق لتحقيق ما يتعلق بعبد القادر .

لم يستمر محيى طويلاً كالزعيم الأسى للجزائريين . فاذا كان رجلاً مسناً ليس له خبرة عسكرية أيا كانت ، فمرعان ما تنازل لابنه . والآن دعا عبد القادر الذى سعى « أمير المؤمنين » جميع قبائل الجزائر إلى أن يتبعوه فى قضية « طرد والتغلب على العدو الذى غزا بلدنا بغرض أن يضع نير العبودية على أعناقنا » . فعلى غرار مقابله السودانى أى المهدي ، اعتقد عبد القادر أن القبائل

تستطيع إذا اتحدت أن تقضى على الغازى الأجنبى . وكان مثل المهدي يكره الأتراك بمثل ما يكره آخر الغزاة الوافدين من أوروبا . لو أنه كان مستعداً للتعاون مع الأنكشارية الأتراك الذين كانوا يمايزلون في شرق الجزائر، لكان من المرجح أن يلتقى بالفرنسيين في البحر . ولكن عبد القادر لم يكن من طراز محمد على . كانت نشأته كابن « زوايا » — المقابل الإسلامى لرئيس دير في الكنيسة المسيحية — صارسة وصلبة الرأى . فمنذ الصغر تعلم أن يكره أبناء الموظفين العثمانيين ممن كانوا زملاءه في المدرسة وتعودوا أن يعبروه بسبب تقواه ونظراته الجميلة التي تكاد تشبه نظرات المرأة وأنفه الجريسي الدقيق الشكل وحاجبه المرتفع وعينييه الحزینتين الناعميتين . وكان ذوقه الذي يدل على الزهد في اللباس رد فعل آخر ضد مسلك وعادات حكام الجزائر العثمانيين . وعلى نقیض الحرار الثمينة والشعارات المزوقة التي يلهو بها الأتراك ، كان يرتدى ثوباً خشناً وبسيطاً من القطن أو الصوف ، ونهى زوجه عن أن تلبس شيئاً مصنوعاً من الحرير أو القטיפه . وظل عبد القادر حتى نهاية حياته يرفض رفضاً مراً التسامح مع أى شخص أو أى شئ تركى حتى ولو كلفه في النهاية حرب تحرير الجزائر التي استهلها الآن .

بدأت ثورة الجزائر في الجزء الغربى من البلاد حيث لم تكن الحاميات الفرنسية قد توغلت بعد . وسرعان ما كان الظهير بكامله الممتد وراء وهران في أيدي الثوار . كان رد الفعل في باريس هادئاً ومعقولا في أول الأمر . فاستدعت دى روفيجو وعينت خلفا له أكثر اعتدالا في مسلكه يدعى ديميشيل Desmichels وزودته بتعليمات تنص على الاحتفاظ بالمناطق التي فتحتها فرنسا والا يخرج لفتح أرض جديدة إذ لم يكن هناك مال للانفاق على توسع جديد أو إرسال قوات أكثر . وإذ رأى عدم جدوى النضال بغير تميزات فقد فسر ديميشيل التعليمات الصادرة إليه بأنها تفسح أمامه المجال للتفاهم

مع الثوار . قبل عبد القادر اقتراحه الذى كان يعنى الاعتراف بسلطانه على الظهير الغربى ويعطيه أيضاً فترة لالتقاط الأنفاس يستطيع خلالها أن يعيء القبائل لهجوم كبير فيما بعد على الأراضى التى يحتفظ بها الفرنسيون .

بعد ذلك بعامين استدعى ديمشيل وأرسل قائدان فرنسيان هما درلون D'Erlon وتريزل Trezel لتولى الأمر فى مدينة الجزائر ووهران . بدأ درلون بتحذير الثوار من التوسع فى وسط الجزائر . ولما كان هذا هو بالضبط ما كان يخطط له عبد القادر إذا تجمع لديه القوة الكافية ، كان من الضرورى إزالة شكوك غريمه مهما تكلف الأمر . وبناء على ذلك أرسل عضو يهودى ماكر من أتباع حركته ، يدعى بن دوران ، للاتصال بالحاكم العام الفرنسى الجديد . نجح بن دوران بدهائه فى كسب ثقة درلون بحيث أصبح فى ظرف أسابيع قلائل الرفيق الدائم للفرنسى ، يشاطره الشراب والعشاء بالليل ، ويملاً أذنيه الساذحتين بتأكيدات عن أن عبد القادر يمكن الاعتماد عليه فى عدم إثارة المتاعب للفرنسيين فى المناطق التى فتحوها . بل وتشجع عبد القادر بحيث اقترح على درلون تقسيم الجزائر رسمياً بينهما ، فيحتفظ الفرنسيون بمدينة الجزائر ووهران ويحتفظ عبد القادر بالظهير الممتد وراءهما . ولكن بينما كان درلون يفكر فى هذا الاقتراح ، خرق زميله فى وهران وهو الجنرال تريزل ، الهدنة بأن وضع تحت حمايته قبيلتين كانتا قد رفضتا الانضمام إلى الثوار . جادل عبد القادر قائلاً ان شروط الاتفاق تتضمن نصاً يقضى بأن يسلم إليه من يهربون منه ؛ ولسكن تريزل عهد إلى الحاكمة فزعم أن هذا لا يشير إلا إلى الأفراد و ليس إلى قبائل بأكملها رفضت الاعتراف بسلطان عبد القادر .

وفي النهاية حل الإشكال في موقعة دامية في ممر ما كثا الجبلى القريب من الساحل ، في يونيه ١٨٣٥ عندما وقعت قوات ترويزل في كمين . ورغم أن خسائر الجزائريين بلغت ١٨٠٠ قتيل مقابل ٢٥٠ فرنسى فحسب ، إلا أنهم أرغموا أعداءهم على القرار الشائن إلى وهران . وعلى الفور ارتفعت الأصوات في فرنسا تطالب بالانتقام لهذه الهزيمة المذلة . فاستدعى درلون وترويزل ، وفي أغسطس وصل الماريشال لكوزل إلى مدينة الجزائر ومعه أوامر بتحطيم عبد القادر ، والقوات والأموال اللازمة لأداء المهمة .

ولو كانت الأوامر الصادرة إلى لكوزل لم تتضمن الملاحق الإيضاحى الحذر بأن لا يحاول التمسك بأراض جديدة ، لجاز أن ننجح في سحق الثوار . فبقوة مدربة تدريباً جيداً ومسلحة تسليحاً قوياً ، تتكون أحد عشر ألفاً من الجنود النظاميين ، وخر الجزائريين أمام مسكره عاصمة عبد القادر . ثم واصل السير للاستيلاء على تلمسان المدينة الرئيسية في غرب الجزائر ، وهناك فرض على الأهالي ضريبة قدرها ١٥٠.٠٠٠ فرنك لتغطية تكاليف الحملة . ولكن لكوزل المقيد بالأوامر المعطاة له ، راح الآن ينفس في بعض تفكير خطر مبنى على التنى ؛ فأعلن أن ثورة عبد القادر تحطمت وقواته تشتتت ، ثم انسحب إلى وهران حتى قبل أن جمعت الضريبة .

كان خطأ سيئاً في الحساب . حقيقة تخلت القبائل عن عبد القادر بعد سقوط مسكره ، وانسحب « السلطان » إلى الصحراء مشيعاً بالإهانة من خدامه الذين وصفوه بأنه قسبة مكسورة . ولكن عندما انتشر الخبر بأن الفرنسيين رجعوا إلى قاعدتهم ، تجمعت القبائل وتوسلت إليه أن يحمل السلاح ويقودهم مرة ثانية . ورغم ماسببه هؤلاء الأصدقاء المتقلبون من العرف والسأم لعبد القادر

فإنه وافق على كره منه وتحرك بسرعة وفي صمت كما لو كان واحدا من أشباح الصحراء ، إلى شليف وهي المحافظة الوسطى في الجزائر . ثم انقض على السهول الساحلية ووراءه حشد من رجال القبائل ، واستولى عنوة على ميدان التي تقع على بعد مسلا جنوبى مدينة الجزائر وشنق الداي المعين من قبل الفرنسيين ، باعتباره أنه خائن .

الآن أدركت باريس أخيراً أن الفترة « المؤقتة » قد انتهت . كان على فرنسا إما أن تنسحب من الجزائر وتقبل ذل الهزيمة على أيدي « الهميج » ، أو أن تنفق ما قد يحتاج إليه فتح البلد بكليته ، من وقت ومال وقوات وإذا استقر الرأي على الدخول في مواجهة ، بعثت الحكومة الفرنسية بالجنرال بيجو ليتولى القيادة العليا للعمليات الفرنسية في الجزائر على أن يكون لسكوزل المرؤوس المباشر له . كان بيجو من المحاربين الذين اشتركوا في حرب شبه جزيرة ايبريا ، وكان رجلاً عملاقاً وبدا شبيهاً بأصله إذ كان ابن حداد . في البداية الأولى لملته كاد ينجح في أسر عبد القادر . ولكن قبل أن يتمكن بيجو من متابعة الميزة التي حققها ، وجهت ضربة أخرى إلى الاحتلال الفرنسي سوف تحدث تحولاً جديداً ومفزعاً في السياسة الفرنسية . فقد منى لسكوزل السوء الحظ ، بنكية وهو يحاول إخراج الأتراك من قنسطنطين وهي آخر معقل تبقى لهم . فيسبب جهله بأرض أو موقع هذه المدينة الحصينة والمنيعه تقريباً ، خسر لسكوزل نصف قوته المسكونة من ثمانية آلاف ، في هذه المغامرة الانتحارية وأعيد هو نفسه إلى فرنسا مجللاً بالعار .

حولت باريس الآن أهدافها . فأعطيت الأولوية لاسترجاع الكرامة الفرنسية التي ضاعت في قنسطنطين ؛ وعلى ذلك صدرت الأوامر إلى بيجو

بعقد هدنة مع الجزائريين الثوار ؛ بينما وجه الفرنسيون اهتمامهم العسكرى ضد الأتراك :. كان عبد القادر سريعاً فى الإحساس بما هو فيه من موقف سيء وأجبر بيجو على أن يعترف بسلطان على جميع غرب ووسط الجزائر ، فيما عدا وهران ومدينة الجزائر ومنطقة صغيرة حول المدينتين . أما جميع المدن الأخرى الواقعة على سيطرة الفرنسيين فسلمت إلى الثوار وأمكن لعبد القادر من أن يزعم الآن أنه حاكم على ثلاثة أرباع الجزائر .

وحق كوسيلة لتأمين جناحهم بينما يعالجون أمر قنسطنطين فقد كان إتفاقاً خارجاً عن المألوف بالنسبة إلى الفرنسيين وإذلالاً أدعى إلى العجب بالنسبة إلى قائدهم العام فى الجزائر . وأوحت بعض التقارير اتفاق أملته حقيقة كون بيجو قد أصبح نائباً فى البرلمان الفرنسى يمثل دائرة انتخابية جزائرية وأنه أراد الإقامة بصفة دائمة فى شمال أفريقية . ولكن بالنسبة إلى رجل له شهرة بيجو كجندى ، فإن هذا التفسير يصعب أن يكون صحيحاً . والأكثر احتمالاً أن الفرنسيين حسبوا أن فى إمكانهم القضاء على الأتراك والانتقال على عبد القادر قبل أن ينتشر خبر الهدنة المذلة بعيداً بحيث تصيب السمعة الفرنسية بضرر واثم إلا أنهم هنا وأخطأ الحساب مرة ثانية . فأولاً ، انقضى أكثر من أربع سنوات قبل أن استطاعوا أن يلموا شعهم ليوجهوا ضربة حاسمة إلى الثوار الجزائريين وثانياً أخفقوا فى أن يعملوا حساباً القدرة عبد القادر على أن يستفيد إلى أقصى حد من الإذلال الفرنسى باستعراض المهارة فى اللعب سوف يرن فى جميع أرجاء الجزائر .

فبعد أن رتب لقاء مع بيجو فى الصحراء خارج وهران للاحتفال بالتوقيع على الاتفاق بينهما ، وصل عبد القادر أولاً متأخراً عن الموعد وأبقى الفرنسى

ينتظره يوماً بأكمله ، ثم توقف على مسافة من مكان اللقاء الذى عيناه وبهذا أجبر بيجو على الهجاء إليه ، وبالاتفاق المتبادل لم يأت الفرنسى معه إلا بحرس صغير بينما كان عبد القادر محوطاً بحشد من خمسة عشر ألف فارس تلمع صفوفهم ، وفدوا من كل قبيلة متحالفة معه ، ليشهدوا أمام رفاقهم كيف أُذِل القائد الفرنسى أمام « سلطانهم » . وإذ راحت القوة الفرنسية الضئيلة تقترب من الاستعراض الكبير الذى يحيط بعبد القادر ، تصرف بيجو على نحو يخدم مصالح خصمه . فهو إذ أدرك بعد الأوان كثيراً أنه قد وقع فى فخ ، وخوفاً من الغدر ، ترجل من فوق حصانه ، وأمام رجال القبائل الثوار ناشدهم بأسلوب ذليل تقريباً الاستجابة إلى القتل . استهل حديثه بقوله أنه تجاوز كثيراً حدود تعليمات حكومته فى التنازلات التى قدمها إلى الثوار ، راح يعبر عن الأمل فى أن يتمكن عبد القادر فى منزلته ومركزه الجديد ، من المحافظة على السلام والاتجار مع فرنسا . كان هذا كلام عدو مهزوم ، وتقبله عبد القادر على أنه كذلك . وإذ لا يزال واقفاً بجانب جواده نظر بازدراء إلى بيجو الذى أصيب بالإذلال ، ولاحظ فى مرارة أن السلام إذا خرق فلن يكون الخطأ منه . ثم لوى عنان جواده وعاد ومعه جيشه ، تاركا القائد العام الفرنسى واقفاً وسط سحابة من الغبار .

بهذا النصر الأدبى العظيم الذى ظفر به عبد القادر ، شرع فى تطويق القبائل التى لم تكن قد أعلنت انحيازها إليه بعد . انضم إليه الآن معظم المتخالفين دون تردد . ولكنه عامل الأقلين الذين لم ينضموا ، بقسوة جديدة وغير عادية ، إذ أمر بإعدام كل شىء يتلصق . كان من قوة تصميمه على أن ينضوى السكك تحت لوائه ، أنه قضى ستة أشهر يحاصر قبيلة معينة ولم يمن بالحياة إلا على واحد فقط من رؤسائها بناء على توصلات أطفال المحكوم

عليه . لكن ، إذا كانت أساليبه بدائية أحيانا فقد كان يلمحها الاقتناع بأن الهدنة حيلة فرنسية لكسب الوقت وأن الفرنسيين سوف يخرقونها حينما يناسب هذا غرضهم .

وسرعان ما ثبتت دقة هذا الحساب . استولى الفرنسيون على قنسطنطين في أكتوبر ١٨٣٧ ؛ وبعد أقل من سنة أدعوا حقهم في كل منطقة القبائل « وهى الأرض الواقعة بين مدينة الجزائر وقنسطنطين . رد عبد القادر فى غضب وبعنف أن اتفاه مع بيجو بقصر الأرض الفرنسية شرق مدينة الزائر على نهر كدارة الذى يبعد مائة ميل ، وبعبارة أخرى يقصرها على ثلث ما بدعيه الفرنسيون الآن . اضطر بيجو إلى التسليم بأن عبد القادر على حق . ولكن بيجو كان قد حل محله فى وظائفه السياسية المارشال فاليه وهو استعماري طموح لا يتورع عن أى شىء فى سبيل مد تفاق ممتلكاته . وإذا كان عبد القادر يدرك أن من الصعب توقع العدل من ممثل من هذا القبيل ، وجه نداء صريحا إلى ملك فرنسا جاء فيه : « لست من الغفلة بحيث أن أتصور أنى أستطيع أن أتقدم علانية ضد قواتكم » — برغم ثقل أعداد الجزائريين لم يكن لديهم سوى أربع مدافع — « ولكن يمكننى أن أضايقهم بلا انقطاع . لن يكون هناك أمن للمستعمرين .. سوف يراق دم جنودك عبثا ؛ سوف تكون حربا حتى الموت » . وحتى نداءه متسائلا عن السبب الذى من أجله لا يجب أن يعيش المسيحيون والمسلمون جنبا إلى جنب ، كل فى الأرض المحددة فى الميثاق المةود مع بيجو ؟

لم يتوقع عبد القادر تماما النتيجة المتوخاة ، وبالفعل لم يبعث لوى فيليب برده على رسالته . ولكن فاليه بعث برده ، بأن أمر الجيش الفرنسى فى الجزائر

بالتقيام بمظاهرة يقودها دوق أورليان ابن الملك ، لتأكيد سلطة الفرنسيين على المنطقة المتنازع عليها . اعتبر « السلطان » هذه الحركة اعلانا بالحرب وأطلق قوة من العرب وأهل « القبائل » من التلال المطلة على مدينة الجزائر ، فأحرقت ونهبت المزارع والمستوطنات الفرنسية على حدود المدينة وقتل أصحابها أو طوردوا حتى أبواب الجزائر . ولكن هذه المبادرة الجزائرية كانت قصيرة الأمد . هاج الرأي العام الفرنسي ضد الإدلال الذي انطوى عليه اتفاق بيجو ، فأرسلت تعزيزات قوية إلى فاليف الذي ما أن حل مارس ١٨٤٠ حتى كان تحت أمره جيش يقرب من ستين ألفا من الجنود النظاميين المدربين تدريباً عالياً . وفي أبريل زحف هذا الجيش على المواقع الجزائرية ، وبعد معركة دامية استرجع مديدة ومليانة حيث قُتل ثلثا الحامية الجزائرية .

اشترك بيجو الآن في المطاردة وقد أثار غضبه ما عهد إليه الجزائريون من قتل المستوطنين الفرنسيين حول مدينة الجزائر . وبعد أن أعلن بطويقة وحشية أن « العرب يجب القضاء عليهم ، ويجب أن يكون علكم فرنسا هو العلم الوحيد الذي يرفع فوق هذه الأرض الأفريقية » قاد جيشا من ثمانية وسبعين ألفا إلى غرب الجزائر ، ودحر رجال عبد القادر واسترد مسكره وعاصمته الجديدة تجدى Tagdemi . مرة أخرى انسحب عبد القادر إلى التلال بالصحراء . جاء عليه الدور الآن ليناشد بيجو أن يستجيب إلى العقل . وسأل عما يأمل هو وتأمل فرنسا في كسبه من هذه الحرب ؟ « سوف تزحف إلى الأمام وسوف نانسحب ، ولكن سوف تجبر على الانسحاب وسوف نعود ... سوف نصيب قواتكم بالإعياء ونضايقها ونقضى عليها بالتدريج ، وسوف يتكفل مناخنا بالباقي . أرسل رجلا مقابل رجلا ، وعشرة مقابل عشرة ، وألفا مقابل ألف ،

وسوف ترى ما إذا كنا ننسكص على أعقابنا . ألا ترى الموجة ترتفع عندما يلمسها طائر بجناحه ؟ هذه هي صورة مروركم فوق أفريقية » نظراً لأن إقناع البرلمان والشعب في فرنسا بصدق هذا التحذير ، احتاج إلى يزيد على مائة عام من الكراهية وإراقة الدماء وإلى رجل مثل شارل ديغول ، فليس مما يبعث على الدهشة أن منطق هذا الإنذارات في عام ١٨٤٠ قائداً فرنسياً خرج يسترد سمعته كجندي ، وأكثر من هذا ، فات شعباً فرنسياً بتلوى بالألم .

وفضلاً عن هذا ، عادت القبائل في هذا الوقت تنفض من حول عبد القادر ، ولم يسفر نداء بطلب المساعدة وجه إلى سلطان مراکش إلا عن رسالة من التمنيات العظيمة لأبناء عمومته الجزائريين . كان أقصى ما يعمل السلطان أن يغمض العيش عن التجاء عبد القادر إلى مراکش عندما استولى الفرنسيون في يناير ١٨٤٢ على تلمسان آخر معاقله .

من مراکش شن عبد القادر سلسلة من غارات جريئة في محاولة يائسة لتجميع القبائل . ونشر الشائعات بأن مراکش انحازت إلى قضيتهم ؛ وأن إنجلترا أعلنت الحرب على فرنسا ، وأن القوات الفرنسية من ثم يجرى سحبها . ونظم عاصمة متنقلة ليتخذ منها مقراً لقيادته في أثناء المعارك وكى يقيم فيها ستون ألفاً من رجال القبائل وعائلاتهم . ولكن هذا تحطم في مايو ١٨٤٣ بفعل هجوم مفاجيء قام به الفرسان الفرنسيون وتابع الفرنسيون هذا النجاح بأن استصدروا فتوى من « علماء » القاهرة تحل أية قبيلة تنضم إليهم من اللعنة التي كان عبد القادر يصبها على من يخرجون عليه .

وببدء عام ١٨٤٤ كان عبد القادر قد تخلى عنه الجميع باستثناء قلة من المخلصين ، وتحرك يبعجو الآن سعيًا وراء القضاء نهائياً . فشق طريقه إلى مراکش واكتسح دوريات حرس الحدود من أمامه ، وطالب بتسليم عبد القادر .

واذ راحت السفن الحربية الفرنسية تطلق نيرانها أيضاً على طنجة وموجا دور، تحرك سلطان مراكش في النهاية إلى العمل وأعلن الحرب على فرنسا . ولكن في ظرف أسابيع قليلة اندحر جيشه بأسره على أيدي قوة فرنسية من ستة آلاف ، وانتهى تظاهره المتأخر بالتضامن العربى ، بأن التمس الصالح ووافق على حرمان الزعيم الجزائري من حماية القانون .

رأى عبد القادر الآن أن الموقف ميئوس منه إذ الجميع ضده ، فعرض تسوية يحكم بموجبها كتابع لفرنسا ويدفع الجزية ويقدم رهائن ضمانا لحسن سلوكه . ولكن الفرنسيين لم يكونوا ليقبلوا ما يقل عن التسليم بلا قيد أو شرط . فرفضوا شروطه ، وفي محاولة لإرهاب أتباعه السابقين حتى يسارعوا إلى الإستسلام ، بدأ الجيش الفرنسى سلسلة أعدت بعناية ، من الفظائع ضد القبائل ، فبهدم معسكراتهم ويحرق سكانها أحياء . ولكن هذه التكتيكات الإرهابية كانت نتيجتها على عكس ما قصده الفرنسيون ، وفي ربيع ١٨٤٥ حدثت موجة جديدة من الثورات بطريقة تلقائية في جميع أرجاء الجزائر . غادر عبد القادر مخبأه في مراكش ، وبعد أن جمع حوله جيشاً آخر توغل حتى بلغ شليف ، طارده الفرنسيون ، ولكن « السلطان » كان يخفى دائماً كالشبح قبل أن يلحقوا به . كان من القدرة على المراوغة بحيث انهيار ثلاثة من القواد الفرنسيين بالميدان ومات اثنان منهم نتيجة المطاردة . لقد سبق أن كتب إلى بيجو : « سوف نصيب قواتكم باعياء ، وسوف يتكفل المذاخ بالباقي » .

ولكن إذا كان الفرنسيون في الجزائر قد أعيتهم مطاردة « السلطان » فإن باريس لم تسكن كذلك . أخذت التعزيزات تتدفق ، وكان ثلث الجيش الفرنسى بأسره — أكثر من ١٠٠.٠٠٠ رجل — مشتبكاً في مطاردته .

كانت الشبكة تطبق عليه ببطء ولكن بلا هوادة . كان قواد عبد القادر يقتلون أو يؤسرون ، الواحد تلو الآخر ، وانسحب مرة أخرى ليختبأ في مرا كش . وخوفاً من أعمال الثأر من جانب الفرنسيين أمر سلطان مرا كش بالقبض عليه أو إخراجه من البلاد . وفي ديسمبر ١٨٤٧ وكانت القوات المراكشية تزعج عبد القادر ، عبر الحدود ليجد نفسه على الفور وقد أحاطت به القوات الفرنسية . وفي أسلوب الفيلسوف خاطب الأتباع القلائل الذين وقفوا بجانبه حتى النهاية ، فقال : « انتهى النضال وعلينا أن ندعن . وإذا كان الله لم يمنحنا النصر فلا أنه ظن من المناسب أن تكون هذه الأرض تابعة للنصارى .. يجب أن ندعن » .

وعند استسلام عبد القادر تعهد له الحاكم العام الجديد شخصياً ، دوق دومال وهو ابن آخر للوى فيليب ، والفائد العام الجنرال لاموريسيمير الذى خلف بيجو حديثاً ، بإرساله إلى بلد إسلامي يقضى فيه بقية حياته . ربما تجاوز دومال سلطته من باب الإعجاب بأسيره والعطف عليه ، والذى كتب عنه إلى وزير الحربية « لا أستطيع أن أخفى إلى أى حد بعيد تأثرت بعزة نفسه وبساطته . لقد لعب دوراً عظيماً فارتفع وسقط الآن فهو . لم يطلق أى شكوى ولم ينطق بكلمة واحدة تنم عن الأسف .. لقد وعدته بأن الماضى سوف ينسى تماماً » . ولكن وزير الحربية لم يكن سوى تريزل الذى لم يكن لينسى الهزيمة المذلة التى أصيب بها على أيدي « السلطان » الثائر في مراكش الجبل . فعند وصول عبد القادر وحاشيته إلى طولون قبض عليهم وأودعوا السجن في حصن من حصون الجيش . عبثاً احتج أن ابن الملك نفسه قد وعد بإرساله إلى بلد إسلامي . لقد ظفر تريزل بتأييد الملك له في سجن عبد القادر في فرنسا

غير أن احتجاجات عبد القادر وخزت عدداً من الضمائر الفرنسية من

بينها ضمير ييجو الذى كتب يحاول إقناعه بأن يعيش بمحض اختياره فى فرنسا . وأجاب عبد القادر بما تميز به من الصلابة : « لو أمكن أن توضع جميع كنوز العالم فى ذيل برنسى ووضعت فى الميزان مقابل حربتي لاخترت حربتي . لست أطلب مئة ولا فضلا ، ولكنى أطلب تنفيذ التعهدات التى قطعت معى . . . لن أعيد إليكم كلمتكم ، ولكن سأموت معها فتحملون العار » . ولكن فى سنة ١٨٥٢ حدث تغيير فى نظام الحكم فى فرنسا ، جاء معه بتغيير فى المشاعر من ناحية الزعيم الجزائرى . طرد لوى نابليون أسرة البوربون ؛ وفى أكتوبر حظى عبد القادر بزيارة من الأمير — الرئيس الذى نُصّب حديثاً . أبلغ لوى نابليون فى تواضع أسيره أنه أحس بقلق كبير لأن فرنسا نسكت بوعدها له لمدة خمس سنوات وأنه سوف يطلق سراحه ويرسل إلى تركيا . غلب الفرح والامتنان على عبد القادر فتطوع بضمان مكتوب « بأن لا يعود أبداً إلى الجزائر أو يفعل شيئاً يناقض المنة التى وضعت فيه » . وعند إطلاق سراح الشائر السابق أخذ إلى باريس حيث كان طيلة أسبوعين موضع التعظيم والتعجيد من مجتمع فرنسى كان قبل ذلك بسنوات قلائل فقط يزأر مطالباً بدمه . أقيمت حفلات الرقص ومسرحيات الأوبرا والعروض العسكرية تكريماً له ، وحتى يعلو فوق كل هذا التحول الساخر فى الأحداث أصر عبد القادر على أن يصوت فى انتخاب نوفمبر لصالح أن يصبح نابليون امبراطوراً . وفى الشهر القالى سافر إلى تركيا حيث رتب له الامبراطور الفرنسى الجديد معاشاً سنوياً .

هزمت الجزائر وأصلح لوى نابليون بعد الأوان بعض شرف فرنسا المطلق . ولكن كان ما يزال مقدراً لعبد القادر أن يكتب ملحمة لهذه القصة من المأساة والقدر ، وهى القصة التى سوف تنافس المثل الذى ضربه صلاح الدين . لم يكن من غير الطبيعى أن تكون حياته فى تركيا قصيرة ومزعجة فى آن واحد .

فشعورا بالغيرة من أن يظفر رجل عربى فحسب مثل هذه الشهرة لنفسه ، استقبله الأتراك يبرود . فبعد إقامة سنوات قلائل طلب عبد القادر من لوى نابليون الإذن بنقل محل إقامته من بروسه إلى دمشق ، وتم له ما أراد .

كانت الشام في هذا الوقت تمر بفترة من الصراع الدينى . فمُنذ أبعاد اللورد بالمرستون ما كان لحكومة إبراهيم من تأثير سمح يعمل على تحقيق الوحدة ، انتهجت السلطات العثمانية في الشام سياسة « فرق تسد » فتحرض المسلمين على ارتكاب العنف ضد المسيحيين كوسيلة رخيصة لنيل الخطوة عند الأغلبية وتحويل الاهتمام عما تتصف به هذه السلطات من سوء الإدارة . ففي عام ١٨٦٠ وبعد أربع سنوات من استقرار عبد القادر في دمشق ، حرض الوالى التركى على مذبحه رهيبة ضحيّتها المسيحيون - من العرب فضلا عن المواطنين الأجانب لم يتردد عبد القادر لحظة فتوجه مع جرسه الجزائرى مباشرة إلى فنصليات فرنسا والدول الأوروبية الأخرى وصحب معه إلى داره وتحت حمايته ، القناصل والموظفين العاملين في هذه القنصليات وجميع المسيحيين الذين كانوا قد احتموا بها . ثم توجه إلى الحى المسيحى حيث كانت تجرى أسوأ أعمال القتل . هنا راح هو وأتباعه ينتزع - بالمعنى الحرفى للكلمة - النصارى من أيدي القتلة ويسوقهم تحت حمايته إلى ما يوفره لهم بيته من الأمان . وعندما بلغت جملة الذين أُنقذوا حوالى أربعة آلاف زحفت الجموع الهائجة على بيته وهددت بالاستيلاء عليه إذ لم يسلم إليهم المسيحيون الذين في داخله ، فواجههم عبد القادر بلاخوف . وراح وقد استشاط غضبا ، يذكر لهم كيف حارب خمس عشرة سنة لنصرة حقوق المسلمين واستقلال العرب ، ثم استعاد بكلمات القرآن المقدسة فاتهم الغوغاء الذين كانوا يزعمون بصوت مرتع بأنهم جنباء وسفاكين كان الأمر كما لو أن ما فعله الحجاج بن يوسف في مسجد الكوفة قد تكرر ،

وكان ذا أثر فعال مثله . تفرقت الجوع ، وعندما هذأت المشاعر عرض عبد القادر خمسين قرشا مقابل كل مسيحي يؤتى به حياً .

بهذا المزيج من الشجاعة والرشوة أنقذ أكثر من اثني عشر ألف شخص من القتل . هذا العمل الشجاع من جانبه تجاوزت أصدائه في جميع أرجاء أوروبا . فرجع لوى نابليون أرزاقه ومفحه وسام اللوجيون دونير من درجة الصليب الكبير . وانتهت عليه أوسمة ومظاهر تكريم مشابهة من جانب قيصر روسيا وملك كل من بروسيا واليونان . أصبح في أعين الدول المسيحية شخصا لا يمكن أن يرتكب خطأ . بل وجرى اقتراح في باريس بتعيينه نائبا عن الملك في الجزائر . ولكن كان من الحكمة بحيث يجعل من المعروف أنه سوف يعتذر من قبول مثل هذا المنصب لو عرض عليه ، ذلك أنه كان قد تشيع بالأساليب الغربية بحيث لا يستطيع أن يقيم من جديد في وطنه المتخلف ثمافيا . وخلال السنوات العشرين من حياته عاد إلى حياة الدرس والعلم التي كان قد تروى فيها ، ونعم بصحبة البريطانيين المتخصصين في الشؤون العربية ، من أمثال ريتشارد ميرتون وتشارلز دوئي ، وحرر وأخرج مؤلفات المفكر العربي الأثير لديه وهو محي الدين بن عربي ، ودفن بجوار قبر الأخير عندما توفي في مايو ١٨٨٣ .

ويرغم ما سببه عبد القادر للفرنسيين من الإزعاج والمضايقة طوال خمسة عشر عاما ، فإنه أخفق في الظفر بالاستقلال للجزائر ، من جهة لأنه واجهته عقبات طاعية وأبى أن يطلب العون من الأتراك ، ومن جهة أخرى كانت القبائل تفتقر إلى صفة « العصبية » التي كان يمكن أن تجمع بينهم في حال الهزيمة . لقد قدر لرجال آخرين أن يحملوا ألوية القومية العربية ويسيروا بها إلى انتصارات فاقت بكثير من حيث أثرها ، كل ما أنجزه لكن لا يستطيع أحد جاء بعده أن يزعم أنه أظهر مثالا أكثر بهاء ، عن الشهامة في النصر ،

والشجاعة في وقت الشدة ، وكرم الأخلاق أفراء من ارتكبوا مثل هذا
الظلم الأليم ضده وضد قومه. لو أن بريطانيا وفرنسا بعد أن تحطمت الامبراطورية
العثمانية نهائيا في عام ١٩١٨ ، تصرفتا لمزاء العالم أن العرب بنفس الحلم والفهم
بدلا من أن تسترشدا بالجشع وشهوات الامبراطورية ، لما كان ثمة حاجة أبدا
الدماء التي أهرقت والدموع التي أذرفت مما كتبه نصف القرن الأخير من
التاريخ العربي .

(٢٣)

الشيوخ والشباب من الأتراك

بينما كان عبد القادر والمهدى يحاولان بطريق الثورة السافرة أن يطرحا
فكر تركيا وفرنسا وبريطانيا حول أطراف العالم العربي ؛ كانت قد بدأت في
مركزه أن دمشق ، أول اضطرابات ثنية عما سوف يصبح اليقظة العربية
الصحيحة من جديد . يكاد ألا يثير الدهشة أن الثورة الوليدة جرى حملها في
أحشاء الشام لا مصر . فمن جهة كانت الشام منطقة شغب وصدام منذ أن
توقفت عن أن تكون مركز الخلافة . ومن جهة أخرى ، وبفضل الحكم
المستنير الذي أقامه إبراهيم باشا فيما بين عامي ١٨٣٠ و ١٨٤٠ خرجت سوريا
ولبنان وفلسطين من العصور المظلمة ، وبلغت بانتصاف القرن التاسع عشر
درجة من التطور الفكري نافست الدرجة التي وصلت إليها مصر . وفضلا
عن هذا ، مكملنا تقدم القرن أصبحت مصر مشغولة بصورة متزايدة بمشكلات
علاقتها الغربية مع تركيا وبريطانيا ، ومن ثم زادت عزلتها عن شئون أبناء
عمومتها العرب .

كان إبراهيم قد شجع الإرساليات المسيحية الغربية من الجزويت
والهزبتيان ، وشجع رجال التربية الغربية ، على الإقامة في المشرق . كذلك
أقام نظاماً من المدارس الابتدائية الإسلامية في جميع أرجاء البلاد ، بالإضافة
إلى ثلاث كليات ثانوية في دمشق وحلب وانطاكية لتنمية تدريس اللغة العربية
والأدب العربي اللذين كانا قد تدهورا بصورة مخزنة في ظل الاحتلال التركي .
من هذه البدايات قدم رجال التربية والتعليم إلى سوريا من كافة أرجاء العالم
الغربي بما فيه الولايات المتحدة التي أرسلت إلى سميث Eli Smith (ودانيل بليس

Dussablis بعد ذلك) لإنشاء مدرسة ق آبي Abey في جبال لبنان (وهي المدرسة التي تطورت فيما بعد فأصبحت الجامعة الأمريكية ببيروت ، التي اشتهرت في العالم أجمع) . وفتحت الإرساليات مدارس أخرى في بيت المقدس وبيروت وزحلة في أجزاء أخرى من لبنان . ولعلاج النقص في الكتب الدراسية العربية استوردت الإرساليات مطابع خاصة بها ، ومن أجل زيادة العدد الصغير بشكل يدعو الأسف ، من المدرسين المؤهلين جعلوا من المدرسة التي أنشئت في آبي لسكينة لتخريج المعلمين .

فلما أجبر إبراهيم على الخروج من الشام سنة ١٨٤٠ قضى الأتراك على المدارس والكتليات الإسلامية التي أنشأ . ولكن خوفاً من ردود الفعل الغربية لم يمحروا على أن يأمرؤا بإغلاق مدارس الإرساليات الكاثوليكية والبروتستانتية الوافدة من وراء البحار . ومن ثم زادت الأخيرة عدداً وتعدواً مما عاد بالنفع على العرب المسيحيين ، بينما لم تتوافر مدارس حديثة للمسلمين والدروز البؤساء . وعلى ذلك العرب المسيحيون هم أول من أثار الوعي العربي النائم إذ في ذلك الوقت كانوا هم وحدهم الذين في أيديهم مفتاح كنوز الأدب والتاريخ العربي ، وأن كان هذا لا بد أنه كان مصور كدر وضيق لأتباع الإسلام .

من المعلمين العرب المسيحيين في هذه الفترة برز اثنان من المثقفين الشبان هما نصيف اليازجي ويطرس بستانى . ولد اليازجي في عام ١٨٠٠ من أبوين لبنانيين فقيرين ، وراح يحصل كل ما قدر عليه من التعليم بأن علم نفسه من المخطوطات الموجودة في مكتبات دير الموارنة . ولكن بفضل ما أوتي من عبقرية وطلاقة على العمل ، استطاع بهذه الطريقة الشاقة والمراقة أن يكشف عن أفضل الأدب العربي ولكما أكتب على عمله أصبح وقد تملكته رغبة في إحياء أمجاد التاريخ العربي الماضية . وبدأ بكتب وشعر متدققين ومؤثرين ، عن الحاجة إلى نفس تلك الوحدة بين العرب من جميع الأدبان ، وهي الواحدة التي ساعدت على أن جعلت من أسلافهم أمة عظيمة في الماضي . وباعتباره

حجة في التاريخ والأدب العربى أخذته الإرسالية الأمريكية التى كان يرأسها إيلي سميث ، وأصبحت المؤلفات التى صنفها هم ، وظلت بعد وفاته بوقت طويل ، السكتب الرئيسية فى تدريس اللغة العربية .

وفى لبنان أيضاً ولد بطرس بستانى فى عام ١٨١٩ ؛ ولكن على خلاف اليازجى تمكن بفضل المنح الدراسية من أن ينعم من سن العاشرة بتعليم طيب فى كليات مارونية مختلفة . كان لغوياً بارزاً ، يتقن ثمانى لغات بالإضافة إلى العربية ، واستخدمه أيضاً رجال الإرساليات الأمريكية ، وفى سن الحادية والعشرين بدأ التدريس والترجمة فى مدرسة إيلي سميث فى آبي . كان إنتاجه المدرسى غزيراً فاشترك مع اليازجى وغيره فى ترجمة الإنجيل إلى العربية ووضع قاموساً للغة العربية وموسوعة عربية . وبعد مذبحة المسيحيين فى عام ١٨٦٠^(١) أسس أول مجلة سياسية تظهر فى سوريا ، وفيها دافع طويلاً وبحماس عن القسامح والتفاهم بين المجموعات الدينية ، وعن العلم الذى يؤدى إلى الاستنارة ويضع نهاية للتعصب .

إلا أن هم مناشط البستاني واليازجى جميعاً وأشدها تأثيراً كان تكوين جمعية أدبية فى عام ١٨٤٧ اقتصرت عضويتها فى أول الأمر على المسيحيين ثم نمت بعد ذلك بعشر سنوات وتحولت إلى جماعة عرفت باسم الجمعية العلمية السورية . وكانت تضم ١٥٠ عضواً جرى اختيارهم من القادة المثقفين فى صفوف المسلمين والدروز والمسيحيين . ولاحظ جورج أنطونيوس فى كتابه « بقطة العرب » أن « إنشاء الجمعية كان أول مظهر خارجى لوعى قومى جماعى ، وتسكن أهميتها فى التاريخ فى أنها كانت مهد حركة سياسية جديدة ... يمكن القول أن الحركة القومية العربية أطلقت صيحتها الأولى خلال اجتماع سرى عقدته الجمعية العلمية السورية » .

(١) أنظر الفصل السابق عن « الثورة و الجزائر » حيث كان الحاكم التركى هو الذى

حرض على هذه المذبحة . — المترجم .

عقد الاجتماع في عام ١٨٦٨ ، وكانت « الصيحة » عبارة عن قصيدة ألفها ابراهيم وهو ابن اليازجى ، فتحدث عن أمجاد فتوحات وثقافة العرب الماضية وعن مباهج أدبهم ومضى إذ دعت جميع السوريين إلى التماس الوحي من الماضي فإنها دعت صراحة جميع الوطنيين العرب الحقيقيين إلى أن يتحدوا ويخلصوا أنفسهم من الاضطهاد العثماني . ولما كان طبعها يعتبر عملاً مثيراً للفتنة لهذا أخذت تنتشر عن طريق الرواية، وأصبحت للحظة نشيد الحرب الذي تتغنى به الحركة القومية الجديدة التي سرعان ما أضيفت إليها جمعية أخرى أكثر نشاطاً تحدى علناً السلطة العثمانية المحلية بأن غمرت مدن بيروت ودمشق وصيدا وطرابلس بالفتات معادية للأتراك .

هذا التحدى لحكم السلطان أثبت أنه قصير الأمد ، وسرعان ما أسكت « صيحة » الحركة العربية الوليدة بفعل مزيج من التهديدات والمداهنات التركية ، ولم يكن لها صدى يتكرر حتى عام ١٩٠٨ . لكن مهها كانت ساعة التحدى هذه قصيرة ، فإن الشيء المهم هو أنه حدث ، وبحدوثه ولدت القومية العربية .

هكذا كان الموقف في « سوريا الكبرى » عندما اعتلى عبد الحميد آخر القياصرة^(١) العثمانيين ، العرش في عام ١٨٧٦ . هذا الاحتمال الذي ينطوى على التهديد ، زاد من خطورته تدهور حديث العهد في العلاقات العثمانية مع أوروبا وزيادة مفاجئة في الاعتداءات الأوربية على الإمبراطورية التركية . فقد اتخذت فرنسا والبلاد المسيحية الأخرى من مذبح عام ١٨٦٠ تسكاً تستند إليها في التدخل بصورة متزايدة في الإدارة الداخلية بسوريا . لم تقنع هذه الدول بإعدام الحاكم التركي الذي حرض على قتل المسيحيين ، فواحت توسع من نطاق الحقوق الممنوحة لها بموجب الامتيازات ، على أساس أنه إذا كان الأتراك لن يحرموا

(١) المقصود بالحكام المطلقين أي السلاطين العثمانيين . - المترجم .

الجاليات المسيحية ، فمن واجب هذه الدول توفير الحماية المطلوبة . بل وأرسلت سفن حربية تجوب في المياه السورية ، ونزلت حملة فرنسية في بيروت .

وفضلاً عن هذا ، سببت الفظائع التركية ضد ثورة بلغارية صراحاً عالياً في لندن وغيرها من العواصم الغربية . وعندئذ ، لم يمض عام على اعتلاء عبد الحميد العرش حتى اضطر إلى التسليم بالهزيمة في النضال الطويل ضد روسيا حول الأراضي العثمانية في القوقاز وأوكرانيا . وبعد ذلك بأربع سنوات ، أي في ١٨٨١ ، استولت فرنسا على تونس من الأتراك ، وفي السنة التالية مباشرة جعلت بريطانيا من الخديو تابعاً بريطانياً . يسيطر جيش احتلال على أراضيه ، رغم أنها كانت ما تزال تعترف بسلطة الباب العالي الإسمية في مصر والسودان :

لقد أصبحت الدول الأوروبية في الحقيقة من التطفل بحيث دعت إلى مؤتمر ليضع طائفة من الإصلاحات لإدارة الأقاليم التركية ، وهي الإدارة التي وإن كانت أبعد ما تكون عن اللامركزية الشديدة في أوائل أيام التفوق التركي ، أصبحت باطراد أكثر مركزية وأشد صلفاً كلما تقلصت الامبراطورية أمام الاعتداءات الفرنسية والبريطانية والتهديد من جانب النزعة الانفصالية العربية .

وسرعان ما أدرك عبد الحميد أن الأمر في حاجة إلى حركة مظهرية تشد الأنظار إذا أراد أن يزيح القوى الأوروبية من فوق ظهره ويستعيد هيبة السلطان العثماني في العالم العربي . إن السياسة القديمة القائمة على تحريض المسلمين والنصارى كي يبددوا طاقاتهم في مقاتلة بعضهم البعض ، هذه السياسة لم تعد تجدى نفعاً أمام ما نادى به الحركة العربية الجديدة بالوحدة بين جميع الفئات .

وعلى ذلك استل السلطان مدافع القوى الأوروبية الموجهة ضده بأن أعلن بنفسه في عام ١٨٧٦ تطبيق نظام دستوري للحكم وإسناد وظيفة كبير النظار إلى سياسي متحرر هو مدحت باشا . بعد حياة ممتازة كوالٍ مستنير نسبياً على

الولايات البلقانية التابعة لتركيا أصبح مدحت الوزير الأول في عهد سلف عبد الحميد ، ولكن لما لم يعد قادراً على أن يبتلع طغيان موله قدم استقالته وكون جماعة ليبرالية من السياسيين الأتراك ، تكرر نفسها للإصلاح والحكم الدستوري . وعلى ذلك كان اختياره أمراً طبيعياً لإقناع الأوربيين بأن تركيا على عهد عبد الحميد قد قلبت صفحة جديدة . ولكن لم تمض ثلاثة أشهر على تعيينه حتى جددت روسيا الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية ، ونفى مدحت وأبطل العمل بالدستور الليبرالي الجديد .

قدر لحركة أخرى قام بها عبد الحميد أن تكون أكثر دواماً . ففي محاولة شاملة لكسب ولاء العرب المسلمين في داخل الإمبراطورية ، قرر إحياء ما كان للخلافة من قوة وتأثير روحيين . لقد ظل سلاطين آل عثمان ما يقرب من أربعمائة سنة يحملون لقب الخليفة ولكنه فقد أهميته الدينية في النصف الأخير من تلك الفترة وأصبح مجرد لقب آخر ليس له معنى حقيقي . خيل لعبد الحميد أنه باستعادة سلطانه الروحي في عالم الإسلام ، يستطيع أن يسترد مكانته الضائعة في مجالس الأمم ويوحد جميع المسلمين وراءه .

ولهذا السبب أصبح عبد الحميد خليفة وسلطاناً ورعاً . فحرم شرب الخمر في بلاطه ، وأصبح الأولياء هم صحابته الدائمون ، وأنشئت كلمات جديدة لتدريس الفقه الإسلامي وتدريب الوعاظ المسلمين . وحتى يظفر بود العرب عين سورياً هو عزت باشا ، سكرتيراً له كما عين غيره من العرب البارزين في مناصب رنانة الاسم وجزاؤها المادي وفير ، وأصدر قراراً بأن تكون أشرطة من حرسه عربية بحثة . ومن أمهر مشروعاته كان بناء سكة حديد الحجاز المراد بها في الظاهر اختصار المدة التي يستغرقها المسلمون عندما يجمعون وذلك بطريق برى من دمشق إلى مكة ؛ وإن لم يتجاوز أبداً المدينة المنورة ولكن كان إنشاء الخط ذا غرض استراتيجي في الواقع هو نقل القوات بسرعة لمعالجة

أية اضطرابات في الحجاز أو جنوب الجزيرة العربية حيث كان للاتراك حامية دائمة من أربع فرق . وعند نهاية الخط في دمشق بنيت محطة رائعة نقشه أحد المنصور الفرنسية في القرن الثامن عشر ، وبها شمعدانات مزخرفة من النحاس الأصفر ، وسقفها منقوش بالألوان . لم يدخروا مالا في سبيل إنجاز هذا المشروع الطموح ، وفي الوقت الذي كمل فيه كانت النفقات قد بلغت نحو ثلاثة ملايين جنيه .

ولكن الطرق التي اتبعها عبد الحميد لاستعادة سلطته لم تكن كلها بهذا الورع والاحترام . فمن الأساليب الملتوية الأخرى استخدم جيشاً من ثلاثين ألفاً من الجواسيس ومثري الفتن لإثارة الخصومات بين القبائل واغتيال من لا يمكن شراؤه من مثري المتاعب أو ضربهم بالمراوات لإجبارهم على الرضوخ والاستسلام . من الحزن القول أن هذا المزيج من اللين والعنف - من جهة بتملق مشاعر العرب والمسلمين واستغلال ما تنطوى عليه الشعوب الخاضعة للغير من صفات القابلية لأن تباع وتشترى^(١) ، ومن جهة أخرى بتهديد المعاندين وإرهابهم . هذا المزيج أثبت فعاليته إلى درجة عالية . فخلال حكم عبد الحميد الذي امتد اثنتي عشرة سنة لم يعد يسمع سوى القليل عن الجمعية العلمية السورية ، ولم تشهد سوريا الكبرى سوى ثورتين لها شأن من العداء العربي لنظام حكم عبد الحميد . ففي ١٨٨٠ ظهر المزيد من اللافقات التي تطالب باستقلال الشام وجعل العربية اللغة الرسمية في البلد . ولكن عندما افتتحي عملاء السلطان أثر الذين فعلوا هذا ، لم تتكرر اللافقات . بعد ذلك نشر كاتب سوري هو عبد الرحمن الكواكبي وينتمي إلى أسرة مسلمة مشهورة من حلب ، كتابين هاجم فيهما تسلط العثمانيين ودعا إلى حركة عربية تضع مشروعاً للاستقلال . ولكن نشر الكواكبي المملوء بالعبارات الحماسية أخفق في أن يثير يثير أي رد فعل عربي له شأنه .

(١) رأى غريب جداً أو لو كانت هذه الشعوب تباع وتشترى وكيف تقسم نجاح الحركات القومية التي انتهت بانتصارها واستقلال المستعمرات وأشباهها . — المخرج .

هذا الانقياد السلس لم يكن متصوراً بالسكلية على سوريا الكبرى .
 فالحقيقة أنه في تلك الأجزاء من العالم العربى التى كانت لا تزال خاضعة لسيطرة
 الباب العالى ، كان أهل اليمن فقط هم الذين كانوا يشكلون أية متاعب جدية .
 فنظراً لأنهم لم يعترفوا أبداً بسلطة الإمبراطورية العثمانية منذ القرن السابع عشر ،
 تمردوا عندما أعاد الباب العالى السلطة التركىة فى عام ١٨٧٢ ، وبمرور الوقت
 ظفروا من حكومة عبد الحميد بقدر بالغ من الاستقلال الذاتى ، ويرجع هذا
 إلى حد كبير إلى أن الأتراك السفين قرروا أن الأسهل بكثير هو أن يحكموا
 من بعيد ، هؤلاء الشيعة المتمردين من أهل جنوب بلاد العرب . ولكن اليمنيين
 كانوا الاستثناء ، وفى جميع أرجاء الولايات العربىة التابعة للسلطان رقدت
 الحركة القومية العربىة الآن « كما لو كانت فى سبات ، يقيدها طغيان عبد الحميد
 وتخدعها العناصر المنوومة التى تنطوى عليها سياسته العربىة » على حد وصف
 جورج أنطونيوس . وعلى ذلك يكاد يبعث على الدهشة أنه برغم كل العمل
 الشاق الذى قام به اليازجى وبستانى وزملاءهما من المتآمرين^(١) ، أن الحركة التى
 سوف تعزل عبد الحميد فى النهاية ، نشأت من دوافع تركىة وليست عربىة .
 فبعد ابتداء القرن بوقت وجيز كوَّنت هيئة من « الأتراك الفتيان » كما
 أطلقوا على أنفسهم ، جماعة فى سالونيك تعرف رسمياً باسم « لجنة الاتحاد
 والترقى » . كانت تتكون إلى حد كبير من نفر من ضباط الجيش المستأين ،
 وعلى غرار حركة الضباط الأحرار التى قادها جمال عبد الناصر فى عام ١٩٥٢ ،
 كرسوا أنفسهم لفرض واحد هو إلغاء الحكم المطلق الحميدى وبعث الدستور
 الليبرالى التى كان موقفاً طيلة أكثر من ثلاثين عاماً . وفى يوليو من عام ١٩٠٨
 ضربوا ضربتهم . أعلن وقوع انقلاب عسكرى ، وفى محاولة مذعورة من جانب
 عبد الحميد لإنقاذ عرشه وافق على إعادة دستور ١٨٧٦ وحل جيش جواسيسه
 وإطلاق سراح جميع المسجونين السياسيين ، وبعد تسعة أشهر حاول الثعلب

(١) التعبير الصحيح هو « الوطنيين فاطالب بحرية وطنية لا بعد متأمر . — المترجم .

العجز تدير ثورة مضادة ، ولكن جمعية الاتحاد والترقي استهبطته وعزلته وعينت مكانه أخاه محمد رشاد الذي أصبح أداة طيعة في أيدي الأتراك. الفتيان . استقبلت الثورة بفرحة بالغة في جميع أرجاء الولايات العربية الخاضعة للإمبراطورية . وعندئذ بدا أن الأتراك الفتيان عملوا ما عجز عنه معظم قادة العرب إما بسبب الخوف أو لأنهم سمحوا لأنفسهم بأن يُشترُوا^(١) . وعلى نحو ما حدث من قبل وماسوف يحدث مرات كثيرة من جديد ، كان الشيء الوحيد الذي كان يهم العرب هو أن تغييراً قد حدث ، وأن نظام الحكم القديم جرى التخلص منه ، وأن عربة جديدة براقة ذات بطاقة « ديموقراطية » عليها ، تدعومهم إلى أن يقفزوا فوقها . أما الذي سوف يحل محل النظام القديم فقد بدا غير ذي أهمية . في الجنون الذي أعقب إنهاء عصر عبد الحميد ، سى العرب تماماً حقيقة أن المبدأ الأساسي الذي يقوم عليه الدستور الجديد هو الاندماج العنصرى الذى يجب بحكم التعريف أن ينسكو عليهم أى أمل فى الاستقلال الثقافى واللغوى . تكونت جمعية عربية أطلق عليها من قبيل التفاؤل اسم « جمعية الأخوة العثمانية العربية » التى سمحت بها وباركتها جمعية الاتحاد والترقى ، « لىكي توحد جميع الأجناس فى الولاء للسلطان وتنمى رفاهية الولايات العربية على أساس من المساواة الحثيئية مع الأجناس الأخرى بالإمبراطورية » .

بدا للحظة أن آمال أولئك السوريين الذين دخلوا متعلقين بمبدأ الاستقلال الذاتى العربى ، قد حكم عليها بالزوال . ولكن حرارة علاقة شهر العسل بين الأتراك الفتيان والعرب قدر لها أن تبرد بسرعة جداً . فى نفس أول انتخابات أجريت فى ظل الدستور الجديد اكتشف العرب مسدى « ليبرالية » نظام الحكم الجديد ، فعن طريق التلاعب بحدود الدوائر الانتخابية أخرجت نتيجة أعطت ١٥٠ مقعداً فى البرلمان الجديد للمرشحين الأتراك ، ٦٠ مقعداً فقط

(١) لا يمكن شراء غير العقول الضعيفة وهذا أمر تلافاه فى جميع المناسبات . — المترجم .

للعرب ، أى بنسبة ٥ : ٢ لصالح الأتراك بينما نسبة السكان الأتراك إلى العرب في الامبراطورية ٢ : ٣ . بل وكان حظ العرب أسوأ في مجالس الشيوخ الذين يعين السلطان أعضائه ، فحصلوا على مجرد ثلاثة مقاعد من ٤٠ مقعداً . وعلاوة على هذا حرّم رجال تركيا الفتاة وجود جمعية الأخوة العثمانية العربية هي وكل جمعية أخرى غير تركية . وأخيراً ، وقد حصلوا على نتيجة الانتخابات التي أرادوها ، راحوا يفرضون على الولايات العربية نظاماً للحكم أشد مركزية بكثير من نظام عبد الحميد .

أما وقد ظهر رجال تركيا الفتاة في نوبهم الحقيقي ، فقد الزعماء العرب المسلمين آخر أوهامهم . بدأت الحركة القومية العربية تنهض مرة ثانية ، ولأول مرة منذ بدأها اليازجى وبستانى كانت أغلبية أعضائها الرئيسيين من المسلمين . وفيما بين عامي ١٩٠٩ و ١٩١١ تكونت عدة جمعيات سرية عربية أهمها إثنان أولاً « القحطانية » وهو تنظيم نصب نفسه لفكوة الملكية الثنائية ، التركية والعربية ، على غرار إمبراطورية النمسا والمجر ، وبتمتع فيها القسم العربي باستقلال داخلي تام . وكانت الجمعية الثانية وتعرف باسم « الفتاة » تطالب للعرب بالحكم الذاتي الكامل في جميع الشؤون عدا الشؤون الخارجية والدفاع والمالية القومية .

وطالبت « الفتاة » من بنضوون تحت لوائها وحصلت منهم على وعد بالولاء حتى الموت بحماية أعضائها وخططها . ولكن برغم هذه الإحتياجات سرعان ما وجد فادتها إهتمام جواسيس رجال تركيا الفتاة شيئاً مزعجاً . فبعد موجة من المظاهرات العامة تأييداً لأهدافها ، في المراكز الرئيسية بالشام وفلسطين والعراق اضطرت « الفتاة » إلى التماس الأمان في باريس لتواصل عملها . وهنا عقد في أبريل ١٩١٣ مؤتمر عربي بغرض التعبير عن حقوق العرب . حاول الباب العالي الحيلولة دون انعقاد المؤتمر ، ولكن لما رفضت

الحكومة الفرنسية أن تتعاون ، أرسل مبعوثاً ليتباحث مع الثوار مباشرة . وكانت النتيجة صفقة صدقت عليها الاستانة فيما بعد ، وتقضى بأن تصبح العربية اللغة الرسمية في الولايات العربية من الإمبراطورية وأن يجرى تدريسها في جميع المدارس ، ونص على تمثيل العرب في وزارة السلطان ، وأن يكون لهم مزيد من الرأي في الحكم الإقليمي ، وكان هناك وعد مبهم بإصلاح نظام الإدارة كله في الإمبراطورية على أساس اللامركزية . ولكن في العام نفسه أصدر الباب العالي فرماناً بينما زعم أنه يصدق على اتفاق باريس ، كان في الواقع ينسخ أهم نصوصه وخاصة ما تعلق منها باللغة العربية .

راح رجال تركيا الفتاة الآن يضيفون القمع إلى الخديعة ، وقاموا بعمليات اعتقال بالجملة لمن يشتبهون فيهم من القوميين العرب . وكان من الضحايا الذين وقع عليهم اختيارهم البكباشي عزيز على المصري وهو شاب في هيئة أركان الحرب التركية ويجرى فيه الدم المصري والتركي ، فقبض عليه وحوكم بتهمة الخيانة . كان عزيز على في الأصل عضواً في جماعة تركيا الفتاة ولكنّه أخذ بالتدريج يفقد ثقته فيهم وانضم إلى « القحطانية » التي أصبحت بعد ذلك ، حركة سرية عسكرية وتغير إسمها إلى « العهد » . وكان أيضاً شخصية ذات شعبية كبيرة ، ووراءه سجل عسكري ودبلوماسي ممتاز . كان قد توصل إلى التسوية السلمية مع اليمن ، وساعد زعيم برقة السنوسي ، سيد أحمد في قتال الإيطاليين عندما غزوا ليبيا في عام ١٩١١ واستولوا على آخر ما تبقى للعثمانيين من ممتلكات في شمال أفريقية . وعندما قرروا أن هذا الوطن العربي المشهور ارتكب جريمة الخيانة وحكوا عليه بالإعدام ، إرتفعت صيحات الغضب ضد تركيا الفتاة ، فقامت المظاهرات في مسقط رأسه وهي القاهرة ، وأقسم الضباط العرب في الجيش التركي أن يفتقموا له إذا نفذ فيه حكم الإعدام ، وعندما انتقلت الضجة إلى الصحافة البريطانية قدم السفير البريطاني

في الآستانة احتجاجات لدى الباب العالي. وعُتدُّ أن يُبدل الحكم إلى الأعمال الشاقة لمدة خمسة عشر عاماً. ولكن واصل الزعماء الوطنيون العرب الضجيج والإثارة إلى أن ألغى الحكم في النهاية. عاد عزيز على ليستقبل استقبال الأبطال في مصر، وأعيد إلى منصبه في الجيش، وأصبح بعد وقت مفاش عام القوات المسلحة المصرية.

لقد ارتكب الباب العالي خطأ جسيماً، فبالأول مرة أثارت الجماهير العربية؛ وكانت هذه هي نقطة اللاعودة في بناء الثورة العربية. لقد بدد رجال تركيا الفتاة آخر فرصة أُتيحت لهم للوصول إلى تفاهم مع القوميين العرب. حتى الآن حافظ قادة العهد والفتاة على اعتدال مطالبهم، ولم يتحدثوا عن الانفصال، ووضعوا التأكيد على اللامركزية والاستقلال الداخلي في داخل النظام العثماني. ولكن حادثة عزيز على المصري التي جاءت تتوج إنكار الباب العالي لاتفاق باريس، أدت إلى تصلب الرأي العام العربي ضد أي تفاهم حذيد. والآن، وقد تحول الرأي العام العربي نحو الاستقلال التام، ظهر زعيم جديد في شخص أحمد سلاله النبي المباشرين وفي مكة مدينة النبي نفسه.

(٢٤)

الثورة العربية

منذ مقدم رجال تركيا الفتاة كان شريف مكة هو حسين بن علي من بني هاشم ، وكان يعود بنسبه إلى محمد عن طريق الحسن الإبن الأكبر لعلي وفاطمة . وفي أيام عبد الحميد أجبر الحسين وأبناؤه الأربعة - علي ، عبد الله ، فيصل وزيد - على أن يعيشوا في الآستانة بناء على أمر السلطان ، لأن عبد الحميد لم يكن يطمئن إلى هذا الهاشمي العنيد الذي كان على ما أبلغوه قومياً عربياً صلباً لا يلين . لكن نظراً لأن السلطان لم يكن ليَجْزُوْهُ على إعدام شخص نبيل كهذا ينتمي إلى بيت النبي ، أبقاه تحت بصره في بلاطه . ولكن تفكير رجال تركيا الفتاة كان مختلفاً عن هذا . فإذ خدع ضباط الجيش هؤلاء من ذوى البلادة والصلف ، بهيبة حسين الأخاذة وأخلاقه الحميدة ، ظنوا أن هذا العجوز المؤدب والوقور يمكن أن يستجيب إلى حركتهم إذا عينوه في منصب حكومي رفيع . في الولايات العربية . وفضلاً عن هذا ، جرت التقاليد بأن يكون شريف مكة هاشمياً من عقب النبي .

وسرعان ما أدركت الجماعة خطأها في تعيين هذا الهاشمي بنوع خاص . أميراً على مكة وذلك عندما بدأ حسين يؤكد سلطانه الشخصي على قبائل الحجاز خارج المدينة . وإذ راح رؤساء عتيبة وحرب وجهيمة وبني عطية والحوبطات ، والواحد بعد الآخر ، يعلنون ولائهم لشريف مكة ، راح رجال تركيا الفتاة يذكرون الحسين أن الحجاز هو تحت سلطانهم وليس تحت سلطانه ، وأن أهله يخضعون للتجنيد كى يؤدوا الخدمة العسكرية مع الجيش

التركي . عارض الحسين هذا المذهب فبعثوا بحاكم عام ليعزله . ولكن عندما هدد بأن يدفع القبائل إلى الثورة نكصوا على أعقابهم واضطر حاكمهم العام لا إلى الاتفاق فحسب مع الحسين ولكن إلى أن يقبل طرف رداء الشريف كعلامة على الخضوع والامتثال .

وهكذا حدث أنه عندما أخذ الشعور القومي العربي يغلي في بداية عام ١٩١٤ بسبب محاكمة عزيز علي ، وجد الشريف نفسه في مركز استراتيجي ، ومزوداً بالسلطة الروحية اللازمة وبتأييد القبائل ، بحيث يطرح النير التركي ويرفع لواء دولة عربية مستقلة . كان العنصر الوحيد الذي يفتقده هو المساندة المسلحة من جانب دولة كبرى وهذا ما راح الحسين يلتمسه من البريطانيين الذين أصبح خلال إقامته الاجبارية الطويلة في الآستانة ، يكن لهم إعجاباً قوياً بسبب معاملاتهم الدبلوماسية الزهية في الظاهر . كان مبعوثه الذي وقع عليه اختياره هو ابنه الثاني عبد الله الذي كان نائباً في البرلمان التركي . ورغم أن عبد الله لم يتجاوز الثلاثين من عمره إلا أنه كان دبلوماسياً ثاقب الفكر وسياسياً بطبيعته ، جعلته رغبة في الاستقلال متغلغلة في نفسه ، يرفض كل محاولة من جانب رجال تركيا الفتاة لشراء ولائه بمناصب عليا عرضوها عليه . وفي فبراير ١٩١٤ قام عبد الله بزيادة اللورد كيتشنر المعتمد البريطاني في القاهرة وحاكم مصر من حيث الواقع في ذلك الحين ؛ وبعد أن وصف كيف أن قبائل الحجاز أصبحتوا قريبين من الثورة ضد الباب العالي ، راح يتسامل في تحفظ وحذر عن الموقف الذي تتخذه بريطانيا إذا اشتبك العرب في قتال مع ساداتهم الأتراك . وأجاب كيتشنر بقدر كاف من الصحة أن بين بريطانيا وتركيا صداقة ترجع إلى وقت طويل ، وأنها — أي بريطانيا — لا تستطيع أن تتدخل في الشؤون الداخلية لممتلكات

السلطان (يظهر أن عبد الله تجنب في تلك الحالة أن يسأل عما تفعله بريطانيا في مصر !) .

ولكن أفكار كتشنر الخاصة لم تكن بالتأكيد محايدة وغير ملتزمة على نحو ما كان عليه جوابه الرسمي . لقد كان خلال الثلاثين عاماً السابقة يشهد بانزعاج متزايد تطور سياسة ألمانيا في « الزحف نحو الشرق » . فمنذ أن وصلت إلى تركيا بعثة عسكرية ألمانية لتدريب جيش السلطان ، وأعقبها بعد خمسة عشر عاماً زيارة قام بها القيصر ولهم الثاني إلى الآستانة للحصول لألمانيا على امتياز بناء السكة الحديدية التي تربط تركيا ببغداد ، بدا أن التهديد لمصالح بريطانيا الإمبراطورية يزداد حجماً وقرباً . من الجائز أن الغرض الذي كان عبد الحميد يستهدفه من وراء تشجيع ألمانيا ، كان يقتصر على دعم قبضته على ولاياته العربية ، ولكن في رأي كتشنر كان في إمكان الألمان فضلاً عن الأتراك أن يستخدموا سكة حديد بغداد وسكة حديد الحجاز للهجوم على مواصلات بريطانيا الإمبراطورية في الخليج الفارسي والبحر الأحمر وقطعها .

كذلك لم يكن هذا بالتهديد الوحيد الناشئ من ازدياد الصداقة التركية الألمانية . ففي حالة نشوب حرب بين بريطانيا وألمانيا كانت هناك إمكانية دخول تركيا في الحرب إلى جانب ألمانيا وإعلان « الجهاد » ضد الكفرة الذين يحتلون الأرض الإسلامية . ولو استجاب العرب لنداء من هذا القبيل لربما أصبح مركز بريطانيا في مصر وعدن — فضلاً عن موقف حليفتها الفرنسية الجديدة في الجزائر وتونس — معرضاً للخطر بل ويصعب الاحتفاظ به والدفاع عنه . وكان كتشنر قد أمضى وقتاً طويلاً في مصر والسودان في أثناء ثورة المهدي وبعدها بحيث لا يستخف بمثل هذا الاحتمال . والآن بدا أن ما يعرضه حسين بقميح إمكانية للقضاء على هذا التهديد ؛ ذلك أن الأتراك سوف يحتاجون إلى كسب ود حسين بن علي شريف مكة وأحد سلالة النبي

أكثر مما يحتاجون إلى أية شخصية أخرى في العالم الإسلامي ، كي يضمنوا استجابة واسعة الانتشار للدعوة إلى « الجهاد » أو على الأقل لأن قيام تفاهم بين بريطانيا والشريف سوف يحطم خططهم تماماً . وعلى ذلك بعث كقشمر برonald ستورس المستشار الشرقي في دار المعتمد البريطاني حينذاك ، ليرد الزيارة لعبد الله ويبقى على الاتصال معه ومع والده .

تحدث عبد الله الآن بصراحة تامة عن استعدادات والده وطلب بأسلوب جاد ، مدافع رشاشة من زائره . كان ستورس بالطبع مضطراً إلى أن يرفض هذا الطلب لنفس الأسباب الدبلوماسية التي سبق إبدائها . ولكن لم يكن عبد الله ووالده بحاجة إلى الانتظار طويلاً كي يتخذ كقشمر المبادرة بالنيابة عن الحكومة البريطانية . فعند نشوب الحرب بين بريطانيا وألمانيا بعث كقشمر الذي كان الآن وزير الحرب في بريطانيا ، برسالة إلى عبد الله يسأل عما إذا كان الشريف سوف يلتقي بدلوه مع الأتراك أو مع البريطانيين إذا انضمت تركيا إلى ألمانيا ضد بريطانيا . انتفت الآن التحفظات والمراوغات التي كانت تنسم بها المراسلات البريطانية السابقة . كانت بريطانيا في حرب مع عدو وميت وتحتاج إلى أن يكون العرب حلفاء لها . وهذه كانت الفرصة التي ظل حسين ينتظرها طويلاً .

برغم الترحيب الذي لقيته رسالة كقشمر التي وصلت إلى مكة في منتصف أكتوبر ١٩١٤ ، إلا أن طابعها الجاد والجاف شكل مشكلة بالنسبة إلى حسين . فبرغم أنه كان شخصياً يميل إلى بريطانيا ويتعرق شوقاً إلى الدخول في معركة مع الأتراك ؛ إلا أن أبناءه لم يشاركوه تماماً أفكاره . كان عبد الله يؤيده إذ علم عن طريق اتصالاته مع جميعي « الفتاة » و « العهد » أنه إذا دخل الأتراك الحرب فإن الشام والعراق على استعداد للثورة وانتزاع حريتهم بحمد السيف .

فاقتراح أن يكون الرد على رسالة كيتشنر هو السؤال عما اذا كانت بريطانيا سوف تضمن حصول العرب على الاستقلال اذا انضم الشريف اليها وهُزم الأتراك ولكن من الناحية الأخرى ، كان من رأى فيصل أن العرب قد يحصلون على مكاسب أكبر اذا انحازوا إلى تركيا . وإذ كان يسر بأفكاره هذه الى والده ؛ كان مقتنعا اقتناعاً راسخاً أن لبريطانيا وفرنسا نواياها بشأن الشام والعراق عندما يخرج الأتراك منها .

بمثل هذا الانقسام في رأى آثر حسين الانتظار . فأجاب على كيتشنر بأنه قد يجد في الإمكان دفع أتباعه المباشرين إلى الثورة بشرط أن تعد إنجلترا بالتأييد الفعال . ولكنه أكد أيضاً أنه لا يستطيع في هذه المرحلة أن يخرج على الحياد الذى يفرضه عليه مركزه كزعيم مسلم . وأجاب كيتشنر على هذه المذكرة فى ٣١ أكتوبر وهو اليوم الذى دخلت فيه تركيا الحرب الى جانب ألمانيا ، بأن أكد بشكل قاطع أنه مقابل تأييد حسين لبريطانيا ضد الأتراك فإنها سوف تضمن مركزه كشريف مكة وتؤيد جهود العرب فى الحصول على حريتهم . بل وكان هناك إيحاء بأن بريطانيا سوف تعترف بحسين خليفة لو بوع بهذا . تشجع حسين كثيراً وكان جوابه أكثر حرارة وأقل مراوغة عن ذى قبل . فبرغم أنه ظل لا يلتزم بصدد مسألة التوقيت ، إلا أنه أوضح أنه بمجرد أن يجمع قواته فسوف ينتهز أول فرصة ليوجه ضربته الى الإمبراطورية العثمانية . لم يكن كيتشنر ليختار وقتاً أفضل من ذلك الذى قدم فيه التأكيدات لشريف مكة . ففي ظرف أيام قلائل من إعلان الباب العالى الحرب على بريطانيا تصرف على النحو الذى تنبأ به ودعا جميع المسلمين الصادقين الى المشاركة فى الجهاد ضد بريطانيا وفرنسا . وأرسل المبعوثون الى جميع أنحاء الإمبراطورية . وإلى فارس والهند وأفغانستان لإثارة الحماس من أجل « الجهاد » . لسنابحاجة إلى القول بأنه بذل محاولة خاصة فى سبيل الظفر بالمساندة والاشتراك النشط

من جانب الحسين بن علي الذي ينتسب إلى النبي . ولقد بلغ من الأهمية التي كانوا يعلقونها على اجتذاب الشريف كي يشترك في الجهاد ، أنه حتى أكثر الأتراك وحشية وهو جمال باشا الذي كان والياً على الشام في ذلك الحين ، أغعض العين مؤقتاً عن تأمر^(١) الزعماء الوطنيين الشاميين خشية إزعاج حسين وأصدقائه . ولكن جميع هذه الجهود كانت عديمة الجدوى . فبخلاف جانب من الرأي الإسلامي المحافظ في الهند ، لم يستجب للدعاء سوى إمام اليمين وزعيم قبيلة شمر وهو ابن الرشيد من أهل نجد ، وكانا يعتمدان على الدعم التركي لشن حرب عصابات قبلية ضد الوهابيين . أجاب حسين الذي كان ممتازاً دائماً في معاملاته مع الأتراك ، على الرسائل التي بعث بها إليه أنور باشا رئيس وزارة تركيا وجمال باشا حاكم الشام يحثانه فيها على الاشتراك ، نقول إنه أجاب بأنه بينما يؤيد الجهاد تأييداً كاملاً ويتمنى له كل نجاح إلا أنه لا يستطيع أن يقول هذا علناً لأن بريطانيا سوف تحاصر ساحل بلاده وتجميع شعبه . وفي هذه الأثناء كان يجمع قواته وأبعد أية تساؤلات من جانب الأتراك تم عن إرتياحهم ، بأن رجال القبائل التابعين له كانوا يدر بون على القتال إلى جانبهم بمجرد أن يشعروا أنهم على قدر كاف من القوة يمكنهم من تحدى البريطانيين الكفار .

لم يطل الوقت بالأتراك كيف يدركوا حقيقة مناورات الشريف ولسكنهم كانوا عاجزين عن عمل أي شيء لمواجهة لها . ولقد بذلت محاولات لاستخدام اسمه زوراً في البيانات العامة وفي المظاهرات التي تنظمها السلطات ، ولكنها جميعاً أخطأت الهدف بسبب عدم وجود أي تأكيد لها من مكة . وفي فبراير من عام ١٩١٥ ، قرر الباب العالي الذي تملكه اليأس الآن ، أن يعمل على اغتيال حسين . ولكن الشريف الذي كان جواسيسه لا يقلون عن جواسيس الأتراك مهارة ، سرعان ما نفى

(١) ناقشنا موضوع التأمر في ص ٣٧٤ (حاشية ، رقم ١) ، — المنزجم .

إليه خبر المؤامرة على حياته . فأرسل فيصل بمهمة ظاهرية هي الاحتجاج لدى رئيس النظار شخصياً على هذا الغدر ، ولكنه بعث به في الواقع لإجراء اتصال برجال « الفتاة » و « العهد » إذ كان حسين قد علم قبل ذلك بقليل من مبعوث سرى أن الزعماء العرب في الشام والعراق على استعداد لتوجيه الضربة وينتظرون التأكيد بأنه سوف يقود الثورة ضد الأتراك باعتباره شريف مكة الأعظم .

وفي الطريق إلى الآستانة نجح فيصل في إجراء الاتصالات اللازمة مع الجمعيات السرية العربية . سواء كان الوصف الذي قدمه فيصل إلى والده عن موقف الزعماء الوطنيين في الشام دقيقاً أو كان انعكاساً لشكوكه في نوايا البريطانيين والفرنسيين ، فهو قد أبلغ والده أن من رأى رجال جمعيتي الفتاة والعهد ، أن الخروج على تركيا يعني الوقوع في شرك إنجليزى — فرانسى وأنهم يفضلون البقاء على الحياد . وعندئذ ، عند عودته إلى دمشق بعد أن قدم احتجاج حسين إلى أنور باشا في الآستانة ، قدمت إليه مذكرة جعلت من الواضح أن رجال الجمعيتين لن يلتزموا بثورة سافرة ضد الأتراك بدون ضمانات بريطانية بشأن استقلالهم . هذه المذكرة التي حملها فيصل معه إلى مكة في مايو ، كانت تطالب بريطانيا بأن تعترف باستقلال سوريا ولبنان وفلسطين والعراق وشبه الجزيرة العربية باستثناء عدن ، وأن تعقد محالفة دفاعية مع الدولة العربية المستقلة التي سوف تتكون في داخل هذه الأراضي .

والآن وجدت الورطة التي كان فيها حسين حلاطياً . لقد حصل على تبنى الزعماء الوطنيين السوريين لثورة عربية ضد تركيا بشرط الحصول على أدق الضمانات البريطانية ، وأصبح الآن في مركز يسمح له بتقديم شروطه إلى بريطانيا وهو يتحدث باسم « الشعب العربى » ، ومن ثم كتب في ١٤ يولييه ١٩١٥ إلى السير هنرى مكماهون الذى خلف كفشتر في مصر ، ودعاه إلى

الموافقة على الشروط التي تضمنتها مذكرة دمشق . وأضاف إلتماساً بأن تؤيد بريطانيا « إعلان خلافة عربية للإسلام » نظراً لأن ككتشنر نفسه سبق أن أثار المسألة معه .

في هذه الأثناء ، وكجزء من الخطة البريطانية لإحباط الجهاد الذي دعا إليه السلطان ، أصدر مكماهون وبناء على تعليمات من لندن ، تصريحاً عاماً أعلن أن بريطانيا على استعداد للاعتراف بشبه الجزيرة العربية دولة عربية مستقلة ولها السيادة على مكة والمدينة . ولكن نظراً لأن التعليمات التي تلقاها لم تقل شيئاً في هذه المرحلة من سوريا ولبنان وفلسطين أو العراق وإنما تحدثت عن شبه الجزيرة العربية بعبارات غامضة ، لم يكن في مقدور مكماهون أن يقبل التعاريف المحدودة للاستقلال العربي التي وصفها الخطاب الذي كان قد بعث به الشريف ، وعلى ذلك كان رده على الشريف مراوفاً . فبينما أيد تأكيدات ككتشنر العامة بشأن التأييد البريطاني ، أعلن وسط مجموعة من الجاملات والتحيات المزوقة التي لم يتوقعها حسين ولم يعابها ، أنه لا يمكن توقع أن تحدد بريطانيا الحدود الدقيقة للاستقلال العربي بينما هي مشتبكة في حرب .

ولكن الشريف لم يكن ليُخدع بمثل هذه السهولة وأوضح في مذكرة جديدة أن الدقة بالنسبة إلى الحدود شرط لا غنى عنه بالنسبة إلى أى اتفاق . وفي لهجة جافة طلب من مكماهون أن يدخل في صلب الموضوع وقال إن هدفه هو « ضمان الحصول على الشروط الجوهرية اللازمة لمستقبلنا ، على أساس من الواقع وليس من العبارات والألقاب المزوقة إلى حد كبير » . وفي أكتوبر ١٩١٥ بعث مكماهون برد أكثر دقة ؛ فقال إن بريطانيا سوف تعترف باستقلال المناطق الواردة في مذكرة الشريف السابقة باستثناء مناطق معينة في الشمال الغربي والشرق زعم أنها إما لم تكن « عربية بحتة » أو تتطلب

ترتيبات خاصة لحماية المصالح البريطانية . وحددت هذه المناطق على أنها :
 (١) مرسين والأسكندرونة في كيليكيا ، (٢) لبنان وسوريا غربي خط
 يمتد بين حلب ودمشق ، و (٣) جنوب العراق من بغداد إلى البصرة .
 تبودلت مكاتبات أخرى عارض فيها حسين بحرارة في استبعاد أية
 أراضٍ لبنانية أو سورية وعبر عن شكوكه في قيام إدارة إنجليزية — عربية
 في العراق . ولكن إذ لم يدع مكماهون في شك في أن العرب يطلبون
 الاستقلال للشام كلها ، وافق في نهاية الأمر على تأجيل اتخاذ قرار بشأن
 الحدود إلى ما بعد الحرب وعلى أن يركن إلى حسن نية بريطانيا . واحتقمت
 المراسلات بخطاب من مكماهون لاحظ فيه بصورة تنم عن الرعاية نوعاً « أننا
 لا نشك في حقيقة أنكم تعملون لخير الأمة العربية وبدون أى دافع خفي أياً
 كان » ، ثم راح يبلغ حسين أنه فيما يتعلق بالأقاليم المحتفظ بها في
 الشام وكيليكيا فإن على بريطانيا أن تأخذ مصالح الحلفاء الفرنسيين
 في الحسبان .

كان حاصل هذا كله بعيداً جداً عن التعريفات الدقيقة التي تضمنتها
 مذكرة دمشق . وبرغم أنه مامن شيء يمكن أن يبرر ما عمدت إليه بريطانيا
 وفرنسا فيما بعد من خيانة العرب باتفاق سيكس — بيكو السري وتصريح
 بلفور ، إلا أنه يبدو من الخارق للمألوف أن يعتبر الشريف هذه المراسلات
 المتبادلة ضماناً وافياً يبدأ على أساسه الثورة العربية . إن من أغرب المفارقات
 في هذه القصة أن رجلاً استطاع أن يتعامل مع الأتراك بمثل هذه المهارة
 والحدق ، ظهر بمثل هذه الدرجة من التصديق في معاملاته مع البريطانيين .
 ولكن من الواضح أن حسين كان يريد أن يصدق إحساس بريطانيا باللاعب
 النظيف لأنه كان يريد الثورة التي كانت تعتمد اعتماداً كلياً في نجاحها على
 الإمدادات من الأسلحة والذخيرة البريطانية .

وإذ سارت الإستعدادات للحرب قُدُماً في الحجاز أخلت سياسة قفاز
الحرير المؤقتة التى انتهجها جمال إزاء القومية العربية مكانها لتحل محلها
تكتيكات أشد عنفاً . فطلب جمال من بين أشياء أخرى ، إرسال فيصل إلى
دمشق ليكون رهينة تضمن حسن سلوك العرب . رأى حسين أن من الحكمة
الامتثال لهذا الأمر بدلا من المخاطرة بمواجهة مع الأتراك قد تُجبط خططه .
ونجحت الخدعة مؤقتاً وركن الأتراك إلى سلبية نسبية . ولكن في مايو
١٩١٦ طار صواب جمال ويرجع هذا إلى حد كبير إلى ما أحس به من الإحباط
بسبب إخفاق الجيوش التركية فى الاستيلاء على مصر ، وإخفاقه هو فى القضاء
على المتآمرين السوريين الرئيسيين . فإذا كان لم يتمكن من الكشف عن قادة
الفتاة والعهد ، فسوف يستخدم الإرهاب بلا تفرقة أو تمييز لتخويفهم . وعلى
ذلك قُبض على واحد وعشرين من المواطنين البارزين فى دمشق وبيروت ولم
تكن لبعضهم أية علاقة بأية جمعيات قومية عربية ، وأعدموا شنقاً فى السادس
من مايو ١٩١٦ .

هذه المحاولة الهمجية لردع المقاومة العربية بعد ذلك ، ارتد سهمها إلى صدر
جمال ، فتحول حياد فيصل فجأة إلى رغبة ملحة فى القتال . وعلى حد تعقيب
جورج أنطونيوس « أياً كانت الشكوك الباقية فى ذهنه بصدد حكمة الخروج
على الأتراك ، فإنها زالت الآن وانقلبت إلى إحساس عنيف بالنفور ،
وأصبحت العبارة التى انطلقت من فمه عند سماع خبر عمليات الإعدام [حلالاً
الموت أيها العرب] صيحة الحرب التى رددتها الثورة العربية » . فإذا خدع
جمالاً فسمح له بمغادرة دمشق بدعوى قيادة قوة من العرب الذين تطوعوا
للخدمة فى الجيش التركى ، الذى كان على وشك مغادرة المدينة المنورة ،
شخص الأمير لينضم إلى والده . وفى هذه الأثناء كان قدرتب مع حسين أن
تبدأ الثورة العربية فور عودته إلى الحجاز . لم يشأ الشريف أن يتأخر لحظة

أكثر من ذلك لأن جمالا كان قد أبلغه أن قوة تضم ثلاثة آلاف وخمسمائة من الألمان والأتراك كانت في طريقها لتقوية الحاميات العثمانية في جنوب بلاد العرب .

فلما وصل فيصل إلى المدينة المنورة وجد أن الألمان من أفراد القوة والذين لم يُسمح لهم باتخاذ الطريق المباشر عبر مكة لأنهم من غير المسلمين ، راحوا يتقدمون من جديد عن طريق ينبع الواقعة على الساحل . أما وقد تبدد هذا التهديد وأصبح فيصل في مأمن من قبضة جمال ، أصدر حسين الأمر إلى قبائل الحجاز كي تضرب ، وأعلن الاستقلال العربي ، وفي ١٠ يونيو هوجمت الحامية التركية في مكة بنيران البنادق . استمرت المعركة طيلة ثلاثة أسابيع ، وكان الأتراك يردون بالمدفعية التي لم يملك رجال حسين شيئاً منها . ولكن عندما أرسلت بطاريتان مصريتان من المدفعية على عجل من الجيش البريطاني في مصر، تعرض الأتراك لضرب المدفعية فسلموا المدينة في ٩ يولييه ، وبمقدار أسبوع سقطت جدة في أيدي قوات الشريف ، وتوجه عبد الله للاستيلاء على الطائف حيث كانت الحامية التركية الرئيسية تُصيّف في جو الجبال البارد . وما أن حل سبتمبر حتى سقطت رابغ وقنفدة على الساحل ، كما سقطت ينبع حيث أحيط بالقوة الألمانية بسرعة وسلمت إلى وحدة بحرية بريطانية تساعد الزحف العربي على طول ساحل البحر الأحمر .

دارت عجلة التاريخ دورة كاملة . إن مكة التي سبق أن خرجت لتفتح الأراضى العربية الشمالية وتسحق المحتلين من الروم والفرس ، عادت من جديد فأطلقت شرارة الثورة التي سوف تشعل حماس العرب وتطرد الاضطهاد الأجنبي من أراضيهم .

لم يعرف الهياج الذي تملك جمالا بسبب هذه النجاحات العربية حدوداً ، فأطلق الآن على الشام حملة من الإرهاب جعلت الفظائع التي ارتكبتها قبل

ذلك ، تبدو كلعب الأطفال . فقُبض على المواطنين العرب البارزين وعُذبوا في محاولة مجنونة للكشف عن أسرار الجمعيات الوطنية . وبينما لم يكن لدى الكثيرين من هؤلاء التعمساء أسرار قومية يكشفون عنها ، فإن الذين وقعوا في شباك جمال من أعضاء جمعيتي الفتاة والعهد ، حافظوا على ما أقسموا عليه من التزام السرية ، وفعلوا ذلك برغم التعذيب رهيب . فقد أُسيئت معاملته شكرى القوتلى الذى سوف يصبح فيما بعد رئيساً لسوريا الحرة ، حتى أنه حاول الانتحار خشية أن ينهار إذا ما تعرض لمزيد من العقاب . ومات آخرون بفعل التعذيب أو نجحوا في أن يقضوا على حياتهم بأيديهم . ومع ذلك ، وعندما جرب رجال محاكم التفتيش التركية كل نوع من القذائف عرفوه ، ظلت أسرار الجمعيتين مصونة وسليمة ، وفي النهاية أوقفت عمليات تعذيب وإعدام زعماء سوريا العرب بعد أن هدد فيصل بالثأر من الضباط الأتراك الذين أسروا في مكة والطائف .

ولكن جمالاً لم يكن قد انتهى بعد . فإذا كان لم يتمكن من القضاء على الوطنيين فسوف يتخذ من التجويع سلاحاً لإضعاف قوى الشعب . كانت المجاعة قد بدأت في أجزاء من سوريا الكبرى لأن الجراد دمر المحصول في الربيع السابق ، فأصدر جمال الآن أوامر بعدم السماح بشراء القمح في جميع المناطق التى يُشتبه في تعاطفها مع ثورة الشريف . أخذ الناس يموتون ، أولاً بالملئات ثم بالآلوف وعشرات الألوف . وأصمَّ الأتراك آذانهم عن جميع توسلات البلاد الحايطة التى كانت شديدة الرغبة في تخفيف الآلام ، بل ورفضوا السماح للصليب الأحمر الأمريكى بإرسال الإمدادات . ويقدر أن نحو ٣٠٠.٠٠٠ نسمة ماتوا من الجوع في الممتلكات التى كانت تحت حكم جمال باشا . كان ذلك نصراً فرسياً^(١) للأتراك ولكنه حقق الغرض منه

(١) أى يقرب من الهزيمة - المترجم .

فيما يتعلق الأمر بسوريا . ذلك أنه عندما جاء نداء الشريف إلى ثورة عربية عامة لم يكن السوريون في حالة تسمح لهم بالاستجابة له .

لم يكن التجويع بالشئ الوحيد الذي منع العرب في خارج الحجاز من التعاون بكل قلوبهم مع حسين . فقد كان يحيى إمام اليمن وابن الرشيد زعيم شمر قد أعطيا العهد بمساندة الأتراك . وكان السنوسى في برقة وقبائل دارفور في السودان أكثر اهتماماً بمقاومة الاحتلال الإيطالى والبريطانى منهم بطرح النير العثمانى . وفى نجد ، بينما كان ابن سعود يتحدث في بلاغة من أجل الثورة وذلك مؤتمر عربى عقد في الكويت ، فإنه انتهج سياسة رائعة من الجود لأسباب داخلية من جهة ، ومن جهة أخرى لأنه بعد وقوع اشتباك مرير على الحدود مع السعوديين قبل ذلك بخمس سنوات ، كان حسين الآن من الحماقة بحيث يعلن نفسه « ملك البلاد العربية » . وجد ابن سعود في هذا قدراً كثيراً من الوقاحة . . ولكن رغم أن الحكومة البريطانية رفضت الاعتراف بأن الشريف ليس أكثر من « ملك الحجاز » أصر حسين على استخدام اللقب الأفخم في معاملاته مع جميع جيرانه . وكان ابن سعود يتعرض للالهانة بصفة دائمة ، فصمم مع الآن فصاعداً على أن يسحق الهاشمى الطموح لدى أول فرصة .

كذلك فإن إدعاء حسين السيادة على جميع العرب أبعد عنه عدة من قبائل سوريا والأردن . وكان حيادهم المترتب على ذلك ، عاملاً حاداً بشدة من قوى الثورة العربية في أوائل مراحلها الحرجة وثبت فكرة الشكك من رجال القيادة العليا البريطانية في مصر ، عن أن حرب الشريف عملية جانبية تافهة لا تستأهل سوى تأييد رمزى . ولم يساعد على إثارة التأييد القبلى الذى يكفى لمواجهة التقدم العربى من الحجاز صوب الشمال ، إلا الجهود التى لا تسكل التى بذلها فيصل الذى كان مصمماً الآن على أن يرى الأتراك وقد اندحروا ،

والتدخل في الوقت المناسب من الشيخ عودة أبي طي زعيم الحويطات وسيد الأردن من معان إلى العقبة . وجاءت نقطة التحول في يولييه ١٩١٧ عند ما تم الاستيلاء على العقبة بحركة التفاف بارعة قادها عودة ولورنس الذي جعلته أعماله الجيدة الخارجة عن المألوف عند ما كان مستشاراً بريطانياً لفصيل ، من أبطال الحرب العالمية الأولى الذي أصبحوا شخصيات أسطورية ووضاءة . استيقظت القيادة العليا الآن على حقيقة أن في الإمكان توحيد العرب لتكوين قوة محاربة ذات قيمة حقيقية ويعتمد عليها لحصر الأتراك شرقي نهر الأردن بينما يتقدم الجنرال اللنبي شمالاً عن طريق فلسطين . وبفضل التدخل الذي لا يكل من جانب لورنس لدى أركان حرب اللنبي ، أصبحت جيوش الشريف تزود من الآن فصاعداً بكل ما تحتاج إليه من مدافع ومال كي تتقدم إلى سوريا ، ولما ذاعت الأخبار في الصحراء عما حققوه من نجاح استطاعوا أن يجمعوا تحت لوأهم المترددين من أبناء القبائل الشمالية .

بعد ذلك أصبح الزحف سباقاً بين العرب وجيوش الحلفاء للاستيلاء على دمشق . توافر لفصيل الآن الدليل على أن البريطانيين والفرنسيين يعتزمون أن يسرقوا من العرب حريتهم بمجرد أن يطرد الأتراك ، وكان مصمماً على تأكيد حقوق والده بالاستيلاء على دمشق بجيشه هو . وكسب السباق بأيام قلائل في أول أكتوبر ١٩١٨ ، ودخل العاصمة السابقة لإمبراطورية بني أمية العظيمة ، ليستقبله أهلها استقبالا جنونياً .

كان فيصل ورجاله يستحقون ما استقبلوا به من ترحيب . فلم يقف الأمر به عند حد أنه كسب السباق مع البريطانيين وطرد الأتراك المكروهين من دمشق ، ولكن جيوشه وكانت مزيجاً من جنود نظاميين عرب هربوا من الجيش التركي ، ومن أهل القبائل البدو من لم يكونوا يحدقون إطلاقاً فنون الحرب الحديثة ، هذه الجيوش قطعت مسافة ألفي ميل عبر البعض من أكثر

صحارى العالم وعورة وجفافاً ، وشتت حركة الجيش الرابع التركى بأسره بين المدينة المنورة ودمشق ، وقتلت أو أسرت ما يزيد على ٣٥٠٠٠ من جنود العدو أو أبقتهم محصورين فى حاميّاتهم على طول سكة حديد الحجاز . وخلال كل الزحف الذى قام به العرب من العقبة شغلوا من الأتراك عدداً لا يقل عن شغلتهم قوات اللنبي ، وحوالى النهاية وبحركة حرب عصابات بارعة ضد مواصلات العدو بالسكة الحديدية مع دمشق ، نجحوا بالفعل فى قطع الجيش التركى عن إمكانية الحصول على تعزيز ضد تقدم اللنبي من بيت المقدس .

كان لإنجازاً رائعاً ومثيراً ، جديراً بخالد بن الوليد وغيره من الفاتحين العرب الأوائل . وتتويجاً للجهّد الذى بذل ، استسلمت الامبراطورية العثمانية بعد ذلك بأربعة أسابيع ، فى ٢٩ أكتوبر ١٩١٨ ، أى بعد أربعين سنة تقريباً منذ أنزل سليم الخفيف الهزيمة بالمماليك وأضاف الشام ومصر إلى أملاك السلطان التركى .

(٢٥)

الغدر بالعرب

بالنسبة إلى فيصل نفسه فإن لحظة الانتصار عندما وصل العرب إلى دمشق، كانت مناسبة لا يتهاج تام. كان الأمير الشاب يواجهه الكثير من الصعاب والشكوك والخاوف. فمن جهة، هناك مشكلة تحويل رجال القبائل الذين نشأوا على رفض ومقاومة أى نوع من السلطان، إلى مواطنين ينزلون على أحكام القانون، وإقناعهم بأن يتقبلوا بقاء الموظفين الذين كانت خبرتهم في الإدارة في ظل الأتراك، أساسية للمحافظة على الحكم المنظم. ومن جهة أخرى فإن الشكوك التي كانت تساوره في أن بريطانيا وفرنسا تعترضان الدخول عندما يخرج الأتراك، دعمها لإزاحة الستار عن اتفاق سايكس - بيكو وإصدار الحكومة البريطانية تصريح بلفور.

كان اتفاق سايكس - بيكو وثيقة مخجلة إذ كشف عن أنه بمجرد أن ختم مكهاون مفاوضاته مع الشريف حسين بدأت الحكومة البريطانية مباحثات سرية مع الفرنسيين لتقرير كيفية تقسيم الهلال الخصيب الذي يشمل العراق وسورية الكبرى بين بريطانيا وفرنسا. وكما أظهرت السنوات المائة الأخيرة، لم يتأخر الأوروبيون عن اقتطاع ما يشاءون من الدولة العثمانية الآخذة في الانحلال. فانتزعت فرنسا الجزائر وتونس ومراكش، واستولت إيطاليا على ليبيا، واحتلت روسيا أجزاء من أرمينية، واستولت بريطانيا على مصر وقبرص وعدن ومشيجات الخليج الفارسي^(١) ولما دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا رأت الدول الكبرى المتحالفة أنه ما تزال أمامها فرص للاستعواذ على الأرض بعد أن مكنها النصر من تمزيق الإمبراطورية العثمانية.

(١) الخليج العربي - المترجم

أرادت روسيا أن تأخذ الآستانة والبوسفور على نحو ما كانت رغبته في أيام محمد علي ، ورغبت فرنسا في سوريا وهي البلد الذي كانت مرتبطة به تجارياً منذ أوائل أيام الامبراطورية العثمانية والذي كانت تحس إزاء النصارى من أهله بمسئولية ثقافية ودينية ترجع إلى أيام الحروب الصليبية. وكانت بريطانيا والحكومة البريطانية في الهند تريدان الحصول على فلسطين والعراق والخليج الفارسي من الكويت إلى مسقط .

وهكذا بعد أن سطر مكماهون خطابه الأخير إلى حسين بأربعة أشهر ، بدأ السير مارك سايكس بالنيابة عن بريطانيا والمسيو جورج بيكو نيابة عن فرنسا يرسمان خطة تقسيم الامبراطورية العثمانية. فتقرر أن تحصل روسيا المتحالفة الآن مع بريطانيا وفرنسا ، على الآستانة والبوسفور فضلاً عن جزء كبير من شرق الأناضول ، وأن يكون لفرنسا الشام كلها ومنطقة الموصل بالعراق وجزء من جنوب الأناضول ، وكوفئت بريطانيا ببقية العراق . أما فلسطين التي كانت تدعيها كل من فرنسا وبريطانيا ، فتقرر وضعها تحت إدارة دولية غير محددة المعالم . إلا أنه في الكتب المتبادلة بين مكماهون والشريف فإن المناطق التي سوف تستبعد من ضمان بريطانيا للاستقلال العربي، قد ذكر بوجه خاص أنها « جهات مرسين والأسكندرونة ، وأجزاء من سوريا تقع إلى الغرب من نواحي دمشق وحمص وحماه وحلب » و« ولايتي بغداد والبصرة » . لم يذكر مكماهون أبداً في أى من خطاباته إلى الشريف مكة ، شمال العراق وبقية سورية شرق دمشق وحلب . وعلى ذلك كان للعرب الحق تماماً في أن يعتبروا جميع هذه الأراضي داخلية في منطقة الاستقلال التي قبلتها بريطانيا .

راح اتفاق سايكس — بيكو يضيف الغباء إلى الخداع ، بتقسيم مقلوب للشام والعراق إلى مستعمرات ومحميات شبه مستقلة . في ظل هذا التقسيم تقرر أن توضع مدن تاريخية ولها ثقافتها وتقدمها من قبيل بيروت وبغداد والبصرة ،

تحت الحكم الاستعماري الفرنسي أو البريطاني المباشر . أما بقية الشام والعراق التي تتكون إلى حد كبير من الظهير الصحراوي الذي يقطنه بدو بدائيون ، فسمح لها بوضع شبيه بالاستقلال الداخلي ، بوصفها محميات فرنسية وبريطانية . « كان ذلك » على ما لاحظ جورج أنطونيوس « أشبه بإرسال البالغين إلى المدرسة وإخراج تلاميذ المدارس الأولية إلى معترك الحياة » . مثل هذا الترتيب الأحق أظهر بوضوح أن الدول الغربية لم تعرف ولم تهتم بتقاليد الشام والعراق الثقافية ؛ كانت تحابي البدوي البدائي ولكنه رومانسي في نظرها ، على حساب السوريين والعراقيين المتحضرين الذين كانت جذورهم التعليمية تكمن في يونان أفلاطون ، والذين ساعد احتفاظ أسلافهم بالثقافة الهيلينية والفارسية القديمة على إخراج أوروبا من العصور المظلمة .

كانت بريطانيا قد نكثت بما عاهدت عليه حسين ، وحتى تزداد الأمور سوءاً لم يبلغ حسين بشيء معين عما دبره المستر سايكس والمسيو بيكو . رغم أن هذين السيدين زاراه في جدة بعد عام من التوقيع على الاتفاق الذي تم بينهما . العذر الوحيد الذي قد يقدم لتبرير هذا النفاق هو أن وكالات شتى في الحكومة البريطانية مسئولة عن السياسة في الشرق الأوسط كانت تعمل داخل حجرات محكمة الأبواب والمنافذ . فلم تعرف اليد اليسرى ما عمله اليد اليمنى . ولكن رغم أن مثل هذا التفسير قد يبرر مسئولين حكوميين من أمثال مكماهون وسايكس من تهمة الخداعة ، إلا أن شخصاً على المستوى الأعلى لا بد أن عرف ما كان يجري ولا بد أنه أدرك أن بريطانيا كانت تخون العرب من أجل إرضاء مطالب حليفها الفرنسي في الشام وإرضاء مصالحها التجارية في العراق . وأكثر من هذا ، فإن أي شخص عرف ما كان يجري ، كان يجب أن يدرك أن الصفقة التي تمت بين سايكس وبيكو لا يمكن أن تبقى سرية

إلى أجل غير مسمى وأنه كلما طال الوقت الذى تخدع فيه بريطانيا الحسين زاد إحساسه بالإساءة عندما يقسرب السر في النهاية .

وجاء القسرب عندما استولى البلاشفة على السلطة في روسيا في عام ١٩١٧ ، وفي محاولة متعمدة لإرباك حلفاء النظام القيصري أذاعوا على العالم شروط الاتفاق الإنجليزى — الفرنسى . لم يبطئ جمال باشا في استغلال هذه الفرصة ليدق إسفيناً بين الشريف الغاضب وحلفائه . ففي خطاب بعث به إلى فيصل في نهاية نوفمبر ١٩١٧ اقترح أن يتخلى العرب الآن عن شركائهم الأوربيين الغادرين وينضموا إلى تركيا ، فإذا فعلوا ذلك فسوف تضمن لهم الإمبراطورية العثمانية أكل استقلال داخلي بعد الحرب . تشاور فيصل مع حسين الذى طلب بدوره المشورة من ونجيت الذى كان الآن المندوب السامى في مصر مكان مكماهون . وبناء على تعليقات من لندن نقل ونجيت إلى حسين رسالة من ا. ج. بلفور وزير خارجية بريطانيا زعمت أن الأتراك « شوهوا » بسوء نية « الغرض الأسمى من التفاهم بين الدول الكبرى وتفاوضوا عما تضمنه من شروط تتعلق بموافقة الشعوب المعنية وحماية مصالحهم » ؛ وأن الثورة العربية « خلقت منذ وقت طويل موقفاً مختلفاً كلية » . وبعبارة أخرى يستطيع العرب أن يطمئنوا إلى أن الاتفاق سوف يعدل تعديلاً كبيراً لصالحهم . وقد قاتلوا الآن بمثل هذه القوة للظفر بحريتهم ولمساعدة بريطانيا في تحطيم العدو المشترك » .

أما أن يوقع أى وزير خارجية بريطانى باسمه على رسالة كاذبة كهذه فأمر أقل بعثاً على الدهشة من أن يكون حسين بمثل هذه الدرجة من الساذجة بحيث يقبل هذه التأكيدات بدون أن يصر على الإطلاع على نص اتفاق سايكس — بيكو . لو أنه أصر على هذا لرأى أنه لم تسكن هناك كلمة عن « موافقة الشعب المعنية » وأن الوثيقة بأكملها كانت موجهة نحو تنمية

خطط بريطانيا وفرنسا والروسيا على حساب الاستقلال العربى . وعلاوة على هذا فلا بد أن بلفور كان يعرف أن فرنسا لن توافق أبداً على أن العرب كسبوا الحق فى تعديل الاتفاق لصالحهم ، وكان يعلم علم اليقين أن بريطانيا ليست لديها نية التخلي عن دعاويها فى العراق . وأما فيما يتعلق بفلسطين فإنه قبل ذر هذا الرماد فى أعين حسين بثلاثة أشهر فقط كان قد أصدر فى نوفمبر ١٧ ١ تصريح بلفور الشهير الذى تعهد فيه بتأييد بريطانيا لإنشاء «وطن قومى» لليهود فى فلسطين ، مع دافع خفى هو إقامة إدارة استعمارية بريطانية وقواعد عسكرية بريطانية فى ذلك البلد .

لم تسكن بريطانيا راضية على الإطلاق عن الترتيبات «الدولية» المهمة بشأن فلسطين والتي تضمنتها صفقة سايسكس — بيكو . كانت هذه الترتيبات كافية فى ذلك الوقت لعرقلة دعاوى فرنسا فى الحصول على نصيب من الأرض الفلسطينية . ولكن كانت لفدن الآن تحس إحساساً قوياً بأنه لو قام نظام حكم دولى لما وفر أمناً كاملاً لقناة السويس ومصالح بريطانيا البحرية وهو الأمن الذى كان يتطلب سيطرة بريطانيا على فلسطين فضلاً عن مصر . وفى فبراير ١٩١٧ فإن الذريعة التي تريد بريطانيا أن تستند إليها فى النكوص عن الترتيب «الدولى» ، تجلت فى شكل حملة شنّها الدكتور حاييم ويزمان من أجل إنشاء دولة يهودية أو «وطن قومى» كما دعت من باب تلميط التعبير ، فى فلسطين .

بطريق الصدفة كان ويزمان الذى كان الآن محاضراً فى مادة الكيمياء بجامعة منشستر ، يقيم فى دائرة بلفور الانتخابية ، وظل وقتاً ينعم بصداقة فكرية وثيقة مع وزير خارجية بريطانيا . هذان الدهنان اللامعان سرعان ما أدركا كيف تستطيع الصهيونية والإمبريالية البريطانية أن تخدم كل منهما مصالح الأخرى . وكان ويزمان من بين الصهاينة الذين تسلطوا على تيمودور هرتزل

مؤسس الصهيونية عند ما أراد في عام ١٩٠٣ قبول ما عرضته الحكومة البريطانية من تقديم أوغندة لتكون وطناً للشعب اليهودي . والآن رفض وايزمان في صلابته النظر في أى بديل عن فلسطين، بسبب صلات الشعب اليهودي التاريخية بتلك الأرض قبل العصر المسيحى^(١) ولهذا السبب كان يعارض بحزم، وعلى نحو ما أصبحت الحكومة البريطانية تعارض بعد ذلك فيما اقترحه اتفاق سايكس — بيكو بشأن قيام نظام دولي . وجعل من الواضح جداً أيضاً لصديقه بلفور أنه سوف يحصل على تأييد الصهيونيين لقيام محمية بريطانية في فلسطين إذا أيدت بريطانيا المطالب الصهيونى . وعلى أساس هذا التفاهم أعلن بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧ أن بريطانيا سوف « تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومى في فلسطين للشعب اليهودي » ثم أضاف محادداً الأغلبية العربية الساحقة في فلسطين ، أنه « لن يعمل شيء يمكن أن يسيء إلى الحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية الموجودة في فلسطين . . . » .

وإذ جاء تصريح بلفور في نفس الوقت تقريباً الذى سرب فيه البلاشفة إتفاق سايكس — بيكو ، فإنه أحدث قزعاً في العالم العربى . اضطرب حسين اضطراباً عميقاً وطلب على الفور من حليفه البريطانى تفسيراً عما بدا من أن فلسطين مهددة بالاستعمار من الخارج مع أنها في مراسلات مكماهون ، لم تكن متضمنة أبداً في المناطق « المحتفظ بها » . هنا كان الشريف سيخدد ثمانية بالتأكيدات الباطلة . فبعثوا إلى الحجاز بالكومودور هو جارت وكان من أعضاء المكتب العربى في القاهرة وحجة في التاريخ العربى ، ليلبغه بناء على تعليمات من لندن أنه « لن يسمح باستيطان اليهود في فلسطين إلا بقدر ما يكون متفقاً مع حرية الشعب العربى السياسية والاقتصادية » . في ضوء ما هو واضح الآن أنه كان أهداف الدكتور وايزمان والمستر بلفور ، وبالنظر إلى تشجيع بريطانيا لاستيطان اليهود في فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى ، فإن بيان هو جارت

(١) هذا الادعاء لاسند له يبرر هذه الأطماع . فاقامة اليهود لم تتجاوز سبعين سنة ثم زال ما كان لهم من نفوذ — المترجم .

لا يمكن أن يوصف إلا بأنه خداع متعمد يقساوى مع « تفسير » بلفور لاتفاق سايكس - بيكو. لو كانت الحكومة البريطانية دافعت عن « الحرية السياسية والاقتصادية » العربية لرحب العرب بتوطين اليهود في فلسطين . ويمكن البرهان على هذا في حقيقة أن حسين رد على هو جارث بأنه سوف يستخدم كل نفوذه للمساعدة في إيجاد ملجأ لليهود من الاضطهاد ، وأعطى تعليمات لأبنائه وللزعماء العرب الآخرين بأن يفوا بوعدهم لبريطانيا وأن يهدئوا الشكوك العربية في دوافعها .

واصل بلفور أيضاً جهوده « في تهدئة الشكوك العربية » فأرسل ويزمان إلى القاهرة في مارس ١٩١٨ ليطمئن الزعماء العرب في مصر وفلسطين بأن المشروعات الصهيونية بشأن الهجرة اليهودية إلى فلسطين لن تسيء إلى الحقوق العربية . وأعلنت وزارة الخارجية البريطانية في يونيو أن الأراضي العربية التي تحررت بفضل جهود العرب أنفسهم — أى الحجاز وشرق الأردن — سوف يضمن لها « الاستقلال التام ذو السيادة » ، وأن المناطق التي تحررت بالمساعدة البريطانية — أى فلسطين والعراق — سوف تحكم « على أساس مبدأ رضا الحكوميين » وأن أية أراض لا يزال يتعين تحريرها — أى الشام — سوف تحصل على حريتها واستقلالها : وأخيراً ، في نوفمبر ١٩١٨ بعد استسلام تركيا ، صدر تصريح انجليزى — فرنسى مشترك فى فلسطين والشام والعراق ، أعلن أن سياسة الحكومتين فى الأراضي العربية الحرة هى إقامة نظم للحكم « تستمد سلطتها من حرية أهاليها فى ممارسة المبادرة ومن اختيارهم » ، وأنكر التصريح بصفة خاصة أية نية « لفرض هذا النظام أو ذاك على شعوب تلك الأقاليم لا يكون » يكفل العدالة غير المتحيزة والمتساوية للجميع . وبعبارة أخرى يمكن أن يطمئن العرب إلى أن صفقة سايكس - بيكو كانت الآن مهمة ،

وأن الشام والعراق وفلسطين وشبه الجزيرة العربية سوف تكون حرة في اختيار حكامها .

أما أن العكس بالضبط كان هو الصحيح وأن نية الحكومتين البريطانية والفرنسية الحقيقية كانت تجزئة فلسطين والعراق وسورية ولبنان بينهما ، فقد أصبح واضحاً بمجرد أن نصب فيصل نفسه في دمشق . فأقيمت حكومة مدنية وعسكرية بريطانية في بيت المقدس وبغداد ؛ وفرض الفرنسيون حكمهم على لبنان وشمال شرقي سوريا ، وأعطى للعرب الظهير السوري وشرق الأردن من حلب إلى العقبة . احتج فيصل بأن هذه الترتيبات تتعارض تماماً مع العهود التي قطعت للعرب وعندما عجز عن إحداث أى تغيير على الفور سافر أولاً إلى باريس ثم إلى لندن ليعرض قضيته .

استقبله الفرنسيون ببرود وقالوا إنهم لا يستطيعون التعامل معه كممثل للعرب . وقابل البريطانيون دعاويه بصمت ينم عن الارتباك . وحتى لو أرادوا التسليم بأى من حججه ، فقد كانوا أقل قدرة على هذا الآن منهم في أى وقت قبل ذلك : ذلك أنهم وقد أقاموا حكومة عسكرية بريطانية في جنوب العراق ، اشتتموا رائحة بترول في الشمال وهو المنطقة التي كانت قد آلت إلى فرنسا بموجب التقسيم الذي قضى به إتفاق سايكس-بيكو . كان النفط الوحيد الذي اكتشف قبل عام ١٩١٤ بكهيات تجارية في هذه الأجزاء هو الذي اكتشف في منطقة امتياز الشركة الإنجليزية - الفارسية للزيت في جنوب بلاد فارس . ولكن منذ ذلك الحين امتدت عمليات الحفر عبر الحدود العراقية إلى خاتقين التي تتوسط للسافة بين بغداد وكركوك . كانت المصالح البترولية البريطانية على اقتناع بأنها لو اتجهت شمالاً أكثر من ذلك فسوف تجد ثروة من النفط لم تمس بعد . وهكذا في عام ١٩١٩ بذلت جهود كبيرة في لندن لحل الفرنسيين على التنازل عن منطقة الموصل لبريطانيا ولكن فرنسا كانت قد أحست بأن تصريح بلفور

خدعها ؛ ولم يكن في مقدور كليمنصو رئيس وزراء فرنسا ، تقديم أية تنازلات لبريطانيا أو للعرب .

وعلى ذلك غادر فيصل لندن خالي الوفاض ، وعندما وصل إلى مؤتمر الصلح في فرساي كانت تنتظره صدمات جديدة . كان أبوه قد استيقظ أخيراً على حقيقة أنه خدع ، وفي ثورة الهياج التي تملكته رفض أولاً أن تكون له أى معاملات مع الحلفاء ولم يمنح فيصل السلطة للتفاوض بالنيابة عن العرب . واستمر الفرنسيون بالمثل في رفضهم الاعتراف بالأمير ولم تتمسك الحكومة البريطانية من إقناع كليمنصو والشريف بسحب اعتراضهما إلا بصعوبة . وحتى في هذه الحالة لم يسمح حسين لفيصل بحرية التوصل إلى حل وسط . وأصر على أن تنفذ عهود بريطانيا كاملة .

مسكين فيصل ! لا يمكن أن تكون هناك شخصيات قلائل أكثر شعوراً بالوحدة في أية أزمة في الشؤون العالمية من ذلك الذي شق طريقه وحيداً وسط الضخامة المذهبة التي كانت تحيط بالمؤتمرين في فرساي . لم يؤيده سوى الوفد الأمريكي برئاسة وودرو ويلسون ؛ ولم تكن أمريكا في ذلك الوقت في مركز يجعل تأييدها على مائدة المؤتمر فعالاً في الشرق الأوسط . كانت بريطانيا تسعى وراء الموصل وفلسطين ؛ وكانت فرنسا مصممة على الحصول على كل ما تقدر عليه في الشام ؛ وإذا أريد إقناع كليمنصو بالتنازل عن الموصل وقبول انتداب بريطاني في فلسطين تعين على بريطانيا أن تطلق يد فرنسا في سوريا . والحقيقة أن القوات البريطانية كانت آخذة في التخلي عن مواقعها في غربى سوريا للفرنسيين . كل ما استطاع الأمير أن يحققه هو اتفاق مع كليمنصو في نوفمبر ١٩١٩ يؤكد سلطة العرب في الأرض الواقعة بين العقبة وحلب بما في ذلك دمشق ، وتشكيل لجنة تحقيق متحالفة تقوم بزيارة الشرق الأوسط واستشارة الأهالي المعنيين وتقديم توصيات بشأن حكومتهم المستقبلية . وتقرر أن تتكون اللجنة

من ممثلين عن بريطانيا وفرنسا وأمريكا . ولكن تنحت بريطانيا وفرنسا بدلا من أن تجدا أنفسهما تواجههما توصيات قد تتعارض مع سياساتهما ؛ وأصبح « المحققون » فريقاً أمريكياً بحثاً لإرأسه الدكتور هنري كنجج والمستر تشارلز كرين Charles Crane .

قامت لجنة كنجج - كرين بمهمتها باتقان كامل وأوصت بإقامة انتخابات مؤقتة في سوريا وفلسطين والعراق . واقترحت أن يعهد بالانتداب على سوريا وفلسطين إلى الولايات المتحدة على أن يكون فيصل ملكا على سوريا ، وأن يعطى الانتداب على العراق لبريطانيا وأن يجري استفتاء لاختيار ملك . أما عن فرنسا فأكدت اللجنة أن قوة الشعور العربى ضد الفرنسيين تستبعد التوصية بمنحهم أية انتدابات . وبالنسبة إلى مشكلة استيطان اليهود في فلسطين ، اعترضت اللجنة على مشروع الصهاينة لإنشاء « كومونولث يهودى » وحذت هجرة يهودية محدودة جداً وتدرجية . وباختصار ، كان تقرير كنجج - كرين شعاعاً من الإدراك السليم والفهم في عالم غشيه ظلام الجشع والخداع : ولكن كان مصيره التجاهل لأنه أنكر أطماع المنتصرين .

في هذه الأثناء كان فيصل قد رجع إلى دمشق حيث وجد العرب يزدادون جموحاً . كانت جميعتا الفتاة والعهد قد خرجتا إلى العلانية وكونتا سوياً « حزب الاستقلال العربى » الذى دعا إلى مؤتمر قومى سورى . وفور تكوينه في مارس ١٩٢٠ أصدر المؤتمر قراراً يطالب بالاستقلال لسوريا الكبرى وأن يكون فيصل ملكا عليها ، وبرفض تصريح بلفور واتفاق سايكس - بيكو ، ورفض الوصاية و« المساعدة » الفرنسية في أية صورة . وتلا ذلك اجتماع ضم الزعماء العراقيين اتخذ قرارات مشابهة واختار عبد الله ملكاً . استجابات فرنسا وبريطانيا بإعلان أن هذه الإجراءات باطلة ودعما على الفور إلى

اجتماع من الدول المنتصرة في سان ريمو بإيطاليا ليتقاسموا الانتدابات على سوريا وفلسطين والعراق .

وكما سبق أن توقعت تجارة الخليل في فرساي ، اعترف المؤتمر بدعوى بريطانيا في فلسطين براكب يضطرها إلى تنفيذ تصريح بلفور ، وأضاف الموصل إلى انتدابها على العراق مقابل السماح للفرنسيين بسوريا كلها فضلاً عن لبنان . وهكذا أنكرت قرارات سان ريمو على فيصل والعرب حتى تلك الشريحة من سوريا والتي تشمل حلب ودمشق ، وهي الشريحة التي كانت قد منحت لهم في التقسيم الذي تقرر بعد الحرب والتي أكد كليمنصو قبل ذلك بخمسة أشهر فقط أنها أرض عربية .

خسر العرب ، وتحركت فرنسا على الفور لتدعيم مكاسبها فاستغلت خلافاً مع فيصل حول الحقوق الفرنسية في استخدام سكك حديد الشام لتقوية حامياتها في الشمال فأرسلت السلطات الفرنسية في بيروت إنذاراً نهائياً تطلب إليه التسليم للدولة المنتدبة . واعتقاداً من فيصل بأن البريطانيين سوف يشعرون بأنهم مضطرون إلى التدخل ، أخذ يتأرجح وقتاً طويلاً بحيث أعطى الفرنسيين ذريعة للزحف على دمشق . ورغم أنه قبل الشروط الفرنسية في وقت لاحق ، زعم الفرنسيون أن خطابه « فقد » عند وصوله ، ولما عثروا عليه كانوا قد احتلوا عاصمته وأمروه بمغادرة سوريا بأول قطار في الصباح التالي . لقد غدرت بريطانيا وفرنسا الآن بكافة وعودهما للعرب . فخطاب مكماهون إلى حسين في أكتوبر ١٩١٥ ، وتأكيديات بلفور وهوجارث بشأن اتفاق سيمكس - بيكو وتصريح بلفور والتصريح البريطاني الصادر في يونيو ١٩١٨ ، والإعلان الإنجليزي - الفرنسي في نوفمبر التالي ، والاتفاق بين فيصل وكليمنصو في نوفمبر ١٩١٩ ، هذه جميعاً نسخت الآن . كان كل منها قد حقق الغرض المتوخى منه من حيث ملاطفة العرب والإبقاء على الثورة العربية قائمة ضد العدو المشترك

والآن يمكن نسيان هذه العهود والنزول بها إلى أضياف فصل دنىء ونخبج
من التاريخ الدبلوماسى .

ولكن إذا كان الحلفاء اختاروا نسيان عهودهم ، فإن العرب كانوا ما يزالون
يذكرونها ، وبعد أن هزل الفرنسيون فيصل بمثل هذه السرعة ، نشبت موجة
من الثورات فى صفوف قبائل وادى القرات فى العراق . كانت الخسائر فى
الأرواح والأموال التى تكلفها إخماد هذه الثورات من الفداحة بحيث اضطرت
الحكومة البريطانية إلى إعادة النظر فى سياستها والتخفيف من التزاماتها فى
العراق ؛ فدعى مؤتمر إلى الانعقاد فى القاهرة فى مارس ١٩٣١ رأسه المستر ونستون
تشرشل بوصفه وزير المستعمرات وحضره كوكبة من الخبراء البريطانيين فى
الشئون العربية تضمنت : لورنس وجوتروود بل والسير برسى كوكس المندوب
المدنى البريطانى فى العراق ، وذلك للبحث فى أفضل طريق يمكن به تحقيق
السلام فى العراق والوفورات لدافع الضرائب البريطانى .

اتخذ مؤتمر القاهرة قراراً واحداً وفرض عليه قرار ثان . كان القرار الذى
اتخذ هو دعوة فيصل إلى التقدم إلى استفتاء شعبى بقصد تنصيبه ملكاً ،
وسحب الجيش البريطانى والاعتماد على سلاح الطيران للدفاع عن البلد وعن
مواصلات بريطانيا مع الهند . أما القرار المفروض على المؤتمر فكان الاعتراف
بعميد الله أميراً على شرق الأردن . كان عبد الله ووالده قد تملكها الغضب
الشديد من جراء مسلمك الفرنسيين فى سوريا بحيث صمما على محاولة استرداد
البلد بالقوة . وعلى ذلك أرسل عبد الله مع جيش من ألفى رجل وراح يشق طريقه
إلى دمشق عبر شرق الأردن عندما اعترض طريقه ضابط من إدارة فلسطين
وكانت مفاجأة له أن رحب به الضابط فى البلد . وسرعان ما أثنوا عبد الله
عن خططه لاسترداد سوريا بمثل هذه القوة الصغيرة فأعلن نفسه حاكماً على شرق
الأردن بينما كان مؤتمر القاهرة مجتمعاً . قرر تشرشل ومستشاروه قبول الأمر

الواقع وتم الاعتراف بالفعل بعبء الله أميراً في ظل الإنتداب البريطاني .

هكذا قدمت بريطانيا بعض الكفارة لائنين من أبناء الشريف حسين . ولكن ظل حسين نفسه لا تليق له قنائة، فلم تجد الجهود التي بذلت لإقناعه بأن يقبل قرارات سان ريمو . وراحت بريطانيا تغريه بعقد معاهدة تحالف ؛ ولكن الشريف رفض بجفاف ما اعتبره محاولة لرشوته كي يتجاوز عن نكث بريطانيا عهودها . ولم يكن أقل شدة في التنديد بفيصل بسبب تساهله في حقوق العرب بالاتفاق الذي عقده مع كليمنصو . وفي هياجه وغضبه الشديد حاول بغباء أن يؤكد سلطته لم يكن يملكها . فاستغل سقوط السلطان - الخليفة العثماني ونادى بنفسه خليفة للإسلام .

وكما لو أن هذا لم يكن كافياً ليثير غضب جاره المعادى له وهو ابن سعود الذي كان بسبب روحه البيوريقانية^(١)، يعتبر مسaire الشريف للحلفاء الكفار انتهاكاً للدين راح حسين الآن فأتخذ خطوة أخرى بمحاولة ابن الرشيد العدو التقليدي لابن سعود . وكذلك ساعد في تمويل ثورة قبائل وادي الفرات ضد الاحتلال البريطاني .

وهكذا بحلول عام ١٩٢٢ كان الشريف قد أبعد عنه ابنه وجيراته وأخيراً الحكومة البريطانية وهي الوحيدة القادرة على حمايته ضد تهديدات الوهابيين . إلا أنه عاد في العام التالي فرفض عرضاً بعقد معاهدة مع بريطانيا مصراً على أنه يجب أولاً أن تنفذ وعود بريطانيا بالاستقلال العربي تنفيذاً حقيقياً . وبرغم أن بريطانيا كانت مستعدة لأن تقنع باعترافه بانتدابها على فلسطين وحده ، رفض حسين في عناد أن يقبل أي شيء يقصر عن الصيغة التي ذكرها هو جارث عن « الحرية السياسية والاقتصادية » للعرب في فاطنين . وعندما توقفت

(١) الشديدة التمسك بتعاليم الدين . - المترجم .

أخيراً المفاوضات في ربيع عام ١٩٢٤ كان حسين قد أغلق آخر باب يمكن أن يأتي عن طريقه العون والتأييد لأنه كان أكثر اهتماماً بإقناع عرب فلسطين من أن تطفئ عليهم الهجرة اليهودية غير المحدودة ، منه بإقناع عرشه هو . إذا لم يكن من سبب خلاف هذا ، فيجب أن نعجب به إذ من الصعب الاعتقاد بأنه عجز عن إدراك النتائج التي تترتب على رفضه مخالفة ضميره مقابل معونة بريطانية ضد جيرانه السعوديين الذين كانوا يهددونه .

وبعد أشهر قلائل في أغسطس ١٩٢٤ أمسكت به النتائج عندما زحف جنود ابن سعود الوهابيون على الحجاز . وعند ما احتل الفاتحون الطائف ونشر عملاؤهم الذعر في جميع أرجاء الحجاز بشائعات عن أن جميع سكان البلدة قتلوا^(١) ، اتجه الشريف أخيراً نحو بريطانيا يلتمس المساعدة . ولكن الحكومة البريطانية اختارت الآن أن تعامل الصراع على أنه مسألة قبلية لا تعنيها . وفضلاً عن هذا ، كانت الحكومة البريطانية في الهند تقف إلى جانب ابن سعود وتكنّ للشريف ضعيفة منذ أمد طويل لكونه أثار غضب المسلمين الهنود بتبجيله للسلطان — الخليفة العثماني منذ لحظة تعيينه في مكة .

تنازل حسين الآن لصالح ابنه الأكبر على وهو شخص مصاب بذات الرئة ، حال ضعف صحته دون أن يلعب دوراً نشيطاً في الثورة العربية . كان الرجل العجوز يأمل في أنه بالتضحية بنفسه قد يوقف المزيد من إراقة الدماء ويحمل ابن سعود على التفاوض للوصول إلى تسوية . ولكن الوهابيين واصلوا زحفهم بغير هوادة واستولوا على مكة في أكتوبر ١٩٢٤ ، وبعد حصار طويل أخضعوا في النهاية آخر معقل هاشمي وهو جدة في ديسمبر ١٩٢٥ . سلم على البلاد لابن سعود وخرج ليعيش في المنفى في إحدى ضياع أخيه فيصل في العراق . وتوجه حسين إلى قبرص حيث تقلد وسام فارس

(١) نوع من حرب الأعصاب - المترجم .

الصليب الأكبر من طبقة سان ميشيل وسان جورج ، على أيدي حاكمها
رونالد ستورس وهو الرجل الذي كان حسين قد تفاوض معه بشأن
الخطوات الأولى في تحالفه التمس مع بريطانيا — فكان الوسام بديلا
هزيلا عن عرشه وعن الحرية والاستقلال اللذين ظن ذات مرة أنه ظفر
بهما للعرب .

(٢٦)

ابن سعود - سياسى الصحراء

ما من شك أن الرجل الذى حطم حسيناً شريف مكة فى النهاية ، وهو عبد العزيز بن سعود ، يعتبر اليوم واحداً من آخر الأمراء الإقطاعيين العظام فى بلاد العرب . لكن هذا ليس فيه إلا قدر من الحقيقة ؛ لأن هذا الأمير نفسه لم يكن ليفتح الحجاز فحسب ، بل وأهم من هذا قدر له أن يكون مبعث إلهام وتوجيه لواحدة من أروع ما عرف التاريخ من ثورات وعملیات بعث . من المحقق أنه ما من شىء كان يمكن أن يكون أقرب إلى الإقطاع أو حتى إلى العصر الوسيط ، من خلفيته . بدأ ابن سعود حياته وسط قوم كانت الحضارة قد خلفتهم وراءها تماماً . وكانت الأملاك التى ورثها عن أسلافه أرضاً غير مملوكة لأحد ، تقع بين شمال بلاد العرب وجنوبها ، وفيها كان الصراع ضد العوامل الطبيعية من القسوة بحيث تركها الغزاة الأجانب فلم يمسوها أو يمتثلوها . كانت أول جيوش الإسلام بقيادة خالد بن الوليد قد عبرتها لترغم عمان وحضرموت واليمن على الاستسلام ، وعبرها القرامطة لينهبوا مكة ، وعبرها عبد الوهاب ليستولى على مدن الإسلام المقدسة من الأتراك . ولكن الرمال التى تذررها الرياح سرعان ما محت آثار أقدامهم ، وكانت الوهاد الصعراوية فى نجد تعود بعد كل اضطراب تعرض له إلى الخلاء الأزل الذى يتصف به مكان لا يبقى فيه أحد إلا ليموت ، وكان البدو الرحل السريعو الحركة هم وحدهم الذين حافظوا على وجود جزئى طفيف . ولكن أصول ابن سعود البدائية وجدت فى عقيدة أسلافه الصارمة ما هو أكثر من تعويض عنها . وبينما كان ما يزال فى عهد الصبا برغم خلفيته التى

تنتهى إلى المعصور الوسطى ، صنع دولة عصرية من القبائل الرحل وأصبح
بمرور الوقت قوة يعمل حسابها في يقظة بلاد العرب من جديد .

ولد ابن سعود في نوفمبر من عام ١٨٨٠ ، وكان من عقب محمد بن سعود
وسميه عبد العزيز بن سعود ، وهما الشخصيتان الرئيسيتان اللذان ناصرا
عبد الوهاب الذى كان يدعو إلى الإحياء والتمسك بالتعاليم ، والذى أضفى
إسمه على رجال القبائل الحاربين الأشداء الذين حكمهم البيت السعودى . في
هذا الوقت كانت حظوظ الأسرة وأملها كلها تحتفى سريعا تحت وطأة مطارق
قبيلة شمر الكبيرة بزعامة محمد بن رشيد أمير الحائل الكائنة في شمال شبه
الجزيرة العربية . كان العداء المستحكم بين السعوديين والرشيديين يرتد إلى
عهد بعيد ، وعند ما طرد السعوديون في النهاية وأتباعهم الوهابيون من رجال
القبائل من الحجاز على أيدي جيوش محمد على المصرية في عام ١٨١٨ أسرع
أتباع الرشيد إلى استغلال هذه الهزيمة . وخلال بقية القرن التاسع عشر
إنزوى السعوديون وأصبح موطنهم في نجد ملكا بغير منازع لشمر وقادتهم
الرشيديين . قنع الأتراك بقبول هذا الموقف . فهو من جهة أزال التهديد
بنشوب ثورة وهابية أخرى كالتى كادت أن تفقدهم الحجاز والمدن المقدسة
في بداية القرن ؛ ومن جهة أخرى لم يكونوا يميلون إلى احتلال الصحارى
وفضلوا أن يقوم الرشيدون بهذه المهمة .

وبعد مولد ابن سعود بأربع سنوات شن زعيم شمر الحاكم وهو محمد
ابن رشيد ، هجوما جديدا على المعقل الذى كان باقيا في أيدي السعوديين وهو
الرياض . ظل « هذا الوغد ذو البشرة الصفراء والعينين الضخمتين اللتين
تشبهان عيون النساء » على حد وصف تشارلز دوتى ، يحاصر الحصن السعودى
إلى أن سقط نهائيا في عام ١٨٩١ . وعندئذ فر الأمير الصبي ووالده الأمير
عبد الرحمن ، إلى الكويت حيث منحهما حق اللجوء حاكمها الشيخ مبارك

وكان قريباً لهما من بنى عنيزة . وهناك كبر ابن سعود الشاب فأصبح شخصية مرتفعة القامة وذات قوة بدنية كبيرة ، له لحية دقيقة أنيقة ويدان رشيتان وتعبير يمكن أن يصبح عنيفاً حقاً إذا ثار غضبه ، وشفتان يبدوان إذ أطبقتا كمنصل أبيض لسلح يتذبذب . وهناك أيضاً تعلم أساليب الصحراء من بدو قبائل مطير وعوازم ، ومن هؤلاء القوم الفقراء والمقتصدين في حياتهم ، اكتسب بساطة في الملبس والعادات لن تفارقه أبداً .

شيء آخر لم يفارقه أبداً وهو يتقدم نحو مرحلة الرجولة في ظل حماية شيخ السكويت ، هو رغبة ملتهبة في الثأر لهزائم الأسرة وفي استرداد ممتلكاتهم في نجد . وفي فبراير ١٩٠٠ قام ابن سعود بأول محاولاته للخروج من السكويت . انتهت المحاولة بكارثة وهزيمة ، ولكنها علمت الأمير الشاب الوافر الحماسة ألا ينقض على شمر في معركة سافرة دون أن تتوافر له القوات الكافية . وبعد عامين اقترض من الشيخ مبارك مالا لتجهيز قوة تضم مائتين من راكبي الإبل وخرج للاستيلاء على الرياض خلسة . وعند ما بلغ أطراف البلدة اقتض خمسة عشر من أقوى وأشجع جاله وزحف معهم نحو هدفه الأول وكان بيت الحاكم . تطور النضال الذي تلا ذلك إلى نزاع شخصي بين ابن سعود والحاكم ، كان رجال الأمير خلاله يطاردون الحرس الرشيدى الذى جرى لفجدة سيدهم . ثم ، بينما كان جنود الحاكم يجرونه بعيداً أرداه أحد رجال ابن سعود قتيلاً ، وهنا اشترك راكبو الإبل من رجال الأمير واستسلمت الحامية الرشيدية .

كسب ابن سعود الجولة الأولى في نضاله الشخصى من أجل تأكيد شرف الأسرة . وبعد ذلك بأسبوعين نادى به أبوه أميراً على نجد وإماماً للوهابيين . انتشرت أنباء البعث السعودى كالنار فى الهشيم . وسرعان ما انضم إلى ابن سعود حشد هائل من المؤيدين ، وبعد الاستيلاء على الرياض

بعامين كان قد تم تطهير معظم نجد من أتباع ابن الرشيد . والآن تحول ابن الرشيد ناحية حماته الأتراك يطلب المساعدة . واستجاب الباب العالي بارسال حملة وصلت إلى قاسم في شمال غربي نجد في صيف عام ١٩٠٤ ونجحت في إلحاق الهزيمة بابن سعود الذي جرح في الاشتباك . ولكن الأتراك الذين لم يكونوا معتادين على المناخ سرعان ما أصيبوا بالكوليرا ، وعندما قاد الأمير هجرماً مضاداً عنيفاً اضطلعت به قوات الصاعقة الوهابية ، انهار الأتراك وفروا متنقلين عن خلفائهم من بنى شمر .

حاول الباب العالي الآن تعويض خسائره عن طريق المفاوضات وأرسل مبعوثين إلى ابن سعود لاقتراح إنشاء دولة عازلة محايدة في ظل السيطرة التركية بين أملاك شمر والسعوديين . ولكنهم لم يحصلوا على أى فائدة من الأمير الذي راح يلاحقهم بالمراوغات بينما كان يجمع قوته من أجل المواجهة النهائية مع ابن الرشيد . وبعد ذلك في أبريل ١٩٠٦ قاد هجوماً مباغتاً على المعسكر لرشيدى . قتل ابن الرشيد في القتال الذى أعقب ذلك واستسلم أتباعه للفاطميين الوهابيين .

كان ابن سعود الآن سيد نجد كلها واسترد الممتلكات الشرعية التى كانت للبيت السعوى . لم تبق غير صعوبة واحدة . فبالتهريض من جانب الأتراك استمرت قبائل الحسا على الخليج الفارسى تشن سلسلة من الهجمات الجانبية على المواقع السعودية فى الشرق . ظل سنوات عدة يتجاهل وخزات الإبر هذه . ثم بينما كان يقوم بجولة تفتيشية فى هذه الجهة فى أوائل عام ١٩١٤ ، وجد نفسه على مسيرة ساعات قلائل فقط من عاصمة الحسا حيث كانت تنزل الحامية التركية الرئيسية . وبالجسارة التى يتميز بها الأمير قرر أن يضرب مع حرسه المسكون من ستمائة وهابى وبعد أن عرف قوة وتحركات الدفاعات التركية . إنسل فى كنف الظلام وانقض على الحامية التى اعترتها الدهشة فأسرهم مع

حاکمهم . بعد ذلك بشهر لم يبق أتراك في الحسا ، وتم تهدئة القبائل ، وسيطر ابن سعود على ساحل الخليج الفارسي بأسره من الكويت حتى البحرين . استبعد الباب العالي الآن هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية ولم يعد ابن سعود يتعرض أبداً للمضايقة بسبب الهجمات التركية .

ومع كل ، كانت نجاحاته قد أثارت الآن اهتمام قوة عالمية أخرى هي بريطانيا العظمى ، كانت سياستها في ذلك الحين هي مد مجال نفوذها حتى الخليج الفارسي بقدر الإمكان ، لموازنة التهديدات العدوانية الممثلة في سياسة « الزحف على الشرق » الألمانية . والآن وقد أصبحت الأراضي السعودية تمتد حتى شواطئ الخليج الفارسي حول البحرين ، ومع حليف السعوديين القديم مبارك في الكويت ، فإن الأمير يمكن أن يكون صديقاً نافعاً أو عدواً يسبب الحرج . وعلى ذلك عند ما تجتمعت سحب العاصفة قبل الحرب العالمية الأولى أرسلت حكومة الهند ممثلاً هو الكابتن شكسبير من رجال الإدارة السياسية الهندية ، لمقابلة ابن سعود . ولكن الأمير ، شأنه شأن حسين شريف مكة ، كان لا يهتم إلا بالحصول على الأسلحة والمال لوقف الأتراك عند حدهم . ولما كان شكسبير ملتزماً بأن يرد على ابن سعود بأن بريطانيا لا يمكن أن تتدخل في الشؤون الداخلية للإمبراطورية العثمانية ، انتهت الجولة الأولى من المباحثات إلى لا شيء ولكن ، وكما كان الحال مع حسين ، سرعان ما تغيرت نفمة بريطانيا عندما نشبت الحرب وأصبحت تركيا عدوها السافر . فأرسل شكسبير في نوفمبر ١٩١٤ ليتفاوض بشأن عقد معاهدة تحالف مع ابن سعود بينما كانت القوات البريطانية تنزل في العراق وتحتل البصرة عند بدء الحملة على الجزيرة . كانت تعليماته في هذه المرة هي أن يسعى للحصول على المساعدة السعودية النشيطة ضد الأتراك . ولكن الأمير الحذر لم يكن ليحجر إلى القتال لحساب بريطانيا كان أقصى ما يمكن أن يوافق عليه تعهداً بالامتناع عن الدخول في علاقات مع أية

قوة أجنبية أخرى وبأن يرفض السماح لجيش أجنبي باستخدام أرضه. ومقابل هذا اعترفت به بريطانيا كما على نجد والحسا ، وتعهدت بالدفاع عنه ضد أى هجوم تركي وبزويده بالبنادق والمال .

لم تكن هذه صفقة رديئة بالنسبة إلى السعوديين . فهم قد أعطتهم الحماية مقابل الحياد ؛ وجعلت في إمكانهم عندما دعاهم السلطان العثماني إلى الاشتراك في « الجهاد » ضد بريطانيا ، أن يردوا بصدق تام أنه لا يمكنهم أن يستعدوا العناية الإلهية في صورة القوة البحرية البريطانية في الخليج الفارسي . ولكن عندما بدأت الثورة العربية في عام ١٩١٦ وبدأت الإمدادات البريطانية تتدفق على جيوش حسين لتمكينها من القتال إلى جانب بريطانيا ، شك ابن سعود من أنه يعامل معاملة هزيلة بالقياس إلى شريف مكة ولكن مهما كان ما حصل عليه حسين من بريطانيا قليلا ومهما كان القتال الذي اضطلع به بالمقابل شديداً ، فإن ابن سعود كان سيعترض . إذ ظل طليعة السنوات الخمس السابقة يكن مظالمه مريرة ضد جاره الهاشمي . ففي عام ١٩١١ كان رجال القبائل من أتباع حسين قد وجدوا أخا لابن سعود هو سعد ، يحاول أن يضم بعض القبائل على حدود الحجاز إلى جانب قضية الأمير وأخذوه أسيراً . رأى الشريف الذي كان ما يزال عند هذه النقطة يتظاهر بالتعاطف مع الأتراك بينما يخطط سراً لثورته ، نقول رأى هنا فرصة تهدئة شكوك الباب العالي وأعلن أنه سوف يطلق سراح سعد بشرط أن يعترف ابن سعود بالسيادة التركية على قاسم الواقعة على الحد الشمالي لنجد . اضطّر الأمير المتكبر إلى الموافقة على الشروط ، ورغم أن الأتراك لم يعملوا أبداً على تأكيد حقهم ، إلا أن الإذلال ظل يتقد وقتاً طويلاً في نفسه . وبدلاً من أن يحاول حسين العمل على أن يندمل هذا الجرح ، عمل أشياء أسوأ عندما طلب ابن سعود ألا يعتدى على أراضي

تجدد في العمليات التي يقوم بها ضد الأتراك فأجاب أن مثل هذا الطلب لا يمكن أن يكون قد صدر إلا عن مجنون أو مخمور .

ولكن برغم حقيقة أن الشريف كان يحارب بينما التزم الأمير الحياض ، فإن شكاوى ابن سعود وجدت أذناً صاغية في داخل حكومة الهند التي كانت تذكره حسين بسبب ما سبب لها من متاعب في صفوف المسلمين الهنود . وبعد جولة طويلة أخرى من المباحثات مع السير برسي كوكس باعتباره يمثل الإدارة البريطانية بالجزيرة ، حصل ابن سعود على اتفاق قرر له إعانة شهرية قدرها ٥٠٠٠ جنيهه الإنجليزي (٢٥٠٠٠ دولار) و كمية إضافية من البنادق مقابل تعهده بالإبقاء على جيش مستديم من أربعة آلاف رجل ، وبمواصلة الضغط على الرشيديين لمنعهم من تعزيز الأتراك في بلاد الجزيرة ، كان ما حصل عليه مبلغاً ضخماً بالنسبة إلى أمير معوز كان يمكنه في ذلك الوقت أن يضع في خروجه الاحتياطات المالية في مملكته بأسرها . إلا أن ابن سعود عجز تماماً عن تنفيذ هذا الجانب من الصفقة واستطاع أمير الحائل الجديد أن يترك عاصمته في أيدي عبد يثق به وأن ينضم إلى الأتراك مع الجانب الأكبر من قواته . عندئذ عرضت بريطانيا مضاعفة الإعانة إذا استرد ابن سعود الحائل فيخفف الضغط المتصاعد على جبهة الجزيرة ، ولكن الأمير سخر فحسب من الفكرة وأصر على أنه مقابل مثل هذه الخدمة ، يجب أن تزيد الوفوعات إلى ثلاثة أمثالها وأن يزور بعشرة آلاف بندقية على الفور ، وهذا مطلب لم يكن في إمكان حتى صبر حكومة الهند أن يحتمله .

أكد الذين دافعوا عن موقف ابن سعود وتصرفه بأن السبب في عدم التزامه بهذه الصفقة هو أنه كان مشغولاً بأمره منافسه الجديد حسين . صحيح أن حسين ربما كان بما زودته به بريطانيا من أسلحة ومال وخبراء فنيين ، يشكل في ذلك الوقت جاراً أبعث على الرعب من الرشيديين الذين كان

الوهابيون قد أصابوهم بضربة حاسمة قبل ذلك بعشر سنوات . وكما عبر سنت جون فيلبي عن الأمر بدقة ، فإن الأمير « لم يكن بالتأكد ليقف موقف المتفرج الخالي من المصلحة ، على تعقيدات السيااسة العربية » . وعلاوة على هذا فلاشك أن ادعاءات حسين الحقاء بأنه « ملك البلاد العربية » ، زادت من شكوك ابن سعود . ولكن مواصلة الأمير التزام الحياد كان يرجع أكثر سبب فيه إلى انشغاله بالمشكلات الداخلية بمملكته الصحراوية .

فبفهم دقيق للتاريخ العربى ، كان ابن سعود يعرف أن مزيجاً من الحماس للإسلام ومن النجاح العسكرى ، لا يمكن أن يبقى على وحدة وتماسك جماعة عربية صحراوية إلى غير مسمى . فكثيراً جداً ما عمل الصراع القبلى على تبديد الفتوحات العربية المبكرة وعملت المؤثرات الخارجية على تقويضها ، وذلك بعد وفاة الفاتحين . لا بد من شيء أكثر دواماً من الشخصية أو النهب والسلب إذا أريد لهذه الشظايا القبلية التى تضمها مملكته ، أن تندمج فى بعضها لتكوين مجتمع قوى ومستقر . وفى سبيل هذه الغاية لم يكن العرب فى حاجة إلى نداء فحسب وإنما كانوا فى حاجة إلى حرفة . وهكذا راح الأمير ييث مفهومًا جديدًا وثوريًا للحياة فى المجتمعات البدوية فى نجد . وتحديداً لقرون من التقليد ، بدأ فى عام ١٩١٠ يفتت القبائل وبمزجها سوياً ، وأعاد توطين البدو فى الأرض فى مستعمرات صغيرة من « الإخوان » . وكان له من وراء هذا أهداف ثلاثة هى : أن يخلق من المستوطنين جيشاً من نوع الميليشيا قادراً على الدفاع عن كل مستوطنة ضد الغزاة أو قطاع الطرق ، أن يعلم البدو منافع الحياة المستقرة على نقيض حياة الترحال ؛ وأن يحطم البنيان القبلى القديم بما يشتمل عليه من ضغائن وفتن تسبب الانقسام وأن يُحل محله إحساساً بالتماسك القومى والروحى . طبق أول تجربة على أصدقائه وحامته القدامى وهم بنو مطير ، ولم

يمض وقت قصير نسبياً حتى كان قد أنشأ نحو سبعين من مستوطنات الإخوان مجموع سكانها حوالى ثمانين ألف نسمة .

لم يكن أى من هذا النظام الجديد ليتحدى سيادة الإسلام الغالبة . على العكس ، كان الشعار هو « الرجوع إلى القرآن وإلى الأرض » ، وكانت فكرة ابن سعود هي أن العقيدة الإسلامية تزداد قوة إذا حل الشعور الإخوانى محل الولاء القبلى . إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى كان مشروعه يواجه معارضة عنيفة من جانب الوهابيين المحافظين وذلك لأسباب دينية وكذلك لأسباب قبلية ؛ وعلى ضوء ما سوف يكتشفه فى مناسبات كثيرة فيما بعد حينما حاول إصلاح وتحديث حياة شعبه وعاداتهم ، فإن النجاح فى وجه معارضة مصممة كان يتطلب كل ما تملك قيادته من قوى ، فضلاً عن تنازلات شديدة على حساب هيئته وكرامته . من المفهوم أنه وأمامه الكثير الذى يتعين التغلب عليه ، لم يكن يملك فائضاً من الموارد أو الطاقة يمكنه من الاشتباك مع عدو لم يعد يضايق قومه ، وهو عدو يجوز إذا استشير أن يجلب هجوماً تركيا جديداً ينقض على رأسه .

من الحقيق أنه بعد الحرب العالمية الأولى عند ما أزيل التهديد التركى ، لم يبد أى تردد فى استئناف حربه الخاصة . ففى عام ١٩٢١ وبعد أن استولى على عسير فى الجنوب والواقعة بين الحجاز واليمن ، استولى على الحائل ووضع نهاية للرشيديين . وفى العام التالى استولى على الجوف ووادى سرحان وهى المواقع الشتوية التقليدية لقبيلة رُؤلاً التى يرأسها نورى شعلان أحد أمراء بلاد العرب العظام الأربعة . بل وحاول أن يغزو شرق الأردن فطرده السلاح الجوى البريطانى .

فلم يأت عام ١٩٢٢ حتى كان ابن سعود قد اكتسب شهرة تجاوزت حدود نجد بكثير . ولكن خزائنه لم تزد مع مكانته ، ولا حتى مع فتوحه ؛

فبخلاف إعانة بريطانية قدرها ٦٠.٠٠٠ جنيه (٣٠٠.٠٠٠ دولار) في السنة ، لم تتجاوز إيراداته السنوية ١٥٠.٠٠٠ جنيه (٧٥٠.٠٠٠ دولار) . وعاد عليه امتياز بالتققيب عن البترول في مقاطعة الحسا ، بمبلغ آخر قدره ٢٠٠٠ جنيه (١٠.٠٠٠ دولار) في السنة ، ولكن رجال النفط أقلعوا عن المحاولة بعد عامين وخرجوا . راح ابن سعود الآن ينظر حوله بحثاً عن فتح جديد يمكن أن يزيد بيت ماله الهزيل . وكان حتماً أن تقع عينه في اشتهاه على الحجاز ، على أمل أن تستأنف إيرادات الحج بعد أن انتهت الحرب وأعيد فتح الطريق إلى مكة .

أحست بريطانيا على الفور بالخطر ، خاصة وكان حسين والأمير قد اشتبكوا حديثاً في صدام عنيف بسبب ادعاء كل منهما الحق في واحة الخرملة على حدود الحجاز ونجد . كانت بريطانيا قد انحازت إلى جانب حسين في هذه المشكلة ، وفي مارس ١٩١٩ أمرت ابن سعود بالخروج من الخرملة . ولكن عندما وصل عبد الله في مايو ليتملكها باسم الشريف ، خسر كل القوة التي كانت معه ، على أيدي المدافعين الوهابيين . دعى مؤتمر تحت رئاسة بريطاني إلى الانعتاق في الكويت في نوفمبر ١٩٢٣ ، دعا ابن سعود إلى السماح لحسين بامتلاك الخرملة إذا اعترفت بريطانيا بجمته في وادي سرحان . ولكن الأمير رفض صراحة إذ كان يعلم أن في إمكانه الاحتفاظ بالإثنين . سادت حالة من الهدنة المسلحة لمدة أربعة أشهر ، ثم نادى حسين بنفسه خليفة في فبراير ١٩٢٤ . كان هذا بالنسبة إلى ابن سعود ذريعة كافية للاستيلاء على الحجاز . وفي سبتمبر سقطت الطائف في أيدي الإخوان المتحمسين الذين قتلوا ثلاثمائة من الأهلين قبل أن يتمكن قائدهم سلطان بن بجاد من وقفهم . خاف ابن سعود أن تتعرض مكة لما هو أسوأ من هذا ؛ ولكن لحسن الحظ جلا حسين عن المدينة دون قتال ، وكانت أسوأ خسارة هي تخطيط بعض آثار إسلامية كان

الوهابيون المتزمتون يعتبرونها من مظاهر الوثنية . وفي السنة التالية سقطت المدينة المنورة وجدة ، وفي ٨ يناير ١٩٢٦ نودى بابتن سعود ملك الحجاز وسطان نجد . وبعد ذلك بست سنوات فى سبتمبر ١٩٣٢ فإن اتحاد نجد والحجاز والحبسا أصبح رسمياً الملكة العربية السعودية يحكمها ابن سعود حكماً وراثياً .

بينما فتح الحجاز بإرادته من الحج ، حل بعض المشكلات ، فإنه خلق أيضاً مشكلات أخرى . فباعثبار أن السعوديين حفظة المدن المقدسة الجدد ، أصبحوا الآن على اتصال وثيق بل وعلى خلاف مع الدول الإسلامية الأخرى ومع القوى الأوربية التى تتولى الإدارة فى مستعمرات تتاخم الأرض السعودية . كان مايشكل أعظم صعوبة هو الفجوة الواسعة بين تعاليم الوهابيين المتشددة والأساليب المتساهلة والمتنفة نسبياً عند أهل الحجاز الذين كان الوهابيون بدرجونهم فى إزدراء فى غير المؤمنين باعتبارهم من « الكفار » . أما مدى اتساع تلك الفجوة فى الإمكان أن نراه من حقيقة أن الإخوان الذين أخذوا مكة أمكن بصعوبة صرفهم عن هدم قبة قبر محمد باعتبارها رمزاً وثنيياً يخلد ذكرى رجل وعلى ذلك لا يتفق مع القرآن .

مالج ابن سعود هذه المشكلات بمهارة رائدة وفهم واسع . فدعا إلى مؤتمر من الدول الإسلامية فى يونيه ١٩٢٦ ، لمناقشة الجوانب الإسلامية من الإدارة الحجازية ، وأحسن استغلال الفرصة ليجعل رجاله من الإخوان المتحمسين يتصلون بمسلمين أكثر ثقافة . وكانت النتيجة على ما يقال ، أن تأثير الضيوف الأجانب على الإخوان كان أفضل بكثير من تأثير الإخوان على الضيوف . ولكن بالنسبة إلى الغرض الذى توخاه ابن سعود كان المؤتمر ناجحاً إذ مكنته من العمل بصورة متدرجة جداً ، على تعديل المبادئ الأصولية التى كان يعتنقها الوعاظ الوهابيون ، وأن يقنع أهل نجد بقبول معدات علمية حديثة

من قبيل التليفونات والسيارات باعتبارها أشياء نافعة للحياة والحكم، وكانت هذه المعدات حتى ذلك الحين موضع الاستنكار من جانب العلماء المتمسكين بالتقاليد باعتبارها من اختراعات الشيطان . ولكن العملية كانت بطيئة وطويلة تتطلب صبراً بغير حدود؛ وخلال العشرينات من القرن العشرين وأوائل الثلاثينات كان على الأمير أن يعمل في حذر شديد على الحد من تعصب الوهابيين دون أن يعرض نفسه للاتهام بالردة . كان التليفون يمثل واحدة من أكبر المشكلات وفي مؤتمر بالرياض عام ١٩٢٧ ضم القادة العلمانيين والدينيين، وجد أكبر صعوبة في الظفر بمناقشة حامية حول إمكان قبوله كعون للمواصلات، مباح للمسلم الورع. كان قبول الراديو عملية أسهل إذ أوضحوا أن في الإمكان استخدامه لاذاعة آيات القرآن وبذا يساعد على نشر رسالة الله ونبيه. ولكن برغم أن ابن سعود كسب الحجج المؤيدة لاستخدام التليفون والراديو، أخفق في أن يثنى مستشاريه عن إثارة خلاف مع مصر قدر أن يسبب قطيعة بين البلدين لمدة عشر سنوات . نشأت المعركة بعد أن استولى الوهابيون على الكسوة التقليدية المصرية للكعبة في مكة ، على أساس أنها مزخرفة أكثر مما ينبغي ، وبرغم محاولات ابن سعود ظل وقتاً طويلاً لا يستطيع إقناع مستشاريه بتقديم أية ترضية إلى المصريين الذين تعرضوا للالهانة .

ولكن واصلت علاقاته ببريطانيا الازدهار . فلما أحست الحكومة البريطانية بالارتياح لأن ابن سعود حل الخلاف بينه وبين الشريف حسين المتقدم في السن والذي كان يذكر الناس بخيانتها طالما يحكم الحجاز ، قبلت بسرور أن تعترف بالأمير ملكاً على الحجاز وذلك في اتفاقية جدة الموقعة في مايو ١٩٢٧ . ولقد بلغ من شدة رغبتها حقيقة في إنشاء علاقات مع ابن سعود، أنها امتنعت عن حسن إدراك عن أن تطلب منه في معاهدة جدة

تأييد تصريح بلفور أو الانتداب البريطانى على فلسطين - تلك المشكلات التى كانت نقطة القطيعة فى مفاوضاتها مع حسين .

من هذه الإنطلاقة نحو الاعتراف الدولى، راح ابن سعود يعقد المعاهدات ويتبادل البعثات مع فرنسا والروسيا وهولندا وإيطاليا وهى دول كان رعايا مستعمراتهم يضمون الكثير من المسلمين . ولكن خلال حكمه كله أبقى هذه البعثات وكافة البعثات الأخرى فى جدة التى تبعد ثمانمائة ميل عن عاصمته الرياض، وهذا عرف لا تزال متبعاً حتى اليوم . كان ابن سعود يؤمن إيماناً راسخاً بأن الدبلوماسية والحكم يجب إدارتهما فى أما كن محكمة الإغلاق . لقد قبل الاعتراف به من قبل القوى الغربية ولكن هذا لا يعنى أنه كان يثق بهم أو أن يكون العاملون فى إدارة مملكته، معرضين للتجسس عليهم من جانب الممثلين الأجانب . بخلاف ما كان مغروساً فى نفسه من ريبة ، كان هناك سببان طبيبان على الأقل وراء هذا النفور . فمن جهة هناك خطر المغالاة فى تعريض الإخوان للكفار الموجودين فى مكان كالرياض ، كان يمثل هذه العزلة عن العالم . ومن جهة أخرى لم يرغب ابن سعود أن يشهد الأجانب عن مسافة قريبة جداً ، الاضطراب الذى وقعت فيه حكومته نتيجة الاستحواذ على أراض جديدة وما ترتب عليه من مسؤوليات جديدة .

منذ أن مد ابن سعود نطاق ممتلكاته بحيث شملت الحسا ، كان هناك نقص خطير فى العناصر المدربة التى تتولى الإدارة . فالبدو المخلصون الذين كان الأمير يعتمد عليهم فى إدارة شئون نجد ، كانوا لا يقدرّون فحسب على مواجهة المشكلات التى تراكت عليهم . ومن ثم وجد ابن سعود نفسه يزداد اشتغالا بتفاصيل الإدارة فضلاً عن القرارات المتعلقة بالسياسة العليا، ولما كانت إحدى عينيه قد فقدت بالفعل قوة الإبصار فإن الجهود الممثل فى العمل من الصباح الباكر إلى ما بعد منتصف الليل بكثير، أصبح بصورة متزايدة مما

لا يمكن احتمال . إلا أنه واصل الكفاح دون تفويض المسؤولية إلى الغير ، إلى أن اكتشف بعد سنوات عدة رجل أعمال سعودي عربياً أحسن ابن سعود أن في وسعه أن يلقي عليه ببعض عبئه بأمان .

كان عبد الله السليمان من أهل قاسم ، تعلم في الهند واكتسب خبرة واسعة في اقتصاد العالم العربي . وكان من أبناء المملكة العربية السعودية . وعلى ذلك أحسن ابن سعود أنه يمكنه أن يعهد بإدارة البلد المالية إلى عبد الله محتفظاً لنفسه بمجالات العلاقات الخارجية والدفاع والشئون الإسلامية . أعطيت لوزير الخزانة سلطة تامة في إدارة مالية البلاد على النحو الذي يراه أفضل ، ولم يكن ابن سعود يتدخل إلا إذا كانت قرارات الوزير تمس الشئون الإسلامية أو البلاط . فمثلاً وجد عبد الله إسرافاً في الإتفاق الحكومي ، كان في إمكانه أن يأمر بإجراء أية وفورات يرغب فيها ، إلا في ميزانية مصلحة الأوقاف ووزارة المؤسسات الدينية وفي المال الذي ينفق على تكريم ضيوف الحكومة . كان الأمير يصر على أن العيب بهذه يتعارض مع واجبه كإمام للوهابيين ومع تقاليد العرب في كرم الضيافة . كان ما ينص عليه لإشباع حاجات المجتمع الوهابي هو « طالما لدينا القرآن فديننا في أمان ، وطالما لدينا الجبل فشرفنا في أمان » . ولما كانت مستوطنات الميليشيا من الأخوان تدخل أيضاً في نطاق ذلك التعريف باعتبارها أساسية بالنسبة إلى الأمن القومي وإلى توطين البدو ، كان حتماً أن تكون الخدمات الاجتماعية والتعليم هي التي تعاني من أي تخفيضات في الميزانية .

لم يمض وقت طويل جداً على انتصاره في الحجاز حتى ظهرت الحاجة إلى قوة أمن تتصف بالكفاءة وفي حالة يقظة مستمرة ، على نحو ما كان عليه الإخوان . ففي عام ١٩٢٧ ثارت عناصر محافظة معينة بقيادة فيصل الداوش كبير رؤساء قبيلة مطير في الشمال الشرقي ، تحت ذريعة أن ابن سعود كان متحالفاً مع

« الكفار » الوثنيين ويتزلف إلى بريطانيا والحكومة البريطانية في الهند . أما الذي أشعل شرارة الثورة فكان رواية عن أن قوات الحدود العراقية كانت تقوم بناء على أوامر بريطانية ، ببناء حصن في منطقة سبق الاتفاق على حيادها ونزع السلاح منها . وبدون أن يستشير فيصل ملكه هاجم الحصن وقتل جميع من كانوا يعملون في بنائه ولكن صدته فيما بعد قاذفات السلاح الجوي الملكي . وبدلاً من المخاطرة بحرب مع بريطانيا والعراق تحرك ابن سعود لسكرج جماع فيصل ، ولكن قاومه زعيم مطير . ولم يتمكن الإخوان من هزيمته وأسره الا في مارس ١٩٢٩ .

كانت لحظة حرجه بالنسبة إلى الأمير ، وعلمته أكثر من أى وقت مضى أنه يجب العمل بالتدريج على أن يتعرف الوهابيون على أفكار القرن العشرين في العلاقات الدولية . ولكن لم يكدر يتقبل هذه النكسة حتى وجد أن بلاده تواجه الإفلاس . ففي عام ١٩٣٠ أصاب الكساد الاقتصادي العالمى المملكة السعودية بضرر تثلث في حدوث نقص خطير في عدد الحجاج المسلمين الذين في وسعهم القيام بالرحلة إلى مكة . وسرعان ما أصبحت الخزانة خاوية من المال وأعلنت الحكومة قراراً بوقف سداد الدين الأهلى ومرتبات الموظفين . معجزة فقط كانت تستطيع إنقاذ البلد من الإفلاس ، ولكن جاءت المعجزة في ظرف عام .

فقد تصادف أن كان تشارلز كرين الذى كان من أعضاء لجنة كنج - كرين ، في زيارة لابن سعود في جدة . فحرصا على تقاليد كرم الضيافة العربية وبغض النظر عن فقر الخزانة ، استقبل الأمير ضيفه بالكرم الذى يليق بالملك وحمله هدايا كانت تضم جوادين عربيين جميلين من الإصطبلات الملكية . كانت استجابة كرين الغربية نوعاً أن أهدي إلى الملك صندوقاً من التمر كان

قد أتى به من يقال في سان فرنسيسكو ، وكان يسعى به إلى إقناع مضيفه بأن لمنتجات مملكته شهرة عالمية ! ولكن قبل أن يسافر الأمريكي أرسل على نفقته الخاصة مهندس تعدين لإجراء بحث جديد عن الموارد المعدنية المحتملة في مملكة ابن سعود .

اكتشف الزيت في الشرق ، واكتشفت كمية محدودة من الذهب في الغرب . وسرعان ما تقدمت شركات النفط بالعالم تطلب امتياز الحفر في الظهران القريبة من ساحل الحسا ، وفي عام ١٩٣٣ حصلت شركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا على الامتياز مقابل ٥٠.٠٠٠ جنيه (٢٥٠.٠٠٠ دولار) . وبعد ست سنوات تم إنتاج الزيت بكميات تجارية قدرها ٣.٠٠٠ ب/ي ، وعندما وصل إلى ٦٠.٠٠٠ ب/ي في عام ١٩٥١ كانت الخزانة السعودية تحصل كل يوم على إيراد يزيد على ما كان يمكنها أن تجمعها في سنة بكاملها في الوقت الذي حدثت فيه زيارة المستر كرين التي كانت بطريق الصدفة . كان بين استخدامات هذه الثروة الطائلة خط حديدي تكلف ٣ مليون دولار ، وميناءان ، وقصور جديدة عدة ، ومحطة للاذاعة ، وطرق رئيسية جديدة ، ومحطة لتوليد الكهرباء للمدن الأربع ، وتزويد جدة بالماء بالأنابيب ، وخط طيران وطني ، وإعادة فتح مناجم الملك سليمان للذهب القريبة من المدينة المنورة . ونظراً لأن مثل هذا التطور كان يتطلب مهارات غير متاحة في العربية السعودية فتحت الباب على مصراعيه الآن ، وهرع الأطباء والمدرسون والفنيون والاداريون من مصر وسورية ولبنان وفلسطين إلى الدولة التي تشهد ازدهاراً جديداً .

هذه السنوات من الثروات المتصاعدة بالنسبة إلى العربية السعودية كانت أيضاً سنوات المأساة والاضطرابات بالنسبة إلى الكثير من العالم خارجها ، وخاصة بالنسبة إلى فلسطين . إلا أن مقامرة ابن سعود الوحيدة فيما وراء حدود بلاده كانت الهجوم على اليمن في عام ١٩٣٤ عندما طار صوابه بسبب

محاولات الإمام اليمنى المستمرة المطالبة بجزء من عسير لمملكته ، وأجبره على قبول التخطيط السعوى للحد المشترك بينهما .

خلال كل الصراع بين بريطانيا والعرب واليهود في فلسطين ، وبين فرنسا والعرب في سوريا ولبنان ، انتهج ابن سعود سياسة حياد دقيق . من المفهوم وكما كان الحال في الحرب العالمية الأولى ، أن يرى من الأفضل عدم الإحياز في صراع بريطانيا مع ألمانيا النازية ، فيما عدا إعلان الحرب في اللحظة الأخيرة ليبرر المطالبة بعضوية الأمم المتحدة . ولكن الذي كان يدعو إلى الدهشة حقاً هو عدم اهتمامه الظاهري بمصير فلسطين بين الحريين . فخلال هذه الفترة قنع في صمت بقبول الانتداب البريطاني لا لأنه كان يميل إليه ولكن لأنه لم يكن يتعدى على حدوده ، ولأنه تمتع بنوع معين من الشماتة إزاء الهزيمة التي ألحقتها بعبد الله الهاشمي الذي عندما كان يتقدم للاستيلاء على الخرمة في عام ١٩١٩ ، كتب إلى ابن سعود يقول « أفطر غداً في الخرمة وفي الأسبوع التالي أتعشى في الرياض » .

ولم يتحرك ابن سعود حتى عندما أعلن الصهيونيون صراحة أن هدفهم هو إنشاء دولة قومية يهودية في فلسطين . أخذت الهجرة اليهودية من أوروبا تتصاعد بخطى واسعة ، ومع ذلك نذر أن رفع ملك السعوديين إصبعاً لمساندة إخوانه العرب في تضالهم من أجل الاحتفاظ بأرضهم^(١) . وعندما ظهرت دولة إسرائيل إلى عالم ١٩٤٨ وحاول جيرانها العرب أن يسحقوها وهي في المهد لم يقدم سوى تأييد رمزي ليهودهم وجعل من المعروف أنه اعتبر حملتهم قد أسىء توقيتها وكانت تفتقر إلى الاستعداد والتنسيق .

من الأمور التي تحتمل الجدل هو لو أن ابن سعود استخدم نفوذه الشخصي الكبير مع بريطانيا ومع عرب فلسطين ، فهل كان يمكن الوصول إلى تفاهم قبل أن أطلقت الحرب العالمية الثانية فيضاً لا يمكن مقاومته ، من المهاجرين اليهود من معسكرات

(١) ما كنا نتظر منه أن يفعل شيئاً والدولة لا تزال في أوائل عهدها ، والدول العربية الأخرى لا تتحرك بصورة مؤثرة — المترجم .

الربيع في أوروبا وبذا جعل من الحتمي خلق دولة في فلسطين مع كل المراتبة التي ولدها هذا في جميع أرجاء العالم العربي . من المؤكد أن الوقت كان متأخراً جداً في عام ١٩٤٨ بحيث يتمكن أى شخص من منع النكبة ، ولكن في الثلاثينات ربما كان في إمكان عربي في مكانة ابن سعود وهيبته أن يقنع كلام البريطانيين والعرب في فلسطين بأن ينتهجوا سياسات أوفر عقلاً ويسلكوا سبلاً أكثر حكمة . والحقيقة أنه لم يحاول أبداً^(١) .

ربما يكون أحد الأسباب أن ابن سعود كان يشعر خلال حكمه الطويل بكرهه للتعقيدات الخارجية . فلم يسافر أبداً خارج الشرق الأوسط وفادراً ماغادر بلاده نفسها . لقد قام مرة بزيارة رسمية إلى القاهرة بعد إصلاح القطيعة التي كانت نشأت بسبب كسوة الكعبة . وهناك قوبل بترحاب حار ، ولكن عندما رجع إلى بلده أمر إلى مستشاريه أنه ما يزال لا يجد فائدة تعود عليه من المصريين . كان يرتاب في جبراته وخاصة في الهاشميين . فيصل في العراق وعبد الله في شرق الأردن . ورغم أن البريطانيين لم يكفوا عن تملقه في جميع معاملاتهم معه ، إلا أنه لم يتغلب في الحقيقة أبداً على الارتياب في أنهم كانوا « ينصبون شبكاً » على حد قوله ، ليقع فيها ، بأن أيدوا أولاً الحسين في الحجاز ثم عبد الله في شرق الأردن ، وبالإعتماد على الكويت والبحرين والمشيخات الأخرى في الخليج الفارسي على امتداد حدوده . في هذه الظروف بدا له أن الحياد وعدم التورط هما السياسات المأمونة الوحيدة التي يتعين عليه انتهاجها . رغم أن الأمير حكم مملكة طيلة نصف قرن وأنشأ دولة حديثة وموحدة من قبائل متنافسة كانت من مخلفات العصور الوسطى ، ظل في قرار نفسه أميراً قليلاً بسيطاً بكل ما يصاحب مثل هذه الخلفية من فضائل ونقائص ، وشكوك ، ووطنية مشددة ، ونبل وضيق أفق ، وروح دعاية وافتقار إلى

(١) كان لمصر مشا كلها مع بريطانيا ، وسوريا ولبنان صراعاً مع فرنسا ، وكانت الدول العربية في شمال إفريقيا خاضعة للاستعمار ، فكيف كان يطالب اسمود بأن يتحرك في ظل هذا الجو - المترجم .

التعليم . ولقد اعترف ذات مرة أن أيام معاركه المبكرة ضد الرشديين كانت أفضل أيام حياته ، وهى أيام نضال كان فيها الجوع والعطش موجودين دائماً فى صحبة الخطر ، واسكن كل يوم كان مليئاً بالمتعة والرفقة الطيبة . ولم يكن أبداً أشد إحساساً بالراحة إلا عند ما يحكم فى نزاع قبلى ، فيحلال ويفحص بصبر ومهارة لا نهاية لهما مجموعة الحجج والأدلة المتضاربة ثم يصدر حكمه غير المتحيز . وكان يسير فى حياته الخاصة حسب القوانين الإسلامية بدقة . فبرغم أنه كان يحب النساء كثيراً ويقال إنه تزوج أكثر من مائة مرة إلا أنه لم يكن فى عصمته أكثر من أربع زوجات فى نفس الوقت الواحد ، بالإضافة إلى أربع محظيات لإدارة البيت وأربع جوار للاشراف على حاجاته^(١) . وكان لكل زوجة بيتها وخدمها لأن ابن سعود كان يعارض بقوة اختلاط النوعين فى البلاط أو عند تناول الطعام الذى كان لا يتناوله إلا فى صحبة الذكور . من جهة كان هذا راجعاً إلى التقاليد ، ومن جهة أخرى أن موضوعات الحديث الحبية - من قبيل والشئون العالمية - لم تكن تصلح فى رأيه لأن يستمع إليها النساء . وكان يحب أيضاً النكات العملية ، ويقهقه بصوت مرتفع إذا أجبر أحد رجال البلاط على تجربة دواء جديد استوردته إدارة الصحة أو الخضوع لعلاج جديد انتهى بتعرض الضحية سىء الحظ لصدمة كهربائية . وكان أكثر ما يحبه هو الصيد إما بالصقور - أو كما أصبحت العادة فيما بعد بإطلاق النار من السيارات المكشوفة وهى تنهب الأرض عبر الصحراء . برغم أنه كان حاكماً دينياً إقطاعياً بطبيعته وحسب نشأته إلا أنه مامن زعيم عربى فى العصر الحديث كان له من التأثير على قلوب شعبه أدق وأدوم

(١) هذا نوع من المبالغات الى درج الكتاب الغربيون علمى ثرديها ، وكثيراً ما كتبوا الشئ نفسه عن بعض قادة المسلمين لنشوية سمعتهم من جهة ، أو - وهو الأهم - لوخز المسلمين عامة بإظهار أن دينهم يبيع لهم هذه التصرفات من الزواج والطلاق بغير ضابط ، مع أن الإسلام واضح ودقيق من هذه الناحية . - المترجم .

من تأثيره . كان يعرف عناصر ضعفهم فضلاً عن عناصر قوتهم ، ولذا كان يراقب دائماً أية علامات تنم عن أن الثراء المفاجيء الناتج من النفط كان يؤدي بهم إلى الطمع في كسب المال وإلى إهمال الدين الصحيح . إذا كانت العقوبات التي أوقعها على السارق والزاني^(١) وربما تبدو ذات طابع ينتمى قليلاً إلى العصور الوسطى ، فإن بتر يد أو حز رأس كان كافياً للبقاء على نظام مطلق وجعل الفيافي الصحراوية في مملكته مكاناً آمناً للحجاج والسفار بالقياس إلى مدن البعض من أكثر الشعوب تقدماً وتحضراً . ربما كان عدله عنيفاً أحياناً ، وكان تشدده الديني شديداً وانتقامه قاسياً . ولكن بدون هذه التدابير المتطرفة لما أنقذ ابن سعود أبداً مملكة أسلافه من الهزيمة أو مزج مجموعة من القبائل المتأخرة والمتناثرة ليخلق شعباً ويقودهم نحو القرن العشرين برغم احتجاجهم أحياناً وشعورهم بالتخوف دائماً .

(١) هذه العقوبات نصت عليها الشريعة الإسلامية لحماية المجتمع . - المترجم .

(٢٧)

المأساة في فلسطين

ما من كلمات يمكن أن تفسر نضال الشعوب العربية ضد الظلم والاحتلال الأجنبي بدقة تزيد على ما يفسرها به قول شاعر عربي مجبول: لا تدعوا أحداً معنا يكون متكبهاً أو متغطرساً لأننا نستطيع أن نكون أكثر حماقة وأشد جراً . وما من فترة من التاريخ العربي تعكس الحكمة البسيطة الكامنة وراءه بصورة أكمل من ملحمة فلسطين في ربع القرن الممتد بين قيام الانتداب البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى وخلق دولة إسرائيل بعد الحرب العالمية الثانية . وما من شيء كان يمكن أن يكون أشد كبرياء وصلفاً من موقف السلطة المنتدبة البريطانية أو الحركة الصهيونية إزاء عرب فلسطين ، كذلك ما من شيء كان يمكن أن يكون أشد حماقة وجسارة من رفض العرب المستمر التفكير في أى اتفاق أو أية تسوية تتحدى حقوقهم التقليدية أو السلالية في فلسطين أو تقهرهم عن الوفاء المطلق بالتعهدات التي قطعها بريطانيا خلال الحرب بشأن حوية العرب^(١) . أما أنهم كانوا ضحايا القدر والظلم فأمر لا يمكن إنكاره ، ولكن « الصفح عن المظالم الماضية ونسيانها ليس فضيلة فحسب ولكنه ينم عن الحكمة » على حد ملاحظة واحد من أبرز المدافعين عنهم وهو الجنرال جلوب في الوصف الذي كتبه لـ «كارثة فلسطين» . ونظراً لأن العرب لم يستطيعوا أن ينسوا القدر بهم كما لن يتغلى الصهاينة عن أطاعهم ، فإن مصير فلسطين كان نكبة .

فبمجرد أن صدر تصريح بلفور تحرك الصهيوينيون . ففي مارس ١٩١٨ وصلت إلى فلسطين لجنة صهيونية تتكون من الدكتور وايزمان والمستر جيمى دى روتشيلد والمستر إسرائيل سبيف ، وكان الغرض الظاهري منها أن تعمل

(١) ليس هذا حماقة وانما هو تمسك بالحق القوي . - للترجم .

كحلقة اتصال بين اليهود والحكومة العسكرية البريطانية . في هذه المرحلة كان يهود فلسطين نحو ٥٥.٠٠٠ أو أقل من ٨ في المائة من سكانها البالغ عددهم ٧٠٠.٠٠٠ نسمة . أما النسبة الباقية وقدرها ٩٢ في المائة فكانوا عرباً أربعة أخماسهم مسلمون والباقيون من المسيحيين فمن جهة بسبب هذا التفوق في الأعداد، ومن جهة أخرى لأن الكثيرين من كبار السن اليهود الذين يعيشون في فلسطين كانوا معارضين في إنشاء دولة يهودية ، وأكثر من هذا كله لأنه في عام ١٩١٨ كان قادة من العرب مثل الشريف حسين مايزالون يعتقدون أن وعد بريطانيا بأن الهجرة اليهودية لن تتعدى على حريتهم السياسية والاقتصادية، لهذا لم يبد عرب فلسطين أى اعتراض على الوجود الصهيوني في وسطهم . وعلاوة على ذلك، ففي حفل عشاء أقامه الحاكم السير رونالد ستورس وحضره الزعماء العرب الفلسطينيون ، خطب وايزمان فأكد لرفاقه من الضيوف أن هدف اليهود هو أن يعملوا جنباً إلى جنب مع العرب وليس أن يسعوا وراء السلطة السياسية . وحتى عندما بدأت الأعلام اليهودية بعد ذلك بوقت وجيز ، تظهر في المواكب العامة وأخذوا يعزفون النشيد القومي اليهودي دون اعتراض من جانب سلطة الانتداب ، كان العرب مايزالون يلتزمون الهدوء ولا يحتجوا ، وأبدى الأمير فيصل حسن نيته في يناير ١٩١٩ بأن وقع اتفاقاً مع الدكتور وايزمان أعلن أنه بشرط حماية حقوق الفلاحين والمزارعين المستأجرين العرب « فسوف تتخذ جميع التدابير اللازمة لتشجيع وتنشيط هجرة اليهود إلى فلسطين على نطاق كبير وبأسرع ما يمكن لتوطين المهاجرين اليهود في الأرض » .

ثم جاء مؤتمر الصلح ومع تحطم سياسة فيصل في سوريا . ولكن برغم أنه كان واضحاً الآن أن العرب في سوريا سوف يباعون إلى الفرنسيين بشمن بخس ، لم يتم وفد عربى بزيارة لندن سعياً وراء مزيد من الضوء على خطط الحكومة البريطانية بالنسبة إلى فلسطين ، إلا في عام ١٩٢٠ . هنا أحس العرب

بأنزعاج كبير عندما وجدوا أن وزارة المستعمرات كانت تحيل تساؤلاتهم إلى مقر الإدارة الصهيونية . هذا الكشف حفزهم على أن يسألوا أنفسهم عما إذا كانت الحكومة البريطانية قد لا تكون تنوى تسليم السلطة في فلسطين إلى الحركة الصهيونية . وكأ لو كان رداً على سؤالهم ، بدأت السلطات البريطانية في بيت المقدس تطرد الموظفين العرب وتجند يهوداً كي يحلوا محلهم . بعد ذلك أعلن مؤتمر صهيوني في لاهاي أن هدف الصهيونية ليس إنشاء « وطن قومي لليهود ولكنه إقامة دولة يهودية » ثم عبر وايزمان عن هذا بأن أعلن فيما بعد أن الحركة التي يتزعمها تعقزم أن تجعل فلسطين « يهودية بمثل ما تكون أمريكا أمريكية وإنجلترا إنجليزية » . وختاماً لهذا كله اتفقت بريطانيا وفرنسا في سان ريمو على وضع فلسطين تحت انتداب بريطاني يحمل معه الالتزام بتنفيذ وعد بلفور . وعندما تكشف شروط الانتداب أظهرت إغفالا تاماً للأغلبية العربية في فلسطين والبالغة ٩٢ في المائة ، بأن أشارت فيما لا يقل عن أربع عشرة مرة إلى اليهود أو المؤسسات اليهودية .

كان واضحاً الآن أن تأكيدات بريطانيا المتكررة بأن فلسطين لن تكون من المناطق المحتفظ بها للصاية البريطانية أو الفرنسية ، كانت مجرد كلام . كانت المذكرة التي بعث بها مكماهون إلى الشريف قد خصصت هذه المناطق على أنها « أجزاء من سوريا إلى الغرب من جهات دمشق وحص وحماه وحلب » وأضافت أنه مع هذا التحفظ ومع الترتيبات المعدة للعراق « فبريطانيا العظمى على استعداد لأن تعترف بانه استقلال العرب وتسانده ، في جميع الأقاليم الواقعة داخل الحدود التي اقترحها الشريف مكة » . إن فلسطين كما يعرف أي واحد من تلاميذ المدارس لم تسكن في غرب المناطق المحتفظ بها وإنما كانت إلى الجنوب منها ، ولكن الحكومة البريطانية آثرت أن تتجاهل هذه الحقيقة . وإذا كانت بريطانيا تستطيع بمثل هذه السهولة أن تخرج على حقائق الجغرافيا

وعلى ما تعهدت به كتابة فكيف يستطيع العرب الذين ليس لهم من يمثلهم في المراكز العالية في بريطانيا ليواجهوا نفوذ الوزراء وأعضاء البرلمان اليهود والمنظمة الصهيونية المنتشرة في العالم ، أن يأملوا في منع بريطانيا من تجاهل تأكيداتها الأخرى بشأن تصريح بلفور والإستيطان اليهودي في فلسطين عند ما يكون هذا يناسب غرضها ؟ وحتى تزداد الأمور سوءاً ، وتذرعاً بأن حدة المشاعر بين العرب واليهود في فلسطين تتطلب أن تحتفظ بريطانيا بالسيطرة ، وضعت سلطات الانتداب دستوراً أعطى المندوب السامي البريطاني السلطة المطلقة للاعتراض على أى إجراء يسنه المجلس التشريعي . وعند ما أصبح هذا معروفاً قاطع العرب انتخابات عام ١٩٢٢ وأصبح ما يدعى المجلس التشريعي في عداد الموتي ؛ وهكذا تركت سلطة غير مقيدة في أيدي سلطات الانتداب مع مجلس استشاري كل أعضائه من البريطانيين ، كانت وظيفته تأييد قراراته ومراسيمه .

ومع كل ، وبرغم هذه الضربات ، ظل السكان العرب يلتزمون الهدوء نسبياً طيلة الأعوام الخمسة الأولى من الإنتداب البريطاني . ومن قبيل التناقض أن هذا الهدوء كان راجعاً إلى أن الحكومة البريطانية اختارت السير هربرت (اللورد فيما بعد) صمويل ليكون أول مندوب سام في فلسطين . كان صمويل وهو أول يهودي يحكم فلسطين منذ ألفى عام ، نصيراً متحمساً للصهيونية يحلم بأن يرى ثلاثة أو أربعة ملايين يهودي يستوطنون فلسطين . وبرغم هذا كان منصفاً بدقة كبيرة في معاملاته مع العرب خلال المدة التي شغل فيها منصبه ، وعلى خلاف البعض من خلفائه الكفار ، لم يظهر أى تحيز للصهيونية . وعدم التحيز الواضح من جانب صمويل ساعد أيضاً عمدة القدس راغب النقاشيبي الذي كان وطنياً معتدلاً ، على السيطرة على الموقف ، ومنع المتطرفين من أن يقلت زمامهم خلال تلك الأيام المبكرة .

ولكن إذا كان اختيار الحكومة البريطانية لصمويل مندوباً سامياً ،
 عوناً للنشاشيبي ، وغيره من الزعماء العرب المعتدلين ، فإن اختيار صمويل
 للحاج أمين الحسيني ليكون مفتي القدس لم يكن من هذا النوع وسوف يؤدي
 في الوقت المناسب إلى أن يسحب المتطرفون البساط من تحت أقدام المعتدلين .
 فمن جهة ، كان هناك تنافس مرير بين آل النشاشيبي وآل المفتي ، وتعيين الحاج
 أمين أعطاه الزعامة الدينية على الجماعة الإسلامية وعلى ذلك أ كسبه مركز
 تفوق يستطيع منه أن يجعل من قوته نداً لقوة عمدة القدس . ومن جهة أخرى ،
 وكما لاحظ السير رونالد ستورس ، فإن المفتي وإن كان أقل صلابة وقدرة
 من راغب النشاشيبي كان زعيماً أشد جاذبية وأقوى تأثيراً . وعندما
 أصبحت ضغوط الهجرة اليهودية أمراً لا يستطيع العرب احتماله ولوا وجوههم
 شطر الزعيم الذي كان دائماً يدعو إلى استخدام أسلوب العنف ، وناوا عن
 الرجل الذي كان يحبذ التفاهم والتراخي .

لم يكن افتقار السلطات البريطانية إلى التحذير بالذي جعلها تختار الحاج
 أمين لمنصب المفتي ، ذلك أنه كان قد أظهر كراهية تامة للانتداب البريطاني
 منذ البداية الأولى . كان الحاج أمين قصير القامة ، صلب العود ، له عينان
 قلفتان ونفاذتان ، ولكن إذا كان هادئاً ومستريحاً فقد كان وجهه ينطق أيضاً
 بالبشاشة وكان فيه شيء يذكر برجال الدين في الأرياف . كان لأسلافه تقليد
 طويل من العلم الإسلامي مما يناسب بيتاً كان يدعى وإن كان ذلك موضع شك ،
 بأنه من نسل محمد عن طريق حفيده الذي استشهد وهو الحسين . وكان جده
 مفتياً للقدس على عهد الأتراك ، وشغل أخوه المنصب بعد الحرب مباشرة .
 وتمشيًا مع هذه التقاليد درس الحاج أمين العلوم الإسلامية في جامعة الأزهر ،
 ولكنه لم يتم الدراسة ووجد نفسه عند نشوب الحرب العالمية الأولى ضابطاً
 في الجيش التركي في أزمير . وإذ فضل لأسباب دينية أن يخدم السلطان

الخليفة بدلا من أن يحارب إلى جانب بريطانيا ، لهذا لم يشترك في الثورة العربية . ولكنه تمكن في عام ١٩١٨ من الوصول إلى القدس حيث ابتلع أحقاده مؤقتاً وقبل وظيفة كانت في مكتب جبريل حداد المستشار العربي لستورس .

أثبت هذا أنه نقطة تحول في حياته العملية . فبينما كان يخدم الإدارة البريطانية بدأ يكن كراهة مريرة للبريطانيين ولاليهود الذين كان على اقتناع بأنهم يتآمرون سوياً للاستيلاء على فلسطين . لا عجب أن سرعان ما طرد من خدمة الحكومة ووجد طريقه إلى الصحافة حيث راح يصب السم في السطور التي يكتبها وظفر بتقدير شعبي كثير بسبب قوة وحِدّة مقالاته . ولما نشبت أعمال الشغب في أبريل ١٩٢٠ ضد الممتلكات اليهودية في القدس ، اعتبروا الحاج أمين مسئولاً عن تحريض المشاغبين ، ولما كان قد هرب إلى سورية حكم عليه غيابياً بالسجن عشر سنوات .

وفي سبتمبر التالي أصدر صمويل عفوّاً عنه فعاد إلى القدس . بعد ذلك في فبراير ١٩٢١ توفي أخوه الذي كان مفتياً للقدس ؛ وبرغم أن الحاج أمين كان ترتيبه الرابع بين الذين اختارهم « العلماء » لخلافة أخيه إلا أن صمويل عينه في المنصب . وأكثر من هذا ، لما نقل البريطانيون الإشراف على الشؤون الإسلامية إلى المجلس الإسلامي الأعلى انتخب الحاج أمين لرأسه وبذا أصبح مصدر الشريعة الإسلامية في فلسطين وله السيطرة على المحاكم الشرعية والحق في تعيين القضاة وموظفي المحاكم فضلا عن المدرسين والوعاظ في جميع المدارس الإسلامية وأماكن العبادة. يضاف إلى هذا كله أنه حصل على أرزاق من الأموال المرصودة للأغراض الدينية ، قدرها ١٢٠.٠٠٠ جنيه (٦٠٠.٠٠٠ دولار) . لاشك أن فكرة صمويل كانت أن يحول سارق الصيد إلى حارس للصيد ، ويحب التسليم بأنه طالما ظل مندوبا ساميا وألزم الصهيونيين ألا يتعدوا

الحدود ، قلت سرقة الحاج أمين للصيد وأصبحت الجاهير العربية تصيخ السمع لدعاة التراضي والتعاون من أمثال الذشاشيبي . ولكن برحيل صمويل عادت الضغوط الصهيونية من جديد ، وثبت أن تعيين هذا المهيج الذي سبق الحكم عليه بالسجن ، في مركز له مثل هذه السلطة والهيبة ، كان أشد إجراء لضمان المستقبل تهوراً .

عندما حل عام ١٩٢٨ كان الموقف قد تدهور بسرعة . فازداد جموح العرب وسخطهم بحيث أنه برغم ظفر العراق باستقلاله وظفر شرق الأردن بالحكم الذاتي في الشئون الداخلية ، كانت فلسطين لا تزال تعامل كمستعمرة متأخرة . وعند ما طلب العرب بعد عشر سنوات من انتهاء الحرب ، أن تسلم بريطانيا لفلسطين بالحق في الحكم الذاتي الديمقراطي الذي كانت قد نادت به تصريحات الحلفاء أنفسهم في يونيه ونوفمبر من عام ١٩١٨ ، كان مصير هذه التصريحات الرفض على الفور .

كان قلق العرب الآخر يتعلق ببيع أراضيهم . كانت نسبة كبيرة تماماً من الأرض في فلسطين مملوكة قبل ذلك لملك أراض لبنانيين وعند ما قسمت سوريا الكبرى كان عليهم إذا رغبوا في زيارة مزارعهم أن يحصلوا على تصاريح خروج من السلطات الفرنسية لمغادرة لبنان وتصاريح دخول الى فلسطين من السلطات البريطانية . غالباً ما كان يتمذر الحصول على هذه التراخيص وعلى ذلك باع الكثير من الملك أراضيهم للمشتريين اليهود الذين كانوا يبحثون دائماً عن أرض لتوطين المهاجرين اليهود فيها ، وذلك بالتشجيع وأحياناً بالإعانة من الحركة الصهيونية . وهكذا لم يقتصر الأمر على أن ملكية العرب للأرض كانت مهددة ، بل حيث اشتراها الصهاينة كان المستأجرون وعمال المزارع العرب يطردون من بيوتهم ليفسحوا المجال أمام المستوطنين اليهود . وفي بعض المناطق محيت قرى بكاملها لكي يمكن بناء مستعمرات

مكانها ؛ وفي إحدى الحالات طرد ٨٠٠٠ من المستأجرين والعمال العرب من ضيعة مساحتها ٥٠.٠٠٠ فدان وحصل كل منهم على تعويض قدره ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات (١٦ دولار) .

وإذ راحت طواير العرب الذين أخرجوا من دورهم وأعمالهم تخرج من أراضيها وقرائها بحثاً عن الغذاء والمأوى ، قربت مشاعر العرب من نقطة الغليان . في هذه الأثناء يبدو أن الحكومة البريطانية لم تكن تتحرك بدافع من إحساس صمويل بالإنصاف بقدر ما كانت تتحرك تحت تأثير العبارة المأثورة عن اللورد ملنر وزير المستعمرات حينذاك والتي قالها في سان ريمو ، وهي أن فلسطين ليست أرضاً عربية « على غرار البلاد العربية الأخرى » ، وأن ليس لسكانها العرب من حقوق تزيد عما للأجnas والأديان الأخرى . أجل ، عند هذه النقطة بدت الحكومة البريطانية تسير إلى أبعد من ملنر . فبينما رفضت مطلب العرب بشأن الحكم الذاتي سمحت للوكالة اليهودية في فلسطين بأن تصبح دولة في داخل الدولة وحكومة يهودية في طور التكوين ، هذه الوكالة التي كان المفروض أن تقتصر وظائفها في ظل الانتداب على تقديم المشورة « في المسائل الاقتصادية والاجتماعية وغيرها التي يمكن أن تؤثر في إنشاء الوطن القومي اليهودي » . مثل هذه التفرقة المموسة ضد العرب تجاوزت الحد المناسب والآن دعا المفتي أتباعه إلى الإضراب ، وفي أغسطس ١٩٣٠ نشبت أعمال شغب خطيرة في القدس وحبرون وصفد في الجليل الشامى .

خلال عهد صمويل الهادىء نسبياً خفضت قوات الأمن البريطانية إلى أدنى حد ممكن . فلم تسكن هناك قوات كافية لمعالجة العنف إذا ما انتشر ، وعلى ذلك حاولت الحكومة البريطانية صرف غضب العرب بارسال لجنة للتحقيق في مظالمهم . وفي داخل الحدود الضيقة التي تعمل فيها اللجنة قدمت بعض توصيات عادلة ومعقولة بشأن تشديد الرقابة على الهجرة اليهودية — فهذا عام

١٩٦٠ أقام ١٠٠.٠٠٠ مهاجر يهودى فى فلسطين . وبشأن حماية المستأجرين والعمال العرب قبلت الحكومة البريطانية النتائج التى توصلت إليها اللجنة ولكن الصهيونيين أثاروا احتجاجات بلغ من عنفها أن اضطر المستر رمزى مكدونلد الذى كان رئيسا للوزراء حينذاك ، أن يكتب إلى الدكتور وايزمان يطمأنه على أن حكومته لم تكن تعنى حقاً ماقالته .

فى عام ١٩٣١ كانت نسبة اليهود من السكان تضاعفت فبلغت ١٧ فى المائة ووصل عدد المستوطنين اليهود إلى ١٧٠.٠٠٠ - وهذا فى بلد لا تزيد مساحته على مساحة ولاية ماريلاند أو إمارة ويلز . بل ومما كان أدعى إلى الانزعاج ، أنه بدا للعرب أنه فى جميع المسائل التى تمس مصالحهم ، مثل الهجرة والاستيطان بالأرض ، كانت القوة الفعالة فى أيدي الوكالة اليهودية . بل حينما كان يبدو كما لو أن سلطة الانتداب تحاول أن تكون لها سيطرة فى هذه المسائل كانت الاحتجاجات العالية تصدر من الوكالة اليهودية وتجد صدى فى صحافة الولايات المتحدة وأوربا الغربية وروسيا السوفيتية . وكثيراً ما نكصت السلطات البريطانية وسمحت للصهاينة بالتصرف كما يشاءون ، خشية أن تهتم بالعداء لليهود .

فى هذه الأثناء ، بحلول عام ١٩٣٣ ، وبفعل وصول أدولف هتلر إلى الحكم فى ألمانيا ، زاد معدل الهجرة اليهودية إلى ثلاثة أمثاله أى من ١٠.٠٠٠ إلى ٣٠.٠٠٠ فى السنة . وارتفع فى العام التالى إلى ٤٣.٠٠٠ ، وبلغ رقماً قياسياً فى عام ١٩٣٥ إذ كان ٦٢.٠٠٠ . أما وقد تضخمت نسبة اليهود إلى مجموع السكان فبلغت الآن ٣٠ فى المائة بدأت الدولة المنتدبة أخيراً تدرك أنه لا بد من عمل شئ لحماية السكان العرب . فأعلنت الحكومة البريطانية العزم على إنشاء مجلس تشريعى له سلطات ووظائف حقيقية ، على أساس التمثيل النسبى . لقى الاقتراح ترحيباً واسع النطاق فى صفوف عرب فلسطين فيما عدا المفتى

وأقلية صغيرة من المتطرفين أحسوا أن قبول هذا الإعتراف بحقوق الأغلبية والذي تأخر عن مواعده ، سوف يجعل العرب يباركون الانتداب وعلى ذلك يضعف مركزهم . ولكن الصهاينة رأوا فيه تهديداً لهدفهم في إنشاء دولة يهودية واستنكروه في كل نفس رددوه . وتلا ذلك جدل مرير في مجلس العموم تحدث فيه عدد من أنصار الصهيونية البارزين من قبيل المستروينستون تشرشل ، بحماس ضد اقتراح الحكومة . وبمرور الوقت وضعت الفكرة كلها على الرف . مرة أخرى خدع العرب ، ولم يضع المفتي وقتاً ليقول « قلت لكم هذا » .

كانت هذه فرصة الحاج أمين الكبيرة وأمسك بها بكلتا يديه . من الآن فصاعداً فقد النشاشيبي السيطرة ؛ أصبح الائتدال قرين الخيانة ، وتولى المفتي الأمر . وفي أبريل ١٩٣٦ تأسست منظمة تدعى اللجنة العربية العليا لتوجيه ثورة عربية سافرة . أنتخب المفتي رئيساً للجنة ، وفي اجتماع حضره ممثلون من سوريا والعراق وباركتهم التمنيات الطيبة التي بعث بها المتعاطفون العرب من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي ، دعا المؤتمر إلى إضراب عام في كافة أرجاء فلسطين . وأبلغت السلطات البريطانية أن الإضراب سوف يستمر إلى أن توافق بريطانيا على وقف الهجرة اليهودية تماماً . وفي نفس الوقت وجهت حملة من التخريب ضد المواصلات الحكومية وأسلاك التليفون والطرق والسكك الحديدية . تجاهلت السلطات البريطانية طلب المفتي ولكن لم يكن في إمكانها أن تتجاهل العنف الذي تلاه . وكذلك لم يكن في إمكانها أن تواجهه بما تحت تصرفها من قوات أمن ضئيلة . وهكذا مرة أخرى قررت الحكومة البريطانية أن تنزع سلاح العرب بالحيل الدبلوماسية وأعلنت عن تشكيل لجنة ملكية للتحقيق في الموقف الفلسطيني .

وكما حدث في عام ١٩٢٩ نجحت الحيلة ، فبعد ستة أشهر من أعمال الشغب

دعت اللجنة العربية العليا إلى وقف الإضراب وذلك تحت الضغط من جانب عبد الله أمير الأردن وغيره من الزعماء العرب ممن كانوا يحبذون التفاهم. ولكن حتى عندما بدأت اللجنة الملكية رحلتها اختارت السلطة المنتدبة أن تعلن جدولا زمنيا جديداً لمنح التراخيص للهجرة اليهودية . وتحت قيادة المفتي أعلنت اللجنة العربية العليا أنها خدعت وأنها وجميع الوطنيين العرب الصادقين سوف يقاطعون اللجنة الملكية لدى وصولها .

بقدر ما قد يشعر المرء بالكثير من العطف على إحساسهم بالإساءة فمن الصعب أن تتصور وسيلة للاحتجاج هي أكثر حماقة وغباء من حرمان العرب المتعمد هذا من فرصة حقيقية لعرض قضيتهم أمام لجنة التحقيق هذه . إذا كانت الحجج التي استمعت إليها اللجنة الملكية تؤيد المصالح اليهودية والبريطانية بقوة فإن العرب ملومون كأي شخص آخر . ورغم أن اللجنة العربية العليا أذعنت في النهاية بعد ضغوط جديدة من جانب الزعماء العرب بالخارج ، إلا أن الوقت كان قد تأخر جداً بحيث لم تتمكن اللجنة الملكية من سماع أكثر من إثني عشر من الشهود العرب بالقياس إلى ما يزيد على المائة من البريطانيين واليهود ، قبل أن تغادر البلاد في يناير ١٩٣٧ لإعداد تقريرها عما كشفت عنه . وعلى كل حال ، رفضت اللجنة مظالم العرب باعتبارها غير مشروعة ، ورفضت مطالبهم بشأن مؤسسات للحكم الذاتي باعتبارها مما لا يمكن تنفيذه في نطاق شروط الانتداب ، بينما دعت في الوقت ذاته إلى إجراء تغييرات حاسمة في الانتداب تسمح بتقسيم البلد بين العرب واليهود .

إن توصية اللجنة بالتقسيم كحل لمشكلة فلسطين ، مشهورة . ولكن الذي كثيراً ما يجري نسيانه هو أن مشروع التقسيم الذي أوصت به كان يعطى ٦٠ في المائة من المساحة القابلة للزراعة بفلسطين إلى اليهود الذين كانوا يمثلون ٣٠ في المائة من مجموع السكان . كان المقرر أن يحصل اليهود على الجليل في

الشمال وعلى سهل اسدراييون في العرب بينما يترك للعرب الأراضي القاحلة في جوديا والتلال الصحراوية في النقب وسمارية . أما عن الأماكن المقدسة عند المسيحيين فقد قيل للعرب بالفعل إنهم لن يصلحوا أبداً لأن يكونوا حراساً على هذه « الوديعة المقدسة التي تركتها الحضارة » ، وأوصت اللجنة بوضع القدس وبيت لحم والناصرة تحت انتداب بريطاني دائم في داخل منطقة مغلقة يكون لها منفذ إلى البحر المتوسط عند يافا (تل أبيب) .

وافقت الحكومة البريطانية على هذه التوصيات وباركتها فضلاً عن هذا، عصبة الأمم . كذلك فإن عبدالله أمير شرق الأردن نصح عرب فلسطين سرّاً أن يقبلوا التقسيم ويقنعوا بنصف الرغيف المعروض عليهم . ورغم أن ماعرضه في وقت انعقاد مؤتمر القاهرة عام ١٩٢١ بشأن ضم جميع فلسطين إلى شرق الأردن ، كان مصيره الرفض والاضطر إلى الاعتراف بالانتداب البريطاني ثمناً لاعتراف بريطانيا به أميراً على شرق الأردن ، لم يفقد عبدالله الأمل في الاستحواذ على جزء من فلسطين . وبدلاً من أن من المحتمل أن تخلق مقترحات اللجنة الملكية منطقة عربية غربي نهر الأردن قد تقلصت مساحتها فتضطر في المستقبل إلى التماس الحماية عن طريق الاتحاد مع شرق الأردن . ولكن بالنسبة إلى عرب فلسطين كان نفس التهديد الممثل في استيلاء شرق الأردن على البلد ، سبباً طليماً آخر دعاهم إلى أن يرفضوا فوراً مشروع التقسيم . فضلاً عن هذا فالظلم البين الذي ينطوي عليه تقسيم البلاد ، بالإضافة إلى الإهانة بشأن عدم إعطاء حراسة معابد المسيحية لشعب حافظ على حرمتها طيلة ثلاثة عشر قرناً ، نقول إن هذا كان كثيراً جداً بالنسبة إليهم .

والمرّة الأخيرة سحب البساط من تحت أقدام المعتدلين . كان القدر قد خدم مرة أخرى الحاج أمين الذي كان يطالب على طول الخط بالمستحيل —

أى وقف الهجرة اليهودية تماماً — وبذا استبعد كل أمل فى التفاهم والتراضى
والذى لم يكن الآن وبريطانيا تطالب بالانتداب دائماً على بيت المقدس ،
ليخسر الكثير من جراء الالتجاء إلى الثورة السافرة انفجر العنف ثانية
فى أغسطس ١٩٣٧ عندما أعلن المفتى للحرب على البريطانيين واليهود وهدد
بقتل أى عربى لا يستنكر ويقاوم مقترحات التقسيم . مرة أخرى بدا أن
السلطات البريطانية أخذت على غرة . ولكن فى سبتمبر ١٩٣٧ عندما أطلقت
النار فى الناصرة على المندوب البريطانى فى منطقة الجليل فخر صريعاً ، بدأت
تتخذ موقفاً صلباً . فجئىء بالتعزيزات من القوات إلى فلسطين ، وتقرر
الحكم بالإعدام على من يوجد حاملاً لأسلحة ، واعتبرت اللجنة العربية العليا
خارجة على القانون وفقشت مكاتبها وقبض على أربعة من زعمائها ونفوا
إلى جزر سيلشيل . فر المفتى إلى بيروت حيث منحه السلطات الفرنسية حق
الاجوء .

ولكن برغم غياب زعيم العرب وفداحة الخسائر فى صفوفهم إذ زادت
بين عامى ١٩٣٦ و ١٩٣٧ على ١٠٠٠ قتل بالقياس إلى ٧٢ يهودياً ، واصلوا
النضال بمرارة تزداد باطراد . وإذ تشجعوا بأصوات المؤتمرات العربية فى جميع
أرجاء الشرق الأوسط وبصوت المؤتمر الإسلامى لعموم الهند ، وبالتحريض
من جانب أتباع المفتى، سيطروا على معظم الريف وأحدثوا الدمار فى المواصلات
الحكومية ، وهوجمت المستعمرات اليهودية ومحى ما كان منها فى عزلة .
وداوريات الأمن البريطانية التى تتجاسر على الابتعاد لأية مسافة خارج المدن
الرئيسية ، كانت تنصب لها الكهائن وتقتل . وإذا وجد أى عرب غير
متحمسين للقضية ، فإنهم كانوا يقتلون على أيدي رجال المفتى المسلحين . وأعدم
إثنى عشر من العمدة أو المحايير لأنهم كانوا يفضلون أفكار راغب النشاشيبي
الأكثر اعتدالاً على العنف الذى أطلق له العنان الآن .

وهكذا أصدرت المحكمة الثورية العربية بفلسطين حكم الإعدام في عام ١٩٣٨ على عدد من أعضاء حزب الدفاع الوطنى الذى يرأسه النشاشيبي وعلى ابن عمه نغرى ، لتنديهم بالمفتى ، وطوردوا إلى أن قتلوا في بغداد بعد ذلك بثلاث سنوات .

وفي أبريل ١٩٣٨ وبعد ثمانية عشر شهراً من إراقة الدماء ، أرسلت لجنة أخرى من بريطانيا للتوصية بحل . ومرة أخرى كانت التسوية التى أوصت بها هى التقسيم . ولكن فى هذه المرة وبينما كان المقرر أن يقتصر اليهود على السهول الساحلية ، كانت كل من الجليل والنقب ستوضعان تحت انتداب بريطانى دائم . كان الأمر بالنسبة إلى العرب أسوأ مما كان عليه ، ذلك أنه فى ظل هذا المشروع سوف يقطع طريق وصولهم إلى البحر بطريق النقب ولن يكون لهم سوى التلال الجرداء فى سمارية وأرض الميعاد بالإضافة إلى الشقة الصحراوية عند غزة .

لأعجب أن كان بالفعل العربى هو أن زادوا من حدة عمليات حرب العصابات التى يشنونها ضد البريطانيين واليهود . وقيل لسلطة الانتداب بجلاء إن الشروط الوحيدة التى يمكن قبولها من أجل وقف إطلاق النار هى وقف الهجرة اليهودية تماماً وإنشاء حكومة عربية تمثيلية . وقابلت الوكالة اليهودية هذا بأن رفضت بصفة قاطعة النظر فى أى تقييد للهجرة أو أية حكومة تمثيلية للعرب . ثم بدأت أيضاً فى تنظيم فرق يهودية لمقاتلة الشوار العرب ، وهى الفرق التى سوف يتكون من بعض أعضائها فيما بعد نواة عصابة شتيرن وإرجون زقاي ليومى التى انقلب بها اليهود على الاحتلال البريطانى بعد الحرب العالمية الثانية . وفى الوقت نفسه بدأ اليهود عمليات من الهجرة غير المشروعة ونجحوا فيما بين عامى ١٩٣٨ و ١٩٣٩ فى إدخال ٣٥٠٠ فى فلسطين بدون تراخيص .

كذلك رفضت بريطانيا بالطبع المطالب العربي بوقف الهجرة اليهودية باعتبار أنه يتعارض مع تصريح بلفور . أرسلت تعزيزات جديدة لدعم قوات الأمن في فلسطين ومحاولة وقف القتال . ولكن رغم أن العرب كانوا مايزلون في عام ١٩٣٩ يتحملون خسائر في الأرواح أكثر مما يتحمل أعدائهم كانت الخسائر قد بلغت الآن ٣٥٠٠ من العرب مقابل ٢٥٠ من اليهود ، ٧٧ من البريطانيين - استمرت الثورة وظل الريف تحت سيطرة الثوار إلى حد كبير . ووجهت بريطانيا بأزمة خطيرة . كانت سحب الحرب تتجمع فوق أوروبا عندما تابع هتلر انتصاره في ميونخ بالاستيلاء على براغ . إن ماسبق تخطيطه كمرکز استراتيجي للدفاع عن قناة السويس أصبح الآن استنزافاً خطيراً لموارد بريطانيا العسكرية الهزيلة . كان لابد من عمل شيء لتحقيق تسوية في فلسطين .

فبرغم الكشف السريعة التي توصلت إليها اللجنة الملكية لم تعد الحكومة البريطانية لا تعطف على رغبة العرب في الحكم الذاتي على نحو ما كانت عليه في عام ١٩٢٨ . ولكن نظراً لأن العرب كانوا دائماً يقرنون نداءاتهم بشأن الحكم الذاتي بمطالب عن وقف الهجرة اليهودية كلية ، عرفت أن الحركة الصهيونية سوف تزيد الهجرة لو سمح للعرب بأن يتولوا شئونهم ويوقفوا الهجرة إلى فلسطين . أمام هذه الورطة دعت الحكومة البريطانية إلى مؤتمر بلندن في أوائل عام ١٩٣٩ ، يمثل فيه عرب فلسطين والوكالة اليهودية والدول العربية . وكما كان متوقفاً سرعان ما وصل المؤتمر إلى مأزق . فقد أصر العرب على فلسطين عربية مستقلة على أن تمنح حقوق الأقلية لليهود الموجودين فيها ، وجعل المندوب اليهودي من الواضح أنهم لن يناقشوا أى اقتراح يهدد خلق دولة يهودية في فلسطين . كانت عشرات الملايين من الجنيحات من المال اليهودي قد صبت في شراء الأرض من أجل

هذه الغاية ؛ وارتفع عدد القرى والمستعمرات اليهودية إلى أكثر من ٢٥٠ .
 وبينما كانت نسبة اليهود إلى العرب ١ : ١٢ في سنة ١٩٢٠ ، ارتفعت الآن
 فأصبحت ١ : ٢ وارتفع عدد اليهود إلى نصف المليون وما كانت الوكالة
 اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية ليقبلان أى شىء قد يؤخر السير نحو
 المساواة في العدد على الأقل .

وعلى ذلك أعلنت الحكومة البريطانية في مايو ١٩٣٩ الحل الذي تراه
 لفلسطين وذلك في كتاب أبيض أصدرته . كان وثيقة رائعة . فعلى
 خلاف الانتداب اعترف الكتاب الأبيض بحق العرب في الحكم المستقل
 وفي الحماية من إخراجهم من فلسطين بفعل الهجرة اليهودية وشراء الأراضي .
 وإذا اعترفت الحكومة البريطانية صراحة بأن سياستها السابقة لم تكن منصفة
 ولا عملية ، أكدت الآن أن في تكوين دولة يهودية في فلسطين إنكاراً
 للعهود التي قطعها بريطانيا للعرب لأنه سوف يؤدي إلى أن يكون الشعب
 العربى واللغة العربية والثقافة العربية في حالة تبعية . كان الحل الذى
 رآته الحكومة ينص على فترة انتقال قدرها عشر سنوات بعدها يجب أن
 تصبح فلسطين دولة مستقلة ثنائية القوميات بحيث يشترك العرب واليهود
 في الحكومة « بطريقة تضمن حماية المصالح الجوهرية لكل جماعة » .
 وفيما يتعلق بموضوع الهجرة المزعج اقترحت السماح بدخول ٧٥٠٠٠ يهودى
 خلال السنوات الخمس التالية ، وبعد ذلك تكون أية هجرة جديدة بالاتفاق
 مع العرب . كذلك يمنح المندوب السامى البريطانى السلطة لتعظيم شراء
 اليهود للأرض في مناطق معينة .

كانت هذه مكاسب مهمة للعرب . فلأول مرة في عشرين عاما بدا أن
 الحكومة البريطانية أدركت أن للأغلبية العربية في فلسطين قضية . أجل ،
 ليس من غير الإنصاف أن نقول إن سياسة الكتاب الأبيض كانت المحاولة

الوحيدة ، المعقولة والتي تقسم بالخيال ، لحل المشكلة الفلسطينية التي برزت في جميع سنوات الانتداب البريطانى الباعثة على الإحباط . لو أن كلا طرفى النزاع قبلا هذه السياسة ووافقا على التعاون فى خلق دولة ذات قوميتين ، لما اقتصر الأمر على تجنب العالم ما أعقب خلق دولة لإسرائيل من مرارة وإراقة دماء بل إن السكان الذى كان فلسطين والذى كان أكثر المجتمعات تقدما وتعلما فى المنطقة ، كان يظل على قيد الحياة ليصبح مصدر قوة ووحدته فى جميع أرجاء الشرق الأوسط .

فى عام ١٩٣٩ كان ما زال فى إمكان اليهود والعرب أن يعيشوا معا فى سلام إذا كان زعماء الجانبين على استعداد للتفاهم^(١) . فالصراع العربى — اليهودى لم يكن وراءه تاريخ طويل ، بالعكس لقد عاش هذان الفرعان من الجنس السامى قرونا فى سلام جنبا إلى جنب وكان التعصب هو النتيجة الاستثنائية التى ترتبت على التحريض التركى لا العربى . فاليهود الذين هربوا من إرهاب محاكم التفتيش الأسبانية ليمسحوا عن مأوى لهم فى الشرق فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانوا يعيشون قبل ذلك فى سلام وأمن فى ظل خمسة قرون من الحكم العربى فى أسبانيا . ومنذ العصور الموعلة فى القدم كان أبناء فلسطين من اليهود والعرب ممن يولدون فى نفس الأسبوع ، يعاملون كأخوة وأخوات فى الرضاعة . (كان للحاج أمين نفسه ثلاثة من أمثال هؤلاء الأخوة اليهود فى الرضاعة) . وعلاوة على هذا كان العالم العربى منذ أمد طويل ملجأ لليهود الفارين من مذابح أوروبا الشرقية والوسطى ، الأمر الذى يدل عليه تفوق عدد اليهود الروس فى مجموع الذين هاجروا قبل عام ١٩١٤ إلى الأرض المقدسة . لم تكن المرارة التى نشأت منذ

(١) تفاهم على ماذا؟ أن اليهود الذين تدفقوا على فلسطين إنما جاءوا بهدف واضح هو انتزاعها من أيدي أصحابها العرب وإخراجهم منها . . . المترجم .

عام ١٩٢٠ أكثر من انعكاس لخوف العرب من أن تفرض عليهم دولة عربية يقلب عليها الطابع الغربى ، وهو خوف لم تعمل على تبديده تصريحات من قبيل قول وايزمان أن فلسطين يجب أن تكون « يهودية بمثل ماتكون أمريكا أمريكية وإنجلترا إنجليزية » .

ربما كان من الكثير جداً أن نتوقع من اليهود أن يقبلوا هذا التحول البريطانى السريع وأن ينظروا إلى الكتاب الأبيض على أنه حل وسط ، عادل ومعقول . ولكن الذى يبعث على الدهشة ، بل والمفجع ، أن العرب لم يروا أن الحل القائم على ثنائية القومية كان يتيح لهم أفضل وسيلة لتجنب التهديد الممثل فى إنشاء دولة يهودية فى فلسطين .^(١) وعلى أى حال فقد رفض كل من العرب واليهود بصفة قاطعة ، سياسة الكتاب الأبيض ، لأنهم على غرار الصليبيين بقيادة الملك ريتشارد ، كانوا يريدون أن يستحوذوا على فلسطين كلها لأنفسهم ، ولم يكن فى صفوف العرب الآن رجل من طراز صلاح الدين ليقنعهم بقبول تسوية بينما كانت لاتزال لهم ميزة التفوق العددي بنسبة ٢ : ١ .

لم يبق سوى أمل واحد فى تنفيذ هذا الحل القائم على دولة من قوميتين ، هو أن تفرضه بريطانيا على كلا الجانبين .

ولكن هذا الأمل حطمه نشوب الحرب العالمية الثانية عند ما حولت بريطانيا اهتمامها إلى نواح وأماكن أخرى . أوقفت سياسة الكتاب الأبيض^{١٩٤١} وأصبحت فلسطين قاعدة عسكرية للهجوم الحربى البريطانى فى الشرق الأوسط . ورغم أنه قامت هدنة ضمناً بين العرب واليهود ، بدأ الصهاينة يستعدون للمعركة القادمة مع البريطانيين الذين كانوا قد انحازوا إلى العرب

(١) كان طبيعياً أن يرفض العرب هذه النظرية بعد ماخروه من أحابيل الصهيونية والسياسة البريطانية ، لأن قلوبهم للنظرية معناه اعتراف بأن لليهود حق فى فلسطين ، مثلهم مثل أهلها الأصليين وهم العرب ، ومثل هذا الاعتراف سوف يستغل لصالح الأهداف الصهيونية - المترجم .

وأرادوا وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، على حد اقتناع الصهاينة . بدأوا برامج للتدريب العسكري طبقةً للتعليم البريطاني ، كي يتعلموا استخدام الأسلحة الحديثة ، ولم يتورعوا عن القيام بعملية اغتيال من حين لآخر ، مثل مقتل اللورد موين الوزير البريطاني المقيم في الشرق الأوسط ، ومحاولة اغتيال السير هارولد ماك مايكل المندوب السامي في فلسطين .

وبانتهاء الحرب ضاعف الصهاينة جهودهم للاغتر بالسيطرة في فلسطين وبالتأييد الدولي لقضيتهم . كان هتلر قد أهداهم ورقة رابحة يلعبون بها ، هي عمليات التعذيب والمذابح التي لا توصف والتي تعرض لها اليهود في ألمانيا النازية والأراضي التي كان يحتلها الألمان ؛ واستخدم الصهاينة هذه الورقة لتشويه سمعة السلطات البريطانية في فلسطين بسبب رفضها الهجرة اليهودية غير المحدودة . وإذ رددت الصحافة والإذاعة في الولايات المتحدة والروسيا وأوروبا الغربية الصيحة ضد بريطانيا ، تشجع اليهود فأطلقوا قواتهم السرية ضد البريطانيين في حملة من العنف نافست الثورة العربية في ١٩٣٦ - ١٩٣٩ . واستخدمت كل حيلة ووسيلة لإدخال المهاجرين بالطريق غير المشروع . فأرسلت لجنة تحقيق إنجليزية - أمريكية إلى فلسطين ولكنها لم تعمل سوى أن أضافت وقوداً إلى النار بأن أيدت اقتراحاً تقدم به الرئيس ترومان بشأن هجرة ١٠٠ ألف يهودي فوراً من أوروبا لتعويض ما سببته الحرب من توقف الهجرة .

ما أن حل عام ١٩٤٧ حتى كانت بريطانيا قد نالت ما فيه الكفاية . فبدلاً من أن تعمل فلسطين على تقوية مركزها الإستراتيجي في الشرق الأوسط بتوفير قاعدة عسكرية مستقرة لها ، لم تعمل سوى أن أضعفتها أدبياً وعسكرياً ، وكان حكمها الذي امتد سبعة وعشرين عاماً حصاراً طويلاً بالفعل . فتدخلت الآن عن الكتاب الأبيض وأخطرت الأمم المتحدة باعتبارها خليفة

عصبة الأمم ، أنها - أى بريطانيا - لن تعود مسئولة عن فلسطين إعتباراً من ١٤/١٥ مايو من عام ١٩٤٨ . في هذه الأثناء كانت الأمم المتحدة قد شكلت لجنة تحقيق تابعة لها ، هي اللجنة الخاصة عن فلسطين والتابعة للأمم المتحدة . مره أخرى ساعد العرب على جلب النكبة على رؤوسهم بأن قاطعوا لجنة التحقيق المنبثقة من الأمم المتحدة . إذ بسبب عدم وجود أى آراء أو اعتراضات عربية عادت اللجنة بأغلبية سبعة أصوات ضد أربعة الى فكرة التقسيم . وكان التقسيم الذى اقترحتة يعطى العرب أقل واليهود أكثر مما أوصت به أية مشروعات سابقة . فبمقتسم فلسطين إلى ثلاثة جيوب عربية وأربعة يهودية ترتبط كل منها بشبكة من الإتصالات كان العرب سيخسرون القلب لصالح اليهود ولا يحصلون مقابل هذا إلا على نصف الجليل الذى كان كله تقريباً عربياً ، أما القدس فتكون منطقة دولية .

رفع تقرير اللجنة إلى الجمعية العامة التابعة للأمم المتحدة ، في نوفمبر ١٩٤٨ . قامت الحركة الصهيونية تؤيدها حكومة الولايات المتحدة بمفاوضات مكثفة من وراء الستار لكي تحصل على أغلبية الثلثين للموافقة على التقرير . واحتمت بريطانيا بالحياذ والامتناع عن التصويت . وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ، وبعد أن وقعت أقوى الضغوط على حلفاء أمريكا ، وخاصة على تلك السكتلة الكبيرة من دول أمريكا اللاتينية كي يؤيدوا مشروع التقسيم ، وافقت الجمعية العامة بأغلبية ثلاثة وثلاثين صوتاً من بينها صوت الاتحاد السوفيتي ، مقابل ثلاثة عشر صوتاً على تقسيم فلسطين إلى دولة عربية ودولة يهودية وفق الخطوط التى أوصت بها لجنة التحقيق التابعة للأمم المتحدة ، وبذا وافقت على إنشاء دولة إسرائيل عند انتهاء إنتداب بريطانيا .

وعلى الفور بدأ قادة البلاد العربية المجاورة يستعدون لليوم الذى تخرج فيه بريطانيا من فلسطين فيدخلون فيها ويخنفون الدولة اليهودية الوليدة في مهدها . باستثناء عبد الله ملك الأردن كانوا من الحماقة بحيث يتطلعون

إلى المفتي لإرشادهم . كان الحاج أمين بعد أن أيد انقلاباً موالياً لألمانيا في العراق ، قد قضى السنوات الأربع الأخيرة عن الحرب في برلين يصب جام غضبه على بريطانيا من راديو هتلر ويحاول عبثاً تحريض العرب على الثورة ضد الحلفاء . وفي ديسمبر ١٩٤٧ ومن مقره الجديد في القاهرة ، أقنع الدول العربية بأن تسمح له بإرسال فرقة من الفدائيين إلى فلسطين لإعداد الأرض أمام زحف الجيوش العربية الرئيسية بعد خروج البريطانيين . كان الغرض الرئيسي من هذه القوة الاستيلاء على طريق بيت المقدس — تل أبيب وهو الشريان الرئيسي للدفاعيين اليهود والطريق الذي تعتمز الجيوش العربية أن تستخدمه في زحفها على الأرض اليهودية . ولكن خطة المفتي أخطأت الهدف . فاللدائيون الذين أطلقت عليهم التسمية الطموحة وهي « جيش التحرير العربي » كانوا حفنة مهلهلة من غير النظاميين وأثبتوا أنهم ليسوا نداءً للقوات اليهودية . فلم يقف الأمر بهم عند الفشل في تحقيق هدفهم ، ولكنهم سمحوا لليهود بالاستيلاء على قطعة كبيرة من الأرض العربية ومن ثم خلق نوء شرقى اللطرون يشير إلى القدس حيث كانت مجموعة يهودية أخرى تنتظر الاستيلاء على المدينة الجديدة فور سحب القوات البريطانية .

وفي ١٥ مايو خرج البريطانيون وظهرت دولة إسرائيل إلى عالم الوجود، وهجمت الجيوش العربية — المصريون عن طريق غزة في الجنوب ، وهجم العراقيون والفيلق العربى الأردنى بقيادة الجنرال جلوب عن طريق جوديا وسمارية في الشرق، والسوريون واللبنانيون عن طريق الجليل في الشمال . تقدم العرب في أول الأمر . وبعد شهر من القتال احتل المصريون النقب، واستولى الفيلق العربى على القدس القديمة وشدوا الضغط جداً على القوات الإسرائيلية في المدينة الجديدة . وكانوا أيضاً على مسافة عشرة أميال من البحر المتوسط عند الدد ؛ واندفع العراقيون عن طريق سمارية حتى أصبحوا على بعد خمسة عشر

ميلا من حيفا والتهبوا جزءاً كبيراً من الجيب المخصص لليهود في الجليل .
كان السوريون واللبنانيون في الشمال هم وحدهم الذين بدا تقدمهم بطيئاً ،
وفي الوسط نجح الاسرائيليون الذين كانوا يقاتلون بصلاية ، في إبقاء خطر
نموه اللطرون موجهاً إلى القدس .

عند هذه النقطة ، فإن الأمم المتحدة عن طريق وسيطها الكونت فولك
برنادوت السويدي ، أقنعت كلا الجانبين بقبول هدنة . كانت هذه بغير شك
اللمحة المناسبة للعرب كي يتفاوضوا عن طريق الأمم المتحدة في سبيل الحصول
على تسوية أكثر إنصافاً وأكبر قابلية للتنفيذ ، من تلك الجراحة الفظيعة التي
دعها الجمعية العامة التقسيم . ولكن بعد حكايات الدعاية المبالغ فيها عن
الهزائم الساحقة التي لحقت باليهود ، وهي الحكايات التي كانت تتدفق من
راديو القاهرة ، راحت الجماهير في جميع أرجاء العالم العربي يرفعون أصواتهم
الصاخبة مطالبين بحولة أخرى . وهكذا بعد أربعة أسابيع من بدء الهدنة ، جددت
الجيش العربية الهجوم وهي تعتقد عن ثقة أنها بدفعة أخرى سوف تقضي على
إسرائيل كلية . ولكن القيادة العليا الإسرائيلية كانت قد أحسنت استغلال
الهدنة للحصول على الأسلحة والطائرات من روسيا وتشيكوسلوفاكيا تحديداً
للحفظ الذي فرضته الأمم المتحدة على تقديم الأسلحة إلى أي من الجانبين ؛
وبهذا المعتاد الحديث سرعان ما بدا أثر تفوق ما تعلمه اليهود من تنظيم وتدريب
من البريطانيين خلال الحرب العالمية الثانية . كان العرب يعوزهم أي شكل
من التنسيق أو التخطيط المشترك ، وعندما شنت الجيوش الإسرائيلية هجومها
المضاد ، انفرط عقدهم . استولت الجيوش الاسرائيلية على اللد والرملة
وطردت جميع سكانها بعد أن نقلت الذكور ممن كانوا في سن الخدمة
العسكرية إلى معسكرات الاعتقال الاسرائيلية . واجتاحت الجليل كلها
واضطر الفياق العربي الآن إلى تحويل القوات من القدس إلى سد الثغرات

التي أحدثها الهجوم الاسرائيلي وفقدوا آخر فرصة للاستيلاء على القدس الجديدة .

وفي ١٨ يولييه فظمت الأمم المتحدة هدنة ثانية . مرة أخرى استخدم الاسرائيليون فترة توقف القتال للتزود بالأسلحة والطائرات من السكتلة السوفيتية . هذه الفرصة لم تسكن متاحة للعرب الذين كان مصدر إمداداتهم من الأسلحة هو الدول الغربية التي كانت تلتزم بحظر الأسلحة الذي فرضته الأمم المتحدة . وأكثر من هذا أن العرب أخطأوا كثيراً تقدير عدد القوات التي يتطلبها إنزال الهزيمة بالاسرائيليين ، وكان الجيش الاسرائيلي يزيد بالفعل على ضعف قوة جميع القوات العربية . فلم يزد ما للعرب من قوات في الميدان على ٥٦٠٠٠ وبدأ بالقياس إلى قوة إسرائيل البالغة ١٢٠٠٠٠ .

بمثل هذا التفوق في الرجال والعتاد آلى الاسرائيليون على أنفسهم أن يهزقوا الهدنة ثانية ، وفي ١٥ أكتوبر اندفعوا صوب المصريين في الجنوب وفي ظرف أسبوع استولوا على بير سبع وراحوا يردون المصريين نحو غزة . لقد أطلق العرب آخر سهامهم ، وبرغم الدعوة إلى هدنة ثالثة ، لم يكن ثمة شيء يمكن أن يجنبهم خسارة جميع الأرض التي كانوا قد كسبوها وخسروا شيئاً آخر بالإضافة إلى هذا . وفي فبراير ١٩٤٩ وقعت مصر هدنة مع إسرائيل وتلاها لبنان بعد أربعة أسابيع . وعاد السوريون والعراقيون إلى بلادهم في اشمئزاز . كان الاسرائيليون يحتلون الآن كل النقب حتى خليج العقبة ، وفي أبريل وقع شرق الأردن هدنة وهو الذي كان قد تحمل وطأة القتال وتركوه الآن وحيداً في الميدان

انتهت الحرب . لقد محيت فلسطين من عالم الوجود . وخرجت إسرائيل ليس فقط بجميع الأرض التي منحت للدولة اليهودية طبقاً للتقسيم الذي أقرته الأمم المتحدة ، ولكنها حصلت أيضاً على النصف تقريباً من المنطقة المخصصة

للعرب بما فيها شمال الجليل مع الناصرة وميناء عكا ، وبير سبع ، بالإضافة إلى هلال عريض من الأرض يمتد من البحر الميت إلى الرملة ، والقدس القديمة ، وترك للعرب سمارية وجوديا والقدس القديمة .

إلا أن ما كان أقطع وأفجع من أى شيء آخر ، هو مصير ٧٠٠.٠٠٠ لاجئ عربي ، كان بعضهم قد هرب أمام الزحف اليهودي ولكن معظمهم كأهل اللد والرملة ، أخرجتهم الجيوش الإسرائيلية المنتصرة من دورهم ومزارعهم ووجدوا أنفسهم الآن وقد جمعوا في معسكرات أقيمت على عجل في قطاع غزة وفي الحطام الممزق الأوصال والذي كان من المقرر ذات مرة أن يكون الدولة العربية . هناك يقيمون حتى يومنا هذا ببيتهم الإحسان من الأمم المتحدة على قيد البقاء ، ويزدادون عدداً كلما انتهت سنة عديمة الأمل بأخرى مثلها . ومع ذلك لايزالون يحرمون من الحق الأولي في إعادة توطينهم في الأرض التي كان يفلحها أسلافهم منذ العصور الموعلة في القدم ، فيشكلون صورة مختصرة لشقاء البشر الذين فقدوا الدار والأمل وحتى احترام الذات الممثل في أن بكسب الإنسان ما يقيم أوده .

عندما كتب جورج أنطونيوس في عام ١٩٣٨ عن مسؤولية الإنسانية في تخفيف آلام اليهود في ألمانيا النازية أطلق هذا التحذير المتسم بالنبوءة : « إن إلقاء ثقل العبء على فلسطين العربية هو تهرب نفسي من الواجب الذي يقع على عاتق العالم المتحضر بأكمله . . ما من قانون للاخلاق يمكن أن يبرر اضطهاد شعب في محاولة للتخفيف من اضطهاد شعب آخر . ليس علاج طرد اليهود من ألمانيا هو في طرد العرب من وطنهم ؛ ولا يجوز أن يتم تخفيف الحمة اليهودية على حساب إنزال ضائقة مثلها بسكان أيرباء ومسالين » . أما أن هذا هو بالضبط ماسمحت بريطانيا وحلفاؤها الغربيون بمحدوثه في فلسطين ، هذه الحقيقة خلقت مرارة وخوفاً هما من العمق والدوام في قلوب

العرب ، بحيث أنه برغم انقضاء خمسة عشر عاماً^(١) منذ التوقيع 'على الهدنة، لم تتم تسوية سلام حتى الآن ، ولا يزال العرب في حالة حرب مع إسرائيل ، يفرضون عليها المقاطعة الاقتصادية ، وخط أفاييب البترول من العراق إلى حيفا مقطوع ، ولا يسمح للسفن والشحنات الاستراتيجية الإسرائيلية بالمرور في قناة السويس . وما من زعيم عربي يجسر على أن يناقش أو حتى يحلم بمناقشة - السلام مع إسرائيل طالما يحرم اللاجئون الفلسطينيون من العودة إلى وطنهم والإقامة فيه .

لكي نكون منصفين فإن مأساة فلسطين لم تكن على الإطلاق غلطة بريطانيا أو الدول الغربية أوحى الأمم المتحدة . فبجمل وجسارة حتى النهاية أضع العرب تلك الفرص القليلة والتي كانت حقيقية برغم ذلك للحصول على نصف رغيف . فإذا كانوا لم يترك لهم سوى كسرة خبز جافة ومرة فيجب أن يقع بعض اللوم على الأنبياء الكذابين الذين ضللوهم وطالبوهم في تطرف أعمى برفض أي تراض وتفاهم . وبعد أن فات الأوان كثيراً راحوا الآن يصرخون مطالبين بالحدود التي قررتها الأمم المتحدة . ولم تكن إسرائيل لتقبل أي حديث عن تنازلهما عن شبر واحد مما فتحته . كل ما كان يمكن للعرب عندئذ - أو بالأحرى للامير عبد الله - هو أن يضعوا ماتبقى من الدولة العربية المقطوعة الأطراف ، تحت جناح شرق الأردن

ولما ذم هذا فان عبد الله وسع نطاق ممتلكاته التي أصبحت الآن تعرف باسم المملكة الأردنية التي يتكون ثلث سكانها من فلسطينيين كان نصفهم وما يزالون لاجئين . وكذلك وقع على حكم باعدامه فعلا ، لأن التصرف الذي أقدم عليه حطم في النهاية آمال الفتى في العودة كزعيم لفلسطين عربية .

(١) بالنسبة إلى السنة التي نشر فيها هذا الكتاب - المترجم .

كان المفتي قد شكل خلال الحرب حكومة عربية لعموم فلسطين لتتولى الأمر في المناطق التي يسيطر عليها العرب وجند جيشاً لمساندة دعواه . ولكن النيلق العربي بأوامر عن عبد الله كان قد بدد هذه المجموعة من الدماء وحمل المفتي على أن يحمل عصاه ويرحل . كان ضم عبد الله للبقيّة العربية في فلسطين ، وهو الأمر الذي جاء يختم هذه الحادثة والصراع الطويل بين هذين الرجلين حول السياسة والتكتيكات العربية خلال الانتداب ، نقول إن هذا الضم كان القشة الأخيرة بالنسبة إلى المفتي . وفي ٢٠ يولية ١٩٥١ أطلق قاتل مأجور من قبل ابن عم المفتي وهو موسى الحسيني ، النار على عبد الله فأرداه قتيلاً وهو يغادر المسجد الأقصى في القدس بعد صلاة الجمعة .

سوف نروى في موضع قادم من هذا المجلد قصة بقية هذا الفصل المليء بالآلم من التاريخ العربي . ولكن كتذييل على قصة فلسطين فإن فكرة غريبة تندفع لتطل علينا . لو أن فرنسا وليست انجلترا هي التي اختطفت فلسطين بعد الحرب العالمية الاولى لجاز أن أصبحت فلسطين دولة عربية مستقلة على نحو ما تحقق بالنسبة إلى سوريا ولبنان . حقيقة كان سيمعين على الفلسطينيين أن يتحملوا « المهمة التمدينية » الخائفة التي كانت تميز إدارة ممتلكاتها العربية في شمال أفريقية والمشرق ، ولحدث في فلسطين نفس إراقة الدماء مما وقع في سورية ولبنان . ولكن الفرنسيين لم يكونوا مرتبطين بالمنظمة الصهيونية العالمية ارتباط البريطانيين بها في نهاية الحرب العالمية الاولى . معها أصبحت فرنسا فيما بعد ثيقة الاتصال بإسرائيل نكابة في العرب الذين طردوها من سورية ولبنان في عام ١٩٤٥ ، فلو أنها كانت الدولة المنتدبة على فلسطين في عام ١٩٢٠ لما سمحت أبداً للصهاينة بتمثيلات أقدامهم فيها ، ذلك أن فرنسا على عهد كليمنصو لم تكن لها علاقة بتصريح بلفور . فبدلاً من أن تكون فلسطين « وطناً قومياً » لليهود كانت تصبح محمية فرنسية . وعندما يحىء الوقت الذي

— ٤٥٥ —

يشور فيه العرب ويطرحون النير الفرنسى ، يكون عرب فلسطين قد تعاونوا
مع أشقائهم اللبنانيين والسوريين فى الظفر باستقلالهم . واذ كان يجرى
المحافظة على دولة فلسطين سليمة لم تمس ، لكسب الشرق الاوسط كله
الاستقرار والقوة .

(٢٨)

عصر نوري السعيد

بينما كانت فلسطين تتجه نحو الكارثة خلال العقود الثلاثة التي أعقبت نقلها من وصاية تركيا إلى الوصاية البريطانية في عام ١٩١٨ ، وكان العراق يبدأ السير في فترة من التوسع الاقتصادي والتقدم السياسي لم يعرفهما منذ الايام الذهبية للخلافة العباسية كان شمال العراق قد حقق مايزيد على توقعات القامئين بالتفقيب عن البترول في أوائل العشرينات من القرن الحالي وثبتت شركة نفط العراق أقدامها بوصفها صاحبة الامتياز الرئيسية . ولإذ تدفق « الذهب الاسود » من آبار الزيت في الموصل وكركوك والبصرة بخطوط الانابيب إلى طرابلس وحيفا والخليج الفارسي ، انطلقت الدولة العراقية من الشرقة التي نسجت حولها قرون أربعة من الحكم العثماني ، وراحت تنمو لتسكون مجتمعاً حديثاً ، غنياً ومزدهراً . وخلال هذه الفترة تقدم العراق من الناحية السياسية أيضاً على نحو لم يعرفه شعب عربي آخر ، سواء أكان مكبلاً بالاغلال أم حراً . فعلى خلاف كل دولة عربية أخرى وضعت تحت الانتداب بعد الحرب العالمية الاولى كان العراقيون وحدهم هم الذين ظفروا باستقلالهم قبل الحرب العالمية الثانية . وبرغم أن نظام الحكم ظل في جوهره حكم أقلية تسانده بريطانيا مع قشرة رفيعة من الديمقراطية لتضفي عليه مظهر الحكم البرلماني الحديث ، كان العراق قد أصبح عضواً كاملاً في عصبة الامم في وقت كان عرب فلسطين ما يزالون محرومين من أية ذرة من الحكم الذاتي .

هذا التقدم الرائع كان راجعاً إلى حد كبير إلى تأثير نوري السعيد ذلك الدكتاتور اللطيف والفاعم الملمس الذي كان يبدو كشاة عجوز ولكنه حكم العراق بيد من حديد معظم فترة الثلاثين عاماً . فعلى خلاف الحاج أمين الذي انحرف عن طريقه ليجعل التعاون مع أية سلطة بريطانية مستحيلاً فإن نوري السعيد لم يقف عند حد أن جعل بريطانيا تعمل معه وتعطيه ما يريد ، بل وجعل هذا فرضاً عليها .

ولد نوري في عهد عبد الحميد بدمشق في عام ١٨٨٨ . ولما كان الإن الوحيد لموظف حكومي صغير يعيش على مرتبه الهزيل في بيت جدرانه من الطين في بغداد ، حصل نوري على تعليم عسكري تركي ، أولاً في مدرسة ابتدائية في بغداد وبعد ذلك وابتداء من سن الرابعة عشرة ، في كلمة حربية في الآستانة . كان تلميذاً ناهياً من تلاميذ السككية . ففي عام ١٩٠٦ ولم يكن قد بلغ الثامنة عشرة من العمر بعد حصل على وظيفة في إحدى وحدات المشاة الخيالة التي تشتغل بالأعمال البوليسية بما في ذلك جباية الضرائب ، في العراق . وفي عام ١٩١٠ وكان قد تزوج من شقيقة لصديقه ورفيقه في بغداد جعفر العسكري الذي تزوج بدوره من أخت نوري - أرسل إلى كلية أركان الحرب التركية ، ثم أرسل بعد عامين للعمل مع القوات التي تعمل ضد الثور البلغاريين ، وأصبح أول رجل يستخدم الطائرات في القتال بأن ألقى قنابل يدوية على معسكر بلغاري ، من طائرة تركية من ذات السطحين .

وفي عشية الحرب العالمية الأولى أصبح نوري وقد زالت عنه الأوهام من ناحية رجال تركيا الفتاة ، ويشعر بالقلق إزاء ازدياد النفوذ الألماني على الباب العالي . وتحت تأثير عزيز على انضم إلى الجمعية العسكرية السرية وهي العهد . وعندما حكم على عزيز على بالسجن مدى الحياة كان نوري من بين الذين ضغطوا على السفير البريطاني في الآستانة كي يتوسط لدى الباب العالي .

وبعد الإفراج عن عزيز على خرج نوري خاسة ليثير المتاعب للأتراك في العراق : ولكنه لم يتجاوز البصرة حيث أصيب بمرض في الرئة في اللحظة التي دخلت فيها تركيا الحرب ضد بريطانيا، فنُقل إلى الهند كى يعالج في إحدى المستشفيات وسرعان ما شفى ؛ ولكنه قضى أحد عشر شهرا فيما يشبه الاعتقال وذلك بناء على أوامر السلطات الهندية - البريطانية التي كانت تشبهه في أنه يدبر ثورة عربية عامة ضد تركيا وخشيت أن يثير المتاعب في صفوف المسلمين الهنود .

شهد ديسمبر من عام ١٩١٥ عودة نوري إلى القاهرة بدعوة من عزيز على ، ولكن لما استسلمت الحامية البريطانية عند كوت العمارة للأتراك في أبريل التالي وتبدد الهجوم البريطاني في الجزيرة ، اضطر إلى التخلي عن خطته بشأن بدء ثورة في العراق وتوجهه للانضمام إلى الشريف حسين التي كانت قواته قد استولت الآن على مكة . ظل عاما يتولى قيادة المدفعية التي تساند جيوش أبناء الشريف الكبار وها على و عبد الله التي بقيت في الاحتياطى في الحجاز بينما تقدم فيصل شمالا إلى شرق الأردن . ولكن روح نوري المغامرة ثارت على هذا الدور الدفاعى ، وفي عام ١٩١٧ تمكن من الانضمام إلى صهره جعفر الذى كان قد هرب من جيش السلطان بعد عمليات إعدام الوطنيين السوريين في عام ١٩١٦ وتولى آلان قيادة قوات فيصل . نظراً لأن نوري كان يمارس فنون الحرب بأسلوب الجندى النظامى لهذا كان شخصية عسكرية غير ملائمة باعتباره قائد مدفعية فيصل وكان يظهر بطريقة سافرة جداً ازدراءه لرجال التماثيل الذين كانوا يميلون إلى يفلتوا إلى الصحراء بمجرد أن يملأوا أخرجهم بالغنائم التركية . وكثيرا جدا كاد أن يشتبك مع عوده أبى طى بعد ملاحظة مهمينة أباها نوري بشأن افتقاد البدو إلى النظام ، أغضبت رئيس قبيلة الحويطات . وغالباً أيضاً ما وجد نفسه في شجار مع ت. ا. لورنس. فإذا كان

يرفض نظرية لورنس في عدم الاشتباك مع الأتراك إلا بشن غارات بأسلوب «إضرب واهرب»، فكثيرا ما بدد نوري ذخيرة ثمينة في هجمات أمامية . ولكن ، رغم كل تصلبه في المسائل العسكرية، كان شخصية محبوبة في حاشية فيصل ، وكان في الأوقات الصعبة يعمل على رفع الروح المعنوية بإحساس هائل للفكاهة وكان يحشد بقوة تعاطف رشقة من زجاجة ويسكي كعلاج للسكابة والخوف أو البرد . ولما دخل فيصل دمشق في أكتوبر ١٩١٨ جعل نوري قائدا لحامية المدينة ، فأخذ بصفته هذه الموقف للأمير عندما حاول عبد القادر زعيم الجالية الجزائرية في سوريا وحفيد بطل نضال الجزائر ضد فرنسا، الاستيلاء على المدفعية بمساعدة ثورة من الدروز . ومكافأة على الدور الذي لعبه نوري في هذه الحملات رقي إلى رتبة الجنرال ، ومنحته بريطانيا وسام الخدمة الممتازة وجعلته رفيقاً من وسام سان مايكل وسان جورج . ولكن أعظم جزاء كان في الرعاية التي أسبغها عليه فيصل الآن . فعندما توجه فيصل إلى لندن في ديسمبر ١٩١٨ ثم إلى باريس ليحضر مؤتمر الصلح في فرساي ، صحبه نوري . ومرة ثانية في عام ١٩٢٠ كان نوري المستشار الرئيسي لفيصل في سان ريمو عندما تقدم الأخير بدفاعه الأخير غير المجدي ، من أجل الاستقلال العربي . وبعد أن طرد الفرنسيون فيصل فجأة من سوريا صحب نوري مولاه إلى المنفى في فلسطين .

في هذه الأثناء ، وبسبب العناد العجبي من جانب المندوب المدني البريطاني الكولونيل ويلسون ، إلى حد كبير ، كانت الأمور في العراق تسير من سيء إلى أسوأ . كانت «عصبة الجزيرة» المكونة من ضباط فيصل العراقيين تثير الدعوة إلى استقلال العراق مع اختيار عبد الله ليكون ملكا عليه ، وهو ماسبق أن طالب به المؤتمر العراقي الذي عقد في دمشق قبل مؤتمر سان ريمو . التمس نوري من ويلسون أن يلقى بالا إلى هذا الهياج الذي أثاره العراقيون الأباة والمشاكسون ولكن دون جدوى . وفي يونيو ١٩٢٠ وقع المحتوم ؛ فثارت قبائل وادي

النفقات ضد فرض الحكم الإستعماري البريطاني المباشر . استمرت الثورة حتى أكتوبر ، وبلغت خسائر كلا الجانبين ١٠.٠٠٠ تقريباً ، وكانت التكلفة بالنسبة إلى دافع الضرائب البريطانى ٤.٠٠٠.٠٠٠ ر.٠.٠.٠ (٢.٠٠٠.٠٠٠ دولار) أو ثلاثة أمثال مات تكلفته جميع المعونة البريطانية للثورة العربية فيما بين عامى ١٩١٦ و ١٩١٨ . وبعد استيلاء الفرنسيين على دمشق فى يولييه اتخذت الثورة طابع « جهاد » إلى أن بعثت الحكومة البريطانية فى النهاية بالسير برسى كوكس وكان شخصاً مستنيراً ، ليحل محل السكولونيل ويلسون الذى يتبع أسلوب القمع .

بعد ذلك سمح للعراق بأن ينتخب برلماناً وحكومة تمثيليين وأصبح الموظفون البريطانيون مجرد مستشارين من الناحية النظرية . ورغم أن كوكس احتفظ بحق الاعتراض على جميع القرارات الكبرى المتعلقة بالسياسة ، إلا أنه تمت خطوة متواضعة نحو الاستقلال . وفى هذه الأثناء أوقفت إراقة الدماء ومكثت مؤتمر القاهرة من الإستجابة إلى مطالبة العراقيين بملكية هاشمية . وإذ أقر المؤتمر سياسة من الاقتصاد مع الشرف ، دعا فيصل إلى التقدم إلى استفتاء على اختياره ليكون ملكاً على العراق ، وجعل من الواضح أنه يأمل فى أن يتم سريعاً إبدال الانتداب بمعاهدة تحالف . قبل فيصل ، وبعد انتخابه بأغلبية ساحقة ، نودى به رسمياً ملكاً على الدولة العراقية العلمانية فى ٢٣ أغسطس ١٩٢١ . لأول مرة فى التاريخ العربى منذ وفاة محمد فُصل الدين عن الدولة رسمياً ، وأقيم نظام علمانى للحكم مع ملائكة دستورى مكان الخليفة .

بالنسبة إلى نوري السعيد كان قدوم فيصل إلى العراق جمعاً ساراً للشمل ، إذ نظراً لأنه لم يكن لديه عمل يؤديه فى أثناء وجود مولاه فى المنفى ، قبل منذ وقت وجيزة دعوة لاسكى يصبح رئيس أركان حرب الجيش فى العراق . جاءت الدعوة من جعفر وزير الدفاع العراقى الجديد . فلما أعلن مؤتمر

القاهرة قرارانه سارع نوري إلى استخدام ما يلزم مركزه من تأثير ، لإقناع زملائه الضباط والمواطنين بتأييد ترشيح فيصل . أجل ، إن انتخاب الأمير في بلد لم يكن شديد الرغبة بالتأكيـد في أن تحكمه أسرة مستوردة حتى ولو كانت من سلالة الخليفة على ، بطل العراق التقليدي ، هذا الإنتخاب كان راجعا إلى حد كبير إلى المناورات الحماسية من جانب صديقه وخادمه المخلص . مامن أحد كان يدرك هذا بأكثر مما أدركه فيصل ؛ ومنذ انتخابه إلى حين وفاته في عام ١٩٣٣ ، أصبحت قصة العراق قصة ماقام بين هذين الرجلين من مشاركة وتفاهم .

لقد هيا هذان الأمران من نجاح نادرا ورائعا من المواهب . كان نوري يقدم القوة الحركية والعبقرية التنظيمية اللازمين لإيقاظ العراقيين من جديد من سباتهم ، بينما استخدم فيصل تلك المهارات في الدبلوماسية وتلك السهولة الخارقة المؤلف التي يعامل بها الناس والتي كان قد حاول بها خلال الثورة العربية أن يمزج بين مثل هذا العدد الكثير من القبائل المعادية بعضها بعضا ليخلق منها وحدة محاربة واحدة . لعله مامن رجلين خلافهما كان يمكن أن ينجزا ما أنجز فيصل ونوري من ناحية بناء دولة عصرية في العراق في فترة مابين الحربين العالميتين . ومن الملتحق أنه مامن بلد عربي آخر كان يشكل مثل هذا العدد الكثير تماما من المشكلات والإقسامات . كان العراق شعبا من أقليات عصرية ودينية . كان ثلاثة أرباع ملايينه الثلاثة من الأنفس عربا ، ومن الربع الباقي ويتركز بوجه خاص في منطقة الموصل ، نصف مليون من الأكراد وأغلب الباقيين من الآشوريين . وفي المجال الديني ويرغم أن الأقليات غير المسلمة ضئيلة نسبيا ، كان المسلمون ينقسمون بالتساوي بين الشيعة وأهل السنة ، مع كل ما يعنيه هذا من ناحية التنافس الطائفي

التقليدى . وحتى الجالية المسيحية الصغيرة كانت تتكون من أتباع مالا يقل عن ست كنائس مختلفة .

وبالإضافة إلى هذه التقسيمات ، كثيراً ما نشبت المنازعات القبلية حول ملكية الأرض وحقوق الماء ، وخاصة في وادى الفرات حينما كانت الحكومة تحاول تنفيذ مشروع ما للمحافظة على الماء أو لرى مساحات من أراضى الرعى القبلية من أجل الزراعة ، وكانت هناك صدامات مستمرة على الحدود مع العربية السعودية وأيضاً مع الكويت التى كان العراق يدعى الحق فى امتلاكها . وحاول الأكراد الذين لم يندمجوا أبداً خلال الحكم العثمانى فى المجتمع الذى يغلب عليه العنصر العربى ، الانفصال وإقامة دولة خاصة بهم تتمتع بالاستقلال الداخلى . لكن انتصر فيصل على هذه المشكلات . فاشترى الأكراد إذ عرض تمثيلهم فى الحكومة العراقية ؛ وعوضت القبائل ؛ وبرغم أن النزاع مع الكويت لم يفض أبداً فقد عقد اتفاق بشأن الحدود مع السعوديين .

فى هذه الأثناء راح نورى كرئيس للاركان أولاً ثم كوزير للدفاع من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٣٠ ، يعمل على تحديث القوات المسلحة العراقية . فاستعان كثيراً بالتسهيلات التى توفرها كليات أركان الحرب والكليات العسكرية فى بريطانيا والهند البريطانية ، وبفضل المعدات البريطانية أنشأ وحدات ميكانيكية ومدربة حديثة . واستخدم أيضاً وجود أسراب سلاح الطيران الملكى فى الحبانية بالعراق لإنشاء سلاح جوى صغير ولكنه على درجة عالية من الكفاءة . مثل هذا التعاون جاء بسهولة إلى نورى لأنه كان يحب صحبة الجنود النظاميين البريطانيين ، ولأن إحساسه بالفكاهة جعله دائماً موضع الترحيب فى وسطهم . ومن كان هدفاً خاصاً لدعاياته رئيس المخابرات البريطانية الذى لم يغفل نورى أبداً عن أن يحميه قائلاً « كيف حالك يا أبو الجواسيس ؟ »

كان نوري وفيصل يعرفان أيضاً أنه كلما زاد تعاونهما مع بريطانيا توثقاً ، أسرع العراق بالحصول على الاستقلال . وهنا اقيما مساعدة كبيرة من السير برسي كوكس وجماعة نزيهة من الموظفين البريطانيين ممن كان هدفهم أن يساعدوا العراق على التحرر في أقرب فرصة ممكنة . وعلاوة على هذا ، فعلى خلاف فلسطين حيث غلبت على ذهن بريطانيا اعتبارات سياسية واستراتيجية أخرى مثل تصريح بلفور وتسليط فكرة القواعد لحماية قناة السويس ، قنع البريطانيون في العراق بأن يروا مصالحهم يحميها مزيج من القواعد الجوية وحين النية من جانب العراق . لهذه الأسباب حلت في أكتوبر ١٩٢٢ معاهدة تحالف مكان الانتداب . أما الخلافات التي نشأت فيها بعد فلم تتعلق بمبدأ الاستقلال بقدر ما كانت تتعلق بدرجة السيطرة التي يجب أن تواصل بريطانيا ممارستها . وبسبب علاقة نوري الممتازة مع المندوبين السامين الذين تعاقبوا في بغداد ، يرجع إلى حد كبير تضيق الفجوة تدريجياً التي كانت تفصل بين وجهات النظر البريطانية والعراقية بصدد هذه المشكلة . ففي يناير ١٩٢٦ ، تم في ديسمبر ١٩٢٧ ، وقعت اتفاقات أعطت العراقيين باطراد مزبداً من الإستقلال الداخلي . وفي يونيو ١٩٣٠ وبعد أن أصبح نوري رئيساً للوزراء لأول مرة بعد وقت قصير ، عقدت معاهدة نهائية أعطت العراق استقلاله ، فضلاً عن وعد بأن تؤيد بريطانيا انضمامه إلى عضوية عصبة الأمم ، وبأن تعقد معه تحالفاً عسكرياً لمدة خمس وعشرين سنة . وقعت على أكتاف العراق الآن مسؤولية الدفاع والعلاقات الخارجية فضلاً عن الشؤون الداخلية . وسمح لبريطانيا بأن تواصل استخدام القواعد الجوية في العراق ومقابل هذا أرسلت بريطانيا بعثة عسكرية لتقديم المشورة بصدد المزيد من بناء القوات المسلحة العراقية .

وصل نوري الآن إلى قمة حياته السياسية . ولكن لم تمض شهور قليلة

على انتخاب العراق في عصبة الأمم في عام ١٩٣٢ ، حتى وجد نفسه وقد أقصى من منصبه نتيجة مناورات قام بهام محام شاب هو رشيد عالي الجيلاني وهو شخصية ذكية ولكنها غير مستقرة . كان رشيد قد خدم في عدة حكومات عراقية ولكنه انضم في عام ١٩٣١ إلى المعارضة وشكل مجموعة ضغط قومية باسم حزب الأخوة الوطنية ، لإثارة المشاعر من أجل الحصول على مزيد من الاستقلال ؛ وفي سبيل شرائه عينه فيصل رئيساً للوزراء ومعه نوري وزيراً للخارجية . ولكن التجربة لم تنجح وفي سبتمبر ١٩٣٣ توفي فيصل بسبب هبوط في القلب ، وإذ لم تعد لنوري السيطرة انفجر العراق في بحر من القلق . أخذ رؤساء الوزارات والحكومات يخيئون ويخرجون في تعاقب سريع ، إلى أن حل أكتوبر ١٩٣٦ عندما تحالف ضابط طموح من ضباط الجيش هو الجنرال بكر صدقي ، مع وزير سابق مصاب بخيبة الأمل هو حكمت سليمان ودبروا انقلاباً بهدف إبعاد تأثير نوري عن توجيه شئون العراق . اغتيل جعفر ، وبدأ نوري إلى مصر لما أصبح حكمت سليمان رئيساً للوزراء في ظل حماية بكر . ولكن لم يمض عام حتى مات بكر أيضاً على أيدي أحد السفاكين ، وبعد فترة وجيزة لم تسكن فيها حكومة ، عاد نوري يوم عيد الميلاد من عام ١٩٣٨ ليتولى رئاسة الوزارة للمرة الثانية .

ولكن متاعب العراق لم تسكن قد انتهت بعد ، إذ في أبريل ١٩٣٩ مات الملك غازي ابن فيصل وخليفته في حادث سيارة وخلفه فيصل وهو طفل في الثالثة من العمر ، واختير عبد الإله وصياً على العرش وهو ابن ملك الحجاز المعزول . لم يكن موت غازي ليوقع في لحظة أسوأ من التي حدث فيها إذ بينما كانت سحب الحرب تتجمع في سماء أوروبا ، تطورت المنافسات المريرة بين الزعماء العراقيين السياسيين فاحترفت إلى خضم الصراع بين القوى الأوروبية . وعند نشوب الحرب العالمية الثانية أوفى نوري بالتزامات العراق

وفقاً لمعاهدة ١٩٣٠ ، فطرد المبعوث الألماني في بغداد، الدكتور فريتز جروبا ، هو وجميع الرعايا الألمان العاملين في العراق ، وأعلن في عزم أن العراق يؤيد قضية بريطانيا من كل قلبه . كان نوري منذ أن عاد إلى العراق يبحث عن فرصة للتخلص من جروباً الذي كان يتآمر مع بكر ورشيد على القيام بانقلاب آخر يأتي إلى السلطة بحكومة موالية للألمان . ولكن إبعاد جروباً لم يوقف مؤامرات رشيد على بأكثر مما نجح الاستقبال الفخم الذي أعده نوري لمفتي القدس الذي وصل حديثاً من منفاه في بيروت ، في تعديل كراهية الحاج أمين المرصية للبريطانيين ولأى عرب ساندون بريطانيا . لم يعمل رشيد على إلا على زيادة حدة جهوده للإطاحة بحكومة نوري الموالية للبريطانيين وكرس المفتي كل طاقاته من أجل مساعدته .

وفي ربيع ١٩٤٠ زادت قوة العنصر الموالي للألمان ويضم معظم الوطنيين المتطرفين ، زيادة بالغة بفعل الانتصارات الألمانية الكاسحة في أوروبا ، وتحول الرأي السياسي الآن بقوة لصالح الألمان . اغتيل وزير مالية العراق رستم حيدر الذي كان صديقاً حميماً لنوري ، وظهر عنصر جديد موال للألمان يدعى «المربع الذهبي» . كانت هذه الجماعات تتكون من أربعة من قواد الجيش والطيران البارزين - وهم الضباط الذين يتولون قيادة فرق الجيشين الأول والثاني والقوات الميكانيكية ورئيس سلاح الطيران . واستغل جماعة المربع الذهبي موجة الشعور الموالي للألمان التي سادت بين السياسيين العراقيين ، فأخضعوا الوصي على العرش لإرادتهم فعين رشيد على رئيساً للوزراء . وفي سبيل الإبقاء على المظاهر سمح لنوري بالبقاء في الحكومة كوزير للخارجية ، ولكن السلطة الحقيقية تركزت الآن في أيدي حزب رشيد وهو «الأخوة الوطنيون» ومؤيديهم العسكريين .

أصبح المصير واضحاً بالنسبة إلى بريطانيا وأصدقائها في العراق . فأنار (٣٠ - العرب)

المفتى على نحو خطير ، المشاعر التي سببها ما عملته بريطانيا في فلسطين ، وأقنعت الانتصارات الباهرة التي أحرزتها ألمانيا في الغرب ، عدداً كثيراً جداً من العرب بأن بريطانيا سوف تهزم حتماً . وفي رمية مستميتة أخيرة نجح نوري في إقناع زملائه في الوزارة بأن يعلن العراق الحرب على أعداء بريطانيا ، شريطة أن تتعهد الحكومة البريطانية بتنفيذ سياسة الكتاب الأبيض في فلسطين بغض النظر عن الاعتراضات الصهيونية . كانت مقاومة رديئة من جانبها . فأياً كان الأمر فكان حتماً أن يكسب رشيد عالي وأصدقائه . فلو قبلت بريطانيا لأمكنهم أن يسيروا إلى حقيقة أن العرب كانوا قد رفضوا سياسة الكتاب الأبيض وأنه إذا حاولت بريطانيا أن تفرضها فسوف يكون هذا برهاناً آخر على عدائها وغدرها ، وإذا رفضت اقتراح نوري صار في إمكانهم أن يطلقوا الصيحة « خيانة » . وكما كانت النتيجة التي تحقق ، رفض تشرشل بصفة قاطعة أن يعطى التأكيـد المطلوب ولم يعطى رشيد عالي في أن يبين أن بريطانيا عادت مرة أخرى فشلت بتعهداتها . بذل نوري مجهوداً أخيراً لإقناع زملائه بأنه مهما كان أداء بريطانيا في فلسطين مذموماً فإن نصرته أحرزه ألمانيا سوف يعنى نهاية الحرية التي سبق أن ظفر بها العراق . وعندما أخفق هذا استقال من وزارة الخارجية في أبريل ١٩٤١ وانتظر الصراع المحتوم .

بدأت الأمور تحدث الآن بسرعة محيرة . فأولاً ، حاول رشيد عالي أن يوقف القوات البريطانية التي تعبر الأراضي العراقية في طريقها من المند لتعريز الشرق الأوسط الذي كان يهدده الآن الزحف الألماني على ليبيا واليونان . بعد ذلك تجاوز حدوده مع الوصي بأن طالب باعتقال جميع السياسيين البارزين المواليين لبريطانيا ، وبأن يقطع العراق علاقاته مع بريطانيا ويوقع على معاهدة مع ألمانيا . وبتأييد من أصدقاء نوري في الجيش رفض عبد الإله

النظر في هذه المطالب وأقال رشيد عالي بشجاعة . عين وزير الدفاع طه الهاشمي رئيساً للوزراء ، وأعلن بناء على أوامر الوصي ، أنه لن يكون هناك تغيير في سياسة العراق الخارجية . ولكن في ظروف أيام قام رشيد عالي والمربع الذهبي بتسديد ضربتهم . استقال طه ، وعاد رشيد عالي فتولى رئاسة الوزارة مرة ثانية ، وعزل الوصي بقرار من الجمعية الوطنية . وفي ٢ مايو قررت كتيبة الطيران البريطانية في الحبانية والمحوطة الآن بالقوات العراقية، أن تشق طريقتها بالقوة ، وفي اليوم ذاته أعلن رشيد عالي الحرب على بريطانيا . في هذه الأثناء كان نوري والوصي قد لجأ إلى السفارة البريطانية ، ومنها نقلوا سرّاً إلى الأمان في شرق الأردن .

ردت بريطانيا الآن بسرعة خاطفة . فبانهيار المقاومة الفرنسية في أوروبا كانت سوريا ولبنان تعتبر أرضاً يحتلها الأعداء وتسيطر عليها حكومة المارشال بيتان الموالية للألمان . وعلى ذلك كان من المحتوم القضاء على التهديد من العراق قبل أن يتمكن الألمان من القيام بحركة كماشة ضد الشرق الأوسط . وفي غير ما تردد هرع عبد الله أمير شرق الأردن إلى جانب بريطانيا ووضع الفيلق العربي تحت تصرفها ليعوض حملة سافرت إلى العراق في ١٢ مايو .

في هذه الأثناء كانت المقاومة التي طال أمدها على خلاف ما كان متوقعاً ، والتي أبداها البريطانيون للهجوم الألماني على كريت ، مما حال دون إمداد الألمان للمربع الذهبي بالأسلحة التي وعدوه بها . هذه الحادثة الموقفة مضافاً إليها الزحف المتسم بالتصميم والذي قامت به القوة البريطانية والأردنية الصغيرة ، أدى إلى انهيار انقلاب رشيد عالي بعد إعلانه الحرب بأربعة أسابيع . فر رشيد عالي والمفتي وجماعة المربع الذهبي إلى طهران ، وعاد نوري وعبد الإله إلى بغداد . ولقد هياً وصول نوري عنصراً من الارتياح المضحك مما كان موقفاً حرجاً . فهو إذ فقد متاعه في الرحلة ارتدى ملابس استعارها —

بقيص مفتوح الرقبة مع سروالى بيجامة واسعة بارزين من تحت بنطلون خاكي مما يلبسه الجنود - وفي هذا الملبس الغريب ظهر أبعد الساسة عن التفاخر والأبهة أمام المصورين الصحفيين وهو يضحك .

وبدلاً من أن يستأنف نوري منصبه على الفور كرئيس للوزراء ، قام الآن في بعثة إلى القاهرة ليعرض على المصريين مشروعاً لإقامة اتحاد أوثق بين البلاد العربية . كان هذا بعثاً لفكرة الهلال الخصب — وهو اتحاد يضم العراق وسورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن ، وتكون أبوابه مفتوحة أمام الدول العربية الأخرى لتنضم إليه بمجرد أن تصبح مستقرة بصورة ثابتة . كان نوري يأمل من وراء هذا المشروع ليس فقط خلق دولة عليا عربية بزعماء العراقيين والهاشميين ولكن كان يأمل أيضاً حل مشكلة فلسطين داخل إطار مركب سورية الكبرى . في داخل هذه المنطقة كان يقترح أن تتمتع الجماعات اليهودية باستقلال داخلي في ظل سلطة إتحادية . وهذه الوسيلة كان يأمل تحقيق كل من وعد بلفور وسياسة الكتاب الأبيض . فبالاستقلال الداخلي يستطيع اليهود الحصول على « وطنهم القومي » بينما إذا اتحد عرب فلسطين مع إخوانهم السوريين واللبنانيين فسوف تتوافر لهم الحماية التي تحول دون أن يصبحوا أقلية في دولة يهودية .

ولسكن المصريين الذين كانوا قد أخذوا الآن يخرجون من عزلتهم عن الشؤون العربية ، رفضوا التفكير في هذا المشروع ويرجع هذا إلى حد كبير إلى أنه كان يجعل من العراق النفوذ الغالب في العالم العربي ويعيد مركز القوة من القاهرة إلى بغداد التي كانت معاملة بريطانيا له بروح من المحاباة ، قد أثارت الاستياء الغيور من جانب ملك مصر وحكومتها . ورغم أن نوري حاول مراراً وتكراراً أن يستميل إلى جانبه النحاس باشا وغيره من الساسة المصريين البارزين فيما بين عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٤ ، وروج بشدة لمقترحاته

في الدوائر السياسية البريطانية والأمريكية وفي الكومنولث ، فإن الجميع تجاهلوه عن روية . فرفضت مصر أن تقنازل عن حتها في تزعم العرب ، وأرجأت لندن ووشنطن النظر في مشكلة فلسطين خلال المدة التي تستمر فيها الحرب ضد ألمانيا . وفضلا عن هذا ، كانت الحكومة البريطانية مشغولة في ذلك الوقت بتدبير مشروع مختلف كلية مع الحكومة المصرية من أجل قيام وحدة عربية — هي الجامعة العربية من مصر والعراق وسورية ولبنان وشرق الأردن واليمن والعربية السعودية ، وهي الجامعة التي سوف تكون حلقة سياسياً وعسكرياً مقره بالقاهرة وتكون فيه مصر هي النفوذ المنشئ والمسيطر . وعلى ذلك اضطر نوري في مارس من عام ١٩٤٥ إلى أن يقبل كأفضل حل ثان ، توقيع جميع هذه الدول العربية السبع بما فيها العراق ، على ميثاق الجامعة العربية ، وبعد ذلك بثمانية أشهر استقال من رئاسته الثامنة للوزارة .

لكن قبوله الجامعة العربية بديلا عن الهلال الخصيب لم يكن يعني أنه قبل الزعامة المصرية . ورغم أن نوري ظل بعيداً عن مراكز المسؤولية خلال معظم السنوات الأربع التالية ، فإنه بدأ الآن يقود نضالا من أجل القوة ضد مصر ، سوف يستمر إلى ما بعد موته في انقلاب عام ١٩٥٨ وهو النضال الذي سار به اللواء قاسم خطوات أبعد بالهجمات الجنونية التي شنّها على جمال عبد الناصر . هذا الصراع بالطبع كانت له جذوره في التاريخ العربي فالتنافس والغيرة بين بغداد والقاهرة تمتد مباشرة من وقت انحلال الخلافة العباسية عندما جعل صلاح الدين من مصر قاعدته لتحرير فلسطين من الإحتلال الصليبي ؛ وبعد ذلك بقرن من الزمان ، ومرة أخرى من مصر ، صد بيبرس الزحف المغولي . هناك تشابه إلى حد ما بين هذا التنافس العراقي — المصري وبين تلك الأنغام من الغيرة وهي الأنغام التي ميزت تطور العلاقات الفرنسية — البريطانية ، والفرنسية — الأمريكية الحديث . كان العراق هو

البلد العربى الذى تعرض لأفدح الآلام من جراء الغزوات المغولية والفتح العثمانى والتى بفضلها تحطم التفوق الثقافى والعقلى الذى تميزت به بغداد فى العصور الوسطى . ومن جهة أخرى لم يحتل المغول مصر أبداً ، كما كان ما قاسته على أيدي الأتراك خفيفاً نسبياً ، ونستطيع أن نزعم^(١) أنها أنقذت الشرق الأوسط من المغول ، وأنها كانت أول دولة عربية تحدت التسلط العثماني . إلا أن نفس هذا الزعم إنما يعمل على إثارة إحساس العراق بالنقص . وبالمثل فإن فرنسا التى سالت دماؤها فى الحرب العالمية الأولى واحتلت أراضيها فى الحرب العالمية الثانية ، كان رد الفعل من جانبها عنيفاً صد أى إيجاء بأن بريطانيا والولايات المتحدة اللتين لم تتعرض أى منهما لأن يحتاحها الألمان ، قد أنقذاها من الهزيمة فى كلتا المنافستين وبذلك فلها الحق فى التفوق والسيادة .

لم تكن حملة نوري المعادية لمصر كافية لتحقيق الاستقرار فى بلده ، وبدأ العراق يترنح بشكل سيء بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . كانت الحكومات تجيء وتروح ؛ وكلما زاد اليهود من الضغط فى فلسطين نما الشعور المعادى للبريطانيين بسرعة . بدأ الهياج من أجل إعادة النظر فى معاهدة ١٩٣٠ التى أكد أعلى القوميين صوتاً أنها أعطت بريطانيا رخصة واسعة للاعتداء على السيادة العراقية . وفى يناير ١٩٤٨ توجه صالح جبر رئيس الوزراء حينذاك ، إلى لندن وعقد معاهدة بورتسموث التى كان المراد منها أن تجعل التحالف الإنجليزى — العراقى أقرب إلى أن يكون مشاركة بين متساوين . ولكن بمجرد الإعلان عن التوقيع بدأ أسبوع من للشغب العنيف أدى إلى خسائر فى الأرواح بلغت المائتين تقريباً . إستقال صالح جبر ، وجرى التخلي عن المعاهدة . ولكن الوصى لم يستدع نوري ليشكل حكومته

(١) « نزعم » هذا يعنى « نوكر » — المترجم .

العاشرة إلا بعد ذلك بعام عندما سبب انتصار إسرائيل على العرب ثورة جديدة من الشعور المعادى لبريطانيا .

بالنسبة إلى فلسطين لم يكن أمامه ما يعمل سوى أن يتقبل هزيمة القضية العربية ، بينما كان يشترك في الكورس العربي العام الذي يتغنى مطالباً بالعودة إلى الحدود التي قررها التقسيم الذي أقرته الأمم المتحدة . وعلى ذلك قرر نوري أن يركز على التنمية الاقتصادية الداخلية . فأنشئ مجلس الإعمار برئاسة ويضم مستشارين بريطانيين وأمريكيين ووزراء عراقيين ، لإيجاز مشروعات واسعة النطاق مثل الري والتحكم في الفيضان في وادي دجلة والفرات ، تمول من إيرادات النفط . ولما عكف مجلس الإعمار على مهمته ، اتخذ العراق مظهر مدينة أمريكية شهدت الرواج حوالى بداية القرن . فقامت الدود والكبارى فى تقابع سريع ، وحلت مشروعات الإسكان محل الصرائف ذات السقوف من الفس ومجموعات الأكواخ المبنية بالطين ، وبقيت طرق طوالى جديدة تغطى طرقات قوافل الإبل فى الأيام الخالية . وبفضل سد سامراء على نهر دجلة ، لم تعد ضواحي بأكمها تابعة لبغداد ، تسكنها الفيضانات السنوية ، واستخدمت المياه التى حوت بهذا السد ويسد مشابه له على الفرات ، لإدخال الزراعة فى عشرات الألوف من الأفدنة كانت عاطلة .

وفى الشئون الخارجية عاد نوري إلى مشروع الهلال الخصيب ، واسكن فى صورة طرأ عليها تغيير بالغ . فمع وقوع فلسطين تحت الاحتلال اليهودى إلى حد كبير ، ركز الآن على اتحاد سورية مع العراق . وهنا تقى نجاحاً فليلاً بشكل ظاهر ، وخاصة بعد ثورة مصر عام ١٩٥٢ ، عندما بدأت دعوة جمال عبد الناصر المفاطيسية تحدث تأثيرها المضاد القوى على الرأى السورى . وبمرور الوقت آثرت سورية أن تنضم إلى مصر الناصرية فى الجمهورية العربية المتحدة ، تاركة نوري من جديد يبحث عن أفضل حل ثان ، وهو فى هذه

المرّة اتحاد فيدرالى بين الملكتين الهاشميتين فى العراق والأردن .
 لكن نجحت دبلوماسية نورى فى مجال هام واحد . كانت علاقة العراق
 الدفاعية مع بريطانيا قد فقدت آخر آثار النظام الاستعمارى وأصبحت مشاركة
 بين متساويين فى ظل حلف عسكرى جديد يضم جيران روسيا فى الشرق
 الأوسط . كانت بريطانيا قد قامت فى عام ١٩٥١ بمحاولة لإنشاء نظام دفاعى
 للشرق الأوسط^(١) يضم العالم العربى ، ولكن المحاولة لقيت استقبالا فى مصر
 لا يفضل ما استقبلت به معاهدة بورتسموث فى بغداد . وعلى ذلك تطلعت
 لندن ووشنطن إلى عراق نورى وإلى تركيا وهى آخر من ضم إلى حلف
 الأطلسى ، كى يشتركا فى توفير درع عسكرى للأقاليم المكشوفة فى شمال الشرق
 الأوسط المتاخمة للاتحاد السوفيتى .

وفى فبراير ١٩٥٥ أرضاها نورى بحلف عسكرى مع تركيا عرف باسم
 ميثاق بغداد . وبعد ستة أسابيع انضمت بريطانيا إلى الميثاق وسلمت قواعدها
 الجوية لتتكون تحت السيطرة العراقية بينما احتفظت بالحق فى استخدامها
 للتدريب المشترك بدعوة من العراقيين . وتراجعت الحكومة الأمريكية فى
 الاحتفاظ الأخيرة عن الانضمام إلى الميثاق خشية ردود الفعل الصهيونية إزاء
 حلف عربى — أمريكى ، ولكن سرعان ما انضمت باكستان وإيران لإكمال
 خط الدفاع على طول الحد الجنوبي للروسيا .

أثار التوقيع على ميثاق بغداد وما صاحبه من انضمام بريطانيا ، عاصفة
 احتجاج من القاهرة ، ليس فقط لأن العراق خرق صفوف الجامعة العربية وانضم
 إلى بريطانيا وتركيا ، ولكن أيضاً لأن نورى وبريطانيا جعلتا من الواضح
 أنهما يأملان فى انضمام دول عربية أخرى مثل سورية والأردن . إن التهديد

(١) ناقشنا هذا الأمر فى حينه وحللناه ونددنا به وكشفنا عن أهدافه الحقيقية فى كتيب
 لنا بعنوان « مشروعات الدفاع عن الشرق الأوسط » - الترجمة

بأن فكرة الهلال الخصب قد تتحقق بأسلوب الباب الخلفى ، كان كثيراً جداً على مصر . إذ لو تحققت لاهتز بصورة سيئة نفوذ مصر المتفوق فى الجامعة العربية ، إن لم يضع كاية . فأطلق راديو القاهرة الآن نيرانه كاملة ، فهاجم نورى وعبد الإله باعتبارهما أعداء للوحدة العربية وعملاء للإمبريالية الغربية ، وعلى ذلك فهما أصدقاء لإسرائيل . ورد نورى ملقياً الإهانة مقابل الإهانة ، على أمواج الأنير . ثم فى لحظة حرجة فى مارس ١٩٥٦ ، تصرف بريطانيا بما فيه صالح مصر بأن أرسلت رئيس هيئة أركان الحرب العامة الامبراطورية الفيلد مارشال سير جيرالد تمبلر ، إلى عمان ليغرى الأردن بعروض من الأسلحة الحديثة والطائرات على الإنضمام إلى ميثاق بغداد . غلا الدم فى عروق الرأى الحيادى والموالى لمصر فى الأردن وقد أثارته مزاعم راديو القاهرة بشأن وجود مؤامرة إمبريالية للضغط على الأردن حتى ينضم إلى حلف غربى . ولما اجتاحت أعمال الشعب البلاد استقال هزاع المجالى رئيس وزراء الأردن الموالى لبريطانيا وعاد تمبلر صفر اليدين .

كسبت مصر وسياسة الحياد العربية المعركة ، وتهددت سياسة نورى فى التعاون مع الغرب تهديداً واضحاً . لم يبطئ فى ملاحظة هذا ، ذلك العدد المتزايد من الساسة وضباط الجيش الشبان المستائين وينتمون إلى الطبقة الوسطى ، ممن وجدوا الحياة فى العراق فى عهد نورى ، خائفة وتحبط أطعهم . كان التطور السياسى قد توقف وقتاً أطول مما يجب ، بينما سار النمو الاقتصادى قدماً . أصبح البرلمان الوطنى العراقى جمعية ترافق بوسبه على كل ما يعرض عليها كلما مد نورى قائمته الطويلة ، التى تضمنت المرات التى تولى فيها رئاسة الوزارة . كان الآن فى وسط المرة الثالثة عشرة . وكان ستون فى المائة من الأعضاء يعينون من صفوف رؤساء الوزارات والوزراء السابقين ، وكان الأربعون فى المائة الباقون هم من الذين يقال عنهم « الموافقون » . ومنذ أن

تحول صالح جبر إلى الاشتراكية بعد هزيمته بصدد معاهدة بورتسموث، كان نوري قد حل جميع الأحزاب السياسية وركز جميع السلطة والرعاية في يديه . وإذ راحت القوى التي تساند طراز ناصر من النظام الجمهورى وسياسة الحياد تزداد قوة في كل بلد عربى آخر ، كاد العراق يصبح معزولا بشكل خطير عن شقيقاته الدول العربية ، وازداد ما ساور البعض من أوثق شركاء نوري مثل وزير خارجيته فاضل الجمالى ، من القلق بشأن مستقبل نظام الحكم .

وحتى برغم هذا، جاءت لحظة في يوايه من عام ١٩٥٦ كان يمكن العراق نوري أن يتغلب على عزلته في الجامعة العربية لولا أن بريطانيا ارتكبت أفدح أخطائها في الشرق الأوسط . وكان هذا عندما أمم ناصر قناة السويس دون إخطار شركائه في الجامعة العربية ^(١) هاج السعوديون وربما أحسوا ببعض خوف من أن يؤدي هذا التحدى المفاجئ للغرب إلى قتال يفلق طريق القناة ومن ثم يشيع الاضطراب في الأسواق الغربية التي يبعثون إليها بترولهم . واحتجت دول عربية أخرى بسبب عدم استشارتها قبل اتخاذ هذا العمل المقسرع ^(٢) . وتصادف أن كان نوري والملك الشاب فيصل في لندن عندما أعلن ناصر قراره فبادر على الفور إلى الإشارة على السير أنتونى إيدن باتخاذ إجراءات حازمة ولكن دون أن يشترك إما مع فرنسا أو مع إسرائيل في أى عمل مضاد .

بدا للحظة كما لو أن هذه الفضيحة كانت محل الاعتبار . فبدأت بريطانيا جبهة ضغط دبلوماسى مع الدول البحرية الرئيسية الأخرى بالعالم من أجل إقناع

(١) لم يكن من الممكن ولا من العمل في ظل ذلك الجو الملىء بدسائس نوري وأصدقاء بريطانيا، أن تكشف مصر عن خططها بالنسبة إلى القناة، إذ كانت ستستسرب حتماً - المترجم
(٢) إن وصف هذا العمل بالتسرع ، فيه بحفاة للنطق والحقيقة ، ولكن درج الاستعمارىون على إطلاق هذه الصفة وأمثالها على كل تصرف يتعرض مصالحهم - المترجم .

مصر بقبول عنصر من الرقابة الدولية يكمل شركة قناة السويس المؤممة .
وأشير على نوري بأن يبعث بتميزات من القوات إلى الأردن في حالة ما إذا
اختارت إسرائيل الاسقيلاء على الأراضي الأردنية الواقعة على الضفة الغربية
من نهر الأردن بينما تكون جميع الأعين والاهتمامات مركزة على السويس .
عندئذ تحوات بريطانيا فجأة من سياسة الضغط الدبلوماسي متعدد الأطراف
إلى حشد عسكري ثنائي مع فرنسا ، مصحوب بأصوات خافتة تنذر بالشكر ،
وتشير إلى تعبئة إسرائيلية . أبلغ نوري الآن بصورة حازمة بأن يخرج القوات
العراقية من الأردن خشية استفزاز إسرائيل فتهجم على الضفة الغربية ! وعندما
سالك الإسرائيليون الطريق الآخر وهجموا عبر سيناء إلى السويس ، أصدرت
بريطانيا إنذاراً نهائياً إلى كلا الجانبين بالابتعاد عن القناة ، وكان هذا يعني
عندئذيه أن يتقهقر المصريون ويتخلوا عن كل سيناء للغزاة وأن يسمحوا
للإسرائيليين بأن يتقدموا أكثر من مائة ميل في داخل الأرض المصرية .
يكاد ألا يشير الدهشة أن هذه الدعوة إلى إسرائيل اتستولى على عشرين
ألف كيلو متر مربع من مصر ؛ تأثير مثل هذه القورات العنيفة من أعمال
الشغب في جميع أنحاء العالم العربي وخاصة في العراق حيث لم يضطر غلاة
الوطنيين والمستاءون إلى أن يرفعوا أصبعهم كى يدفعوا بالجمهير الهائلة إلى
التظاهر ضد إسرائيل والبريطانيين والفرنسيين و « أداتهم وخادمهم » نوري
السعيد . في هذه المرة وقفت الحكومة العراقية موقفاً حازماً ضد المتظاهرين ،
ولكن اضطر نوري إلى إجراء تنازلات للمشاعر العربية التي تعرضت للإساءة ،
فقطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا ، وانضم إلى الكورس العام الذى يتغنى
بالتنديد بإسرائيل . وأشير على بريطانيا أن تبقى بعيداً عن اجتماعات ميثاق
بغداد إلى أن تهدأ العاصفة .

بهذه التنازلات للشعور الشعبى نجح نوري في اجتياز العاصفة . ولكن

الهدوء الذى أعقب ذلك كان خداعاً . وأول الخدوعين كان نورى نفسه على ما أذكر من لقاء لى معه فى بغداد فى أبريل ١٩٤٧ ، فبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث بصدد أخطاء الماضى سألته عما إذا كانت كارثة السويس لم تقوض مركزه بصورة خطيرة فى العراق . ولكنه رفض أن يصدق أنه لن يتمكن من الاستمرار كما كان الحال من قبل تماماً . بل بدا أن قلقه بشأن أمنه الشخصى كان أقل منه فى أى وقت مضى . ورغم أنه كثيراً ما تلقى التحذيرات بشأن أولئك النفر من قادة الجيش ممن كانوا يتآمرون لإسقاطه ، إلا أنه استمر يستخدم فى مواقع النفوذ والثقة . وفى نهاية الأسبوع القاتلة قبل ثورة اللواء عبد الكريم قاسم فى عام ١٩٥٨ ، تجاهل الاحتياط الذى كان يتخذ منذ أمد طويل لضمان الأمن ، وهو عدم السماح أبداً بوجود جماعة عسكرية ومسلحة فى بغداد دون أن تكون هناك قوة مضادة لمواجهةهم إذا حاولوا القيام بانقلاب . كان قاسم على رأس اللواء الذى كان فى طريقه إلى تعزيز قوة الملك حسين حتى لا يتكرر فى الأردن نوع الثورة التى كانت قد نشبت حديثاً فى لبنان ضد الرئيس شمعون الموالى للغرب . وبينما كان قاسم يستريح مع جنوده فى ضواحي بغداد فى ١٣ يولية فسرعان ما أدرك أن اللواء الذى تحت قيادته هو القوة الوحيدة فى المدينة فى تلك الليلة المعنمة . لقد ظل سنوات ينتظر هذه اللحظة ويرسم الخطط من أجلها ، وبعد استطلاع سريع لمراكز الأعصاب الحيوية فى بغداد ، وبعد بعض مشاورات أجريت على عجل مع سياسيين معينين كانوا معروفين بمعارضتهم لنظام الحكم ، وجه قاسم ضربته ، فاستولى على محطة الإذاعة وأعلن أن الثورة انتهت وأن الملك وعمره عبد الإله ونورى قد ماتوا . ثم أمر قواته بالتوجه إلى القصر لتنفيذ هذا الذى أعلنه . مزق السفاحون من رجال قاسم الأسرة الملكية بأسرها إرباً برصاص مدافعهم ، وأردى نورى قتيلاً وهو يحاول الهرب . وفى هذه الأثناء أحرقت الجماهير السفارة البريطانية

ظلماً منهم أنه لجأ إليها على نحو ما فعل في انقلاب رشيد عالي .
لا تعرف السياسة الامتنان ، كما لا تعرف الثورة الرأفة . ولكن أبا كان
ما سوف يحدث في المستقبل ، فلا سبيل إلى الشك في أن بقاء العراق كدولة
عصرية بعد أربعة قرون من الحكم العثماني سوف يظل إلى الأبد ممحلاً بدين
لا يمكن تباينه ، إلى ما اتصف به نوري السعيد من نشاط لا يكل ومهارة في
إدارة شئون الدولة . إن تعاونه مع بريطانيا في بناء قوة العراق الاقتصادية
والعسكرية كان وثيقاً إلى أبعاد تجعله لا ينافس التفكير القومي المصري ،
ولكنه كان دائماً تقريباً يحصل من بريطانيا على ما يظن أن بلاده تحتاج إليه
وكما قال عنه سفير بريطاني « كان أعظم شحاذ عرفته » .
ومما يدل على التناقض ، أن هذه الخلاصة لا تنسر سر نجاح نوري فحسب ،
ولكنها تنسر أيضاً سبب سقوطه النهائي . فبالنسبة إلى الجيل الجديد الآن
النفس من القوميين العرب ، كان تسير الأفضال والنعم من الغرب ، أمراً
سافاً عليه الزمان ، ومحطاً للكرامة ، بل . ويحمل معنى الحياة ، لأنه يبقى العرب
مقيدين في أغلال القوى الغربية ، وعلى ذلك فبرغم تفانيه في العمل من أجل
رفاهية بلده وأمنها ، كانت نهايته محكومة بصورة واضحة . ما كان في إمكان
أى تدابير أفضل للأمن ولا كلمات أكثر ليماً ، أن تحول الغضب الشديد الذي
كان بتجمع ضد كل شيء كان يمثله ، أو يوقف إلى أجل غير مسمى الثورة
التي كان لابد أن تأتي ذلك أن نوري وإن لم يتجاوز السبعين من العمر
عندما مات ، كان رجلاً يعيش بعد زمانه . كان رمز الثورة العربية الأولى
ضد الأتراك — وهي ثورة أمراء وباشوات وكبار شيوخ عالم قبلي من المحاربين
البدو . ولكن العالم العربي كان قد تغير منذ تلك الأيام . فرجال المدن
والساسة انتزعوا قيادة القومية العربية النضالية من أيدي رجال القبائل البسطاء
في الأمس ؛ وبسبب ما تعرضت له فلسطين وسورية من خيانة على أيدي من

سبق أن كانوا حلفاء العرب حلت كراهيات محل المشاعر القديمة من الرفقة مع الغرب . وكانت ثورة عربية ثانية قد تفجرت على العالم ، يقودها رجال من أمثال جمال عبد الناصر ، رجال أقسموا أن يخلصوا العرب مما ينطوى عليه الاحتلال الغربى والوصاية الغربية من تهديدات وإهانات للكرامة ، وأن يسقطوا من اعتبروهم خونة مثل نورى الذى عاش وعمل مع الذين خانوا الحرية العربية وحطموا الوحدة العربية .

(٢٩)

فرنسا والعرب

ذات مرة حدثني الرئيس التونسي بورقيبة فقال إن الفرق بين الإمبريالية البريطانية والإمبريالية الفرنسية، أن الفرنسيين كانوا كالفلاحين الذين يشبهون بكل شيء يملكونه . وقال « على خلافكم أنتم الإنجليز ، ممن هم تجار يسمون وراء الأسواق بدلا من الأرض . بالنسبة إلى الفرنسيين يجب أن تكون كل مكنة ، وكل مكتب بريد ، وكل حانوت ، وكل مزرعة ملكية خاصة لهم يرفرف عليها العلم المثلث الألوان » . وبالتأكيد لا يمكن أن نجد مثالا عن هذا الطراز من النظام الاستعماري الفرنسي ، هو خير من علاقات فرنسا مع العالم العربي قبل وبعد الحربين العالميتين .

على خلاف موقف فرنسا الغامض أصلا في الجزائر ، كانت نواياها في الشرق بعد الحرب العالمية الأولى واضحة . كانت تعرف ماتريد واعتقدت أنه أقل ما تستحقه مقابل ماتحملته من توضيحات . كان لفرنسا منذ القرن السادس عشر مصلحة تجارية طيبة بسوريا ولبنان ، واعتبرت نفسها حامية الجماعات المسيحية المارونية فيهما .

وإذا كان العرب ساورتهم الشبهات في أن فرنسا تهدف إلى الدخول في بلادهم بعد طرد الأتراك منها ، فقد كان الفرنسيون يرتابون بالمثل في أن الحركة العربية التي قام بها الشريف حسين كانت تريد منع انتشار النفوذ الفرنسي . وعلاوة على هذا كانوا يخشون أنه إذا أقيمت حكومة عربية مستقلة في سوريا فسوف يكون لها ردود فعل في ممتلكاتهم في شمال أفريقية . ولهذه الأسباب بذل ممثلو فرنسا في الشرق الأوسط كل جهد خلال الحرب العالمية

الأولى كى يحصروا الثورة العربية فى مناطق الظهير الصحراوى فى بلاد العرب وإبعادها عن المشرق . ولما أخفقت هذه الدسائس فى تحقيق غرضها عند الجنرال اللنبي وأركان حربه ، استنتج الفرنسيون أن البريطانيين الذين خدعهم فحرمهم بتصريح بلفور من دعاويهم فى فلسطين ، كانوا على اتفاق مع العرب لخدايعهم وإبعادهم عن سوريا أيضاً .

وهكذا فإن وجود فيصل فى دمشق تساند القوات البريطانية على ما يظنر ، كان شيئاً لا تحتمله حكومة فرنسية .

فبعد أن حملت فرنسا البريطانيين أولاً على الانسحاب ، ثم حصلت على السلطة القانونية على سوريا ولبنان بمقتضى الانتدابات التى أقرها مؤتمر سان ريمو ، فسرعان ما أمرت الأمير بأن يحمل متاعه ويرحل ، واحتلت داخل سوريا . وبعد ذلك أصبحت السياسة الفرنسية مثالا نموذجياً من «فرق تسد» . عومل لبنان وسوريا كبليدين كل منهما منفصل عن الآخر ، وقُطعت سوريا إلى أربع مناطق متميزة لكل واحدة منها إدارتها الفرنسية فى ظل الإشراف العام من جانب المندوب السامى الفرنسى فى دمشق .

وكانت المناطق الأربع تتكون من محافظة اللاذقية على الساحل بين طرابلس والأسكندرونة ، ودولة جبل الدروز فيما بين دمشق وشرق الأردن ، وسنجد الأسكندرونة ، ودولة سوريا بعاصمتها دمشق ، وتشمل بقية الظهير السورى . أما حدود لبنان التى كانت تشتمل فى ظل حكم الأتراك على دولة فينيقية القديمة-بيروت وصور وصيدا والجبال القائمة وراءها مباشرة- فقد مد نطاقها الآن على حساب سوريا لتشمل طرابلس ووادى البقاع الغنى بين سلاسل جبال لبنان والذى تقع فيه مدينة بعابك. وهكذا باقتطاع أجزاء من سوريا ومضاغفة مساحة وسكان لبنان بنقل أخصب منطقة والميناء الرئيسى فى سوريا حاول الفرنسيون إثراء ذلك الجزء من ممتلكاتهم الجديدة

الذى تسود فيه أغلبية مسيحية ، وذلك على حساب المناطق التى تضم أغلبية مسلمة ، وهى المناطق التى كانت فيها الحركة القومية العربية أقوى ما تكون الآن .

وعلاوة على هذا ، فخلال السنوات الخمس الأولى من انتدابهم حكموا كلا البلدين فى ظل نظام من القانون العرفى لا يختلف مطلقاً فى شدته وأسلوبه فى القمع عن الاحتلال العثمانى . خنقت القومية أياً كانت صورتها ؛ وكممت الصحافة ولم يسمح بوجود غير أجهزة الرأى التى كانت على استعداد لأن تتذلل لسادتها الفرنسيين . وبالمثل ، فى الإدارة والهيئة التشريعية لم يكن يوظف أو ينتخب إلا الخانعون الأذلاء

وفى المسائل الدينية وعلى غرار أسلوب العثمانيين ولكن فى الاتجاه العكسى ، كان المندوب السامى الفرنسى وحكام المحافظات التابعون له يحرضون المسيحيين ضد المسلمين بدلا من تشجيع الفريقين على التعايش فى سلام . وفى التعليم أصرت سلطات الانتداب على تدريس اللغة الفرنسية فى جميع المدارس الحكومية على قدم المساواة مع العربية . وبرغم أن هذا عاد بمزايا ثقافية لاشك فيها ، فإن الطريقة التى فرض بها جعلت العرب يعتبرونه حرماناً من أحد المكاسب الرئيسية التى حققوها من وراء ثورتهم - وهو أولوية وتفوق لغتهم هم . وبينما تدريس الثقافة العربية لم يكن منهياً عنه ، إلا أنه عانى نتيجة لعدم توفير التعليم للمدرسين والمباني الجديدة للمدارس ، بينما كانت المدارس التى يتحدث أبنائها الفرنسية تتلقى منحة مالية سخية . وحتى الكتب المدرسية وضعت بأسلوب يقلل من شأن إنجازات العرب الماضية وينكر الصلات التى توحد بين سوريا وجيرانها العرب .

أما عن الحكام والموظفين الفرنسيين فبينما كان الجنرال وبيجاند وغيره من الأسماء المشهورة فى تاريخ فرنسا العسكرى ، فربما كانوا يختارون (م ٣١ - العرب)

عن عهد بسبب افتقارهم إلى معرفة المشرق وأهله . أما أولئك الموظفون الذين كانت لديهم أية خلفية عن الإدارة الاستعمارية فإنهم اكتسبوا خبرتهم من حكمهم أشد ممتلكات فرنسا في أفريقية تأخراً وأقلها ثقافة . والذين لم يكونوا ممن يشترون ويبيعون فكانوا مستعبدين ومتمجرفين ونجحوا في العادة في عمل كل شيء بالطريقة التي يعظم فيها الاحتمال بأن تهين الكبرياء العربي .

نجحت الأغلبية المسيحية في لبنان لمدة وجيزة جداً ، في المحافظة على حالة من التسامح العدائي بين الحاكمين والمحكومين ، ولكن ما عامل به الفرنسيون سوريا حيث الأغلبية الكبيرة من المسلمين ، من عجرفة وظلم لم يكن يولد سوى نتيجة واحدة . ففي يولييه ١٩٢٥ جاء الانفجار في محافظة جبل الدروز . ففي ثورة على طغيان الحاكم المحلي نهض الزعماء الدروز وقضوا على طاوورين فرنسيين قوين أرسلوا لإخماد ثورتهم . ثم زحفوا على دمشق ، وبرغم أنهم لم يتمكنوا من أخذ المدينة ، إلا أنهم سيطروا على معظم المناطق المحيطة بها . وبحلول سبتمبر كان الرؤساء الدروز قد انحاز إليهم الزعماء الوطنيون في الأجزاء الأخرى من سوريا ، وإذا انتشرت الثورة أجبر الفرنسيون على أن يدركوا أن محاولتهم أن يحكموا سوريا بالأحكام العرفية قد أدت إلى ثورة على نطاق قومي . كان رد الفعل من جانبهم وحشياً . فضربت القرى بالقنابل بدون إنذار ، وُسِّلح المرتزقة المسيحيون من الأرمن والشراكسة ، وأطلق لهم العنان ليمتصوا على القرويين الأبرياء ، يحرقون ويقتلون وينهبون كما يشاءون . وقامت الطائرات بقصف الأحياء الإسلامية في دمشق كما ضربت بالمدافع في مناسبتين وبلغت الخسائر في الأرواح أكثر من الألف . وبعد أول عملية من الضرب استدعى المندوب السامي الجنرال سراي ووبخته حكومته . ولكن إذ امتدت الثورة حتى عام ١٩٢٦ ، كرر خلفه الفظائع دون أي احتجاج ظاهر من باريس .

وفي النهاية كانت اليد العليا لثقل القوة العسكرية الفرنسية فحسب ، وانتهت ثورة الدروز . ولكن كانت قد حققت شيئاً واحداً على الأقل ، هو أنها أرغمت فرنسا على تعديل سياستها . أوقفت الأحكام العرفية رسمياً ، وبتعيين هنري بونسو في أغسطس ١٩٢٦ بوصفه أول مندوب سام فرنسي له خبرة إدارية مدنية ، بدأ فصل جديد وأبعث على الأمل . وخلال السنوات السبع التالية التي حكم فيها بونسو في دمشق ، دارت مفاوضات لإيجاد علاقة جديدة بين فرنسا وسوريا . وبرغم أنه شخصياً حاول جاهداً الوصول إلى تفاهم ، كانت باريس تصر دائماً على الاحتفاظ بحق الاعتراض على أية سلطة سورية منتخبة . وفي يونيو ١٩٣٢ كان قد أقيم شكل من الحكم الدستوري . سمح للمثاليين منتخبيين بأن يتولوا المناصب ، وبدأ للحظة وجيزة أن اتفاقاً يمكن أن يكون في حيز الإمكان . وأعد بونسو مشروع اتفاقية تضمنت على حد تأكيده ، المظاهر الرئيسية التي اشتملت عليها المعاهدة الإنجليزية - العراقية لعام ١٩٣٠ . ولكن عندما دقق السوريون النظر فيها اكتشفوا أنه بينما المشروع كان من بعض النواحي متماثلاً مع الاتفاقية السابقة لم يكن ثمة تغيير في الموقف الفرنسي من المشكلات الكبرى المتعلقة بالسيادة والاستقلال الخارجى . مرة أخرى تحطمت المفاوضات ؛ واستقال الزعماء الوطنيون بالحكومة السورية ، ومن بينهم شكرى القوتلى بطل جمعية « الفتاة » السرية . وبعد أشهر قليلة اعتزل بونسو وعاد إلى فرنسا .

أثبت خلفه أنه الوسيط الكيميائى لعمل الاتفاق النهاى . كان داميان دى مارتل دبلوماسياً قديراً وسفيراً سابقاً ، ومع ذلك لم يكن من المؤمنين بأساليب قفاز الحرير . وعندما تولى منصبه استمدى رئيس الوزراء السوري وأمره بالتوقيع على مشروع الاتفاقية الذى أعده بونسو . لم يكن فى وسع رئيس الوزراء وكان قد عينه المندوب السامى الفرنسى ، أن يجلب على نفسه

غضب مولاه الجديد وفعل كما طلب منه . ولكن البرلمان السورى كان أوفر شجاعة فرفض التصديق على توقيع رئيس الوزراء . وعلى ذلك أوقف دى مارتل البرلمان ، وعادت سورية مرة أخرى إلى الحكم الفرنسى المباشر . ساد هدوء نسبي لمدة عامين ، بينما عكف المندوب السامى الفرنسى على عدد من المشروعات لتطوير البلاد الاقتصادى . ولكن فى يناير ١٩٣٦ وبعد موجة جديدة من الاعتقالات شملت الوطنيين العرب ، بدأ إضراب بصورة تلقائية فى جميع أرجاء سورية . أغلقت جميع المحال وتوقف كل النشاط والحياة الاقتصادية طيلة أسابيع عدة . ورد المندوب السامى بمزيد من الاعتقالات لمن يشبهه فى أنهم من مدبرى الإضراب ، ولكن دون جدوى . وفى ٢٥ فبراير أصدر المندوب السامى عفواً عاماً وأعلن إطلاق سراح المسجونين السياسيين وأنه دعا الزعماء الوطنيين لمناقشة وسائل التفاوض من أجل عقد معاهدة جديدة .

وبعد أربعة أيام أوقف الإضراب وسافر وفد سورى إلى باريس ليبدأ جولة جديدة من المفاوضات . كان هدفهم الوصول مع فرنسا إلى معاهدة على نسق المعاهدة الإنجليزية — العراقية ، تنص على استقلال ووحدة بلدهم المقسم بطريقة مفتعلة . ولكن سرعان ما أصبح واضحاً أن حكومة ألبير سارو الفرنسية لا ترغب فى الخروج من سوريا وأن ما أعلنه المندوب السامى كان حملة فحسب لكسر حملة المقاومة السلبية التى شلت سوريا طيلة أسابيع ستة . عندئذ تدخلت ضربة من الحظ الحسن .. سقطت وزارة سارو وخلفتها الجبهة الشعبية التى يتزعمها الإشتراكي ليون بلوم . ولما حسب بلوم ما تكلفته المغامرة السورية من خسائر رهيبية فى الأرواح والأموال ، وبلغت عدة آلاف من الفرنسيين قتلاً ، وأكثر من ٢٨٠ مليون دولار أنفقت على خدمات الاقتداب وحده العسكرية ، قرر أن ينهى خسائر فرنسا . وفى سبتمبر ١٩٣٦

حصل الوطنيون السوريون على ما أرادوه وهو معاهدة تحالف فرنسية سورية واستقلال ، وبعد ذلك بثلاثة أشهر عقدت في بيروت معاهدة شبيهة بها . كان المقرر أن المعاهدتين وهما مائلتان من حيث الجوهر مع الترتيبات التي وضعتها بريطانيا مع العراق ، تدخلان في دور التنفيذ في ظرف ثلاث سنوات وأن تحل محل الانتدابات ، بمجرد أن تصبح سوريا ولبنان أعضاء في عصبة الأمم ، بتأييد من فرنسا . لقيت وحدة سوريا الاعتراف بها ؛ وكانت المواد العسكرية مبنية أيضاً على المعاهدة الإنجليزية — العراقية . كان الاختلاف الجوهرى الوحيد أن الفرنسيين احتفظوا في سورية بالحق في إبقاء حاميتين عسكريتين في اللاذقية وجبل الدروز ، فضلاً عن قاعدتين جويتين ؛ وفي لبنان سمح لهم بالاحتفاظ بأى عدد من القوات حيثما يشاءون .

وقبل نهاية عام ١٩٣٦ كان البرلمان السورى والبرلمان اللبناني قد صدقا على المعاهدات ورغم وقوع اضطرابات قام بها المسلمون في طرابلس وبيروت عندما أصبح معروفاً أنه لا عودة إلى الحدود التي كان عليها لبنان قبل عام ١٩٢٠ ، وأن عدداً كبيراً من المسلمين السوريين سوف يصبحون بناء على ذلك أقلية في لبنان الذى أغلبته من المسيحيين . ولكن في هذه الأثناء نشأت مشكلة جديدة سوف تعطى لفرنسا ذريعة لعدم تنفيذ الجانب المتعلق بها من الصيغة . فقد ادعت تركيا أن أغلبية سكان الأسكندرونة من أصل تركى وعلى ذلك يجب التنازل لها عن السنجق . وبعد أن نوقشت المسألة في عصبة الأمم أصبحت الأسكندرونة ذات استقلال داخلى . أعقب ذلك أعمال شغب بين العرب والأتراك إشتكت فرنسا وتركيا في إخمادها . وفي هذه الأثناء استخدم الفرنسيون مسألة الأسكندرونة كعذر لتأجيل التصديق على المعاهدتين . ورغم أن المشكلة حلت في عام ١٩٣٩ بالتنازل عن السنجق لتركيا ، فإن مقدم إدوارد دلاديه إلى السلطة في فرنسا عرقل أية آمال في أن يحترم

الفرنسيون التزاماتهم . وفي يولية ١٩٣٩ استقال الرئيس السوري هاشم الأتاسى إحتجاجاً ، واستغلت السلطات الفرنسية ما ترتب على هذا من اضطراب لوقف الدستور واستئناف الحكم الاستعماري المباشر .

وهكذا بعد سبعة عشر عاماً من حصول فرنسا على انتداباتها عادت سوريا ولبنان إلى حيث بدأنا ، ولم تدخل المعاهدة السورية ولا اللبنانية في حيز التنفيذ . وكانت بريطانيا مشغولة أيضاً بمشاكلها في فلسطين ، وخائفة أيضاً من أن تزعج حليفها الفرنسي في عشية حرب أخرى مع ألمانيا ، بحيث لم يكن في إمكانها أن تستخدم نفوذها في باريس أو بيروت أو دمشق . وفضلاً عن هذا ، فمذ أن اختطف البريطانيون فلسطين من تحت أنوفهم ، كان الفرنسيون يشعرون من ناحيتهم بالأذى إلى أكبر حد ، يضاف إليه شك لا رجاء في زواله ، في أن بريطانيا كان لها خطط بالنسبة إلى سوريا ولبنان أيضاً . ولما نشبت الحرب في أوروبا راحت بريطانيا تتراجع في سبيل أن تستل هذا الشك . كانت فرنسا قد أظهرت بعض العزوف عن الإنضمام إلى بريطانيا في إعلان الحرب على ألمانيا ، وكان الشعور في لندن هو أنه لا يجب عمل شيء يمكن أن يتيح للفرنسيين مهرباً للتوقيع على صلح منفرد .

ولكن بعد انهيار فرنسا ومجيء حكومة فيشي الموالية للألمان بدأت بريطانيا تفكر من جديد ، وروجعت سياسة « رفع الأيدي عن سوريا » . إذ في ظرف سنة من توقيع الهدنة بين فرنسا وألمانيا أصدرت سلطات فيشي التعليمات للجنرال دنتز المندوب السامي الفرنسي في دمشق ، بأن يسمح للطائرات الألمانية المتجهة إلى العراق ، باستخدام المطارات السورية . وبانتصاف مايو ١٩٤١ وبعد أن أعلنت حكومة رشيد عالي في العراق الحرب على بريطانيا بأسبوعين كان نحو ستين قاذفة ألمانية قد استغلت هذه التسهيلات . كانت هذه هي « سياسة الزحف نحو الشرق » مرة ثانية ، وأدركت القيادة البريطانية

في الشرق الأوسط بقدر كاف من السرعة أنه إذا لم يعمل شيء لوقفها ، فسوف يجرى حشد خطير للقوات الألمانية في سوريا ، تشن منه حركة كماشة خطيرة ضد مركز بريطانيا المعرض للتهديد في الشرق الأوسط ، وهي حركة تتجه نحو العراق والخليج الفارسي لتتزامن مع الهجوم الثاني الذي سيقوم به الجنرال روميل من ليبيا ضد مصر .

صممت القيادة البريطانية على أن تستبق هذه الاستراتيجية بأن تغزو سوريا بالقوات التي لم تكن مشتبكة في الجبهة الليبية أو في العمليات الجارية في العراق . عرض الجنرال كاترو المندوب الفرنسي لفرنسا الحرة بالشرق الأوسط أن يساعد بلوائين فقبل العرض بسرور . ولكن القيادة البريطانية وهي تذكر العهود التي نكث بها بعد الحرب العالمية الأولى وكانت شديدة الرغبة في الحصول على أكبر قدر من التعاون السوري ، اقترحت إذاعة وعد بالاستقلال في أثناء عبور القوات الغازية الحدود السورية واللبنانية ، فاعترض كاترو بشدة بالنيابة عن زعيمه الجنرال ديغول . وبعد ضغوط قوية في لندن أمكن إقناع القائد الفرنسي بأن يذيع في غير لبس أو غموض على أهل سوريا ولبنان «إلى آت لأضع نهاية لنظام الانتداب ولأعلن أنكم أحرار ومستقلون» ، هذا البيان أكدته تصريح مشابه أصدره السفير البريطاني في مصر .

بمجرد أن بدأ الزحف في ٨ يونيو انسحب الألمان إذ لم تكن لهم بعد قوات في سوريا ، وبعد خمسة أسابيع توقفت مقاومة قوات حكومة فيشي الفرنسية . أما وقد أزيل التهديد الألماني حوّل البريطانيون الآن إدارة سوريا ولبنان إلى حلفائهم الفرنسيين الأحرار ، مطمئنين إلى حسن نية الأخيرين في احترام وعد كاترو . ولكن كان من الصعب على السوريين واللبنانيين أن يشاركوا السلطات البريطانية في فتحها ، وعندما اكتشفوا أن «تحريرهم»

الذى بُشروا به كثيراً أسفر فحسب عن إبدال نوع من الحكم الفرنسى بآخر ، تصاعدت الصيحة : « أين استقلالنا الموعود ؟ » ، أين حقاً ؟ ذلك أن الجنرال كاترو بوصفه المندوب السامى الفرنسى الجديد فى بيروت ، لم يعلن إلا بعد انقضاء عامين ، أنه سوف تجرى الانتخابات لإقامة حكومات عربية مؤقتة فى سوريا ولبنان .

وحتى هذه الحركة المتأخرة عن أوانها ، ثبت أنها مجرد ذر للرماد فى العيون . فسرعان ما أصبح واضحاً أن ما كان يقصده الفرنسيون من اصطلاح « حكومات مؤقتة » هو نظم حكم عربية تكون ألوبة فى أيدي فرنسا . وتتبع أوامرها . فى هذه المرة كان لبنان هو الذى تزعم رفض قبول وضع البلد الذى يسير فى فلك غيره . وفى يولييه ١٩٤٣ أعلن البرلمان اللبنانى أن لبنان جمهورية مستقلة وقرر أن تكون العربية هى اللغة الرسمية بدلا من الفرنسية . كان رد الفعل من جانب السلطات الفرنسية أشبه ببغل يرفس ، وإذ تفاسست بسهولة معاهدة ١٩٣٦ التى لم يحترموها ، أمرت رئيس الوزراء الجديد رياض الصلح أن يلغى هذه الإجراءات على أساس أن انتداباً منحه عصبية الأمم ، لا يمكن أن يلغى بإجراء من طرف واحد . رفض هذا الطلب ، وعندئذ حل الفرنسيون البرلمان وأقالوا الوزارة واعتقلوا رياض الصلح هو وبشارة الخورى رئيس الجمهورية وعدة وزراء آخرين . عندئذ صدرت الدعوة إلى القيام بإضراب عام فى جميع أرجاء البلاد ، وتظاهر الألوف من المواطنين اللبنانيين الغاضبين فى بيروت وغيرها من المدن .

عند هذه النقطة تدخلت بريطانيا لتذكر السلطات الفرنسية فى لبنان بالعهد الذى قطعه الجنرال كاترو بمنح الاستقلال لسوريا ولبنان ، والذى ضمنه السفير البريطانى فى القاهرة فى يونيه ١٩٤١ . لم يكن الفرنسيون الأحرار فى مركز يسمح لهم بمحاجة حلفائهم البريطانيين الذين كان الأولون

يعتمدون عليهم في تزويدهم بكل شيء حتى رواتب الجند ومعداتهم ، فاستسلموا على مضض . فأفرج عن الرئيس اللبناني ووزرائه ، وفي نوفمبر استأنف البرلمان وظائفه التي انتخب من أجلها . ثم ، بعد أن تقابل ممثلو سوريا ولبنان مع السلطات الفرنسية في بيروت ودمشق لمناقشة القترية الخاصة بالاستقلال ، وافق الفرنسيون على أن ينقلوا إلى الحكومات العربية الوظائف الداخلية التي كان يمارسها من قبل ، المندوب السامي الفرنسي في كل بلد ، وأصبح شكرى القوتلى أول رئيس للجمهورية السورية لها استقلالها الذاتي .

ساد الهدوء بينما كانت المناقشات تسير في طوبىها في بيروت ودمشق عام ١٩٤٤ وإلى فترة طيبة من العام التالى . واسكن الفرنسيين لم يكونوا قد انتهوا بعد ، وفي مايو ١٩٤٥ نزلت قوات فرنسية في بيروت . وعلى الفور قطعت سوريا ولبنان المباحثات التي قالوا إنه لا يمكن مواصلة في ظل هذا التهديد الفرنسي المتجدد ، وطلبوا المساعدة من بريطانيا وأمريكا والروسيا وأصدقائهم العرب . وثار الاضطرابات والمظاهرات مرة ثانية في بيروت ودمشق . هذا الموقف المتفجر إلى درجة عالية لم يكن يهدئه بأى حال بيان صادر من باريس جعل من الواضح أن فرنسا تريد أن تديم احتلالها العسكري للمشرق . وعندئذ في ٢٩ مايو ، وبعد صدام بين القوات الفرنسية والوطنيين السوريين في دمشق ، بدأ الفرنسيون يضربون أجزاء معينة من المدينة بمدافعهم على نحو مافعلوا في ثورة الدروز عام ١٩٢٥ . قتل ثمانون من رجال البوليس السورى وأربعائة من المدنيين بسبب هذا القصف وجرح ثلاثة أمثال هذا العدد .

اضطرت بريطانيا إلى التدخل مرة أخرى ، وللمرة الأخيرة على ما أثبت المستقبل . وفي رسالة مدوية كهزيم الرعد إلى الجنرال ديحول ، أمره ونستون تشرشل بإصدار تعليماته إلى قواته في دمشق بوقف إطلاق النار ، وأضاف

أن الجنرال باجيت القائد العالم البريطاني في الشرق الأوسط، قد صدرت إليه الأوامر، « بأن يتدخل كي يحول دون مزيد من إراقة الدماء وذلك لصالح أمن الشرق الأوسط بكامله ». وعلى غرار ما فعل شمشون في المعبد، كان الفرنسيون على استعداد لتحطيم أنفسهم هم ودمشق بدلا من التنازل عن سوريا لأهلها الحقيقية والتقليديين. ولكن بينما راحوا يدربون مدافعهم من التلال المحيطة بدمشق نحو المدينة المقاتلة، أدرك دييجول أن اللعبة انتهت وأمر بوقف عام لإطلاق النار. أنقذت سوريا ولبنان، وأصبحتا في ظرف عام وقد حققا الاستقلال الذي وعدا به منذ زمن طويل وأصبحتا أعضاء في الأمم المتحدة. ولكن لم يكن في إمكان زعيم فرنسا الحرة حتى الآن أن يسلم بأن فرنسا هزمتها روح العرب القومية فألقى اللوم على « جماعات محلية غارقة في التآمر » باعتبارها مسئولة عن طرد فرنسا من الشرق الأوسط، وتزامت تلميحات خطيرة بأن بريطانيا هي التي شجعت هذه المؤامرات.

هذا العجز الفرنسي عن تقبل فكرة أن أي شعب « متأخر » لا يجب أن يرفض منافع « الرسالة التمدنية » كان يكن أيضاً في جذور متاعب فرنسا في شمال أفريقية. فبعد انهيار ثورة عبد القادر في عام ١٨٤٧، بدأت فرنسا تنظر بعين الشره إلى دولتي مراکش وتونس المجاورتين. ولكن بينما أثبتت بريطانيا أن تسمح لأي دولة أوروبية كبرى أن تثبت أقدامها على الساحل الأفريقي الشمالي في مواجهة جبل طارق، وبينما كانت السلطة العثمانية ما تزال راسخة في تونس، اضطر الفرنسيون إلى استغلال مكاسبهم القائمة والعمل على استعمار الجزائر. بدأ المستوطنون الفرنسيون وهم أسلاف « المستعمرين » colons في العصر الحديث، يتدفقون عبر البحر المتوسط تشجيعهم الوعود بمنحهم الأراضي. وخلال الفترة الوجيزة التي قامت بها الإمبراطورية الثانية، حاول لوى نابليون وقف عملية الاستعمار وحماية حقوق ملاك الأراضي

الوطنيين وهى الحقوق التى كان عبد القادر قد أقنعه بأنها مبهدة بطريقة ظالمة من جانب نظام المبيعات الإجبارية الذى فرضه سلفه من ملوك البوربون . ولكن بعد الحرب الفرنسية — البروسية وضياح الأازاس واللورين عاد خلفاء لوى نابليون إلى السياسة القديمة . والآن تحول مجرى المستوطنين إلى فيضان عندما تدفق على الجزائر الألوف الذين فقدوا ممتلكاتهم من الأقاليم التى خسرتها فرنسا ، وراحوا يسعون وراء مستقبل جديد . ولقى معدل الاستعمار دفعة أخرى عندما قضى وباء على مصدر حياة عدد كبير من زراع الكروم فى جنوب فرنسا .

وإذ أقام مثل هذه الألوف الكثيرة من الفرنسيين فى المستعمرة الجديدة ، قررت الحكومة الفرنسية الآن « إدماج » الجزائر فى فرنسا وجعلها ملحقة بالأرض الفرنسية الأم . فنقلت السيطرة من وزارة الحرب إلى وزارة الداخلية ، وأطلق اسم « محافظون » على رؤساء مختلف الأقاليم على نحو المتبع فى فرنسا نفسها ، وحلت الفرنسية محل العربية كاللغة الرسمية . وعندما بدأ يضعف فيضان اللاجئين الفرنسيين شجع المهاجرون على القدوم من أسبانيا وصقلية للقامة فى الجزائر ، بشرط أن يتجنسوا بالجنسية الفرنسية . وعرضت أيضاً الامتيازات من قبيل الحصانة من نزع الملكية ، على صفوة جزائرية جرى انتقاؤها بدقة إذا قبل أفرادها التجنس بالجنسية الفرنسية .

وبرغم أن الظروف الاقتصادية للقلائل الذين تعاونوا مع الفرنسيين كانت أفضل بكثير منها فى ظل الحكم العثمانى ، فإن هذه المحاولة المتعمدة للقضاء على طابع البلاد الأصلية كان لا بد أن تسفر عن صدام . وفى الوقت المناسب ثار « القبائل » Kabyles فى شرق الجزائر ضد الظلم الفرنسى . كانوا موضع القمع الذى لا يعرف الرحمة ، وفى النهاية كانوا أسوأ حالا منهم فى أى وقت مضى . والآن انتهزت السلطات الفرنسية فرصتها فصادرت بدون

تعويض أرض أى شخص اشتهبت في اشتراكه في الثورات ووزعتها على المستعمرين الذين كان بهم جوع إلى الأرض لا يشبع .

ولكن حتى هذه الوسائل أخفقت في أن توفر العدد الكافي من الأفدنة للسكان الأوربيين الذين تطرد الزيادة بعمره في أعدادهم ، وفي عام ١٨٨١ وعندما بدأت قوة الإمبراطورية العثمانية تتداعى تحت ضغط الأحداث ، تحركت فرنسا لكي تنزع تونس. وهنا تكررت العملية الجزائرية بحذافيرها باستثناء الإدماج . فنظراً لكون تونس أقرب من الجزائر إلى مصر ، لهذا كان لها تقليد إسلامي أقوى . ورغم أنها كانت ملكاً بالفعل لفرنسا إلى أن ظفرت باستقلالها في عام ١٩٥٥ ، فعلى ذلك أصبح وضعها الرسمي وضع محمية بدلاً من وضع مقاطعة من مقاطعات فرنسا ، وسمح لحاكم العوابة يحمل لقب باي تونس أن يمارس سلطة إسمية ويتلقى الأمر من مقيم عام فرنسي .

كانت فرنسا ما تزال غير قانعة بفتوحاتها في شمال أفريقية . ففي الشرق كانت النيا في الصحراوية بليبيا لا تجتذب الأنظار ، ولكن إلى الغرب من الجزائر كانت هناك الأراضي الخصبة بمراكش . لم تصل الإمبراطورية العثمانية أبداً إلى هذا الموضع ، والشعب الوحيد الذي فرض نفسه على سيادة سلطان مراكش منذ الفتوح العربية كان أسبانيا التي احتفظت منذ القرن السادس عشر بموطء قدم صغير في مليلة وسبتة على ساحل البحر المتوسط « ولكن خلال العصر الفكتوري كانت بريطانيا تسد في غير الطريق أمام التوسع الفرنسي غربى الجزائر . ولم يتم إزالة هذه العقبة التي لا يمكن تخطيها ، إلا بعد أن تولى العرش البريطانى ذلك المسرف في الميل إلى الفرنسيين وهو الملك إدوارد السابع . فبعقد الاتفاق الودى بين بريطانيا ومصر في عام ١٩٠٤ تخلت فرنسا عن دعاويها في مصر ، ومقابل هذا أطلق البريطانيون يد الفرنسيين في مراكش . وهذا الاتفاق أعقبه آخر بين فرنسا وأسبانيا اعترفت

فيه فرنسا بالمتلكات الأسبانية في الشمال ، ولم تثر أسبانيا إعراضات على أن تلتشىء فرنسا بمجالا لنفوذها في بقية مراکش .

كان الطريق مفتوحاً أمام أسبانيا لتأخذ بقية المغرب ، ومن الآن فصاعداً اتخذت الأحداث ممطاً مألوفاً . ففي عام ١٩٠٧ ومرة ثانية في عام ١٩٠٨ ، وبعد مقتل بعض المواطنين الفرنسيين في اضطرابات في إمدنتى مراکش وطنجة ، دخلت القوات الفرنسية لحماية أرواح وممتلكات الفرنسيين . تلا ذلك ثورات قبلية ضد البيت الحاكم ، ولما كان السلطان مولاي عبد الحفيظ رجلاً ضعيفاً لا يقدر على السيطرة على رعاياه الأباة ، ناشد فرنسا أن تسانده . استعجبت فرنسا للنداء بحماس ، وفي ظرف عام كانت قد احتلت معظم البلاد . عند هذه النقطة راحت ألمانيا تبدي اهتماماً بمراكش ، وبعد حادثة أغادير عام ١٩١١ عندما ظهر طراد ألماني على مسرح العمليات وهدد باتخاذ عمل عدائي ، عادت فرنسا فاستغلت مخاوف السلطان . وفي مارس ١٩١٢ تم التوقيع على اتفاق جعل مراکش محمية فرنسية على غرار تونس وأعطى فرنسا الحق في وضع قوات حيثما كان هذا لازماً لاحتلالها . ووقع اتفاق آخر مع أسبانيا اعترفت فيه الحكومة الأسبانية بالحماية الفرنسية ووافقت على أن تصبح طنجة منطقة دولية .

أدت هذه التضحية باستقلال مراکش إلى فورات جديدة من العنف القبلي . فقبل أن ينصرم العام عين الماريشال الفرنسي ليوتى مقيماً عاماً ولديه أوامر بسحق الثورة ، وكان السلطان مولاي عبد الحفيظ قد عزل في هذه الأثناء لصالح أخيه مولاي يوسف جد الملك الحالي مولاي الحسن . وبحلول عام ١٩١٤ ، وبالمساعدة من جانب يوسف ، كان ليوتى قد هدأ البلاد ؛ ولكن عندما نشبت الحرب العالمية الأولى بدأت ألمانيا مرة ثانية تحاول تقويض النفوذ الفرنسي في مراکش . فعن طريق الحماية التي وفرتها مراکش

الأسبانية المحايدة ، في الشمال ، تدفقت الأموال والأسلحة على قبائل إقليم جبال الريف وأطلس ، ورغم أن الأمور ظلت هادئة نوعاً في ظل يد الاحتلال الفرنسي الحديدي فيما بين عامي ١٩١٤ و ١٩١٨ ، كانت القبائل قد تجمع لديها إمدادات كافية لتتقضى على ساداتها الأوربيين عندما انتهت الحرب .

ففي عام ١٩٢١ قام زعيم من البربر بإقليم جبال الريف ، هو عبد الكريم ، مدفوعاً بكرهية شديدة للأوربيين الذين احتلوا بلده وللإسبانيين الذين تساهلوا معهم ، وأعلن قيام جمهورية من البربر . انقض أولاً على الأسبان فهاجم وأسرقائدهم وعشرين ألفاً من الجند الأسبان وطارد البقية المحطمة من قوات الاحتلال الأسباني وألقى بهم إلى البحر . ثم بعد أن انتزع فدية ضخمة للافراج عن الأسرى الذين عنده ، تحول نحو الفرنسيين وما أن حل عام ١٩٢٥ حتى كان يهدد القلعة الفرنسية الرئيسية في فاس . سحب ليوتي وأرسل مكانه المارشال بيتان بطل فردان ، كي ينظم قوة فرنسية — أسبانية مشتركة لسحق ثورة الريف . لقد انتهى عبد الكريم . ولكنه لم يستسلم إلا في العام التالي ١٩٢٦ ، بعد وعد بحريته الشخصية ، وبعد أن قتل رجاله من الثوار نحو ألفين من القوات الفرنسية بخلاف الوطنيين الذين كانوا يحاربون مع الفرنسيين . وكما حدث مع عبد القادر حنت الفرنسيون بوعدهم وسجنوا عبد الكريم في جزيرة رينيون حيث ظل بها طيلة الإحدى وعشرين سنة التالية . ولكن الثورة علمت الفرنسيين درساً في شراسة البربر^(١) لم ينسوه أبداً ، ومن الآن فصاعداً تحولوا بسياساتهم إلى مهادنة سافرة للبربر على حساب العرب بما فيهم حتى السلطان القائم بالحكم .

هذه السياسة من رشوة سارق الهيد وإذلال حارس الصيد ، حافظت

(١) لعل التعبير الأصح والأدق هو « شجاعة البربر » . . المترجم

لسنوات قلائل على سلام مزعزع في مراکش . ولكن هذا النوع من الموقف كان لا يمكن أن يستمر إن لم يكن لسبب إلا لأنه في عام ١٩٢٧ ولى السلطنة شاب من أهل العزم ، عندما توفى أبوه مولاي يوسف . لم يكن محمد المعروف للعالم باسم محمد الخامس والمؤسس لمراكش المستقلة الحديثة ، بالرجل الذى يمكن تجاهله ، وسرعان ما بدأت المقاومة العربية تزداد صلابة ضد الفرنسيين بعد اعتقاله العرش . وفي عام ١٩٣٠ وقعت اضطرابات كبرى في كافة أرجاء مراکش ، وبعد ذلك أصبحت حركة تعرف باسم لجنة العمل المراكشية ، رائدة القومية المراكشية . طالبت لجنة العمل بالحد من الحقوق الفرنسية فصدر الحظر على نشاطها . ولكنها كانت قد أشعلت شرارة قدر لها أن تستمر إلى أن اضطرت فرنسا في النهاية إلى التسليم باستقلال مراکش .

وخلال هذه الفترة نفسها كان محام شاب ممن تعلموا في فرنسا ، هو الحبيب بورقيبة ، يشعل بنشاط نار الثورة التي يقوم بها في وطنه تونس . انضم بورقيبة في أوائل الثلاثينات إلى الحزب الوطني وهو حزب الدستور ، وعند إغلاق صحيفة الحزب بعث باحتجاج شخصى إلى المقيم العام . ثم أخرج مع نفر من الأصدقاء جريدة خاصة به أطلق عليها اسماً مناسباً هو « العمل التونسى » ، وعندما أغلقت في عام ١٩٣٤ كون حزبه السياسى الذى دعاه « الدستور الجديد » وكانت أهدافه شبيهة بحزب الدستور الذى كان قد أنشأه الوطنيون ، ولكن برنامجه كان أكثر نضالية بكثير . ولقد أكسبته جهوده قدراً بالغاً من التأييد الشعبى بحيث لم تمض ستة أشهر حتى اعتقل هو ومعاونوه ونفوا إلى مكان على حدود الصحراء الكبرى . وبمقدم حكومة الجبهة الشعبية برئاسة ليون بلوم في عام ١٩٣٦ وهى الحكومة التى جعلت الاتفاقات مع سوريا ولبنان في حيز الإمكان ، أفرج عن بورقيبة . ولكن بعد عامين وجدت السلطات الفرنسية سبباً آخر لاعتقاله وفي عام ١٩٤٠

وبرغم أنه لم يكن قد حوكم عن أية جريمة ، نقل إلى مرسيليا حيث سجن في حصن سان نيكولا .

ولما انهارت فرنسا مارست الحكومتان الألمانية والإيطالية أقوى الضغوط عليه كي يعلن وقوفه إلى جانب دول المحور . ولكن بورقيبه كان أذكى من أن تخدعه وعودهم باستقلال تونس ، ورفض في صلابته الانصياع إلى دعايتهم . وعندما أطلق سراحه في عام ١٩٣٤ وعاد إلى تونس دعا أتباعه على النور إلى تأييد الحلفاء الذين كانوا قد حرروا تونس من الاحتلال الألماني واحتلال حكومة فيشي الفرنسية . ولكن ، وكما كان الشأن في سوريا ، فإن أول فكرة كانت تساور الفرنسيين الأحرار هي أن يدعموا مركزهم ويسحقوا بحزم أى شيء يمكن أن يدعى الدعاية الوطنية . وعلى ذلك منعت السلطات الفرنسية دعوة بورقيبه إلى حمل السلاح ، وهددت باتخاذ إجراءات المحاكمة ضده إذا أصدر أية تصريحات جديدة .

ولما انتهت الحرب العالمية الثانية واصل حزب بورقيبه «الدستور الجديد» النضال من أجل الاستقلال ، وفي عام ١٩٥٠ تساهلت فرنسا إلى حد أنها عرضت على تونس الاستقلال الذاتي الداخلي . وبرغم المعارضة من جانب الوطنيين المتطرفين قبل بورقيبه نصف الرغبة . ولكن بعد عام تراجع الفرنسيون عن العرض الذي قدموه ، وعندما دبر حزب الدستور الجديد مظاهرة احتجاج قبض على بورقيبه ونفي للمرة الثالثة . وبعد أربع سنوات ونصف ، وبعد أن جاءت عجلة روليت السياسة الفرنسية ببيير منديس - فرانس المستنير إلى الحكم ، أطلق سراح بورقيبه وعاد ليستقبل في مدينة تونس استقبال الأبطال . ومقابل الاستمرار في تأجير القاعدة البحرية في بنزرت وتسهيلات عسكرية أخرى معينة إلى فرنسا ، منحت تونس الاستقلال . وفي مارس ١٩٥٦ أصبح أول رئيس للوزراء في تونس المستقلة ،

وفي العام الثاني وبعد أن حل الباي على التنازل عن العرش ، نودي به رئيساً لجمهورية تونس .

وسارت قصة مراکش بعد الحرب العالمية الثانية وفق نمط مشابه ، ولعب فيها محمد الخامس دور الزعيم الشعبى المنقذ . فبعد الحرب مباشرة طلب حزب الاستقلال من فرنسا أن تعيد النظر فى قانون الحماية الذى ظل بدون تغيير منذ عام ١٩١٢ . ما كان يمكن أن يكونوا أكثر تواضعاً فى مطالبهم ، إلا أنها رُفضت على الفور . فنظراً لأن الجلاوى وهو من زعماء البربر فى ناحية مراکش فى جبال أطلس ، كان يردد فى استكانة صدى الصيحة الفرنسية بأن الحكم الفرنسى هو أفضل شئ بالنسبة إلى جميع المراكشيين ، أحس الفرنسيون أنهم من القوة الكافية بحيث يستخدمون البربر ضد العرب . ولكن عند هذه النقطة وجه محمد الخامس الضربة ورفض أن يضيف توقيع السلطان إلى أية مراسيم أخرى يعدها الجنرال جوان المقيم العام ، إلا بعد أن توافق فرنسا على إجراء المفاوضات بشأن إعادة النظر فى دستور ١٩١٢ . وأخيراً اضطره جوان إلى التساهل مهدداً بإياه بالعزل ، ولكنه أخفق فى إبعاد السلطان عن الوطنيين المراكشيين لأن محمداً الخامس أبى أن يشجب الأنشطة التى كان يقوم بها حزب الاستقلال .

تطلع الفرنسيون الآن إلى الجلاوى ليقوم بالحركة التالية بالنيابة عنهم . جمع الزعيم البربرى جيشاً حول بلدة مراکش وهدد بالاستيلاء على السلطة إذا لم يعزل محمد الخامس . وعلى الفور عبر جوان عن إمتنانه ، وفى أغسطس ١٩٥٣ نقل محمد الخامس فى سفينة حربية فرنسية إلى كورسيكا . ولكن بدلاً من أن يعمل عزل محمد الخامس على تحطيم حزب الاستقلال عمل فقط على أن وخبذين أنصار الملكية وخصوصاً منها فى المطالبة بعودته على الفور . ونشب العنف بصورة تلقائية فى جميع أنحاء مراکش ، وبعد عامين اضطروا الفرنسيون (٣٢ م - العرب)

إلى التسليم بالهزيمة . كانت الثورة قد بدأت الآن في الجزائر ، واضطرت فرنسا إلى إنهاء خسائرها في مراکش وتونس ولو اقتصر السبب على رغبتها في تركيز قواتها للاحتفاظ بالجزائر . وأفرج عن محمد الخامس في نفس الوقت الذى أطلق فيه سراح بورقيبة ، وأعلن استقلال مراکش في نفس الوقت الواحد مع استقلال تونس . وتنازلت أسبانيا عن كافة ممتلكاتها في الشمال فيما عدا سبتة ، وأعيد توحيد طنجة رسمياً مع مراکش .

لم تكن الجزائر موقفة بهذه الصورة ، ويرجع بعض السبب في هذا إلى أنها لم تكن وجدت بعد زعيماً وطنياً من طراز محمد الخامس أو بورقيبة . ولكن أهم من هذا أن فرنسا كانت قد أجبرت منذ وقت قريب على التخلي عن إمبراطوريتها في الهند الصينية ، وسواء كان المليون ونصف المليون ممن يقال لهم المستعمرون الأوروبيون سيقاتلون أولاً يقاتلون في سبيل الاحتفاظ بالجزائر فرنسية ، فإن الجيش على أى حال ، لم يكن على استعداد للتسليم بآخر ممتلكات فرنسا العربية بدون نضال مستميت . وإذا أساءت الحكومات الفرنسية المتعاقبة فهم رغبة الشعب الجزائري الملحة في الاستقلال الذى منح لجيرانهم المراكشيين والتونسيين ، أصرت على أن القومية الجزائرية كانت من صنع حفنة من المهيجين الذين ينفذون أوامر ذهن متفوق أجنبي كجمال عبد الناصر^(١) — ومن هنا كان تصميم فرنسا في وقت أزمة السويس على تحطيم ناصر باعتباره العقبة الرئيسية في طريق السلام في الجزائر . ولقد خلص جى موليه رئيس وزراء فرنسا في ذلك الحين ، موقف فرنسا عندما أخبرنى أن

(١) هذا هو دائماً تفكير الاستعمار الذى يعتمد أن يتجاهل جذور المشكلة وهى القومية ، فيحاول أن يفسر الثورة عليه بأنها من صنع أيدٍ خارجية . هذه الأيدى يمكن أن تساعد ولكنها لا تستطيع أن تخلق ثورة قومية في بلد معين لأن هذه الأخيرة تبتقى دائماً من ظروف هذا البلد الموضوعية — المترجم .

الاستقلال لم يكن في الحقيقة يعنى شيئاً بالنسبة إلى جمهرة الشعب الجزائري ، ولم يكن إلا شعاراً اخترعته مصر لإثارة المتاعب ، وأنه إذا استطاعت فرنسا أن تجعل الجزائر أكثر رخاء فسوف يقنع الجزائريون بالحكم الفرنسي . كانت هذه المفريات قد جربت بالطبع وكانت قد أخفقت . فعرض وظائف أفضل ، ورفع المرتبات ، وتوفير الأمن للملكية الأرض للجزائريين الذين أصبحوا « مندمجين » عن طواعية ، كل هذا لم يسفر بحلول عام ١٩٣٨ إلا عن عدد هزيل من « المندمجين » لم يتجاوز ثلاثة آلاف . حقيقة عرض الفرنسيون في عام ١٩٤٥ أن يزيدوا التمثيل الجزائري في المجالس المحلية من ٣٣ إلى ٤٠ في المائة . ورفعوا عدد الذين ينتخبون من الجزائريين الذين لهم حق التصويت ، من ٢٠٠.٠٠٠ إلى مليون ونصف المليون . ولكن عشرة ملايين جزائري كانوا ما يزالون لا يمثلهم سوى عشرين نائب في البرلمان الفرنسي — على أساس نائب واحد عن كل ٥٠٠.٠٠٠ شخص مقابل نائب عن كل ٨٠.٠٠٠ في فرنسا نفسها .

إن قصة الكفاح العنيف الطويل وهو الثورة الجزائرية قصة مشهورة بحيث لا تتطلب تكرارها في إسهاب . إنها لقطة من الثورات في التاريخ كانت مثلها في المראה أو التكلفة بالنسبة إلى القوة القائمة بالاحتلال . فنذ أن بدأت في نوفمبر ١٩٥٤ إلى أن حصلت الجزائر على استقلالها في مارس ١٩٦٢ ، كانت فرنسا تصب سنوياً ما يربو على بليون دولار في محاولاتها العقيمة سحق الثوار والاحتفاظ بالجزائر ؛ وقبل أن تحل النهاية بوقت طويل كانت قوات فرنسية عددها نحو ٥٠٠.٠٠٠ تحت رحمة جيش من الثوار ، يتكون من ربع هذا العدد . لقد بدأت جبهة التحرير الوطني ببضع مئات من المجندين المسلحين ببنادق الصيد والمدى ، وبالتدريج زادت قوة عن طريق شن الغارات على مخازن السلاح الفرنسية وبفضل شحنات قليلة من الأسلحة من

مصر وبلاد عربية أخرى . وفي عام ١٩٥٦ كان المئات القليلة الأولى من الشوار قد زادوا إلى ٤٠٠٠٠ ثم إلى ١٠٠٠٠٠ بعد عامين .

كان عبد القادر قد كتب إلى بيجو «سوف ننهك قواتكم، ونضايقهم ونفضي عليهم بالتدريج .. ألا ترى الموج يعلو عندما يلمسه طائر بجناحه ؟ هذه هي صورة مروركم فوق أفريقيا » . كان التاريخ يعيد نفسه . في البداية كانت جبهة التحرير الوطني لا تسيطر إلا على عدد قليل من الجيوب المنعزلة حول مدن الجزائر وهران وفيبيشيل وشقة من الظهير الجبلي على مقربة من الحدود مع تونس . ولكنها كانت تزيد كل سنة من منطقة نفوذها وسيطرتها ، وفي عام ١٩٥٨ كانت الجزائر كلها تخضع لسيطرتها باستثناء وهران ومدينة الجزائر وقسنطينة ودائرة صغيرة حول كل من هذه المراكز الرئيسية .

كان الرجل المستول بوجه خاص عن اندفاع جبهة التحرير المبذئي ونجاحها ، هو أحمد بن بيلا ، وهو من أهل وهران وله تقاطيع رشيقة وشخصية جذابة كالمغنطيس ، وسبق أن خدم في جيش الفرنسيين الأحرار خلال الحرب العالمية الثانية على نحو ما فعل الكثيرون من زملائه الثوار ، ومنح الأوسمة لقاء شجاعته في الحملات بشمال أفريقية وإيطاليا . وعند عودته إلى وطنه في عام ١٩٤٦ عكف على إعداد الخطط لتحرير بلده في النهاية ، وبعد أن اعتقل بسبب القيام بأعمال تخريب في عام ١٩٥٠ ، هرب إلى القاهرة حيث حصل على وعود بتقديم أسلحة للنضال القادم . وفي عام ١٩٥٦ ، وبوصفه من أعضاء المجلس الوطني للثورة ، توجه إلى مراکش ليقابل مع السلطان إمكانيات التفاوض مع فرنسا من أجل الوصول إلى تسوية . وكان وفده في الطريق إلى تونس كي يعرض مقترحاته على الحبيب بورقيبة ، عندما أجبرت مقاتلة فرنسية طائره على الهبوط في مدينة الجزائر ، ورغم أن الفرنسيين كانوا قد

منعوها أماناً بالسفر . قبض على بن بيلا ونقل إلى السجن في فرنسا حيث أمضى السنوات الخمس التالية .

هذا التصرف الغادر لم يفضب الجزائريين فحسب ، ولكنه زاد أيضاً من حدة ورطة فرنسا . لأنه قضى على أية آمال في وساطة يقوم بها السلطان أو بورقيبة ، ولم يدع لفرنسا سوى بديلين ، فإما أن تواصل الحرب أو تسلم لجبهة التحرير التي تعرضت للإساءة والإهانة . ما من فرنسي في موقع السلطة كان يحسر على الدعوة إلى الاستسلام ، ولكن الكثيرين كانوا يعرفون في قرارة أنفسهم أن فرنسا تستنزف دماؤها في الجزائر . بذلت محاولة فائترة لحل المشكلة عن طريق ما دعى من باب التهذيب في التعبير ، فرصة أمام الجزائريين « لإدارة شئونهم بطريقة ديمقراطية وفي حرية » . ولكن أظهر إيمان النظر في الاقتراح أن المراد كان أن تظل الجزائر جزءاً من فرنسا وبقوى الفرنسيون الإشراف على الشؤون الخارجية والدفاع والبوليس والأمن وإجراءات الانتخاب والعمل والمالية والجارك والضرائب والإنفاق الحكومي والعدل والتعليم ! رفضت جبهة التحرير العرض بازدياد وزادت من حدة نضالها من أجل الاستقلال .

وحتى بعد عودة الجنرال ديغول إلى رئاسة الوزارة الفرنسية في عام ١٩٥٨ ، واصلت السياسة الفرنسية الكفاح في سبيل تملك جزء على الأقل من الجزائر . عرضت الآن بطريق غير مباشر فكرة التقسيم ولكن بغير نجاح . كان الجزائريون قد سمعوا عن فلسطين ، وعرفوا أن التقسيم يعنى في نظر الفرنسيين الاحتفاظ بالسهول الساحلية الخصيبة وأن يعطى للجزائريين الظهير الصحراوي . وأخيراً في مارس ١٩٦٢ ، وبعد عام تقريباً من المفاوضات التي طال أمدها ، حل ديغول المعضلة ومنح الجزائر حريتها . فاز بن بيلا الذي أطلق سراحه الآن من السجن ، في صراع قصير الأمد من أجل السلطة مع

أولئك الزعماء من جبهة التحرير الذين كانوا قد أجروا المفاوضات بشأن استقلال الجزائر ، ونودى به رئيساً للوزراء . لقد خسرت فرنسا آخر ممتلكاتها في العالم العربي . ولكن الأسوأ من هنا أنها فقدت جميع عطف العرب ، وخلفت وراءها تركة من المرارة قد لا تنسى أبداً . بالنسبة إلى بريطانيا غالباً ما يقال إن علاقة العرب معها هي مزيج من الحب والكراهية ؛ أما مع فرنسا بعد الجزائر فإن العرب لا يكتفون بنحوها غير الكراهية^(١) .

(١) يمكن بهذا الصدد أن نذكر سياسة بريطانيا في فلسطين ، واشتراكها مع إسرائيل وفرنسا في العدوان على مصر سنة ١٩٥٦ — المترجم .

(٣٠)

مصر من كرومر إلى ناصر

لم تكن فرنسا القوة الوحيدة التي ترتكب أخطاء في التعامل مع الشعوب العربية ، فبريطانيا والولايات المتحدة ثم الاتحاد السوفيتي في عهد قريب جداً ، كل منها أخفقت بدورها في فهم أهداف ودوافع القومية العربية . ومنذ وقت قريب جداً ارتكبت روسيا غلطة محاولة خلق منطقة نفوذ سوفيتية في الشرق الأوسط . وكانت النتيجة أن المؤامرات الشيوعية كانت تتخذ بقسوة في مصر وسوريا في أواخر الخمسينات ، وطرد الروس من العراق في فبراير ١٩٦٣ عندما قامت حكومة تمثل القومية العربية مكان نظام عبد الكريم قاسم وهاجمت الشيوعيين الذين كان قاسم يصادقهم ويشجعهم ، بل وبوحشية فاقت الوحشية التي قضى بها قاسم على الملكيين . وأخفق الأمريكيون في أن يروا أن الحياض والاستقلال مرادفان للقومية العربية الحديثة وتعلموا درسهم في عام ١٩٥٨ عندما استطاع ائتلاف إسلامي - درزي إخراج رئيس جمهورية لبنان الموالي للغرب وهو كميل شمعون ، لأنه جعل لبنان ينحاز إلى الكتلة الغربية مقابل المعونة الأمريكية . وأخفقت بريطانيا في أن تدرك أن العرب يفضلون الحكم السيء الذي يتولونه بأنفسهم ، على أن يحكمهم شخص آخر حكماً طيباً .

كان من أكبر مشكلات بريطانيا خلال ارتباطها مع العرب طيلة نصف قرن ، أن تقرر بالضبط احتياجاتها في الشرق الأوسط . كانت مصالحها أساساً هي التجارة . ولكن حساب مدى السيطرة التي يجب أن تمارسها على العالم العربي لضمان أمن تجارتها وطرقها التجارية عبر الشرق الأوسط ، كان

شيئاً بدا أنه يختلف من عقد زمني لآخر . فقد سبق أن أوضح بالمرستون « أننا لا نريد مصر أو نرغب فيها لأنفسنا ، بأكثر مما يرغب أى رجل عاقل له ضيعة في شمال إنجلترا ومسكن في الجنوب ، أن يملك جميع النزل القائمة على طول طريق الشمال » . إلا أنه برغم مذهب بالمرستون قدر المستردف كوبر أن يكتب بعد ذلك بسنوات كثيرة إن « الإنجليز ذهبوا إلى مصر بدون سياسة مرسومة وضد إرادتهم لينعوا مذبحة ويحمدوا ثورة [و] وجدوا أنفسهم في مركز لم تكن بهم رغبة في التقدم منه ولكن كان من المستحيل التراجع منه . . . » ^(١)

كان دور بريطانيا في مصر حتى ثورة ١٨٨٢ التي قادها الأميرالاي أحمد عرابي ، يزيد قليلا عن دور مراقب مالي . كان الخديو إسماعيل المبدّر قد زاد ديون مصر قبل أن عزله الباب العالي من ٣٠٠٠٠٠٠٠ ربية (١٥٠٠٠٠٠٠ دولار) إلى ٩٤٠٠٠٠٠٠ ربية (٤٧٠٠٠٠٠٠ دولار) واضطر أن يبيع أسهمه في قناة السويس ليدفع مستحقات الدائنين الأوروبيين . بعد ذلك فرضت بريطانيا وفرنسا والقوى الأوربية الأخرى رقابة شديدة على الإنفاق العام المصري وذلك عن طريق لجنة دولية . وبرغم أن جيش الخديو كان يضم ضباطاً بريطانياً فإن القوات البريطانية لم تكن قد احتلت بعد شبراً مربعاً واحداً من الأرض المصرية .

ولكن تغير كل هذا بعد هزيمة عرابي في التل الكبير في سبتمبر ١٨٨٢ . كانت مصر ما تزال من الناحية الاسمية جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ،

(١) أية مذبحة يقصد دك كوبر ؟ لقد ثبت أن ما يدعى مذبحة الأسكندرية كان مدبراً من جانب عملاء الاستعمار . ثم من الذي دعاهم كي يخدموا ثورة ؟ وهذه الثورة كانت للدفاع عن الشعب وحقوق الشعب ، ولحمايته من الحكم الخديوي المطلق ومن تغفل السيطرة الأجنبية على البلاد ، تلك السيطرة التي فرضتها بريطانيا وفرنسا . ولأنّ فالانجليز قدسوا لخدموا ثورة قومية تعارض أطماعهم . ولكن هذا هو منطق الاستعمار دائماً — المترجم .

ولكن لم يبذل الباب العالي أية محاولة لتأكيد سلطته ، والآن ولبريطانيا جيش في البلد ، وجدت نفسها لا تسيطر على مالية مصر بحسب بل وتسيطر بالفعل على البلد كله أيضاً . كان الموقف الذى وجدته تشيع فيه الفوضى . كانت الحكومة المصرية أداة لاحول لها ولا قوة فى أيدي خديو مستبد ، ومقيدة فى معاملاتها التجارية بفعل الامتيازات التى منحتها الإمبراطورية العثمانية للقوى الأوروبية فى القرن السادس عشر . كان رعايا هذه القوى لا يخضعون للقانون المصرى ، وكانت أية مخالفات يرتكبونها يفصل فيها قناصل بلادهم أو لا تنظر على الإطلاق . وكانت النتيجة أن مارس المقيمون الأوروبيون وهم فى حصانة كاملة ، الجريمة والابتزاز والتهرب من الضرائب بل والدعاية السياسية . وفى بعض الحالات حاول المصريون أيضاً أن يبعدوا عن طائلة القانون عن طريق تسجيل مناشطهم فى حماية شركة أو عدة شركات تنتمى إلى القوى صاحبة الامتيازات .

قررت بريطانيا على غير رغبة منها نوعاً ، وبناء على مبادرة رئيس وزرائها ولیم جلادستون وكان من حزب الأحرار ، أن تبقى كإجراء مؤقت وتنظف هذا الإصطبل وتضفى على مصر منافع نظام ليبرالى للحكم . وفى عام ١٨٨٤ عين السير إلفين بارنج ، اللورد كرومر فيما بعد ؛ مبعوثاً لدى حكومة القاهرة ، تحت اللقب المذهب لإخفاء حقيقة ، وهو قنصل عام صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا وعهد إليه بوظيفة رئيس الكنائسين . راح كرومر يباشر مهمته الشاقة لإصلاح مؤسسات مصر السياسية ، دون أن يملك سلطة إدارية لأن هذه كانت فى أيدي الخديو ، وبدون برلمان أو أحزاب سياسية يستشيرها . وبحض قوة شخصيته ، يساعد جيش احتلال صغير نسبياً وقدر كبير من الرقابة المالية ، جعل من الواضح للخديو وحكومته أن أى وزير لا ينفذ تعليماته سوف يجبر على الاستقالة من منصبه . بهذه الوسائل ، وبأن أظهر أنه يسعى بصدق إلى تحسين

حفظوا الطبقات المهضومة الحقوق والحد من استبداد حكامهم ، ظفر بتأييد الجماهير . ألغيت السخرة والضرائب التي كانت تبغز بالكرواج ، وأدخلت نظم جديدة لضرائب الأطنان وتقدير القيم ، وهي نظم فرضت الضرائب على الأغنياء لا الفقراء . وجرى تجديد الري ، ولأول مرة بعد سنوات كثيرة صارت البلاد قادرة على الوفاء بالتزاماتها المالية . كان ذلك كما لو أن إبراهيم باشا في الشام قد عاد مرة ثانية ، وكما سبق أن تنبأ ابن خلدون في تحليله للخلق العربي فإن أهل مصر « المغلوبين على أمرهم » تقبلوا بسهولة النظم الجديدة التي جاء بها « غزاة بلدهم » .^(١)

ولكن كرومر أهمل إصلاحاً واحداً له أهمية جوهرية ، هو التعليم . يرجع بعض السبب في هذا إلى التعميمات الدينية^(٢) ، فقد كان التعليم على امتداد إثني عشر قرناً في أيدي السلطات الإسلامية في مصر ، وكان كرومر ينفر من الظهور بمظهر الذي يهاجم هذه التقاليد الإسلامية القوية بأن يفرض على البلاد نظاماً جديداً من التعليم غير الطائفي . أنشئت مدارس خاصة قليلة مثل كلية فكتوريا في الإسكندرية ، ولكن بخلاف هذه التسهيلات التعليمية لم تتح المزاي التي يوفرها تعليم بريطاني عصري . وبالإضافة إلى هذا كان تعليم الجماهير المصرية مهمة طويلة الأجل ، وكانت التعليمات الصادرة إلى كرومر هي ألا يقوم إلا بالإصلاحات التي لا يمكن إنجازها إلا في الفترة قصيرة

(١) إذا كان هذا صحيحاً فلماذا ثارت مصر على الحكم البريطاني ، تلك الثورة التي قادها الوطنيون من أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد ، ثم تزعمها بعد الحرب العالمية الأولى سعد زغلول . لقد ثارت لأن أمة منافع مادية لا يمكن أن تكون ثمةا فقدان الحرية — المترجم .

(٢) الأخرى أن السبب هو الجود الذي ران على البلاد وخاصة منذ الحكم العثماني ، ولا علاقة له بالنواحي الدينية ، فالإسلام يحض على تحصيل العلم ، ولم يشهد العالم في تاريخه الطويل اهتماماً بالتعليم يشبه أو يقرب من الاهتمام الذي أبدته الدولة الإسلامية في عصورها الزاهرة — المترجم .

الأمد التي تصورت لندن أنها تشمل وصاية بريطانيا على مصر .
 هذه السياسة كانت تصبح أوفر معنى لو لم تقم اعتبارات أخرى تحول
 دون خروج بريطانيا من مصر ، أو لو أن كرومر خلق جهازاً دستورياً به
 إدارة مصرية مسئولة لتمارس السلطات التي انتزعها من الخديو ، أو لو أن
 شعوباً أخرى لم تكن تتطلع إلى مصر بعين الشره والطمع . ولكن الوزراء
 الذين عيّنهم كرومر لم يكونوا أكثر من دمي تعمل وفق أوامره . أما عن
 الشره الأجنبي ، فنجد أن بدأت بريطانيا تضطلع بالوصاية في عام ١٨٨٢ .
 سجلت فرنسا معارضتها لإزاحة نفوذها كالقوة المتفوقة في مصر ، وهذا مركز
 احتفظت به منذ أن بنى فرديناند دلسبس قناة السويس . وبرغم كل ما أعلنه
 المستر جالادستون من أنه ليس لبريطانيا دوافع إمبريالية ، إلا أنها لم تكن
 تعزم الخروج تحت أي ظروف ، إذا كان الخروج يعني إطلاق يد فرنسا
 في مصر .

بعد ذلك بعشرين عاماً ، أي في عام ١٩٠٤ ، حلت مشكلات بريطانيا
 مع فرنسا بالتوقيع على الاتفاق الودي الذي تخلى الفرنسيون بموجبه عن دعاويهم
 في مقابل إطلاق يدهم في مراکش . ولكن سرعان ما قامت بعد ذلك عقبة
 أخرى تحول دون خروج بريطانيا ، وأصبح القلق الوطني واسع الانتشار . فعندما
 انسحب كرومر في عام ١٩٠٧ خلفه السير إلدون جورست الذي وجد نفسه
 تواجهه رغبة حكومته من جهة في الخروج من مصر ، ومن جهة أخرى نقص
 في الوزراء المصريين ذوي الخبرة والمسئولية ليتولوا الوظائف التي كانت
 تمارسها الإدارة البريطانية ، ولهذا عكس سياسة كرومر وأعاد إلى الخديو
 عباس حلمي الكثير من السلطة التي كان كرومر انتزعها منه . منذ تولى
 عباس حلمي في عام ١٨٩٢ ، وكان ممن يؤيدون بقوة الحكم المطلق التركي
 ويعارضون الليبرالية البريطانية ، كان يطمح في أن يصبح السيد المطلق في

بيته هو . فانطلق الآن ، وراح بتأييد من التجار وملأك الأراضى الأثرياء
بعلن الحرب على قادة الفسكر الحر ، وفى سبيل إخفاء هدفه الحقيقى استخدم
الصحافة لمهاجمة الإدارة البريطانية .

كانت حرية الصحافة من الأشياء التى يعبدها كرومر ، وأصرع الخديو
المماكر إلى استخدام هذا السلاح لدعم حماته . راح سبيل من الشتام ضد
البريطانيين يتدفق من كل صحيفة مصرية تقريباً ، وكانت النتيجة المحتومة
أن رأى العام سرعان ما انقلب على أولئك الموظفين البريطانيين الذين
كانوا قد ساعدوا على تحرير الشعب من مظالم حكم الخديو . وكان رد إنجلترا
أن غيرت مبادئها مرة أخرى . فأنشئت جمعيات تشريعية ، محلية ومركزية ،
بالمهدف الحمود وهو إعطاء الشعب مزيداً من الرأى فى شئونهم . ولكن
عباس حلمى حول هذه الحركة بمهارة إلى مافيه مصلحته ، ولم يمض وقت
طويل حتى كان الوطنيون فى هذه الجمعيات يهاجون البريطانيين فى كل
نفس يرددونه وبنافسون الصحافة فى تحريض الجماهير على استخدام العنف .

وما أن حل عام ١٩١١ حتى هوت مصر إلى حالة من الفوضى الفعلية
بسبب الاضطراب السائد ، وبدا الأمل فى أن تتخلص بريطانيا من مسئولياتها ،
أبعد مما كان من قبل . ثم مات جورست فجأة وخلفه فى منصب المقيم
البريطانى فى مصر اللورد كيتشنر جندياً ممتازاً وقائداً عاماً بريطانياً سابقاً فى
السودان ، له خبرة طويلة بقيادة القوات المصرية ، وكان يشعر بحب كبير
للشعب المصرى البسيط وبازدراء الرجل العسكرى للساسة المستهترين الذين
كانوا أبواقاً للخديوى وملأوا جيوبهم بالمال على حساب الشعب . وخلال
السنوات الثلاث التالية عالج فى حزم أمر الذين يثيرون الشغب وكرس نفسه
لتوسيع نطاق حماية الفلاحين التى كان قد أقامها كرومر . فصدر قانون
« الخمسة أفدنة » الشهير لمنع طرد الفلاح للصغير من الأرض بقضه وقضيضه

بسبب عدم سداد ديونه لمقرضى النقود ، وكانت احتجاجات كبار الملاك موضع التجاهل بجفاء . والحقيقة أنه بعد عامين من اضطلاع كتشنر بالأمر كان الموقف من الهدوء بحيث جعل بريطانيا تعيد البحث في إمكانية الانسحاب . ولتمهيد الطريق زيدت السلطات الخطوة للجمعية التشريعية في عام ١٩١٣ ، ومنح المزيد من التمثيل الشعبي . ولكن نشوب الحرب بعد عام وضع نهاية لأى تفكير في الخروج . وفي أكتوبر ١٩١٤ ألقى السلطان العثماني بمصيره مع القيصر الألماني ، وإذ كانت مصر وقناة السويس مهددين الآن من القواعد التركية في فلسطين أعلنت بريطانيا الحماية على مصر ، وعزلت عباس حامى الميال إلى الأتراك ، لصالح عمه حسين كامل ، وراحت تنظم الدفاع عن البلد ضد الجيوش العثمانية .

كانت سنوات الحرب العالمية الأولى الأربع عبودية تعسة بالنسبة إلى مصر . فقد تحطم كل الخير الذى اتصف به حكم كتشنر ، وإلى هذه الفترة يمكن أن نقنع الكثير من سوء التفاهم الذى سبب فيما بعد العلاقات الانجليزية — المصرية . كان المندوب السامى البريطانى هو الآن حاكم مصر بصورة فعالة ، وقرر هو والقادة العسكريون الموجودون في البلد أنه وإن كانوا سوف يستخدمون أرض مصر والأيدى العاملة والتسهيلات فيها لمواصلة الحرب ، فإنهم ليسوا في حاجة إلى أى تأييد عسكري مصرى شامل ولا يجدون فيه سوى عائق . ونشأ ازدراء مرير للمصريين باعتبارهم مراوغين وجبناء ، في صفوف الجنود البريطانيين الذين لم يكونوا على بينة من هذه القرارات الخاصة بالسياسة العليا ، وتولد استياء عميق في نفوس المصريين الذين اقتصر عملهم في أداء المهام الحقيرة تأييداً للجيوش المتحالفة . إن العلاقات الطيبة التى أقامها كرومر وكتشنر تحتها الآن القوات البريطانية الذين أطلقوا بدون تفكير عبارة « كلاب قدرة » على من كانوا يخدمونهم ، ومحاهوا الموظفين

المصريون الذين أعادوا نظام السخرة واستولوا بالجبر على العلف والحيوانات من الفلاحين اسد حاجات الجيوش المتحالفة .

فبنهاية الحرب كان الرأي العام المصرى فى حالة متفجرة إلى حد كبير ولم يكن بحاجة لغير زعيم شعبى ليطلق الانفجار . وهذه الحاجة أشبعها سعد زغلول وكان من زعماء المعارضة فى الجمعية التشريعية وشريكاً أميناً للطغى السيد فيلسوف الفكر الحر المصرى منذ بداية القرن العشرين . كان زغلول وهو ابن فلاح فى الدلتا ، قد تزوج من ابنة أحد رؤساء الوزارات فى عهد عباس حلمى . وكان عباس حلمى يشعر نحوه بارتياح عميق لأنه كان يعارض أطماع الخديوى ، ولكن أفكاره الليبرالية اجتذبت عطف ورعاية كرومر الذى عينه وزيراً المعارف فى عام ١٩٠٦ . شغل زغلول هذا المنصب أربع سنوات ، وظل ثلاث سنوات بعد ذلك وزيراً للحقانية . ولكن فى عام ١٩٠٣ تشاجر مع كتشنر واستقال ولكنه انتخب عضواً فى الجمعية التشريعية . ومن الآن فصاعداً استخدم حريته النسبية فى صوغ نظريته فى ديمقراطية عصرية لمصر والتبشير بها — وتعنى دولة علمانية ليبرالية تعمل على تمصير الاقتصاد ، ويحول فيها النفوذ التركى فى السياسة ، ويلغى الحجاب بالنسبة إلى النساء ، ويقتصر رجال الدين على وظائفهم الروحية ، وتتحطم قوة الباشوات . كان يتساهل مع الاحتلال والنفوذ البريطانى ، طالما يستخدم للحد من سلطة الخديوى وسادته الأعلين الأتراك . أما أن يبقى البريطانيون فى مصر لحماية مصالحهم بعد هزيمة الأتراك ، فإهانة للشعور الوطنى المصرى . وعلى ذلك فبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بيومين توجه زغلول إلى المندوب السامى البريطانى السير رينجالد ونجيت على رأس وفد وطنى وطالب بالنيابة عن الشعب المصرى بالاستقلال التام من الحكم البريطانى .

وعندما أبلغ أن بريطانيا لا يمكن أن تناقش أمثال هذه المسائل مع هيئة غير

رسمية ، تابع رئيس الوزراء المصرى رشدى باشا مبادرته وبصورة فاترة نوعاً ، بأن اقترح على المندوب السامى أن يتوجه - أى رشدى - إلى لندن لإجراء مباحثات مع الحكومة البريطانية. ولكن هذا رفض أيضاً ، وإذ أحس زغول بالغضب إزاء هذا الصدم المزدوج ، انتهز الفرصة التى أتت له ليؤثر فى رأى العام. فتأسس الحزب المعروف باسم الوفد بزعامته ، وفى مارس ١٩١٩ وجه خطاباً مليئاً بالتهديد إلى سلطان مصر - كان لقب خديو قد غير منذ الانفصال الرسمى عن تركيا - متهماً إياه وحكومته بأنهم لا يظهرون أى كفاح من أجل قضية الاستقلال. قبض على زغول وأقرب مؤيديه ، وتم نفيهم إلى مالطة. وفى اليوم التالى نشبت أعمال الشغب فى القاهرة ولم يمض أسبوع حتى كانت قد انتقلت إلى المديرية. قتل عدد من الأوربيين وكانت هناك عمليات تخريب واسعة النطاق للكاتب والمواصلات الحكومية .

استدعى ونجيت وحل محله اللورد اللنبى الذى أعاد النظام باستخدام القوات البريطانية ، وفى الوقت نفسه أمر بالإفراج عن سعد زغول والسماح له بالعودة إلى مصر. لو أن هذا العمل الكريم تبعته بعض دلالة على أن بريطانيا على استعداد لبدء المفاوضات من أجل الاستقلال فى تاريخ مبكر ، لربما جلب الهدوء الذى كان يراد من هذا العمل أن يولده. وبدلاً من ذلك عمدت الحكومة البريطانية إلى أسلوبها العتيق فى إرجاء اتخاذ قرار سياسى كبير وبعثت بلجنة تحقيق برئاسة اللورد ملنر. نظم سعد زغول وشركاؤه مقاطعة على مستوى الأمة للجنة ، وهاجمتها الصحافة بالشتم العنيف ، ونظمت المظاهرات احتجاجاً على تسكتيك بريطانيا القائم على التسويف. ولكن برغم هذا كله اتصلت لجنة ملنر بالفعل بزغول فى أوروبا عند عودتها من مصر ، وأوصت نتيجة لهذا بأن تلغى بريطانيا الحماية وتتفاوض مع دولة مصرية مستقلة من أجل عقد معاهدة تحمى المصالح البريطانية وتقدم التأكيدات بأن ماعاملته

بريطانيا من أجل الفلاحين والطبقات العاملة بمصر لن يهدم بعد الاستقلال .
 قوبلت هذه التوصيات بالابتهاج في مصر . ولكن أخفقت الحكومة
 البريطانية طيلة أكثر من عام منذ عرفت التوصيات ، في الوصول إلى اتفاق
 مع مصر حول الوسائل والطرق الكفيلة بإخراجها إلى حيز التنفيذ ، ويرجع
 هذا إلى حد كبير ، إلى أن رئيس الوزراء عدلى باشا كان يخشى تقديم
 تنازلات يمكن أن يفسرها زغلول على أنها تسليم للضغوط البريطانية . استقال
 عدلى في نوفمبر ١٩٢١ ، وقبض على زغلول مرة ثانية ونفى . فأعقب ذلك
 إضرابات ومظاهرات ، وفي النهاية في فبراير ١٩٢٢ اتخذت بريطانيا الخطوة
 الجريئة وألغت الحماية بقرار من طرف واحد واعترفت بمصر بلداً شبه مستقل .
 على غرار الأقاليم الخاضعة للانتداب مثل العراق وسوريا ولبنان تقرر أن
 تكون مصر دولة علمانية ولها برلمان من مجلسين . ولكن تقرر أن تبقى
 القوات البريطانية تحتل البلاد للدفاع عنها ولحماية الجاليات الأوروبية والمصالح
 البريطانية كقناة السويس ، وحماية الإدارة الثنائية ، الانجليزية — المصرية في
 السودان ، وفضلا عن هذا نص على أن لا يعمل شيء بصدد الامتيازات التي
 تتمتع بها الدول الأوروبية . ورغم هذا ، قبل المصريون هذه الرحات
 الصغيرة ، وفي مارس ١٩٢٢ نودي بالسلطان أحمد فؤاد الذي ولى العرش عند
 وفاة أخيه حسين في عام ١٩١٧ ، ملكاً على مصر . أطلق سراح زغلول في
 سبتمبر ١٩٢٣ ، وفي أول انتخابات تجرى طبقاً للدستور الجديد ، ظفر بأغلبية
 ساحقة لنفسه ولحزبه الوفد .

لو أن الحكومة البريطانية أقرت هذا الإجراء النصفى بالاستقلال فور
 أن أصبحت توصيات ملزم معروفة ، فلربما فتحت فصلاً جديداً من الصداقة
 والتعاون مع مصر . ولكن إذ جاء الإرجاء على قمة الغدر في فلسطين وسوريا
 فإنه لم يعمل إلا على خلق شكوك فتجددت في دوافع بريطانيا ، وعندما اكتشف

المصريون أن الاستقلال لم يكن يعنى نهاية الاحتلال البريطانى والسيطرة على سياسة مصر الخارجية ، وأن حكوماتهم كانت لاتزال فى الواقع تشكل وتعطى التعليمات على مائدة عشاء المندوب السامى البريطانى ، استنتجوا أن إلغاء الحماية لم يأت إلا بالقليل من التغيير . مرة أخرى قامت المظاهرات وفى نوفمبر ١٩٢٤ أُغتيل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى ، فى القاهرة . قدم اللنبى إنذاراً نهائياً إلى زغول طالب فيه بتقديم الاعتذار الكافى عن الجريمة وإنزال القصاص الواجب بمرتكبها ، وأن تدفع غرامة قدرها ٥٠٠.٠٠٠ جنيه (٢٥٠٠.٠٠٠ دولار) إلى الحكومة البريطانية ، وأن تسحب جميع وحدات الجيش المصرى بالسودان فى خلال أربع وعشرين ساعة . قبل زغول المطالب الثلاثة الأولى ولكنه رفض سحب القوات المصرية من السودان ، وعندئذ استخدمت بريطانيا القوة فى إخراجهم ، ومن الآن فصاعداً تولت السلطة الوحيدة فى الإدارة الثنائية .

استقال زغول وقد تعرض للهزيمة والإذلال ، وبرغم أن حزبه فاز مرة ثانية بالأغلبية فى انتخابات عام ١٩٢٦ ، فإن المندوب السامى البريطانى لم يسمح له أبداً بتولى رئاسة الوزارة . وفى عام ١٩٢٧ توفى هذا الوطنى المصرى العظيم وخلفه فى رئاسة الوفد مصطفى النحاس باشا . وبرغم أن شرف التفاوض بشأن المعاهدة التى كسبت الاستقلال لمصر فى النهاية سوف يؤول إلى النحاس ، إلا أن الذى مهد الطريق كان الموقف الصلب الذى اتخذ زغول فى أوائل العشرينات . وكما يقول ألبرت حوراني فى كتابه الفكر العربى فى عصر الليبرالية « كانت وحدة فكره [أى زغول] هى مصر . يجب أن تكون مصر مستقلة ، ولكن الاستقلال الحقيقى لا يمكن أن يأتى إلا عن طريق إصلاح التعليم والقانون » . كان زغول فى الحقيقة منصرفاً كلية إلى تحقيق هدفه وهو الحرية لمصر بحيث لم يكن لديه الوقت للمشكلات البرية الأخرى

كفلسطين . وعند ما طلب منه وفد فلسطينى المساعدة فى أوائل العشرينات ، أخبرهم بجماء أن يتصالحوا مع اليهود وأن يعيشوا سوياً كما كان يعيش العربى واليهودى فى مصر .

كان تأثير زغلول من العظم بحيث مرت تسع سنوات دون إحراز تقدم فى المفاوضات بين خليفته والمندوب السامى البريطانى اللورد لويد . لم يعد فى إمكان النحاس أو أى زعيم مصرى آخر أن يقبل إجراءات نصفية بعد ذلك ، ولم يتم الاتفاق فى النهاية إلا بعد أن استقر رأى بريطانيا نهائياً على أن السماح لمصر بالاستقلال الذى منسته للعراق ، يخدم مصالحها الاستراتيجية بالمثل إن لم يكن بطريقة أفضل . وفى ١٢ أغسطس ١٩٣٦ وقع النحاس باشا وأنتونى إيدن معاهدة تحالف وضعت نهاية للاحتلال وسمحت لبريطانيا بالاحتفاظ بعشرة آلاف جندي فى منطقة القناة حيث لا يعود وجودهم يسيء إلى مشاعر سكان المدن والبنادر من قبيل القاهرة والألكندرية . واعترفت مصر بأن قناة السويس ممر مائى دولى حيوى ، واعترف لها بالمقابل أنها دولة مستقلة ذات سيادة وأصبح المندوب السامى سفيراً ، وعندما ألغيت الامتيازات بموجب اتفاق وقع بمونتريه فى عام ١٩٣٧ أزيلت آخر بقايا امتياز عدم الخضوع للولاية المحلية .

لسوء الحظ أن السلام والصدقة النسيين اللذين تولدا عن هذه الحركات التى جاءت متأخرة عن أوانها المناسب ، سرعان ما قدر لها أن تحطمها الأحداث التى تلت نشوب الحرب العالمية الثانية ، أى بعد ثلاثة أعوام بالضبط . مرة ثانية وجد البريطانيون أنفسهم يحاربون عدواً قوياً يهدد قناة السويس . مرة ثانية أصبحت مصر ساحة قتال فى صراع كبير بين القوى الأوروبية . وفى رغبة مستميتة فى الاحتفاظ بملتقى الطرق الاستراتيجية الحوى هذا لم يعبأ البريطانيون بحساسيات المصريين فزادوا كثيراً عدد القوات المسموح بها فى

منطقة القناة بموجب معاهدة ١٩٣٦ وواصلوا إبقاء قوات في ثكنات في نفس قلب القاهرة ، فضلا عن تحريك جيوش كبيرة عبر البلاد حيثما تطلب ذلك سير الحرب . قام الملك الجديد فاروق وكان غلاما يحب اللهو ومدللا لا يزال في أوائل العشرينات من عمره ، بجهد واحد لإثبات وجوده باسم دولة مصرية ذات سيادة ، وفي فبراير ١٩٤٢ وبدون استشارة السلطات البريطانية عين أحد مرشعيه وهو حسين سرى رئيسا للوزراء . ولكن السفير البريطانى مايلز لامبسون أراد —سودة النحاس بوصفه الشخص الذى بنى التعاون الإنجليزى — المصرى . ولكى يبين من هو السيد أمر كتيبة مدرعة بريطانية أن تحيط بقصر عابدين فى القاهرة ومدافعهم مصوبة نحو مقر إقامة الملك ، فأرغم فاروق على قبول من وقع عليه الاختيار .

هذا الفعل المتعجرف من « دبلوماسية الزوارق المسلحة » كان بداية النهاية بالنسبة إلى تفوق بريطانيا فى مصر . فلما ذاع فى البلاد خبر الإهانة التى وجهت إلى كرامة مصر ، أقسم ضابط شاب من سلاح المدفعية ، بنيتة شبيبة ببنية لاعب كرة أمريكى ، وذو ابتسامة جذابة وعينين باردتين كالجليد ، نقول إنه أقسم أن يثار للإهانة التى أصابت كرامة مصر . ومع جماعة من اخوانه الضباط الذين يشاركونه أفكاره ، كون جمال عبد الناصر جماعة تؤيد الملك نحو هذه الغاية . ولكن كلما مرت السنون أصبح واضحا للبكباشى ناصر وأصدقائه أن فاروق كان أكثر اهتماما بالفتيات والميسر منه بالدفاع عن كرامة مصر وسيادتها . حقيقة أخذت حكومته القيادة فى تكوين الجامعة العربية وميثاق الأمن العربى فى عام ١٩٤٥ وثبتت مركز مصر كالقوة المتفوقة فى هذا التحالف ، ولكن بعد أن زالت طوارىء الحرب بسنوات عدة كانت القوات البريطانية لا تزال تحتل ثكناتها القديمة فى القاهرة ووضعت فى منطقة القناة

قوات تزيد ثمانى مرات على العدد المسموح به بموجب معاهدة ١٩٣٦ ، وبدون أية اعتراضات ظاهرة من جانب الملك أو وزرائه. وفضلا عن هذا كان ناصر ضابطا اشترك في الحرب العربية الإسرائيلية . فرأى مدى فساد وإنعدام فاعلية الزعامة التى تقيحها الملكية المصرية للجامعة العربية فى هذا الاختبار الأول لقواتها المشتركة . ولإذ واصلت البلاغات الصادرة فى القاهرة إذاعة انتصارات باهرة فى معارك كان يعرف ناصر أنها انتهت بهزائم مخجلة ، صمم على التخلص لا من البريطانيين فحسب ولكن من الملك ومن يحيط به من الساسة الفاسدين أيضاً .

ولكن السخط الذى كان يتزايد ضد استمرار احتلال القوات الأجنبية لمصر ، لم يقتصر على مجموعة ناصر من الضباط الأحرار . فبعد بناء القواعد البريطانية خلال الحرب بدأ الإحساس بوجود تيار خطر من الشعور المعادى للبريطانيين . حاولت بريطانيا مواجهة هذا بسحب قواتها من القاهرة فى عام ١٩٤٦ وعرضت سحب جميع القوات من مصر فى العام التالى . ووصل المستر إرنست بيتن وزير خارجية بريطانيا إلى اتفاق مع صدق باشا رئيس الوزراء المصرى حول مشروع معاهدة لتحقيق انسحاب بريطانيا . ولكن المعاهدة تحطمت عندما فسرها المصريون على أنها تعنى أن بريطانيا قبلت حق مصر فى اتحاد مصر والسودان ، وهو حق كان الملك فؤاد قد أخفق فى حمل بريطانيا على قبوله فى عام ١٩٢٢ وعادت الحكومة البريطانية فاستبعدته باعتباره غير ذى موضوع ولا سبيل إلى قبوله .

بعد ذلك بما يقرب من خمس سنوات أعادت بريطانيا فتح المسألة بأن عرضت على مصر فى أكتوبر عام ١٩٥١ حلفا للدفاع عن الشرق الأوسط^(١)

(١) نشرنا فى ذلك الحين كتيبنا بعنوان « مشروعات الدفاع عن الشرق الأوسط » حملنا فيه الفرصة المشار إليه وما ينطوى عليه من احتمالات خطيرة . — المترجم .

تقوم فيه قيادة مشتركة مكونة من بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وتركيا ومصر، بتولى أمر القواعد البريطانية في منطقة قناة السويس. نفس الفكرة سوف تصبح فيما بعد الأساس الذي تقوم عليه ترتيبات الدفاع بين بريطانيا والعراق في ظل ميثاق بغداد. ولكن كانت هناك عدة فوارق مهمة جعلت الاقتراح أبعد من أن يستسيغه المصريون. فمن جهة لم يكن يمكن أن يكون اختيار الشركاء أبعد عن التوفيق، فهو لا يضم الأتراك فحسب الذين سبق أن تسلطوا على مصر طيلة أكثر من ثلاثمائة عام، ولكنه كان يضم أيضاً الفرنسيين المكروهين الذين كانوا ما يزالون يخضعون للجزائر ومراكش وتونس بالقوة، والحكومة الأمريكية التي كانت تعد العامل الرئيسي في مولد إسرائيل. وفضلاً عن هذا، كان العراق قد حظى من بريطانيا بمعاملة أرق بكثير مما ظفرت به مصر، ونظراً لأنه أكثر تعرضاً للضغط السوفيتي أحس حكامه بالحاجة إلى حلف دفاعي مع بريطانيا لحماية بلدهم. ومن جهة أخرى كانت مصر تعتبر إسرائيل لا روسيا عدوها الرئيسي، وكان الرأي العام وخاصة في صفوف الطبقات المتعلمة مصمماً على ألا تتكرر التجربة النعسة التي مرت بها مصر إذ استخدمت مرتين خلال خمس وعشرين سنة ساحة قتال في حروب تخص الغير.

ومن ثم استغل فاروق وحكومته التي عاد فرأسها النحاس باشا، فرصة العرض البريطاني كي يتظاهروا بالوطنية وذلك للتأشير في أشد الوطنيين المصريين حماساً. رفضت المقترحات البريطانية على الفور، وألغيت بإجراء من جانب واحد، معاهدة ١٩٣٦ بين بريطانيا ومصر والحكم الثنائي في السودان وأعلن فاروق نفسه ملكاً على السودان. وفي الوقت نفسه بدأت جماعات

مصرية من الإرهابيين^(١) وبتشجيع من السلطات المصرية ، حملة من الأعمال الخارجة على القانون ضد القوات والمثبثات البريطانية في منطقة القناة وسحب العمال المصريين من جميع القواعد البريطانية .

وإذ كانت بريطانيا تتصرف منذ عام ١٩٢٤ بوصفها الوصية الوحيدة على الشعب السوداني ، لهذا رفضت دعاوى فاروق بأن يكون ملكا عليهم . وأنكرت شرعية إلغاء معاهدة ١٩٣٦ من جانب واحد . وأظهر المستر هربرت موريسون الذي خلف بيفن وزيراً للخارجية ، إخفاق حكومته في فهم إحساسات المصريين بأن أعلن في خطاب مؤثر في البرلمان أن سيادة مصر لم يكن يسيئها وجود قوات بريطانية في ظل ميثاق دفاع عن الشرق الأوسط بأكثر مما يسيء إلى سيادة بريطانيا كونها عضواً في حلف الأطلسي . ولكن سوف تأتي الأيام المقبلة بما هو أسوأ من هذا الكلام المتناقض الأحق . ففي يناير التالي هدمت القوات البريطانية قرية في منطقة القناة بعد أن رفض أهلها تسليم إرهابيين معينين جرى الزعم بأنهم قتلوا جنودا بريطانيين في الإسماعيلية .. ثارت موجة عانية من الاحتجاج في القاهرة حيث أحرق جمهور استشاط غضباً ، فندق شبرد وتيرف كلوب ونادي السيارات وبنك باركليز وذلك من بين عدد من المباني المرتبطة في الذهن المصري بالجالية البريطانية التي قتل اثني عشر من أفرادها في أعمال الشغب أو أحرقوا .

كان فاروق يحصد الآن الدوامه التي ثارت من ذلك التظاهر بالوطنية الذي دبره قبل ذلك بثلاثة أشهر فقط . وفي لحظة من الذعر أعلن الأحكام العرفية ، وأقال النحاس وعدة وزراء آخرين عرفوا بتشجيع المتظاهرين ، وعين أحد محاسيب البلاط وهو على ماهر ، رئيساً للوزراء . وفي حرارة اللحظة

(١) سبق أن ذكرنا كيف كان الاستعمار يصف الوطنيين الذين يمارضون وجوده بأنهم إرهابيون - المترجم .

اعتبرت تصرفاته كأنها تزلف لبريطانيا كي نحميه. وعندما استأنفت بريطانيا بمد ذلك ، المفاوضات مع علي ماهر حول مستقبل القواعد في منطقة القناة ، كشف فاروق عن أن اهتمامه الأصلي مختلف جداً عن الإهتمام الذي سبق أن أوحى به تظاهره بالوطنية في الخريف السابق . ذلك أن التوقف الذي طرأ على الفور على المناقشات حول اصرار الملك على أن تعترف بريطانيا يدعواه في السودان كشرط مسبق للتفاوض حول القواعد ، هذا التوقف سرعان ما جعل من الواضح أنه كان يعمل عامداً على تعثر المباحثات حتى يجعل من المستحيل على بريطانيا أن تسحب قواتها من منطقة القناة، وذلك يجعل القوات البريطانية على مقربة فتسارع إلى انقاذه في حالة نشوء تهديد للملكية .

بعد أن طالت المفاوضات الفاشلة حتماً شهوراً عدة قرر ناصر وشركاؤه توجيه الضربة ، وأقنعوا رئيساً صورياً في شخص اللواء محمد نجيب وهو قائد محبوب وموضع احترام كبير وله سجل ممتاز في الحرب العربية - الإسرائيلية ، نقول إنهم أقنعوه برئاسة لجنة من اثني عشر عهد اليها بمهمة رسم التفاصيل النهائية للضربة . وفي ٢٣ يولييه ١٩٥٢ استولى نجيب وناصر على السلطة باسم الجيش وأمروا الملك بالتنازل عن العرش والخروج من مصر . تردد فاروق في أول الأمر على أمل أن يتدخل الجيش البريطاني على نحو ما لإنقاذه . ولكن عندما أدرك أنه لن يحصل على مساندة من تلك الناحية قبل مطالب نجيب ، وفي مساء ٢٦ يولييه ١٩٥٢ خرج من الأسكندرية آخر حاكم من عقب محمد علي ، على ظهر اليخت الملكي وسط فرحة مجنونة من رعاياه .

خلال الستة أسابيع الأولى بقي الجيش في الظل ، واستمر علي ماهر رئيساً للوزراء . ولكن في سبتمبر وضع ناصر نهاية لهذا التناقض . فتولى نجيب رئاسة الوزارة وأصبح القائد الأعلى ، ووضعت جميع السلطة في أيدي لجنة الاثني عشر التي أطلق عليها الآن اسم مجلس قيادة الثورة . وإذ ثبتت

بالتدريج أقدام حكام مصر الشبان ، ألغيت الأحزاب السياسية القديمة وحلت محلها هيئة التحرير، واعتقل زعماءها. وقاسى الشيوعيون بمثل ما قاسى الوفديون والأحزاب الأخرى . ولإكمال اللوحة الثورية ألغيت الملكية رسمياً في يونيو ١٩٥٣ وأصبحت مصر جمهورية تولى نجيب رئاستها ورأسه الوزارة ، وكان ناصر نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية .

كان نظام الحكم الجديد قد ثبتت دعائمه بالدرجة الكافية كى يبدأ من جديد المفاوضات حول القواعد في منطقة السويس . وبإيادها لها مغزاها بدأوا بالتخلي عن دعوى السيادة المصرية على السودان ، تلك الدعوى التي كان فاروق يصر عليها ، وسارعت بريطانيا إلى انتهاز هذه الفرصة كى تنهى وضائتها على السودان وتعترف باستقلاله . ولكنها أخفقت في انتهاز الفرصة الموازية لتضع حداً لاحتلالها منطقة القناة مرة أخرى لم يستطع البريطانيون أن يقرروا ما يريدونه في مصر ، ودفعهم اقتناع تجاوز الحد ، إلى قبول مشورة الاستراتيجيين المحافظين بأن الدفاع عن المصالح البريطانية في الشرق الأوسط كان ما يزال يتطلب مركبا ضخما من القواعد على قناة السويس .

كان رد مصر أن زادت من حدة الهجمات الإرهابية على القوات البريطانية . وإذ عاد الجيش البريطانى في منطقة القناة فوجد نفسه محاصراً بشعب معاد ، أصبح موقف كلا الجانبين مجمداً ، وتعقد الموقف أيضاً بالصراع على السلطة الذى كان قد نشأ بين ناصر ونجيب الذى وضح أنه أقل رغبة في أن يكون رئيساً سورياً مما توقع مجلس قيادة الثورة وكان يتزعم حملة لإجراء انتخابات في تاريخ مبكر . مهما بدا هذا سليماً فقد كان مجلس قيادة الثورة يعرف أن نتيجته سوف تقتصر على عودة الأحزاب السياسية القديمة إلى الحكم . وبدلاً من السماح بوقوع هذا الأمر ، قرر ناصر في فبراير ١٩٥٤ أن عليه الآن أن يخرج إلى العلن ويتولى رئاسة الوزارة . ترك نجيب رئيساً

للجمهورية . ولكن بعد ثلاثة أيام من إعلان التغييرات قامت المظاهرات في القاهرة تطالب بإعادة نجيب إلى وضعه واضطر البوليس إلى اطلاق النار على الجماهير . عند هذه النقطة أيدى ناصر الدهاء الرزين الذى سوف يستخدمه فيما بعد فى أزمت أكبر تعرضت لها زعامته . أعيد نجيب رئيساً للوزراء ، وأعلن ناصر أن الثورة قد انتهت وأن الجيش سيعود إلى ثكناته وأن الإنتخابات سوف تجرى وأن الحياة السياسية ستعود إلى ما كانت عليه من قبل . وبعبارة أخرى سوف يعاد انتخاب الوفد والعصابة القديمة وسوف يكون نجيب أداة عودتهم .

كانت النتيجة بالضبط كما رسمها ناصر . عاشت مصر فى اضطراب طيلة ستة أسابيع . أدان مجلس قيادة الثورة نجيب باعتباره أداة السياسيين القدامى ؛ فأضربت النقابات وطالبت بمقاطعة الانتخابات ؛ وقامت مظاهرات تعارض انسحاب ناصر . وكان لنجيب أنصاره أيضاً وخاصة فى صفوف طلاب جامعة القاهرة . ولكن بانتصاف أبريل وضح أن أنصار مجلس قيادة الثورة هم القوة الأقوى بكثير . فقبل نجيب أن يصبح رئيساً للدولة لا سلطة له وأن يكون بالفعل محدد الإقامة فى قصر عابدين ؛ وعاد ناصر إلى رئاسة الوزارة باعتباره حاكم مصر الفعلى وأعلن أنه لن تجرى انتخابات لمدة ثلاث سنوات .

بعد ذلك سرعان ما استقر رأى الحكومة البريطانية على أن متطلباتها الاستراتيجية تحتاج إلى إعادة توزيع قوات بريطانيا المقاتلة فى جيوب صغيرة سهلة الحركة والانتقال ، حول البحر المتوسط بدلاً من تركيزها فى منطقة القناة . فبعتنى فى سبتمبر ١٩٥٤ إلى القاهرة لعقد المعاهدة الانجليزية - المصرية التى بمقتضاها وافقت بريطانيا على سحب جميع قواتها من القناة ؛ وتسلمت مصر نصف القواعد على أن يقوم مقاولون مدنيون بريطانيون بإدارة النصف

الآخر باعتبار أنها مخازن وورش لخدمة المعدات البريطانية . ومن موجة الفرحة العامة التي حيت الأخبار بأن أرض مصر قد تطهرت أخيراً من القوات البريطانية ، استمد ناصر القوة لعزل نجيب كلية ، وفي نوفمبر تولى هو نفسه رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزارة .

وانتهز أيضاً الفرصة ليقضى على ماتبقى من تهديد لنظام حكمه - ألا وهو الإخوان المسلمون . تكونت جماعة الإخوان في عام ١٩٣٠ بوصفها جماعة دينية ، ولكنها تحولت إلى مجموعة قومية متطرفة كلما استكان زعماء الوفد والأحزاب وتهذبوا بمرور الوقت . وما أن حل عام ١٩٤٥ ، ورغم أن جزءاً من تنظيمها كان ما يزال يشغل بالمسائل الدينية ، فإن الجماعة تحولت إلى جمعية ارهابية سياسية كرسست نفسها لاجتثاث كافة آثار النفوذ الأجنبي في مصر . وفي عام ١٩٤٨ دبرت اغتيال النقراشي بأشارئيس الوزراء في وقت الحرب العربية - الإسرائيلية . والآن راح المرشد الأكبر الهضيبي يندد بمجلس قيادة الثورة بسبب موافقته على احتفاظ بريطانيا بقاعدة في منطقة القناة ولو في ظل إدارة مدنية . وعلامة على المعارضة لمعاهدة ١٩٥٤ دبر الإخوان محاولة لاغتيال ناصر أثناء اجتماع عقد في الاسكندرية للاحتفال بانسحاب القوات البريطانية . كان هذا هو الذريعة التي ينتظرها مجلس قيادة الثورة ، فخلت الجماعة وحكم على الهضيبي وانصاره الرئيسيين بالسجن مدى الحياة .

في مصر كان ناصر الحاكم الغالب ، وفي خارج مصر بدأت مكانته تنمو باعتباره نبي ثورة جديدة ورمز كرامة جديدة عن طريق استقلال جميع العرب . فعلى غرار صلاح الدين ويبرس كان قد أنشأ قاعدة مأمونة في مصر ، وراح العالم يراقب باهتمام مشوب بالقلق لبرى ما إذا كان سوف يتبع تعاليمهما ، فيستخدمها لخلق إمبراطورية مصرية جديدة في الشرق الأوسط . وبدورة غريبة من القدر ، فإن مثل هذا النجاح الذي حققه ناصر في مناخرة

فتوحات صلاح الدين والمماليك ، جاء من محاولات الغرب الفاشلة القضاء عليه بأكثر مما جاء نتيجة قرار محسوب من جانبه بالخروج وغزو إخوانه العرب . كثيراً ما أثر عنه القول بأن تصرفاته كانت رد فعل وفي السنوات التي أعقبت انسحاب بريطانيا قُدِّرَ للعالم أن يرى ما يمكن أن يكون عليه شخص يفتقر إلى اللباقة وله نفوذ مؤثر ، وموقفه هورد الفعل وليس الفعل .

(٣١)

الجمهوريات العربية المتحدة والمتفرقة

كان المظنون في معاهدة ١٩٥٤ بين إنجلترا ومصر أن تستهل « عصرًا جديدًا من الصداقة والفهم المتبادل ». ولكن منذ البداية تقريبًا سرت المرارة إلى شهر العسل . فأولا ، بعد أن أكد ناصر أنه سوف يسير في طريق الحياد الدقيق إذا نفذ نوري السعيد مشروعه الخاص بميثاق بغداد ، شن حملة عنيفة بمجرد التوقيع على الميثاق واتهم العراق بالخروج على بقية الجامعة العربية . وهرعت بريطانيا للدفاع عن نوري فاتهمت ناصر بخرق روح الصداقة الجديدة . ثم ، على أساس أن القوى الغربية كانت قد اتفقت على حفظ توازن في شحنات الأسلحة بين إسرائيل وجيرانها العرب ، رفضت بريطانيا تزويد ناصر بالأسلحة التي كان يحتاج إليها لدعم مركز الزعامة العسكرية في العالم العربي . كان راديو القاهرة يطلق من حين لآخر التهديدات ضد إسرائيل ، وترتب على الغارات التي كان الفدائيون يشنونها على النقب من وقت لآخر برغم ما كان يجب عليها دائما بعمليات ثار إسرائيلية وحشية ، أن عملت على إبعاد العطف عن مصر وزيادة احساس بريطانيا بالالتزام بإزاء إسرائيل . وكانت بريطانيا ملتزمة هي والولايات المتحدة وفرنسا بمقتضى التصريح الثلاثي الصادر عام ١٩٥٠ ، بالتدخل ضد أى معتد يسعى إلى أن يغير بالقوة الحدود التي قررتها الهدنة بالنسبة إلى إسرائيل وجيرانها . وبرغم احتجاج ناصر بأن إذاعته كانت للاستهلاك المحلي فحسب ، رفضت الحكومة البريطانية أن تطلب من البرلمان التصديق على توريد الأسلحة التي يمكن استخدامها للهجوم على إسرائيل وعلى ذلك يمكن استخدامها ضد بريطانيا وحلفائها .

كل هذا بدا معقولا في نظر الوزارة البريطانية ومجلس العموم ؛ ولكنه لم يقنع ناصر الذي علم عن طريق مخبراته أن فرنسا لم تكن تساورها أمثال هذه المشاعر بشأن صب الأسلحة في إسرائيل بما في ذلك أحدث الطائرات النفاثة . وعلى ذلك أعلن ناصر في سبتمبر ١٩٥٥ وأمام عالم غربي تملكه الرعب ، بأنه سوف يشتري الأسلحة من الكتلة السوفيتية . من الآن فصاعداً تحركت الأحداث بسرعة مخيفة نحو صدام مباشرين مصر وبريطانيا . كان السير أنتوني إيدن رئيس وزراء بريطانيا منذ مارس ١٩٥٥ يرى يد ناصر في كل نكسة أصيبت بها بريطانيا في الشرق الأوسط . فالى دسائس ناصر عزى طرد الجنرال جلوب المفاجيء من منصبه كقائد اللواء العربي في الأردن برغم أن هذا الأمر أملاه تصميم الملك حسين على أن يكون سيداً في بيته ؛ كما عزيت إليها مظاهرة في البحرين ضد وزير خارجية بريطانيا سلوين لويد ؛ وكان أقل اضطراب في واحدة من مشيخات الخليج الفارسي تلقى المسؤولية عنه على أكتاف ناصر .

الحقيقة أن ناصر كان أكثر اهتماماً بالإصلاح الدستوري والتنمية الاقتصادية في مصر منه بإثارة المتاعب في الأردن أو البحرين . ففي يناير ١٩٥٦ أعلن دستور جديد ، وبعد ذلك بخمسة أشهر انتخب ناصر بدون أية معارضة ، رئيساً للجمهورية والسلطة التنفيذية . وفي المجال الاقتصادي كان أشد مشروعاته طموحاً وأكثرها كلفة مشروع إقامة سد جديد على النيل جنوبى أسوان بغرض زراعة ملايين من الأفدنة بالصحراء وتوفير قوة كهربية هيدروليكية لإنشاء صناعات جديدة في مصر . كانت أمريكا وبريطانيا قد عرضتا مع البنك الدولي ، المساعدة في تمويل هذا المشروع الضخم والحيوى ، ويرجع هذا إلى حد كبير إلى الرغبة في استباق أية عروض روسية ، وما أن انتصف عام ١٩٥٦ حتى كانت المفاوضات من أجل هذه الغاية قد قطعت شوطاً طيباً .

ثم فجأة قرر وزير الخارجية الأمريكية في سنة انتخاب رئيس الجمهورية ، أن تمة مخاطرة كبيرة في محاولة حمل الكونجرس على أن يوافق على مساهمة أمريكا في سد ناصر ضد معارضة المؤثرات الصهيونية ، وهي معارضة دعمها الآن مؤيدو الصين الوطنية وأثار ناصر غضبها قبل ذلك بوقت قليل عندما اعترف بالصين الشيوعية . وبناء على ذلك أعلن المسترجون فوستر دلاس في ١٩ يولييه ١٩٥٦ أن الحكومة الأمريكية ألغت مساهمتها في السد العالي . حذت بريطانيا حذوها ، وبعد ذلك بأسبوع فان ناصر الذي كان يشك — كما أخبرني فيما بعد — في أن سحب العرض الإنجليزي والأمريكي ينذر بمحاولة غربية ما للضغط عليه كي يرفع الحصار المفروض على إسرائيل ، نقول إنه أعلن تأميم الشركة الإنجليزية - الفرنسية لقناة السويس ، وبذلك استبق بنحو ثلاث عشرة سنة عودة امتياز الشركة إلى مصر والذي كان موعدها عام ١٩٦٩ .

كان رد الفعل من جانب بريطانيا وفرنسا عنيفاً ، فوصم تصرف ناصر بأنه قرصنة وعدوان^(١) . وتجمعت في البحر المتوسط قوة مشتركة كبيرة من الوحدات البرية والبحرية والجوية . وشكلت الدول البحرية جمعية من المنتفعين بقناة السويس وأرسلت وفداً إلى القاهرة برئاسة المستر روبرت منزيس رئيس وزراء إسترااليا ، للضغط على ناصر حتى يوافق على وضع القناة تحت إشراف هيئة دولية . فقد زعمت فرنسا وبريطانيا أن مصر ليست مسئولة سياسياً ولا قادرة فنيا على إدارة القناة بنفسها - وهذه حجة سرعان ما ثبتت بطلانها إذ زادت حركة المرور في قناة السويس لتسجل أرقاماً قياسية في ظل الإدارة المصرية . في أول الأمر رفض ناصر بعناد قبول ما هو أقل من

(١) هذه دائماً نظرة المصالح الإمبريالية إلى استرداد الشعوب لحقوقها وسيطرتها على مواردها — المترجم .

الإشراف المصرى الكامل . ولكن بسبب الضغط المتزايد من جانب الدول العربية المنتجة للنفط - وخاصة العراق والمملكة العربية السعودية ، التي كانت تشعر بالخوف بشأن سلامة مرور صادراتها عبر قناة السويس إلى الأسواق الغربية ، أقنع في النهاية بتعديل موقفه بناء على تدخل داج همرشولد سكرتير عام الأمم المتحدة . وفي أوائل أكتوبر تم الوصول إلى اتفاق بين وزراء خارجية بريطانيا وفرنسا ومصر في مقر الأمم المتحدة في نيويورك ، وافقت فيه مصر على أن تقوم جمعية المنفعةين بقناة السويس بتحصيل رسوم المرور بالقناة من جميع المنفعةين بها وتخصيص الإيراد لهيئة القناة المصرية الجديدة بالاتفاق مع رئيسها محمود يونس ، من أجل الإدارة والتطوير والتطوير ورفع أجور المرشدين .

ولكن أى أمل في أن هذا الاتفاق يمكن أن يسوى المشكلة ، كان أملاً عقيماً . في امكان وزير خارجية فرنسا أن يوقع على ما يشاء في نيويورك ولكن الحكومة الفرنسية كانت مصممة على الدخول في مواجهة مع الرجل الذى ألقى عليه اللوم عن كافة متاعبها في شمال أفريقية . وكان من رأيها أنه بمجرد قلب ناصر فسوف تهدأ الجزائر وتقبل الحكم الفرنسى إلى الأبد . وهكذا بينما تتقدم المباحثات في نيويورك ، كان المشئون الفرنسيون والإسرائيليون يعملون بنشاط من أجل إعداد خطة لقيام إسرائيل بغزو سيناء على أن تتدخل فرنسا للاستيلاء على قناة السويس بحجة حمايتها من الخسائر التي تسببها الحرب . ومن المفجع بالنسبة إلى سمعة بريطانيا في العالم العربى أنها تمشت هى أيضاً مع المشروع الفرنسى عندما غزا الإسرائيليون الأرض المصرية في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، وهى إذ ألقى القنابل على المطارات المصرية وأنزلت القوات في بورسعيد وفي منطقة القناة ، مزقت اتفاقية عام ١٩٥٤ مع مصر

ومزقت التصريح الثلاثي الذي التزمت فيه هي وفرنسا بمساعدة ضحية العدوان وليس بمساعدة المعتدى .

بعمل جنونى واحد أكدت بريطانيا وفرنسا أعرق شكوك العرب في أن إسرائيل أنشئت لتسكون رأس جسر لهم كي يعودوا إلى العالم العربي ويغزوه من جديد وأكثر من هذا أنهم أخفقوا تماما في تحقيق غرضهم الأصلي وهو القضاء على ناصر . ذلك أنه عندما فرض الثقل الساحق للرأى العالمى في الجمعية العامة التابعة للأمم المتحدة ، انسحاب القوات الإنجليزية والفرنسية والإسرائيلية التي استولت على منطقة القناة وشبه جزيرة سيناء ، أصبح ناصر في وقت واحد شهيداً وبطلاً في أعين العالم العربي بأسره . فمن مسقط إلى عمان كان كل صاحب متجر ومقهى يعرض صورته ، وأصبح اسمه مرادفاً للانتصار على « الإمبريالية » .

مثل هذه المكانة والشعبية كان أكثر من أن يقاومه رجل من طراز ناصر . فبدأ الآن يؤكد نفسه بوصفه زعيم الثورة العربية الجديدة . كان هدفه الأول الأردن ، وفي يناير ١٩٥٧ أعلنت مصر والعربية السعودية أنهما سوف تكونان مسئولتين في المستقبل عن أن تدفعا إلى الأردن الاعانة السنوية التي أوقفتهما بريطانيا بعد طرد الجنرال جلوب . ووافق الأردن على وضع جيشه تحت القيادة المصرية/ السورية المشتركة التي كان ناصر قد شكلها قبل الغزو الاسرائيلى ، وألغى المعاهدة المعقودة في عام ١٩٤٦ بين إنجلترا والأردن . ولما أعلن الرئيس أيزنهاور « مذهبه » المشهور عن تقديم المعونة إلى الشرق الأوسط لمقاومة الشيوعية ، أوضح ناصر لدول الجامعة العربية أن المتوقع منهم أن يسيروا وراءه في رفض أية مساعدة أمريكية تحمل معها الالتزام بالاشتراك في حروب الكتلة الغربية .

كانت العلاقة الجديدة مع الأردن قصيرة الأمد جداً . فسرعان ما اكتشف الملك حسين أن نمة مؤامرة لقلبه كان يدبرها رئيس الأركان الذي سبق أن عينه ليحل محل جلوب . وإذ أُلقي مسؤولية المؤامرة على عاتق ناصر ، قمع بسرعة المجموعات الموالية لناصر في البرلمان والجيش . ألغيت جميع الأحزاب السياسية في الأردن ، في محاولة لسحق الساسة الموالين لناصر ممن اتهموا بالتآمر لكي تستولى مصر على الأردن . حكم حسين الآن كعاهل مطلق ، تحميه قواته من البدو ، وكشخصية مستعدة للقتال تتحدى كل قوة ناصر ومكانته ودعوته ، وخاصة في صفوف الأغلبية الفلسطينية الساخطة من رعاياه .

بنهاية عام ١٩٥٧ كان نفوذ ناصر قد بلغ أبعاداً هائلة ، وكان في سوريا أكثر منه في أى مكان آخر . كانت سوريا تهزها منذ عام ١٩٤٩ سلسلة من الانتفاضات السياسية . ففي مارس ١٩٤٩ قام الجيش بانقلاب أدى إلى اعتقال الرئيس شكري القوتلي وحل جميع الأحزاب السياسية . أعقب ذلك انقلاب مضاد في أغسطس ثم نشبت ثورة ثالثة في ديسمبر بقيادة أديب الشيشكلي طردت قادة ثورة أغسطس على أساس أنهم كانوا يتآمرون مع نوري السعيد على إدخال سوريا في اتحاد الهلال الخصيب مع العراق . أقام الشيشكلي دكتاتورية عسكرية تضم شخصيات مدنية سورية . وكان أسلوبه في الزعامة يتكون إلى حد كبير من الإدعاء بأنه يقضى على ما تعرض له سوريا من تهديدات هو نفسه اختبرها . وعلى رأس القائمة عراق نوري وهو البلد الذي سبق أن وقع عليه اختيار الفرنسيين أثناء احتلالهم عندما بدأوا يشوهون سمعة الهلال الخصيب باعتباره مؤامرة بريطانية وعراقية للاستيلاء على سوريا .

بعد خمس سنوات من الحكم سقط الشيشكلي نتيجة ثورة عسكرية قام

بها الجيش . وعاد شكرى القوتلى رئيساً للجمهورية ، وظل الجيش يشغل مقعداً خلفياً طيلة أربع سنوات . ولكن كان فى صفوف العسكريين شخصية يزداد نفوذها وهى العقيد عبد الحميد السراج . كضابط شاب طموح غير هياب ، ومكعب متحمس بناصر ، أصبح السراج رئيس المكتب الثانى ، وجمع فى يده بصفته هذه سلطة تفوق كثيراً الوظائف المعتادة التى يضطلع بها رئيس للمخابرات . وبفضله من جهة ، وبسبب قصة نجاح ناصر من جهة أخرى ، أصبحت الغلبة فى الجيش للعنصر الموالى لمصر .

فى هذه الأثناء وفى الميدان السياسى ، لم تجد سوريا الاستقرار الذى كان متوقفاً بعد سقوط الشيشكلى وعودة حكم مدنى . فحزب البعث الذى أنشأه ميشيل عفلق فى عام ١٩٤٠ لنشر المثل الأعلى عن وحدة عربية تضم سوريا ولبنان والعراق والأردن ، والذى كان من قبل أقوى قوة سياسية فى سوريا ، هذا الحزب راح يفقد بسرعة الأرض التى يقف عليها برغم اندماجه مع الاشتراكيين الذين يتزعمهم أكرم الحورانى . وما زاد من الخلط أن البعثيين انقسموا الآن إلى مجموعات ثلاث : واحدة تحبذ الاتحاد مع مصر ، وواحدة تحبذه مع العراق ، والثالثة وهى جماعة الحورانى تريد الاستقلال عن الاثنين .

استفادت الشيوعية من هذه الانقسامات ، وعند ما ساءت سمعة الغرب بعد الهجوم الذى اشتركت فيه إسرائيل وأنجلترا وفرنسا على مصر فى عام ١٩٥٦ ، وقع اختيار الروس على سوريا لتكون هدفهم الأول فى حملتهم من أجل التغفل . فمجلوا بعروضهم بتقديم الأسلحة والمعونة الفنية ، ولما تولى عدة من الشيوعيين المعروفين مناصب عالية فى الحكومة ، بدأ ناصر وأنصاره فى دمشق يدركون أن سوريا فى خطر من أن تصبح تابعا لروسيا . وفى الوقت نفسه كانت مكانة ناصر تقترب من أعلى مستوى لها وخاصة فى صفوف

الجيش السوري . خرج السراج الآن إلى العلانية ، وبمهارة وجراءة كبيرتين ، انقض على الشيوعيين البارزين . أما القوتلى الذى أحس الآن بالتعب وتقدم به السن ، فكان على استعداد كاف للتنازل عن منصبه الصعب ؛ وفى أول فبراير ١٩٥٨ وقع هو وناصر على اتفاق يوحد بين مصر وسوريا باسم الجمهورية العربية المتحدة . وفى الحال انتخب ناصر رئيساً للوحدة ، وأصبح السراج وزيراً للدخلية فى سوريا وحاكم البلد الفعلى ، وعين المشير عبد الحكيم عامر أوثق صديق شخصى لناصر ، نائباً للرئيس فى دمشق .

بدا الآن أن زعامة ناصر للعالم العربى فى مذاعة ضد أى هجوم عليها ، وعندما أسقط عبد الكريم قاسم فى نفس السنة ، والملكية العراقية وقلب الخصم العربى الرئيسى لمصر ، وهو نورى السعيد ، بدا للحظة أن الجمهورية العربية المتحدة قد تشتمل بعد قليل على منطقة الهلال الخصيب . وكان لبنان فى ذلك الوقت يعانى آلام حرب أهلية ، لولا أن التدخل من جانب بحارة الأسطول السادس الأمريكى فى آخر لحظة ، حال دون حصول خصوم الرئيس شمعون على انتصار تام بتأييد من مصر . وفى الأردن اضطر الملك حسين إلى أن يطلب المظالمين البريطانيين لتعزيز مركزه ضد تجدد التهديدات بانقلاب عسكرى .

ولكن الآن جاء دور ناصر ليكون « متكبراً ومتفطرساً » إزاء بقية العالم العربى . فإذ خدعه التصفيق الشعبى الواسع الانتشار ، أخفق فى أن يدرك أنه بينما كان كل قومي عربى متشوقاً لرفع لوائه فان قلة منهم هم الذين يريدون أن يعيشوا تحت هذا اللواء . وأخفق بالمثل فى أن يعمل حساباً للاختلاف الواسع فى الأخلاق بين المصريين وشعوب سوريا والعراق . فعلى خلاف المصريين بما لهم من خلفية تتمثل فى وجود فلاحى مستقر وفى بنيان اجتماعى

مبنى إلى حد كبير على العلاقة التي تربط بين التابع والسيد^(١)، فإن السوريين والعراقيين ينبتون من تقليد طويل من الحياة القبلية ، هو مزيج غريب من الإقطاع والديموقراطية، لكل رجل فيه الحق في أن ينادى الحاكم باسمه الأول ولكل واحد من أهل القبائل الحق في التعبير عن أفكاره ومطالبه لشيخ قبيلته ويتوقع أن يستشار بصدد القرارات التي تؤثر في مصالحه ، لا أن تملى عليه هذه القرارات. كذلك على خلاف مصر حيث كانت الثروة قد تركزت في أيدي قلائل نسبياً ، تزرع سوريا بالألوف من صغار الرأسماليين الذين يستثمرون مدخراتهم في الصناعة ، بينما نجد في جميع أرجاء العالم العربي تجاراً وأرباب مهن سوريين يديرون ويملكون إلى جانب اللبنانيين والفاطيين مشروعات من كل نوع وحجم .

وهكذا كان في وسع ناصر أن يخلق دولة اشتراكية في مصر ، تقدم للفلاحين الوديعين والمغلوبين على أمرهم، قدراً من العدالة الاجتماعية ومستويات للاسكان والتغذية والتعليم والرعاية الطبية لم يعرفوها من قبل أبداً . وإذا كانت هذه المنافع تطلبت التأميم الواسع النطاق فقد كان الذين يمكن أن يعترضوا عليها قلة . سوريا كانت قصة أخرى تماماً ، وعندما أعلن ناصر تأميم الصناعة الواسع النطاق في جميع أرجاء سوريا كما في مصر أيضاً ، جاءت معارضة عنيفة من دمشق . فلم يقتصر الأمر على عدم استشارة السوريين ، واسكن الألوف من صغار الرأسماليين والمدخرين أصبحوا الآن مهددين بضلوع مدخراتهم .

لقد اخطأ ناصر الحساب إلى حد كبير إذ ظن أن في امكانه أن يحرك

(١) لعل المؤلف استخلص هذه الفكرة من القرون التي خضعت فيها مصر لحكم المماليك ثم الأتراك العثمانيين عند ما كان أهل الزراعة وهم الغالبية الساحقة لا يملكون حقوقاً في الأرض التي كان يستغلها الحسكام من غير أهل البلاد . — المترجم .

نقابات العمال ضد رجال الصناعة وحمله الأسهم في سوريا على نحو ما فعل في مصر . ذلك أنه في الكثير من الصناعات والشركات السورية التي شملتها قائمة التأميم ، كان حملة الأسهم يفوقون العمال عدداً بنسبة ٢ : ١ . ومع ذلك لم يتجاهل ناصر هذه الحقائق والمشاعر فحسب ، بل أنه سار خطوة أبعد عندما أعلن في أغسطس ١٩٦١ أن جميع الوزراء السوريين سوف يسحبون من دمشق إلى القاهرة حيث يدار حكم سوريا في المستقبل . كان هذا كثيراً جداً بالنسبة إلى البعثيين المواليين لمصر ، بل وبالنسبة إلى السراج الذي قدم استقالة على الفور وبذا أشعل شرارة الثورة التي أسفرت عن انفصال سوريا من الجمهورية العربية المتحدة بعد أسابيع قلائل .

لم تكن سوريا بالبلد الوحيد الذي أخطأ فيه ناصر الحساب : فقبل أزمة السويس ارتكب أخطاء خطيرة في السودان ، إذ عندما ظهر كأنه يضغط على السودانيين كي يتحدوا مع مصر ، حطم الكثير من الخبير الذي سبق أن أحدثه تغليه السابق عن مزاعم فاروق . كان السيد عبد الرحمن زعيم حزب الأمة التي يمثل الأغلبية وينادي بالاستقلال ، لبناً جديراً بأبيه المهدي بحيث يقاوم بأقصى ما في وسعه ، أية محاولة مصرية للسيطرة على السودان ، على غرار ما سبق أن فعل أبوه . إن تكتيكات الضغط التي اتبعها ناصر لم تعمل إلا على توحيد الرأي العام السوداني ضد أي شكل من الاتحاد مع مصر . وفي تونس أيضاً جعل ناصر من الحبيب بورقيبة عدواً للدوداً بأن منح الحماية والتأييد لصالح بن يوسف الغدو اللدود لبورقيبة . وفي الأردن والعربية السعودية كان راديو القاهرة يشند بأنشطة أنصاره في التآمر ضد تحسين وسعود دون أن ينسبها إليه .

ولكن من بين جميع الذين جعلهم ناصر أعداء له ، كان أشدهم عنفاً عبد الكريم قاسم في العراق . لم يمض وقت طويل حتى تحولت الأخوة بين

الجمهوريتين العراقية والمصرية إلى تنافس مرير. فبعد الثورة يشهور قليلة بدأ قاسم يشك في أن ساعده الأمين عبد السلام عارف يتآمر مع ناصر وهنا طرد عارف على الفور. ولكن في أوائل عام ١٩٥٩ نشبت ثورة موالية لمصر في وحدات الجيش العراقي المقيمة في منطقة الموصل، فقمعت بقسوة بعد أن قتل زعيمها في القتال الذي نشب. وبرغم أن ناصر لم يكن مسئولاً عن بدء المتاعب كان هناك أدلة بالغة على أنه قدم للتوار ما هو أكثر من التأييد الأدبي، بمجرد أن بدأت الثورة. وعلى أساس هذه الأدلة أعلن قاسم الآن أن ناصر هو العدو رقم (١) في العراق، ومن الآن فصاعداً كرست الصحافة والإذاعة والتلفزيون جميعاً في العراق للتنديد برئيس مصر باعتباره الامبريالي الرئيسي ولاتهامه بالتآمر مع البريطانيين والأمريكيين، بل وأحياناً، مع الاسرائيليين لسلب العراق حريته الجديدة التي ظفربها. كان الأمر كما لو أن كل ما كان مكتوماً في صدر العراق من كراهية لمصر وغيرها منها منذ قرون مضت، قد تفجر في سيل جارف من السب لا يتوقف. وإذ أجاب ناصر بنفس الأسلوب متهماً قاسم بأنه أداة في أيدي الشيوعية، ارتفع العراقيون إلى ذرى جديدة من المستمريا المعادية لمصر.

من حسن حظ ناصر والعالم العربي أن قاسم خرج عن الطريق ليحفر قبره هو. فهو لم يقف عند حد إثارة نائرة الجامعة العربية كلها بالتهديد بالاستيلاء على الكويت بالقوة، ولكنه نجح أيضاً في أن يبعد عنه كل قطاع من الرأي العام العراقي باستثناء الشيوعيين، بأن قمع كل نشاط سياسي في العراق عدا النشاط الذي يقوم به اليسار المتطرف. ومن حسن الحظ أيضاً أن الروس ارتكبوا الآن غلطهم الكبيرة عندما سمحوا للشيوعيين العراقيين بالاندفاع بعد ثورة الموصل والعمل على أن يجعلوا من أنفسهم القوة السياسية الوحيدة التي تقف وراء قاسم. كان هذا أكثر مما يستطيع الجيش أن يتقلعه،

وفي فبراير ١٩٦٣ حدث انقلاب في العراق أزال حكم قاسم وأقام حكومة يرأسها عارف وتضم عنصراً بعثاً قوياً .

بعد ذلك بشهر اقتفى الجيش السوري حذو العراق وأخرج «الانفصاليين» . وهكذا مع الانقلاب الموالى لمصر في اليمن والذي قضى في سبتمبر ١٩٦٢ على الإمامة التي عفا عليها الزمن ، ومع تنصيب أحمد بن بيلار رئيساً جديداً الوزارة بالجزائر في السنة ذاتها ، عاد ناصر فبدأ أنه يتمتع بتأييد شعبي واسع الانتشار في صفوف العرب . ولإكمال العملية ، وافقت مصر وسوريا والعراق في إبريل ١٩٦٣ على اقتراح بإنشاء ما يدعى اتحاد فيدرالى بين البلاد الثلاثة ، تكون له سياسة خارجية مشتركة ونظام موحد للدفاع .

وبرغم أن نوع الإتحاد الذى تصوره كان من نوع الكومونولث أكثر من أن يكون إتحاداً فيدرالياً ، يحتفظ فيه لكل عضو بقدر واسع من الاستقلال الذاتى ، كان المأمول في ذلك الوقت أنه قد يسجل خطوة هامة نحو إنهاء المنازعات التي ظلت طويلاً تقسم العالم العربى . ولكن في غضون شهرين كانت الحكومة البعثية الجديدة في سوريا تشبكت في نزاع مع ناصر بنفس العنف الذى أبداه «الانفصاليون» الذين حلت محلهم ، وتتهمه بمحاولة إعادة فرض الوحدة القديمة التي رفضتها سوريا في عام ١٩٦١ . وفي الوقت نفسه بدأت تبرد العلاقات بين مصر والبعثيين في العراق . وأصبح واضحاً جداً أنه طالما يمسك البعث بالسلطة في سوريا والعراق فلن يكون في الامكان تحقيق أى إتحاد جدير بالاسم مع مصر . أولاً لأن صلاح البيطار رئيس وزراء سوريا البعثى بعد ثورة مارس ١٩٦٣ كان من بين الذين وقعوا على قرار انفصال سوريا في عام ١٩٦١ ، ولأن إدراج العراق في مشروع الاتحاد المقيد إلى الذى تبناه البيطار ، كان واضحاً أن الغرض منه ادخال العراق كقوة توازن مصر ، وضمان استقلال سوريا الذاتى عن طريق الإيقاع بين بغداد والقاهرة وإدامة

لعبة شد الحبل القديمة بين العراق ومصر . ومن جهة أخرى شامت سمعة الجناح الموالى لمصر فى صفوف البعثيين السوريين بعد أن حاول ناصر فرض طرازه من الاشتراكية على سوريا بالرغم منها ، وكانت مكانته عند الجيوش السورية والعراقية تفوقها المخاوف الشعبية من سيطرة مصر وهو ما كان البعث يستغله باستمرار .

أما إلى أى حد سوف يقنع ناصر فلامحرك شعبيته عند العسكريين ويحدد الضغط على دمشق وبغداد ، فيتوقف على مبلغ ما تعلمه من الماضى ومدى اعترافه تماماً بأن السوريين والعراقيين الأباة لن يخضعوا فى الاستكانة للسيطرة المصرية . من المؤكد أنه كان حريصاً عن تفكير وروية على ألا يعارض إدخال العراق فى المشروع السورى أو يحاول ويرغم السوريين على قبول اتحاد أوثق . بل أنه وقع على بيان مشترك يؤكد أهمية تجنب أى تكرار (للاخطاء الماضية) ؛ وأن رد الفعل الهادئ نسبياً من جانبه إزاء تشويه البعثيين لاسمه ، يوحى بأن التجربة حولته إلى رجل دولة وليس ديماجوجيا فحسب .

ويبدو أيضاً أن موقف ناصر الحالى من الملك حسين يأخذ فى الحسبان اعتبارات استراتيجية أوسع اعتاد أن يتجاهلها من قبل . بالطبع تبقى إمكانية أنه إذا قدر لمصر وسوريا والعراق أن يتحدوا حقيقة فإن ما يترتب على هذا من عزلة الأردن قد يثير ثورة فيه تؤدى إلى الإطاحة بحسين . هذا العنصر المتفجر لم يخف منه تماماً ارتياح الملك المستعير فى الفلسطينيين فى بلد الذين يفوقون البدو عدداً بنسبة ٢ : ١ . إن الفلسطينيين الذين كانوا يعاملون كأنهم مواطنون من الدرجة الثانية وكادوا لا يعينون أبداً فى مراكز المسئولية ، تقول لإنهم — وخاصة اللاجئين فى الأردن — وعبددهم يزيد الآن على ٧٠٠.٠٠٠ ، قد يقلبون ظهر المجن إذا أحسوا أن الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة قد يوفر لهم مكانة أفضل ودوراً ووظائف لإثقة . ويرغم هذا توحى

جميع الدلائل منذ عام ١٩٦٢ بأن ناصر لم يعد يحرض أتباعه على مهاجمة حسين ، لا بسبب أى حب مفاجئ للملكية الهاشمية ، ولكن الأخرى بسبب الخوف من أن يتخذ الإسرائيليون من انقلاب في عمان لصالح مصر ، ذريعة لاحتلال بقية فلسطين العربية حتى الضفة الغربية من الأردن . هذه الهدنة أكدها بعد ذلك قرار مؤتمر القمة من دول الجامعة العربية في يناير ١٩٦٤ ، بانتهاء الخلافات ، ووقف جميع الحملات التي تشنها وسائل الإعلام ، وتدعيم العلاقات بين الدول العربية الشقيقة .

أما عن الخطوة التالية التي يمكن أن يتخذها ناصر ، فهذا من العناصر المجهولة التي تجعل كل تنبؤ بصدد مستقبل الشرق الأوسط ، لعبة لا يمارسها سوى الحظي . فبغض النظر عن أى شيء آخر ، فإن طبيعة ناصر نفسه تحتوى على مزيج لا يمكن التنبؤ به من الجلد والخوف . فما من شيء كان يمكن أن يكون أشد تصميما من الطريقة التي سحق بها الإخوان المسلمين بعد المعاهدة الإنجليزية — المصرية ؛ إلا أنه في أكثر من مناسبة خلال المفاوضات التي دارت بيننا في عام ١٩٥٤ ، كان يظهر خوفاً مفرطاً من أن أى تنازل من جانبه قد يثير المظاهرات على أيدي أنصار نجيب من طلبة جامعة القاهرة . وخلال أزمة السويس كلها في عام ١٩٥٦ قاد سياسة مصر بالجرأة الثابتة التي يتصف بها لاعب بوكري في يده الأوراق الراجعة ، لكنه عندما بلغت مكانته الذروة بعد ذلك فسر اتجاهه المتزايد إلى التغييب عن القاهرة على أنه لازم كي يحافظ على طريقته في التفكير بعيداً عن الآراء السرية والشلل السرية . مثل هذا الازدواج في الخلق يجعل من العسير الآن وأكثر من أى وقت مضى ، التنبؤ بردود فعل زعيم مصر لإراء التطورات المستقبلية . إن المراقبين الذين لم يتذكروا سوى حملاته العنيفة على نوري لأنه خرج على صفوف الجامعة العربية في وقت ميثاق بغداد ، أولئك المراقبين ثبت أنهم مخطئون تماماً عندما تنبأوا بعنف رد

الفعل من جانبه عندما انفصلت سوريا من الجمهورية العربية المتحدة في عام ١٩٦١ . في هذه المرة كان العامل الحاسم هو الجانب الحذر من طبيعته . وعلى ذلك ربما تعلم ناصر مما أصابه من خيبة أمل في الماضي أن أسلم سياسة هي سياسة الصبر ومقاومة الإغراء بتحقيق مكاسب سريعة يدوى صداها لأن الرأي العام العربي ليس مهياً بعد لقبول مصر باعتبارها القوة الغالبة .

شيء واحد يمكن أن نكون منه على يقين تماماً هو أن ناصر سوف يمارس تأثيره ومكانته بصورة متزايدة بوصفه زعيم العرب الأعلى ونبي الثورة العربية الثانية السكي يلعب دوراً كزعيم للملايين غير الملتزمين بمعسكر معين ، في أفريقيا وآسيا ، ويسير بسياسة مصر الخارجية في طريق الحياد ، متجنباً أى التزام نحو أى من كتلتى القوتين الأعظم . فمذ قرأى ناصر على تحليل مصر من جميع القوات البريطانية ، كان على اقتناع بأنه كانت الصعاب التى قد يسببها هذا الموقف له من ناحية الحصول على الأسلحة من الغرب ، فإن على مصر أن تلتهج سياسة حياد . ولكنه لم يتعلم الدرس الهام جداً وهو أن الحياد يمكن استغلاله لتحقيق مكاسب ، إلا بعد لقائه الأول مع المارشال تيتو الذى اتخذ ناصر من تجربته الاشتراكية فى يوغوسلافيا نموذجاً ينسج على منواله النظام الاقتصادى لمصر . إذا كان تيتو قد استطاع أن يستغل الغرب ضد الشرق دون أن يصبح متورطاً فى أى من الكتلتين الشيوعية أو الغربية ، كذلك تستطيع مصر بالمثل . فباستغلال التهديد الشيوعى لسوريا والعراق منذ عام ١٩٥٨ ، وبهجماته المليئة بالحق والغل على قاسم استطاع ناصر أن يقنع الولايات المتحدة بمساعدته كدرع ضد التسرب السوفيتى فى الشرق الأوسط ، وأن يحصل فى الوقت نفسه على معونة عسكرية وفنية بمقادير كبيرة من الإتحاد السوفيتى لتقوية جيشه وسلاح طيرانه وبناء السد العالى فى أسوان .

وعلاوة على هذا ، فنند مؤتمر الشعوب الأفرو - أسيوية الذى انعقد فى باندونج عام ١٩٥٥ ، تمثل دور مصر فى الشئون العالمية على أنه دور زعيمة لا للدول العربية فحسب ولكن أيضا للعالم المحايد وغير الملتزم بكامله فى أفريقيا وآسيا . ولكن حقيقة مثل هذا الدور لم تبدأ تتبلور فى ذهنه إلا بعد زيارته الأمم المتحدة فى عام ١٩٦٠ حيث وجد نفسه على المسرح العالمى إلى جانب الشخصيات الدولية من قبيل نيكيتا خروشوف والرئيس أيزنهاور وهارولد مكميلان وفيدل كاسترو وكوامى نكروما ، تهلل له المجموعة الأفرو - أسيوية . وعلى ذلك ، فإنه منذ ذلك الوقت وجه اهتماماته بصورة متزايدة إلى قارة أفريقيا الآخذة فى اليقظة ، حيث أتاحته مهزلة الكنفو فى عام ١٩٦٠ واحداً من المنافذ الكثيرة التى يعظم منها التأثير المصرى . لقد انعكس ما أعلنه الخديو اسماعيل فى ذروة النفوذ الأوروبى ، من أن « مصر لم تعد قطعة من أفريقيا » . ففتحت جامعة القاهرة الأبواب على مصاريعها أمام الطلاب الأفريقيين ، وتكونت جماعة اسلامية جديدة باسم المجلس الأعلى للشئون الاسلامية للعمل على نشر الاسلام فى الدول الأفريقية حديثة العهد بالاستقلال والدول شبه المستقلة . للنجاح فى مثل هذه المهمة ، فما من يلد هو أحسن من مصر موقعا من الناحيتين السياسة والجغرافية ، فهى الجسر البرى بين أفريقيا وآسيا ، ولها تقليد روحى ومركز للتقدم الثقافى والتعليم يجب أن يعمل كمغناطيس قوى يجتذب الملايين غير المتعلمة فى القارة السوداء . بعد ما حدث فى الكنفو فى عام ١٩٦٠ فإننا نكون شاكرين إذا كانت مصر قادرة وراغبة فى توفير هذا العصر من الارشاد والاستقرار وسط مثل هذه الفوضى المعرصة للتهديد .

(٣٢)

الورطة العربية

إننا إذ نختتم تاريخاً للعرب يكاد يكون من المستحيل أن نقنأ بمستقبلهم ، إذ يقع دائماً تغيير أو جيشان يناقض ما حدث من قبل ، ويثبت بالمثل بطلان أحكم النبوءات بشأن ما يمكن أن يحدث فيما بعد. هذه الحالة الشبيهة بالبركان ترجع من جهة إلى أن العرب ربما على خلاف أى شعب آخر فى العالم باستثناء الإيرلنديين ، لاعمقوليون وعاطفيون إلى درجة أنهم لا يفكرون إلا بقلوبهم ولا يفكرون أبداً بعقولهم . الحقيقة أن نواحي التشابه بين خلق الارلنديين والعرب عجيبة تلفت النظر . فلا يقتصر الأمر على أن العرب يقسمون بنفس الدرجة الساحقة من الجاذبية وروح الدعاية مثل الأيرلنديين ، ولكنهم أيضاً سريعو الانفعال وغير مستقرين ، وعاجزون بالمثل عن النظر إلى الناس أو المشكلات فى أى لون خلا اللون الأسود القاتم والأبيض الناصع . فما من عربى ينسى أبداً ايماءة تنم عن الصداقة ، وهو بالمثل يؤكد دائماً أى عمل من الأعمال العداء . وما من شعب على وجه الأرض - أكثر استعداداً وبهجة لجذع أنفه ويشوه وجهه . فإذا تعرضت كرامة العرب للإساءة أو قوبلت ثقافتهم بالغدر فانهم يردون أو يثارون دون تفكير فى العواقب فتخريب السوريين لخطوط أنابيب البترول الممتدة من العراق فى أثناء أزمة السويس ، واغراق ناصري السفن فى قناة السويس لوقف الملاحه ، هذان العملان ليسا سوى مثلين قريبي العهد عن كيف يستطيع العرب أن يدمروا وسائل معاشهم لإحتجاجاً على ظلم يقع عليهم ، ومن ثم فطريقهم السياسى هو دائماً تقريبا اندفاع متعجل من رد

فعل عاطفي إلى آخر؛ وحتى المصالح المحتملة للأمة العربية لا يمكن استخدامها بأى قدر من التأكيد كبارومتر لقياس رد الفعل العربى .

ليس هذا مسألة طبع ومزاج فحسب . فنظام التعليم الأدبى العربى يساعد أيضا على توليد هذه الخصائص المميزة . لا يزال الأدب العربى يدرس فى المدارس منذ أكثر من ألف سنة ، ولما كان مثل هذا الأدب يمجّد المفاهيم القبلية عن الفردية والطقوس القديمة عن المنازعات الداخلية ، فإن من الانصاف أن نقول إنه منذ أقدم العصور تربى على غذاء أدبى يتضمن من الفوضى أكثر مما يتضمن من التحليل . فبينما كان العرب على ما لاحظ ابن خلدون ، من الفاتحين الناجحين فإنهم سرعان ما دمروا الأماكن التى فتحوها لأنهم بطبيعتهم ينزعون جداً إلى الفوضى والتخريب وهم سلمييون جداً بحيث لا يصلحون للإدارة الجيدة^(١) . فكثيراً جداً ما ركزوا على الثورة لغرض الثورة وأغفلوا أن يخططوا مقدماً ما سوف يحل محل الذى تدمره الثورة . ومن الأمثلة على هذا رد فعل العرب المصحوب بالفرحة ، عند ما قام رجال تركيا الفتاة بالثورة ضد عبد الحميد . وفى وسط الحرب الأهلية فى لبنان عام ١٩٥٨ راح صائب سلام زعيم الثوار المسلمين ثم رئيس الوزراء فيما بعد ، يلقى على خطبة لمدة نصف ساعة عن شرور نظام حكم شمعون . ولما طلبت منه أن يتحدث عما يريد وعما يعارضه حقق فى وجهى بدهشة وأجاب « لقد أخبرتكم ، انى أطالب بالخلاص من شمعون » .

لكن برغم التأكيد على الفردية فى الأدب العربى ، فإن من الخطايا

(١) لم يسجل التاريخ الجدير بالثقة ، أن العرب خربوا الأماكن التى فتحوها . ففى العراق ومصر وشمال أفريقية والأندلس ، مما تذكره على سبيل المثال لا الحصر ، أقاموا المدن ، وبنوا الطرق ، وشقوا الترع ، فازدهرت الزراعة ونشطت التجارة . واهتموا بالعلوم على اختلافها ، وأصبحت أمثال بغداد والقاهرة مراكز إشعاع ثقافى وحضارى فى عصور كان الغرب فيما يمشى فى ظلمات الجهل والتأخر . — المترجم .

التي تحيط بالجنس العربى تواخييه وافتهقاره إلى الأصالة . ليس العرب شعبا كسولا . بالعكس فإن تواخييههم ناشىء من احساس غريزى بالتفوق راجع إلى حضارتهم وفتوحاتهم القديمة ، وهو احساس امتزج بمركب نقص وبخوف من الاستغلال نقيجة قرون تسلط فيها الأجانب . فمذ قيام المؤثرات الفارسية والتركىة على عهد الخلافة العباسية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية كان الأجانب هم الذين يحددون العرب فعلا بما يتعين أن يعملوه ومن ثم يعملون إلى الظن بأن العالم الخارجى مدين لهم بعيشه وأنه يجب مساعدتهم باعتبار أن هذه المساعدة حق لهم ، وأن أية محاولة لجعل مثل هذه المساعدة مشروطة ، هى إهانة لكرامتهم .

وكما عبرت . ١ . لورنس عن الأمر ذات مرة ؛ فهم « أذكى من أن يشتغلوا » للغير . أذكى وأشد كبرياء — إلا أنهم كثيراً ما يفتقرون إلى الأصالة إلى الحد الذى يجعلهم لا يعرفون كيف يعملون لأنفسهم . فبخلاف العقيدة الإسلامية والشعر ولغتهم التى لا تقبل المقارنة ، فإن جميع الثقافة العربية والعلم العربى مستعاران ومنقولان بالفعل من شعوب أخرى^(١) . وحتى اللغة العربية اليوم تظهر فى نثرها الرقيق ، آثار مؤثرات فارسية لم تكن موجودة فى لغة عرب الصحراء الأصليين المحكمة السبك والبسيطة . ولقد استعار الإسلام أيضا الكثير من أعرافه من المسيحية ومن الطقوس الوثنية التى كانت موجودة من قبله^(٢) . ان الافتقار إلى فن عربى أصيل ليس غلطتهم تماما ، نظراً لأن

(١) ألم تستعرب أوروبا فى العصور الوسطى الثقافة والعلم من العالم العربى الاسلامى ؟ أن الحضارات والثقافات تتلاقى وتتفاعل وهذا من عوامل التقدم الذى يحققه الجنس البشرى على امتداد التاريخ . واذاً ليس العرب استثناء ؛ فإذا كانوا قد استعاروا كغيرهم من كانوا قبلهم أو جاءوا بعضهم ، فقد أضافوا الكثير من عندهم وبذا أسهموا فى مجرى الحضارة الإنسانية . وهذه الحقائق سوق يشير إليها المؤلف فيما بعد . — المترجم .

(٢) سبق أن ناقشنا هذه الناحية فلا داعى للرجوع إليها — المترجم .

الشرع كان يحرم التصوير على هيئة الإنسان باعتبار أن هذا نوع من عبادة الأوثان . ونظراً لأن رسم المناظر الطبيعية والحياة الساكنة لم ينتشر إلا بعد الفتح العثماني افتقد العرب هذا الفن الذي ظهر في عصر متأخر . ولكن في العصور الأخرى من الثقافة والتي لم ينس عنها القرآن ، قنع العرب حتى في ذروة تفوقهم الفعلي ، بالاستعارة بدلاً من الخلق . لقد قيل بحق إن الشعب المغلوب يأخذ بعادات وأساليب الفاتحين . ولكن العرب أخذوا أساليب الشعوب التي فتحوها ، بمثل ما أخذوا من الشعوب التي حكمتهم . ففي عصر الخلافتين الأموية والعباسية كانت الثقافة الغالبة مستوردة من بيزنطة أو من فارس ، والآثار العظيمة التي خلفها الإسلام في الشام وإسبانيا كانت من عمل المهندسين وأرباب الحرف البيزنطيين ، وحتى في العصر البراق الذي جاء بعد هارون الرشيد ، فليس مما يقلل من إسهام العباسيين ، القول بأنه كان يمكن بوجه خاص في شرح وترجمة أعمال أرسطو وأفلاطون ومن ثم توفير الجسر الذي يربط بين تعاليم اليونان القديمة وبين الثورة العلمية الأوروبية في السابع عشر ، بدلاً من أن كان يمكن في خلق تراث من ثقافة عربية لها طابعها الخاص .

وبالمثل في إدارة شؤون الحكم كان خلفاء بني أمية يعتمدون اعتماداً شديداً على الجاليات النصرانية واليهودية لإدارة الدولة^(١) بينما كانت الجيوش العربية تتقدم إلى منفوليا في الشرق وإلى إسبانيا في الغرب . واعتمد العباسيون على وزراء من الفرس وعلى فرق الحرس البريتوري ممن اختيروا من التتركان والماليك ، للمحافظة على النظام في العاصمة والأقاليم وأصبحوا في النهاية أسارى عبيدهم . ولم يظهروا إلى حد كبير أنهم ساطعون على ضروب الإذلال هذه إلا إذا تحركوا بفعل شخصية متفوقة مثل صلاح الدين وبيبرس ولم يكن أي

(١) كان هذا في بداية عصر الفتوح العربية الكبرى ثم مالبت أن تغير الوضع . — المترجم .

منهما عربياً . بل وتقبلوا الاحتلال العثماني في استسلام إلى أن رفع محمد علي راية الاستقلال في مصر وراح اليازجي والبستاني يعملان على إحياء قوة وعظمة اللغة العربية . لم يسخط العرب على الأتراك بمثل ما سخطوا على البريطانيين والفرنسيين إذ برغم أن الأتراك كانوا أجنباً إلا أنهم مسلمون وعلى ذلك فهو أقرباء العرب من حيث الدين .

لم يعمل رد الفعل العربي الأول على أن يكون موضع الإحساس به إلا في منتصف القرن التاسع عشر بعد أن قمع الأتراك عن عمد محاولات إبراهيم لإحياء تعليم اللغة العربية . وإذا انتقلت سلسلة رد الفعل إلى مصر بدأت تتكون في مصر مدارس جديدة من الفكر الليبرالي . أما مبلغ ما كان سيدأ من هذا التفكير الجديد لو لم تكن الليبرالية الغربية قد أبانت الطريق ، فأمر فيه نظر . لقد مهد محمد علي الطريق إلى تطبيق الأفكار الغربية على الأحوال السائدة في الشرق ، ولكن حل رد فعل شرقى على عهد خلفائه المباشرين . ثم عندما أخذ كرومر بوصفه ممثل قوة أوربية رئيسية ، زمام المبادرة في الحد من سلطان خديو شرقى ، عاد قادة الفكر المصرى فبدأوا يستعيرون أفكارهم من الغرب . وفي سوريا الكبرى أيضاً اعتنقت القومية العربية مبادئ النزعة العلمانية الليبرالية بالقرن التاسع عشر ، التي كانت سائدة في بريطانيا وفرنسا . وبعد ذلك بسنوات كثيرة أعلن المربي المصري الكبير طه حسين (أن علينا أن نتمتع طريق الأوربيين حتى نكون لهم أنداداً وشركاء في الحضارة) . وهكذا خلال الجزء الأخير من القرن التاسع عشر وحتى الثلاثينات من القرن العشرين كانت حركة الاستقلال العربية تستمد فلسفتها من أوروبا . وهذا يفسر كيف أنه عندما حلت الدول الأوربية محل الإمبراطورية العثمانية كان القادة العرب في تلك الأيام يردعهم في نضالهم من أجل الاستقلال ليس فقط حقائق القوة بل ويردعهم أيضاً حقيقة أنهم كانوا في تفكيرهم

يحاكمون حكاهم الجدد ويتطلعون إليهم ليستمدوا منهم أفكاراً حديثة للحكم . فبقدر ما كانوا يستخطون على معلمهم لم يكن في وسعهم التخلص منهم .

هذه العوامل الرادعة أزالها الحرب العالمية الثانية . فبعد عام ١٩٤٥ خسرت بريطانيا وفرنسا تفوقهما الأدبي وشهرتهما بالمصمة عن الخطأ في التفكير السياسي الحديث . فالهزيمة المذلة التي أصابت فرنسا في عام ١٩٤٠ حطمت مكانتها عند العرب وشجعت القوميين على الاعتقاد بأن في الإمكان الآن طرد الفرنسيين وهم آمنون ، وبرغم أن بريطانيا برزت منتصرة كان واضحاً أن طاقتها ومواردها قد استنفدت بحيث لم تعد قادرة على أن تواصل حكم العالم العربي وقتاً أطول . فضلاً عن هذا كان أعظم قوتين في العالم هما الآن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وكلاهما يعارض نظام الإستعمار جهاراً وعلانية . كان في إمكان العرب الآن أن يتحدوا في الحرية دون أن يصطدموا بقوات تفوقهم بدرجة ساحقة أو دون أن يخسروا مصدرهم الوحيد الذي يحصلون منه على المعرفة السياسية والفنية والعلمية . أصبح الاستقلال مرادفاً للحياد ، إذ استيقظ العرب على حقيقة أنهم كي يكونوا جزءاً من العالم الحديث لم يعد يتعين عليهم الخضوع لأية قوة أوروبية . وأعطتهم الأمم المتحدة وضعاً جديداً من المساواة مع أعظم وأغنى الشعوب ، وكان هناك وكالاتها لتقدم لهم المال والمعونة الفنية والتدريب لتطوير صناعاتهم وزراعتهم دون أن تربط بها أي قيود أو تتطلب أية مظاهر عبودية بالمقابل ، وإذ تحول نضال الحرب الباردة بين القوتين الكبيرتين المتنافستين إلى مباراة بين الكتلتين الغربية والسوفيتية حول أيهما يستطيع أن يقدم معظم المال والمساعدة للعالم الحاد ، أصبح في إمكان القوميين العرب من أمثال جمال عبد الناصر أن يصروا على أن ينسحب النفوذ والاحتلال الأوربي انسحاباً كاملاً دون خوف من تأثير هذا على تطوير (٣٥ - العرب)

مصر . بل وكان في إمكان أحد أصحاب الميول الفرنسية مثل الحبيب بورقيبة أن يقول « ما كان في امكاني أبداً أن أحارب فرنسا مثل هذا الوقت الطويل لولا أنني أحببتها وتعلمت منها مثل هذا القدر الكبير » .

وكما يعبر حوراني عن الأمر فيقول :

نسخ الماضي سواء أكان ماضى « القريب » أم كان ماضى المجتمعات التقليدية ، الأبعد عهداً . كان مجتمع جديد آخذاً في الظهور إلى عالم الوجود بسرعة . . . من الناحية الاقتصادية كان هذا المجتمع الجديد يقبض بنمو الصناعة الكبيرة ، والتنظيم العقلي للزراعة ، وتدخل الحكومة الإيجام في كليهما . ونتيجة لهذه العمليات برزت ثلاث طبقات جديدة : طبقة وسطى وطنية من المنظمين والمديرين والتجار ؛ طبقة مثقفة من الفلّين والضباط وأرباب المهن من الرجال والنساء ؛ بروليتاريا حضرية يتضخم عددها بفعل الفائض من أهل الريف ، وبدأت تنظم نفسها في نقابات عمالية . واذنمت هذه الطبقات تضاملاً بشأن طبقتين أخريين : البورجوازية التجارية بالمدن وهي بورجوازية من الأوروبيين وأهل المشرق ، وملاك الأراضي في الريف . لم تعد حياة المجتمع العامة مسألة مجموعة صغيرة من أصحاب الامتيازات ، وكبرت هذه الحياة العامة بفعل تحرير النساء وقيام وسائل جديدة للاتصال — الصحافة ، السينما ، والراديو والتلفزيون — ونمو أدب جديد يتلائم معها كانت المشكلات التي أثارها ظهور هذا المجتمع الجديد ، من الجدة والتعقيد والغربة بحيث لم يعد لدى الماضي دروس بلقنما . ربما كانت أذهان الناس وأخيلتهم ما تزال تتطالع إلى الماضي تلتئم منه الإلهام وتستمد منه الدرس (سواء كان لذلك ما يبرره أم لا) الذي يعلم أن العرب كانوا عظاماً من قبل ويمكن أن يكونوا عظاماً مرة ثانية . . . ولكنهم لم يعودوا في الغالب يؤمنون أنهم استمدوا من الماضي معياراً لا يتغير للحكمة ، ومجموعة من مبادئ سبق أن ضببطت ويجب أن تضبط دائماً تنظيم المجتمع وأنشطة الدولة ، سواء كان هذا المعيار مستمداً من تقاليد السلف أو من الشرع .

في أما كن مثل شرق الأردن والعربية السعودية والإمارات الصغيرة بالخليج الفارسي تسير الأساليب القديمة في طريق الزوال بطريقة أصعب منها في أي مكان آخر . ولكن حتى هناك فإن نهاية النظام الإقطاعي القبلي لم تعد مجرد حلم يراد دعاية ثورياً نظرياً . والسبب هو الظما الذي لا يرتوى للعالم في عالم أكثر من نصف سكانه دون سن الحادية والعشرين . وحتى في الظهير الصحراوي بالأردن يتحول البدو بسرعة ليصبحوا جيلاً مستقراً من الفلاحين وسكان القرى تغريهم على التخلي عن هجراتهم الرعوية ، الفرص

لتعليم أطفالهم في المستوطنات القروية التي أنشأتها السلطات الأردنية. والحقيقة أن قوة البوليس التي تحافظ على الأمن في الصحراء ، والتي تضطلع بمسؤولية توفير هذه التسهيلات للقبائل ، هذه القوة تقدر أن بدو الأردن الرحل لن يصبحوا في ظرف خمسين عاما سوى ذكرى رومانسية من ذكريات الماضي .

كان حتماً أن تعمل هذه التغييرات ونمو المجتمع العربي بعد الحرب العالمية الثانية على إسهاء الاحتلال الأوربي ، إذ راحت الدول العربية ، الواحدة تلو الأخرى تجبر القوات الأجنبية على الانسحاب . وأعقب هذا أن فقدت أوروبا سيطرتها المالية ونفوذها عندما أقامت مصر أولاً ثم العراق وغيره بعد ذلك ، نظاما من الإشتراكية التعاونية مبنيا على الإصلاح الزراعي وإعادة التوزيع ونأميم الصناعة والمصارف .

لم يتمكن الغرب من الاحتفاظ بمركزه إلا في عالم البترول ، من جهة لأن الدول العربية كانت تعتمد على الفنيين الغربيين لتشغيل آبار النفط ومعامل التكرير ، ومن جهة أخرى لأنه بعد الحرب بقليل بدأ إنتاج النفط يفوق الاستهلاك إلا أنه حتى في هذا المجال ، وبعد أن أمم مصدق رئيس وزراء إيران ، شركة الزيت الإنجليزية - الإيرانية احتجاجا على النسبة الضئيلة من إيرادات النفط وهي النسبة التي كانت تؤول إلى إيران من أرباح الشركة ، تمكن العرب من اجبار المصالح البترولية الغربية على زيادة نصيبهم من الحصيلة إلى ٥٠ في المائة .

لقد مات الماضي الآن وظفر العرب بحريتهم . ولكن لا يزالون غير متأكدين من مصيرهم ، ولا يزالون تفضلهم عن بعضهم البعض حواجز خلقها في أول الأمر المحتلون الغربيون ثم أقيمت عليها عناصر الغيرة من بعضهم بعضا . لقد فشلت بصورة معززة أول تجربة في الوحدة العربية ، وذلك عندما أخفقت الجامعة العربية في إنقاذ فلسطين من أن يبقها الاسرائيليون عندئذ بدا أن

« عصبية » الشعب العربى العنصرية قد دفنت مع الماضى الذى مات . بل وراح الناس يحتاجون بصدد ما كان يشكل حدود الشعب العربى ، وخل عنك أى من البلاد التى يتكون منها يجب أن تكون له الزعامة . لو أن سوريا وفلسطين ولبنان بقيت كلاً مستقلاً ومتحداً ، لجاز أن يتركز التفكير العربى على « سوريا الكبرى » لتكون مركز اتحاد جديد . ولكن « سوريا الكبرى » كانت مقسمة ، واليوم لن تعود الأغلبية المسيحية فى لبنان تقبل الاتحاد مع سوريا التى يشكل المسلمون الأغلبية الساحقة فيها ، بأكثر مما يقبل الاسرائيليون فك قبضتهم على فلسطين^(١) . وبالإضافة إلى هذا ، فمذ أيام صلاح الدين كانت مصر لها النفوذ الغالب فى العالم العربى ، وبسبب موقعها الجغرافى على مفارق الطرق بشمال أفريقيا والشرق الأوسط ، وزعامتها الثقافية وروثها المتفوقة وتطورها السياسى - نقول إنها بسبب كل هذا ، هى الزعيم الطبيعى فى قضية الوحدة العربية . وعلاوة على هذا فإن دعوة جمال عبد الناصر المغناطيسية أسرت خيال المجتمع العربى الجديد وأشعلت حماساً ثورياً جديداً فى نفوس طبقة الضباط الشبان ، وأيقظت البروليتاريا العربية . أصبح ناصر رمز عصر جديد من التحرر من الظلم ورمز وحدة جديدة عن طريق الثورة ضد الأمراء والباشوات ومن يساندهم من « الامبرياليين » .

ولكن الوحدة العربية لا يمكن الظفر بها بالرغبة فيها أو بإطلاق الشعارات . فبرغم أن كلا من الدول العربية حققت نتائج باهرة فى التنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعى ، إلا أنها أخفقت بصفتها الجماعية فى إحياء « العصبية » القديمة إلا بالمعنى السلبي البحت وهو كونها تعارض التهديد الممثل فى التوسع الإسرائيلى . فهل تستطيع أية قضية أخرى أكثر إيجابية من هذه ، أن توحد العرب كما توحدوا من قديم ؟

(١) قياس مع كل فارق . كما أن الاسرائيليين لن يقبلوا ولأنما سيرغمون على هذا . المترجم .

كان ثمة إحياء أحياناً بأن الإسلام يمكن أن ينجح حيث أخفقت محاولات أخرى. إلا أن دراسة التاريخ العربى تجبرنا على أن نستنتج أن ابن خلدون كان على حق فى تأكيده أن الدين لا يستطيع بنفسه أن يخلق مجتمعاً سياسياً ولكنه إنما يدعم مجتمعاً خلق نفسه على أساس صلب وطبيعى . حقيقة عاش الدين الإسلامى والشقاات فيه أقل منها فى المسيحية ، لأن العربية أصبحت اللغة المشتركة التى يتحدث بها أتباعه . ولقد لاحظ المفكر السورى الحديث رشيد رضا أن الدين حافظ على اللغة وحافظت اللغة على الدين . وصحيح أيضاً أن الانقسامات والفرق التى ظهرت فى داخل الحضارة الإسلامية كانت من خلق غير العرب . فالشيعة والدروز والإسماعيلية مثلاً ، استمدوا الإلهام من مؤثرات فارسية تعارض مذهب أهل السنة والجماعة الذى كان يأخذ به العرب . إلا أنه يكاد أن لا يكون اتحاد إسلامى بحت ترتيباً عملياً فى العالم العربى الحديث^(١) . فمن جهة ، سوف ينطوى على إحياء الخلافة فى صورة أو أخرى . ولقد ناقشت مؤتمرات إسلامية عدة فى العشرينيات من القرن الحالى هذه الفكرة ولكن دون الوصول إلى أى اتفاق . ذلك أنه منذ بدأت الخلافة كانت فى جوهرها نظاماً سياسياً كان فيه الرئيس الدينى هو رئيس الدولة وجمع فى يده السلطتين الروحية والزمنية . وإحيائها يعنى التخلي عن النظام العلمانى للحكم فيحصل انفصال بين الدين والدولة ، وهو الانفصال الذى كان خلال الأربعين سنة الماضية ، علامة التقدم والتجديد بالنسبة إلى القومية العربية الجديدة .

(١) يظهر أن المؤلف استند فى هذا إلى الدعوة التى ترددت بشأن سماع باسم « الجماعة الإسلامية » ، ولكن الذى يتضح من اللقاءات والمؤتمرات التى ضمت قادة المسلمين فى البلاد المختلفة من الرسيين وآخرها المؤتمر الإسلامى بالهون فى أوائل عام ١٩٧٤ ، أنهم يهدفون أولاً وقبل كل شئ إلى الاتفاق على خطوط مشتركة للتعاون والمجالات المختلفة من أجل التنمية والتقدم ، ولم يبحثوا فكرة إنشاء تنظيم سياسى أو اتحاد بعبارة أخرى . — المترجم .

ومن المستحيل أيضاً كيف يمكن للثيوقراطية في المملكة العربية السعودية حيث لا مكان للنساء في المجتمع وحيث لا يزال ترك الصيام أو تعاطي الخمر يعاقب بالجلد أو بقطع اليد، تقول كيف يمكن لها أن تتعايش في اتحاد ديني مع مصر حيث تحررت المرأة وحيث ينظر ناصر إلى الحج إلى مكة على أنه إلى حد كبير فرصة لمؤتمر دورى تناقش فيه المشكلات السياسية، أو مع الدولة الألمانية في تونس حيث عارض بورقيبة علناً الصيام في رمضان^(١) وصب الازدراء على الحجاب باعتباره علامة للفضيلة. فضلاً عن هذا، فإن تجربة العرب في الاتحادات الإسلامية الماضية، تسكاد لا تشجع على تكرارها، ذلك أنه عن طريق اعتناق العقيدة الإسلامية تمكن الفرس والماليك من فرض مشيئتهم وفي النهاية فرض سلطتهم على العالم العربي. ونظراً لأنه يكاد لا يمكن لاتحاد إسلامي أن يستبعد المسلمين من غير العرب، فسوف يبدو كأنه إحياء لضروب السيطرة القديمة هذه وبذا يشكل تهديداً للاستقلال العربي.

ويكاد قيام اتحاد سياسي ألا يكون جواباً عملياً بدرجة أكثر، إلا في صورة مفككة جداً تتيح أكمل الاستقلال الدائى في المسائل المالية والداخلية. ذلك أن أية محاولة من جانب دولة عربية أو زعيم عربي لفرض التجانس السياسى على العالم العربي، هذه المحاولة سوف تلقى المقاومة في كل مكان مما من بيت بنى باقامة السقف أولاً؛ ومن المؤكد تقريباً أن أية محاولة للعودة إلى ذلك الطراز من الاتحاد الذى كان قائماً بين مصر وسوريا فيما بين عامى ١٩٥٨ و ١٩٦١، سوف تنتهى بنسكبة أخرى وتترك العرب أبعد عن ذى قبل من الوحدة التى يسعون إليها. وبالمثل، ففكرة الملك حسين عن تكوين أربعة اتحادات عربية مختلفة: وحدة مغربية تضم مراکش والجزائر وتونس؛

(١) يبدو أن ثمة لبساً بهذا الشأن، فبورقيبة لم يعارض الصيام وإنما عارض محاولة البعض اتخاذ هذه الفريضة ذريعة للتكاسل في العمل. — المترجم.

اتحاد في وادي النيل بين مصر والسودان ؛ اتحاد الهلال الخصيب ويشتمل على العراق وسوريا ولبنان والأردن ؛ واتحاد شبه الجزيرة العربية — هذه الفكرة قد تكون معقولة من الناحية الجغرافية ، إلا أن من الصعب أن ترضى ناصر ان لم يكن لشيء إلا لأنها تجعل لمصر دوراً صغيراً^(١) . كذلك لا تأخذ الفكرة في الحسبان حقائق قوة مصر وعلو شأنها في العالم العربي . وأخيراً ، حتى إذا أمكن إنقاذ وتنفيذ مشروع عام ١٩٦٣ باتحاد مصر وسوريا والعراق ، فهناك الخطر من أن يسبب استبعاد الأردن وعزلته انفجاراً في صفوف الأغلبية الفلسطينية قد يستفز إسرائيل إلى شن حرب وقائية .

وعلى ذلك ليس هناك طريق آمن واخل عنك طريق سهل ، إلى الوحدة السياسية في داخل العالم العربي . ولكن هناك طريق واحد لدعم وتوحيد الدول العربية التي لن تقبل أن تواجه الفخاخ التي ترتبط حتماً ببناء اتحاد سياسي ، ويكون هذا بتكوين مجتمع اقتصادي وفق الخطوط التي قامت عليها السوق الأوروبية المشتركة . مثل هذه المحاولة ان تكون مثيرة للأفكار بمثل ما يثيرها إنشاء اتحاد سياسي ، ولكنها يمكن أن تكون أشد صلابة بكثير . وبوجه خاص يمكن أن تصنع أشياء ثلاثة . تستطيع أن تقوى العالم العربي كله عن طريق توفير سوق محلية موسمية لمنتجاته ، وعن طريق تجميع موارده وترشيد قدراته الإنتاجية تستطيع أن تساعد على حل مشكلاته المتعلقة بالتسويق فيما وراء البحار ، وتستطيع أن تنشئ الجهاز اللازم الذي يوزع على نطاق إقليمي وليس قومياً بحتاً ، المساعدة التي يمكن أن تجعلها الأمم المتحدة والبلاد الفردية متاحة للتنمية الاقتصادية والتعليم والتدريب الفني .

(١) شهدت السنوات الأخيرة قيام اتحاد الجمهوريات العربية (مصر وسوريا وليبيا ، واتحاد الامارات العربية) كما تجرى محاولة وحدة بين الدولتين اليمنيتين . — المترجم .

عندئذ يستطيع المالكون أن يساعدوا المحرومين ، لا في صورة إحسان وهو ما لا تريد الدول العربية الغنية أن تقدمه بمثل ما ترفض الدول العربية الفقيرة أن تعلقاه ، ولكن كاستثمار في استقرار وتطوير الشعب العربى كله .

بالطبع سوف تكون هناك مشكلات يجب التغلب عليها من قبيل الاختلافات بين النظم الإقتصادية في مصر ولبنان مثلاً ، أو في العراق ومشيخات الخليج الفارسى^(١) . ولكن كما أظهرت التجربة الأوربية يستطيع مجتمع اقتصادى أن يربط على نحو فعال ، الجهود والقدرات الإنتاجية لكل من المشروع الخاص والصناعات والخدمات المؤممة . وعلاوة على هذا هناك الآن جهاز للتعاون الإقتصادى فى ظل ميثاق الجامعة العربية واتفاق الوحدة الإقتصادية الذى وقعت عليه مصر وسوريا والأردن والكويت ومراكش فى عام ١٩٦٢ . وبهذا لا توجد عقبة لا يمكن تخطيها ، فى طريق قيام سوق مشتركة عربية ، وسوف يتحقق بالتأكيد مكسب ضخم إذا أمكن إنشاء سوق كهذه^(٢) . وكما حدثنى ذلك الفلسطينى العظيم موسى العلى الذى عملت جمعية التنمية العربية التى أنشأها ، على تعليم اللاجئين الفلسطينيين حرفة طيبة ، بأكثر مما علمتهم أية حكومة عربية ، أقول إنه أخبرنى بأنه لاخير فى صب المال لتنمية الصناعة والتجارة إذا لم يمكن بيع المنتجات . إن اهتماماً أكثر مما ينبغي ، يوجه اليوم إلى بناء المصانع الجديدة وتدريب العاملين الجدد فى العالم المتخلف ، ويوجه اهتمام أقل مما يجب إلى إيجاد سوق لما ينتجون . هذه المشكلة يمكن لاجتماع اقتصادى عربى وبالمساندة

(١) استقلت قطر والبحرين ، كما تكونت دولة الامارات العربية من المشيخات التى كان يضمها ما كان يعرف باسم ساحل الهندنة . — المترجم .

(٢) أنشئت فى عام ١٩٦٤ بموجب قرار أصدره مجلس الوحدة الاقتصادية العربية (أنظر الفصل الأول من كتابنا « التصديايات العالم العربى من الخليج الى المحيط » ، الطبعة الثالثة) . — المترجم .

من الأمم المتحدة ، أن يقطع شوطاً بعيداً في طريق حلها .

قد يلغى الماضى بالنسبة إلى المدرسة الجديدة من القومية العربية ، ولكن يحسن بالعرب وهم يفكرون في مشكلات الوحدة العربية أو يرددون صدى شعاراتها ، أن يذكروا أن الحاجة الاقتصادية أكثر من حماس العقيدة الإسلامية الجديدة في كسب الناس إليها ، هي التي أخرجت الجيوش العربية بقيادة خالد بن الوليد لتصنع أول وأعظم اتحاد في التاريخ العربي . إن الحاجة الاقتصادية تعود الآن فتشير إليهم ، وإذا استطاع المعلمون والفنيون ببلاد العرب الحديثة أن يسيروا الآن في الطريق الذي سلكه خالد بن الوليد ويصنعوا اتحاداً جديداً من الثروة والصناعة العربية لكان الكسب الذي يتحقق للأمن العربي والقوة العربية مما لا يمكن تخيله . كذلك سوف يكون الكسب الذي يعود على العالم بوجه عام ذلك أنه عن طريق وحدة متزايدة يمكن للعرب أن يبلغوا يوماً من الأيام من القوة والثقة بالنفس ما يجعلهم يعيشون في سلام مع إسرائيل^(١) والعالم الخارجى .

وسط جميع الانتفاضات والتحولات التي تعرض لها العالم العربى في السنوات الخمس عشرة الأخيرة ، والتي سوف يتعرض لها بغير شك في المستقبل ،بقى عنصر واحد ثابتاً ، هو الخوف من إسرائيل باعتبارها الطرف الرفيع لاسفين غربى دق في الشرق الأوسط كى يسهل عودة « القوى الامبريالية » من جديد . إن التصرف من جانب انجلترا وفرنسا في وقت أزمة السويس بدأ يؤكد هذه المخاوف ، ولن يزيلها اليوم أى حديث أو إنكارات أو تأكيدات . إن الجراح التي أصيب بها العالم العربى منذ عام ١٩٤٨ - وخاصة مأساة مئات الألوف من اللاجئين الفلسطينيين مضافا إليها ضروب الخلل

(١) هذا حلم فالعراق مع إسرائيل صراع مصيرى . — المترجم .

والاضطراب التي سببتها خمساثة سنة من الاحتلال الأجنبي ، هذه الجراح هي من العمق بحيث لا يمكن أن تلتئم بالكلمات الناعمة أو الحجج المنطقية . إلا أنه لا يمكن أن يكون هناك سلام حقيقى أو تفاهم بين الدول العربية وإسرائيل ، كما لا يمكن أن يكون هناك أى شعور بالطمأنينة والثقة بين العرب والغرب ، إلا إذا أزيلت هذه المخاوف والتأمت هذه الجروح .

إن بعض الحل يقع على عاتق الغرب ويقع البعض الآخر على العرب أنفسهم . من ناحية الولايات المتحدة وبريطانيا يجب أن يمتنعوا عن عمل أى شىء يوحى بأنهم يحاولون فرض إرادتهما على العالم العربى ، وأن يفعلوا كل شىء لمساعدة وتشجيع الوحدة العربية . إن رفض الحكومات الأمريكية والبريطانية المتعاقبة المدروس حتى للإعلان بأنها تقف إلى جانب الوحدة العربية ، هذا الرفض فسر حتما على أنه دلالة على أنها فى الحقيقة تعارضه وأن سياستها على ذلك هي سياسة « فرق تسد » كما كانت السياسة القديمة . كذلك يجب أن تتجنب الولايات المتحدة وبريطانيا محاباة المشيخات والممالك ذات الأوضاع البالية فى بلاد العرب ، لجرد أنها مستعدة للتعاون مع الغرب ومستعدة للسماح بوجود قواعد عسكرية فى أراضيها^(١) . هذا ينفر جمهرة الرأى الحيادى فى الدول العربية الكبرى مثل مصر وسوريا والعراق ؛ بل وأسوأ من هذا أنه ينتهى بأن تصبح بريطانيا والولايات المتحدة خاضعتين لقيتو « أتباعهما » — كما حدث عندما امتنعت بريطانيا عن الاعتراف بالحكومة الجمهورية فى اليمن بعد ثورة ١٩٦٢ ، لأن شيوخ حضر موت فى محمية عدن اعترضوا بأن هذا سوف يشجع الثورة فى بلادهم .

إن تجنب هذه الأخطاء والاستفزازات الماضية سوف يساعد على تحسين جو العلاقات العربية مع الغرب . ولكن لا يمكن إزالة الخوف العربى

(١) هذا الوضع تغير أخيراً وزالت القواعد المشار إليها . — المترجم .

الرئيسى من اسرائيل إلا إذا كان العرب أقوياء معنوياً وكذلك مادياً بحيث يشعرون أنهم متعادلون مع اسرائيل وعلى ذلك قادرون على مقاومة أبة محاولة يمكن أن تفكر فيها اسرائيل للتوسع على حسابهم . سوف يستغرق تحقيق هذا وقتاً طويلاً وقدرًا كبيراً من الصبر . ولكنه سوف يتطلب أكثر من أى شيء ، أن يبدل العرب جهداً ضخماً وبناءً كى يخلقوا وحدة حقيقية تسير فى طريق النمو ، ولها أسس راسخة وإيمان حى بمصيرها وبما تستهدفه من غرض . ذلك أنه بغير الوحدة لن تكون هناك قوة ، وبغير القوة سوف يكون هناك دائماً ذلك الخوف الذى يقسم بين العرب واليهود وينكر أخوة الجنس السامى القديمة .

الزمن وحده هو الذى يمكن أن يحدثنا عما إذا كان العرب يستطيعون أن يستجمعوا القدر الكافى من الصبر والتصميم ويبتدعوا موارد كافية من الفكر الأصيل والعمل البناء لى يحققوا فى النهاية هذه الوحدة والقوة . لقد فعلوا هذا منذ ثلاثة عشر قرناً خلت ؛ وفعلوه فى ظل صلاح الدين وبهبرس ؛ وبرغم جميع المعوقات والنقائص الحالية فهم من الغموض بحيث يستطيعون أن يفعلوه مرة ثانية .

الفهرست

صفحة

(١)

مقدمة المترجم

القسم الأول

عصر الفتوح

١٢	٢ — مقدم النبي
٤٧	٣ — بداية الإمبراطوريات

القسم الثالث

التفكك والانحلال

٦٨	٤ — فتح فارس ومصر
٨٥	٥ — الحرب الأهلية
١٠٠	٦ — الارهاب والفتح في الشرق
	٧ — ذروة الصيف وأوائل الخريف
١١٠	بالنسبة إلى الأمويين
١٣٤	٨ — الثورة العباسية
١٤٤	٩ — البعث الأموي في أسبانيا
١٥٢	١٠ — ألف ليلة وليلة
١٦٦	١١ — العصر العباسين الذهبي

١٨٧	١٢ — مصر تنفصل عن الخلافة
١٩٨	١٣ — الصيف الهندي للأمويين
	١٤ — الثورة الشيعية واضحة
٢١٥	الدولة العباسية

القسم الرابع

الحنة والنصر

٢٣٥	١٥ — الحرب الصليبية
٢٤٨	١٦ — انتصار صلاح الدين
٢٦٦	١٧ — المغول والماليك

القسم الخامس

انتفوق التركي

٢٨٣	١٨ — سبات العصور
٢٩٨	١٩ — مصر تستيقظ من جديد
٣١٣	٢٠ — اعتداءات أوربية

القسم السادس

ريج التغيير

٣٢٩	٢١ — ثورة المهدي
٣٤٩	٢٢ — الثورة في الجزائر

٣٦٧	٢٣	— الشيوخ والشباب من الأتراك
٣٧٩	٢٤	— الثورة العربية
٣٩٤	٢٥	— الغدر بالعرب
٤٠٩	٢٦	— ابن سعود سياسى الصحراء
٤٢٩	٢٧	— الأناسة فى فلسطين
٤٥٦	٢٨	— عصر نورى السعيد
٤٧٩	٢٩	— مصر وفرنسا
٥٠٣	٣٠	— مصر من كرومر إلى ناصر
٥٢٤	٣١	— الجمهوريات العربية المتحدة والمتفرقة
٥٤٠	٣٢	— الورطة العربية

